

جائزة غونكور
2001
جان كريستوف روفان
البرازيل
الحمراء
مكتبة
#906
ترجمة: د.حنان قصاب حسن

البرازيل الحمراء



البرازيل الحمراء - رواية	ROUGE BRÉSIL
تأليف: جان كريستوف روفان	Jean-Christophe Rufin

ترجمتها عن الفرنسية: د.حنان قصاب حسن

تصميم الغلاف: الناصري
ISBN: 9 - 60 - 540 - 9933 - 978
الطبعة الأولى: 2020

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/
هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963
جوال: 00971557195187
البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net
twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

جان كريستوف روفان

مكتبة | سُر مَن قرأ

البرازيل الحمراء

رواية

#906

ترجمتها عن الفرنسية:
د.حنان قصاب حسن



تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج أضواء على حقوق النشر لمعرض أبوظبي الدولي للكتاب دون تحمل المعرض أي مسؤولية عن محتوى الكتاب.

كان معي لفترةٍ طويلةٍ رجُلٌ، ظلَّ عشر سنواتٍ، أو اثنتي عشرة سنةً، في ذلك العالم الآخر الذي اكتُشفَ في قرننا هذا، في الموضع الذي استولى فيه فيلوغانيون على الأرض التي أطلق عليها لقب فرنسا الأنتاركتيكية.

مونتيني

دراسات، I، xxxi

I

أولادُ لأكلة لُحوم البشر

الفصل 1

- تصوّر للحظةٍ يا سيّدي ما يمكن أن يشعر به رجُلٌ يرى أمامه الماء الذي سوف يُسْلق فيه، وقد بدأ يغلي.

لفظ البحّار هذه الكلمات، وهو يُلقي على الجمْر نظرةً قاتمةً.

- «كاذب! أنت كاذب». صرخ الهنديُّ، وهو ينتصب.

- كيف؟ أنا كاذب؟ ألا تأكلون مَن على شاكلتكم؟ أم أنَّ ما تعترض عليه هو الوصفة يا لِصّ؟

تابع البحّار، وهو يتوجّه من جديدٍ إلى الضّابط:

صحيحٌ يا سيّدي أنّ البرازيليّين لا يتصرّفون كلّهم مثل أولئك الذين أسَروني، لكنَّ الواقع أنّ بعض هؤلاء السّادة «يُقدّدون» اللّحم؛ أيْ إنّهم يشوونه، أو إنْ كنت تفضّل فسيدخّنونه. هل تعترض على ذلك يا قذر؟

أمسك البحّار بالهنديّ من صدريّته، ورفعه بذراعه الضّعيفة التي جعلها السّكر ممتلئةً بالعزم، حتّى كاد أنفه اللّماع يلتصق بوجهه. دامت تلك المواجهة ثوانيَ عدّة، كان فيها كلّ واحدٍ منهما ينظر إلى الآخر بكراهيةٍ مميتةٍ، ثمّ أرخى البحّار -فجأةً- قبضته، وانفجر الاثنان بضحكةٍ عاليةٍ، وتصافحا بصخبٍ. دقّت السّاعة الثّامنة في واجهة كاتدرائيّة روان،

ما جعل عوارض سقف الحانة التي تقع مقابل البناء المحترم تهتزّ كلّها مع كلّ ضربةٍ من ضربات السّاعة.

ظهر الغمُّ على الضّابط ذي الجسد الطّويل النّحيل، والوجه بارز العظام. لمْ تكن مشاهد اللّقاء بعد غيابٍ تؤثر فيه؛ إذْ كانت لديه مهمّةٌ عليه القيام بها، وقد بدأ صبره ينفد. كانت سنة 1555 في منتصفها تقريباً، وفي حال مضى وقتٌ طويلٌ على انقضاء شهر حزيران/ يونيو، فلنْ تعود الرّياح ملائمةً للإبحار. ضرب المنضدة براحة يده، وقال بنبرة صوته الرّتيبة التي توتّرت بسبب ما تحمله من تهديدٍ مبطّنٍ:

– إنّنا نَعي تماماً حجم المخاطر التي ستحيق بنا في الشّواطئ التي سنرسو فيها، ومع ذلك، فإنَّ قرارنا نهائيٌّ: سوف نبحر بعد ثمانية أيّامٍ بهدف الوصول إلى البرازيل، وتأسيس فرنسا جديدةٍ فيها.

عدّل البحّار والهنديُّ من جلستهما على المقعدين الخاليين من المساند. كانت كلمة برازيل وحدها قد تركت في عيونهما بقايا من ضحكاتٍ وصورٍ لا يمكن وصفها، وظلّت ترسم على وجهيهما علامات سُخريةٍ ربّما كانت ضرباً من الخيال.

– «لمْ يعُد لدينا وقتٌ نضيّعه». أضاف الضّابط بجفافٍ، «أجيبا بلا، أو نعم: هل تقبلان كلاكما أن تنضمّا إلى حملتنا بصفتكما مُترجمين يتوسّطان بيننا وبين السّكّان الأصليّين؟».

حاول البحّار الذي أعجبه أن يكون مرغوباً أن يُطيل تلك المُتعة، وأنْ يتخابث، فقال بصوته المنتشي:

– يا سيّدي، لقد قلت لك إنّك تستطيع أنْ تجد المترجمين في الموقع. منذ ثلاثة أجيالٍ، ونحن –النّورمانديّين– نذهب إلى هناك بحثاً عن ذلك الخشب الأحمر الشّهير الذي يعطي لونه للوحات الشّقيقين غوبلان.

وقاحة البرتغاليّين هي وحدها التي تجعلهم يؤكّدون أنّهم هُم الذين اكتشفوا تلك البلاد، لكنّ الحقيقة هي أنّنا كنّا نتاجر فيها قبلهم بكثير.

ولمّا وجد أنّه ما من أحدٍ يقاطعه، ازداد حماسةً:

- لنْ يمضي عليك أكثر من يومين على تلك الشّواطئ، حتّى ترى عشرين رجُلاً شجاعاً من مواليد القُرى المحيطة جميعها يركضون في اتّجاهك، ويعرضون عليك أن يقوموا بالتّرجمة لك.

قال الضّابط، وهو يشعر بالإنهاك:

- هل عليّ أن أكرّر لك أنّ الفارس دو فيلغانيون الذي هو قائد حملتنا لا يريد المغامرة بأيّ شيءٍ؟ سنأخذ معنا كلّ ما هو ضروريٌّ لتأسيس كيانٍ جديدٍ. نريد أن يكون لدينا المترجمون الخاصّون بنا، ولا نريد الاعتماد على أحد.

كان اهتمام النُّزل بأكمله ينصبُّ على هذا الثّنائي المضحك الذي يتألّف من البحّار الضّئيل والهنديّ. كان البحّار أوّل من استجمع شجاعته، ربّما لأنّه كان معتاداً على التّغيّرات المفاجئة في حبل الشّراع المعد لمواجهة الرّيح:

- أعلنتَ لنا موعد الرّحيل يا سيّدي، وهذا أمرٌ جميلٌ، لكنْ كان من الأفضل عوضاً عن ذلك أنْ تُعْلِمنا بموعد العودة الذي تخطّط له.

- لن نعود أبداً. علينا أن نوطّن النّاس في مقاطعةٍ جديدةٍ تعود إلى الملك. أولئك الذين سيذهبون معنا سينهون أيّامهم في منطقة ما وراء المحيط. سنؤمّن لهم كلّ شيءٍ، وبوفرةٍ، لكنّ كلمة العودة ستكون بلا معنى بالنّسبة إليهم. سيكونون بكلّ بساطةٍ من فرنسا، وفرنسا ستكون هناك.

- «هل ذهبت إلى تلك البلاد من قبل؟». سأل البحّار، وقد ملأ الخُبث عينيه.

- «ليس بعد». أقرّ الضّابط، وقد ملأ نظرته بالتّحدّي، وأكمل: «لكنّني أعرف بلاداً أُخرى، هناك في الشّرق».

نهض البحّار، وقد علّق على هيكله العظميّ الضّيّق ما تركته له الحياة من لَحمٍ. اكتسب وجهه هيئةً جدّيّةً، وهو يُعلن:

- أنا أيضاً قد أبْحرت في جهة الشّرق. إنّها مزحة! نحن هناك كما لو كنّا في بلدنا؛ أمّا الأمريكيّتان فشيءٌ مختلفٌ. أربع مرّات قُمت بتلك الرّحلة الملعونة، ودائماً في اتّجاه هذه البرازيل التي تقول إنّك ستجعل منها فرنسا جديدةً. لقد اختبرتُ فيها كلّ شيءٍ: الحُمّى، وأكلة لُحوم البشر الذين استطعت الإفلات من قبضتهم بمعجزةٍ، والآن: هؤلاء الكلاب البرتغاليّين الذين يقطعون أيدينا وأرجلنا عندما يحجزون سفننا بمجرّد أنْ ترسو. من أين تعتقد أنّي اكتسبت تلك القوّة كلّها التي جعلتني أتحمّل ذلك كلّه؟

وبحركةٍ واسعةٍ من ذراعه التي أوصلت لحُسن الحظ كأسه إلى فمه، أزاح عن وجهه حُجّةً غير مرئيّةٍ.

- لا تحدّثني عن الثّروة: الذّهب، والببّغاوات، والأصبغة، كلّها تُسمّن ملّاكي سفننا الذين لا يتحرّكون من هنا؛ أمّا البحّارة العاديّون، فانظر إليهم، الحياة هي الثّروة الوحيدة التي بقيت لهم، وأيّة حياة. كلا يا سيّدي! الفكرة الوحيدة التي تمنحنا الشّجاعة لنجتاز ذلك العذاب كلّه.

وفي أثناء حديثه هذا، نظر خلسةً إلى الهنديّ، كما لو أنّ ذلك المسكين هو السّبب فيما تحمّله في الأمريكيتين كلّه: «الفكرة الوحيدة هي الأمل بالعودة إلى هنا...».

ووضع البحّار قبضتيه على الطّاولة، وقد صبّ قوّته كلّها في المقطع الأخير من خطبته المنمّقة.

- «يؤسفني للغاية أن أخيّب أملك». أضاف ليختم كلامه: «لكنْ يُستحسن أن تسمع جوابي القاطع مباشرةً: لن أذهب».

عضّ الضّابط على شفتيه. في ظروفٍ أُخرى، كان في إمكانه أن يوسع هذا الرّجُل العنيد ضرباً، لكنّه إنْ فعل ذلك، سيجعل الرّجال الأحرار كلّهم ضمن طاقم الإبحار يولّون الأدبار في اليوم التّالي مباشرةً. لمْ يبق أمامه سوى الهنديّ إذاً، ولقد فَهم هذا الأخير مع بعض التّأخير مقدار الغضب الذي سيتعرّض إليه من جرّاء هذا الرّفض المبدئيّ. كانت الأنظار كلّها قد اتّجهت نحوه.

على الرغم من الحرّ في نهاية الربيع هذه، كان الهنديّ قد احتفظ بأزرار سُترته جميعها مغلقةً بإحكامٍ، وصولاً إلى القبّة والأكمام. لمْ يكن هذا الاجراء الاحترازيّ بهدف الرّاحة، أو الرّغبة في الأناقة، إنّما كان وليدَ خوفٍ خفيٍّ ألّا يعرف إلى أيّ حدٍّ تسمح اللّياقة له بفكّ تلك الأزرار. فخلال الشّهور التي تَلت مجيئه إلى فرنسا، كان المسكين قد عُدَّ مذنباً؛ بسبب بعض الجرأة المشابِهة في هذا المجال، حين عرض على النّاس أجزاء جسمه الأكثر حميميّةً، راغباً بكلّ براءةٍ أن ينال مزيداً من الانتعاش، وقد سَخر منه الجميع كثيراً.

كان يمكن للقلوب الطّيّبة أن تجد له بعض الأعذار، فقد أَسَره أعداؤه بينما كان يقاتل في غابات البرازيل، ثمَّ أنقذه البحّارة الفرنسيّون، ومن بينهم ذلك الذي كان يجلس اليوم إلى جانبه. ورغبةً بتمجيد الملك هنري الثّاني الذي كان قد أعلن عن زيارته القريبة إلى مقاطعة نورماندي، قام تجّارٌ من هذه المقاطعة بإرساله إلى فرنسا برفقة ما يقارب خمسين شخصاً من أمثاله، وبمجرّد وصولهم إلى مدينة روان، طُلب إليه أن يرقص في حضرة الملك والملكة عارياً، لا تغطّي جسده سوى بضع ريشاتٍ كانت جزءاً من الزّيّ الذي أُسِرَ فيه، ولأنّه ظهر عارياً أمام مَلكٍ، لمْ يفهم بعدها لماذا أمروه أنْ يغطّي جسده أمام سائر الفرنسيّين العاديّين.

- «وبعد؟». سأل الضّابط بفظاظةٍ؛ ليقطع الصّمت الذي كان الهنديّ يبدّده بأنفاسه المتلاحقة المتردّدة.

كان المسكين فريسة صراعٍ فظيعٍ، فقد أعاد له ذِكْرُ البرازيل صورَ غاباتٍ، ورقصاتٍ، وحملات صيد. ألوان سماء أمريكا، وأوراق شجرها وطيورها، كانت تغسل روحه من رماد الحياة اليوميّة كلّه، الذي كان قد غلّف روحه. مع ذلك، كان قد وقع في غرام هذه المدينة منذ اليوم الأوّل الذي رقص فيه أمام الملوك تحت أمطار الرّبيع الحامضة التي كانت تختلط بحبّات عرقه بنوعٍ من المتعة. كان قد اعتقد أنّه سيموت حين أسروه. بعدها، شَعر بالنّهضة في فرنسا التي كانت تتباهى بتلك الكلمة الجميلة، وبعد أن أُعْتِقَ مع أبناء جلدته بناءً على أمرٍ من كاترين دو ميديسيس، راح يتسكّع في شوارع روان، وفيما بعد ظهر يومٍ من الأيّام، حين كان مستلقياً في ظلّ البرج الشّمالي، انتبهت إلى وجوده امرأةٌ نورمانديّةٌ متينة البنية، أبوها حلّاقٌ غنيٌّ؛ وقد فعلت ما بوسعها لكي يقبل أهلها استقبال الهنديّ، وتقديم الثّياب والطّعام له، وفي يومٍ من الأيّام زُوِّجا برفقة أربعة أزواجٍ آخرين تشكّلوا من النّموذج ذاته.

تبدّت في ذهن الهنديّ صورة زوجهِ النّاعمة الممتلئة بالصّحة بوجنتيها الحمراويْن، فمنحته ما يكفي من القوّة؛ لينحّي جانباً الفكرة المُغرية بأن يعود إلى غاباته.

- «لا». قال بكلّ بساطةٍ.

كانت كلمةً مقتضبةً، ولمْ تسمح له معرفته الضّعيفة باللّغة الفرنسيّة أن يقول أكثر من ذلك، لكنّ الحميّة التي وضعها في تلك الكلمة الواحدة، وهيئته المتوحّشة كانتا كفيلتين بتوضيح أنّه ما من شيءٍ يمكن أن يثنيه عن قراره.

أمّا الضّابط الذي أنهكته تلك الشّهور من التّحضيرات، فقد رأى كيف انتصب أمامه هذا العائق الأخير. كاد يناله اليأس، ويفقد شجاعته؛ والتّعبير الأمثل على ذلك كان وضعيّة جسده: ظهره المقوّس، وذراعاه المتدلّيتان، ورأسه المنحني.

انشغل النزل بأكمله بتلك المسألة. كان فيه عددٌ كبيرٌ من البحّارة الذين تابعوا الحديث بصمتٍ، ولقد نمّت النّقاشات بصوتٍ خفيضٍ عن الرّغبة التي كانت لدى كلّ واحدٍ بأنْ يعطي رأيه في ذلك الموضوع. فجأةً، من طاولةٍ تقع بالقُرب من نهاية الصّالة في الزّاوية الأكثر عتمةً وبروداً، قطع رجُلٌ يجلس وحيداً من دون أن ينتبه إليه أحدٌ ضجيجَ الهَمسات الخافت، حين أتى ليتلفّظ وسْط الجموع بأربع كلماتٍ سيكون لها وقْع الحَسم في كلّ شيءٍ.

- قُم بأخذ الأطفال إذاً.

أنْزل الضّابط ذراعيه عن وِرْكه؛ لكي يرى ذلك الذي تلفّظ في الحال بتلك الكلمات وراءه، كذلك استدارت الكراسي مُصْدرةً صريراً على بلاط الأرضيّة. حاول الجميع أن يميّزوا في العتمة قَسمات ذلك الذي لفظ تلك الجملة. قام هذا الأخير بجرِّ شمعةٍ كانت على طاولته، ووضعها أمامه؛ لتكشف عن وجهه بشكلٍ أفضل. كان رجُلاً قصيرَ القامة، مقوّسَ الظّهر، شُعيرات رأسه الرّماديّة معدودة، وقد غطّت خصلها الهزيلة قُلنْسوةً من القماش المبطّن. كان شاربه القصير الذي لمْ يكن أكثر كثافةً من شَعره يتقوّس فوق أطراف شفته النّحيلة، فيحدّدها، ويعطي نوعاً من المبالغة للابتسامة القصيرة التي ارتفعت من الطّرفين لتتشكّل على فمه. كان ينتظر بلُطفٍ مُفتعلٍ، ومن دون حراكٍ، أن يناقش الحضور فكرته بعد أنْ أشبع شخصه المسالم مخيّلتهم.

- «الأطفال أيُّها السّيّد؟ ماذا تعني بذلك؟». استفهم الضّابط بصوته الواثق كمن يتحدّث إلى شبحٍ، محاولاً أن يقنع نفسه بوجود هذا الشّبح.

هزّ الدّخيلُ رأسه بحركةٍ صغيرةٍ مُحَيّياً؛ ليدلّ على أنّه يعرف كيف يبدو مُحترماً.

- يا سيّدي، كلّنا يعرف أنّ الطّفل لديه موهبة تعلُّم اللّغات. إنْ وضعتَ رجُلاً راشداً في أرضٍ غريبةٍ، قد تلزمه سنواتٌ عشْرٌ كي يستطيع أن يستعمل بعض الكلمات البسيطة؛ في حين أنّ الطّفل يمكنه في بضعة أسابيع أن يتكلّم بسهولةٍ، وبلَكْنةٍ صحيحةٍ.

هذا التّعليق الأخير جعل الجميع يدركون أنّ الغريب نفسه كانت لديه لكنةٌ غريبةٌ، وعلى الرغم من أنّه كان يتكلّم الفرنسيّة بطلاقةٍ، فإنّ مَلمحاً جنوبيّاً جعله يبدو مُحبّباً ومشبوهاً في آنٍ. لمْ يكن بالإمكان أن يخمّن أحدٌ أصْله: هل كانت لكنتهُ لكنةَ شخصٍ من الجنوب أم صفةً حقيقيّةً تكشف عمّا يمكن أن تجده لدى إيطاليٍّ متعلّمٍ من كمالٍ شبْه مُطلقٍ؟

- وهل يمكن أن نعرف، أيّها السّيّد، من أين أتيت بتلك القناعة الأكيدة؟

- أظنُّ أنّ ذلك هو الشّيء المعقول البدهيّ، وذلك كلّه لا علاقة له بشخصي أنا، وطالما أنّك شرّفتني بأنْ تسأل من أنا، أقول لك إنّ اسمي هو بارتولوميو كادوريم، وإنّني من جمهوريّة فينيسيا.

هناك بعض التّوضيحات تزيد الأمر غموضاً؛ فوجود هذا الفينيسيّ ذي الملامح الكنسيّة في هذا الوقت، وفي هذا المرفأ، كان يوحي بالجاسوسيّة، لكنّ الرّجُل كان يبدو مستمتعاً من دون أن تؤثّر فيه هَمسات الحضور، وعدوانيّتهم المكتومة.

- «كابتن لوتوريه، من فرسان مالطة». أوْضَح الضّابطُ بدوره، وأضاف: «أعمل تحت إمْرة الفارس دو فيلوغانيون، نائبِ أميرال مقاطعةٍ بروتانيةٍ».

نهض الفينيسيّ قليلاً؛ لكي يؤدّي من خلف طاولته نوعاً من الانحناء من دون أن تفارقه البسمة الحاذقة التي جعلت الموجودين كلّهم يشعرون بعدم الرّاحة، ثمّ تابع بلهجةٍ عاديّةٍ:

- لدينا تجربةٌ كبيرةٌ في مجال التّرجمة؛ لأنّ جمهوريّة فينيسيا لديها منذ فترةٍ طويلةٍ علاقاتٌ تجاريّةٌ مع مختلف أطراف العالم. قوافلنا التي حملت أطفالاً نحو الشّرق جعلت منهم أفضل ما يمكن أن تحصل عليه من مترجمين مع الصّين، أو مع المشرق، لا بلْ إنّ الإسبان أيضاً يفعلون الشّيء ذاته، ففي المكسيك مثلاً: حين لمْ يكن لديهم كي يتفاهموا مع سكّان الأزتيك سوى تلك المرأة من السُّكّان الأصليّين التي يطلقون عليها اسم مالينش، استطاعوا بوساطة الأطفال أن يشكّلوا مخزوناً واسعاً من المترجمين في المجالات جميعها.

- «وفي أيّ عُمرٍ حسْب رأيك يجب أن يُرسَلَ هؤلاء التّلاميذ الصّغار؟». سأل لوتوريه الذي كان الرّجُل قد بدأ يُثير اهتمامه.

- خمسُ أو ستُّ سنواتٍ عُمرٌ ممتاز.

- «مستحيل!». أجاب الضّابط مستنكراً: «إنّ السّيّد فيلوغانيون قدْ أعطى أوامر صارمةً بألّا نأخذ أيّة امرأةٍ على ظهر سفننا، وفي هذا العُمر الذي تتحدّث عنه، يحتاج الأطفال، على ما أظنّ؛ إلى أمٍّ، أو مُربّيةٍ».

- «يمكن أن يكونوا أكبر بقليل». أضاف الفينيسيّ.

في الواقع، يبدو أنّ مَلكة اللّغات لا تزول عنهم إلّا عندما تكتمل أجسادهم.

كان يتحضّر لتعليقٍ جديدٍ حول هذا التّوافق الغريب بين أعضاء الجسم وبين الفَهم، لكنّه عدَل عن رأيه عندما رأى احمرار وجه الجنديّ.

- «ولا بُدّ أيضاً من أن تبحث عمّن يكونون في وضعٍ يسمح لهُم بالرّحيل، من دون أن يكونوا سيّئين للغاية». قال لو توريه ساهماً.

لمْ يكن انتقاء مستوطني المستعمرة الجديدة قد حصل من دون عناءٍ؛ إذْ لمْ يُعثَرْ على متطوّعين، حتّى مع التّأكيد على أنّهم سينالون أرضاً تبقى لهم مدى الحياة. كانت الشّائعات الفظيعة التي تسري عن المتوحّشين من أَكلة لُحوم البشر تملأ حتّى أكثر النّاس شجاعةً بالخوف عوضاً عن الأمل. كان هؤلاء الجَهَلة يفضّلون أشكال الموت المحتّم كافةً، الذي كان الفقر يحكم عليهم به، على الاحتمال الممكن بأن يُلتهموا من قِبَل أمثالهم، وها هو الآن يجد نفسه مضطرّاً إلى البحث عن أطفالٍ، مع ذلك ما من أحدٍ يستطيع الشّكّ في أنّها بالفعل الفكرةُ الأفضل، وأنّ فيلوغانيون عندما سيسمعها سوف يتبنّاها على الفور.

- «ما يقولونه صحيحٌ إذاً». أضاف الفينيسيّ مجبراً نفسه على التّحدُّث بلهجةٍ طبيعيّةٍ: «سوف ترحلون إلى ريو، وأنتم تعتزمون أن تبيضوا هذه البيضة في عشّ البرتغاليين؟ مع أنّ البابا نفسه قد اعترف على ما يبدو بأنّهم السُّلطة الوحيدة في البرازيل».

- لا يعنينا إنْ كان أحد البابوات إسبانيّاً، فقسّم العالم الجديد بين سكّان الجزيرة الإيبيريّة.

أجاب الضّابط وهو يعرك عينيه لكثرة ما أتعبه أنْ يكرّر منذ شهرين الّلازمة نفسها: «ما من أحدٍ أطْلعنا على وصيّة آدمَ التي حرّم بموجبها فرنسا من الاستمتاع بالأمريكيّتين».

- «أحسنت القول». صرخ البحّار وهو يرفع كأسه.

لمْ يكن الحاضرون من شاربي الكؤوس ينتظرون سوى إشارةٍ كهذه؛ لكي يُطلقوا العنان لمزاجهم الحَسَن الذي كانت هيئة الضّابط الجامدة قد بَدّدته، لكنّه سرعان ما وضع حدّاً للضّحكات حين رفع يده بارزة العظام، التي ينقصها إصبعٌ كانت قد قطعته في الماضي بندقيّةٌ ناريّةٌ.

في أثناء تفحُّصه لوجه التّاجر بحذرٍ، بَدا عليه فجأةً أنّه تذكّر أنّه يتعامل مع غريب.

– من غير المُجدي أن تسألني أكثر من ذلك، فالملك لا يرغب بإذاعة ذلك الأمر الذي لا يعني سوى فرنسا.

دقّت السّاعة تسع مرّاتٍ جاعلةً الكؤوس ترتجف فوق الطّاولات، فوضعت بذلك حدّاً مناسباً لهذه المحادثة التي تخلو من الكتمان. دفع الفينيسيُّ ثمن صَحن الحساء الذي شربه، وانسحب بخطواتٍ واضحةٍ، وابتسامةٍ غريبةٍ، وهو يرجو للضّابط سفرةً سعيدةً. كان البحّار قد نام، وذهب الهنديُّ ليلاقي زوجته؛ أمّا لوتوريه، فقد ارتجف، وهو يخرج إلى السّاحة الكبيرة تحت المطر النّاعم الذي بدأ يهطل. كان يَأمل أن ينال قِسطاً من الرّاحة خلال هذا الأسبوع القصير، الذي يفصله عن ساعة الرّحيل الكبير، وها هو عوضاً عن ذلك يجد نفسه مُلزماً بأنْ يدور بين مراكز الأيتام بحثاً عن غايته.

الفصل 2

كان هناك خطٌّ لا ينتهي من الصّفصاف المزروع مثل صفٍّ من الجنود المدجّجين بالرّماح، يمنع بصعوبةٍ كبيرةٍ انزلاق المروج بمرحٍ نحو الجُرف؛ أمّا البحر الذي كان يقبع عند أقدامهم، فلمْ يكن يمكن الإحساس بوجوده إلّا عبر الضّجّة المبهمة لتكسُّر أمواجٍ غير مرئيّةٍ. كانت الرّياح البحريّة التي هبّت متأخّرةً تفتق السُّحب الضّخمةَ، وتترك فُسحةً لرؤية شمسٍ بيضاء ما كانت قادرةً على تجفيف العشب.

على خُضرة المرج، كان الحصان الأصْهب، الذي يكاد لا يتحرّك؛ يرعى العُشب بهدوءٍ، ومن وقتٍ إلى آخر كان يضرب بذيله ضرباتٍ قويّةً تطرد الذُّباب الذي كان يحرّك هذا الصَّحو غير المتناهي الذي جاء بعد رطوبة العواصف.

– «انظري، إنّه هو». قال جوست هامساً.

– «كيف تعرف ذلك؟». سألته بخشية الفتاة المستلقية إلى جانبه.

– «مُحَجّل الثلاث[I]، حصان الملك». أجابها بصبرٍ نافذٍ.

(I) التحجيل هو بياض في قوائم الفرس على شكل خلخال. فإذا كانت قوائم الفرس الأربع بيضاء سميت محجل الأربع، وإن كانت قوائم الفرس الثلاث بيضاء سميت محجل الثلاث. (المترجم).

- «مُحَجّل الثلاث؟». استجمعت شجاعتها وسألته من جديدٍ.

- «نعم». أجاب أخوها بصبرٍ نافذٍ: «هذه الجزمة البيضاء فوق الحوافر، لديه ثلاثةٌ منها. إنّه حصانٌ مَلَكيٌّ».

- توقّف عن لعب دور العالِم، ولا تعاملني كطفلةٍ؛ لأنّك التقطتَ كلمةً ما من تسكّعك مع العمّال.

- اخفضي صوتكِ يا كولومب! ستجعلينه يلْحظ وجودنا هكذا.

لكنّ الحصان استمرّ برَعي العشب من دون أنْ يبدو عليه أنّه سمعهم.

- «على كلّ حال»، قالت الفتاة متذمّرةً: «مُحجّل الثّلاث أم لا، ليس من الصّعب التّعرُّف إلى مطيّة السّيّد دو غريف».

فقد جوست صبره عندما سمع الاسم المقيت لذلك الجار الغنيّ الذي دخلا إلى أرضه خِفيةً.

- لا تتحدّثي عنه، هل هذا ممكن؟

استمرّ في النّظر إلى الحصان برغبةٍ.

- «أنت مُحقٌّ». قالت كولومب: «لنقل إنّه.. غرانغاليه، مارأيك؟».

- «غرانغاليه، حصان السير غوفان». قال جوست، وهو يضحك.

بقيا مستلقيين على الأرض ساهمين بلا حراكٍ، على العُشب المبلول الذي كان يبلّل بطنيهما، وعلى الأطراف المدبّبة لنبتة الّلحلاح التي كانت تتسرّب من قمصانهما الخشنة؛ لتلصق فقاقيعها المؤذية بجلدهما.

انتصب الحصان، وشمّ ما وصل إلى خياشيمه من هواءٍ مملّحٍ ناتجٍ عن طبخ سلطعونٍ، أو عن تفسُّخ عصفورٍ ميتٍ، وللحظةٍ، بدا عليه أنّه يستمع إلى تدحرج الحصى من بعيد.

- «من المؤكّد أنّ سيّده اعتاد أن يهمس في أذنه». قالت كولومب: «إنّه يصغي».

غوفان، الفارسُ الذي يمتطي الحصان من دون سَرجٍ، التّائهُ الأبديّ، وابنُ شقيق الملك آرثر، والمنتصر، والفاتن، وبطلُ قراءاتهما عن فرسان المائدة المستديرة خلال أيّام النّورمانديّ الطّويلة هذه، عندما جاء ذِكْرهُ اكتسبت عينا الصّبيّ السّوداوان التماعاً شديداً، وقام على الرغم من بقائه مستلقياً بما يشبه قفزةً غير مرئيّةٍ إلى الأمام.

- «هيّا، اذهب الآن». شجّعته كولومب.

بدا على جوست كأنّه استيقظ من حُلمه، فنظر إليها، وتأكّد من إمساكه بالحبل في يده اليمنى، ومن دون أن يقول أيّة كلمةٍ، رفع ظهره، وانتصب ببطءٍ.

- هيّا، تخيّل أنّك بيل هاردي، وأنّني سيّدة قلبك. افعل ذلك من أجلي.

قالت ذلك بصوتٍ عالٍ، وبسُلطةٍ جعلت الصّبيّ يعتقد لوهلةٍ أنّ الحصان قد سمعهما، وأنّه قد يهرب. شَعرَ بخطر ذلك، وتوقّف عن التّردُّد، وانطلق.

كان الشّابّان المترقّبان ماهرين في الرّكض داخل الجُحور، ولذلك توضّعا في ظلّ الحيوان؛ كي لا يشعر بالخطر. كان عليهما من أجل الاقتراب منه أن يستفيدا من وقْع المفاجأة، لكنْ من دون أن يجعلاه يجْفل. ما إنْ وقف جوست حتّى اقترب من الحصان ببطءٍ وتصميمٍ. كان يحمل الحبل الذي خبّأه خلف ظهره. تقبّل الحيوان أنْ يُقترَب منه من دون أن يُرخي أذنيه، ومن دون أن تتّسع حَدقتا عينيه، وعندما صار الحصان في مرمى يده، مدَّ جوست راحته بسلامٍ نحو المطيّة التي كان بخار المطر ما زال يتصاعد منها، وراح يداعبها بقوّةٍ. وصل إلى مستوى كتف الحصان الذي كان جذعه عالياً. اقترب، وأحاط الرّقبة بذراعيه.

شَعر جوست بتعاطفٍ حقيقيٍّ مع هذا الحيوان، ليس فقط لأنّه ربّما كان

غرانغاليه، حصان غوفان، إنّما لأنّه كان يبدو له أليفاً بعفرته الدّاكنة الموشّاة بلون النّار، التي كانت تشبه عفرة شَعره الأشعث. بعد أنْ تأكّد من إحْكام الحلْقة حول الرّقبة، حمل أحدَ طرفيّ الحبل نحو الحافّة المشطوبة، وأنْهى -بلا استعجالٍ- ربْطَ ذلك اللّجام البسيط على طرف الفَم. لمْ تصدر عن الحصان أيّة حركةٍ تنمُّ عن نفاد الصّبر، وعندما أمسك بطرف الحبل الآخر، ومدّه مثل رَسنٍ قصيرٍ، شَعر الصّبيُّ بمتعة الإحساس بتضامُن الحيوان مع حركاته. بدأ عندها بالمشي، فرسمت ظلالهما البنّيّة على المرج حركةً دائريّةً واسعةً. كان البحر يرسم خطّاً رفيعاً في الأفُق يفصل بين خُضرة الأرض والسّماء السّوداء، حيث كانت تتجمّع الذّرّات من جديدٍ. قام جوست مرّةً ثانيةً بتغيير مسار الحيوان؛ كَيْ لا يكون في مواجهة التماع الشّمس الخطير الذي كان يعكسه العُشب المبلول، ثمّ بقفزةٍ واحدةٍ، أمسك بعفرة الحصان مستنداً بإحدى يديه إلى ساقه، وانتصب على ظهره. غمزه بعقب قدميه، فاستجاب الحيوان مُطيعاً سيّده الجديد. صرخ جوست:

- كولومب، تستطيعين المجيء.

كان جوست يجلس منتصباً تماماً، لكنّ شعور الفخر كان يختلط لديه بشيءٍ من الخَشية، فقد كان معتاداً ركوب الأحصنة العاديّة الهزيلة في المزرعة فقط. جَهِدَ لأنْ يرسم على وجهه النّحيل علامات لا مبالاةٍ على الرغم من وجود ضحكةٍ في عينيه؛ كما أنّ ارتجاف شفاهه أظهر الجهْد الملحوظ الذي قام به كي لا يعبّر عن فرحه بصوتٍ عالٍ. كان بالكاد يمسك الأعنّة البسيطة بطرف يديه الطّويلتين. بدا التّناوب الخفيُّ بين رغبته هو وبين قوّة الحصان بلا أهمّيّةٍ لكثرة ما كانت هناك أناقةٌ متناغمةٌ وطبيعيّةٌ بين متناقضين، هُما: الحيوان الضّخم، والفارس الذي لمْ يتجاوز الخامسة عشرة من عمره.

ركضت كولومب من دون أن تهتمّ بثوبها الذي التصق بفعل الماء، وقد شعّت السّعادة منها بفعل ذلك الانتصار.

- «أحسنت!». صرختْ: «الآن دعْني أركب».

- تركبين؟ لا. أنتِ سيّدةٌ، والسّيّدات لا يركبْن الأحْصنة.

- توقّف عن هذا الإزعاج يا جوست. إنّه ليس مطيّةً عاديّةً، إنّما حصانُ السّيّد غريف. هيّا، شُدَّني من ذراعي.

كان شَعر كولومب الأشقر الذي صار داكناً وسبلاً بفعل المطر قد التصق على طول وجهها، لكنّ أهدابها ظلّت شاحبةً، على الرغم من أنّها كانت مضمّخةً هي الأُخرى. كانت تلك الأهداب تحيط عينيها بأقواسٍ ذهبيّةٍ، وكانت تضفي على نظرتها سُخريةً وغموضاً. كانت قد تعلّمت منذ وقتٍ مبكّرٍ أن تستعمل عينيها لقدرتهما على إثارة الفضول والاضطراب. وعندما كانت تركّزهما على أحدٍ ما، كما كانت تفعل في الحال على جوست، فإنّ ذلك كان بقصد أن تكسر آخر إمكانات مقاومته.

- «حسناً». رضخ جوست: «تعلّقي بذراعي».

أمسكت كولومب به من ثنية كوعه، وساعدها على الرُّكوب، وعلى أنّها كانت أصغر عمراً منه بسنتين، وضئيلةً، ونحيلةً، إلّا أنّها كانت في طوله تقريباً.

اعتدلت فوق مؤخّرة الحصان بخفّةٍ، وامتطته برشاقةٍ، ثمَّ أحاطت من دون تكلُّف خصر جوست بذراعيها العاريتين.

- «بيل هاردي». همست في أذنه: «إن كان غرانغاليه فعلاً، فإنّه يستطيع حتماً أنْ يحملنا إلى بلدانٍ رائعةٍ».

لكنّ جوست ضغط بساقيه على بطن الحصان بحذرٍ، وجعل الحصان يتقدّم خطوةً خطوةً. كان قلقاً؛ لأنّه شعر بأنّ الحيوان فقد الثّقة التي أعطاها

له في البداية، ومع أنّ جوست كان يبدو دائماً بعيداً عن الواقع، مُثقلاً بالأحلام، وشبه غافلٍ، إلّا أنّه كان يتفاعل بشدّةٍ مع الحيوانات، والنّباتات، والكائنات الخرساء كلّها التي تتكوّن الطّبيعة منها. كان يشعر بأنّ الحصان يرتجف من قلقٍ مُبهمٍ، ربّما بسبب صرخات كولومب؛ أمّا هي فكانت نظراتها لا تتوقّف عن الحركة، وفي استطاعتها فهم الإشارات البشريّة كلّها، حتّى تلوّنات الرّوح التي لا يشعر بها أحدٌ، وكانت على العكس تبدي عدم اكتراثٍ واضحٍ بالكائنات، أو الأشياء التي لا روح لها، ولذلك استمرّت بالضّحك والصُّراخ بصوتها الرّفيع.

- لنذهب إلى السّياج. اجعله يخرج إلى الطّريق.

كان جوست يشاركها الرّغبة في أنْ يقود المطيّة إلى أبعد ما يمكن، لكنّ الخوف كان يجتاحه، وعندما وصلا إلى مدخل المرْج، قامت كولومب المتلهّفة بدفع الغصن المشذّب الذي يستعمل كبابٍ بقدمها، فانتفض الحصان بشدّةٍ حتّى كاد يرميهما عن ظهره.

- اهدئي يا كولومب.

دخل الحصان من تلقاء نفسه في الطّريق التي كانت تؤدّي إلى الغابة الصّغيرة. صارا وسط أشجار الزّان الوديعة التي كانت أغصانها مرتفعةً عالياً جدّاً إلى درجةٍ جعلت الضّوء يتخلّل الأجمات، فما عادت توحي بالخطر. بدا على الحصان أنّه قد هدأ. كان الطّريق يمتدُّ صعوداً، وفي نهاية الغابة، وصلا إلى تلّةٍ تطلّ على الوادي والحقول المحيطة به، وفي فجوةٍ بعيدةٍ ميّزا قصر السّيّد غريف الجديد الذي كان ما يزال مغطّى بقطعٍ مدبّبةٍ من الخشب. كان العمّال المكلّفون بالإكساء يضعون اللّمسات الأخيرة على سقف الأبراج المدبّب، وعلى الدّرج الكبير.

- «دعينا لا نبقى هنا. يمكن لرجاله أن يرونا». قال جوست لكي يُسوّغ

لَكْزه للحصان، وربّما لكي يخفي عن أخته الانفعال الذي كان يشعر به دائماً عند رؤية هذا القصر قيد التّشييد.

كلّ ما كانوا يحبّونه في إيطاليا، النّوافذ الكبيرة المفتوحة على الضّوء، صفّ الأعمدة الملتوية في الشُّرفات، الواجهات المزيّنة بالطّريقة القديمة، حصل غريف اللعين عليها كلّها كهبةٍ دسمةٍ. كان المستشار دو غريف حاكماً وتاجراً، وفوق ذلك كلّه مُرابياً لا يعرف من إيطاليا إلّا ما يستطيع أن يبيعه لها، في حين أنّهما، هُما اللّذان تربّيا منذ طفولتهما المبكّرة في أرض الفنون تلك، وبرعايةٍ رائعةٍ من أبٍ كان قد كرّس حياته للسّلاح والغزوات؛ لمْ يتسنَّ لهما إلّا أن يعيشا في ثكنةٍ إقطاعيّةٍ.

هذه الأفكار جعلتهما يشعران بالتّعاسة، وبينما كانا يتابعان السّير في ذلك الطّريق نفسه، ظلّا صامتين، وفجأةً في الأعالي، كشفت لهما الطّريق كلامورغان، المزرعة التي كانا يعيشان فيها.

في الماضي كان القصر شهيراً للغاية، وكانت فيه أسوارٌ، وأبراجٌ، وجسورٌ متحرّكةٌ، لكنْ مع الأسف، فعندما يقترب الإنسان منه يرى أنّ الأخاديد لمْ يعد فيها ماءٌ، وأنّ الجسر لمْ يعد صالحاً للرّفع؛ أمّا البرج، فقد سلّم مصيره لطاقةٍ عملاقةٍ من شجر اللّبلاب كانت تخنقه، وفي الوقت ذاته تمنعه من أنْ يتداعى.

من بعيد، كانت كلامورغان ما تزال تحتفظ بمظهرها الجميل، وكان جوست وكولومب يفضّلان أن يرياها هكذا، لكنّ أراضي تلك المزرعة الواسعة كانت شبه مهملةٍ، على العكس من الأراضي التي يملكها غريف، التي كانت محطّ عناية المزارعين المستثمرين.

– «أسرِعْ، انطلق بأسرع ما يمكنك، يا بيل هاردي». صرخت كولومب التي أثار مرأى الحصن في ذهنها روعة استعراض الفروسيّة الصّاخب هذا.

لكنّ جوست لمْ يكن يريد أن يضغط على الحصان. كانت السّماء قد أغلقت آخر كُوّةٍ تبدو منها أشعّة الشّمس. أظلمت السّماء، وبرد الطّقس فجأةً. خفض الحصان رأسه، ثمّ رفعه فجأةً، وقد خشي مجيء العاصفة.

- «تعالي نعيده». قال الصّبيُّ، وهو يدير الحصان نصف دورةٍ.

- «لا». صرخت كولومب: «هذه المرّة الوحيدة التي وجدنا فيها ما يسلّينا».

كان ما يجعلها تُجنُّ على نحوٍ خاصٍّ هو فكرة ألّا تُنفّذ رغبتها، لكنّ جوست كان يدير لها ظهره، ولمْ تعد لديها القُدرة على استعمال سُلطة نظرتها عليه، فبدأت تضرب بيديها ضرباتٍ سريعةً على أكتافه، لكنّ قبضاتها الدّقيقة كانت تقفز منزلقةً على هيكل الصّبيّ المتين، في حين استمرّ هو في قيادة الحصان بهدوءٍ على طريق العودة. كادت كولومب تبكي، لكنّها انتبهت فجأةً إلى غصن صفصافٍ يتدلّى فوق الطّريق. عندما حاذته، التقطته وقامت بكسره من دون أيّة ضجّةٍ، وبعد أن نزعت الأوراق عنه، جعلت منه سوطاً ملائماً تماماً، عندها استجمعت قوّتها، وهي تمسك العصا بيدٍ، وقميص جوست باليد الأُخرى، وضربت قفا الحصان ضربةً قويّةً. الخوف لا الألم هو الذي جعل الحصان يعدو. تمسّك جوست بعفرة الحصان بكلتا يديه، ونجح في ألّا يقع، لكنّ اللّجام أفلت من يده، وبدأ يضرب وجْنات الحصان، ما زاد من رُعبه، ومن إيقاع جَرْيِه.

هَبطا بهذه الطّريقة نحو القصر، ولأنّ الطّريق كان ينحدر في اتّجاه البحر من جديدٍ، ابتعدا عنه، وتوجّها نحو قطعة أرضٍ بورٍ كانت تحفُّ بحائطٍ. لمْ يكن بوسع جوست أن يفعل أيّ شيءٍ، ولذلك ركّز على ما تركه الخوف لديه من وعي باحثاً عن طريقةٍ تمنعهما من السُّقوط. كان الطّريق سيصل بعد ذلك إلى ساقيةٍ، ويجتازها، فقال جوست لنفسه إنّه

يجب أن يُرخي العنان قبْل السّاقية تماماً، وأنْ يخفّف من قوّة السُّقوط في مجرى الماء الموحل. لكنّ الحصان لمْ يترك له إمكانيّة أن ينتظر حتّى ذلك المكان، فعندما مرّ بالقُرب من نافورةٍ كانت أمامها سطيحةٌ ممتدّةٌ، انعطف قليلاً ورمى بفارسيه على الأرض. تدحرج الصّبيُّ على منحدرٍ من العشب السّميك، ولمْ يُصب بشيءٍ؛ أمّا كولومب التي كان وزنها أخفّ، فقد وصلت إلى الحافّة، واصطدمت بها عند الصّدغ. ظلّت مستلقيةً على ظهرها، وقد بدأ الدّم يسيل قليلاً من أعلى وجهها. عندما وصل جوست قُربها، وجدها قد فقدت الوَعي.

أمسك برأسها برفقٍ، وتكلّم معها، وقبّلها، وهَدهدها، ومع مرور الوقت، لمْ يكن يسمع من بعيدٍ سوى الخَبَب المجنون للحصان الذي انطلق بسرعةٍ، ومن مكانٍ أقرب، صوت نافورة المياه الذي كان يصمُّ الآذان في ذلك الصّمت. عندها، كان على جوست، ذلك الوريث النّبيل لسلالة كلامورغان، أو جوست فقط، ذلك الذي كانت أخته الصّغيرة قد قامت بما يقوم به بيل هاردي، كان عليه أن يتمالك أعصابه، لكنّ كولومب لم تستيقظ. صرخ صرخةً عاليةً، صرخةً متحشرجةً، وقد مزّقته تحوّلات طفولةٍ ما زالت قريبةً. استمع إلى دقّات قلبها، فوجدها تنبض. كانت على قيد الحياة. حملها بين ذراعيه، ولمْ يكن لديه ما يكفي من الوقت ليفكّر في أنّها كانت خفيفةً ومبلّلةً، وأنّها قد فقدت إحدى فردتَيْ حذائها، ثمّ انطلق يركض، وعيناه المضمّختان بالدّموع مثبتةٌ على حمله الذي كان ما يزال فاقد الوعي.

- «يا حبيبتي. يا حبيبتي». كان يتأوّه وهو يبكي، «لا تموتي، لا تموتي أبداً. سأظلُّ دائماً بقُربك».

الفصل 3

كانت فرنسا في تلك السّنوات قدْ أعلنت الحرب من دون أن تعيشها، فمنذ أنْ انتهى القرن السّابق، وتبدّدت أحلام شارل الثّامن في الشّرق، اختارت فرنسا إيطاليا حقلاً مغلقاً مخصّصاً لضُبّاطها. كانوا يعودون منها ممتلئين بالمجد، وإنْ كانوا مهزومين. كانوا يجدون متعةً في فتح ممالك يفقدونها بعد ذلك، وعقْد تحالفاتٍ تبدو مصمّمةً لكي تُخْرَق، مع خلْط الأوراق الرّئيسة في هذه اللّعبة التي بلا قواعدَ، بما فيها من ملوكٍ، وبناتٍ، وشبابٍ فُرسانٍ. هذا السّباق الأنيق الذي شارك فيه باباواتٌ مُدجّجون بالسّلاح، وأمراء مهووسون بالفنّ، وفاتحون ذهبت بعقولهم المؤامرات، كان ذو ميزةٍ كبيرةٍ بالنّسبة إلى ملكة فرنسا؛ فقد تركها في حالة سِلْمٍ، وجعل جيوشها تنشغل بعيداً عنها. لمْ يعكّر صَفْو الاستقرار الذي عاد بعد نهاية حرب المئة عام، ولا حتّى تلك الهزيمة النّكراء في بافيا. كانت المستودعات تفيض بالمحاصيل، والبلاد كلّها تعرف الوفرة في الأقمشة، والنّبيذ، والتّوابل، وإتقان المصنوعات اليدويّة. كان الملوك المتجوّلون يذهبون للقاء رعاياهم ومخدوميهم، وطبقة النّبلاء تعيش من رَيع أراضيها، وتُسهِم في وفرة إنتاجها، وفي كلّ مكانٍ كان هناك قصورٌ تحمل مَسحة العصر القديم، وألوان إيطاليا.

كان دون غونزاغ يفكّر في سِرّه بهذه الأشياء، وهو يسرح ببصره عبر كُوّة الدّير المربّعة. كان مطر مقاطعة النّورماندي النّاعم يهطل بصمتٍ على المرج الممتلئ بالعُشب الذي تؤلم خُضرته العينَ. هذا السّلام كلّه الذي يشعُّ من الثّيران السّمينة، والمعزات، والبقرات التي استطالت أضْرعها، ومن أشجار التّفّاح التي تغطّيها عناقيدُ سميكةٌ من الزّهور التي أنْهكتها الأمطار، التي تبشّر بمحاصيل أشبه بالمعجزة. هذا كلّه كان يثقل قلب الجنديّ القديم خلال عشرين سنةً، ومنذ ارتدى صليب مالطة، وتبع الفارس دو فيلوغانيون، لَمْ يكن في حياته سوى السّيف، والبطن الخاوي، والمشي الإجباريّ. قاتل الأتراك أمام مدينة الجزائر، ثمّ في هنغاريا، وهَزَمَ -بشرفٍ، لكنْ بلا فائدةٍ- جنودَ الإمبراطور في ميلانية، والإنجليز في بولونية، ثمّ خسر في طرابلس، وفي حين كان يتألّم من المعارك، ويحتمل النّيران، والهوام، والطّعام السّيّئ، ها هو ذلك المرج يمتدّ أمامه، ويبدو كأنّه لَمْ يعرف أيّة راحةٍ في اخضراره.

وحين يفكّر أنّه كان يمكن له عوضاً عن ذلك كلّه أنْ يقضي حياةً مسالمةً في قصره في آنبيه، وعلى الرغم من آنّه كان الأصغر سنّاً، إلّا أنّ إخْوته كانوا مستعدّين للتّنازل له عن قطعة أرضٍ، وكان بمقدوره أنْ يعيش فيها سعيداً؛ هذا النّوع من الأفكار كان يعذّبه كلّ يومٍ تقريباً، منذ أن وصل إلى هذه المناطق الماطرة. لحُسن الحظّ، انتزعته من هذه الأفكار التي شرد فيها ندبتان نالهما من بندقيّةٍ، تقع واحدةٌ منها في عانته، والثّانية في كتفه، وقد حفّزتاه من خلال ذكريات المعارك الفائتة أن يفكّر في متعة المعارك الـمُقبلة، وفي نهاية الأمر، ما الذي كان يمكن أن يفعله بالأبقار؟

تناهى إليه صوتٌ ناعمٌ كان لراهبةٍ نادته باسمهِ، فوضعت حدّاً لهجوم الكآبة الذي كان قد قُمِعَ تقريباً.

- دون غونزاغ دو لا دروز؟

- أنا بذاته، أيّتها الأمُّ الرّاهبة.

كان دون غونزاغ مربوع القامة، ومستدير الأطراف، وله نظرةٌ حادّةٌ، وذقنٌ مدبّبةٌ، تبدو كأنّها قد نحتت بأطرافها القاطعة تلك النُّدبة التي تبدو تحت القُبّة، وكان مُثقلاً بالسّيوف والخناجر، على الرغم من أنّه لمْ يكن في حالة حربٍ. رنَّ صدى هذه الأسلحة في القاعة ذات السّقف الحجريّ المجوّف عندما اتّخذ وضعيّة الاستعداد، وقد احمرّ وجهه. ابتسمت الرّاهبة الأمُّ عندما رأت تصلُّب الجنديّ، ورأت بوضوحٍ أنّ الكابتن العتيق قد تأثّر بشِدّةٍ برؤية المرأة فيها، وليس الرّاهبة، وما كان لأحدٍ أن يُقسم أنّها لمْ تشعر بالإطراء من جرّاء ذلك.

- لقد تلقّيتُ رسالتك البارحة.

قالت الرّاهبة الأمُّ، وهي تقف على بُعد خطواتٍ ثلاثٍ من دون غونزاغ، ومن دون أنْ ترحمه بإزاحة نظرات عينيها الزّرقاوين الجميلتين عنه.

- أنت تبحث عن أيتامٍ لتأخذهم معك إلى أمريكا إذاً؟

- نعم أيّتها الأمّ.

تَمتم الجنديُّ الذي كان يعترض في سرّه متسائلاً بقهْرٍ كيف يمكن للرّبّ أن يختار لخدمته راهبةً على هذا القَدْر من الجمال.

- فلْتعلمْ يا كابتن، وليتك تنقل هذه الفكرة إلى الفارس فيلوغانيون أنّ لدينا رغبةً هائلةً في أنْ ندعمه. ما تقومون به هو أمرٌ في قمّة التّقوى حين تحملون كلام المسيح إلى تلك الأرض الجديدة، ولو أنَّ الرّبَّ قيّض لي مصيراً آخر، لكنتُ أوّل من يرافقكم إلى هناك.

كان هذا النّوع من التّصريحات هو ما يجعل غونزاغ التّعِس يتمنّى لو

أنّه كان بين المتوحّشين؛ إذْ لا يمكن أن يخطر في بالهم ما يشبه تلك الفكرة المثيرة، مع ذلك وجد في نفسه الشّجاعة لأنْ يرفع بعضاً من الشُّعيرات التي كانت على وجهه، بحيث تبدو أنّها تحرّكت بما يشبه الابتسامة.

- «لِنعُد إلى الوقائع»، استطردت الرّاهبة، «أنت تريد أيتاماً. في زمنٍ آخر كان لدينا فيضٌ منهم، والقديمات بيننا ما زلْنَ يتذكّرن ذلك، لكنّ البلد صار على حالٍ من الرّخاء يمكن معه تأمين الضّروريّات للجميع. ما زال لدينا بعض الفقراء بالتّأكيد، ولحُسن الحظّ لمْ نصل إلى حدٍّ يُمنع بسببه المسيحيّون من الوصول إلى الجنّة لأنّهم لمْ يتصدّقوا على الآخرين؛ أمّا الأيتام، فما عاد لدينا أحدٌ.

في أثناء قولها هذا، هزّت الرّاهبة رأسها الجميل بقسماته الرّائعة التي ازدادت اكتمالاً بالقُدسيّة والانسجام.

- هل يعني هذا أنّه ليس لديكم أيّ أحدٍ يمكن عرضه علينا؟

تلفّظ بهذه الكلمات دون غونزاغ الذي لمْ ينحنِ أبداً أمام نيران الأسلحة، إلّا أنّه كان في مواجهة أسلحة النّساء أكثر ضعفاً.

شعر بنفسه حاذقاً؛ لكونه توصّل بهذا السّؤال الدّقيق إلى أنْ يضع المحادثة أقرب ما يمكن إلى نهايتها، لكنّ الأمّ الرئيسة لمْ تكن تريد أن تُهزم، وفي هذا الصّمت السّميك الذي كان يشعّ من الجدران الحجريّة، كان هناك نوعٌ من الملل العنيد يجعلها ترغب في إطالة الفُرص التي لديها في الحديث، وربّما في الضّحك. صمتت. فكّرت قليلاً، ولكي ترافق حركة أفكارها، مشت بخطواتٍ بطيئةٍ، ورسمت دورةً داخل الغرفة أدّت بها إلى النّافذة.

- «بالتّأكيد يا كابتن، لدينا أيتام، لا تخف». قالت، وهي تسدّد صاعقة نظرها نحوَ شجرة تفّاح.

أفلتت من دون غونزاغ حركة تعجُّبٍ أظهرت رضاه، كما أنّه هنّأ نفسه؛ لأنّه أوقف بحركةٍ من لسانه الشّتيمة التي كانت قد وصلت إلى شفتيه، في حين تابعت هي:

– لدينا أيتام؛ لأنّ الخطيئة موجودةٌ دائماً، ولأنّ فوضى الجسد تؤدّي إلى الحمل خارج رابطة الزّواج المقدّسة. هناك فتياتٌ مسكيناتٌ وقعْن تحت غواية الحواسّ، وليست لديهنّ وسيلةٌ سوى ذلك، فتقوم الأبرشيّة بجلبهنّ إلينا، لكنْ يبدو أنَّ العائلات بدأت تتأقلم شيئاً فشيئاً مع وجود هؤلاء الأطفال الذين يُسيئون إلى الرّبّ، لا بلْ إنّ الرُّهبان صاروا يشجّعون العائلات على ذلك. هل تعلم أنّه في بعض القرى السّاحليّة حيث يغيب البحّارة وقتاً طويلاً، قام الرُّهبان بإقناع الرّعيّة أنَّ فترة الحمْل يمكن أن تدوم فترةً أطول، أو أقصر حسْب النّساء. لقد رووا لي بجدّيّةٍ بالغةٍ مثالاً عن طفلٍ ولد بعد ثمانية عشر شهراً من الحمْل. القرية كلّها كانت تمتدح حكمة الطّبيعة التي جعلته يصبر هكذا حتّى عودة أبيه، وبالتّأكيد وجد الرّجُل المسكين أنّ الطّفل يشبهه.

اجْتاح الاستنكار دون غونزاغ الذي التزم الصّمت، وخفض عينيه أمام ذِكْر ميكانيكيّة الحمْل المرعبة من قِبَل امرأةٍ. لقد كان سيّده الفارس فيلوغانيون مُحقّاً حين قال بوجوب إصلاح كنيسة فرنسا التي أبعدها الرّخاء عن الاخلاص المتصلّب الذي عرفته في أزمنةٍ قديمةٍ. لمْ يخطر في باله قطُّ أنَّ الفساد يمكن أنْ يصل إلى هذه الدّرجة في الفترة التي كان هو يقاتل فيها لإبعاد الكفّار، وتبديد العتمة، وتلك الرّاهبة التي ما كانت تتخلّى عن نصف ابتسامتها تلك، لا بلْ كان يبدو عليها أنّها تتسلّى بحالة الاستنكار المسيطر عليه، إذا ما استثنينا الطّنين الخفيف لذلك السّيف الذي كان غضبه الغاسكوني يجعله يرتجف على ساقه.

- «إنّني مُصرّةٌ يا سيّدي على ألّا أخفي عنك شيئاً»، تابعت الرّاهبة: «لدينا في الوقت الرّاهن ثمانية أيتامٍ في مؤسّستنا؛ أربع فتياتٍ، وأنت قُلت في رسالتك إنّك لا تحتاج إلى فتيات؛ أمّا الصِّبْية، فهناك واحدٌ مجنونٌ؛ لأنّه ولد مشوّهاً، ويُصاب بحالات هَلْوسةٍ، والثّلاثة الباقون، فهُم صغارٌ للغاية، أعمارهم هي أربعةٌ، وستُّ سنوات، اثنان منهما توْءمٌ».

- «في هذه الحال أيّتها الأمُّ»، قال دون غونزاغ بسرعةٍ وهو ينفخ من الجهد: «بقي عليّ أنْ أشكركِ بصدقٍ، وأنْ أطلب إذْنك للانصراف».

كان ذلك الدّير الثّالث الذي يزوره، ولا شكّ في أنّ لو توريه الذي كان يتقاسم معه هذه المهمّة قد زار عدداً مماثلاً من الأدْيِرة. في كلّ مرةٍ، كانت الإجابات تتكرّر، ومع الأسف، كانت الفوضى نفسها في كلّ مكانٍ، على أنّه لمْ يشهد إغراءً وقحاً كالذي لدى هذه الرّئيسة الملعونة.

الرّفض السّريع كان أفضل، فعندها سيتمكّن من أن يقوم بزيارةٍ أُخرى ذلك المساء، فقد بقي لديه مكانان في قائمته.

- «لحظة أيُّها الكابتن». قالت الرّاهبة، وهي تضع يدها الطّويلة على كُمّ الجنديّ: «لقد اقترب موعد رحيلك، لكنّ هذا ليس سبباً يمنعك من أن تسمعني حتّى النّهاية».

ملمس تلك اليد الأفعوانيّة جعل دون غونزاغ يتجمّد في حالةٍ من عدم الحراك الممتلئ بالقرف الذي يمكن أن يشعر به شخصٌ تعرّض للتّعذيب.

- «لقد سألتني عن أيتام، لكنْ ماذا لو استطعت أنْ أعثر لك على بعض الأطفال المتسوّلين؟». قالت الرّاهبة بنعومةٍ: «لقد أجبتكَ بلا، لكنْ ربّما لم يكن سؤالك كاملاً. أنت تريد هؤلاء الأطفال حتّى يصيروا مُترجمين للوساطة مع البدائيّين في البرازيل، أليس كذلك؟».

هزّ دون غونزاغ رأسه بجدّيّةٍ، ورسم بطرف لحيته في الهواء إشارةً تشبه رقم ثمانية.

- أنت لا تبحث عن البؤساء إلّا لأنّك كنت تتوقّع العثور عليهم بسهولةٍ كبيرةٍ، أليس كذلك؟

حركة (8) أُخرى دلّت على الموافقة الصّامتة للكابتن.

- لكنّك لا تمانع في أخذ أطفالٍ بحالٍ أفضل إذا ما عُرضوا عليك، أليس كذلك؟

حركةٌ جديدةٌ بالرّأس دلّت على موافقة الجنديّ العتيق.

- في هذه الحال يا سيّدي، اِتبعني.

*

اِجتاز دون غونزاغ الدّير كلّه مُجبراً وراء هذه الأمّ الرئيسة الشّيطانة التي كانت تخِبّ بسهولةٍ ويُسرٍ.

التقيا في الطّريق براهباتٍ عدّة من الأصيلات والمستجدّات. إنْ لمْ تكنّ جميعهنّ جميلات، فقد كنَّ على الأقل يرتدين ملابسهن بحرّيّةٍ لمْ يجدها فارسُ مالطة حسنةً. كانت هناك ابتسامات مرحة أكثر من اللّزوم على شفاههنّ، وكان هذا الوجود اللّطيف ضمن عالمٍ مكرّسٍ لخدمة الرّبّ بمنزلة خطيئةٍ في عينه، ويضاف إلى ذلك الرّائحة الحارّة للشموع التي كانت تتصاعد من بلاط الأرضيّة. أيُّ ترفٍ كان إشعال تلك الشّمعاتٍ لغاياتٍ لمْ تكن كلّها دينيّة! عبر الأبواب المفتوحة، كانت تتبدّى خزائنُ شهوانيّةٌ ممتلئةٌ مثل مرضعاتٍ، وتفيض بممتلكات كثيرة. ترفٌ كانت بنات الرّبّ قد أقسمْن على التّخلّي عنه. احتفظ دون غونزاغ طيلة الطّريق بنظرته جامدةً مثل من يريد أن يقاوم الإغراء، ولا يريد حتّى أن يراه. صعدا في النّهاية درجاتٍ عديدةً حجريّةً ليدخلا في رواقٍ بُني على جسر.

- «إذا تابعنا حتّى النّهاية»، قالت الرّاهبة الأمُّ، وهي تشير إلى الطّرف

المقابل لذلك الرّواق المُضاء بشبابيك: «نخرجُ في الضّفّة الأُخرى عند الغابة والقرية. في بعض الأحيان نسلك هذا الطّريق؛ لكي نذهب لحضور القدّاس».

اجتاز دون غونزاغ الباب الـمُفضي إلى المعاصي من دون أن يقول أيّة كلمةٍ. كان يتخيّل كما لو أنّ تلك العلاقات كلّها التي يسمح بها مثل هذا المنفذ تدور أمامه.

توقّفا وسْط الرّواق. كانت هناك غرفةٌ مبنيّةٌ على شكل نتوءٍ فوق أحد أعمدة الجسر. فتحت الرّاهبة باباً، وتركت الجنديّ يدخل إلى هذا الجُحر. كان هناك عمودان متقاطعان عالياً يُطلّان على الماء. ملأت ضجّة التّيّار المكان الصّغير عبر نافذةٍ مفتوحةٍ جعلت المكان ملائماً لحواراتٍ يفترض ألّا يسمعها أحدٌ. الأثاثُ الوحيد الموجود في المكان كان منضدةً مثلّثةً سيقانُها مستديرةٌ، وثلاثةَ مقاعدَ بلا مساندِ. جلست الأمُّ على مقعدٍ، وأشارت إلى الجنديّ أن يجلس. فعل دون غونزاغ ما أشارت عليه بحميّةٍ كبيرةٍ، ليس لأنّه كان منزعجاً من ثِقَلِ أسلحته، إنّما لأنّه كان متصلّباً بفعل إنذارٍ روحانيٍّ حقيقيٍّ.

- «لن يطول الأمر». قالت الرّاهبة بالابتسامة نفسها التي بثّتها في أرجاء المكان، على الرغم من الزّهد الذي يُفترض أنّه مُهيّءٌ له.

بقيا صامتين، تهدهدهما ضجّة الأمواج. جعلت صرخاتُ طيورٍ آتيةٌ من الدّغلِ المُحاربَ العتيقَ ينتفضُ؛ لأنّه اعتاد الفِخاخ، والهديل المخادع الذي كان الجنود يطلقونه في الغابات. قبْل انْقضاء دقيقتين انفتح الباب، فدخلت امرأةٌ أُخرى، وأتت لتجلس بصمتٍ على المقعد الثالث. حيَّت الأمَّ الرّئيسة وضيفها بحركةٍ بسيطةٍ من رأسها، ومع أنّ المرأة لمْ تكن ترتدي ثياب الرّاهبة، إلّا أنّها بَدت له أبسط، وأكثر تُقًى من الفتيات

المرحات المجنونات كلّهنّ، اللّواتي مرّ بهنّ في ذلك المكان. كانت امرأةً يبدو عليها أنّها قد قاتلت مثله بلا هوادةٍ حتّى وصلت إلى عُمر الخمسينيّات الذي تتوقّف فيه كلُّ معركةٍ عن استجرار معركةٍ أُخرى، فتضع على الوجه تعبيراً هو مزيجٌ من الإرهاق والصّفاء. بالنّسبة إلى دون غونزاغ، كانت التّجاعيد الدّقيقة على وجهها تشبه النُّدوب التي زرعتها الحروب على وجهه، لكنّها كانت مخفّفةً لديها بذلك الاستعمال الحاذق والحَذر لطلاء الوجه، وتلك التّسريحة الصّارمة التي ترتّب شَعرها على شكل سورٍ مزدوجٍ من الضّفائر، وهذه الزّينة البسيطة المتقشّفة، لكنّها مشغولةٌ بعنايةٍ. كان هناك ألماستان صغيرتان تلتمعان في أذنيها، فتعدّلان ببريقهما البسيط صرامة ثوب الدّانتيل الأسْود الذي كان يغطّيها مع فتحةٍ بسيطةٍ في القبّة وأكمامٍ طويلةٍ. شعر دون غونزاغ في داخله بعرفانٍ حقيقيٍّ لتلك المرأة التي استطاعت بحُسن لياقتها أن تغطّي ما تبقّى كلّه. لمْ يعبّر عن تلك الحماسة سوى برقرقة دمعة عينه اليمنى. استطاعت حركةٌ بسيطةٌ من كُمّه أن تمنعه من التّدهور إلى حدِّ ذرْف دموعٍ.

– «سيّدتي»، قالت الرّاهبة التي لمْ تتبدّد أمام تلك الرُّؤيا مع الأسف: «هذا هو دون غونزاغ دو لا دروز، فارسٌ من فُرسان مالطة».

– «سيّدي الكابتن»، قالت المرأة بصوتٍ يتناسب مع شخصيّتها بما فيه من بطءٍ ونبرة صَرامةٍ: «تشرّفت برؤيتك، وأشكرك يا أمّي الرّئيسة لترتيبك هذا اللّقاء».

– «إنّه أمرٌ بسيطٌ، وهو واجبنا تُجاهكِ». قالت الأمُّ الرّئيسة وهي تحبس ضحكتها: «إنّكِ تدعمين هذا الدّير بإحسانك منذ سنواتٍ طويلةٍ...».

– «أجلْ». قالت السّيّدة هامسةً، وقد اجتاحتها رجفةٌ خفيةٌ: «إنّنا نمجّد الرّبّ لعطاياه، ونخضع لأوامره عندما تلائمنا عارفين أنّنا يجب أن

نستجيب لها بالصّبر نفسه فيما لو لمْ تعُدْ كذلك، وها هو هذا اليوم قد أتى مع الأسف».

كان دون غونزاغ قد ألغى كلمة الهروب من قاموسه الحربيّ، لكنْ في ظرفٍ كهذا، كان يمكن له أن يفعل ذلك بمحض إرادته، لو كان في الهروب ما يشرّف.

اسْتطردت المرأة قائلةً:

- ما كان لي أبداً يا كابتن أن أزعجك برواية مصائبنا قليلة الأهمّيّة لولا معرفتي برحيلك القريب، لكنّ الأخت كاترين قد أعْلمتني بطلبك خلال زيارتي الأخيرة. يبدو أنّك تبحث عن أطفالٍ؛ لكي يذهبوا للإقامة الدّائمة في أمريكا.

- «أجلْ يا سيّدتي». تجشّأ دون غونزاغ وهو يخفي كتلةً من البلغم في منديله.

- في هذه الحالة، أظنُّ أنّك لن تخسر شيئاً فيما لو استمعت إلى ما أريد قوله، وسأحاول أن أوجز.

خفضت عينيها للحظةٍ، ثمَّ رفعتهما، وثبّتتهما على المعيّنات الصّغيرة الزُّجاجيّة الملوّنة في الممرّ.

- هذه هي القصّة: شقيق زوجي الأصغر جنديٌّ، قاتل في إيطاليا في خدمة ملك فرنسا، ثمَّ في خدمة عدّة أمراء. منذ سنواتٍ ثلاثٍ لمْ تصل إلينا أيّة أخبارٍ عنه، لكنّه قبل أن يختفي، جلبَ معه من إيطاليا ولدين لا نعرف شيئاً عن أمّهما، هذا إذا ما افترضنا أنّ لديهما الأمّ نفسها، وأنّه هو والدهما، لكنْ دعنا من ذلك؛ إذْ ليس لي أن أحكم على حياة الجنود، فلهُم أمجادهم، وعليهم مآخذ.

كان الكثير من الضُّبّاط قد عرفوا لحظات ضعفٍ في إيطاليا. وقع

بعضهم تحت سيطرة كائناتٍ استطعنَ أنْ يهزمنَ أكثر الرِّجال شجاعةً، وقد نال دون غونزاغ نصيبه من حالات الجنون تلك، لكنّه استطاع أن يحمي نفسه من العواطف الهوجاء بعدم استثارتها، وهذا ما كان يجعله في بعض الأحيان كئيباً عندما تخطر الفكرة في باله. في كلّ الأحوال، حالات الجنون هذه التي تحدّثت عنها تلك المرأة كانت تبدو له اليوم مقيتةً. لمْ يجرؤ على السُّؤال عن اسم ذلك الجنديّ خوفاً من أنْ يُربَط مع تصرُّفات ذلك الجنديّ في حال كان يعرفه.

ليشهد الله أنَّ هذين الطّفلين، عندما عهد شقيق زوجي بهما إلى أخيه، قدْ وجدا لدينا الأمان، وكثيراً من التّسامح حِيال الخطيئة التي شكّلتهما. مزرعتنا التي تقع على بُعد أميالٍ عدّةٍ من هنا قد نالتها -مع الأسف- ضرباتُ العناية الإلهيّة، وكان علينا أن نحتمل أشكال المصائب كلّها التي يمكن تخيُّلها، التي حلّت على النّباتات والمواشي، وكأنّ ندبات مصر كلّها وقعت على عاتقنا(I)، فإنْ هبّت العواصف في شهر آب/ أغسطس كانت حقولنا هي أولّ ما تخرّبه الأمطار، وقد اجتاحنا الدّود، والجَراد، والبَرَد الذي ضرب محاصيلنا، و فوق هذا كلّه، هاجمتنا عصابات البوهيميّين ثلاث مرّات، فقاموا بنهب ما وجدوه من قطع الأثاث والنّقد. باختصارٍ يا كابتن، بقدْر ما كانت هذه العائلة متميّزةً في الأزمنة الماضية بقدْر ما يضربها اليوم شقاء يجب علينا أن نعرف كيف نسمّيه: إنّه الفقر.

لمْ يشعر دون غونزاغ في حياته بمثل الضّيق الذي شعر به تُجاه أسلحته، ليس فقط أنّها لمْ تفده بشيءٍ، إنّما لأنّها أيضاً كانت تُصدر ذلك الضّجيج كلّه عندما يعيد وضع منديله في جيبه.

- «وها هي الآن ضربةٌ جديدةٌ قد جاءتك». قالت الرّاهبة الرّئيسة التي

(I) هي العقوبات العشر التي فرضها الرب على مصر لإجبار فرعون أن يترك شعب اسرائيل يخرج منها، وجاءت في سفر الخروج. (م).

كانت قد تنحّت جانباً حتّى الآن، ثمّ تقدّمت إلى الخطوط الأماميّة من أجل الهجوم الأخير.

- إنّ السّيّد النّبيل زوج هذه السّيّدة قد نالت منه هجمةٌ قاسيةٌ في جسمه، فأسْلم الرُّوح قبل شهورٍ ثلاثةٍ، بعد أن عاش حياةً مجهدةً ممتلئةً بالمصاعب.

عند ذِكْر هذا التّأبين، أطلقت السّيّدة دمعتين لمْ تحاول أن تمسحهما، بلْ حاولت أن تبلّل بهما ما أمكن من وجهها كلّه.

- «أمامك -يا كابتن- امرأةٌ تحمل وسْط هذه المآسي كلّها مسؤوليّاتٍ إضافيّةً». تابعت الرّاهبة: «لكنّها تعلم ضمن هذا الانهيار كلّه والوحدة أنّ بيتنا يستقبلها دائماً، ويحاول أن يعيد إليها حتّى نهاية حياتها العطايا التي كانت عائلتها قد منّت بها علينا طويلاً، لكنّها مع ذلك ترفض أنْ تحوّل اهتمامها عن الطّفلين الذين عُهد بهما إليها، لكنْ ماذا سيكون مصيرهما؟ إنّ والدهما الذي لمْ يكن يترك شهراً يمرّ من دون أن يرسل رسالةً لمْ تعُدْ تنمّ عنه أيّة إشارةٍ عن الحياة التي ربّما فارقها. سوف تتبدّد أراضي المزرعة بعد فترةٍ، أو تُباع كلّها، فماذا سيكون عندها مستقبل هذين الرّوحين الصّغيرين؟ قُل لي؟ الدّير؟ لمْ يبدُ عليهما أيُّ ميلٍ في هذا الاتّجاه، ولا يمكن أن نؤنّبهما على ذلك، نظراً إلى المُجون الذي أحاط بحياتهما. سيجدهما يسوع المسيح في يومٍ من الأيّام أينما ذَهبا، لكنْ لا يمكن أن نربطهما به قبل أن يُظهرا رغبتهما في ذلك، وإلّا تمرّدا علينا».

- «الأخت كاترين على حق». أضافت السّيدة مزاودةً: «لكنّ قلقي يذهب إلى ما هو أبعد. أريد لهذين الطّفلين اللّذَيْن لنْ تكون لهما عائلةٌ عمّا قريبٍ -هذا فيما لو قلنا إنّهما كانا جزءاً من عائلةٍ في يومٍ من الأيّام- أنْ ينالا فرصة تشكيل عائلةٍ. يجب أن يَبدآ من الصّفر، ويُنشآ حياةً جديدةً

قادرةً على أن تجعلهما ينسيان الأولى، وكلّ ما فيها من قسوةٍ، من أجل هذا فإنّ تعبير (العالم الجديد) قد أثار انتباهي، فأتيت لأتوسّل إليك يا كابتن أن تؤمّن مستقبل هذين البائسَيْن بأنْ تأخذهما معك».

وُلد الأملُ من جديدٍ في قلب دون غونزاغ، وقد رأى الْتماع شُعلةٍ، أو لِنَقُل: نوعٌ من الحلّ بدّد الظُّلمات الباردة لهذه الاعترافات. ما كان مطلوباً منه كان بسيطاً وواضحاً، وفعل الخير كان دائماً في عينيه هو الفضيلة الكبرى، والدّليل الذي يهتدي به. لمْ يناقشْ، ولو رفض فإنّ النّظرات الجميلة لهاتين المرأتين، تلك التي تحتوي على الدُّموع، والثّانية التي تَشي بتنازلٍ شهوانيٍّ قد حملت معها آخر قوّات الدّفاع لديه.

- كم عمرهما؟

- «من دون أن أكون متأكّدةً»، أجابت المرأة بعد أن أبْدت بعض التّردُّد: «قد أقول: إحدى عشرة، وثلاث عشرة».

- «جيّدٌ جداً». وافق الكابتن، ثمّ بعد تردُّدٍ مردُّه الخجل، أضاف بصوتٍ خفيضٍ: «هل وصل الأكبر بينهما إلى سنّ البلوغ؟».

- لديه وبرٌ أعلى شفتيه، وبما أنّه شديد السُّمرة فإنّ ذلك يبدو واضحاً، لكنّ مربيتهما متأكّدةٌ جدّاً من أنّه لمْ يبلغ مبلغ الرِّجال بعد.

- هل يَقبلان الذّهاب في هذه الرّحلة؟

هنا جاءت الأسئلة التي تحضّرتا لها، ولذلك كانت إجاباتهما طبيعيّةً وسهلةً.

- لقد عزما على ترك المزرعة. ليس لدى هذين المسكينين سوى أملٍ غامضٍ بأنْ يَريا والدهما الذي بالكاد يعرفانه، وطالما أنّه يُسمح لهما بالحفاظ على هذا الأمل، فإنّهما سيقبلان الذهاب إلى أيّ مكانٍ.

كان ذلك خطاباً مبهماً بالنّسبة إلى الذّاكرة الفجّة للجنديّ العجوز.

- هل تعيّن يا سيّدتي أنّهما سيستقرّان هناك إلى الأبد، ويبقيان فيه حتّى بعد موتهما؟

- ليس لديّ طموحٌ أكبر من أن أراهما يغزوان أراضٍ جديدةً مثلما فعل أجدادهما حين فتحوا في الماضي تلك الأراضي التي سنضيّعها عمّا قريب.

- «حسناً، يا سيدتي». صرخ دون غونزاغ وهو يقف مُصدراً ضجيجاً كبيراً من معادنه وحذائه: «سأخلّصك من هذا الهمّ. أتعهّد بذلك».

مرّت بعدها لحظةٌ طويلةٌ من الانفعال، من الشُّكر والمباركات عاشها الفارس مثل تجربةٍ أخيرةٍ، فقد كان يخشى أن تصدرَ عن الرّاهبة بعض المحاولات الأخيرة التي قد تودي بعفّته.

- «حسناً». قال في النّهاية بطيبة قلب: «أريد أن أراهما الآن. أين هما؟».

قالت الرّاهبة الرّئيسة، وهي تقترب من دون غونزاغ، ولا شكّ في أنّ تلك الّلعينة أدركت أنّه لا يعرف كيفيّة مقاومة رائحة الّلوز الحلو التي تصدر عنها:

- يا كابتن، قبل أن نخبرهما، علينا أن نرتّب المسألة بتفاصيلها كلّها. إنّهما ما زالا في المزرعة على بُعد أميالٍ من هنا. الآن وقد التزمتَ بأخذهما، سيتحضّران ويأتيان لملاقاتك في موعد إقلاع السّفينة.

بدا على دون غونزاغ تردُّدٌ أخيرٌ؛ لأنّه لن يراهما قبل ذلك. وازَن هذه المخاوف، ورأى أنّها ضئيلةٌ جدّاً أمام تبديد حُزن تلك المرأة الشّريفة، وهي كانت قد قطعت عهداً.

- سنُبحر بعد أيّامٍ ثلاثةٍ من هافر دوغراس.

- «ستكون هناك عربةٌ تحملهما إليك في ذلك الموعد». أكّدت له الرّاهبة.

خَرجا إلى الرّواق، وبعد أن شكرته السّيّدة للمرّة الأخيرة بكثيرٍ من التّحفُّظ، ذهبت في اتّجاه الغابة حيث كانت تنتظرها عربةٌ. اجتاز غونزاغ الدّير بخطواتٍ واسعةٍ، مستعجلاً ركوب فرسه. لمْ تنقضِ خمسُ دقائق على انطلاقه بالحصان حتّى أصابه الغضب. قال في نفسه:

- حتّى إنّني لمْ أسألها عن اسمها.

ثمّ بعد أن طرد عن ذهنه هذه المخاوف الأخيرة، صرخ في الهواء الرّطب:

- ولماذا؟ ما الفائدة؟ لا شكّ في أنّها عائلةٌ محترمةٌ.



الفصل 4

عندما كان جوست وكولومب يعيشان في إيطاليا، كانت كلامورغان بالنّسبة إليهما اسماً يحلمان به، وأرضاً سحريّةً تترسّخ جذورهما فيها. لا شكّ في أنّ أبيهما مضطرٌّ بشدّةٍ حتّى يغامر بإرسالهما إلى هناك، حيث عرفا الواقع الحزين لذلك الشّبح العزيز على قلبيهما، ولحُسن الحظّ أنّ الجنديَّ لمْ يكن شاهداً على خيبة أملهما تلك؛ إذْ كان في تلك الفترة قد فقد حُظوة ملك فرنسا، فلمْ يستطع مرافقة أولاده بنفسه، وقد قاما وحدهما قبل أربع سنواتٍ باجتياز الطّريق حتّى مدينة روان في عربةٍ عليها لافتة، ثمّ قادتهما عربة حنطورٍ إلى كلامورغان.

كان عمّهما شديد الضّعف حين وصَلا، وكان قد انزوى في الغرفة الوحيدة التي كانت ما تزال فيها ستائر، ويمكن تدفئتها. كان الرّجُل المسكين يعيش بعقليّة العصور الوسطى، وقد أدار ملكيّته مثلما كان الأمر في زمن الإقطاع، أيْ: بما سيذهب بها إلى الدّمار؛ فقد رفض أن يبيع، أو يشتري أيّ شيءٍ، وإنْ سقطت قطعة أردواز[I] من السّقف فإنّه لمْ يكن يستبدلها، وكان بالكاد يترك للفلّاحين ما يكفيهم. كانت المؤونة تتعفّن في السّقائف، فتعيق

(I) أردواز: نوع من الصخور الصفحائية، يستخدم في أوروبا كألواح منتظمة لتغطية أسقف المنازل. (م).

العمل، وتحرّض العاملين لديه على الرّحيل. لمْ يكن ذلك نوعاً من البُخل، إنّما إحساسٌ مبالغٌ فيه بالشّرف في زمنٍ كانت التّجارة فيه قد حلّت محلّ الفروسيّة، ثمّ في يومٍ من الأيّام مات.

قامت مربّيةٌ، التي كانت في الماضي مرضعةً، باستقبال الطّفلين في بيتها. كان هذا البيت المغطّى بالقشّ كوخاً مستطيل الشّكل، متداعياً، جعله الدُّخان أسْودَ من الدّاخل، وكان مزيّناً من غير قصدٍ بجميع الأدوات الضّروريّة، مثل: المقالي، وخشبات فرْد العجين، والسّلال، ومعلّقةٌ جميعها على السّقف والجدران.

إلى هذا البيت حَمل جوست كولومب التي لمْ تكن تتحرّك. وضعها بالقرب من الموقد في سريرٍ كبيرٍ فراشه مصنوعٌ من القشّ. كانت تتأوّه وتشكو من رأسها. كان هناك راعٍ مُسنٌّ لديه معرفةٌ طبّيّةٌ، على الأقلّ بالنّسبة إلى الخِراف، فأتى وهو ينفخ مجتازاً سبخات الماء، ووصف لها شراباً مغليّاً من النّباتات الطّبّيّة، وقال:

- ستعيش.

من هذه الكلمة وحدها فهم جوست أنّه كان يمكن لها بالفعل أن تموت. طلب من المربّية إيميلين أن تكرّر هذا الفأل الحَسن. رضيت أن تردّد ذلك بصوتٍ عالٍ مثلما كان يرغب في أن يسمع تلك الكلمات، ولذلك ادّعى أربعَ مرّاتٍ أنّه لمْ يسمع. كانت كولومب مرتخيةً تماماً وتشتعل بالحرارة، وقد شربت -وهي مقطّبةٌ- السّائل القاتم الحارّ الذي كانت تسبح فيه نثارات الفطر، ثمّ عادت إلى النّوم.

قام جوست بالمناوبة في أسفل السّرير. كان مرتعباً من رؤية نصف حياته يترنّح أمامه مثل ضوء شمعة. لمْ يكن يذكر من حياتهما السّابقة سوى فوضى ليالي الرّحيل، والفنادق الباردة، والمشي الطويل، يمتزج ذلك من

دون نظامٍ، أو منطقٍ، بذكرياتٍ مضيئةٍ من إيطاليا، وبمعارك. كان كلّ شيءٍ حولهما يتحرّك من دون أن يفهما لماذا، وما كانا يعرفان عائلةً غير أبيهما الذي كانت صورته قد بدأت تغيم في ذاكرتهما مع مرور السّنوات الأربع التي عاشا فيها في كلامورغان.

لكنّ هذه التّقلُّبات الكبيرة للنّاس وللأحداث كان لها وجهها الآخر، فقد كان كلٌّ منهما بالنّسبة إلى الآخر الثّابت الذي لا يتغيّر عندما كان كلُّ شيءٍ متغيّراً، والعنصر المخلص عندما يتخلّى عنك الآخرون، وفي أقدم ذكريات جوست، كانت كولومب حاضرةً دائماً.

كانا يتقاسمان المخاطر والأحلام نفسها، كما تعلّما من الكتب نفسها، حيث قرآ النُّصوص الأصليّة لأرسطو، وفيرجيل، وهوميروس. كانا يعزفان الألحان نفسها، هي بالنّاي، وهو على الماندولين، وكان ذلك المزيج من الأشعار والألحان يشكّل متاعهما كلّه عندما كانا يتواثبان برفقة الجنود العاديّين، لكنْ في هذه السّاعة، لمْ تعُدْ هناك أحلامٌ؛ ففي حين كان يرمي في الموقد قطع خشب الدّردار التي تُصدر دخاناً، كان جوست يفكّر بتلك الأسماء كلّها التي أطلقتها عليه، وخصوصاً الاسم الأخير: بيل هادري. مسح أنفه بكُمّه، وأقْسم مرّةً أُخرى من جديدٍ أنّه لن يتركها أبداً، حتّى عند الموت. إنّه العمر الذي يطلق فيه الإنسان مثل هذا القَسَم بسهولةٍ، لكنْ بالنّسبة إلى جوست، كان يبدو أنّه ما من إنسانٍ قبله قد لفظ مثل هذا القَسم بهذه الجدّيّة كلّها، أو مستعداً للقيام به بذلك الإصرار نفسه.

في الصّباح، رفَست كولومب لِحافها. كانت تسبح بالعَرق، كان يبدو أنَّ الحُمّى قد انتقلت برُمّتها إلى كيس الرّيش. قبْل أن تحلَّ الظَّهيرة، فتحت عينيها ونادت. كانت هناك صرخاتٌ من الفرح، ودموعٌ من جديد. في نورماندي تلك، حيث يتغيّر الطّقس كلّ ساعةٍ، كان يبدو أنّ الأرواح أيضاً كانت لديها هي الأُخرى فسحات الصَّحْو المفاجئة.

على الرغم من اختفاء الحُمّى، أمرت إيميلين المريضة التي ظهر لها نتوءٌ كبيرٌ على طرف جبهتها أنْ تلزم السّرير إنْ لمْ تكنْ تريد أن تتحوّل الكَدَمة تلك إلى ورمٍ ينضح بالسّوائل. هذه الجُملة الغامضة التي تشبه رُقيةً سحريّةً كانت كافيةً لتجعل المريضة تبقى مستلقيةً، لكنّها استعادت شيطنتها، وراحت تشير إلى جوست بوجهها بحركاتٍ مُضحكةٍ.

مع انتهاء فترة الظّهيرة، وصلت إلى مسامعهم ضجّة عجلاتٍ، كانت إيميلين في بستانها، فبسبب كثرة البيوت الفارغة ضمن المنطقة، كان لديها الحرّيّة في اختيار الأفضل من هذه الأراضي المهجورة. كانت قد ذهبت للبحث عن الجَزر بالقُرب من غرفة القشّ، حيث يوجد جَزرٌ كبيرٌ. سكت الطّفلان عندما اقتربت العربة؛ لأنّه كان من النّادر أن تمرّ أيّة عربةٍ من هنا، وعندما سمعاها تتوقّف عند الباب، انتصبت كولومب جالسةً، وقالت: «اذهب لترى ما الأمر يا جوست».

عندما بدأ جوست بالتّحرُّك ظهر رجلٌ عند الباب. عرفا أنّه بيلوا، آخرُ خادمٍ في القصر. كان رجُلاً قصيراً، في وجهه خطأٌ ما، وكانا يخافان منه، وفي هذه المزرعة التي من دون سيّد، كان يأمر على هواه، ويعامل الطّفلين بقسوةٍ كما لو كان يرغب في أن يثنيهما عن المطالبة بأيّ حقٍّ لهما في ثروتهما في أيّ يومٍ من الأيّام.

عندما رأياه يزمُّ عينيه، وقد منعته العتمة من الرُّؤية، شَعرا بإغراءٍ قويٍّ بأن يختبئا، لكنْ لمْ يكن لديهما الوقت لفعل ذلك؛ لأنَّ بولوا تقدَّم وهو يتلمّس المكان حتّى وصل إلى السّرير، فسمّرهما في مكانهما بصوته القويّ: «اخرُجا يا ملاعين!».

بينما كان يلوّح بذراعه في العتمة، اصْطدم بجوست الذي استسلم من دون مقاومةٍ.

- أين أختك؟

- «هنا». أجابت كولومب بصوتٍ ضعيفٍ، لأنّها لمْ تتوقّع أنْ يكون التّعامل معها أفضل.

- تعالا، أنتما الاثنان، السّيّدة المستشارة تريدكما.

حاول جوست بلا جدوى أن يعترض بأنّ كولومب مريضةٌ، لكنْ كان عليهما أن يلبسا بسرعةٍ، ويخرجا ليركبا في العربة. قام الخادم بنصف دورةٍ، وعندما وصلا إلى منتصف الطّريق رأيا إيميلين تركض، وهي تلوّح بذراعيها.

*

عندما وصلت العربة أمام القصر، طقطق بيلوا بلسانه لكي يشجّع الحصان على أنْ يجتاز الجسر المتحرّك المتهالك. رأيا فوق رأسيهما المسحاة الحديديّة التي تجمّدت في مكانها بسبب المحرّكات الصّدئة. كان هناك كلبان سمينان مربوطان بسلسلةٍ يشكّلان الحراسة الوحيدة للقلعة القديمة.

دخلا إلى الحِصْن، فأوقفهما بولوا في غرفة الحَرس، كانت غرفةً عاليةً، جدرانها من الحجر، وفيها أقواسٌ متداخلة. كانت المدفأة العملاقة المعدّة لالتهام جذوع الأشجار فارغةً وباردةً لا تزيل شيئاً من رطوبة الهواء. كانت الأرض مفروشةً بالقشّ، والغبار، ونشرات الخشب، وكان هناك صندوقٌ ضخمٌ من السّنديان قد أُزيح إلى حذاء السّور، يشكّل مع الكنبة العتيقة الأثاثَ الوحيد في الغرفة. انتظرا بصمتٍ، وهما يجْترّان في قلبهما العقوبة التي كانت مهيّأةً لهما؛ لأنّهما جعلا الحصان يهرب.

سَمعا أصوات زينة الأحصنة عندما اجتاز هَودجُ خالتهما الجسر المعلّق. هي التي كانت تتزيّن عادةً بشكلٍ صارخٍ؛ كانت ترتدي في ذلك

اليوم ثوباً بسيطاً أسْود فاجأهما. لمْ يستطيعا معرفة أنّها اختارت هذا الثّوب عن قصدٍ؛ لكي تلتقي بدون غونزاع في الدّير في صباح ذلك اليوم نفسه.

مرّت لحظةٌ من الصّمت كانت خلالها تتفحّص ملامحهما، الواحدَ بعد الآخر. كان يبدو عليها أنّها تقارب بين مظهرهما، وبين وظيفةٍ سرّيّةٍ كانت تخبّئُها لهما، وعلى الرغم من شعرهما المنفوش والأشْعث، وثياب الفقراء التي كانوا يرتدونها، والطّين الجاف الذي ما زال يترك صفائح على جلدهما، بدا عليها أنّها راضيةٌ من ذلك التفحُّص. قام بولوا بتقريب كنبةٍ جلست عليها بحذرٍ، في حين ظلّا واقفين أمامها، منتظرين دائماً أن تتحدّث عن مشكلة الحصان الهارب.

- «يا طفليَّ العزيزين». بدأت حديثها بلهجةٍ كذّبت مباشرةً العاطفة التي افترضتها تلك الكلمات.

شدّت كولومب قبضتها حول ذراع جوست. استأنفت المستشارة كلامها قائلة:

- مع الارتباط كلّه الذي تشعران به تُجاه كلامورغان، أعرف أنّه كانت لديكما رغبةٌ دائمةٌ وشرعيّةٌ في أن تريا والدكما من جديدٍ.

ظلَّ الطّفلان بلا تعبيرٍ؛ لكثرة ما كان لديهما من حذرٍ لا يزول بسهولةٍ تُجاه تلك المرأة.

- فلْتفرحا إذاً؛ هذه الرّغبة سوف تتحقّق.

ثمَّ قالت بعد أن راحت تفكّر صامتةً بُرهةً: «على الأقلّ بالنّسبة إلى واحدٍ منكما».

تصلّبا في مكانهما. تحت الأغصان كانت الحيّة تركض، وقد كشفت عن أجراسها. إنّها ترغب إذن في أن تفرّق بينهما.

- يا سيّد جوست، ستصبح عمّا قريبٍ رجُلاً. سيجعل منك أبوك محارباً شجاعاً على شاكلته، وسنؤمّن لك وسيلةً لكي تلتقي به. هل أنت راضٍ.

- «لا يا سيّدتي». قال جوست، وهو يحدّق أمامه، لكنَّ نظراته كانت تمرّ فوق رأس خالته؛ لأنّه كان يؤمن بشدّةٍ بقواها السِّحريّة.

- لا؟! ولماذا من فضلك؟ ألا تريد أن تلتقي بأبيك؟ هل أنت خائفٌ من القتال، ربّما؟

- «لا يا سيّدتي». كرّر جوست الذي كان يشعر بالتّحدّي، ويجْهد لكيلا يخضع له.

- إذن؟

- لا أريد أن أتخلّى عن أختي.

أخته! ابتسمت المستشارة. هكذا إذاً، أولادُ الحرام هذان اللّذان حُمِلَ بهما على طرقات السّفر، اللّذان لا تُعرف أمّهاتهما، واللّذان تَجهل أمّهاتهما بلا شكّ من هو الأب، كانا على تلك الدّرجة من الادّعاء والحماقة لينظرا إلى نفسيهما بأكبر قدْرٍ من الجدّيّة كأخٍ وأُخت؟ كانت مضيعةً للوقت محاولة إزالة قناعتهما هذه، لا بلْ إنّ هذا الجنون كان يناسبها.

- هل تعرف أنَّ نوعيّة الحياة التي يدعوك إليها أبوك ستؤمّن لك فتاةً شريفةً؟

- «لقد عشنا حياتنا تلك». قالت كولومب التي كانت قلقةً من ألّا يعرف جوست كيف يجيب، وتنتظر بصبر نافد أن تدخل إلى المشهد.

تأمّلتها المستشارة. رأت جمال الفتاة، ولمْ تكن أبداً مستعدّةً لامتداحه. رأت أيضاً طبعها الحامي الذي سيخلق آلاف التّعقيدات فيما لو جرّبت أن تضعها في الدّير بعد رحيل أخيها. كان ذلك يؤكّد مخاوفها، ولقد كان

نظرها صائباً حين أعلنت لدون غونزاغ أنّه سيأخذ الطّفلين. بقي لها أن تستفيد من هذا التّهديد بالتّفريق بينهما؛ لكي تنال ما تريد. وقفت وابتعدت بخطواتٍ بطيئةٍ.

- «أنا منزعجةٌ جدّاً من عنادكما». قالت في النّهاية، وهي تعود لتقف بالقُرب منهما: «هذا العناد يخرب المخطّطات العقلانيّة التي صُغْتها لمصلحتكما».

جلست من جديدٍ، وجهدت لكي ترسم على وجهها ابتسامةً شبه حنونةٍ.

- ومع ذلك أرى أنّكما تحبّان بعضكما، وسيصعب عليَّ أن أفرّق بينكما. إنّها مبادرة حُسن نيّةٍ آخذها على عاتقي، لكنّها يمكن أن تكلّفني غالياً جدّاً، ولذلك يجب أن تساعداني.

ظلَّ الطّفلان متشبّثين ببعضهما، وهما ينتظران فخاخاً جديدةً ستضعها أمامهما.

- اقْتَرِبا؛ لأنَّ ما سأقوله لكما من الأسرار.

تقدَّما خطوتين إلى الأمام، وظلّا على مسافةٍ منها. لمْ تصرّ المستشارة التي لمْ تكن ترغب أبداً في أن يقتربا منها أكثر؛ خوفاً من أن تزعجها رائحتهما النّفّاذة.

- اسمعا أوّلاً هذا الشّيء: والدكما -كما تعرفان- هو ضابطٌ كبيرٌ. في حروب إيطاليا التي انعقدت فيها تحالفاتٌ عديدةٌ، قام بخدمة عِدّة أمراء، وكانوا يتنافسون كلّهم على شرف أن يدافع عنهم رجُلٌ على ذلك القدْر من الشّجاعة.

الْتمعت عينا جوست، وهو يسمع ذلك الحديث عن أبيه، لكنّ كولومب شعرت بالعسل الكاذب كلّه الذي يغطّي كلامها، فظلّت متيقّظةً.

- «في هذه المرّة»، تابعت المرأة التي ترتدي الأسود: «دخلَ في خدمة سُلطةٍ تقع بعيداً».

- «لمْ يعُد في إيطاليا!». صرخ جوست.

- إيطاليا -يا بنيّ- غير موجودةٍ. إنّها -إنْ أردْتَ- رقعةُ شطرنجٍ من الدّول والإمارات المختلفة. الأرض الجديدة التي يلمع فيها أبوكَ هي واحدةٌ من تلك الدّول، لكنّها أبعد.

- هل هو لدى الأتراك؟

كان التّحالف غير المنتظر الذي عقده فرانسوا الأوّل قبْل أكثر من عشرين سنةً مع الأتراك الذين كانوا أعداء المسيحيّة منذ الحملات الصّليبيّة قد أثار الأفئدة، وحتّى في أعمق أمكنة الرّيف، كان يمكن سماع الحديث عن الأتراك. جوست الذي لمْ تصل إليه على الإطلاق أخبار العالم الجديد كان بسؤاله هذا يكرّر ما يتردّد في الإشاعات الشّعبيّة.

- «الأتراك!». قالت المستشارة متهكّمةً، ثم أكلمت: «لا يا بنيّ. مع ذلك، لو قلت لك اسم مكان إقامته فإنّه لنْ يعني لك شيئاً؛ لأنّني أنا نفسي لا أعرفه. اعْلم فقط أنّه يجب ركوب سفينة للوصول إلى هناك، وأنّ الرّحلة ستكون طويلةً».

- «سفينة!». صرخ جوست: «آه! ومتى سنرحل؟».

كان يبدو مغرماً بالفكرة على الرغم من انزعاج أخته الكبير.

- مهلاً يا بنيّ. ما زالت لدينا بعض النّقاط التي تحتاج إلى ترتيب. الحَملة التي ستشارك فيها لا توجد فيها أيّة امرأةٍ، وبالتّالي فإنّ أختك لا تستطيع أن ترافقك.

رسمت على سحنتها ملامح التّردُّد، ثمَّ كمن يغامر بقوله الْتفتت نحو كولومب قائلةً:

- ومع ذلك، طالما ليست لديك بعد تلك الأشياء التي يمكن من خلالها التّعرُّف إلى جنسنا، أستطيع أن أقول، وهي لَعمري جرأةٌ كبيرةٌ منّي، يجب ألّا تجعليني أندم عليها، أنّكما كلاكما ما زلتما طفلين، وكلمة طفلٍ المذكّرة تستطيع أن تخفي وراءها الاختلاف الموجود بينكما.

- «آه، شكراً يا سيّدتي، شكراً!». صرخ جوست بعد أن تشكّلت لديه القناعة بأنّ خالته كانت في النّهاية أفضل ممّا كان يظنّها، وكان سعيداً بكونه ليس مضطّرّاً إلى أن يُؤمن بفكرة تأصُّل الشّرّ لدى البشر.

- «ومع هذا». تابعت، وهي تتوجّه إلى كولومب التي شعرت أنّها ستقاوم بعنادٍ أكبر: «لنْ أكذب تلك الكذبة إلّا إذا قبلتِ أن تلتزما بهذه الحكاية، وأن تغذّياها في كلّ لحظةٍ. منذ اليوم، عليكما أنتما الاثنان أن تقصّا شعركما على نحوٍ متشابهٍ، على شاكلة الصّبيان، وأنْ تلبسا الملابس نفسها التي سنعطيها لكما. الخُلاصة، على عدم وجود أيّ شبهٍ بينكما»، وابتسمت ابتسامةً شرّيرةً عندما قالت ذلك: «فإنّكما ستتشابهان على الأقلّ في الّلباس والتّصرُّفات».

ثمَّ أضافت، وهي مستمرةٌ في التّحديق بكولومب:

- يجب أن تتّخذي اسم صبيٍّ، ويبدو لي أنّ اسم كولان يناسب في تلافي الأخطاء التي يمكن أن يسبّبها السّهو، وهو ما يمكن أن يحصل في أيّة لحظةٍ. هل ستلتزمان بذلك؟

- «نعم يا سيّدتي». صرخ جوست الذي لمْ يكن السُّؤال مطروحاً عليه.

صمتت كولومب مفكّرةً، ثمَّ أعْطت موافقتها.

- «حَسنٌ جدّاً». قالت لها المستشارة: «لكنْ تذكّري أنّه بمجرّد أن تدخلي هذه الحكاية، فإنّ خروجك منها سيكلّفك حياتك، وبالتّالي لا بدَّ

من أن تغلقي بختمٍ دائمٍ على وضعك بوصفكِ فتاةً، وطالما أنّ الطّبيعة لمْ تتغلّب عليكِ، وتشي بكِ، لنَأمل أنّك ستتوصّلين إلى ذلك».

- «هل هو في صحّةٍ جيّدةٍ؟ هل عَهد إليكِ برسالةٍ؟». قاطعها جوست الذي كان قد وافق على تلك التّفاصيل العمليّة، ولمْ يكن يفكّر سوى بأبيه.

- «لا». أجابت المستشارة بغضبٍ: «هناك رسولٌ أوصل إلينا رغباته، لكنْ أرجو أن تستمرّا في سماعي. يجب أن تلتزما بالإجابة عن الأسئلة التي ستُطرح عليكما بكثيرٍ من الحذاقة، خصوصاً فيما يتعلّق بعُمريكما. بالنّسبة إلى جميع النّاس، جوست عمره ثلاث عشرة سنةً، وكولان إحْدى عشرة سنةً. هل هذا واضح؟».

وافقا، وهما منزعجان قليلاً؛ لأنّ كلّ واحدٍ منهما يضيّع بذلك سنتين، ورأيا نفسيهما وقد تقهقرا على صعيد العُمر.

- والآن، يا ولديَّ، هناك إعلانٌ أخير.

استعادا توتّرهما لكثرة ما كانت تثيره لديهما من مخاوف امرأةٌ كهذه تخفي السُّمَّ في الطّرف الأخير.

- النّاس الذين ستلتقيان بهم خلال هذه الرّحلة خليطٌ من الأنواع كلّها. من بينهم من يبحث عن أبيكما لينتقم منه ويقتله. يجب إذنْ أن تمتنعا تماماً عن كشْف اسمكما، أو اسمه، وهما متشابهان.

- هذه الفكرة الأخيرة كانت تبيّن بما يكفي أنّها لمْ تكن قد عقدت العَزم تماماً على قبول أن يضيّع ابنُ عمّها اسم كلامورغان على ولديّ الحرام هذين.

- «كيف سنتوصّل إذن لإيجاد أبينا؟». اعترضت كولومب بحماسٍ: «إنْ كنّا لا نستطيع أن نقول أبداً من نحن؟».

- هو سيبحث عنكما بفضل العلامات التي أرسلتها إليه مع الرّسول الذي حمل إليَّ أخباره.

جعلتهما يردّدان تلك التّعليمات، وتأكّدت أنّهما قد فهماها تماماً، ثمَّ ودّعتهما وداعاً لمْ يخلُ من بعض الانفعال.

- سلّمتُ أمركما لله لكي يحميكما.

لكثرة ما رأيا في إيطاليا جيوشاً فرنسيّةً ترفع الصّليب في مواجهة جنود البابا، وهؤلاء النّاس كلّهم يدّعون أنّهم ينحدرون من الرّبّ نفسه، عَدَّ جوست وكولومب أنّه من باب الحذر ألّا يفكّرا كثيراً بهذا البُعد الدّيني؛ أمّا فيما يتعلّق بالرّغبات التي يحملانها للمستقبل، فقد فضّلا أن يسلّما أمرهما إلى بعضهما بعضاً، وها هي أيديهما التي كانا يحتفظان بها دائماً مترابطةٌ تشدُّ على بعضها.

بعد رحيل المستشارة، عادا إلى بيتهما لكي يربطا أسمالهما وهما يقومان بآلاف القفزات الفرحة؛ لأنّهما كانا سيلتقيان بأبيهما، ويستعيدان الحياة التي يُحبّانها.

- «هل رأيتِ». صرخ جوست: «حتّى إنّها لمْ تقلْ شيئاً عن الحصان غرانغاليه!».

الفصل 5

في مكانٍ ما داخل ذاكرتهما، كان جوست وكولومب يحتفظان بانطباعٍ مطمئنٍّ؛ أنّهما كانا قد سافرا من قبل في سفينة. يمكن أنْ يكون ذلك بين مرسيليا وجنوة مع كتيبةٍ ما.

لكنّ تلك الرّحلة التي نسياها تقريباً كانت قد تمّت على متن سفينةٍ حربيّةٍ، وقد أراد البحر المتوسّط أن يبقى هادئاً بينما كانوا يُبحرون. بالكاد كانت السفينة الطّويلة ترتفع عن سطح البحر. كان لها أشرعةٌ صغيرةٌ داعمةٌ لا توحي بالخوف، يحركها ذلك الطّابق المعتم على مستوى الماء، الذي يخرج منه صوت تنفُّسٍ أجشّ، وأصواتُ ضرباتٍ. كانا ما يزالان أصغر من أن يستطيعا تخيُّل ما يختفي وراء ذلك من رُعبٍ، ومن لَعناتٍ. احْتفظا إذاً من تلك الرّحلة الأولى بذكرى طيّبةٍ. هذا الأمان الكاذب لمْ يكن يهيّئهما على الإطلاق للصّدمة التي كانا سيحتملانها.

العَربة التي يقودها بيلوا انطلقت تخبُّ بسرعةٍ منذ خروجها من كلامورغان. كانا مكوّمين في الخلف، وقد لَبسا مثل بعضهما قميصاً وبنطالاً جديدين. أمَرت خالتهما بخياطتهما بسرعةٍ. جوست كان يحمل على ركبتيه خُرْجاً، ويستند إلى كولومب، وذراعه تحيط برقبتها، ومثلما

كانا يفعلان دائماً حين يسافران، كانا يشكّلان جسماً واحداً تختلط فيه حرارتهما المنخفضة، وشَعرهما الأشعث.

لمْ تعُد تلك الفوضى الأخيرة موجودةً بعد أن قُصَّ شعرهما، لكنّ كلّ واحدٍ منهما كان يشعر في أذنه بحفيف الخصْلة الخشنة في شَعر الآخر عندما كانت السّيّارة تقفز.

في تلك الوضعيّة التي كانا عليها، نظرا إلى الخلف، ورأيا كلّ شيءٍ يهرب وراءهما. كانت الأشياء تصير أصغر، ثمَّ تختفي، حتّى لمْ يعُد أكيداً أنّها كانت موجودةً من قبل، وهكذا رأيا برج كلامورغان يتلاشى.

- «أنا متأكّدةٌ من أنّها كذبت علينا». قالت كولومب، وهي تفكّر بخيال خالتهما الأسْود، التي وقفت على الجسر المتحرّك لتودّعهما: «لكنّني لا أعرف بعدُ حول ماذا يدور هذا الكذب».

في منعطف غابة السّنديان، رأيا إيميلين تقفز فجأةً. بدأت تركض، وصَدرها يصفر؛ لكي تمرّر لهما سلّة، لكنّهما لمْ يستطيعا أن يمسكا بها، وانتهى الأمر بسقوط كلّ ما فيها من تفّاحٍ، وخبزٍ أبيضَ في الأخاديد التي حفرتها عجلاتُ العَربة. في المساء السّابق لرحيلهما، بَكيا أسفاً على حياتهما مع المرأة المسكينة، وهي لمْ يكن يعزيّها شيءٌ عن فقدان آخر أولادها برحيلهما، وكانت تتأوّه من أنّ الكوخ كان قد مات نهائيّاً تلك المرّة، لكنْ في استعجالهما لِيذهبا، لمْ تترك تلك السّهرة الحزينة أثراً كبيراً عليهما، وقدْ شَعرا بالدّهشة نوعاً ما عندما رأيا المرأة العجوز تقفز خارجةً من الغابة. كانا قد أبْكيا نساءً كثيراتٍ عُهِد بهما إليهنّ، ويبدو أنّ قَدَرهما أراد أنْ يكونا مصْدر شقاءٍ لأولئك الذين يجعلهم الحُبّ يضعفون تُجاههما.

بعد ذلك، كان طريقهما يحفُّ بشاطئ البحر، ثمَّ اجتازا أراضٍ شاحبةً من العُشب المالح. كانت لو هافر دو غراس مدينةً بُنيت مؤخّراً، ولذلك

لمْ يكنْ فيها أيّة ضواحٍ، فما إنْ عَبرا الأرياف حتّى سارت العَربة مباشرةً بين هياكل أبنية النّجّارين، وسقّالات البنّائين. كان لديهما بالكاد الوقت الكافي ليُدركا أنّهما دخلا المدينة حين سارت العربة بمحاذاة رصيف المرفأ الكبير. بعد ذلك استدار الحصان رُبع استدارةٍ، فإذا بهما بمواجهة رصيف الميناء، فأطْلقا صرخةً عندما رأيا السفن فجأةً.

كانت السفن الثّلاث مثل وحوشٍ هائلةٍ تشكّل أسواراً ضخمةً من الخشب المسودّ، وكانت مؤخّراتها الضّخمة التي نحتت عليها آلهةٌ قديمةٌ حمراءُ وذهبيّةٌ، ترتفع عالياً جدّاً فوق مستوى البيوت. الصَّواري التي يلتفّ عليها الحديد كانت تتدلّى منها حبالُ تأرجحٍ ثقيلةٌ، بعضها مستقيمٌ، وبعضها الآخر مائلٌ. كانت تبدو كأنّها لا تتماسك، وستقع فوق سطوح السُّفن. حبالٌ كثيرةٌ كانت تغطّي هذه الرُّؤيا الشّبحيّة، وتربطها بشبكةٍ لمْ تستطع حركات الخشب المشدود كلّها أن تحرّرها منها.

كانت المراكب الحربيّة التي تناسب الرّحلات القصيرة تحمل تلك الأناقة الهشّة التي نجدها في المشاهد الحميمة، وفي تلك العناقات البحريّة القصيرة، مع أنّها يمكن في بعض الأحيان أن تكون مميتةً؛ أمّا السفن الثّلاث، فكانت مصنوعةً من أجل المحيط. كانت تحمل على نحوٍ مصغّرٍ لا حركة فيه عُنفَ ذلك المكان غير المتناهي كلّه، الذي كان عليها مع ذلك أنْ تصل إلى أطرافه.

لمْ يشعر الطّفلان بنفسيهما صغيرين إلى تلك الدّرجة من قبْل، وفي الوقت نفسه كبيرين أيضاً؛ ذلك أنّهما أمام مثل هذه الكائنات غير المتناهية في الكبَر لمْ يكونا مُختلفين أبداً عن أولئك الذين يتمتّعون بلقب الأشخاص الكبار، الذي تحوّل في هذا المكان إلى شيءٍ مضحكٍ.

- «اسْمع». همست كولومب، وهي تشدُّ على ذراع الصّبيّ.

لمْ تجرؤ على أنْ تسمّيه بيل هادري، طالما أنَّ اسم الشّجاعة هذا، وزينة الفرسان كلّها كانت تفقد قيمتها، وحتّى حياتها أمام مثل هذه الرُّؤى.

أصاخ جوست السَّمع، ورأى بدوره ما يجعل المشهد يمسك بالأنفاس؛ كان يُهيمن على الرَّصيف صمتٌ كبيرٌ. لمْ يكن يتناهى إلى السّمع سوى ضجّة الخطّافات الكبيرة التي كانت في عُرض رقبة حصانٍ، والتي كانت تنشدّ حسْب التّأرجح البطيء للسفن.

- «هيّا!». صرخ بهما بيلوا: «انزلا أنتما الاثنان!».

في الواقع كان قد احتفظ بصوته خفيضاً، لكنْ ضمن الهدوء العامّ، رنّت تلك الجملة مثل صرخةٍ. قفزا على الأرض، وعيونهما مثبّتةٌ على السفن.

لمْ يكتشفا إلّا عندما استدارا أنَّ الرَّصيف كان ممتلئاً بالنّاس على الرغم من هذا الصّمت. كان هناك أشخاصٌ كثيرون أمامهم، يقفون بين قُففِ القِنَّب، والرّافعات المجمّدة، وبالات الخيْش. كان هناك أشخاصٌ على النّوافذ، وفي الأزْوقة داخل السفن التّجاريّة، وأشخاصٌ يتعلّقون بالأوتاد، أو يتمسّكون بصواري الإضاءة، ويقفون بتوازنٍ على العربات المفكوكة التي كانت ركائزها تهتزُّ بخَطرٍ تحت الثِّقل، وكان الجميع ينظرون في الاتّجاه المعاكس.

- «اتْبعاني». أمرهما بيلوا.

بدأ يشقُّ لنفسه طريقاً في الحشْد الذي لمْ يكن لحُسْن الحظّ متراصّاً على نحوٍ كبيرٍ. انسلَّ الطّفلان خلفه من دون أن يثيرا أيَّ إزعاجٍ. بالكاد زمْجر بعضُ الأشخاص الذين كانت عيونهم ضائعةً في البعيد عندما داسا في استعجالهما على أقدامهم، وكلّما كانا يتقدّمان في هذه الموجة من البشر المتراصّين بين الضّفّتين المزدوجتين للبيوت والمحالّ التّجاريّة من

جهةٍ، وباطن السفن من الجهة الأُخرى، كان بيلوا يُبطئ من سَيْره. لمْ يكنْ ذلك لأنّه كان يلاقي عوائقَ أكثر، إنّما لأنّه صار يتصفّح وجوه الذين يصل إليهم، وبدا عليه أنّه يبحث عن شخصٍ ما.

فجأةً، عندما سَرَت بعض العلامات الغامضة بين النّاس في صمتٍ، ركع الجميع. كانت تلك حركةً بطيئةً، موجةً كبيرةً صامتةً تتوافق مع تلك التي كانت تحرّك المراكب. بفضل حركة السُّجود الواسعة التي جعلت جوست وكولومب أعلى من سائر الرُّؤوس؛ بسبب بقائهما واقفين، استطاعا اكتشاف ما كان النّاس كلّهم ينظرون إليه، فمن بعيدٍ، ضمْن نطاق السّاحة الكبيرة التي تهيمن عليها واجهة الكاتدرائيّة المسطّحة، نُصِبَتْ منصّةٌ تظلّلها ستارةٌ قرمزيّةٌ، وكان هناك كاهنٌ يرتدي مُسوحاً لمّاعاً يُقيم قدّاساً.

- انظر، بيل هاردي، إنّهم يتحضّرون للمعركة.

خطرت لجوست في اللّحظة ذاتها الفكرة نفسها. كانت القدّاسات الوحيدة التي حضراها هي التي كانت تُقام قبل المعارك المسلّحة في إيطاليا، لكنَّ هذا القدّاس كان يتفوّق على البقيّة بما فيه من حميّةٍ وحرارةٍ، فكان هناك رجالٌ تفيض بالدُّموع وجوههم التي خيّطتها المعارك؛ وآخرون في ريعان الشّباب، بالكاد لاحَت على وجْناتهم ظلالُ لحيةٍ، يستعدّون لتقديم حياةٍ لمْ تدُم كفايةً، لكنّهم لمْ يعرفوا كيف يملؤونها بشكلٍ أفضل. اليوم، ها هما الطّفلان يبصران على الوجوه ذلك الحضور الخارق للموت وللأمل في هذا الحشْد الأخْرس من النّاس؛ ففيما عدا النّاس الموجودين على الشُّرفات، وفي تقاطعات الشّوارع، كان الذين على الرَّصيف كلّهم رجالاً. استحوذت على ألبابهما تلك الخطبة الصّامتة، فخرّا راكعين بدورهما، وضمّا يديهما كي يصلّيا من دون أنْ يعرفا كيف تكون الصَّلاة.

لكن بيلوا أتى فجأةً ليمسك بهما من ياقاتهما، ويرفعهما بقسوةٍ.

- هيّا! ماذا تفعلان أيُّها الشّقيّان؟ وقوفاً.

صدرت عن الحشْد كلمة «صَه» وهمهمات، لكنّ بيلوا، وقد تبعه هذان المبتدئان في المجال الدّينيّ راح يشقُّ طريقه مستفيداً من الركوع الجماعي لكي يتّجه مباشرةً نحو المذبح الذي يقام القدّاس عليه. وصلوا إلى أقرب حدٍّ ممكنٍ من مجموعةٍ مركزيّةٍ كانت متوضعة أمام المُدرّج، وتتألّف من فُرسانٍ يحملون صليب مالطة الأبيض، وينتظرون نهاية الاحتفال. نظر الطّفلان حولهما باهتمام، وكذلك فعل بلوا. ومن دون أن يتحدّثا في الأمر، أحسَّ كلٌّ منهما أنّ هذا العرض كان ممتلئاً بذكرى أبيهما، فلمْ يستطيعا منْع أنفسهما من البحث عن وجهه داخل الحشْد.

بعد أن انتهى القدّاس، لمْ يتبدّد الصّمت مباشرةً، فقد قام الأسْقُف الذي يحمل صليباً قرمزيّاً بيده بمباركة الرّجُل الذي تابع الاحتفال كلّه من فوق المنصّة معه. كان الوحيد الذي أُتيح له هذا الشّرف، وقد بقي راكعاً طيلة الوقت على ركبتيه؛ ليُظهر التّواضع الذي كان يستقبل فيه ذلك الكشف. بعد ذلك قام الكاهن بمباركة الحشد، وهو يرسم بيده حركاتٍ كبيرةً نحو السّماء، كما لو كان يفلت عصافير من عِقالها.

وقف الرّجُل منتصباً على المنصّة؛ ترك الكاهن المكان له بعد أن أتمَّ مهمّته. بالكاد استطاع الطّفلان من مكانهما القريب جدّاً من السُّدّة أن يميّزا ذلك الذي كان على المنصّة، وقد أخفاهما عن بصره الصّفُّ الكتيم لفرسان مالطة. بدا لهما هائلَ الحجم؛ لأنّ الحشود التي وقفت أخْفت الكاهن تماماً، في حين كان هو يُهيمن عليها من عَلٍ، وقد سمعا صوته القويّ ذا النّبرة العريضة يقول:

- على بركة الله. هيّا نبحر يا إخوتي، ففرنسا التي في قارّة الأمريكيّتين تنتظرنا. لتَحْيا المسيحيّة، ليَحْيا الملك!

لاقت كلماته تلك ترحيباً عارم الضّجّة. كان من الصّعب فهْم كيف يمكن للصَّمت أن يتحوّل من لحظةٍ إلى أخرى إلى مثل هذا الضَّجيج. استمرَّ الصَّخب، وراح كلُّ واحدٍ يُحيّي على طريقته. قفز الرّجُل الهائل من السّقّالة، وشقّ طريقه بين الجموع، وقد أحاط به فرسان مالطة الذين كانوا يفجّرون عند مروره صيحاتٍ، مثل: «عاش فيلوغانيون! عاش الأميرال! البرازيل لنا». انساق بيلوا وراء تلك المجموعة، وقد استطاع أخيراً حين تمسّك بأحد الفُرسان أن ينال المعلومات التي كان يبحث عنها. اتّجه بصعوبةٍ نحو رجُلٍ مستدير القامة له لحيةٌ مدبّبةٌ، وصرخ: «السّيّد دو لا دروز!».

لمْ يسمَعْه الجنديُّ؛ لأنّه كان منشغلاً بتتبُّع الخطوات الكبيرة التي كان يخطوها فيلوغانيون. أخيراً توصّل بيلوا إلى أن يمسك بذراعه ويوقفه. رضخ غونزاغ لهذه الحركة بغضب.

- «ها هُم الأطفال». بيّن له بيلوا في حين كان الضّابط العجوز مستعدّاً لأنْ يطلب إليه أنْ يحدّد شاهديه للمبارزة. من الواضح أنّه كان بعيداً جدّاً عن تلك المسألة، لكنّه عندما تذكّر الأمر قال مُسرعاً:

- آه، أولاد شقيق مدام..

كانت تلك الجملة بمنزلة دعوةٍ. اعتقد دون غونزاغ أنَّ بيلوا يمكن أن يكشف له الاسم الذي لمْ يخطر في باله أن يسأل عنه وقتها.

- «مدام!». كرّر الجنديُّ مرّةً ثانيةً.

لكنّ بولوا، بعناده المعروف، وبطريقته في تفادي الأسئلة قال فقط:

- هذا هو جوست، وهو الأكبر. الثّاني هو كولان. لديهما ما يلزم في خرجهما. إلى اللّقاء يا كابتن!

وبالرّشاقة نفسها التي جعلته يصبح مخيفاً جدّاً في كلامورغان؛ لأنّه كان يظهر ويختفي عندما لا يتوقّعه أحدٌ، اختفى بيلوا وذاب بين الجُموع.

- «انتظر!».صرخ دون غونزاغ الذي رأى نفسه في خطرٍ مع هذين الطّفلين بين يديه، وفوقها فكّر بأن فيلوغانيون وحَرسه كانوا قد صاروا بعيدين بسبب هذا الحادث. جرّ الطفلين معه، لكنْ من دون أن يستطيع الّلحاق برئيسه، وشَعرَ بضيقٍ شديدٍ من جرّاء ذلك. كان الرَّصيف على درجةٍ كبيرةٍ من الضّجّة والفوضى، تشبه الجمود الذي أصابه في أثناء هدوء الصّلاة. كان هناك رجالٌ يركضون في الاتّجاهات كلّها، وينادون بعضهم، ويحملون حمولاتٍ ثقيلةً على أكتافهم، أو يجرّون صناديق. تردّد دون غونزاغ، وهو لا يدري ما يجب أن يفعل، ثمّ قرّر أنّه لم يتفحّص بعدُ هذين التُّرجمانين المستقبليّين. دفعهما نحو بيتٍ مفتوحٍ، وقادهما إلى الدّور العُلويّ ضمن رواقٍ فارغٍ مزيّنٍ بالميداليات من خزف الميولويك الإيطاليّ، مرسومٍ عليها وجوهٌ جانبيّةٌ من العصر القديم.

- «دعاني ألقي نظرة عليكما». قال الكابتن، وهو يتفحّصهما الواحد تِلو الآخر.

ظنَّ جوست أنّه سيتفحّص جسديهما، ويكتشف تنكّر أخته، لكنّ ذلك كان يعني أن تُنسب إلى دون غونزاغ حرّيّةً كبيرةً لمْ تكن لديه فعليّاً في هذا المجال. لمْ تخطر في باله قطُّ فكرة أنّ أحدهما يمكن ألّا يكون ذَكراً، كان فقط منشغلاً بمعرفة إنْ لمْ يكونا قد تجاوزا السنّ المناسبة للوظيفة المهيّأة لهما. سمحت له سماء المرفأ الضّبابيّة الواسعة فوق الرّواق المكشوف أنْ يرى أخيراً وجهيهما. كان وجه كولومب أملسَ، وقد أرضاه ذلك، لكنّ جوست هو الذي على العكس أثار قلقه.

- «ما هذا؟». صرخ الجنديُّ العجوز، وهو يجسُّ بقسوةٍ الكتف العريض للصّبيّ، وجعله يدور أمامه.

- ذقنك مغطّاةٌ بالوبْر! ما عُمرك إذاً؟

- ثلاث عشرة سنةً.

- ثلاث عشرة سنةً! بحقّ الله! إمّا أنّك متقدّمٌ بالنّسبة إلى عمرك، وإمّا أنّك تكذب. لقد أخذت إلى القتال صبياناً أصغر حجماً منك، وكان عمرهم ثماني عشرة سنةً.

سُرّ جوست من المديح. كانت لديه رغبةٌ عارمةٌ بأن يعترف لهذا الكابتن برغبته في أنْ يحمل السّلاح منذ الآن، لكنْ استطاع لحُسْن الحظّ أن يتمالك نفسه؛ لأنّ الإعجاب سُرعان ما تلاه غضبٌ عارمٌ لدى دون غونزاغ.

- «كان عليَّ أن أشكّ في ذلك!». صرخ قائلاً: «كيف كنتُ على تلك الدّرجة من الغباء بحيث أصدّق تلك الرّاهبة الملعونة فيما قالته؟».

وأضاف وهو ينظر بقسوةٍ إلى جوست:

- ما الذي سأفعله بكَ الآنَ، وقد اختفى ذلك السّائس الّلعين. هل تعرف على الأقلّ كيف تعود من حيث أتيت؟

رأت كولومب أنّهما مُعرّضان من جديدٍ إلى خطر التّفريق بينهما فتدخّلت. كان يمكن لنظرتها الشّاحبة والمخيفة أن تنصبّ على أيٍّ كان من دون أن تجعله يتّهمها، أو يتّهمه، طالما أنّها صارت الآن صبيّاً؛ بالوقاحة، أو بالجرأة. سمّرت نظرها على عينيّ دون غونزاغ، فأثارت خشيته، وقالت له بنعومةٍ:

- يا سيّدي الضّابط، أخي لا يكبرني سوى بسنتين. بما أنّ عُمري إحدى عشرة سنةً كما ترى، فإنّه لا يمكن أنْ يكون سوى في الثّالثة عشرة. لقد بدأ ينمو من ستّة أشهرٍ فقط؛ لأنّ أبانا رجُلٌ ضخمٌ، وبنيته قويّة. إنّه مسار الطّبيعة لا غير.

هزّ دون غونزاغ كتفيه، لكنّه بدا عليه أنّه قد هدأ قليلاً. سكتَ، وأدار

عينيه في اتّجاه المرفأ. من تلك الشرفة، كان يمكن رؤية سطوح المراكب التي كانت تمتلئ بالنّاس ببُطءٍ. مئات البحّارة مثل النّمل الذي يحمل أغصان شجرٍ، كانوا يشكّلون مسبحةً طويلةً على الممرّات الخشبيّة التي تمتدُّ صعوداً نحو السّلالم المتحرّكة في السفن. كانت الضّفاف المستوية قد امتلأت بالمسافرين، وسينتهي صعود الجميع إلى السفن بعد قليلٍ. كان يجب الإسراع.

عاد دون غونزاغ إلى الأطفال متجنّباً النّظر إلى الأصغر بينهما، وقال بضيقٍ، وهو يُشير إلى جوست بحركةٍ من لحيته:

– مع ذلك، فإنّ تلك الرّاهبة قد لعبت عليَّ، الأخت كاترين! ليتَ الطّاعون يطالُها. لنْ أنسى لها ذلك، وتلك الأُخرى، خالتكما، ما اسمها؟

هل كانت يجب عليهما أن يُفصحا عن اسمها؟ إنّها لمْ تقلْ لهما شيئاً حول تلك النُّقطة:

– «مارغريت».قالت كولومب بحذرٍ.

– مارغريت ماذا. ألا يريد أحدٌ أن يقول لي ما اسم تلك السّيّدة؟

تهيّأ دون غونزاغ لأنْ يعترض، لكنّه لمْ يفعل شيئاً، فقد ملأه اسمُ مارغريت النّاعم بحالٍ من الرّاحة جعلته لا يرغب في أن يعكّر مزاجه بأسئلةٍ أُخرى، وعلى الرغم من الضّيق الذي كان قد شعر به أمام تلك السّيّدة المرتدية السَّواد، فقد احتفظ بذكرى واضحةٍ، وليست سيّئةً عن وجهها الجميل وعِطرها. خبّأ مارغريت تلك في زاويةٍ منزويةٍ وأثيرةٍ من ذهنه، وترك لنفسه وحْدها متعة أن يذهب هناك ليزورها في يومٍ من الأيّام عندما تعود إليه روح تأليف الأشعار.

– «هيّا!». قال خاتماً الموقف: «كان عليّ أن أراكما قبْل أن أقبَل، لكنْ لمْ يعُد هناك وقتٌ للعودة عمّا قيل، لكنْ هل قَبلتما السَّفر بإرادتكما؟».

- «نعم». أجابا معاً بصوتٍ واحدٍ.

- «حسنٌ». زمْجر دون غونزاغ، وهو يدفعهما أمامه: «يجب ألّا يفوتنا موعدُ الإبحار».

الفصل 6

في التّدافع الذي سبق الإقلاع، كان في المرفأ بحّارٌ يشبه سائر البحّارة، منهمكٌ في العمل. كان حافي القدمين، وسخاً، وسيّئ الهندام، كمن اعتاد أنْ ينام على الأرض، وألّا ينظّف نفسه إلّا في أيّام العاصفة، لكنّ تفصيلاً صغيراً جعل منه فريداً من نوعه، فقد كان يسير وراءه اسكوتلنديّان اثنان ضخمان خَرجا في الحال من ضباب تلك البلاد، يرتديان الثّياب التّقليديّة ذات المربّعات الحمراء، ويتسلّحان برماحٍ ثقيلةٍ، فلو ذهب البحّار إلى اليمين، أو اليسار تحرّك هذان الاسكوتلنديّان معه، من دون أن يتركاه قَيْد أنْمُلةٍ، وهكذا جعلهما يقومان بانعطافاتٍ عدّة، وصعد عَدْواً شارعاً صغيراً ممتلئاً بالحبال الجديدة، كما مرّ أمام بائع حلوى من دون أن يصغي إلى كلامه المعسول. في النّهاية، قادهما نحو بيتٍ كبيرٍ مربّعٍ يقع وسْط تقاطع أربعة طرقٍ كان يُستخدم بوصفهِ نُزلاً، لكنْ عندما أراد أن يدخل هناك، أمسك به أحد الاسكوتلنديّين من ذراعه، وهو يعقد حاجبيه.

- «أرى أنا الشّيخ عمّي!». شرح البحّار بلغةٍ لمْ يفهمها أيٌّ من مرافِقَيه، وهي لَهجة سكّان فينيسيا: «أقول عمّي وداعاً، عمّي شّيخ مسكين».

بحركاتٍ، وابتساماتٍ كثيرةٍ، وذراعٍ منثنيةٍ على شكل دائرةٍ، ومع

الإبهام مشدوداً إلى الأصابع الأربعة الأُخرى بحركةٍ تشبه من يشدُّ حبْلاً غير مرئيٍّ في جرسٍ صغيرٍ، استطاع البحّار على ما فيه من وسخٍ، وبوجهه الذي أكلت اللّحية معظمه، أن يبثَّ أشعّةً من الطّيبة، والمودّة، والبراءة. كرّر أنّه لا يريد سوى أن يودّع عمّه، وراح يقلّد بالإيماء القُبلات التي تُعطى باحترامٍ لشيخٍ مُسنٍّ. جعل هذا العَرْضُ الإيمائيُّ الغامضُ الاسكتلنديّين يفهمانِ شيئاً آخر تماماً. احمرّت وَجْناتهما بعض الشّيء، ونظرا إلى البناء، وحَكَما أنّه لمْ يكن ضمن مهامهما أن يمنعا رجُلاً يريد الرّحيل إلى البعيد، ولمدّةٍ طويلةٍ من أن يريح جسده للمرّة الأخيرة. قام أحدهما بالدَّوران حول النُّزل، وتأكّد أنّه ليس له سوى بابٍ واحدٍ، ثمّ تركا الإيطاليّ يدخل إلى البناء، وقاما بنوبات حراسةٍ في الخارج، وهُما يصالبان رماحهما.

في مدينة هافر دوغراس الجديدة، تلك التي بناها فرانسوا الأوّل لكي يعطي لفرنسا بوّابةً كبيرةً على الأطلسيّ، بالقرب من باريس، ومن مقاطعة فلاندرا، كانت البيوت ما تزال بيضاء، مطليّةً بالكلس من فترةٍ قريبةٍ، وتفوح من أعمدتها الخشبيّة رائحة الشّجر الطّريّ عوضاً عن رائحة الحطب اليابس. لمْ يكن أيّ شيءٍ من هذا مناسباً لتصوّر الجوّ الحار الذي يمكن أن يهيمن على نُزُلٍ مخصّصٍ للبحّارة، وواقع الأمر أنّه في الصّالة الكبيرة التي بُيّضتْ، والتي تتراقص فيها نيرانٌ فاتحةٌ، كان هناك أربعةٌ من ملّاحي الآلات، قاتمي السِّحنة، ينتظرون عودة اللّيل، وهُم يشربون في كؤوسٍ كبيرةٍ من السّيراميك شديد الزُّرقة، كانت تذكّرهم على نحوٍ مُرعبٍ بالبحر.

من دون أن يتوقّف الإيطاليُّ في الصّالة، صعد الدّور الأعلى على سلّمٍ خشبيٍّ، وولَج إلى غرفةٍ تطلُّ على الدَّرج. كانت غرفةً مرصوفةً ببلاطاتٍ حمراءَ تلتمع من الشَّمع الذي عليها. لمْ يكن في الغرفة من أثاثٍ سوى سرير رُفعت ستائره، وخزانةٍ واطئةٍ ضخمةٍ من خشب السّنديان. كانت

النّافذة مفتوحةً، ويتراءى منها المرفأ في شمس الصَّباح البيضاء. على جانبيّ النّافذة كانت هناك مصطبةٌ من الحجر عُمقها بمقدار سماكة الجُدران، ولمْ تُغطَّ بالوسائد بعْدُ، كأنَّ ترتيب الغرفة تمّ على عَجَلٍ.

كان كادوريم، وهو تاجرٌ من البندقيّة؛ جالساً هناك، وقد أشار إلى مواطنه أن يجلس مقابله، لكنَّ هذا الأخير لمْ يفعل ذلك قبْل أن يتأكّد من أنَّ حارسَيْه ما زالا هناك في الأسفل، ولمّا رأى طُرَر الصُّوف في ثيابهما شعر بالرّاحة.

- «لقد وضعتني في ورطةٍ». بدأ البحّار بالكلام، وقد بدا عليه الهَمُّ.

- «ما الذي تقوله؟». قال كادوريم، وقد بَدت عليه الدَّهشة: «لقد أنقذتك من السَّجْن».

- لِتضعني في عُهْدة هذين المهرّجَيْن.

- يبدو لي أنّهما يتركان لك حرّيّة الحركة.

- من دون أن يبتعدا عنّي خطوةً واحدةً.

- «هل تعتقد»، سأله كادوريم بصوتٍ خفيضٍ: «أنّهما يفردان لك معاملةً خاصّةً؟ أعني أنّهما يحذران منك؟».

- لا. ليس في هذا المجال. إنّه المصير المخصّص للمحكومين كلّهم الذين أُجِّلَ تنفيذُ حُكمهم؛ لكي يُبحروا. إنّهم يخافون كثيراً من أن يهرب منهم هؤلاء قبل الرَّحيل.

تنهَّد البحّار، وهو يقول ذلك.

- «ألمْ يخطر في بالك هذا الأمر؟». قال كادوريم، وهو يبتسم بنعومةٍ.

نظر إليه البحّار، وهو يهزُّ أكتافه. بعد ذلك، ومن دون أن يقول شيئاً، حرّك الفينيسيُّ سبّابته بخُبثٍ كمن يؤنِّب طفلاً صغيراً.

- «على كلّ الأحوال، لا تخشَ شيئاً». قال البحّار: «فنحن سنرحل بعد قليلٍ».

عند هذه الكلمات، نظرا كلاهما إلى المرفأ. كانت السفن الثّلاثة التي تتأهَّب للرّحلة إلى البرازيل تهيمن على زوارق الصَّيد والتّجارة، وعلى أرصفة الميناء، وترفع عالياً أشرعتها الضّخمة الممتلئة بالحبال والعوارض الخشبيّة.

- «على الرغم من كلّ شيء»، صفّر كادوريم: «فإنَّ المنظر جميلٌ!».

عندما سمع البحّار هذه الكلمات قال بمزاجٍ سيّئٍ:

- جميلٌ بالنّسبة إلى من يبقى على الرَّصيف.

بصق بعدها على الأرض، فظهرت على كادوريم أمارات القَرف.

- هيّا يا صديقي، هناك نافذةٌ لفعل ذلك.

- «وتحت النّافذة يوجد الاسكوتلنديّون». قال الآخر مزمجراً.

- حَسنٌ، يجب أن تشعر بالسّعادة يا فيتوريو، فبدءاً من الغَد سيكون أمامك امتداد المحيط كلّه لاستقبال قذاراتك.

أثّرت في البحّار تلك الّلهجة السُّلطويّة، فغيّر سِحنة وجهه مباشرةً، كان يعرف كيف يفعل ذلك، وهذه الموهبة هي التي أعطته القدرة على أن يصبح محتالاً على اليابسة، لكنّ القَدَر أراد تسليمه إلى عرض البحر الذي كان يشعر تُجاهه بخشيةٍ كبيرةٍ. تأوّه قائلاً:

- آهٍ يا سيّدي! أتوسّل إليك، أنقذني من هذه الورطة نهائيّاً. تعلم أنّني كنت أُفضِّل السّجن على الإبْحار. وعْدُك وحْده هو الذي...

- «لمْ أنسَ ذلك». قاطَعه كادوريم، وهو يُخرج صُرّةً من تحت الغطاء الذي كان يغطّيها: «إليك خمسمئة دوكا ذهبيّة كما اتّفقنا».

- «بالتّأكيد». تابع فيتوريو، وعلى وجهه الهيئة المثيرة للشّفقة نفسها، مدّعياً أنّه لا يهتمُّ لمرأى الصّرة: «لكنْ ما الذي أفعله بالدّوكات الذّهبيّة إن كان عليَّ أن أعيش بين المتوحّشين؟ هل تظنُّ أنّني قد أستعمل هناك هذا المعدن؟ هو مأخوذٌ من عندهم أصلاً».

- «في هذه الحال...». قال كادوريم، وهو يُخفي بسرعةٍ الصّرة الصَّغيرة.

مدَّ فيتوريو ذراعه، لكنّه تأخّر، فقال له كادوريم، وهو يضحك:

- لقد أحسنتُ الفعل حين سحبتك من جماعة اللّصوص. إنّك لا تساوي شيئاً بوصفك قاطع طريقٍ.

- يا سيّدي!

صرخ البحّار، وقد عبّر عن قمّة التّوسُّل حين خرّ على ركبتيه على البلاط، لكنّه تجنَّب بمهارةٍ أن يسقط في المكان الذي وسّخه قبل قليل.

- «هيّا!». قال كادوريم ساخراً: «أنت تمتلك قدرة أفضل على التمثيل، وتلك هي أصلاً الوظيفة التي شغّلتك عندي لأجلها. انْهض».

مدَّ له الصّرة، وفي هذه المرّة لمْ يخطئ فيتوريو في الإمساك بها.

- حدّثني بالأخرى عن رفاق الطَّريق الذين ستسافر معهم. أيّ نوعٍ من النّاس هُم؟

- «كلُّهم مجانين». زمْجر البحّار، في حين كان يحاول أن يدخل الصّرة في كيسٍ صغيرٍ وسخٍ كان يتدلّى من حبلٍ أحاط بعنقه.

وافق كادوريم على قوله قائلاً:

- لقد رأيت بعضهم، وبَدوا لي بالفعل جاهلين بما سيُقدمون عليه، لكنّني مجرّد تاجرٍ بسيطٍ، ولا أستطيع الاقتراب من دون إثارة المخاوف. أنت الذي خالطتهم عن قُرب. حدّثني عنهم أكثر.

- «لمْ أرَ في حياتي طاقماً مشابهاً!». قال فيتوريو بسخطٍ، فردَّ عليه كادوريم بابتسامةٍ ساخرةٍ:

- هُم شلّةٌ من قُطّاع طريقٍ من المحكومين حسْب ما يُقال عنهم؟

- «هؤلاء هُم الأقلّ سوءاً». انطلق البحّار متحدّثاً من دون أن يُلقي بالاً إلى تلك الكلمة الجارحة: «ما يرغبون به واضحٌ على الأقلّ، لكنْ عندما فتحوا أبواب السُّجون لمْ يجدوا سوى قُطّاع طرقٍ شرفاء، صدّقني. مُقابل كلّ وغدٍ عاديٍّ، قاموا بتحرير عشرة من المستنيرين الذين أصابهم الأخ لوثر بالجنون عندما وضع في رؤوسهم فكرة أن يذهبوا ليروا بأنفسهم ما جاء في الكتاب المقدس».

شَعر كادوريم بأنّه سيعود إلى البصاق، فأوقفه بحركةٍ من يده، ثمَّ عاد للكلام باهتمامٍ:

- هكذا إذاً، تقول لي إنّه يوجد كثيرٌ من البروتستانت ضمن البحّارة؟ هل هُم منظّمون؟ هل هُم في مهمّةٍ كلّفتهم بها كنيسةٌ مهرطقةٌ؟

- لا أعتقد. كلّ واحدٍ من هؤلاء المجانين يدّعي أنّه يعرف أفضل طريقةٍ لخدمة يسوع، ويريد الموت للّذين يدعون إلى طريقةٍ أُخرى كلّهم. هؤلاء المجانين متفرّقون، ولا تجمعهم أيّة رابطةٍ. في الواقع، معظمهم يكرهون بعضهم.

- ملحوظاتك جيّدةٌ جدّاً يا فيتوريو. يبدو لي أنّك موهوبٌ في المجال الذي أُهيّئك له.

- «لا تنسَ يا سيّدي أنّني كنتُ رجُل دينٍ مبتدئٍ، ولو لمْ أُطْرَد من دون حقٍّ...». قال البحّار، وقد اكتسب وجهه فجأةً ملامح الأهمّيّة.

- أعرف يا فيتوريو. تابع. هناك مستنيرون خرجوا من السّجن، وماذا أيضاً؟

- أجل. تلك الفرقة كلّها من فرسان مالطة بصُلبانهم البيضاء على صدورهم، وبهيئتهم العظيمة، إنّهم ما زالوا يعيشون كما في زمن الحروب الصّليبيّة. أنا متأكّدٌ من أنّهم يخلطون بين البرازيل والقُدس.

ضحك كادوريم فاغراً فمه.

- وفيلغانيون، رئيسهم. هل رأيته؟

- من بعيد، إنّه الأكثر جنوناً بين الجميع، حسْب علمي.

- من أين أتيت بهذه المعلومة؟

- من تاجرٍ نورمانديٍّ تعامل مع المشرق، ويتحدّث مثلنا بما يكفي لكي نتفاهم.

- وماذا قال؟

- إنَّ فكرة المستعمرة هذه كلّها أتت من فيلوغانيون ذاك. لمْ يسبق أن طلب النّورمانديّون الذي أبْحروا نحو البرازيل من خمسين سنة شيئاً كهذا. إنّهم يقومون بالتّجارة تحت سمع وبصر البرتغاليّين، وكلّ ما يتمنّونه أن يقوم ملك فرنسا بحمايتهم، لكنّهم كانوا يكتفون ببعض دوريّات الحراسة، وبحِصْنٍ، وعوضاً عن ذلك ها هو فيلوغانيون اليوم قد قرّر أن ينقل هذه البلاد كلّها إلى ما وراء البحار. تصوّر يا سيّدي، لقد أمر بأن توضع في بطن السفن عيّنةٌ ممّا اخترعته الحضارة هنا كلّه: خبّازون، وحرّاثون، ونسّاجون، ونجّارون، وزارعو كرومٍ، وصانعو قبّعاتٍ، ومجلّدو كتبٍ، وصانعو سُقُفٍ. هناك من امتهن تربية الحَمير مع عدم وجود الحَمير، ومَن امتهن الغناء في الشّارع في حين لا توجد شوارع، بلْ لقد حدّثوني عن فتىً يعمل صانعاً للأحزمة المضْفورة، كما لو كانت هناك حاجةٌ لتزرير البناطيل حين يعيش الإنسان وسْط أشخاصٍ يمشون عُراةً.

كانت الطّيور ترسم على السّاحة الكبيرة أقواساً واسعةً، وهي تضحك

كأنّها رجْعُ الصَّدى لبهجة كادوريم الذي كان يضرب على ساقيه من الضّحك، ثمَّ قال كادوريم مزاوداً على البحّار:

– وإلى جانب هذا كلّه، لمْ يفكّروا حتّى بتأمين مُترجمين! لديهم كلُّ ما لا فائدة منه، لكنّهم لا يفكّرون بالضَّروريّات إلّا في اللّحظة الأخيرة.

– بالنّسبة إلى المترجمين، لا يُدهشني ذلك، فحملتهم ليست فقط مثل سفينة نوح، إنّما أيضاً مثل برج بابل. الفرنسيّون القلائل الذين نجدهم في سلك مالطة هذا يجرّون وراءهم حشْداً من النّاس أتوا بهم خلال حملاتهم. لقد التقيتُ ببعض من يقولون إنّهم ينْحدرون من الفرسان التّوتونيّين، وآخرون ينحدرون من الأتراك المرتدّين، وأسْرى انتُزعوا من البرابرة، ثمَّ هؤلاء الاسكوتلنديّين الملعونين؛ لأنَّ فيلوغانيون قد ذهب، حسْب ما يقال؛ ليقاتل هناك...

– وكيف يتفاهم هؤلاء كلّهم؟

– مقابل كلّ واحدٍ يتكلّم الفرنسيّة، هناك خمسةٌ يجب أن يشرحوا ما يريدون بحركات الأيْدي.

– «يا عزيزي فيتوريو»، صاح كادوريم الذي كانت عيونه ما تزال مبتلّةً بالدُّموع لكثرة ما ضَحك: «ستكون مرتاحاً بين هؤلاء كلّهم، وأنا سعيدٌ بأنّني أرسلتك معهم».

عندما سمع البحّار تلك الكلمات، عاد إلى عُبوسه، وقد انكمش وجهه، وأظلم مثل حطبةٍ تفحَّم نصفها، ثمَّ بَردتْ.

– يا سيّدي، هؤلاء المجانين يرحلون كي لا يعودوا، وذلك شأنهم، لكنّني حين قبلت أن أبادل حُكم السّجن بالإبحار، كان ذلك بشرط أن تعيدني إلى الوطن بسرعةٍ، وأنا أُعوّل على ذلك.

– الحقّ معك يا فيتوريو، لكنّ ذلك يعتمد عليك أنت وحْدك.

- عليَّ أنا! هل يعني هذا أنّك تتخلّى عنّي؟

- لا يا صديقي العزيز. ستذهب قوّاتٌ مهمّةٌ لإنقاذكم، لكنّ ذلك يعتمد عليك أنت وحْدك.

- «كيف؟». قال ابن البندقيّة، وتأمّل بعينيه سرعة الباب، ثمَّ المدى المفتوح للسّاحة حيث كانت الحُرّيّة. فجأةً، رأى نفسه ضائعاً، وكان يبحث عن حلٍّ، ولو كان يائساً.

صرخ قائلاً:

- آهِ، كان يجب أن أشكّ في ذلك، ليست لديك أيّة إمكانيّةٍ لأن تعيدني من هناك. كنت تريد جاسوساً، وهذا كلُّ شيءٍ. والآن، امشِ، أيُّها الحيوان المسكين! كم كنتُ غبيّاً عندما اعتقدت أنَّ البندقيّة يمكن أن تفعل أيَّ شيءٍ من أجلي في أمريكا، في حين تجد مراكبنا صعوبةً كبيرةً في أن تعود سالمةً معافاةً من اليونان.

- اتْرك وطننا المسكين بسلامٍ. إنْ كان هناك من يستطيع مساعدتك، فهُم البرتغاليّون، ولا أحد غيرهم.

- «هذا ما كان ينقص!». صرخ فيتوريو، وهو يرسم بسرعةٍ ابتسامةً عريضةً ومضيئةً على وجهه الفحْميّ: «أنت تعمل معهم، وهذا الذّهب... الآن فهمتُ كلَّ شيءٍ».

- «المهم: السر كي تكون سعيداً هو أن تؤمن بذلك». قال كادوريم بحذاقةٍ.

- «لكنْ قُل لي»، أصرّ فيتوريو: «متى سيقوم البرتغاليّون بتوقيفنا؟ هل سيقومون بصدم سفننا؟ آهِ، أيّة متعةٍ في أن نرى فرسان مالطة الخنازير ممزّقين إرْباً إرْباً».

حين وجد فيتوريو أنّ كادوريم لمْ يقل شيئاً، تابع فرضيّاته، وهو يتكلّم بسرعةٍ متزايدةٍ:

- إلّا إذا ما تركونا نصل إلى هناك، ثمّ اختاروا أن يجعلوا هؤلاء الفرنسيّين الملاعين كلّهم عبيداً لهم! قُلْ لهم إنّني سآخذ عشرةً منهم إذاً. عشرةً سأجعلهم يفطسون من العمل في مَنجم ذهبٍ قبل أن أعود إلى هنا مرتدياً ثياب الأمراء.

خلال كلامه هذا كانت هناك ضجّة فتح أبوابٍ، ورنين أصواتٍ تتصاعد من القاعة. انحنى كادوريم بسرعةٍ على النّافذة.

- واحدٌ من الاسكتلنديّين لمْ يعُد هنا!

- «لا بدَّ من أنّه يبحث عنّي». تثاءب البحّار. لقد تأخّرنا. سوف ترحل السفن.

- «في هذه الحال»، استعجله كادوريم قائلاً: «دعني أقل لك هذه الكلمة الأخيرة، فهي الأهمّ: لست أعرف متى، ولا أين، لكنْ يجب أن تصدّقني تماماً، هناك شخصٌ سيأتي لرؤيتك من قِبَلي. تحدّث إليه بالثّقة نفسها التي تحدّثت بها في الحال هنا، وهكذا ستُنْقَذ».

- «وليتهم يشنقون». أضاف فيتوريو بمرحٍ بعد أنْ طمْأنه هذا القَسم الذي أطْلقه مواطنه.

ثمَّ واتته فكرةٌ أخيرةٌ في حين كانت أصواتُ أحذية الاسكتلنديّين الثّقيلة تتصاعد على الدّرج. أضاف:

- لكنْ كيف سأعرف ذلك؟

ابتسم كادوريم بغموضٍ، وانحنى قليلاً إلى الأمام قائلاً بصوتٍ خفيضٍ:

- من سيأتي لإنقاذك يجب أن يعطيك كلمة سِرٍّ.

- ما هي؟

- «ريبير».

اصفرّ البحّار. هكذا إذاً. ذلك الذي قد حرّره سيحمل في الوقت نفسه ذكرى جريمته إلى أطراف العالم؛ لأنَّ ريبير هو اسمُ الرّجُل الذي قتله.

لكنَّ الوقت لمْ يكن مناسباً للتّردُّد، فقد وصل الحارس إلى أمام الباب، رمى فيتوريو نفسه على الباب، واجتازه بسهولة القطّة، وأغلقه وراءه بسرعةٍ؛ حتّى لا يستطيع الاسكتلنديّ أن يرى شيئاً من الغرفة.

الفصل 7

من بين السفن الثّلاث، كانت الأخيرة التي تحمل اسم (لا غراند روبرج) مخصّصةً لاستقبال فيلوغانيون نائب أميرال بروتانيا مع بلاطه المؤلّف من فرسانٍ، ومن علماء. كان مكان دون غونزاغ محجوزاً في هذا المركب، وما كان ليتخلّى عنه بأيّ ثمنٍ.

رافق جوست وكولومب إلى أسفل سفينة أُخرى كانت راسيةً في المقدّمة. (لا روزيه) سفينة تجاريّةٌ أضيفت إليها بعضُ المدافع، وكانت أصغر من البقيّة، ومهيّأةً خاصّةً لحمْل الموادّ والحيوانات. كان هناك جنديٌّ ضخمٌ من البلطيق يمنع الدُّخول إلى سطحها لأيٍّ كان ما لمْ يكن اسمه مسجّلاً بوضوحٍ على قائمته، وبما أنّه بالكاد يقرأ الفرنسيّة، فقد تجمّع حوله حشْدٌ من النّاس المتوتّرين؛ أمّا طاقم البحّارة، وجماعة المحكومين، والجنود، فكانوا قد ركبوا في البداية. لمْ يبقَ عندها سوى الحِرفيّين الذين كان البلطيقيّ ينادي عليهم حسْب تجمّعاتهم المهنيّة، وهو يلفظ الكلمات مغلوطةً. راح يصرخ:

- أتلب تجميع الذنوب..

وكانت الجُموع تعيد ما قال، وتتردّد في فهْمه، ثمّ تصلح الكلمات.

- آهٍ، إنّه يطلب الجزارين[I]...

وهكذا كانت مئات الأصوات تبحث عن أولئك المساكين الذين كان وداعٌ أخيرٌ قد بعثرهم على الرّصيف بين ذراعيّ النّساء والأطفال.

رسم دون غونزاغ على وجههِ سمة الوقار، وراح بذقنه المدبّبة مثل إبرةٍ يشقّ لنفسه طريقاً حتّى الحارس، حيث قال بصوتٍ رنّانٍ، وهو يشير إلى الطّفلين:

- هل المترجمون هنا؟

مع رغبته الواضحة كلّها في الطّاعة، لمْ يستطع الجنديُّ أن يضع في عينيه المفتوحتين على اتّساعهما ذكاءً أكبر من الذّكاء الذي يمكن أن نجده في سماء الفجر في الشّتاء قُرب بحر البلطيق. أمسك غونزاغ بالورقة بيديه، وبدأ يبحث هو نفسه.

- فلنرَ، مترجم... مترجم...

استطاع جوست الذي كان منحنياً على كتفه أنْ يجد الكلمة في القائمة على أنّه لمْ يكن يفهم معناها. أشار بإصبعه إلى السّطر المتوافق معها.

- «أنت تعرف القراءة إذاً!». تعجّب غونزاغ: «هذه نقطةٌ جيّدةٌ تهيّئك لتلك الوظيفة مع كلّ شيء. على كلّ حالٍ، مكانكما هنا. اصعدا، وسنلتقي في المحطة القادمة».

قام بوضعهما الواحد خلف الآخر على الصّفيحتين المربوطتين اللّتين تشكّلان معبراً.

- قدِّما نفسيكما للمعلّم الأوّل هناك، وسيقودكما إلى مَكانكما. هيّا، ليحفظكما الرَّبُّ!

(I) لكلمة les pouches بمعنى ذنوب وكلمة les bouchers بمعنى جزارون لفظ مشابه (م).

قال هذا، وذهب في الحال مسرعاً نحو سفينة (لا غراند روبيرج)؛ لكي يلتحق بالأميرال دو فيلوغانيون.

رفضت كولومب أنْ يمسك جوست بيدها، وصَعدا بحذرٍ، وصولاً إلى سُلّم الحبال من دون أن يتعثّرا، وعندما وصلا إلى سطح السفينة، انتظرا كما أمرهما دون غونزاغ أن يأتي أحدٌ ليوجّه إليهما الكلام، لكنْ لم يكن هناك من يهتمّ لهما. أولئك الذي صعدوا السفينة كلّهم كانوا قد التصقوا بحافة السفينة على طولها من جهة الرّصيف، يصرخون ويلوّحون بأيديهم.

كان البحّارة بأقدامهم العارية يشدّون العَنفات، ويتسلّقون الكابلات والحبال، وينهمكون بالعمل حول المرساة. على الجسر الأعلى وقف رجُلٌ له لحيةٌ ووجهٌ أجْعد، يصرخ مُلقياً الأوامر، وهو يضع يديه على شكل قرنٍ أمام فمه ليكبّر الصَّوت.

انتظر جوست وكولومب قليلاً، ثمَّ فَعلا مثل الذين وصلوا بعدهما. بدآ يتسكّعان على هواهما فوق الجسر، ولأنّه ما كان عليهما أن يودّعا أحداً على الأرض، ذهبا ليقفا متكئين على الحافّة المطلّة على البحر، حيث لمْ يكن هناك أحدٌ. من ذلك المرتفع العائم، كانت مدينة لو هافر دو غراس تبدو مثل خرجٍ طبيعيٍّ مدفونٍ في الشّاطئ، يغطّيه غطاءٌ مزدوجٌ من مكاسر الأمواج التي بُنيت حديثاً. ماءٌ أسْود، وسماءٌ رصاصيّةٌ، وحوامضُ من المدى غير المتناهي تنقّط على الأرض، ولا تَني تذيب كلَّ شيءٍ. كان من المفترض أن تجعلهما حتميّة المجهول هذه يحسّان بالاضطّراب، لكنّهما على العكس كانا يشعران بأنفسهما ممتلئين بالثّقة التي كانا يعزوانها بالغريزة إلى أبيهما، فقد رغب دائماً بأنْ يتقاسم معهما انبهاره أمام جمال العالم، وربّما كان هذا الشُّعور لديهما أقوى ممّا يحملانه في ذاكرتهما عنه كشخصٍ.

خلال ذلك الوقت، كانت تجهيزات الانطلاق قد انتهت، وسُحبت المعابر، كما أُعيدت المرساة إلى السفينة بصعوبةٍ، وبدأت (لا روزيه) تهتزّ بشكلٍ أكبر وأعمق.

- «اسمعي». قال جوست، وهو يرفع إصبعه.

كان قد أحسّ بالسفينة كأنّها كائنٌ حيٌّ يستيقظ، فكلّ ما كان في قاعها، وفي ثناياها، من أبقارٍ حَلوبٍ، وبغالٍ، وخِرافٍ ممتلئةٍ باللّحم، ودجاجاتٍ بيّاضةٍ، ومعْزٍ، وكلاب صيدٍ، أيقظتها اهتزازات المقاصير التي كانت مربوطةً فيها، فبدأت تزْعق معاً.

في تلك اللّحظة نفسها، كان البحّارة الجاثمون في الأعلى وسْط طيور النّورس قد أفلتوا شراع الصّارية الوسْطى، فانفرد مصدراً الحفيف الذي يصْدر عن القماش؛ أمّا الهواء الذي كان حتّى الآن يتجوّل، وهو يصفّر بين الحبال والصّواري، فقد اصطدم بعنفٍ بالعائق الذي انتصب في وجهه. أطلق الشّراع أمام هذا الضّغط ما يشبه صرخة عملاقٍ تلقّى ضربةً في بطنه.

كان من الممكن أن يفوت جوست وكولومب مشهد الانطلاق من المكان الذي كانا فيه، فالجسر الخلفيُّ كان ممنوعاً عليهما، وسطح المركب المستقيم من جهة الرّصيف كان بأكمله منشغلاً بصفّين من الرّجال الذين ما كان يمكن أن يتخلّوا عن أمكنتهم مقابل أيّ شيءٍ في العالم.

- «تعال من هنا». قالت كولومب، وهي تشدّ جوست من كمّه لتقوده.

كانت قد لحظت في مقدّمة السفينة اثنين من البحّارة المتدرّبين صَعدا على صاريةٍ أماميّةٍ متعلّقين بالحبال، وقبل أن يكون لدى أخيها الوقت ليوقفها، كانت قد تغلغلت ووصلت إلى حيث كانا. استفادت من وزنها الخفيف لتلتفّ حولهما، وتجد لها مكاناً، حيث جلست مباعدةً ساقيها

فوق الطّرف المدبّب للخشبة التي كانت تمتدُّ فوق الماء. كان من الصّعب على جوست أن يقنع البحّارة أن يتركوه يمرُّ هو الآخر؛ لأنّه كان أكبر حجماً، ويستطيع أن يوقعهما في الماء، لكنّه توصّل أخيراً إلى أنْ يصعد، واكتشف أنَّ الموقع حيث كانت جوست قد جلست، على أنّه يبدو خطيراً، إلّا أنّه كان مريحاً، ففيه حبالٌ عدّةٌ مضفورةٌ تشكّل ما يشبه الحجرة، استطاعا أن يجلسا فيها الواحد على ركبتيّ الآخر.

كانت لا روزي أوّل سفينة أقلعت، ولذلك لمْ يَريا أمامهما سوى المدى الحُرّ في الخليج الذي انتشرت فيه قوارب الصَّيد الصَّغيرة. فُكَّتْ حبالُ الأشرعة الثّلاثة الأُخرى، وما عاد ينقص المركب أيّ شيءٍ لينشط بتأثير دفع الهواء، مثل دابّةٍ تعود إلى العمل، حرّك المركب جميع مكوّناته التي كانت في حالة سُباتٍ فنشّطها، وتعالى صوت قرقعةٍ دلّ على الضّغط المفاجئ الذي تعرّضت إليه الصّواري والحبال في أثناء ابتعاد المركب عن الشّاطئ.

ستّمئة صرخة وداعٍ انطلقت من حناجر الرِّجال جاوبتها على الرّصيف تأوُّهاتٌ رفيعةٌ من النِّساء والأطفال. قطعان العائلات هذه كانت تثير الشَّفقة، وقد تحرّكت في الوقت نفسه الذي تحرّكت فيه المراكب، ثمَّ ركضت على طول الرَّصيف، وسلكت طريقاً سُدّ بالحجارة لكي تصرخ صرخة الوداع من آخر نقطةٍ تقع على اليابسة.

مدّت (لا روزيه) أنفها الآنَ في اتّجاه عرض البحر، ثمَّ تابعت طريقها من دون تردُّدٍ في اتّجاه المحيط الأطلسيّ، كما لو أنّها اكتشفت مصدر الرّائحة التي كانت تبحث عنها.

عندما ضاعفت السفن أنوارها، وصارت في عرض البحر، انضمّت إلى بعضها، وواصلت الإبحار مجتمعةً. لمْ تعُد الصَّرخات تذهب في

اتّجاه الشّاطئ، إنّما صارت تنتقل من مركبٍ إلى آخر، في حين يجعلها الهواء العاصف تَحيد عن طريقها. تصدّر مركب الأميرال سائر السفن، ورأى الطّفلان تمثالي نبتون اللّذين كانا يزيّنان مؤخّرته، وهُما يتأرجحان أمامهما، وكان الهواء يُعيد من فترةٍ إلى أُخرى النَّغمة التّشريفيّة الصّادرة عن أبواق القُرب التي كان يعزف عليها حُرّاس فيلوغانيون الاسكتلنديّون.

ثمَّ حلّ الهدوء. اعتقد جوست وكولومب للحظةٍ، وهُما مبلّلان برذاذ البحر، أنَّ احتفالات الرَّحيل قد انتهت، لكنَّ الفوّهات البرونزيّة في قطع المدفعيّة سرعان ما أطلقت عشرين كرةً من منافذ السفن. كانا قد نسيا اهتزاز المدافع المرعب والحُلو، فجاء ذلك كآخر قطعة زينةٍ كانت تنقص لباس الحُرّيّة الذي ارتدياه. وضعت كولومب رأسها في فجوة ذراع أخيها، وبَكيا من الفرح، وهُما متعانقان.

وهكذا، بالكاد سَمعا الصّوت الغاضب للجنديّ البلطيقيّ الذي كان يناديهما للتّجمُّع على سطح المركب، في حين كان صفير الهواء يعاكسه.

*

بعد الفوضى الظّاهريّة التي واكبت الإقلاع، أمر القبطان، ويُدعى المعلّم إيمبير؛ أنْ يأخذ الرُّكّاب جميعهم الأماكن المحدّدة لهم. دامت التّحضيرات أكثر من الوقت المقرّر؛ لأنّ المساء كان وشيكاً، وكانت هناك عاصفةٌ تقترب في الأفق كهجومٍ لقطيعٍ من ثيران الأوروك. لمْ يكن المعلّم إيمبير يتوقّع الخير من تلك العاصفة القادمة.

خلال تلك الفترة الأخيرة من الطّقس الهادئ كانت المساحات الواقعة بين جسور سطح المركب ممتلئةً بضجيج حركات التّوضيب، فكلّ رجُلٍ كان يحاول أن يضع أرجوحة نومه على نحوٍ أقلّ إزعاجاً، حسْب الفكرة التي كانت لديه عن مفهوم الرّاحة في هذا المكان المعتم الذي كانوا بالكاد

يقفون فيه. كلّهم كانوا يشعرون بأنّ شهوراً كاملةً من الرّحلة الشّاقّة تتوقّف على تحقيق انتصاراتهم الأولى والصَّغيرة تلك.

لمْ يكن لدى جوست وكولومب الوقت الكافي للمشاركة في هذه المعارك، فلقد قادهما الجنديُّ الذي استلمهما عبْر أدْراجٍ ثلاثةٍ نحو المكان المخصَّص للمُترجمين، ولأنّه كان يُفترض أن يكونوا أطفالاً؛ أيْ: من حجمٍ صغيرٍ، فقد حُجِزَ جُحرٌ بلا فتحاتٍ لهما في عنْبر المركب، بالقرب من المطبخ، إلى جانب المواشي.

- «ممنوع الخلوز». صرخ البلطيقيّ غاضباً، وكان قد فقد الأمل بأن يفهمه أحدٌ على هذا المركب من دون أن يصرخ عالياً.

انحنى جوست لكي يدخل أوّلاً ضمن هذا المجرور، وعندما تلمَّس طريقه شعر به محفوفاً من أحد الجوانب بكومةٍ مستديرةٍ من البراميل، ومن الجهة الأُخرى بسدٍّ من خشب السَّحاحير، التقط منها شوكةً انغرزت في يده. كان ذلك الجُحْر ينفرج تدريجيّاً، ولا شكّ في أنّه كان أعرض في المنطقة التي يلامس فيها الميازيب التي تحمي حجاب السَّفينة، لكنْ قبل أن يصل جوست إلى هناك، اصطدم بكتلةٍ انبثق منها صوتٌ في العتمة:

- توقّف عندك يا أحْمق. ألمْ ترَ النّاس هنا؟

فَهِم القادمان الجديدان أنَّ الجُحر على ضيقه كان منشغلاً قبل وصولهما، وكان عليهما أنْ يكتفيا بذلك المكان الضّيّق الفارغ بالقُرب من المدخل. جلسا متلاصقين، وقد سندا ظهرهما إلى البراميل، وأحاطا ركبهما بذراعيهما.

- «عُذراً». سأل جوست الأشخاص المجهولين: «هل تعرفون كم من الوقت علينا أنْ نبقى هنا؟».

قوبل سؤاله بتهكُّماتٍ شرّيرةٍ.

- «اسْمعوه». اختنق بالضَّحك الصَّوتُ نفسه الذي استقبلهما.

وبدأ الصَّوت يقلّد لَهجة جوست التي كانت مزيجاً من نبْرة النّورمانديّين الجافّة، والتّلوّنات الغنائية في إيطاليا.

تضاعفت الضَّحكات، وقد تبيّن لجوست الذي كان يُصغي أنّها آتيةٌ من ثلاثة أشخاص. كان هناك ضوءٌ ضعيفٌ يأتي من قنديلٍ موجودٍ إلى الأمام بدأ يشقُّ العتمة. انتظرا بصمتٍ أن يتزايد الضّوء، وأن يسمح لهما بالتّعرُّف إلى جيرانهم.

- «أشعر بالعطش». وَشْوَشت كولومب أخاها في أُذنه.

كانت تهيمن على الهواء الرّاكد رائحةٌ مقزّزةٌ تختلط فيها رائحة القار المستعمل في تدعيم خشب السَّفينة مع رائحة الطَّعام المقدَّد، وجزّة صوف الحيوانات، وكانت أفواههما جافّةً مثل عجينةٍ مشقّقةٍ.

- «يجب أنْ تعتاد ذلك». تدخَّل الصّوت قائلاً: «ما من همسةٍ في هذا الجُحر يمكن أن تبقى خفية على الآخرين».

- «ألا يوجد برميل؟». سألت كولومب.

-ها ها! برميل؟ أين يظنّان نفسيهما! ولماذا لا تطلب نافورةً، طالما الأمر كذلك؟

على الصَّفاقة الرُّجوليّة التي كان يرغب في إظهارها، فإنَّ هذا الصَّوت ظلَّ محشرجاً ومغلفاً بتحوّلات المراهقة. حكمت كولومب بأنّ ذلك الذي يتكلّم من العُمر نفسه تقريباً.

- «ماذا نفعل إذاً؟». ألحّت بلهجةٍ طبيعيّةٍ، ومن دون خوفٍ.

- الانتظار. هذا كلُّ شيءٍ.

- «هذا أفضل». استنتجت كولومب بنعومةٍ: «هذا يعني أنَّ الرّحلة ستكون قصيرةً».

قوبلت هذه الملحوظة بعاصفةٍ من الاستهزاء:

- «قصيرة». كرَّر الصَّوت عندما استطاع أن يتنفّس من جديدٍ بعد أن هَدأت الضّحكات.

- قصيرةٌ جدّاً في الواقع، وأنصحك أن تنتظر الوصول لتشرب.

صارت الرُّؤية أفضل، وكشفت العتمة عن كُتلتين متكوّمتين على أنفسهما، ومرميّتين في عمق المكان، وبالقرب من هاتين الكتلتين ارتسمت ملامح جسد صبيٍّ ضخم، رأسه يكاد يلامس السَّقف الأعلى، والأغلب أنَّه رآهما هو الآخر وسَرّه أنْ يلحظ مظهرهما الذي يثير الشَّفقة؛ لأنّه استدرك بتعالٍ كمن يريد أن يبيّن أنّه يمنّ عليهما حين يضعهما تحت سُلطته:

- يجب أن تكتفيا بالشّراب والطّعام الذي سيأتي به بحّارٌ مرَّتين في اليوم، والأفضل ألّا تضيّعا أيّة ذرّةٍ منه؛ لأنّه ليس بالطَّعام الدَّسِم.

- «ومتى سيمرّ؟». سأله جوست.

- ليس قبل الغد. لمْ تكونا هنا عندما قدَّم لنا طعام اللّيل.

كان النّبأ سيّئاً. فهُما لمْ يأكلا شيئاً منذ رحيلهما عن كلامورغان. افتقدا سلّة إيميلين، واستذكرا قطع الخبز الجميلة التي كانت تطوف فوق أخاديد العجلات المبلّلة، ولحُسن الحظّ، فإنَّ تأرجُح السفينة كان قد بدأ يجعل الأمور تختلط في رأسيهما.

- «هل أنتما مترجمان أيضاً؟». سأل جوست بعد قليلٍ؛ لأنّه كان يقلّب تلك الكلمة في رأسه، ولمْ يتوصّل إلى اكتشاف معناها.

- «مثلك تماماً يا رفيقي». قال جارهما متهكّماً: «سنكون كذلك بمجرّد أن يضعونا وسط المتوحّشين».

- «في هذه الحال، سننزل قبلكم». قال جوست، وهو يهزُّ رأسه: «لأنّنا لن نذهب إلى المتوحّشين».

- «إلى أين تذهبان إذاً؟». قال الصّبيُّ الذي صارا يستطيعان رؤية بياض عينيه الآن.

- لنلتقي بوالدنا.

كادت الضّحكات تعود من جديدٍ، لكنَّ زعيم الظّلال أوقفها بحركةٍ.

- «اسكتوا أنتم». قال بلهجة لاعب سيركٍ يعلن عن قفزةٍ خطيرةٍ، ثمَّ أضاف: «إنَّ الوضع خطير».

ثمَّ مدَّ أحد أصابعه في الهواء.

- بما أنَّ هذه السفينة ذاهبةٌ إلى أمريكا حيث يوجد أكلة لحوم البشر، وبما أنّها ستذهب إلى هناك مباشرةً، ومن دون أن تلامس أراضٍ أُخرى، وبما أنَّ هؤلاء يقولون إنّهم ذاهبون للقاء أبيهم، أستنتج من ذلك أنَّ أباهم من أكَلة لُحوم البشر!

وبعد أنْ ترك من قبضته أُنشوطة كلابه انطلق يشارك الجميع في عوائهم.

لكنَّ جوست، وبالسُّرعة التي كان يصيد بها الأرانب البرّيّة بالقوس في غابات كلامورغان، قفز ليمسك برقبة ذلك الذي تكلَّم في الحال. قال له، وقد وصل أنف هذا الأخير إلى وجهه:

- والدنا قبطانٌ كبيرٌ، ورجُلٌ شريفٌ. يجب أن تدفع ثمن إهانتك له.

جعلت المفاجأة الشّخص الضّاحك بلا دفاعٍ، لكنّه سرعان ما استعاد قواه، ورمى جوست، ورمى نفسه عليه بدوره. بدأ جسداهما يتدحرجان على الأرضيّة اللّزجة من الزّيوت ومياه الصّرف. على غضبه المسعور كلّه، لمْ يستطع جوست أن يتغلّب على خصمٍ يبدو أنّه كان متمرّساً في المعارك القويّة، وكان يمطره بضربات قبضاته المريعة والثّقيلة التي تشبه خشبة تقطيع اللّحم؛ أمّا الصّبيّان الآخران، وكانا أصغر، فقد انصبا على

ركبهما، وبدآ يشجّعان بطلهما، مُصدرَيْن ضجّةً كبيرةً. كانت كولومب تصرخ محاولةً أن تفصل بين الخصمين. هذه الضّجّة وقد زادت عليها الرّفسات التي كانت ترنّ في البراميل شدّت انتباه بحّارٍ انحنى على الفتحة، فراح قنديله القويُّ يضيء بقوّة المعركة البائسة. كان جوست بقميصه الممزّق عند الكُمّ يمسح شفته التي تنزف؛ أمّا خصمه فقد جمع بكبرياءٍ أسْماله وابتعد نحو الصَّغيرَين الآخرَين. وعلى الرغم من أنّه كان أصغر من جوست بلا شكّ، فقد كانت لديه قوّة وثقل أبناء الرّيف كلّها. كان شعره حليقاً تبدو فيه تصدّفات الجَرب البيضاء، وأنفه أفْطس، وكان هذا كلّ ما رأياه بسرعةٍ منه.

- «اهدأوا، أنتم هنا، في الدّاخل!». صرخ البحّار: «إنْ كنتم مصرّين على أن تهتزّوا، انتظروا قليلاً، وسنقدّم لكم ما يكفي من الهزّ».

اختفى البحّار مع الضَّوء. تلا ذلك صمتٌ كبيرٌ كان كلّ واحدٍ خلاله يحسب مقدار الخسارة التي مُني بها. بيّن لهم هذا الهدوء من خلال التّعاكس مقدار الاهتزازات القويّة للسفينة، فبالإضافة إلى الموجات المنحنية البطيئة في بداية الرّحلة، هناك دائماً حركة الأمواج القصيرة التي يصدمها كمر السفينة. كانت أربطة البراميل التي يستندون إليها تصدر صريراً بفعل الضّغط، كذلك تصاعدت حشرجة أحشاءٍ هائلةٌ من بطن السفينة حيث كانت تئنّ الحيوانات المريضة.

- «ستدفع الثَّمن». قال الصّبيُّ الذي تشاجر معه.

أجاب جوست بثقةٍ أنّه لا يخاف. كادت الهُدنة ألّا تدوم لوقتٍ طويلٍ، لكنّ الدَّوخة التي أثارتها الهزّات الهائلة هدّأتهما مع كلّ ما حصل؛ فحالة السُّكر الغريبة التي يسبّبها دُوار البحر كانت تضعف أطرافهما، وتجعل الخَدر ينال من تفكيرهما. تشكّل لديهما الشُّعور بأنَّ البراميل كانت

تتدحرج على صدريهما. بعدها بدأت الكلمات التي قالها البحّار تشقُّ طريقها إلى تفكيرهما الذي كان قد ضعف: العاصفة هنا، وقد قرّرت أن تثأر من معصيةٍ ما ارتكبها البشر، والله وحده يعلم سرّها.

طيلة اللّيل كانت العاصفة تدفع السفن التي استسلمت لحركة الأمواج نحو ثنايا أغوارها المهدّدة، وتدخلها في دوّامة شفراتها المتكسّرة. كانت السفن الضَّخمة الكرويّة تتحرّك إلى الأعلى، وإلى الأسفل، ضمن جدرانٍ من المياه؛ لتجنح بعدها بشكلٍ يهدّدها بأن تقع على جانبها وتنكسر، ولحُسن الحظّ منعها من أن تغرق تماماً وجود حمولةٍ ثقيلةٍ في العنابر الممتلئة، والماء الذي كان يسيل نحو الأعماق.

على سطح السفينة كان صمت الغثيان الكئيب قد حلَّ محلَّ ضجّة الأنين والصُّراخ، ولمْ يكن يبدّده سوى صفير الهواء والقرقعة الهائلة للصَّواري التي تتكسّر.

لكن مع الرُّعب كلّه الذي كان يسبّبه البحر العاصف، فإنَّ الخطر كان يأتي خاصّةً من السّاحل الذي كان ما يزال قريباً للغاية، وقد ظلّ المعلّم إيمبير طيلة اللّيل متسمّراً عند الدّفّة التي لمْ تعُد تتجاوب معه، مترصّداً في العتمة العلامة المشؤومة التي يمكن أن تدلّه على وجود رصيفٍ من الصُّخور، أو جُزرٍ صغيرةٍ.

بزغ الفجرُ من دون أن يظهر ذلك الخطر. عاد الهدوء ليسود من جديد، وكان هناك ساحلٌ جعلته العناية الإلهيّة ينتظر نهاية الصَّباح لكي يرسم في الأفق خطوط هضباته.

الفصل 8

في البداية كان الصّباح هادئاً. استيقظ جوست أوّلاً، ورأسه يؤلمه، وظَهره يحمل علامات نتوءات الأرضيّة كلّها. العتمة في الجُحر لمْ تتغيّر، لكنّ خيوطاً دقيقةً من الضّوء الحليبيّ كانت تُسمّر على الخشب الأسْود ما يشبه قصاصات الزّينة البيضاء. كان فَم جوست ملتصقاً من العطش، وناشفاً مثل عجينةٍ. نظر إلى كولومب، وهي نائمة، ثمَّ رأى كوم القماش بالقُرب من الحافّة، وواتَته ذكرى مبهمةٌ لمعركةٍ يجب إنهاؤها من دون أن يتذكّر تفاصيلها بدقّةٍ.

لمْ يكن اللّيل في ذهنه سوى خليطٍ من التّدحرجات، والصّدمات، والصَّفير. كان دُوار البحر قد تركه في نوعٍ من الغيبوبة الكاملة والمؤلمة. كان لديه انطباعٌ مبهمٌ بأنّه سمع صرخاتٍ وضجيجَ مطارداتٍ، وحتّى طلقاتٍ ناريّةً، لكنْ في أيّ ترتيبٍ حصلت؟ لم يكن يعرف. في الوقت الحاليّ، كانت السفينة تبدو بلا حراكٍ تماماً، كما لو أنَّ الصّراع قد استنفد ما فيها من قوى. مرّر جوست رأسه بهدوءٍ خارج الوكْر. كان سطح المركب في حالةٍ كاملةٍ من الفوضى: أراجيحُ نومٍ ممزّقةٌ تتدلّى من أضلاع السفينة، وعِدّة صناديق من المؤونة انفصلت عن المستودع، وجِرارٌ من الصّلصال خرج ما بداخلها، وأسْلمت للذُّباب محتواها اللّامع. كان هناك ضوءٌ

شاحبٌ يأتي من الجسر، ويزيد من بؤس هذا الدّيكور؛ أمّا ما كان يقلق أكثر من أيِّ شيءٍ آخرَ، فهو الصَّمت. عاد جوست إلى الحفرة، وأيقظ كولومب بنعومةٍ. كانت هناك حركاتٌ وعيٍ أيضاً قد حرّكت الأشباح الثّلاثة الذين كانوا يجثمون تحت قطعهم القماشيّة.

- «أريد أن أشرب». تأوّهت كولومب.

ساعدها جوست في أنْ تخرج من الجُحر، وقادها عبر أكوام القُمامة.

- «فلْنصعد ونرَ». قال لها: «لستُ أفهم ما يحصل».

تقدّمت كولومب، وهي تمسك برأسها، وكان عليه أن يسندها لكي تتسلّق السّلالم. كان ما تحت جسر السفينة فارغاً تماماً مثلما هو حال القاع، ولمْ يكن فيه سوى بعض البحّارة مستلقين قرب قطعة مدفعٍ، وهُم يتأوّهون. كان الضَّوء أكثر حِدّةً، واستعادت كولومب وعيها.

في المكان الذي أفضى إليه السُّلّم الأخير، كان على جوست أن يظلّل عينيه بيديه، فالسَّماء كانت قطعةً واحدةً رماديّةً، لكنّها تلتمع كما لو أنَّ الشّمس تحت هذا الغطاء الكامد كانت موجودة في الأمكنة كلّها معاً. كانت (لا روزيه) قد رستْ داخل خليجٍ تحيط به هضابٌ رخوةٌ، وكانت السفينتان الأُخريان في القافلة قد توقّفتا في مكانٍ قريبٍ.

أمسكت كولومب بذراع جوست:

- «انْظر». صرختْ: «لقد وصلنا!».

سَمعا وراءهما صوت صعود رفاق اللّيل السّيّئين، واستعدّت كولومب لتعلن لهما الخبر، وهي تضحك، لكنّها شعرت بجوست يشدُّها من كُمّها، وسألها:

- ما الذي يفعلونه كلّهم هناك؟

استدارت، واكتشفت المشهد الغريب؛ رُكّاب لا روزيه من المدنيّين

كانوا كلّهم مجموعين في مقدّمة السفينة، ومكدّسين عند مَيل الصَّدر الأماميّ.

كان هناك صفٌّ من الحُرّاس يهدّدونهم بالسّيوف التي يحملونها، بالإضافة إلى بندقيّتين أسندت فوّهاتهما إلى شوكةٍ، وسُدِّدتا نحو الجمْع الصَّغير. بعض البحّارة كانوا يتجوّلون بحُرّيّةٍ. اثنان منهم كانوا يغسلون الجسر الذي يحيط بصاري الشّراع الرئيس. كانوا يدفعون إلى داخل دلوٍ كومةً من الزُّجاج المكسور، وشظايا من النّترات كان يلتمع عليها دهانٌ أحمرُ يشبه الدَّم تماماً. من فوق رأسيهما، ارتعدا حين أمسكت بهما من رقبتيهما يدٌ قويّةٌ، وسمعا صوت شخصٍ يقول فوق رأسيهما:

– هه! المترجمون. لقد نسيناهم.

– «اجلبهم إلى هنا». صرخ المعلّم إيمبير الذي كان يقف بين الجنود مقابل الصّفّ الأوّل من الرُّكّاب الأسْرى.

جرَّ البحّار غنيمتَيْه عبر الجسر:

– «لكنّهم كانوا خمسةً. أين سائر الملاعين؟». سأل المعلم إيمبير.

مهما حاول القبطان أن يكون قاسياً عندما يريد، فإنّه لمْ يكن ذو سِحنةٍ شرّيرةٍ بذقنه المزدوجة، وشفتيه الوديعتين، والواقع أنّه لم يكن شرّيراً، وكان من أولئك الذين يمتلكون القناعة بأنَّ لحظات الضّعف البشريّ ما كانت تساوي شيئاً بالمقارنة مع القسوة غير المتناهية للبحر، ولذلك كان يغفرها مُسبقاً.

ولقد شعرت كولومب التي مرَّت أمامه بما يكفي من الثّقة، بحيث خرّت فجأةً راكعةً على ركبتيها.

– «أيُّها القبطان». صرخت، وهي تضمُّ راحتيها: «بحقِّ السَّماء أعطنا ماءً لنشرب. إنّا نموت من العطش».

- «ألمْ يأكلا، أو يشربا شيئاً؟». سأل المعلّم إيمبير.

همس البحّار الذي كان مكلّفاً بتلك المهمّة، وهو يخفض وجهه:

- بسبب العاصفة...

- هيّا! قدِّموا لهم الطّعام والشّراب. أريدهم أن يكونوا مهيّئين لعملهم الجديد. هه، ها هي البقيّة.

كان هناك جسدان بائسان يتدلّيان من ذراع بحّارٍ مثل طريدةٍ، في حين كان الثّالث يعرج سائراً خلفهما. تغلَّب الفضول لفترةٍ على العطش، ورفع جوست أنفه عن وعاء الماء ليتفحَّص وجوه أولئك الذين شتموا أباه. ذلك أنّه بفضل الهواء النّقيّ، والماء الصّافي بدأ يتذكّر كلّ شيءٍ. كان الاثنان الأصغر حجماً بائسين؛ رأساهما كبيران، وأعضاء جسديهما منفوخةٌ، ما يدلّ بلا شكٍّ على أنّهما نَمَوا في الشّارع مثل النّباتات التي تبزغ بين بلاطات الشّارع، لكنّ الكبير منهم كان يعرف ما يفعل، ويبدو عليه أنّه هو الآخر لم ينسَ. كان أكبر قامةً من جوست، يرتدي قميصاً ممتلئاً بالبقع، وبنطالاً تراخت أطرافه عند الرُّكب. في ظلمة اللّيل، كان يتميز بوجهه الذي يشبه الكلب، وأنفه الأفْطس؛ أمّا في ضوء النّهار، فلمْ تعُد ملامحه مرعبةً بالقدْر نفسه، ولولا رغبة جوست بأن يثأر من تلك الإهانة لكان أظهر نوعاً من التّعاطف مع كائنٍ يبدو أنّ الحياة قد صدمته منذ ولادته بجدارٍ من العنف والفقر.

- «أعطِ الماء لهؤلاء أيضاً». قال المعلم إيمبير.

كان يبدو عليه الرّضا، نظر إلى المترجمين ضاحكاً، وقال وهو يهزُّ رأسه: «هذا تماماً ما كان ينقصني».

ضجيج المدافع الذي ردّدت صداهُ الصُّخور الموجودة على الشّاطئ سرعان ما وضع حدّاً صارماً لتلك البرهة من الحنان.

كانت الضّربة قد انطلقت من السفينة القياديّة التي كان يمكن رؤية مروحةٍ من الدُّخان ترتفع فوقها.

- «الإشارة!». صرخ المعلم إيمبير: «هيّا! خذوا قطعة الخبز، وانضمّوا إلى الآخرين. يجب أن نستعجل».

تراجع خطواتٍ عدّة، وصعد فوق صندوقٍ؛ لكي يوجّه الكلام للمسافرين الذين كان الجنود يراقبونهم.

- «أين نحن؟». همست كولومب، وقد التصقت بجوست وسْط تلك الجحافل من الأجلاف النّتنين. رفع كتفيه ليدلّ على أنّه يجهل الجواب.

- «يا للأطفال المساكين!». همس رجُلٌ قصيرٌ حزينٌ كانا يقفان بقُربه: «إنّهما لا يعرفان حتّى أين هُما».

- «اسمعوا كلّكم». في اللّحظة نفسها بدأ بالكلام المعلّم إيمبير الذي وضع كلّ ما يستطع وضْعه من تهديدٍ في صوته الطّيّب.

- «الشّاطئ الذي أمامنا هو إنجلترا»، همس الرّجُل الصَّغير: «دفعتنا العاصفة إلى هنا خلال اللّيل».

- «سوف تبدأ السفينة بالإبحار». صرخ القبطان: «وآمَل أن تبحر بالفعل هذه المرّة».

- «هل المكان الذي سنذهب إليه بعيدٌ؟». سأل جوست بإحباط لأنّه لمْ يصل بعدُ إلى المكان المنشود.

- «يا للأطفال المساكين! أليس مُخجلاً ألّا يقولوا لكما سوى القليل عن ذلك؟». غَمغم الرّجُل القصيرُ، وقد اكتسى وجهه بهيئةٍ أكثر حُزناً، إنْ كان هناك من حزنٍ أكثر.

- «لكنْ في كلّ الأحوال». تابع المعلّم إيمبير، وهو يمسك حزامه

بيديه: «لا تظنّوا أنَّ الآخرين كان حظّهم أفضل. لا يخطرنّ ذلك على بالِكم. لقد هربوا، وذاك هو شأنهم». تابع البحّار: «لكنّهم لنْ يذهبوا بعيداً، ولقد قتلت منهم أنا بنفسي أربعةً».

لا شكَّ في أنّه قدْ حَكم بأنَّ ذلك الرّقم كان غير كافٍ لكي يشيع الرُّعب في عقول الآخرين، فاسْتطرد قائلاً:

- لا، بلْ ستّة، أليس كذلك يا شباب؟ ستّة قُمت بإعدامهم بيديّ، من دون أن أحسب الذين أطلق عليهم رجالي الرَّصاص. أضيفوا إلى ذلك الغَرقى، وأولئك الذين أمسك بهم الضُّبّاط الإنجليز على اليابسة كلّهم؛ لكي يرسلوهم إلى السُّجون، أترون أنتم الذين بقيتم هنا؟

- «لقد خاف المساكين من تلك العاصفة، لدرجةٍ فضّلوا معها أن يرموا أنفسهم إلى الماء عوضاً عن أن يتابعوا هذه الرّحلة». قال بجدّيّةٍ جارُ جوست الذي كانت أمارات اليأس ما تزال تبدو عليه.

- «أنتم الذين ما زلتم على سطح السفينة إذاً، ليس لديكم ما تندمون عليه». تابع المعلّم إيمبير: «تعرفون ما الذي ينتظرنا إنْ تجدّد هذا الأمر! لحُسن الحظّ أنّني لا أتوقّع أنْ نلاقي من جديدٍ هَبّة هواءٍ مجنونةً مماثلةً، وأقسم بِشَرفي بوصفي بحّاراً، لمْ أرَ شيئاً مماثلاً لهذا منذ زمنٍ طويلٍ».

- لمْ نصل يا أصدقائي المساكين، إنّنا ببساطةٍ لمْ نرحل بعْد، ولنْ نصل قبل أسابيع، أو شهور، هذا إذا وصلنا.

في أثناء قوله ذلك، التمعت الدُّموع في عينيّ الرَّجُل القصير. شَعر جوست وكولومب، اللّذين أثّر فيهما هذا المشهد، أنّهما صارا فجأةً أشدَّ قوّةً من هذا المسكين الذي كان قد أشفق عليهما.

- حسنٌ، الآن يجب أن أختار عِدّة أشخاص من بينكم ليحلّوا محلَّ السَّفَلة الذين هربوا؛ لأنَّ طاقَم البحّارة كان يناضل ضدَّ الرّيح، بينما كان

أصدقاؤكم لا يفكّرون سوى بالعودة إلى الأرض. لقد فقدت ثمانيةً من رجالي.

في تلك الّلحظة، كان المعلّم إيمبير هو الذي مسح دمعةً.

- «هيّا!». تابَع بعدها: «سوف نستبدلهم. سأبدأ الآن: البحّارة الصِّغار المتدرّبون!».

نظرته التي كانت عاليةً توازي خطَّ الأفق لكي تحيط بجميع من يستمعون إليه انْحدرت فجأةً نحو الصَّفّ الأوّل.

- يبدو لي أنَّ المترجمين ملائمون تماماً للعمل كبحّارةٍ. الثّلاثة الأكبر على الأقل.

أشار إلى كولومب أن تتقدّم، فوقفت أمامه، وتفحَّصها:

- لستَ متيناً بما يكفي بعْد. لَسوف تهتمُّ بالمناورات على الجسر. ما اسمك؟

- كولان.

بعد ذلك نادى على جوست، وعلى الصّبيّ ذي الأنف الأفْطس:

- هذان الاثنان أفضل، لا يبدو عليكما أنّكما تخافان من أشياءَ كبيرةٍ. سوف تتسلّقان الشِّراع الثّاني، ما اسْمَيكما؟

- جوست.

- مارتان.

أشار إليهما أن يذهبا للالتحاق بموقعيهما من دون انتظار.

*

أبْحرت السَّفينة في اتّجاه الجنوب، صار الطّقس أكثر دفئاً، والسَّماء لمّاعةً. عندما مرّوا أمام جزيرة كناري الكبرى، انهمرت عليهم سحابةٌ من

القذائف أُطلِقَتْ من الحِصْن الإسبانيّ. استطاعت إحدى الكُرات أن تمزّق بَدن السَّفينة (لا روزيه) من الجهة الأماميّة، مُحدثةً فتحةً مستديرةً تماماً، وعاليةً كثيراً، لدرجة أنَّ نجّار السفينة لاقى صعوبةً كبيرةً في إغلاقها. سَخرت كولومب من ذلك قائلةً: «بسيطة».

مع ذلك، كان الأمر بمنزلة عَمادةٍ جعلت جوست يفخر بأنّه صار مقاتلاً.

استطالت ليالي الصّيف، لكنْ بما أنّهم كانوا ذاهبين نحو خطّ الاستواء، فإنّها عادت لتصبح أقصر. مع ذلك، لمْ تكن مهدّدةً، ولا باردةً: كانت لياليَ جميلةً ودافئةً، أمضوها مستلقين على سطح السفينة الذي كان ما يزال حارّاً من شمس المساء، ذلك أنّهم حصلوا على الإذن بالنّوم حيث يريدون. في النّهار كانوا يركضون في الهواء الطّلق لينفّذوا أوامر المعلّم إيمبير. كانت كولومب تُبدي بعض الحسد تُجاه أخيها؛ فقد صار ماهراً جدّاً في تسلُّق حبال الصّواري، اكتسب من ذلك مزيداً من القوّة، ونفحةً من السُّمرة التي كانت تعطي لوجهه الجميل سحنةً ذهبيّةً. كانت أيّامهما مختلفةً تماماً عن بعضها، فكولومب كانت تشعر ببعض الملل، وكانت تحاول الكلام مع بحّارة سطح المركب، ومع المسافرين الذين كانوا يتنزّهون فيه، لكنَّ هذه المحادثات ما كانت تذهب بعيداً. غالباً ما كانت تلتقي بالرّجُل القصير الذي كان قد تحدّث إليهما صبيحة العاصفة. عَلمت أنّه يُدعى كانتان، ولقد حُكم عليه بسبب دينه، وكان يحمل كتاباً في يده باستمرار. كولومب التي كانت قد اشتاقت إلى القراءة نالت منه وعْداً بأن يعيرها مؤلّفاتٍ.

أمّا جوست الذي كان يمشي على الحبال مثل بهلوانٍ، فكان يحلم كثيراً. في بعض الأحيان كان يستلم نوبة المراقبة، وعندها يستسلم للرَّغبات التي يمكن أن يولّدها الأفق عندما يحيط بك.

في المساء، عندما كانا يلتقيان ويلتصقان ببعضهما ليناما، كانا يرويان لبعضهما ما حصل لكلٍّ منهما في أثناء النّهار. مع مرور الأيّام، بدآ يشعران أنّه من غير المعقول أنْ يكون والدهما قد قطع تلك الرّحلة الطّويلة كلّها، من الخارق للعادة أن يكون قد سافر والدهما تلك الرّحلة البعيدة كلّها. في بعض اللّحظات، كانا يؤمنان بذلك، ويسألان أنفسهما فقط إنْ كان قد عرف مثلهما العاصفة ودُوار البحر، وإنْ كان قد استمتع بعذوبة المناطق المداريّة تلك. كانا يتخيّلانه مرّةً رئيس الرّحلة مثل فيلغانيون، أو راكباً أسيراً في القُمْرات السُّفليّة. في أحيانٍ أُخرى، كانا يقولان لنفسيهما إنّهما قد أخطأا، وإنَّ أبوهما ما كان يمكن أن يذهب بعيداً عمّا يحبُّ إلى تلك الدَّرجة. كانا يتأسّفان وقتها؛ لأنّهما لمْ يهربا في مساء العاصفة ذلك مع طريدي العدالة، وأولئك كلّهم الذين جعلهم الرُّعب يفضّلون مغامرة الهرب على تلك الرّحلة، وفي كلّ مرّةٍ كانت تتبدّى فيها شواطئ من بعيدٍ كانا ينسجان مخطّطات أن يلوذا بها إذا ما اقتربت منها السفينة.

لكنَّ تلك الأحلام كانت تختلط مع أحلامٍ أُخرى خياليّةٍ جعلتهما يتخيّلان بلاد الوحوش والسِّحر التي يمكن أن يجداها في تلك الأصقاع. ولأنّه صارت لديهما معلومات أفضل عن العالم الجديد، بفضل كانتان خاصّةً، فقد بَدآ يصبّان تساؤلاتهما عليه.

ومع أنَّ ماء البراميل صار أخضر، والطّعام مقرفاً، إلّا أنَّ رتابة مرور الأيّام، ثمَّ الأسابيع كانت بمنزلة هَدْهدةٍ لطيفةٍ ما كانت لديهما رغبةٌ في التّخلّي عنها على الأطلاق.

الشّيء الوحيد الذي كان يقلقهما هو مارتان، هذا الذي كان يتسكّع مثلهما بين الصَّواري، وعلى جسور السفينة، من دون أن يتخلَّص من نظرته الشّرّيرة التي كانت تَعد بالانتقام، والحقيقة أنَّ جوست كان مثله يغذي

الأفكار ذاتها، ما جعل كولومب تأسَف لرؤية أخيها يجترّ هو الآخر فكرة معركةٍ تغسل شرفهما المثلوم. كان جوست يريد أيضاً تصفية حسابٍ علنيّةً تأخذ شكل مصارعةٍ، أو مبارزة تكون عادلةً، وتنتهي بالعفو الذي يُصدره المنتصر على المهزوم؛ أمّا مارتان فكان يحضّر شيئاً آخر، فالعدوانيّة التي كان يحملها في داخله تُجاههما كانت لئيمةً وصامتةً. ما هو أكيدٌ أنّها يمكن أن تظهر على حقيقتها في الظلّ، وليس في ضوء النّهار، تماماً في الّلحظة التي يمكن أن تبدر فيها عن جوست هفوةٌ تجعله هشّاً.

كانت كولومب تخاف الّليل خاصّةً، وكانت تحيط جوست بذراعيها خلال النّوم، كما لو كانت تتحوّل إلى درعٍ يحميه.

شقَّت السفن طريقها نحو الجنوب. بدأت غيومٌ كبيرةٌ تغطّي امتداد السّماء كلّه، وتحفظ حرارة ذلك البحر الذي يبدو كالحساء المرتجف، الذي تتصاعد منه أبْخرةٌ رطبةٌ. كانوا قد وصلوا تقريباً إلى نهاية مخزون الماء العذْب لديهم، وجاء الأمر من السفينة القياديّة بأن يتّجهوا نحو اليابسة.

رسَوا مقابل ساحلٍ واضح التَّضاريس، يمكن أن يتحقّق فيه الأمل بالعثور على سواقٍ مناسبةٍ لتموين السَّفينة بالماء. عادت الزّوارق عند هبوط الّليل مع براميلَ فيها ماءٌ موحلٌ، ولونه شبه أصفر، وفوق ذلك لمْ يستطيعوا أن يملؤوا البراميل سوى إلى نصفها؛ لأنَّ جماعات من السُّود الذين أظهروا عدوانيّةً شديدةً أتوا لإيقاف العمليّة.

انتشر الخبر ضمن طاقم البحّارة بأنَّ السفينة كانت موازيةً لساحل إفريقيا. بدأ البحّارة يلعنون بحّارة السفينة القياديّة الذين لم يستطيعوا بأدواتهم المعقّدة كلّها، وهيئتهم العالمة، أن يقودوا القافلة إلى حيث كان يمكن للقبطان إيمبير أن يقودها بكلّ ثقةٍ. عندما عَلم بحّارة السفينة

التي تسير في الرّأس بغلطتهم، استداروا عن الشّواطئ، وغذّوا السَّير جهةَ الغرب، فقد حان الوقت لذلك.

العلامة التي بينّت لهُم أنَّهم كانوا أخيراً على الطَّريق الصَّحيح هي رؤية أشْرعةٍ تمرُّ في الأفق. مثل هذه اللّقاءات كانت تؤدّي في كلّ مرّةٍ إلى استنفارٍ كبيرٍ، فقد منع فيلوغانيون محاذاة سفن أُخرى لتفتيشها، وبالتّالي تركوا عدّة سُفنٍ إسبانيّةٍ كانت تبحر وحْدها تمرُّ من دون إزعاجٍ، مع أنّه كان من الممتع أن تُنْهَب، لكنْ في صباح أحد الأيّام، أعلن فريق المراقبة وجود مجموعةٍ من الأشْرعة في الشَّمال الغربيّ، واكتشفوا شيئاً فشيئاً أنّها تعود إلى قافلةٍ برتغاليّةٍ تتألّف من ستٍّ سفن، وعلى أنَّ السفن الفرنسيّة لمْ يكن يبدو عليها، ولو من بعيدٍ، أنّها تقصد أمريكا، إلّا أنّه كان من الواضح أنّها تتّجه إلى البرازيل، وكان ذلك كافياً لِعَدِّها سُفناً معاديةً.

من الموقع الذي كانوا فيه، كان من الصَّعب معرفة إنْ كان البرتغاليّون سيبدؤون معركةً، وكان من دافع الحَذر مهما حصل أنْ يُحضَّر لذلك مهما حصل. على سطح لاروزيه، كان هناك تدافعٌ بين البحّارة، والجنود، والمدنيّين، وكان هؤلاء قد كُلِّفوا من قِبَل القبطان بتلقيم المدافع. كان لا بُدَّ من تحضير فتحات المدافع في جنبات المركب، وفتح الصَّناديق التي كانت فيها البواريد، ورفع الأشْرعة كلّها للاستفادة من النَّسيم الذي كان يهبُّ، وتحقيق أسرع سرعةٍ ممكنةٍ.

كانت مهمّة كولومب أن تحافظ على سطح السفينة نظيفاً وفارغاً، وذلك لتوقع مجابهةً بين السفن. كانت تذهب من خلف السفينة إلى مقدّمتها من دون أن تدَّخِرَ جهْداً. عندما مرَّت تحت صارية الشِّراع الخلفيّ، رأت كانتان الذي كان يقف بلا حراكٍ، مستقيمَ الظَّهر ويداه متصالبتان.

– «ألمْ يعطوك مهمّةً؟». قالت متفاجئةً.

- بلى، يجب أن أنظّف فتحات النّار.

- وهل انتهيت؟

- لا. لنْ أفعل ذلك.

كولومب التي كانت قد عملت حتّى الّلحظة بحميّةٍ كبيرةٍ استغلّت تلك الفرصة لكي تتنفّس قليلاً. خاصّةً أنَّ حركتها الدّائمة كان تهدف إلى تهدئتها أكثر من ترتيب سطح سفينة، الذي كان في ذلك الوقت مرتّباً تماماً ونظيفاً.

- «لقد سمعت»، سألته كولومب: «أنّه إنْ قام البرتغاليّون بأسْر بحّارٍ من الطّاقم، فإنّهم يشوّهونه ويتركونه يموت من العطش داخل باخرته الجانحة».

- «قالوا لي ذلك أيضاً». قال كانتان الذي كان وجهه النَّحيل والشّاحب لمْ يتخلَّ عن السِّحنة الكئيبة التي كانت عليه عندما رأوه في اليوم الأوّل.

- بالتّالي، يستحقّ ذلك أن ندافع عن أنفسنا.

- «لا». قال كانتان، وذراعاه ما زالا متصالبين.

كان الهواء الذي يغطّي صمت عرض البحر يصفر داخل الشِّراع الواسع. كانت السفن المائلة، المزيّنة بتلك الأردية، والأوشحة، والمناديل كلّها تشبه ثلاث نساءٍ عجائز يذهبنَ إلى حفلٍ راقصٍ.

- «هكذا إذاً». عادت كولومب إلى القول: «يجب أن ننتظر حتّى يأتوا ويسلخوا جِلدنا».

- «يا بنيّ»، قاطعها كانتان بحرارةٍ، وهو يستدير نحوها، ويمسك بيديها: «لا يعطي النّاس أنفسهم حُرّيّة الفعل إلّا من أجل الشّرّ. إنّه العاطفة الوحيدة التي لا يضعون لها حدوداً. أنا دعوت إلى العكس ولقد أدانوني».

- العكس؟

- ما أريد قوله هو ألّا نكبح الجمال، والحُبَّ، والرَّغبة.

قال ذلك، وهو يفرك يدي كولومب. كانت عيناه تلتمعان بوميضٍ لمْ ترَ مثله في حياتها؛ مزيج من الشَّهيّة، والحرارة، واليأس. أسعدها أنَّ ضجيجاً أتى من المقصورات الخلفيّة، وانتشر على الجسر العُلويّ قد وضع حدّاً لذلك الحوار المتنافر. كان البرتغاليّون قد عبروا ولمْ يتوقّفوا.

تصاعدت صرخات الفرح من كلّ مكانٍ حولهما. انتقلت زجاجات النّبيذ التي كانت مخبّأةً للأيّام المهمّة من يدٍ إلى يَدٍ، وأخذ كلّ واحدٍ يعُبُّ منها جرعاتٍ كبيرةً.

أمر الكابتن بجَلْب عِدّة أشْرعةٍ، وحاولت كولومب أن ترى جوست الذي كان منشغلاً داخل أعمدة الصَّواري. لمْ تستطع ذلك، وركعت بصمتٍ مثل الآخرين من أجل شُكر الله. لمْ يكن في سفينة (لاروزيه) رجُل دينٍ. الكاهن الوحيد في القافلة لمْ يفوّت على نفسه الحضور بالقُرب من السُّلطة، في المركب القياديّ. كان كلُّ واحدٍ يصلّي بطريقته، ويتوجّه إلى الرَّبّ الذي كان خاصاً لكلّ واحدٍ منهم، وللجميع. كان البحّارة بكلّ ما في سحنات القراصنة التي لهم من قسوةٍ يستدعون صوراً ناعمةً للعذراء وللطّفل العاري، في حين أنّ بعض المسافرين الأبرياء الذين كانت أياديهم بيضاء، والذين سُحبوا من السُّجون حيث كانوا يقبعون لأسبابٍ لها علاقة بالعبادة، كانوا يوجّهون وجوههم نحو إله الدَّم والعقاب.

في وسْط هذا الصَّمت انْدلع أوّل عنفٍ سُمِعَ في الهواء: صرخةٌ، ثمَّ ضجيجُ شراعٍ ممزّقٍ، وسقوطٌ. كانت الشّمس التي تلتمع عبر الشّفرات التي تمسك بالشّراع تجعل من المستحيل تماماً لمن يقف على سطح المركب أن يرى ما يجري فوق، وما كان لكولومب بدورها أن تحزر أيّ شيءٍ؛ لأنَّ جوست كان خلال تلك الأيّام كلّها قد خبّأ عنها بعنايةٍ التّهديدات التي كان

يتعرّض إليها دائماً، ذلك أنَّ مارتان، منذ شجارهما الأوّل، لمْ يكن يتوقّف عن التّربُّص به حين كانا كلاهما مُعَلَقَين في أعلى الصَّواري، وهكذا بدأ بكلّ برودٍ وانتظامٍ يوجّه إليه الّلعنات والشّتائم، ويَعِدَه بأن ينتقم منه، وكان جوست يتحدّاه داعياً إيّاه إلى القتال في معركةٍ فرديّةٍ، لكنّه كان واضحاً أنَّ الآخر لمْ يكن يريد أن يغامر بذلك، وأنّه كان يفضّل الّلجوء إلى اعتداءٍ جبانٍ.

الحركات البهلوانيّة التي على البحّارة المتدرّبين أن يقوموا بها تتطلّب كثيراً من الانتباه. وكان جوست مضطرّاً إلى أن ينتبه أكثر كي يحمي نفسه من الغدْر. كان في العادة يصل إلى آخر النّهار مُنهكاً، لكنْ في ذلك اليوم، المَيلان الخفيف للمركب، والهواء الدّافئ، ومجموعة الدّلافين التي كان يراقبها تقفز في الماء، شدّت انتباهه بينما كان مستنداً إلى شفرات عارضة الصّاري الرئيس الكبير.

كان خشب الصّارية المطليّ يسند بطنه، في حين كانت ذراعاه من جانبٍ، وساقاه من الجانب الآخر، يوازنون جسده. كان في هذه الوضعيّة عندما تلقّى في أحشائه رأس حبلٍ مربوطٍ رُمي في اتّجاهه بكلّ عزمٍ. صرخ جوست، وفقد توازنه، لكنّه لحُسن الحظّ وقع من الجهة الممتلئة من الشّراع، وكان من النّباهة بحيث تمسّك بيديه بالحافّة السّميكة للقماش. بقي لحظةً طويلةً في هذه الوضعيّة يتألّم من ضلعه، ومصعوقاً من سقوطه، والأكثر من ذلك من بقائه على قيد الحياة، ثمّ عاد إليه وعيه كلّه دفعةً واحدةً، ضرورة أنْ يعتدل بأسرع ما يمكن، وهذا ما فعله، وهو يلتقط مزلاقاً من الحديد، ويعدّل من وضعيّته على الدّفّة التي تحرّك الشّراع. تذكّر الحبل الذي ضربه، والذي كان يتدلّى على طول الصّارية، ما يدلّ على أنّ أحداً ما قد استعمله كما لو كان رقّاص السّاعة. تهديدات مارتان، ولمْ يكن في

حاجةٍ إلى البحث طويلاً، فها هو الآخر يراقبه جالساً قُرب كتلة الحبال التي كانت موجودةً في الأعلى.

هذا الجزء كلّه من المشهد فات كولومب. رأت فقط جوست في اللّحظة التي كان ينطلق فيها كالسَّهم نحو من اعتدى عليه، ويتسلّق ليصل إليه.

- «إنّهما يتعاركان!». صرخت.

وعندما فهمتْ أنَّ الآخرين حولها لمْ يفهموا شيئاً بعْد ركضت لتنبّه المجموعات الموجودة وصولاً إلى المعلّم إيمبير الذي شدّته من أكمامه.

- أوقفهم يا كابتن. انظر، إنّهما يتعاركان.

كانت ضجّة العراك تأتي من الأعلى مضخّمةً، لكنْ لمْ يكن بالإمكان رؤية المتعاركين. كانا يتصارعان جسداً لجسدٍ على أرضيّة برميل المراقبة.

انطلق ما يقرب من عشرةٍ من البحّارة معاً نحو كتلة الحبال في الصَّواري العُليا، وارتأى المعلّم إيمبير أنّه من الأفضل لسُلطته أن يعطيهم الأمر بذلك، وهو يصرخ، على أنّهم كانوا قد وصلوا إلى نصف الطّريق قبل أن يفعل ذلك. كان مارتان يقاتل بكثيرٍ من القوّة، لكنْ بلا جرأةٍ، ومن دون مهارةٍ؛ أمّا جوست، فقد كان على العكس، يستطيع إبراز تلك المواهب الإضافيّة التي كانت لديه، لولا أنَّ ضيق المكان المغلق أمامهما منعه من ذلك. كان قد تلقّى ضرباتٍ قاسيةً عندما توصَّل البحّارة إلى فصل الخصمين. شَعَر جوست بأنّه قد أُجبر على موقفِ جبانٍ حين أُوقِفت مبارزةٌ كان يرى أنّها لا تنتهي سوى بالموت. ذلك الخَجل، وليس الخوف من العقاب، هو الذي جعله يخفض عينيه أمام المعلّم إيمبير.

كان يعنيه الهدوء أكثر من العدالة، وفيما يتعلَّق بالعِراك على سطح المركب، والله وحده يعلم كم كان ذلك يحصل، كانت القاعدة التي يتّبعها هي ألّا يبحث أبداً عن المذنب.

- «قيّدوهما بالأصفاد كليهما». صرخ.
- «لا». صرخت كولومب، وهي مستعدّةٌ لأن تخرّ راكعةً على ركبتيها.

لكنّ المعلّم إيمبير نظر إليها بكثيرٍ من الغضب، ما جعلها تجمد في مكانها. إنْ سمع كلمةً أُخرى سيحبسهم ثلاثتهم. إنْ كانت تريد أن تكون مفيدةً لجوست، وأن تدافع عنه، وتُسرّع خلاصه، عليها أن تحسن فعل ذلك ببقائها حُرّةً. سكتت ورأت جوست يختفي، وقد أمسكه أولئك الذين خلّصوه من مارتان.

عادت الحياة على سطح المركب إلى مجاريها مباشرةً. كان ذلك يوماً من أيّام المناطق المداريّة التي يبدو فيها أنَّ درجات الزُّرقة تريد أن تثبت أنّها عديدةٌ، بحيث تتوزّع على الكون بأكمله: زرقةٌ بيضاء في السّماء، وزُرقةٌ مخضرّةٌ في الأفق، وزُرقةٌ بنفسجيّةٌ في البحر، وزُرقةٌ رماديّةٌ في زبد الأمواج. أيّة عبقريةٍ تلك التي تجعل البشر يخترعون السّجن وسْط هذا المدى المفتوح على السَّعادة!

راحت كولومب تبكي بصمتٍ، وهي جالسةٌ في مؤخّرة المركب. كانت تفكّر في أنَّ جوست كان جريحاً، وأنّه -حتماً- جائعٌ، وأنّه سيُعاملُ بسوءٍ في قبْوٍ معتمٍ، مثل ذلك الذي عرفاه في البداية، ثمَّ فكّرت في وحدتها هي وسْط طاقم البحّارة الغريب هذا، لكنَّ حالة الضّعف هذه لمْ تدمْ طويلاً، وسرعان ما اشمئزت منها. كانت تملك ما يشكّل نقطة القوّة لدى آل كلامورغان، وهو تلك القُدرة على استبدال الإرادة بالمصيبة. قالت لنفسها إنّها كولان، بحّارٌ مبتدئٌ حُرٌّ، وغير غبيٍّ على الإطلاق، وسيجد حتماً وسيلةً لتحرير أخيه المسكين.

*

طيلة الوقت الذي استغرقته الرّحلة، تشكّلت مجموعاتٌ صغيرةٌ من

بين الرُّكّاب، والجنود، وطاقم البحّارة. كانت تسري بينهم تجارةٌ صغيرةٌ تطال الطّعام، والماء الحُلو، أو المعرفة الضّئيلة التي كان كلٌّ واحدٍ يحاول أن يغنيها، سواءٌ فيما يتعلّق بطريق سَير السفينة أم بما ينويه الأميرال، وكان ذلك يُغذي حَذر كلّ مجموعةٍ تُجاه المجموعات الأُخرى.

كانت كولومب قد شكّلت فريقاً مع أخيها، وكان ذلك التّقارب بينهما يكفيها، لكنّها اليوم بقيت وحيدةً. كانت المجموعات تَحْذر من بعضها، ولذلك لمْ يكن أحدٌ يريدها. بالتّأكيد كانت تستطيع أن تتحدّث إلى أيٍّ كان، وأن تستخلص منه كلمتين، لكنْ بمجرّد ما كانت تحصل على الجواب، كان المتحدّث يسرع إلى عمله عندما يكون له عمل، أو إلى أصدقائه الذين يحكي لهم ما حدث، وهو يهمس. ذلك أنّه ضمن ملل الرِّحلة، كان كلُّ شيءٍ يتحوَّل إلى حَدثٍ.

كادت كولومب تفقد شجاعتها عندما تذكّرت كانتان. اكتشفت أنّه قد اختفى منذ عدّة أيّامٍ. ترصَّدته عند الظَّهيرة لدى توزيع الشّوربة عندما يقف في الصّف، لكنّه لَمْ يظهر. أخذت دَلْوها بيدها، وتظاهرت بأنّها تنظّف، فتَّشت المستودع، وانتهت بأنْ وجدته ملفوفاً في أرجوحة نومٍ مشدودةٍ فوق قطع المدفعيّة. وضعت قدميها على الفوّهة البرونزيّة، وباعَدت بين طرفي الشَّبكة. كان كانتان مستلقياً على ظهره، وعيونه مفتوحةٌ، وكان يبدو كأنّه يُحصي العروق الموجودة في خشب عوارض السَّقف.

– «ما الذي تفعله هنا؟». سألت كولومب مع شيءٍ من الخشية.

– أنا أصلّي، كما ترين.

– في الأيّام الماضية، لمْ يكن ذلك يمنعك من الصُّعود إلى الجسر.

اعْتدل الرَّجُل القصير في جلسته، وهو يتمسَّك بقماش الأرجوحة. زمّ عينيه، وهزَّ رأسه، ونظر حوله كما لو كان يعود إلى رُشده.

- «أخذني حالُ التّأمُّل». قال، وهو يقوم بحركة اعتذارٍ كانت تشبه ابتسامةً: «كنت بكلّيّتي في حضرة الرُّوح القُدُس».

كان يبدو عليه كأنّه يعود من سَفرةٍ طويلةٍ.

- «أين أخوكَ؟». سأل كولومب عندما تعرّف إليها.

رَوت له ثأر مارتان منه، والعقاب الذي تلاه. حاول كانتان مثل حشرةٍ تناضل ضمن شبكة عنكبوتٍ أن يستخرج جسده من الأرجوحة. كان على وشْك أن يقع على المدفع، وبعد أن وقف، أعاد الدّانتيل الذّابل في ياقته الى حجمه، وشدَّ جرابه داخل الحذاء. وبعد أن استعاد شكْل الوقار، أمسك كولومب بيده، وقال لها:

- قصّي عليّ ما حدث.

كانتان الذي لمْ يكن ينتمي إلى أيّة مجموعةٍ كان مقبولاً من الجميع. ربما كان ذلك بسبب عُزلته، وزهده، وحزنه الدّائم. برفقتهِ قُبِلَتْ كولومب داخل تلك المجموعات التي تشبه العائلات. كان التّجمُّع مبنيّاً على مقْت الآخرين، وليس بسبب التّعاطف بين أفراده. كانوا يصرفون طاقتهم كلّها لحماية أنفسهم من الخارج، وعندما تنتهي تلك الطّاقة، لا يبقى لتلك القبائل سوى ساعاتٍ طويلةٍ من الزّمْجرة، أو التّنهُّدات، أو الشّتائم التي كانت تتحوّل إلى ما يشبه المحادثة. كان النَّبيذ نادراً؛ لأنَّ القبطان ترك النّقاط الأخيرة المتبقّية لساعة الوصول، وقد أدّى ذلك إلى جعل الاجتماعات مملّةً. وحْده النَّرْد الذي كانوا يهزّونه داخل قرون الحيوانات، وقطع العظام الدَّقيقة كانت تجعل هذا الصَّمت البشريَّ يمتلئ بضربات مطرقة القدر.

أخذ كانتان كولومب في البداية إلى مجموعةٍ من الحِرَفيّين عرّفها ضمنهم إلى خبّازٍ، ونجّارَيْن اثنين، وبائع ترياقٍ كان يدّعي أنّه صيدلانيٌّ.

بناءً على طلبٍ من كانتان قبلت هذه المجموعة التي يستطيع أعضاؤها التّنقُّل في كلِّ مكانٍ أن تبحث عن جوست، وأن تقدّم له ما يحتاج إليه، وأن تستعلم أكثر عن وضعه.

رأيا بعد ذلك فريقاً من البحّارة كان كانتان يعرفهم بفضل الإنجيل. كان فيلوغانيون قدْ أعْلم الجميع قبْل الرَّحيل أنّه إنْ كان من المسموح لكلّ واحدٍ أن يصلّي على كيفه على سطح السفينة، فإنَّ أيّة خُطبةٍ دينيّةٍ كانت ممنوعةً، لكنْ في غياب كاهنٍ، بحث البحّارة النّورمانديّون عمّا يُغذي إيمانهم الفَجّ. كانوا مهووسين بالتّطيُّر، ويعتقدون بحزمٍ أنَّ الأعمال التّقيّة، مثل: الأدعية، والقداسات، والتّسبيح هي التي تجلب هدوء البحر، وعودة سفنهم بأمانٍ. لمْ يكن كانتان يوافق على تلك العبادات، لكنّه لمْ يكن يملك بالمقابل ما يهيّئُه لمعارضتها. كان من جهته يعتقد بقوّة الكتاب المقدَّس بكلّ بساطةٍ، وبالتّالي كان يَتلو مطوّلاً الأناجيل والتّوراة لأولئك البحّارة الأجْلاف الذين كانت زمْجرة العاصفة تجعلهم قليلي التّأثُّر، في حين أنَّ الخوف من الجحيم كان يوقعهم في الرُّعب.

طلب إليهم كانتان أن يحدّدوا لكولومب هدفَ، ومدّةَ، ومآلَ الرّحلة.

- «لست أعرف ما الذي رَووه لك». قال لها قبْل أن يبدؤوا: «لكنْ عندما تحدّثني عن أبيك، وعن إيطاليا، يبدو لي أنّك لا تعرف جيّداً إلى أين تأخذك هذا الرّحلة».

في الواقع، كانت كولومب، مثلها في ذلك مثل جوست، قد سمعت اسم البرازيل يتكرّر في الأحاديث على المركب، لكنّها كانت تجهل أين توجد هذه المنطقة. كان أبوهما قد حكى لهما في جنَوة عن سَفراتٍ طويلةٍ قام بها بحّارة تلك المدينة، الذين كانوا يربطون الغرب بالشَّرق عبر مساراتٍ غريبةٍ، لكنّها كانت مُصرّةً على أن تفكّر في أنَّ تلك الأراضي

الجديدة لمْ تكن سوى مراحلَ نحو الوجهة الوحيدة الممكنة، مهما كانت الانعطافات التي يمكن القيام بها للوصول إليها: البحر المتوسّط بما فيه إيطاليا، وإسبانيا، واليونان، وأراضي البربر.

شرح لها البحّارة حسْب قُدرتهم، وهُم يرسمون على الأرض المغبرّة شكلَ الكرة الأرضيّة كما هو العالم الجديد عامّةً، والبرازيل التي كانوا ذاهبين للاستقرار فيها خاصّةً.

عند سَماع هذه الرّواية، لمْ تعد كولومب تشكُّ بأنَّ أباها قد شارك ببطولةٍ في فتح هذه الأراضي، وهي لنْ تعرف إلّا عندما تراه، ما هي الأسباب المُجْدية التي جعلته يفضّل أن يسافر أولاده من دون أن يعرف أحدٌ عمّا له من مجد. مع ذلك، لمْ تصِل الأمور قطعاً إلى وضع الأصفاد في أيديهم، وهكذا عاد فكرها بألمٍ كبيرٍ نحو جوست.

سألت البحّارة عن العقوبة التي كانت تنتظره. قالوا لكولومب:

- إنَّ المعلّم إيمبير لمْ يكن معتاداً على إطالة زمن الأسْر، خاصّةً عندما يمكن أن يكون من يخضعون لتلك العقوبة مفيدين، ثمَّ أضافوا:

- إنّه يفضّل جلسة جلدٍ بالسّوط، وينتهي الأمر.

- «بالسّوط!». صرخت كولومب

فكّرت في داخلها: ابن كلامورغان يجلد بالسّوط! لكنّها تحفّظت كما نبّهوها عن أن تذكر هذا الاسم لأشخاصٍ غرباء.

- من سيقوم بتطبيق تلك العقوبة، واحدٌ منكم؟

- لا، العمليّات كلّها التي تتطلّب قوّةً عيّنَ لها فيلوغانيون شخصاً ينفّذها في كلّ سفينة. في باخرتنا هذه، المكلّف بذلك هو البلطيقي.

قطّب كانتان حاجبيه. كان يعرف بعض الجنود، لكنّ البلطيقيّ يظلّ وحده، ولا أحد يعرف كيف يمكن التّوجُّه إليه.

في المساء، قاد كولومب نحو أرجوحة نومه التي كان قد جلس حولها مجموعةٌ من المسافرين. كانوا من الرّجال الواهنين الذين تركوا شعرهم الأشقر يسترسل طويلاً، وقد ارتدوا قمصاناً من الكتّان. كانوا يرسمون على شفاههم دائماً ابتسامة نشوةٍ، كما لو كانوا قد التقطوا في الصّمت بعض الأصوات الإلهيّة النّاعمة التي يمكن أن تغنّي لهم بعض الأناشيد.

- «لا تقُل ذلك لأحدٍ، لكنّ هؤلاء من الأناباتيست[I] الهولنديّين». حذّرها كانتان، وهو يوشوش في أُذنها متجنّباً أن يسمع أحدٌ ما يقول: «إنّهم يحلمون بأن ينفصلوا عن العالم الذي يعتقدون أنّ نهايته قريبةٌ. لا حاجة لهم بالإنجيل، فهُم يتبعون هواهم».

- «إنّهم سعداء». قالت كولومب، وهي تنظر مواربةً إلى وجوه هؤلاء الفلّاحين المستنيرين الذين لمْ تستطع أن تشعر بالثّقة تُجاههم، من دون أن تعرف لماذا.

- سعداء؟ المساكين. إنّهم أكثر النّاس عُرضةً للاضطّهاد في الأرض. لقد أرادوا أن يسقطوا الملوك، والكنائس، والعادات جميعها. منهم من يريد أن يعيش مثل آدم، ولنقل الحقّ، النّاس كلّهم يكرهونهم، ومن المعجزات أنّ هؤلاء استطاعوا أن يهربوا من عقوبة الحَرق.

- لماذا تنام معهم؟ هل أنت منهم؟

- «أنا؟!». صرخ كانتان: «أبداً. أنا أؤمن بالإنجيل».

(I) «الأناباتيست» Anabaptists: حركة مسيحية إصلاحية، ظهرت في أوروبا في القرن السادس عشر في فترة متزامنة مع بداية الإصلاح البروتستانتي. دعت هذه الحركة لعدم تعميد الأطفال لأنهم عاجزون عن الالتزام الديني أو على الإيمان بحرية، وطالبت بتجديد معمودية البالغين، تتّفق هذه الحركة مع المذهبَيْن: اللّوثري، والكالفيني في التّأكيد على دور الإيمان في الخلاص، وفي رفضها للأعمال، أو الاستحقاق الذّاتيّ فيه، ولكنّها تختلف عنهما بنبْذها للسُّلطة الكنسيَّة. (م).

ثمَّ أضاف بغموضٍ:

- لكنْ لدينا بعض الأشياء المشتركة.

كان استقبال الأناباتيست لكولومب حسناً. رووا أخبارهم بلكنةٍ ألمانيّةٍ كان كانتان يفهمها. المدهش في الأمر كان أنَّ أعداء العالم هؤلاء كانوا على علمٍ ممتازٍ بما يجري في السفينة كلّه، والأهمُّ من ذلك ما يجري في سائر السفن. ممّا قالوه إنّ بعض المشادّات قد اندلعت على سطح سفينة الأميرال بين فيلوغانيون، والكوسموغراف، والملّاحين حول مكان وجود السفن على وجه الدِّقّة. منهم من كان يريد التّغلغل في اتّجاه الجنوب، ومنهم من كان يريد الصُّعود إلى الشّمال. كانت الطّريق ما تزال طويلةً، والمؤونة تتناقص.

كانت (لا روزيه) الأوفر حظّاً بين المراكب الثلاثة؛ لأنّ الانشقاقات كانت عديدةً خلال العاصفة؛ أمّا في سفينة القيادة، فبالكاد كان لديهم ما يطعمون به النّاس كلّهم. فسد الماء وبدأ طاعونٌ سيّئٌ يؤلم البطون.

- «حسْب ما يقولون»، ترجم لها كانتان: «من الممكن أن يُنقلَ جزءٌ من طاقم (لا غراند روبيرج) إلى باخرتنا».

انقلبت سحنة كولومب. كان ذلك يمكن أن يقلّل الحاجة إلى جوست والذي اعتدى عليه، ما يؤدّي بالتّالي إلى تركهم داخل السّجن يحلمون.

كان ذلك كلّه معقّداً جدّاً. خلال ذلك كان اللّيل قد حَلَّ، ولمْ يكن جوست هناك، وكان على كولومب أن تنام وحدها.

كان هناك اثنان من الأناباتيست قد بدأوا يحضّرون أسرَّتهم.

- «أين ستنام يا بحّار؟». قال لها كانتان.

هزّت كولومب أكتافها:

- لا أعرف، على سطح السفينة، في زاويةٍ.

- تعالَ، وابق معنا. هل تريد أن تتقاسم الأرجوحة معي؟

لمْ يكن ذلك العرض غير اعتياديٍّ، فلكي تُحمّل السفينة بالأطعمة، قُلِّصَت المعدّات الشّخصيّة. كانت الأراجيح نادرةً، وكثيراً ما كان ينام فيها اثنان، أو ثلاثة معاً.

فكّرت كولومب للحظةٍ أنّها كانت صبيّاً، وأنّ ذلك العرض يجب أن يُستقبل بكثيرٍ من الطّبيعيّة، والحقيقة أنّ فكرة أن تلتصق بكانتان الزّاهد، بوجهه الحزين، وهيئته الشّاحبة، لمْ تكن تقلقها، ولا تسعدها، لكنْ على الأقلّ لن تشعر بقسوة غياب جوست عنها.

كانت أمور النّظافة الشّخصيّة في السفينة من الأمور التي تتبع هوى كلّ فردٍ على حِدة. بعض المجموعات كانت تصدر ضجّةً كبيرةً، وترفع دلاءَ الماء من البحر. بعضها الآخر كان يغتسل خلسةً، وهناك من كان يعتمد على رطوبة الجوّ لكي يحلّ سوائل جسمه، وتلك كانت عادة البحّارة خاصّةً. المدعوّ كولان، كان في كلّ مساءٍ عند هبوط اللّيل ينسحب إلى قرب الحجاب الخلفيّ، وينظّف نفسه في برميلٍ صغيرٍ بسرعةٍ كبيرةٍ مثل فأرة.

وجدت كولومب عند عودتها أنّ كانتان نام قبلها، وفي الوضعيّة التّعبُّديّة نفسها التي كان عليها بعض الظُّهر. تردّدت قليلاً، ثمَّ تسلّقت بدورها الكيس القماشيّ محرّكةً النّائم في الاتّجاهات جميعها.

- «ألا تصلّي يا كولان؟». سألها كانتان.

- بلى، أصلّي، لكنْ بصمتٍ.

- الله يحبّنا يا كولان.

- أنا... أنا أعرف.

كان هناك اثنان من الأناباتيست يشخران، وقد تأسّفت كولومب لأنّها لمْ تبق نائمةً على الأرضيّة. أدارت ظهرها إلى كانتان، والتفَّت على نفسها سعيدةً مع ذلك بأن تشعر بدفء شخصٍ ما بالقرب منها. عندما أغلقت عينيها، رأت جوست، وابتسمت له.

- «إنّه يبارك كلّ واحدةٍ من رغباتنا، وذلك هو السّرّ». قال كانتان بجدّيّةٍ.

لكنّ كولومب لم تسمعه؛ لأنّها كانت قد غطّت في النّوم.

الفصل 9

أولئك كلّهم الذين لا يصدّقون أنَّ الأرض عبارة عن كُرةٍ، وينتظرون الهاوية والوحوش التي تعلن عنها، استعادوا شيئاً من الأمل، فقد صار لون الزُّرقة الاستوائيّة قاتماً، وبدأت عائلاتٌ من الغيوم الشّعثاء الصّغيرة والكبيرة تجتاز الأفق، وهي تجري. في الصّباح، كان هناك ضبابٌ ثقيلٌ يغطّي البحر الذي كانت تصدر عنه رائحة سمكٍ مَيْتٍ. فيما بعد، في فترة بعد الظُّهر، بدأت الرّياح تدور بسرعةٍ إلى درجةٍ كان من الضّروريّ معها الإبحار بالاعتماد على صارية المقدّمة. أمسك المعلّم إيمبير الدّفّة بنفسه، وهذا ما لم يكن إشارةً جيّدةً قطُّ. أعطى أمره بتلقيم أربع قذائف، فإذا ما زاد الضّباب سماكةً، يجب أن يكون الاتّصال مع المراكب الأُخرى بالمدافع.

لكنّ المطر هو الذي أتى في النّهاية، وقد تساقطت الأمطار من غيمةٍ سوداءَ إلى درجة أنّها جعلت الهواء يصبح جليديّاً، وصارت الأشياء القريبة معتمةً، في حين ظلّت حلْقةٌ من الضّوء تضيء الأبعاد بلونٍ أخضرَ شاحبٍ.

ذهبت كولومب لتتذوّق المطر، وقوفاً بالقرب من الشِّراع الكبير، وقد باعدت بين ذراعيها، وهي ترتجف مغتبطةً. كانت النّقاط سميكةً وباردةً، ولكنّها كانت على الأقلّ من الماء العذب، وبالغريزة فتحت فمها لتبتلع حزماً من الهواء المبلول.

- «لا تشرب من هذا المطر».قال أحد البحّارة الذين قدّمها إليهم كانتان وهو يمرُّ بقربها: «إنّها مياهٌ ملوّثةٌ».

ظلّت الأمطار تتساقط النّهار كلّه، وتابعت في المساء.

كان على كولومب أن تذهب للنّوم على الجسر؛ لأنّ المعلّم إيمبير كان يريد أن يبقى الجميع مستنفرين، و مستعدّين للمناورة، وقد ضاعف من مراقبة مسار السفينة خلال أربع ساعات. كانت أسنان كولومب تصطكُّ طيلة الّليل الذي أمْضته تحت قماشٍ مشمّعٍ. في الصّباح، توقّفت العواصف، وبدأت الشّمس تجفّف الملابس، لكنْ كما توقّع البحّار، كان القَيح قد بدأ ينزّ من الّلحم المتآكل.

اضطرَّ الصَّيدلانيُّ إلى تحضير مرهمٍ في قَصْعةٍ، ووقف أفراد الطّاقم بالدّور ليفرد لهم شيئاً منه فوق الدَّمامل.

أخبارٌ سيّئةٌ أتت من المركب الرّئيس. أبْحر المركبان جنباً إلى جنبٍ، وتبادل القبطانان صرخاتٍ كثيرةً، وإشاراتٍ متَّفقاً عليها، ثمّ وجّها الأشرعة بحيث تبطئ السفن وتتوقّف. عندما رأت كولومب زورقاً صغيراً ينزل إلى البحر من سفينة (لا غران روبيرج)، قالت لنفسها إنَّ الأناباتيست كانوا بالفعل يعرفون الكثير، مع ذلك كانت تراهم يسيرون بلا نظامٍ النّهار كلّه، يبتسمون للرُّؤى التي تتبدّى لهم، جاهلين ما يدور في العالم حولهم.

- «فلْنرَ من الذي أرسلوه إلينا». أسرّ لها كانتان الذي لمْ تسمعه يقترب.

على التّوالي، الواحد تِلو الآخر، نزل من سفينة (لا غران روبيرج) عبر دَرجٍ من الحبال عشرةُ جنودٍ مدجّجين بالسّلاح يمكن رؤية الصَّليب الكبير الأبيض على بطونهم، وجلسوا بحذرٍ في القارب. نزل بعدهم رجُلُ دينٍ يلبس مُسوحاً، ثمّ ثلاثة أفرادٍ يرتدون ثياب البورجوازيّين.

- «أقسم أنّ الوضع خطيرٌ». صرخ كانتان: «النُّخبة أتت لتلجأ عندنا».

بذل المجذّفون كلّهم معاً جهداً كبيراً ليعطوا لقاربهم دفعةً تجعله ينطلق، وينفصل عن السفينة. بعد ذلك لمْ تعُد لديهم أيّة صعوبةٍ في أن يشقّوا عُبابَ الأمواج، ويتوقّفوا بمحاذاة (لا روزيه). انتظر فريق البحّارة باحترامِ مجيء القادمين الجُدد. كانَ الكاهن أوّل من اجتاز فتحة الدُّخول إلى السفينة.

حيّاه المعلّم إيمبير باستعجالٍ، وجرّه إلى قُمْرته في الخلف. علَّق كانتان على ذلك قائلاً:

- إنّه الخوري تيفيه، كاهنٌ من سِلْك لوكوردوليه الفرنسيسكاني، وفلكيُّ الملك.

حين أعلن كانتان عن الرُّتب بتلك اللّهجة، لمْ تعرف كولومب إنْ كان في كلامه إعجابٌ أم احتقارٌ.

كان العالِمُ قد اختفى بالكاد عندما بدأ التّدافع بين النُّبلاء والفُرسان. وصل أحدهم مبلّلاً بعْد أن راح ضحيّة موجةٍ خائنةٍ في اللّحظة التي أمسك فيها بالسُّلّم، وقد رفض بتعالٍ علامات الاحترام لشخصه، وطالب فقط بقطعة قماشٍ جافّةٍ ليمسح سيفه. عرفت كولومب أنّه دون غونزاغ.

بعد أيّام الرّحلة الطّويلة، بدا أنَّ الوضع في السفينة قد تغير فجأةً مع مجيء هؤلاء الدُّخلاء عليها. راح فريق البحّارة والرُّكّاب بالغريزة يديرون ظهرهم للمنصّة المقابلة، كما لو كانوا يتراجعون أمام ظهورِ مفاجئٍ مهدّدٍ.

خلال ذلك، عاد الزّورق نحو (لا غراند روبيرج)، وراح الجميع بصمتٍ يراقبون العمليّة التّالية. قال كانتان بصوتٍ خفيضٍ متوقّعاً:

- فيلوغانيون، بلا شك!

لكنْ على تلك الحركة السَّريعة للطّاقم على سطح السفينة الرّئيسة، لمْ يكن هناك من قرَّر النُّزول على السُّلَّم. فجأةً، ظهر شكلٌ مربّعٌ، قاتمٌ،

وسميكٌ أُرجِحَ من فوق سور السفينة. تعالت أصوات لُهاثٍ عاليةٌ خدشت الهواء السّاكن، وتأرجح الشّكل الأسْود الذي كان مربوطاً بالحبال، ثمَّ بدأ ينزل.

اقترب كلُّ من في (لاروزيه)؛ لينظروا، ومالت السفينة نحو الجانب بتأثير الحركة المفاجئة لذلك الثّقل.

وصل الشّكل الأسْود إلى الزّورق، وعندما قبع فيه، أخذ يهزّه في الجوانب جميعها مثيراً الكثير من الصَّرخات. استعاد المجذّفون بحذرٍ أماكنهم، ووجّهوا الدّفّة في اتّجاه (لاروزيه).

عندها، كولومب التي لمْ تصدّق عينيها، وأولئك كلّهم الذين ظلّوا صامتين حولها، في هذا المكان من المحيط الأطلسيّ، وربّما وسطه، إلّا إذا كانوا قد وصلوا إلى قرب مقرّ وحوش السّيكلوب الذين يحرسون أطراف العالم، كلّهم رأوا كومودينة من الخشب القاتم. كان الزّورق، مع هذه العلبة السّوداء على ظهره، والمجذّفين السّتة بداخله، يشبه الزّيز الذي يزحف على الأرضيّة الشّاحبة للبحر في تلك السّاعة من الشَّفَق.

بعد أن أُنزلتْ قطعة الأثاث على (لاروزيه)، استلزم رفعها إلى سطح السفينة فترةً طويلةً. في النّهاية، نزلت كالعرش في منتصف سطح السَّفينة. كانت قطعة أثاثٍ مجهّزةً بأدراجٍ، ومصاريعَ، وأرجُلٍ ملتفّةٍ. أمام الأناقة الأصيلة لقطعة الخشب المشغولة والمرصّعة بعناية هذه، بَدت أنواعُ الخشب الأُخرى متواضعةً، من الأرضيّة التّعِسة للجسر التي بيّضها الملح، وحتّى العوارض الضّخمة للصّواري التي كان الدّهان ينقّط عليها.

اقترب الجميع بحذرٍ من قطعة الأثاث التي انتصبت وحْدها على سيقانها وسْط المركب. في الجهة الأماميّة منها كانت هناك قطعُ عاجٍ مغروزةٌ في الخشب المحفور، تمثّل بوق الوفرة الأسطوريّ المزدوج

يعلوه تاجٌ. كانت أعمال الحفر والتّرصيع دقيقةً إلى درجةٍ لمْ يرَ مثلها أيُّ شخصٍ من غالبيّة الذين كانوا على سطح السفينة؛ أمّا كولومب، فقد جلب إليها ذكرى من إيطاليا لمْ تستطع أن تتحكّم بها. كان ذلك في الخريف، وربّما كان عمرها وقتها سبع سنواتٍ. كانت هناك سيّدة تتحدّث إليها، وقد استندت بكوعيها إلى قطعة أثاثٍ مشابهةٍ تماماً. لكنْ أين؟ كانت تبحث في رأسها، لكنّها لا تجد الجواب.

خلال ذلك كان شاغلو (لاروزيه) الذين شدّتهم تلك الحشرة الكبيرة التي حلّت في الحال على باخرتهم، قد غفلوا عن الزّورق الذي ذهب إلى (لا غراند روبيرج)، وعاد منها.

لذلك انتفض الجميع عندما سمعوا صوتاً عالياً يصيح:

- بحقّ فرقة سان جاك! لقد صار هنا.

كان فيلوغانيون يستند بيديه الكبيرتين إلى السِّياج، وقد كشف عن أسنانه جميعها، وهو ينظر إلى قطعة المنجور الأنيقة.

كان الفارس نيكولا دوران دو فيلوغانيون يفوق الجميع طولاً بمقدار رأسٍ ذو شعرٍ جموحٍ مثل سائر طباعه، يختلط الملح بالفلفل في شعره القصير. راح يذرع مقرّه الجديد، فلمْ يلزمه سوى بضع خطواتٍ لينتقل قافزاً من المقصورة العالية في مقدّمة السفينة إلى حجابها الأماميّ، حيث أمسك بالمعلّم إيمبير من كتفه.

- يبدو لي أنّ (لا غراند روبيرج) سفينة صغيرةٌ. حسنٌ! كما كان الوضع هناك، سينتهي بنا الأمر بأن نتعوّد.

والواقع أنّ مرافقيه قد تعوّدوا عليها بسهولةٍ، وصيغة (نحن) التي استعملها كانت بمنزلة (أنا) تدلُّ على الكرم؛ لأنّه كان مستعدّاً لأنْ يضمّ تحت جناحه أشخاصاً آخرين.

- «ما حصل هناك كان مذبحةً حقيقيّةً». قال الأميرال من جديدٍ بصوتٍ كان يريده خفيضاً، لكنّه كان يصدح في أرجاء السفينة.

نظر إلى (لا غراند روبيرج) التي كانت ترفع زورقها إلى الأعلى.

- «من كلّ عشرة أشخاصٍ هناك ثمانيةٌ أُصيبوا. مات لدينا اثنان من بينهم حلّاقي». قال ذلك، وهو يمرُّ بيده بحزنٍ على ذقْنه المغطّاة بالوبر الأسْود: «لنأمل ألّا نكون قد حملنا الطّاعون معنا إلى هنا».

بعد هذه المقدّمة القصيرة التي تعبّر عن القلق استعاد رُشده، وعندما استدار نحو طاقَم البحّارة والرُّكّاب الذين كانوا بلا حراكٍ، شعر بأنّهم ينتظرون منه خطبةً ما. لمْ يكن يبخل بمثل هذه العطايا، فذهب ليقف بالقرب من قطعة الأثاث التي وضع يده عليها بكبرياءٍ وصرّح:

- يا أصدقائي! إنَّ رحلتنا تدور بأفضل ما يمكن. فرنسا الجديدة صارت قريبةً، وأنا أقول لكم ذلك، لنْ نلبث أن نراها. بانتظار ذلك، سيكون لكم شرف أن تخدموا في سفينة القيادة. إنّها لمْ تصبح سفينة قيادةٍ لأنّني موجودٌ فيها، إنّما لأنّ فيها هذا الشّيء، وهو الذي يعطيكم هذه الميّزة.

دلّ بإشارةٍ من يده على قطعة الأثاث، وضرب براحة يده على طرفها. أوْضحت الكومودينة أنّها تلقّت الضّربة؛ إذْ وقع أحد أبوابها مُحدثاً ضجّةً كبيرةً، كأنّها مقاتلٌ جاءته ضربةٌ في بطنه، ففتح فمه. خلف ذلك اللّوح من الخشب الذي وقع، ظهر اثنا عشر درجاً مرصّعاً بقشْر السّلاحف، وخيطانٍ من البرونز.

- «أنتم جميعاً»، أكمل فيلوغانيون، وهو يزفر زفرةً قويّةً إلى درجة أنّه لو وجّهها نحو شراعٍ لكانت قادرةً أن تنفخه: «انظروا إلى الخشب المشغول هذا. إنّه يحتوي على روح القُدس التي ترافق حمْلتنا. في داخله توجد رسائل الملك هنري الثّاني التي تخوّلنا أن نبسط سيطرتنا

على هذه الأراضي الأميركيّة الجديدة، وكاتب العدْل السّيّد أمبيري، أين هو؟ سيسجّل كلّ شبرٍ نقوم باحتلاله على وثيقةٍ ستجدون مكانها في الأدراج التي ترونها هنا، وعندما تعود هذه الكومودينة إلى فرنسا، ستحمل إلى جلالته صكوك هذه المملكة الجديدة في البرازيل، التي سنقوم معاً بإهدائها إليه».

تَلا كلامه هذا كثيرٌ من التّصفيق كتحيّةٍ.

ذاك كان تأثير خطابات فيلوغانيون، وإنْ كان رُكّاب (لا غراند روبيرج) قد ملأوا بطونهم بها إلى درجة أنّهم فقدوا السّيطرة على أمعائهم، فإنّ تلك الخطابات كانت في (لا روزيه) ما تزال جديدةً، وتثير الحماس.

نفخ البحّارة صدورهم، ووجد الرُّكّاب أخيراً الهدف الأصليّ من رحلتهم البحريّة، وكانوا قد نسوه شيئاً فشيئاً، حتّى الأناباتيستيين الذين كانوا يكرهون المملكة، ولمْ يتوقّفوا عن قتالها، كانوا يبدون سعداء بفكرة أن يكون لديهم شيءٌ جديدٌ يمكن أن يلوكوه بألسنتهم.

- «تحيّة الشُّجعان، يامعلّم إيمبير!». صرخ الأميرال لكي يختم خطبته بحماسٍ: «أعطِ الأمر بفرد الأشْرعة الكبيرة، وأعْطِ للقافلة كلّها إشارة الرَّحيل؛ لأنّك أصبحت من هذه اللحظة قائدها».

على الرغم من القروح التي كانت تؤلم البحّارة، وعلى سوء التّغذيّة والضّعف الذي كانوا فريسةً له، فقد اكتشفوا فجأةً في أجسادهم أجنحةً جديدةً جعلتهم يتسلّقون مجموعة الصَّواري.

وهكذا فإنّ ذلك العملاق فيلوغانيون، بلحيته وعينيه السّوداوين اللّتين تحيطان بأنفٍ طويلٍ مثل قرنٍ من العاج، الذي يشبه قطعة الأثاث الخشبيّة التي جلبها، قد استطاع ببضع كلماتٍ أن يعيد الحياة بضربةٍ واحدةٍ إلى تلك السفينة التي كانت تغوص في الخدر بعد أن أنْهكتها الخلافات، والدّسائس،

والحسد، وعندما ذهب لكي يغلق على نفسه الباب في المقصورة الخلفيّة، كانت كولومب قد شعرت بالدُّموع تملأ عينيها.

أمّا كانتان الذي التقت به من جديدٍ في المستودع، وهو يحمل قصعةً في يده، فلمْ يشاركها إثارتها.

- «مع ذلك»، قال، وهو يهزُّ رأسه بحركة أنّه غير موافقٍ على رأيها: «لا شكَّ في أنّه رجُلُ حربٍ».

بعد أن شربا حساءهما، قاما بجولةٍ على المجموعات التي يعرفانها. كان الجميع يعلّقون على مجيء الفارس، لكنْ بالإضافة إلى ذلك، كان البحّارة يحملون أخباراً لكولومب.

- «لقد رأى جاك أخاك». همس لها أحدهم.

لمْ يكن المدعوّ جاك قد وصل بعْد، جاء بعد قليلٍ، وهو يلعن فرقة فيلغانيون.

- « لقد بدأت الأمور على نحو سيئ». زمْجر من بين أسنانه: «بمجرّد أنْ وصل هؤلاء السّادة إلى هنا صار علينا أن نطيع رغباتهم كلّها. رجُل الدّين الفرنسيسكاني يبدو مثل قردٍ بأدوات قياس ارتفاع النّجوم، أو أشياء مشابهة لا أعرف عنها شيئاً، وكان عليّ أن أحمل له قنديله طوال ساعتين».

- «هل التقيت بجوست؟». قاطعته كولومب.

- «نعم». قال جاك، وهو يبصق على الأرض: «هذا الأسبوع كان دوري في حمْل الحساء له».

- وكيف حاله؟

- بأحسن ما يمكن أن يكون مع الأصْفاد في قدميه.

- آهٍ، يا للمسكين. إنّه يتألّم. هل هو مريض؟

- بل إنّ جسمه صار يمتلئ بالشَّحم. لا حركة، ولا تعب. على الأقلّ هو لا يحمل القنديل للفرنسيسكاني.

- ذلك الذي ضربه موجودٌ معه؟

- نعم. إنّهما يقبعان جنباً إلى جنبٍ، ويبدو عليهما أنّهما متفاهمان مثل أخين.

كانت تلك أخباراً جيّدةً، لكنّ كولومب شعرت بنوعٍ من الانزعاج عندما أخبرها عن ذلك التّقارب.

- هل قال لك أيّ شيءٍ عنّي؟

- ولا شيء.

خطرت في بالها لوهلةٍ فكرة أنّها ربّما كانت في وضعٍ يستحقّ الشّفقة أكثر منه.

- هل ستذهب لرؤيته غداً؟

- في الصّباح والمساء.

- هل أستطيع أن أرافقك؟

- لا. المعلم إيمبير جعلني أقسم أنّهم سيبقون في مكانٍ سرّيٍّ، ومع هؤلاء الجنود كلّهم الذي يتجوّلون...

نالت كولومب منه فقط الوعد بأنّه سينقل إلى جوست رسالةً أنّها بخير، وأنّها تقبّله. مرّت بقيّة الأمسية بالنّسبة لها، وهي تحضّر خططاً لتحرّر أخاها. وصلت في النّهاية إلى استنتاج أنّ أحسن طريقةٍ كانت أنْ تطلب إلى فيلوغانيون نفسه أن يكون الحَكَم، فالشّيء القليل الذي رأته منه قد أقنعها بنزاهته. كان يلزمها فقط أن تراقب عاداته، وأن تكتشف الطّريقة التي تجعلها تتوجّه إليه مباشرةً من دون أن يوقفها أحدُ حُرّاسه، أو المعلّم إيمبير.

في ذلك المساء، رغب الأميرال أن تحتفل السفينة بأكملها بقدومه، فقام باستخراج ثلاث دبجانات نبيذٍ من الدّبّوسة التي تُخزّن فيها المؤونة، وجعلها تنتقل بين الأيدي في سطح السفينة. كانت الحرارة قد جعلت النّبيذ يتخمّر، وكولومب التي كانت تحبّ هذا الطّعم السُّكّري، لمْ تتردّد في أن تشرب منه من جديدٍ عندما مدَّ إليها البحّارة الزُّجاجة المستديرة الكبيرة المغطّاة بالقشّ، التي ساعدها كانتان في رفعها.

ذلك الشّراب، بعد تلك الّليلة السّيّئة على سطح السفينة جعلها تغطّ في نومٍ عميقٍ ممتلئٍ بالأحلام، بمجرّد ما دخلت في أرجوحة كانتان. وقد أثّر بها ذلك إلى درجة أنّها في الصّباح كانت تحتفظ بذكرياتٍ مختلطةٍ عن تلك الّليلة، فتساءلت عن الحدّ الفاصل بين الأحلام وبين الواقع فيما اعتقدت أنّها قد عاشته بالفعل. كانت تميل إلى أنْ تشكّ في ذلك. مع هذا، كونها قد استيقظت على الأرض، وليس في الأرجوحة جعلها تتأكّد من أصالة ذكرياتها.

حصل كلّ شيءٍ في الضّوء الشّاحب المزْرقّ للبحر الدّافئ الذي كان يعكس القمر البدر. كانت منافذ عنْبر السّفينة قد أُبقِيَت مفتوحةً على مصراعيها؛ لكي تخفّف قليلاً من رطوبة المساحة الواقعة تحت سطح السفينة، وتبدّد الرّوائح التي ازداد تعفّنها، التي كانت تصدر عن الحمولة.

عندما أرادت كولومب أن تغيّر من وضعيّتها اصطدمت بعائقٍ. كان لديها انطباعٌ بأنّها تختنق، ففتحت عينيها. كان كانتان ملتصقاً بها، ووجهه الحزين أمام وجهها. كان ينظر إليها، وهو يبتسم. كان قد خلع قميصه، وكانت يداه العاريتان تمرّان تحت قميص كولومب. شعرت بيديّ الرّجُل الطّويلتين تداعبان ظهرها. كانت السّاعة متأخّرةً جدّاً، وسحّابات النّوم سميكةً جدّاً، بحيث لمْ تكن ردّة فعلها الغريزيّة أن تثب من المفاجأة.

- «ما الذي تفعله؟». همست.

- «أشدُّك إليّ». أجاب كانتان بصوتٍ مضطّرب.

- ولماذا؟

- لأنّني أشعر بالرّغبة في ذلك.

شعرتْ على نحوٍ مُبهَمٍ أنّها مُلزمةٌ بأنْ تقاوم، لكنّ حركات كانتان كانت ناعمةً جدّاً، وتحتاج إلى إرادةٍ قويّةٍ لفرض العُنف تُجاهها. قالت وهي تئنّ

- توقّف، هذا سيّئ.

استمرّ كانتان يجول بيديه على جسمها كلّه الذي كانت حرارة خطّ الاستواء لا تدافع عنه. قال:

- لا يمكن أن يكون ذلك سيّئاً. إنَّ الحُبَّ هو الذي يقودني. وضع الله في مخلوقاته الشُّعور بالخير، وهو شعورٌ لا خطأ فيه. لا شيء ممّا تجعلنا رغباتنا نقوم به يمكن أن يكون سيّئاً إذا ما كان الحُبُّ هو الذي يقودها.

هذه الوعْظة الطّويلة جدّاً هي التي نبّهت كولومب أكثر من المداعبات. تعرّفت فيها إلى وعظات كانتان المملّة، وكلامه النّقديّ الذي لا ينتهي عن الكتاب المقدس. استمدّت من ذلك ما يلزم من الطّاقة لكي تبعد يديه.

- قد تكون تلك رغباتك، لكنّها ليس رغباتي أنا.

لمْ يحاول كانتان أنْ يلجأ إلى القوّة، لا بلْ لمْ تكن لديه أيّة قوّة، وكولومب التي كانت تعمل بالحبال المفتولة طيلة النّهار كانت تستطيع أنْ تقاوم بكلّ سهولةٍ، لكنْ لمْ يحصل أيّ شيءٍ من ذلك؛ خرجت بسهولةٍ من الأرجوحة، وهي تتثاءب، وعيناها شبه مُغمضتين، وذهبت لتنام عند مدفعٍ.

في الصّباح التّالي رأت كانتان بسحنةٍ طبيعيّةٍ للغاية، حزينةٍ وجدّيّةٍ مثل عادته، إلى درجة أنّها كانت أمْيَل إلى الظّنّ أنّها قد حلمت بذلك، لكنْ عند

الظّهيرة، عندما بدأت تأكل عشاءها وهي تسند القصْعة إلى الحافّة -تلك كانت الطّريقة الوحيدة التي تجعل الهواء يزيل عن طعامها رائحة العفن التي تفسده- شعرت كولومب بكانتان يلمسها، وهو يجلس إلى جانبها. نظر إلى اليمين واليسار ليتأكّد من أنّه ما من أحدٍ إلى جانبهم، أو يستطيع سَماعهم، وقال لها بالصّوت القَلق واليائِس نفسه الذي لَحظته عند لقائهم الأوّل:

- أيّة مصيبةٍ أجبرتكِ يا أيتها المسكينة أنْ تُبحري على سفينة لا نساء فيها، وأن تضطرّي إلى إخفاء طبيعتك الأنثوية؟

في البداية، استقبلت كولومب بغضبٍ ذلك التّأكيد الذي صار عندها للذّكريات التي كانت قد شكّكت بها.

- ومن أعْطاك الإذْن بكَشفها؟

سدَّدت بغضبٍ مسعورٍ واضحٍ عينيها في عينيْ كانتان الذي أدار وجهه. كانت تخشى أن تندلع معركةٌ، أو ربّما مساوماتٌ سيّئةٌ، لكنّها سرعان ما غيّرت رأيها عندما رأت الرّجُل التّعِس يتقبّل ببساطةٍ ذلك الأمر. لمْ يكن من أولئك الحيوانات الذي يتصرّفون تحت تأثير الشّهوانيّة التي يفرضونها بقوّة مثلما يخضعون لها بقوّة. كلّ شيءٍ عند كانتان يأتي من الرّأس، كان يتوافق بانتظامٍ، وربّما بنوعٍ من الأسف مع إنجيل الحُبّ الذي اعتقد أنّه يستخلصه من الكتاب المقدّس، ولكي يغذّي نار هذا القناعة التي كان يريد إثباتها، ضحّى بالرّغبة القليلة التي وضعتها الطّبيعة في كيانه الشَّحيح.

- «ما هي الجريمة التي حُكِمت بسببها يا كانتان؟». سألته كولومب بنعومةٍ. أجابها بأسىً:

- كنت أعمل في قصِّ عدسات تكبير الرُّؤية في روان. كنت محترماً أكثر من أيّ شخصٍ آخر، على الأقلّ طالما لمْ أحاول أن أنقل الحقيقة للآخرين، وهذه الحقيقة لمْ تنكشف لي إلّا منذ سنواتٍ ثلاث.

- ومن كشفها لك؟

- «مسافرٌ جاء من ألمانيا حيث كان قد تألّم كثيراً». تنهّد، ثمَّ تابع: «خبّأته عندي حتّى استطاع أن يبحر في اتّجاه سان لوران».

كانت كولومب تنظر أمامها إلى أثر الأمواج الكبيرة التي كانت (لا غراند روبيرج) تتركها وراءها بتراخٍ مثل ملكةٍ فقدت عرشها.

- عندها، فجأةً رأيتُ كلَّ شيءٍ بوضوحٍ، فبادلت زجاجاتي المكبّرة بذلك المكبّر الكونيّ الذي يبدو من خلاله كلُّ شيءٍ واضحاً تماماً، وجميلاً جدّاً.

بينما كان يقول ذلك، ربّت على الإنجيل بحنانٍ.

- يجب أن تصدّقي أنَّ الخُطب التي كنت ألقيها استطاعت أن تنقل ما لديَّ من حماسةٍ؛ لأنّني أصبحت فجأةً معروفاً لدى عدّة نساءٍ في روان تحدّثْن عنّي مع عدّة صديقاتٍ لهُنَّ، واستمرَّ ذلك حتّى صرت أمضي أيّامي ولياليَّ، وأنا أصْدح بصدىً راح يتردّد في تلك القلوب وينقل الحُبَّ غير المتناهي الذي عبّر لنا عنه الرَّبّ.

- مثلما أردتَ له أن يتردّد في قلبي في تلك اللّيلة؟

- نعم.

استدارت كولومب من جديدٍ نحو كانتان، وقد فكّرت في أنّه من غير المعقول أن يقوم بمثل هذا الاعتراف من دون أن يبتسم، لكنْ ما كان هناك شيءٌ ينال من جدّيّته.

- هل وَشَى بك أولئك النِّسوة؟

- لا - صرخ قائلاً - وُشيَ بي بسبب أعمالي، لقد فهمت تلك السّيّدات قدسيّة رغباتنا، حتّى صِرْن بدورهنّ داعياتٍ، وانتشر الأمر إلى درجةٍ جعلتني أعتقد للحظةٍ أنَّ المدينة كلّها لن تكون سوى مداعباتٍ ومدائحَ.

فكّرت كولومب من دون أن تتوقّف عن النّظر إلى كانتان في أنّه كان بكلّ بساطةٍ رجُلاً مجنوناً.

- لكنْ في هذه الحال، هناك -دائماً- الّلصوصُ السّيّئون الذين يستنفرون، أولئك الذين يعيشون من المصائب، ويُصرّون على استمراريّتها. سِلْكُ الكَهَنة المخادعون الذين يخصّصون حبّهم المزيّف للرَّبّ وحده، هؤلاء القضاة المحدودون، هذه الشرطة الّلعينة...

تركت كولومب هذا الرّجُل يتأوّه، وتعجّبت من أنّها لمْ تشعر بالقلق منه. كان كانتان يثير الشّفقة، وليس الخوف، بلْ صار مريحاً لها كونه يتقاسم معها سرّ تنكُّرها. مع جوست كانت تلعب دورها من دون جهدٍ؛ لأنّهما كانا منذ البداية شريكين في تلك المسرحية، وإنْ حصل وتراخى انتباهها، كان يذكّرها بضرورة أن تكون كولان أمام الآخرين، لكنْ حين تبقى وحْدها، كانت تشعر بأنّها تكاد تخون نفسها.

- اقْسم لي يا كانتان، أنّك ستتعامل معي من الآن فصاعداً مثل شخصٍ اهتدى.

- «صحيح؟». قال لها، وهو يمسك بيديها.

- «أقصد بما يكفي، لكي لا تعود أبداً إلى الوعظ معي». قالت هذا وهي تنزع يديها من يديه مبتسمةً.

- آه، أقسم لكِ، وسأفعل كلّ ما في وسعي حتّى لا يكتشف أيُّ شخصٍ ما أنتِ عليه.

لمْ تستطع أن تعرف إن كان سبب ما أظهره من السّعادة هو أنّه استطاع أن يهديها إلى معتقده الدّينيّ أم ارتياحه لكونه لمْ يزعجها.

في الأحوال كلّها قد تكون تلك الصّداقة مفيدةً فيما لو أرادت أن تقوم بالمشروع الخطير الذي فكّرت به.

الفصل 10

كان السّجن مجهّزاً لاستقبال ثلاثة سجناءَ فقط، وقد وجد جوست وغريمُه مارتان عندما وصَلا مُجلّخَ سكاكين عجوزاً كان قد حاول أن يهرب في إنجلترا. كان هذا الرّجُل وحده موضوع الحديث؛ لأنَّ المقاتلَيْن الشّابّين اللّذَيْن كانا مقيّدَيْن وجهاً إلى وجهٍ بأصفادٍ من الحديد، ومربوطين بالقضبان بسلسلةٍ، كانا يجْترّان كراهيتهما بصمتٍ.

كان الرّجُل يروي من دون نهايةٍ لماذا رَحل؛ مشادّةٌ مع ابن عمّه الذي كان في الوقت نفسه شريكه قادته في لحظة عنادٍ إلى أن يبحر في تلك الرّحلة. حدَّثهما -أيضاً- عن زوجه التي كان يراها تشيخ، هو الذي كان يشعر بنفسه مشتعلةً بالرغبة، ويحبّ ملذّات الجسد، بدأ يحلم بالنّساء البدائيّات وترحيبهنّ به، لكنْ بمجرّد أن أفْصَح عن ذلك السّرّ، بدأ يصف نفسه بالحالم والأحمق، ويَأسَف على محلّه القديم، وعلى البيرة التي كان يشربها في المساء في النُّزل مع ابن عمّه، وخصوصاً رفقة زوجه وابنتيْه اللّتين ما كان يذكر اسميْهما من دون أن تهْطل دموعه.

بعد مرور يومين، صار السّجينان مستعدّيْن لأنْ يضحيا بأيّ شيءٍ مقابل أن تتوقّف هذه اللّازمة بما يتتالى فيها من شهوةٍ، وندمٍ، وحماقةٍ. فوق ذلك كلّه، كان مجلّخ السّكاكين يشخر مثل خنزيرٍ.

لكنْ على الرغم من انزعاجهما من ذلك الحضور الثّقيل، فقد كانت له ميّزة تحويلهما عن الشّجار الذي بينهما، لا بلْ إنّه جعلهما يتّحدان ضدّ شخصٍ ثالثٍ. عندما جاءت الأمطار الملوّثة، خطر في بال المعلّم إيمبير أنّ أمْواس قطْع الحبال، والسّواطير، والفؤوس، والسّيوف القصيرة المقوّسة، وغير ذلك من الأسلحة المستعملة في السفينة قد تثلّمت بفعل الرُّطوبة، ولذلك أفرج عن المجلّخ، وجعله يعمل أمام كومةٍ من هذه القطع الحديديّة، وبيده حجر التّجليخ لكي يعيد إلى الأسلحة حدّها قاطعاً.

هكذا صار جوست ومارتان وحدهما، والرّاحة التي شعرا بها من جرّاء ذلك جعلتهما لا يرغبان بالعودة إلى العنف. في صباح أحد الأيّام، سمعا صوت حفيفٍ وراء الحاجز، ومن خلال فتحةٍ بين ألواح الخشب، قام شخصٌ ما بزلق قطعة نقانق. أمسكها مارتان، وبدأ يلتهمها، وملامحه تدلّ على الرّاحة.

– «أحد إخوتي الصّغار يعمل في دبّوسة المؤونة». قال، وفمه ممتلئٌ.

لكنّ الأكل وحيداً أمام شخصٍ يتضوّر جوعاً لمْ يكن متعةً حقيقةً. لمْ يكن مارتان يكره شيئاً بقدْر ما يكره العُزلة؛ إذْ كان يحتاج إلى أن يقاسمه الآخرون مشاعره أيّاً كانت، ولذلك رمى بنصف قطعة النّقانق لغريمه من دون أن يخلو الأمر من شعورٍ بالأنانيّة.

لكنّ جوست تركها تقع على الأرض، وأدار وجهه.

– «لماذا؟». صرخ مارتان: «هل تفضّل أنْ تموت من الجوع؟!».

– لقد لوّثتَ شرفي.

– «شرف!». صرخ الشّحّاذ الشّاب: «من تظنُّ نفسك؟».

– «أنا من سلالة نبيلة». أكدّ جوست الذي لمْ يستطع مع ذلك أن يتوقّف عن اختلاس النّظر في اتّجاه النّقانق.

- أمرٌ يقضي على الشّهيّة! هل تعتقد أنّ النُّبلاء يأكلون شرفهم؟ يا عزيزي، انظر إليّ. أنت مربوطٌ مثل عِجلٍ في جُحْرٍ مُنتنٍ، وسيأخذونك إلى المتوحّشين، وبعد فترةٍ وجيزةٍ ستبدأ أسنانك بالتّساقط الواحد بعد الآخر. لنْ تهرب من ذلك بقتالك ضدّي، لا أنت ولا أخوك.

كان جوست يفكّر في الّلحظة نفسها بكولومب التي بقيت وحْدها على ظهر المركب، معرّضةً إلى أنواع المخاطر كلّها، وقد اضطرّ لأنْ يتقبّل فكرة أنّ تصلّبه الذي كان شرعيّاً لو كان وحْده، كان يُعرّض للخطر تلك التي لا تستطيع شيئاً من دونه، أو هكذا كان يعتقد.

- «سوف أبوح لكَ بسِرّ». تابع مارتان، وهو يسلخ بلذّةٍ القطعة الأولى من النّقانق: «أنا ابن أمير».

- «أنت؟». صرخ جوست!

- «نعم، أنا». قالها مارتان مُتّخذاً وضعيّة مَن امتلأ بطنُه بعشاءٍ دَسِمٍ

هزَّ جوست كتفيه.

- «ماذا، ألا تصدّقني؟». انتفض الآخر، وهو يقلّد الوجْه الممتعض لرفيقه: «آه! هيه، انتبه، أنت تهينني. تنال من شرفي، يجب أن تعوّضني عن تلك الإهانة».

- «حسنٌ». قال جوست، وهو يُغالب ابتسامةً: «ارْوِ لي».

- أنت في البداية يا صديقي. أحبُّ عامّةً أن أعرف مع من أتكلّم. كيف حصل أنّ رجُلاً نبيلاً مثلك وجد نفسه داخل هذا السّجن؟

كان جوست مرغماً في البداية، ثمَّ أمام حُسن المبادرة من مستمعه، روى قصّته. وعلى نحوٍ طبيعيٍّ، استلم حصّته من النّقانق في أثناء ذلك العَرض. ابتسم مارتان مرتاحاً عندما رآه يعضُّ بدوره القطعة المدهنة.

- «الآن دورك». قال جوست، وهو يُنهي القصّة التي رواها عن حياته.

- «آه، أنا». قال مارتان: «إنّها قصّةٌ بسيطةٌ. وجدوني مقمّطاً أمام كنيسةٍ في يوم عيد الملوك، ومن هنا يتأتّى أنّني أميرٌ».

قال ذلك، وهو يفتعل مرحاً جعله أنفه المكسور مُضحكاً، وهكذا انْخرط هو وجوست في ضحكةٍ عريضةٍ كانت بمنزلة أوّل نقطة دمٍ سُفكت في مبارزتهما، وبها كان من الطّبيعي أن تنتهي.

مارتان الذي وُلد في روان، كان قد وُضع في مَيْتمٍ، وقدْ أبحر، وهو في العاشرة؛ لأنّه كان يعيش في بلدة أونفلور مع أشقياء آخرين. كان يمضي الّليل في السفينة بالسّرقة من المستودعات، ولأنّه كان طفلاً صغيراً، كان في البداية يزحف عبر القضبان، ويبحث في عنابر السّفينة. فيما بعد، تشارك مع الصَّغيرين الّلذين يناديهما أَخويه، وكانا يقومان بتلك المهمّة لصالحه. كان يعلم كلَّ شيءٍ عن طواقم البحّارة، والمرافئ، والحمولات. كانت لديه معلوماتٌ كثيرةٌ عن البرازيل؛ لأنَّ ما يزيد على عشرين مركباً فرنسيّاً كانت تبحر إلى هناك كلّ سنةٍ. تأوّه قائلاً:

- لو أنّني لمْ أقترفْ غلطة تَرك أونفلور، لكنتُ حتّى الآن أعيش تلك الحياة الجميلة هناك.

جذبته شُهرة مدينة هافر دو غراس، ولذلك غامر بالذّهاب إليها، لكنْ في تلك المدينة الجديدة، كان يُقبضُ بسهولةٍ على النّاس من شاكلته، ولقد قاده الدَّرك بالقوّة، هو ومن يفترض أنّهم إخوته إلى مَيتمٍ. شاءت الأقدار السّيّئة أنْ يجده لو توريه هناك عشيّة اليوم الذي كان من المفترض فيه أن يهربوا.

طلب إليه جوست أن يحدّثه عن البرازيل، وكان الآخر مَعيناً لا ينْضب عن خشب الصّباغ فيها، وعن أَكلة لحوم البشر. كان يتحدّث مع كثيرٍ

من الغمزات عن الحظّ الحَسن الذي ينتظرهم مع الهنديّات العاريات الفاسقات اللّواتي كان البحّارة يصفونهنّ له، ومارتان الذي كان قد عاش في المرافئ أعطى الانطباع بأنّه يعرف الكثير عن هذا الموضوع، وقد شعر جوست بالقرف، وهو يراه يحكُّ ما بين فخذيه عندما كانت تلك الذّكريات تثيره.

بحذرٍ، ولأنّ خلافهما قد ذهب، دفع مارتان رفيقه لأنْ يتحدّث عن هذا الأب الذي كان يدّعي أنّه ذاهبٌ للقائه.

على الرّغم من سَماجته، كان لدى مارتان ما يكفي من الحذاقة كي يعبّر عن شكوكٍ مُحقّةٍ حول هذه القصّة. حتّى تلك اللحظة، لمْ تكن البرازيل قد عرفت سوى حملاتٍ تجاريّة، وبالتّالي كان احتمالُ أن يكون والدُ جوست قد شارك فيها قليلاً، إلّا إذا صار قُرصاناً، وبالفعل كان بعض النُّبلاء قد استسلموا للمغامرة في البحر الذي وجدوا على مراكبه المخاطر والمجد ذاتهم الذين كانوا لهم في عصر الحروب الصّليبيّة الحقيقيّة.

بَنيا فرضيّاتٍ كثيرةً حتّى استولى عليهما الشّكّ كليهما. قال مارتان إنَّ كلّ شيءٍ ممكنٌ في الحقيقة، وإنَّ ضابطاً ضائعاً يمكن أن يكون قد ذهب للبحث عن الثّروة هناك؛ أمّا جوست الذي عَلم أنّه لا يوجد في تلك البلاد قصورٌ، ولا نبيلاتٌ من حاشية البلاط، ولا كنيسة سكستين، ولا أريافٌ خضراءُ محفوفةٌ بأشجار السَّرو، وبالآثار الرّومانيّة، بالمختصر، لا شيء ممّا كان يثير شغف أبيه كلّه، فقد تزايد شكّه في أن يكون والده قد تاه في ذلك الاتّجاه.

- «على كلّ حال. أردف مارتان: «هناك سفن تجاريّةٌ تعود كلّ شهرٍ إلى فرنسا».

وهكذا لمْ يعُد الوصول إلى البرازيل يشكّل عائقاً يحدُّ من أفق جوست،

والحُزن الذي يمكن أن يشعر به أمام فكرة ألّا يلتقي بوالده صار أقلّ بسبب الأمل بمتابعة البحث عنه في مكانٍ آخر.

هكذا مرّت الأيّام في السّجن العائم، كان فيها بعض التماعات الفرح التي تثيرها قطع النّقانق، وفي وسْط الرُّطوبة الخانقة في هذا الجُحر، كانت السّاعات تمرُّ ببطءٍ، وكانا يملآنها بقصصهما. كان مارتان يحفظ آلاف القصص في ذاكرته، وقد استقاها من منابعها الحيّة من الشّحّاذين، واللّصوص، والفتيات. أدخل جوست في عالمٍ كان قد لمسه في إيطاليا من دون أن ينتمي إليه حقيقةً، وأبعدته عنه السَّنوات الطّويلة التي أمضاها في كلامورغان، وعندما كان يأتي دور جوست، كان يروي المغامرات الطّويلة لآماديس دو غول[I].

كان القمْل يعشّش في شَعرهما، ولثّتهما تنزف، وبطنهما يصرخ من الجوع، لكنّهما كانا يحتفظان بما لدى الحالمين من صحّةٍ وافرةٍ.

*

مجيء فيلغانيون إلى تلك السفينة المسكينة المخصّصة للتّموين جعلها تنقلب رأساً على عقب، فالفكر استولى على المادّة، والأناقة المتطايرة للفنون، والعلوم، والفكر، التي يدافع عنها الفارس بكلّ صرامةٍ، قد أزاحت بسهولةٍ البراميل الثّقيلة، وسائر القطيع، وفوضى الطّعام النّتنة كلّها. كانت غرف المقصورة الخلفيّة، التي تحوّلت في الماضي إلى مستودعٍ ينام فيه المعلّم إيمبير ومعاونه من دون تكلُّفٍ، صارت من جديدٍ شقّةً مضيئةً تدخل فيها الشّمس التي يعكسها البحر من خلال الفتحات العريضة لمقدّمة السفينة.

كُلّفت كولومب وبحّارٌ مبتدئٌ آخَر بتشميع الأرضيّة، ثمّ وضعت فيها

(I) رواية من روايات الفروسية الاسبانية كتبها غارسي رودريغز دي مونتالغو. (م)

الأشياء التي جُلبَتْ داخل صناديق عبر رحلتيْ ذهابٍ وإيابٍ للزّورق. كانت هناك ستائر تركيّة جلبها فيلوغانيون معه من هنغاريا، فُردت على الجدران الجانبيّة للغرفة، فغطّت الألواح والتّجهيزات الظّاهرة لخشب الكمر. كانت الكومودينة الخشبيّة قد احتلّت مكانها في هذا الموقع المشمس الأرجوانيّ، وعلى الحائط الذي ظلّ فارغاً بالقرب من الباب، قام فيلوغانيون بنفسه بتعليق لوحةٍ إيطاليّةٍ مُحاطةٍ بإطارٍ من الخشب الأسْود الملمّع تمثّل السّيّدة العذراء وطفلها. ما عدا تلك الصّومعة، لمْ تبْدر عن الفارس أيّة تصرّفاتٍ صعبة، فقد مدَّ أرجوحة نومه في فتحةٍ مجاورةٍ، وكذا فعل الأشخاص الذين يرافقونه بفوضى كاملةٍ. وحْده الرّاهب الفرنسيسكانيّ أصرَّ على أنْ ينام على الأرض في شيءٍ يشبه التّابوت المفتوح، وكان قد رأى شكله في أثناء سفره في المشرق.

في البداية، كانت لدى كولومب مخاوف من أن تبقى مجموعة القادمين الجُدد معسكرةً في المقصورة الخلفيّة، وألّا تترك الرُّكّاب الآخرين يقتربون منها، ولا شكَّ في أنّ ذلك كان التّصرُّف الطّبيعيّ لبعض أبناء البلاط من بينهم، الذين كانوا لا يتردّدون في إبراز اختلافهم بتعالٍ، لكنّ فيلوغانيون بقوّته المعتادة، كان يفقأ تلك الادّعاءات المنتفخة بمجرّد أن يستيقظ، كان يذْرع سطح المركب، وينزل إلى تحت الجسر ليتفحّص قطع المدفعيّة. كان في حاجةٍ إلى فضاءٍ واسعٍ، وكان يستبدل به التّجوال في حركةٍ دائريّةٍ كان يقوم بها بخطواتٍ سريعةٍ نزقةٍ. كان في حاجةٍ إلى العمل، والجهد، ووجود أعداء، وملمس البرونز في المدافع الصّغيرة ينقل إليه على ما يبدو صدى المعارك الكبيرة التي كانت تلوي عنق العالم: اندفاعات البراكين، الفتوحات البشريّة، المعارك... بعدها، كان يتسلّق كتلة حبال الصّواري الأماميّة، ويأخذ مكان المكلّفين بالمراقبة لمدّة ساعة. كان يمكن سماعه

يرتّل بصوتٍ جهور أشعاراً غنائيّةً، ورباعيّاتٍ لاتينيّةً، ثمَّ بعد أن يقدّم التّحيّة للجهات الأربعة الجغرافيّة، ونحو السّمت كما نحو الأعماق المظلمة والمعدنيّة لباطن الأرض، يأخذ مكانه بين الرّجال. كانت الغرفة التي تحتلّ موقع الصّدارة، لوجود الكومودينة الخشبيّة فيها، مخصّصةً فقط للمحادثات السّرّيّة، وكذلك لتمضية الأيّام العاديّة حين يكون الطّقس سيّئاً، لكنّ تلك الأيّام صارت شيئاً فشيئاً نادرةً، فالنّسيم المنتظم، والدّافئ، والرّطب كان يدفع السفن التي تستقبله في وسْط قماش الأشْرعة. كانت الصّواري المحمّلة بأشرعتها كلّها تنشر على سطح السفينة ظلّاً منعشاً مثل ظلّ الحور في الرّبيع. بناءً على أمرٍ من فيلوغانيون خُلعَ أحدُ أبواب شقّته، ووُضع في الخارج فوق براميل، بحيث تحوّل إلى منضدةٍ. كان يجلس هناك على كرسيٍّ متدرّجٍ صغيرٍ، ويترك نهاره يمرّ تحت بصر الجميع مثلما يفعل الملوك. كان يمكن رؤيته، وهو يلبس، وهو يستحمّ، وفي بعض الأيّام كان يغطس بجسمه كلّه الممتلئ بالشَّعر في برميل ماء البحر، ويفرك جسمه بالرَّماد. كان يمكن رؤيته يأكل، والكبرياء الذي كان يتبدّى من طريقة مضغه، يعود بلا شكٍّ لما في صلاة الطّعام من قُدرةٍ على التّطهير أكثر منه لما في رائحة الطّعام من حموضةٍ كانت تتزايد كلّ يومٍ على السفينة. كان يمكن رؤيته يقرأ بلا حراكٍ، وظهره مستقيم مؤلّفاتٍ ضخمةً كان قد حملها معه من سفينة (لا غراند روبيرج)، بلْ كان يمكن رؤيته يكتب، ومع استحالة المراسلة مع أيٍّ كان، بدا من الواضح أنّ الجُمَل التي كان يُلقيها بصوتٍ عالٍ كانت موجّهةً لأشخاصٍ مجهولين غامضين، هُم آلهةٌ، أو نساءٌ يملؤون بلاد الآلهة في السَّماء.

كانت كولومب تراقب هذا كلّه، وعندما تلهيها المهام المطلوبة منها عن ذلك، كان كانتان يأخذ المناوبة عوضاً عنها.

خارج تلك النّشاطات الإفراديّة التي يقوم بها بين النّاس، كان فيلوغانيون يستفهم عن مسائل السفينة. كان يفعل ذلك عامّةً مع المعلّم إيمبير، لكنّه في بعض الأحيان أيضاً، وحسْب ما تملي عليه أهواؤه، كان يفعل ذلك مع هذا، أو ذاك من البحّارة، أو من الرُّكّاب الذين كان يناديهم، ومع أنّ كولومب حاولت أن تستعمل المزايا الغامضة لنظرتها مع الأميرال، إلّا أنّها لمْ تستطع أبداً أن تلفت نظره، لا بلْ قد تساءلت إنْ كان مصاباً بعيبٍ في النّظر؛ لأنّه كان يقرأ مُقرّباً الصّفحة كثيراً من عينيه، ولمْ يكن يتعرّف دائماً إلى مُحدّثيه.

ضمن النّظام الذي كانت عليه أيّام فيلوغانيون، بدا بسرعةٍ أنَّ الفترة الأهمّ لديه هي بداية بعد الظُّهر، فالحَرُّ يصل إلى أوْجِه، والشّمس التي تتكوّر تتحوّل إلى كُرةٍ فوق الأشرعة المربّعة الموجودة في أعلى الصّواري. كان فيلوغانيون، أميرال الهواء الطّلْق، والضّوء السّاطع، والحَرّ الشّديد، يتمتّع عندها بكلّ قوّته لكي يناقش مع أركان حَربه المسائل الأساسيّة.

المسألة الكبرى في تلك الفترة كانت معرفة أين كانوا، فمنذ أنْ مرّوا في العاشر من تشرين الأول/ أكتوبر بجُزر سان توما بالقُرب من أرض مانيكونغو قبالة إفريقيا، ما عادوا يرون سوى البحر حولهم. كان موقعهم على خطّ العرض يتناقص، وعلى الرغم من أنّهم كانوا ما يزالون في منتصف الكرة الجنوبيّة، فقد كانوا يقتربون من جديدٍ من خطّ الاستواء الذي كانوا قد تجاوزوه للمرّة الأولى حين كانوا يبحرون على طول الشّواطئ الإفريقيّة، لكنْ كان من المستحيل معرفة خطّ الطّول الذي يوجدون فيه من دون مقياس حساب الزّمن، ولذلك ما كان أمامهم سوى القيام بحساباتٍ علميّةٍ لمحصّلة العلاقة بين عدد الأيّام التي انقضت والسُّرعة التّقديريّة للسفينة.

العالِم بهذا الموضوع كان الرّاهب تيفيه. في حالته الطّبيعيّة كان بسيطاً،

ولا يترك انطباعاً قوياً. قامته أقصر من المتوسّط، وبنيته ضعيفةٌ، وعيناه لا لمعة فيهما، يضاف إلى ذلك عدّة زوائد أنفيّةٍ تجبره أن يُبقي فمه مفتوحاً دائماً. ذلك كلّه جعله لا يلفت الانتباه على الإطلاق؛ أمّا الشّيء الذي كان لا يحتمله أبداً فهو ذلك الظّلّ الذي يبدو أنّ تركيبة جسمه قد هيّأته ليبقى فيه، ووسيلته للتخلّص من ذلك كانت أن يصبح عالماً، وبذلك يستطيع أن يبيّن لمن هُم مثله، بلْ ولمن هُم أكثر أهمّيّةً أيضاً، كمْ أنّهم كانوا مُخطئين في تفسير السّرّ الكامن في تلك الطّبيعة التي لمْ تكن كريمةً معه على الإطلاق. كان فلكيّ الملك، واشْتهر لأنّه نشر وقائع رحلاته إلى الشّرق، ولقد اكتسب تيفيه سمعة من يعرف كلّ شيءٍ، وأكسبه ذلك عدداً كبيراً من المعجبين، وعدداً أكبر من الأعداء، لكنّه كان يستمتع بالهجوم أكثر من استمتاعه بالمديح، فالمهمّ بالنسبة إليه هو أن ينتبه النّاس إلى وجوده.

كان فيلوغانيون يسأله كلّ يومٍ في تلك السّاعة المهمّة التي تُناقَشُ فيها بعد استعراض الوقائع مسألةُ الاقتراب من اليابسة:

- يا سيّدي الخوري، دلّني على المكان الذي نبحر فيه اليوم إذاً.

كان الفلكيُّ يشقُّ طريقه بصعوبةٍ إلى المنضدة؛ يضع إسطرلابه عليها؛ يمسك ريشةً، ويستميت في طرح حساباتٍ مؤلمةٍ تهدّ حيله، في حين يلتزم الحُضور صمت التُّقى والوَرع خلال عرض هذا السّرّ المقدَّس. في النّهاية، كان تيفيه يعتدل، ويمدُّ يَده نحو المنضدة حيث تقبع الكرة الأرضيّة داخل نصف القوس الذي يحتويها كالمهْد، ويدلّ بسبّابته ذات الظّفر المقلَّم على نقطةٍ تقع في مكانٍ ما على شواطئ الهند الغربيّة.

في ذلك اليوم كانت ردّة فعل فيلوغانيون أنْ قال مُستفهماً:

- الأرض؟!

كانت طريقة الأميرال في لجْم قوّته، وجعْل صوته شبه ناعمٍ، تبيّن كم

كان يحبُّ أن يلغي نفسه أمام الآفاق غير المتناهية، الآفاق التي يجدها في الشِّعر مكتوبةً بقلم هيسيودوس، أو دو بيللي كانت تنتزع الدُّموع من عينيه؛ أمّا حين يتعلّق الأمر بآفاق عبقريّة رجُل العِلم، فكان كمن يعرض صَدره العاري لسِهام الإعجاب؛ لكي تخترقه.

- «نعم». أكدّ الجغرافيُّ بذلك التّواضع السُّلطويّ الذي كان يجعل الكبار يستمعون إليه، والنّاس العاديّين يكرهونه: «حسْب حساباتي، يجب أن نكون قد وصلنا إلى اليابسة».

- «ومع ذلك، ما زلنا وسط الماء». تدخّل غونزاغ الذي كان يحضر المقابلة.

عندها وجّه الفلكيّ جوابه نحو المعاون بجفافٍ يعادل البساطة التي وجّه بها جوابه نحو السّيّد:

- هل تظنّ أنّي أجهل ذلك؟

- «اترك السّيّد الخوري يكمل فكرته». قال فيلوغانيون بحزمٍ قاطعٍ.

- «الأمر بسيطٌ للغاية يا أميرال». أجاب تيفيه بلُطفٍ معسولٍ: «بما أنّه كان يجب أنْ نصل إلى اليابسة، فذلك يعني أنّنا عليها بالفعل، أو نكاد. إنّ مناهجنا تضعنا أمام تلك الظّواهر في موقعٍ يُماثل موقع الرَّبّ نفسه، وعندما تلمس إصْبعي هذه الكُرة الأرضيّة، فإنّها تلمس بلَحمها امتدادَ جزيرةٍ مثل سردينيا، ومع احتمال وجود بعض الخطأ، فإنّنا قد صرنا في اليابسة».

كان لا بُدَّ من مهارة تيفيه كلّها لكي يُضْفي على غلطةٍ إنسانيّةٍ قناع قِصَر النّظر الرّبّاني.

- أَسَمعت يا معلّم إيمبير؟ هل أنت جاهزٌ لترسو؟

شَعر البحّار تُجاه تيفيه بلذْعة الاحتقار والخَشْية مجتمعتين. كان يعرف أنّه سيتأذّى إنْ ناقض العالم، ومع ذلك فإنّ الخبرة التي لديه تدفعه إلى أنْ

يَسْخر من نبوءاته العبثيّة. مع طول المدّة التي أمضاها في الإبحار بالسُّفن، توصَّل المعلّم إيمبير إلى أن يعرف بالغريزة حالات البحر كلّها الذي نادراً ما تاهَ فيه، وفي هذا المدى الواسع للمحيط الأطلسيّ، كان يميّز الطّعم الخاصّ لكلّ واحدٍ من مواقعه؛ أمّا أنْ يفسّر كيف يفعل ذلك، فهو ما لمْ يكن يقْدر أن يفعله: ارتفاع الطّيور في السّماء، ونوعيّة الضّوء في الفجر، وفي الغَسق، وبعض ألوان الماء، والتّدرُّجات غير المتناهية للأزرق الغامق نحو الأسْود التي كانت تكشف تضاريس الأعماق، ومع ذلك كانت هذه المعرفة تُعَدّ صفراً أمام التُّرّهات التي كان يلفظها تيفيه.

- «قد يكون أمامنا بعض الوقت».تجرّأ المعلّم إيمبير على القول.

- بعض الوقت لماذا؟ لنصطدم بصخورٍ لمْ نَرها؟ وجّه الدّفّة نحو الغرب، ودَعْ عنك الشُّكوك.

جواب تيفيه هذا أغلق باب النّقاش. لمْ تعُد هناك جدوى من القتال.

- «سأقوم إذن بمضاعفة نوبات العمل، وسأجعل رجالي ينامون على السّطح». قال البحّار مستسلماً، لكنّه وعَد نفسه ألّا يوجّه الدّفّة إلّا نحو الجنوب، كما تشير عليه غريزته: «لكنْ ليكُن في علمكم أنّه إنْ كان علينا أن نحرّك الأشْرعة بسرعةٍ، فإنّني أحتاج إلى عددٍ كبيرٍ من البحّارة اللذين يستطيعون تسلُّق عوارض الصَّواري».

- «ألا يكفي الطّاقم الذي لديك لهذا؟». سأله فيلوغانيون.

- لقد فقدنا عدداً كبيراً منهم في إنجلترا كما تعلمون، وغالبيّة الرُّكّاب لا يعرفون شيئاً في مجال الإبْحار، فهُم إمّا طاعنون في السِّنّ، وإمّا يخافون كثيراً، أو يدوخون بمجرّد أنْ يضعوا أقدامهم على صاريةٍ.

اهتمّ فيلوغانيون بهذه الشّكاوى التي أشعرته بضرورة أن يتّخذ قراراً، وأنّه ستكون هناك حاجةٌ ماسّةٌ لسُلطته.

أمّا كانتان الذي كان كعادته كلّ يومٍ قد تابع الحديث، وهو مستندٌ إلى السّيّاج مثلما يفعل الفضوليّون، فقد ركض لكي يخبر كولومب.

- «إنّها اللّحظة المناسبة». قال لها، وهو يشدّها من كمّها.

عندما وصلا إلى الطّاولة، كان المعلّم إيمبير يمدُّ وثيقةً إلى فيلوغانيون الذي درسها، وهو يدسُّ أنفه الطّويل تقريباً فيها.

- كان لديكَ سبعة عشرَ رجلاً للقيام بهذا العمل.

إذا ما طرحنا منهم الذين هربوا. يبقى لدينا ثلاثة عشر، يجب أن نطرح منهم أولئك الذين مرضوا من سوء الأكل، بقي لدينا ثمانية. اطرح الرّجُل الذي يوجّه الدّفّة، والمكلّف بالحراسة، وأنا، الحاصل النّهائيّ خمسة، عليهم أن يقوموا بالمناورة على السّطح والتّعامل مع ثلاث صوارٍ، وتعرف أنّه يلزمنا عادة ثلاثة رجالٍ لفَرد وضبِّ الشّراع الكبير.

- «ماذا سنفعل إذاً؟». صرخ فيلوغانيون: «إنْ كانت هناك ضرورةٌ يمكن أن أصعد أنا بنفسي لكي أساعد».

شَعر ايمبير بتأنيب الضّمير، ولكي لا يعيب عليه أحدٌ كونه قد مسَّ متقصداً كرامة الأميرال، قال موضحاً للمرّة الأخيرة:

- لكي أكون دقيقاً، يجب أنْ أقول لك إنّ لديّ بحارَين مبتدئَين موجودَين في السّجن.

شدَّ كانتان على ذراع كولومب.

- في السّجن؟ ولأيّ سبب؟

- لقد تقاتلا فوق، قُرب الأشْرعة، مُعرّضين نفسيهما إلى أنْ يقعا الواحد فوق الآخر، ولأنّني لمْ أعرف من بدأ المشاجرة وضعت الاثنين في السّجن.

- «حسنٌ». وافق فيلوغانيون بجدّيّةٍ: «ربما تستطيع أن تخرجهما منه. ألا يوجد عقابٌ آخر أقْصر مدّةً يمكن لك أن تطبّقه عليهما؟».

- الحقيقة، كنت أنوي أنْ أجلدهما قبْل وصولك.

- ممتاز. كم جَلدة؟

- «لِنَقُلْ عشرون جَلدةً لكلّ واحدٍ». قال إيمبير، وهو يفكّر بالرقم عشرة، لكنّه لمْ يكن يريد أن يبدو رخواً جدّاً أمام فيلوغانيون.

- ممتاز. بهذا الشّكل يتذكّران دائماً الواجب الذي عليهما، وبعد ليلةٍ من الرّاحة، ترسلهما ليجفّفا قُروحهما في الهواء.

هذه القسوة المرحة فاجأت كولومب التي كانت قد علّقت الآمال على إنسانيّة فيلوغانيون، لكنْ لمْ يعد هناك وقتٌ للتّراجع. فاجأت كولومب الأشخاص المهمّين الذي كانوا حاضرين في تلك المحاضرة، شقّت طريقها في المكان حتّى الأميرال، وارتمت على قدميه. كانت تعلم أنّها يجب ألّا تتوقّف عن التّحديق في عيونه، وصرخت:

- يا سيّدي، جنّب -على الأقلّ- واحداً من هذين البائسين من عقوبة الجَلْد لأنّه بريءٌ!

كان الفارس قد اعتاد أن يوجّه كلامه بكلّ أريحيّةٍ لأكثر النّاس تواضعاً، لكنْ كان يجب أنْ يقرّر ذلك بنفسه. لمْ يكن هناك شيءٌ يمْقته مثل ذلك الخَرق لقواعد حُسن اللّياقة الذي يجعله عُرضةً لمضايقات أيٍّ كان. أدار رأسه بشدّةٍ، وقد بدا عليه الغضب، وزمْجر صائحاً:

- من هذا؟

- «أحدُ البحّارة المبتدئين». قال المعلّم إيمبير.

في ذلك الوقت كان هناك جنديّان أمسكا بكولومب، وأبعداها.

- لمْ يفعل أخي أيّ شيءٍ سوى أنْ يدافع عن حياته. العدالة يا سيّدي، العدالة!

كانت تصرخ عالياً حِرصاً على شرف المحاولة، وربّما لكي تكون مع جوست في عقوبته؛ لأنّه كان من الواضح أنّها قد خسرت المعركة. بالكاد استطاع الأميرال أنْ يلْجم غضبه الهائل.

- «عشرون ضربةً غير كافيةٍ». قال في النّهاية حاسماً الأمر: «اجعلها أربعين يا معلّم إيمبير. مثل هؤلاء الزّعران لا يصلحهم عددٌ أقلّ».

تابعت كولومب الصُّراخ. حاول أحدُ الجنود أن يغلق فمها بيده. كان غضبها من فشلها أقلّ من غضبها لأنّ فيلوغانيون خيّب أملها، فهو لمْ يكن في النّهاية سوى رجلٍ يؤمن بالطّبقيّة. والتّعاطف، إنْ كان قد شعر يوماً بالتّعاطف، فيأتي عنده بعد ضرورات النّظام. تحت تأثير هذه الأفكار المضطّربة، ومن دون تفكيرٍ، تركت كولومب بعض الكلمات تفلت منها:

- انتبه يا سيّدي! إنّك بصَدد جَلْد رجُلٍ نبيلٍ.

ضاعَف الجنديُّ من عُنفه لكي يجعلها تسكت، في حين أنّها في أثناء تخبُّطها استطاعت أخيراً أن تصرخ:

- نبيلٌ من عائلة كلامورغان!

في غمرة مقاومتها، لمْ تشعر في البداية أنَّ شيئاً ما قد تغيّر، لكنّ فيلوغانيون استدار نحوها، وهو متصلّبٌ، وأمر بحركةٍ واحدةٍ أنْ يتركوها.

- «ماذا قلت؟». سألها، وهو يتفحّص وجهها.

كان يقف على بُعد خطوتين من كولومب التي كانت تفرك ذراعها التي آلمتها حتّى الموت بسبب قبضة الجنديّ الموجعة.

- «أيُّ اسمٍ لفظت؟». كرّر فيلوغانيون بصوتٍ قويٍّ للغاية، إلى درجة أنّ الكلّ سمعه حتّى في قعْر السَّفينة.

عندها، مثل مقاتلٍ فقد سلاحه، واكتشف فجأةً وجود سيفٍ على الأرض بمتناول يده، جعلت كولومب نظرتها أكثر صلابةً، ووجهتها نحو فيلوغانيون.

كانت الأهداب الشّقراء في وجه كولومب تلتمع تحت ذلك الضّياء الذي يبثّه خطُّ الاستواء، ويجعل عينيها مثل شمسين شبه مفتوحتين اجتازتهما نار غضبٍ أكثر حرارةً. في الوقت نفسه، ابتسمت، وقالت بعفويّةٍ كاملةٍ:

– لقد قلتُ إنّك بصَدد جَلْد رجُلٍ نبيلٍ.

– «لقد قلت اسماً معيّناً». ألحّ الأميرال، لكنْ من دون قسوةٍ.

– «كلامورغان». ردّدت كولومب رغماً عنها بعض الشّيء.

لقد استعملت من دون أن تفكّر كلمة السّرّ تلك كملجأٍ أخيرٍ. كان تحذير المستشارة قد عاد الآن إلى ذهنها، وخشيت أنْ ينجم عن ذلك ما هو أسوأ.

ضاعفت من تأثير عينيها أكثر. قرّب فيلوغانيون الذي كان لا يرى جيّداً وجهه لكي يتفحّص على نحوٍ أفضل هذا الشّخص الصَّغير الذي يجادله. تحت القذارة التي تسببت بها الرحلة، تعرّف إلى ذلك الجمال الذي لا جنْس له، الذي تغنّى القدماء بما فيه من صفاءٍ وشبابٍ. كان فيلوغانيون، إذا ما سنحت له فرصة أن يستغرق في تأمُّل الجمال لا يستطيع التّغافُل عنه، فقد كان يعُدّه أكثر من مجرّد مظهرٍ.

– «كلامورغان». ردّد ساهماً: «أين وجدت هذا الاسم؟».

– لمْ أجدْه يا سيّدي. إنّه اسمي. أبي قد أعطاه لي ولأخي جوست الذي كنتَ بصَدد جَلْده.

عندما شعرت كولومب أنّ علاقة قد تشكّلت، لمْ تعُد خائفةً. رسمت على وجهها ابتسامة استرخاءٍ ووقاحةٍ، فالعملاق قد وقع في قبضتها.

انتصب فيلوغانيون، ونظر حوله إلى الحضور المتسمّرين من المفاجأة. كان يمكن سماع هَمَسات الهواء والأمواج التي امتصّ قوّتها وَهَنُ الهواء الرّطب. زمَّ الفارس أنفه كما لو كان كلب صيدٍ توفز عند شمّ رائحة الطّريدة. في هذا المركب المجنون حيث لا يحصل أيّ شيءٍ غير متوقّعٍ، وحيث لا تقرّر الأرض متى تظهر، ها هي الآن مسألةٌ مهمّةٌ تبرز أمامه. أشار إلى كولومب أنْ تقف، ودفعها أمامه إلى الشّقّة التي تقع في مقصورة مؤخّرة المركب.



الفصل 11

عندما رأى دون غونزاغ فيلوغانيون يحبس نفسه مع أحد المترجمين الشّباب الذين قَبلهم على سطح السفينة، توقّع حصول تعقيداتٍ.

كان الرّجُل المسكين قبْل ذلك، في الفترة التي كان فيها على سبيل المثال يذْرَع جنبات الدّير مع الأخت كاترين، يستطيع أن يستدعي كلّ ما لدى الغاسكونيين من طاقةٍ إذا ما طلب إليه أن يُسوّغ نفسه، لكنّ هذه الأسابيع من الإبحار قد جعلته مختلفاً تماماً؛ صار نحيلاً من كثرة مرّات الإسْهال، وتقمّر وجهه من الشّمس التي كان لا يحتملها، وتراكمت لديه متاعب مهنته المقدامة كلّها، واستعدّت للهجوم عليه للمرّة الأخيرة. حدّق من دون أن يرمي بقصعته مثلما فعل رفاقه. كانت الوجبات في تلك الأيّام الأخيرة التي لا تنتهي من الرّحلة تثير من الخوف ما يفوق الجُوع الذي يفترض أن يُهدّئه. كان الطّبّاخ يقْحف قعْر القُدور ليشكّل وجباتٍ ممّا يترسّب من سوائل حامضةٍ ودبقةٍ. ذُبحت الحيوانات الصّالحة للأكل كلّها، ولمْ يبقَ سوى البغال، لكنّها كانت ضامرةً بحيث لا يمكن أن ينتظر منها الإنسان أيّة فائدةٍ. لكنّ أكثر ما يثير القلق كان ماء الشُّرب؛ لمْ يخطر على بال دون غونزاغ الذي كان يفضّل في الأيّام العاديّة مشروباتٍ قويّة

الطّعم، أنّه سيصل في يومٍ من الأيّام إلى أحلامٍ على تلك الدّرجة من العُنف يتصارع فيها حتّى الموت من أجل الاستيلاء على شربة ماء.

كانت تنبُّؤات تيفيه لا تجد اهتماماً من أحدٍ، ولمْ يكن هناك أيّ شيءٍ يثير الأمل بأن تكون الأرض قريبةً. الشّباب الصّغار، وأولئك الذين وفّرتهم الحُمى يحتملون جيّداً ذلك الحرمان غير المتناهي، لكنّ دون غونزاغ كان يشعر بأنّه سيكون من بين أوّل الرّاحلين، لهذا السّبب كانت المخاوف المتعلّقة بالمترجمين تلهيه نوعاً ما، وتحوّل أفكاره عن مشهد احتضاره، وعلى أنّه لمْ يكن ينتظر أيّ شيءٍ ممتعٍ، فقد شعر برعشة سعادةٍ في اللّحظة التي ناداه فيها فيلوغانيون إلى الخلْف.

عندما وصل دون غونزاغ إلى الشّقّة التي كان فيها الفارس يتحدّث مع كولومب منذ ساعتين، فوجئ بالهدوء والعفويّة اللّذين يسيطران على المشهد. كان الأميرال يقف بالقُرب من النّافذة ينظر إلى أخاديد الزَّبد المتحرّكة في أسفل مقدّمة السّفينة؛ أمّا المترجم الشّاب، فكان جالساً على كرسيٍّ خفيضٍ بالقُرب من الكومودينة الخشبيّة. كان لدى دون غونزاغ بقايا من حُسن اللّياقة، لمْ يكن ليتخلّص منها سوى في حال الموت، وهي التي جعلته يشعر أنّ الشّيطان الصّغير يجلس على نحوٍ غير لائقٍ، والحقيقة أنّ كولومب كانت تستند بكوعها إلى سطح المكتب، وتسند رأسها من الجانب بيدها.

- «أأنت الذي أتيتَ بهذَيْن البحّارَيْن المبتدئَيْن؟». سأل فيلوغانيون من دون أن ينظر إلى دون غونزاغ.

- نعم أنا.

- في هذه الحال، لنتكلّم عن ذلك. ارجع إلى سطح السفينة يا كولان، وانتظر حتّى نناديك.

- وأخي؟...

- فيما بعد.

أظْهرت كولومب ضيقها، وخرجت.

أمسك فيلوغانيون بالكرسيّ الخفيض الذي تركته فارغاً، وأشار إلى غونزاغ لكي يأخذ كرسيّاً آخر. جلسا تحت الخيمة الشّرقيّة الكبيرة التي كانت موشّاةً برسوماتٍ تمثّل ثمر الرُّمّان، وكان حريرها يلتمع في الظّلال البرتقاليّة.

- «إنّني أفهم أنْ تكون من جديدٍ قد خضعت لامرأةٍ». همس فيلوغانيون بابتسامةٍ خبيثةٍ ظهرت فوق لِحيته السَّوداء.

دون غونزاغ الذي اكفهرّ وجهه أكثر من أيّ وقتٍ مضى، هزّ رأسه.

- «أراهن»، أضاف الأميرال: «أنّك كتبت لها أبياتَ شِعرٍ».

لا نعرف إنْ كان الجوع، أو الخَجل هو الذي جعل رأس غونزاغ يلفّ. أشار بذقنه مؤكّداً.

- بالفرنسيّة أم باللّاتينيّة؟

- «بالفرنسيّة». اعترف دون غونزاغ، وفمه قد جفّ كما لو كان قد عَلك ورقاً.

- «الحقّ معك». صرخ فيلوغانيون الذي كان قد أدار ظهره إلى السّجّادة، وصار الآن يستند إليها: «بدأتُ أقتنع بأنّ قاطع الطّريق دو بيللي كان مُحقّاً. يمكن أن يكتب الإنسان روائع بالفرنسيّة».

تنهّد دون غونزاغ الذي صار أقلّ ضعفاً. كان يمكن أن يرجوه التّخلُّص من تلك المقدّمات السّيّئة، وأن يصل إلى الوقائع. كان عليه أيضاً أن يحتمل طويلاً أراءه حول شعر السّونيتا التي كانت اختراعاً إيطاليّاً، لكنّها صارت مكان التقاء اللّاتينيّة واللّغات الرومانسيّة.

- «لنصل إلى الوقائع». قاطعه في النّهاية دون غونزاغ الذي كان يلهث من التّعب: «أنا مُذنبٌ. إنّهما أهم من أن يُستخدما كمُترجمين. أوافقك. لمْ أرَهما قبل أن أصطحبهما، وهذه غلطتي الكبرى».

- ما هو الاسم الذي ذكرته لك تلك السّيّدة؟

- آه... لا أعرف.. آه مارغريت.

- مارغريت ماذا؟

خفض غونزاغ من عينيه:

- لمْ أسألها، إنّها خالة الصّبيّين.

- «ابنة عمّتهما». قال فيلوغانيون بصوتٍ قويٍّ، وهو ينهض: «كانت تقول إنّها خالتهما، لكنّها في الواقع ابنة عمّتهما».

سار في الغرفة جيئةً وذهاباً، وارتأى أنّه قد حان الوقت لكشف كلّ شيءٍ، فجاء ووقف قُبالة الجنديّ العجوز.

- إنّها ابنة الأخت الكبرى لوالدهما وعمّهما، وبسبب الفرق في العمر كانا يناديانها خالة. قالت لك إنّها مكلّفةٌ بحضانتهما: هذا خطأ، وبما أنّك لا تعرف اسم مارغريت هذه، سأعرّفك إليه أنا، إنّها تُدعى مدام دو غريف؛ لأنّها قد تزوّجت بالمستشار دو غريف، وهو يعيش في جوار المزرعة التي يملكها هذان الطّفلان.

قام الأميرال بجولةٍ أُخرى في الغرفة، ويداه خلف ظهره. تابع قائلاً:

- هي وزوجها فَعلا كلّ ما يلزم ليُميتا العمّ العجوز المكلّف برعاية هذين الطّفلين، ولمْ يكن ذلك صعباً عليهما؛ لأنّه لمْ يكن يفقه شيئاً في مجال الأعمال. عمل دو غريف جهده لكي يجعله يُفلس، فمات بتأثير ذلك، وبترحيل الأولاد، فإنَّ دو غريف وعزيزتك مارغريت قد أزاحا آخر المطالبين بوراثة الأراضي التي تركها العمّ المتوفّى. هل تفهمني جيّداً؟

كان ذقن دون غونزاغ يرتجف، ولحيته الممشّطة ترسم زهوراً في الهواء. قام فيلوغانيون بتلخيص الأمر له:

- بفضلك، سوف يغتني دوغريف بأراضٍ كان يجب أن تعود لهذين الطّفلين. أراضي كلاamورغان.

- «كلامورغان!». صرخ غونزاغ.

- نعم. أكّد له الأميرال، ها هو الاسم الذي قامت تلك السّيّدة بكلّ شيءٍ لكي تخفيه عنك، ونصحتهما ألّا يلفظاه، لكنّ الحقيقة واضحة: فرانسوا دو كلامورغان هو أبوهما.

- «هذا مستحيل!». اعترض دون غونزاغ، وهو ينهض، لكنّ دوخة سوء التّغذية أجبرته على أن يعود إلى الجلوس.

كان دون غونزاغ يتذكّر وجه كلامورغان. حاول أن يقارنه بالمظهر المختلف تماماً للمترجمين، وفي البداية كان لديه شكّ.

- «هذا الطفل الصغير هو الذي روى لك تلك الحكاية؟». سأل وهو يفرك حاجبيه.

لكنّ الأميرال كان قاطعاً:

- لقد أعدتُ صياغة الحكاية انطلاقاً ممّا قاله لي، ولقد قاطعت كلّ شيءٍ بعنايةٍ كبيرةٍ. إنّه لا يكذب.

- «حسنٌ، في هذه الحال، لقد خدعت!». صرخ دون غونزاغ بغضبٍ: «يجب تحقيق العدل لهذين الطّفلين، وإرجاعهما إلى فرنسا وإعطائهما الإرث الذي يعود إليهما...».

- «صمتاً». قاطعه فيلوغانيون، وهو يدير ظَهره، وكان يمسك بذراعيه المتباعدتين المكتب الخشبيّ، بحيث يشعر كُلّيّاً بالحافّة القاسية والنّاعمة، وهي تهتزّ من السُّلطة، ومن الأسرار.

كان يحبُّ أن يقف هكذا خلال لحظات التّأمُّل.

- هل تعرف ما الذي حلّ بفرانسوا دو كلامورغان؟

- «بالتّأكيد». أكّد دون غونزاغ.

- بالتّالي، لماذا لا نعدُّ هذه الرّحلة ضربة حظٍّ لهذين الطّفلين؟ الطّريقة التي استُعملت ضدّهما حقيرةٌ، هذا مفهوم، لكنْ إنْ عادا إلى فرنسا، ما الذي سيحلُّ بهما؟ أراضيهما لنْ تعود إليهما، ويجب عليهما أن ينتظرا سنواتٍ طويلةً لكي يروها تعود إليهما. من سيستقبلهما خلال تلك الفترة، من سيتكفّل بحياتهما، من سيقوم بالإجراءات ضدّ هذا المستشار الحقير غريف، الذي لديه ما يكفي من الثّروة لكي يشتري قضاة فرنسا كلّهم؟ يمكن بالتّأكيد أن نأمَل تدخُّلاً من الملك، لكنْ بالنّسبة إلى أبناء كلامورغان، لن تكون هناك أبداً إمكانيّة.

- «هذا صحيحٌ تماماً».قال دون غونزاغ، لكنْ من دون أن يقلّ استنكاره: «لكنْ في الوقت نفسه، ما الذي سيفعلانه في البرازيل؟».

- هذان المسكينان يظنّان أنّهما سيجدان فيها والدهما.

ثمّ أضاف دون غونزاغ وقد التوى أنفه من الضّيق:

- ولقد كنت ضعيفاً بحيث لمْ أبدّد أملهما هذا.

- «حسناً فعلت». قطع الأميرال حديثه: «لقد فكّرت في الأمر. من الأفضل أن نتركهما في الوقت الحالي يعيشان ضمن أمان هذه الحكاية. سوف أحتفظ بهما بالقُرب منّي، إنّهما يعرفان الّلغة الّلاتينيّة، والإيطاليّة، وبعض الإسبانيّة. سيكونان معاونين لي، وعندما نَصِل إلى المُسْتعمرة، سيكون رُكْنا الحرب هذان مُهمّين بالنّسبة إليّ. سوف ينسيان أبيهما. وشيئاً فشيئاً ستقدّم لهما فرنسا الجديدة مصائرَ نظيفةً وسيبنيان حياتهما

فيها، وعندما يصبحان أغنياء، يستطيعان دائماً أن يعودا إلى فرنسا ليستعيدا حقّهما، وسيُعطى لهما طواعيةً وقتها خصوصاً أنّهما سيصبحان قادرين على شرائه.

كانت هذه الخطة بالتّأكيد أفضل ما يمكن فعله، ومثل حال أيّ جنديٍّ، شعر دون غونزاغ بعرفانٍ مؤثّرٍ لهذا القائد الذي يبرهن أنّه جديرٌ بأن يكون كذلك.

- أدْخل الشّابّ الأصغر، واذهب لتحرّر أخاه.

عندما تحرّر دون غونزاغ من هذه الغلطة، تناقص شعوره بالجوع، وفيما عدا بعض الذُّبابات الّلامعة التي تراقصت أمام عينيه، فإنّه قد وقف من دون عائقٍ، وخرج وهو يُلقي في داخله لعناتٍ مرعبةً وحنونةً ضدّ مارغريت.

دخلت كولومب إلى المقصورة وبقيت واقفةً أمام لوحة العذراء.

- «ألم يأخذكما أبوكما أبداً إلى البندقيّة عند هذا الرّسّام؟». سأل فيلوغانيون.

نظرت بتمعُّنٍ وانتباهٍ إلى تلك الخلفيّات من الّلون الورديّ المدعوم بتلك الألوان المحفوفة، وإلى تعبير الدّهشة على الوجوه، كما لو أنّ الّلوحة قد فتحت فجأةً نافذةً على ذاكرتها البعيدة.

- «إنّها أوّل لوحةٍ لتيسيان ستدخل إلى العالم الجديد، وأنا أراهن على ذلك». قال فيلوغانيون.

نظرت كولومب إلى العذراء بعينيها المسبلتين، وجلدها المشدود، وهيْئتها النّاعمة التي تعبّر عن معرفةٍ خفيّةٍ. كان ذلك قادراً على لَجْم قسوة البشر الجاهلة. قالت لنفسها إنّهما على الأقل امرأتان في تلك الرّحلة، وقد أشعرتها تلك الرّفقة بمتعةٍ كبيرةٍ.

في تلك الّلحظة، أعلنت ضرباتٌ ثلاثٌ على الباب عودةَ دون غونزاغ. انسحبت جانباً بحيث أنّ جوست دخل فيما بعد من دون أن يراها.

كان الوقت الذي انقضى منذ سجنه قصيراً، لكنّ تلك الأيام القليلة التي أخذت منهما الألفة التي كانت بينهما منذ فترةٍ طويلةٍ كانت كافيةً لكي تجعلهما يشعران بنفسيهما قد تغيّرا حينما التقيا.

بدا جوست الذي نَحلَ كأنّه كبر أيضاً، وكان نقص الّلحم في جسمه يبرز قوّة واتّساع بنيته. وقفَ، وساقاه متباعدتان قليلاً مثل مريضٍ لزم الفراش، وعاد إلى المشي، لكنّ ذلك الضّعف أعطى لجسده بنوعٍ من المفارقة رسوخاً ممتلئاً بالثّقة. لمْ تعُد لحيته التي نبتت عند وجنتيه بلا لونٍ بتأثير الملح، وكانت تنحت وجهه الذي قد نَحل.

- «آه». صرخ فيلوغانيون: «إنّ هذا قد صار رجُلاً بكلّ معنى الكلمة. لقد أكّد لي أخوكَ أنّك في الخامسة عشرة من عمركَ فقط، لكنّني أستطيع أن أعطيك سنتين أكثر».

عندما قال كلمة (أخوكَ) أمسك فيلوغانيون كولومب من ذقنها. استدار جوست، رآها وركض نحوها.

عندما يريان بعضهما كانا يرتميان كلٌّ في ذراعي الآخر مثل طفلين، من دون أن يوفّرا القبلات، أو المداعبات، لكنْ ربّما بسبب الاستكشاف الجريء الذي قام به كانتان، أو ربّما لأنّهما بعد تفريقهما صارا ينظران إلى بعضهما باختلافٍ، أيّاً كان السّبب، فقد شاب عناقهما نوعٌ من الخجل. لمْ تكن كولومب أقلّ انفعالاً من جوست، بلْ على العكس، لكنّ اضطّرابهما الجديد لكونهما صارا يشعران ببعضهما مختلفين أضيف هذه المرّة إلى فرح الخلاص، فسُرّ فيلوغانيون ذلك بنوعٍ من التّحفُّظ الرُّجوليّ الطّبيعيّ بين صبيّين، وتبادل مع دون غونزاغ نظراتٍ ممتلئةً بالحنان.

- «يا أولادي». أعلن الأميرال بمجرّد أن ابتعدا عن بعضهما: «لقد عرف كلانا والدكما. لقد كان في سوريزول معنا».

- «نحن -أيضاً- كنّا في سوريزول». قفزت كولومب من الفرح: «في كلّ الأحوال، هذا ما قاله لنا، روى لنا عدّة مرّاتٍ عن تلك المعركة. يبدو أنّه تركنا ننام في القشّ على بُعْد عدّة أميالٍ من هناك، وأنّ الفلّاحين كانوا يحرسوننا».

- لا يمكن الحديث عن انتصارٍ، حتى إنْ عاشه الإنسان داخل القشّ، من دون أن يثير انفعال الجنود الذين قاتلوا لتحقيقه.

شعر دون غونزاغ وعيونه مسبلةٌ، وشاربه يهتزّ، بالرّاحة الوحيدة التي يعطيها إيّاه العطش؛ إذْ يجعله لا يستطيع البكاء، لكنّ جوست، وهو يسمع هذه الرّواية، أخفض عينيه، وأبدى حَرجاً ممزوجاً بالغضب لمْ تستطع كولومب أن تفسّره.

- «هل ينتظرنا أبونا، هناك حيث نتجه الآن؟». سأل بأكثر ما يمكن من القسوة في صوته.

- «لا». تمتم فيلوغانيون الذي لمْ يكن ينتظر أن يُحرج إلى هذه الدّرجة: «يجب بلا شكٍّ أن تصبرا قبل أنْ تجداه».

- «هل الفرنسيّون كُثرٌ هناك؟». ألحّ جوست بالسُّؤال.

- ليس بعد، لكنّ أمريكا أرضٌ واسعةٌ، ووالدك يمكن أن يستدعيه الواجب إلى مكانٍ بعيدٍ جدّاً عن النّقطة التي سنرسو فيها بمقدار بُعد القسطنطينيّة عن مدريد.

فهمت كولومب، وهي ترى جوست يستمع إلى هذه الإجابات بوجهٍ عدوانيٍّ ومغلق، أنَّ غضبه لا يتأتّى ممّا قالته قبْل قليلٍ، ولا من أيّ شيءٍ

يتعلّق بأبيهما. كان جوست يعبّر لفيلغانيون عن استمرار عدم الثّقة لديه، الذي لمْ يبدّده تحريره من السّجن.

- «هل أنا حُرٌّ؟». طرح السُّؤال بوقاحةٍ على الفارس.

- «أفضل من ذلك؛ ستدخلان في خدمتي كلاكما. ستكونان أمناء سرّي، ومعاونيّ في المعسكر.

- «لديّ شرطٌ لنقوم بذلك». اعترض جوست.

على الرغم من دهشته، لمْ يبْدُ على فيلوغانيون أنّ هذه الّلهجة الصّارمة قد أهانته؛ إذ إنّه بقي يتعامل مع الطّفلين بنوعٍ من التّسامح.

- «لا أريد أن أُعامَلَ على نحوٍ مختلفٍ عن ذلك الذي تشاجرت معه». شرح جوست: «ولا أنْ أنال انتصاراً غير عادلٍ عليه. اسمه مارتان، وهو ما زال في السّجن».

كانت أمور الشّرف هذه مألوفةً للفارس، وكان يفهمها، لا بلْ إنّه فرح لأنّه اكتشف تشابهاً بين الأب والابن لمْ يكن يتوضّح من مظهرهما.

- في هذه الحال، ليكُن. سوف أحرّر ذلك الفتى، وإنْ حاول أن يتشاجر معك من جديدٍ، ستدافع عن نفسك كما تريد.

خلال ذلك الجدل كلّه، كان الوقت قد مَرّ. تلوّن مسار السفينة بلونٍ بنفسجيٍّ فاتحٍ ونيليٍّ، في حين اشتعلت في السّماء من جهة الشّرق نجمةٌ لا تتحرك. في هذه السّاعة الأخيرة من النّهار، كانت الرّياح تأخذ في كثيرٍ من الأحيان استراحةً، فترتخي الأشْرعة، ويبدو على السفينة التي تغوص في الصّمت أنّها تعتكف من أجل صلاةٍ غير مرئيّةٍ للغروب، لكنْ على العكس تماماً، كانت تلك هي الّلحظة التي تناهت فيها إلى المربّع المركزيّ الذي يكتم السّجّاد الصّوت فيه ضجّةٌ كبيرةٌ آتيةٌ من الأمام.

أسرع فيلوغانيون إلى الخارج، ولحق به الآخرون. كان طاقم البحّارة كلّه، وعددٌ من الرُّكّاب يقفون في المقدّمة، وهُم يشمّون الهواء. أتى آخرون أيضاً، وهُم يركضون خارجين من المستودعات والعنابر. شقّ فيلوغانيون لنفسه طريقاً حتّى الدّقل. كان الأفق أمامهم أحمرَ في المنطقة التي كانت الشّمس قد أنْهت غروبها فيه. لمْ تكن هناك أيّة أرضٍ، ولا أيّة نارٍ عندما بدأت السّماء تصبح داكنةً. لا بلْ إنّ المكلّفين بالمراقبة لمْ يصرخوا، وفي الواقع لمْ يكن هناك أيّ شيءٍ يمكن إدراكه عدا رائحةٍ غريبةٍ، كانت في الوقت نفسه ضعيفةً وواسعة الامتداد. ضعيفةً؛ لأنّه كان يجب تركيز الانتباه كلّه لكي يمكن اكتشافها في الهواء الدّافئ، وواسعةً؛ لأنّها كانت تجتاح الاتّجاهات كلّها، وتحيط بالسفينة، ويبدو عليها أنّها تمتدُّ فوق سطح البحر كلّه.

مع ذلك، لمْ تكن هذه الرّائحة من روائح البحر، والشم الذي يُعَدُّ علميّاً في دقّة البصر، أو السّمع، كان يؤكّد أنّها بالفعل رائحةٌ تصدر عن أرضٍ.

هناك أراضٍ تفوح منها رائحة العشب، أو المواشي، أو العَفن، أو الحراثة؛ أمّا هذه الرّائحة، فلَمْ تكن توحي بأيّ شيءٍ من هذا. كانت أمْيَل إلى الحموضة، ممتلئةً بالعصير، ريّانةً، وربيعيّةً. عندما تغلق العيون تظهر رغبةٌ بالقول إنّها كانت ملوّنةً، حمراءَ، وربّما برتقاليّةً.

فجأةً، اكتشف أحدهم الكلمة الصّحيحة، وصرخ بأنّها رائحة فاكهةٍ.

والحقيقة أنّها كانت بالفعل العطرَ النّاعم للُبّ فاكهةٍ انتشر على شكل بخارٍ يهيمن على امتداد البحر كلّه، رائحةً عميقةً لفاكهةٍ طازجةٍ. الجزيرة يمكن رؤيتها، لكنّها لا تملك ذلك العطر البعيد والقويّ. وحْدها القارّة يمكن أن ترمي بعيداً في البحر هذه الرّوائح النّباتيّة، تماماً كما يرسل المحيط في عُمق السّاحل رذاذه المملّح، وروائح عشب البحر التي فيه.

بكى فيلوغانيون من الفرح مغطّياً رأسه في قبضته المغلقة، وكان الكلُّ من حوله يتعانقون. كان عليهم أن يتابعوا الإبحار لمدّة يومين أيضاً، لكي يصير السّاحل على مدى بصرهم. كانت قد مرّت على رحيلهم من الهافر ثلاثة شهورٍ ونصف.

II

غوانابارا

الفصل 1

هل يمكن لأرضٍ ما أن تختبئ من الكتاب المقدس، وأن يجهلها الإسكندر المقدوني، ويسوع المسيح، وفيرجل، وآتيلا[I] من دون أن يكون سبب هذا الإقصاء لعنةٌ خطيرةٌ؟

على سطح المراكب، كان هذا السُّؤال يهيمن على العقول. أكثر النّاس رغبةً برؤية الأرض من جديدٍ اجتاحهم رُعبٌ مدهشٌ عندما ظهرت في الغرب كتلة التّضاريس السّوداء موشّحةً ببقع البرد الصّباحيّ المزرقّة. البحر الذي كانوا قد خشوا منه كثيراً في البداية صار شيئاً فشيئاً مثل عشّ أمانٍ بالنّسبة إليهم، فأصابع الجبال التي تباعد ببطءٍ بين الصّمّامات الملساء للسّماء، وللماء، كانت تهيّئ للقاءٍ هائلٍ لمْ يعرفوا ما سينجم عنه. بالنّسبة إلى البعض كان الأمل، وتلك حالة الأناباتيست المغرمين دائماً بالمصائب، الذين راحوا يرقصون على سطح المركب متوقّعين أن تفور براكينٌ مستقبليّةٌ يمكن أن تشوي بنيرانها العالم القديم الذي يمقتونه؛ أمّا الجنود العاديّون المفعمون بالقناعات الشّعبيّة المُستقاة من بطليموس، فراحوا يتأوّهون معتقدين أنّهم سيدفعون غالياً ثمن جرأتهم؛ لأنّهم تنطّحوا

[I] أتيلا الهوني ملك هوني عاش بين عامي (395-453 م) كان آخر حكام الهون وأقواهم وأسس في إقليم روسيا وأوروبا إمبراطورية كبيرة. (م).

للوصول إلى أطراف العالم، ولمْ يكن لديهم شكٌّ بأنّ الظّلال العملاقة التي تشبه رهباناً، أو محاربين يرتدون مسوحاً طقوسيّةً فوق ثيابهم، التي بدأت تتكشّف -غير واضحةٍ بعد- مع اقترابهم التّدريجيّ من الشّاطئ، هي بلا شكّ لجلّادين كلّفهم الرّبُّ برميهم من أعلى الهاوية في الفراغ.

أمّا بالنّسبة إلى من كانوا مسلّحين بالدّين، فكانت قناعتهم أنّهم وصلوا إمّا إلى الجحيم، وإمّا إلى الجنّة، حسْب درجة تفاؤلهم، وحسْب ما يستحقّونه؛ أمّا تيفيه، فكان من جهته يحرّك على نحوٍ محمومٍ عصا يعقوب لحساب الزّوايا؛ لكي يقيس بُعدَ الشّمس عن خطّ الاستواء، لكنّ ارتجاف يده منعه من أن يُجري القياس بدقّةٍ، وأن يعيّن لهذا الموقع المجهول مكاناً عاديّاً على مخطوط خريطة نصف الكرة الأرضيّة الذي كان لديه.

جوست وكولومب كانا من جهتهما لا يعرفان ما يجب أن يفكّرا به. راح كلٌّ واحدٍ منهما يذكر للآخر، وبصوتٍ عالٍ الاكتشافات الخرافيّة التي حصلت في زمن الملك آرثر، والجُزر التي يسكنها فرسانٌ بلا وجوهٍ، لكنّهما كانا يجدان صعوبةً في تصديق ذلك. تلك الرّحلة الطّويلة التي تركتهما سالِمَين جسديّاً، أو بالكاد، كانت قد لامست لديهما عضلة الرّوح الخفيّة التي تسمح بالقفز خارج العالم المحسوس، فالفرسان الذين كانا يؤمنان بوجودهم لمْ يعودوا بلا وجوهٍ؛ فهُم رفاقُ فيلوغانيون الدّائمون، بسحنات الأشاوس على وجوههم، وبالسّيوف المتآكلة من الملح التي تزيّن خواصرهم، وبصليب مالطة الماثل على بطونهم، وبالتّالي لمْ يعطِ جوست وكولومب لذلك السّاحل أهمّيّةً خاصّةً إلّا ليوفّرا على بعضهما القناعة المخيفة بأنّه مجرّد شاطئٍ ينتمي إلى العالم العاديّ.

وهكذا مرّ النّهار بمحاولاتٍ لتوجيه أطراف السَّفينة ببطءٍ نحو الأرض. في اللّيل، لمْ يرَ ركّاب السّفينة أيّة نارٍ تلوح من بعيدٍ، فتقدّموا بحذرٍ، لكنّ

المعلّم إيمبير كان يعرف تلك الأمكنة جيّداً بحيث وجد المسافرون أنفسهم عند الفجر في مدخل الخليج.

المجلس الاستشاريّ التّقليديّ الذي ينعقد عادةً بعد الظُّهر أمام الخارطة قُدِّمَ موعده بسبب الظُّروف الجديدة. ذهب تيفيه إليه بكلّ أُبّهةٍ، فقد كان فخوراً بكونه قد توقّع وصولهم إلى هناك، لكنّ الحقيقة هي أنَّ المعلم إيمبير، عوضاً عن أن يتّبع المسار الذي اقترحه تيفيه، وجّه الدّفّة نحو الجنوب، ولو لمْ يفعل ذلك لكانوا ظلّوا في عرْض البحر.

- «خليج غوانابارا». قال تيفيه معلناً عن المكان كأنّه هو الذي خلقه بيديه خلال اللّيل- هكذا يسمّيه السُّكّانُ الأصليّون. دخل البرتغاليّون إليه قبل خمسين سنةً في أحد أيّام كانون الثاني/ يناير. كان هؤلاء الجَهلة يعتقدون أنّه نهرٌ، ولذلك أطلقوا عليه اسم (نهر يناير)، أو (ريو دي جانيرو). ومن هذا الاسم قُمنا باشتقاق كلمة جونيبر، اسم شجرة العَرْعر، لكنْ لَحظوا أيضاً أنّ اسم جونيبر مأخوذٌ من غوانابارا... ذلك كلّه ممتعٌ كما ترون!

كانت أصابعه المكتنزة تمسّد الشّعرات الثّلاث التي تشكّل اللّحية التي جعلتها الرّحلة تزيّن ذقنه.

- «جونيبرا!». صاح فيلوغانيون مستفسراً، وقد جعل مشهد الوصول نظراته أكثر نعومةً: «الكلمة تشبه أيضاً اسم جنيف».

- «أجلْ».قال تيفيه مؤكّداً: «بالفعل، يظنُّ الإنسان نفسه وسْط البحيرة التي تحمل هذا الاسم في جبال الألْب، على أنَّ الجبال فيها أكثر وعورةً».

- «أجلْ، لقد اجتزتها مرّةً، وأنا عائدٌ من إيطاليا». أضاف فيلوغانون، وهو يوافق بحركةٍ من رأسه.

لكنَّ تيفيه كان يصرُّ على أن تكون له الكلمة الأخيرة في ذلك الهجوم المعرفيّ الكاسح:

- «وأنا أربع مرّات!». أضاف بحرارةٍ.

ثمَّ أضاف ليبيّن أنّه لمْ يعُد يتقبّل بعد الآن أيّة انزلاقةٍ تودي به لمواجهة الجَهل المدّعي:

- لننظرْ بإعجابٍ إلى تلك الأسرار كلّها التي تكمن في أصول الكلمات! اسمٌ واحدٌ يجمع بين مصادفات التّقويم لدى البرتغاليّين، وبين اللّفظ الحيوانيّ الذي يدلُّ على المتوحّشين، وبين التّشابه بين منظرَين طبيعيَّين يرتبط مصيرهما بفرنسا: الأوّل يتكلّم في الأصل لغتنا، والثّاني لنْ يلبث أن يخضع لسُلطتنا.

كان خليج جونيبر يشكّل عروةً ضخمةً في خطّ السّاحل المتواصل الذي يتلوّى على شكل رؤوسٍ وخلجانٍ صغيرةٍ. كان عرضه عدّة أميالٍ، حتّى كان يمكن القول إنّه مصبُّ نهرٍ لولا أنَّ المياه فيه لمْ تكن عذبةً. كان الخريف في منتصف الكرة الجنوبيّ حارّاً ومن دون غيومٍ، وعندما أشرقت الشّمس تماماً، رسمت لوحةً من ألوان الزُّرقة الكثيفة في السّماء. لمْ يكنْ يظهر من خلال المياه البنفسجيّة أيّ قاعٍ للبحر، ومع ذلك كانت تلك المياه على درجةٍ عاليةٍ من الصّفاء إلى درجة أنّ الجزء المغموس في البحر من جسم السفينة كان مرئيّاً فيها حتى الكَمر.

بمجرّد أن اجتازوا مدخل الخليج، أعطى فيلوغانيون الأمر بأنْ يتابعوا بمحاذاة الضّفّة الجنوبيّة، لكنّ المعلّم إيمبير اعترض بحذرٍ قائلاً إنّ التُّجّار الفرنسيّين كانوا معتادين أن يفعلوا العكس.

- «هذا سببٌ إضافيٌّ!». قال فيلوغانيون بلهجةٍ قاطعةٍ وغاضبةٍ.

كانت الرّياح منتظمةً في الخليج، والسفن سهلة القيادة. اقتربوا من السّاحل ومرّوا بحذاء الشّكل الضّخم الذي رأوه من البحر.

لمْ يكن ذاك راهباً من الحجر، ولا فارساً جهنّميّاً. كانت الصّخرة ذات

المظهر الأملس المنتفخ تشبه بالنّسبة إلى هؤلاء النّورمانديّين صحن زبدةٍ، وبالنّسبة إلى من كانوا أكثر ثراءً كانت تشبه (خبز السُّكّر)[1]. عند سفحه كانت هناك أَجَمةٌ من الأشجار الكبيرة التي تزحف محاولةً الفرار من تلك المناطحة النّباتيّة الموجودة في الأرض الواطئة. على طول السّاحل، لمْ يكن هناك سوى أغصانٍ ملتويةٍ، وجذورٍ في الهواء، وأغصانٍ طويلةٍ زاحفةٍ ومتدلّيةٍ كالحبال، وقد أفلتت كلّها من عقالها هاربةً من دون أن يوجد ما يوحي بوجود انفراجٍ في الأغصان، أو مرجٍ. هناك صخورٌ أُخرى كانت تنبثق من الغابة الكثيفة، لها ضخامةٌ مماثلةٌ لصحن الزّبدة هذا، ولونها رماديٌّ لامعٌ تحت الشّمس، وعندما تتجاوز السفينة تلك الصُّخور كان المركب يبدو على درجةٍ متناهيةٍ في الصِّغر أمام المقياس الخارق لتلك الأسنان الحجريّة. السّاحل بأكمله كان يبدو كأنّه قد نَجم عن معركةٍ عنيفةٍ، ومقاومةٍ ضاريةٍ صدرت عن الأرض في زمن الخليقة؛ ويبدو أنّ الصّانع العظيم الذي بنى العالم قد كسر قوالبه بعد أن أتمَّ العمل، فظلَّ عنفُ المكان يحمل آثار تلك الهزيمة النَّكراء.

مع ذلك، ومع ضخامتها، لمْ تكن تلك الفوضى تخلو من الانسجام، فعملُ البحر، وهو يداعب الصُّخور كان حَريّاً بأن يُهدّئ تلك الأراضي المتمرّدة، وأن يرمي على الأكوام الفوضويّة سهام شواطئه المنتظمة. في بعض المناطق، كانت الأرض بما فيها من شجر المانغروف، ومن المستنقعات، والجروف الصّخريّة شاهقة الانحدار، تغوصُ مباشرةً

[1] قبْل أن يأخذ السّكّر شكل البلّورات الذي نعرفه اليوم، كان حتّى نهاية القرن التاسع عشر يُصنّع على شكل كتلةٍ مخروطيّةٍ مستطيلةٍ إلى الأعلى، ورأسها مدبّبٌ يشبه الجبل، ولذلك تسمّى جبل السّكّر ، أو بالفرنسيّة: خبز السّكّر، ولأنّ الجبل الذي يقع مقابل البحر في ريو دي جانيرو يشبه هذا الشكل المخروطي، أطلق عليه البحّارة اسْم جبل خبز السّكّر. (م).

في المياه، لكنْ كانت هناك أيضاً جيوشٌ من شجر جوز الهند متراصّة الصُّفوف، تتخلّل تلك الأرض على امتدادٍ طويلٍ، فتحافظ على هدوء البحر، وتترك الأمواج الصَّغيرة تلعب في الفسحات الواسعة من سَبخات الرَّمل النّاعم.

- «بحقِّ الشّيطان، ماذا يفعل؟». تمتمَ مارتان الذي كان عند الدّفّة يتابع مناورة السفينة، وهو يعضُّ قبضتيه: «الفرنسيّون ليسوا من هذه الجهة».

وبالفعل، على امتداد الأراضي المرئيّة كلّها، لمْ يكن بالإمكان تمييز أيّة مساكن، أو أيّة سُحُبٍ من الدُّخان الأزرق تَشي بوجود مواقد. من وقتٍ إلى آخر كانت تتناهى إلى الأسماع من اليابسة قرقعاتٌ خفيفةٌ، مثل تلك التي تثيرها خطواتٌ على القشّ، لكنّها لمْ تكن سوى حركات الهواء الموجزة في ثنايا سَعف النّخيل وأوراق الشّجر. كانت هناك صرخات طيورٍ وقرودٍ لا يبدي الهواء الصّامت أيّة مقاومةٍ لها، وتتهاوى من الأعالي كما لو كانت حجارةً تُرمى على السفن.

- «لقِّموا الأسلحة ذات الحوامل الثّلاثيّة». صرخ فيلوغانيون، وهو يقف على الجسر الخلفيّ.

كان قد أمر بنشر رايةٍ ملكيةٍ كبيرةٍ بيضاءَ تزيّنها زهور اللّوتُس في مقدّمة السفينة، فمن الأفضل إنْ كان البرتغاليّون يتسكّعون في تلك المناطق أن يعرفوا مع من يتعاملون، لكنْ لمْ يكن هناك أيّ شراعٍ في الخليج، والطّريق تبدو سالكةً، إلّا إن كان الشاطئ يخفي قنّاصةً من الجنود، وهو ما كان ممكناً دائماً.

- «أراهن أنّه سوف يلفّ دورةً، ويعود نحو المنشآت النّورمانديّة». قال مارتان، وهو في قمّة الاضطّراب.

كان جوست ينظر إليه من دون أن يفهم بعْدُ ما يعنيه؛ أمّا كولومب فكانت

تنتقل من مجموعةٍ إلى أُخرى، تلتقط في طريقها مزعاً من الأحاديث، وفهمتْ في النّهاية أنّه ما من أحدٍ يعرف الشّيء الكثير عمّا يحصل.

رست سفينة (لا روزيه) التي كانت تقود القافلة على جزيرةٍ منبسطةٍ تقع قُبالة الشّاطئ، وما عاد يمكن الحُكم على حجمها الحقيقيّ الذي ضاعت أبعاده في سبْخة العمالقة هذه. تقدّموا بهدوءٍ تدفعهم الرياح، وقد زفرت السفينة نفثات ريحٍ مفاجئةً، مثل عدّاءٍ مُنهكٍ. استغرق الوصول إلى الصَّخرة أكثر من ساعتين. تبيّن عندئذٍ أنّها صغيرةٌ، لا بلْ رأوا عندما اقتربوا منها أنّ المياه يمكن أن تغمرها في الجوّ العاصف، فتضاريسها كانت ممتلئةً بالقشور، وبقايا أشجار جوز الهند.

أمرَ فيلوغانيون بتجاوز الجزيرة، لكنّه ترك السفن تسير بمحاذاة الشّاطئ.

في أثناء اجتيازهم للصَّخرة، صار بإمكانهم رؤية منطقةٍ بارزةٍ من الشّاطئ الممتدّ الذي كان أكثر وعورةً هناك. كانت كولومب قد قرّرت في النّهاية أن تسير في اتّجاه المقصورة الخلفيّة لتفهم من فيلوغانيون نفسه ما يريد فعله، هذا إذا ما قَبِلَ أن يفسّر لها.

منذ تحرير جوست، صار معروفاً أنَّ الشّقيقين المزعومين لا يرتبطان سوى بالأميرال. كانا يذْرعان سطح المكتب على هواهما، فقد رُفِّعا رسميّاً إلى مرتبة أمناء السّرّ، لكنْ في فترةٍ لمْ يكن فيها سوى إبحارٍ ورُسوٍّ، كانت تلك الميزة لا تلزمهما بقيودٍ بقَدْر ما تمنحهما حُرّيّةً في الحركة، وبالتّأكيد استفادت كولومب من ذلك أكثر من أخيها الذي كان وما يزال يحمل في داخله حذراً كبير تُجاه الفارس.

كان تيفيه يجلس على كرسيٍّ خفيضٍ، وقد وضع كوعيه على منضدة كتابةٍ صغيرةٍ من الخشب. كان يقبع فوق مقصورة المركب الخلفيّة كأنّه

على عرشٍ، وينقل نظراته من الشّاطئ الذي كانوا يرسون فيه ببطءٍ إلى الدّفتر الممزّق المسودّ والملطّخ الذي كان يمسكه بيديه.

- لِنرَ. إنْ كان فييغاس يتكلّم عن ثلاثة جُزرٍ من هذا الجانب، فذلك يعني أنّ هذا السّاحل الذي نراه هو شاطئ الجزيرة التي في الوسط بين الجزيرتين الباقيتين، بين الراتيبه التي تجاوزناها في الحال، وتلك التي نراها في العمق، وهي أكثر وعورةً.

خلال ذلك الوقت كانت كولومب قد تسللّت لتقف خلفه، وتنظر إلى كتاب الإبحار من فوق كتفه.

- «حذارِ!». صرخ تيفيه عندما رآها.

وبينما كان يغطّي الكتاب المجلّد بيديه، توجّه بالحديث إلى فيلوغانيون.

- هذه الوثائق البرتغاليّة أسرار دولةٍ. هل أنت واثقٌ من رجالك يا أميرال؟

كان الرّاهب الفرنسيسكانيّ ينظر إلى كولومب كما لو كانت ثعباناً سامّاً. أشار إليها فيلوغانيون أن تبتعد، وأن تأتي قُربه.

- «هل يذكر كتابك المفصّل وجود أرصفةٍ حولها؟». فجأةً سأله المعلّم إيمبير الذي كان ما يزال يمسك بالدّفّة.

كان الاقتراب من هذا السّاحل من جهة الجنوب لا يبشّر بأيّ خيرٍ بالنّسبة إليه.

- «في هذه التّشكلات البركانيّة»، قال تيڤيه بتعالي من يمتلك المعرفة: «من المعتاد أنْ تكون الصُّخور التي تنبثق مدبّبةً للغاية، وهي تظهر على سطْح الماء كما لو أنّها تظهر في قطعة زُبْدة، هذا في حال غطّاها البحر، وبالتّالي لا توجد شِعابٌ مرجانيّةٌ حولها؛ ليس هناك ما تخشاه».

قطّب المعلّم إيمبير حاجبيه، واستمرَّ بالتّحديق في الزَبَد في حين قال له فيلوغانيون آمراً:

- خُذ وجهةً تدورُ حول السّاحل بمجرّد أن تقترب منه، وسنرى إنْ كان البحر يحيط بهذه الجزيرة من الجهات جميعها.

- «لماذا لا نرسو ببساطةٍ على اليابسة؟». سألت كولومب، وهي تنظر إلى فيلوغانيون.

ارْتعد الآخرون، وهُم يفكّرون بأنّ ملاحظةً كهذه ستثير في الحال غضب الفارس المهموم، لكنّ كولومب كانت تبتسم من دون أن تبدو عليها علامات الخوف، ومن دون أن تخفض عينيها، فخلال حديثها بحُرّيّةٍ مع الأميرال في اليوم الأوّل، كانت قد شعرت بأنّ مظهره الغاضب يخفي خلفه مواطن ضعفٍ يمكن التّحكُّم به بسهولةٍ من خلالها. كان يريد أن يجعل منها وصيفاً له، لكنّها فهمت أنّ ما يحتاج إليه بالفعل هو مجنون يرافقه[I].

- «لا شكّ في وجود أخطار نجهلها على هذا السّاحل». أجاب بهدوءٍ، مع نبرةٍ فيها طيبة الأب: «الجزيرة هي المكان الأكثر أماناً ريثما نستعيد قوانا، تماماً كما فعل سِلك الفروسيّة الذي أنتمي إليه قبل قرنين في رودوس، ثمَّ في مالطة».

- «لكنْ ماذا لو استقبلنا الهنود استقبالاً جيّداً؟». ألحّت كولومب.

- سيميلون إلى التّصرُّف بهذه الطّريقة إذا ما رأونا أقوياء ومستعدين. نحن لا نريد أن نجعلهم حلفاءنا، إنّما رعايا يخضعون لإمرتنا.

كان لهذه الكلمات السّياسيّة وقعٌ غريبٌ أمام منظر هذه الأدغال السَّميكة، وتلك الشّواطئ الفارغة.

(I) إشارة إلى مجنون الملك لير الذي كان وحده قادر على قول الحقيقة دون خشية أمام الملك. (م).

فجأةً صرّحَ رجال الحراسة:

- صخورٌ من جهة اليمين!

قام المعلّم إيمبير بحركةٍ مفاجئةٍ لكي يتجنّب الرّصيف الصّخري الذي كان بالكاد ظاهراً على سطح الماء.

كلّما كانوا يقتربون، كانوا يكتشفون صخوراً أُخرى. كان ساحل تلك الجزيرة مزروعاً مثل ظهر قنفذٍ بتلك الصُّخور المدبّبة الواقعة على مستوى سطح الماء.

لمْ يبدُ أيُّ تأثُّرٍ على العالِم الفلكيّ الذي جاء ما يناقض عِلمه بوضوحٍ وصراحةٍ، وظلّ يسجّل ملحوظاتٍ على دفترٍ صغيرٍ كان يحمله دائماً معه.

- «سوف نصحّح معلومات فيبغاس». قال بابتسامةٍ راضيةٍ.

والحقيقة أنّ تيفيه لمْ يتوقّف عن التّنقُّل بين ما يقوله العلماء وما يقوله الرَّحّالة، وبين علماء الخرائط والبحّارة. كان يقدّم لبعضهم البراهين العلميّة التي جاءت في نظريّات الآخرين، والعكس صحيح، ولقد انتقم من الهُزْء الذي تعرّض إليه مع المعلّم إيمبير بأنْ راح يسخّف بدوره العلماء المتناقضين، مبرهناً لهم عن وجود أرْصفةٍ صخريّةٍ حول الجُزر البركانيّة.

خطرُ السّاحل دفع فيلوغانيون إلى أن يأمر بإحكام ربْط الأشرعة على الصّاري، وبإنزال زورقٍ صغيرٍ لاستكشاف السّاحل. عاد الزَّورق بعد ساعتين. كان المعلّم إيمبير ضمن من استقلّوا الزَّورق، وقد صعد متنَ السَّفينة ممتلئاً بالسَّعادة.

- إنّها حقّاً جزيرةٌ يا أميرال، ومحيطها ممتلئٌ بالكامل بصخورٍ مسنّنةٍ، لكنْ في مقابل اليابسة، هناك مرسىً صغيرٌ مجوّفٌ يشكّل مرفأً جيّداً للقوارب الصّغيرة.

- «ممتاز». قال فيلوغانيون، وهو ينظر برضاً إلى لوتيسيا[I] الجديدة هذه: «ارموا المرساة هنا، وتأكّدوا من أن تستقرّ السفن في مكانها جيّداً. غداً صباحاً سنبدأ بالنّزول إلى الشّاطئ».

حلّ الّليل تماماً عند انتهاء البحّارة من تنفيذ الأوامر، وعندما قام فيلوغانيون بجمْع الرِّجال في مقدّمة السَّفينة كان قد صار شديد الحُلْكة. كان فيلوغانيون قد تسلّق عمود أحد الأشْرعة ليلقي عليهم وعْظةً أخيرةً قبل العشاء.

- «يا رفاق!». قال بصوتٍ منفعلٍ مثل ثورٍ يخور: «ها قد وصلنا إلى نهاية رحلتنا. هذه الأرض التي ترونها هي مُلكنا».

رُكّاب (لاروزيه) بوجوههم الشّاحبة، ولِثَة أسنانهم المدمّاة، وشفاههم الملتصقة ببعضها من العطش لاحقوا بنظراتهم إصبع فيلاوغانيون الممتلئة بالصَّلف، وأداروا رؤوسهم نحْو ساحل الجزيرة التَّعِس حيث تموت الموجات السّود على الرَّمل الأزرق. كان القمر الضَّخم يكسو أوّل صفٍّ من النّباتات المتشابكة بلونٍ أغبر، ويترك الأعماق في ظلامٍ مُطبقٍ، وساكنٍ، ومهدّدٍ.

النجّارون، والخبّازون، وصانعو القبّعات، وندّافو الصُّوف الذين انضمّوا إلى الحَملة -بعضهم جيء به عنوةً، وبعضهم أتى بمحْض إرادته- كلّهم تقريباً كانوا قد صدّقوا، علي مخاوفهم وشكوكهم، وعْد العالم الجديد، لكنْ لمْ يخطر في بالهم قطُّ أنَّ ذلك العالم الجديد كان إلى تلك الدّرجة مجرَّد مكانٍ قاحلٍ.

بينما كانوا ينظرون إلى الجزيرة، تبيّن لهم على نحوٍ صارخٍ أنَّ مصاعب

(I) مدينة بناها الغاليون في فرنسا لتكون عاصمة لهم، وهي تقابل اليوم الموضع الذي ينقسم فيه نهر السين إلى فرعين يحيطان بجزيرة صغيرة وسط باريس. (م).

الرّحلة كلّها التي عانوا منها كانت لا تشكّل شيئاً أمام ما ينتظرهم من عقوبةٍ لا يمكن تخيُّل أصعب منها: رمْي الإنسان من أعلى هرم الحضارة الذي بُنِيَ بجدٍّ واجتهادٍ، تماماً كما قُذف آدم وحوّاء من الجنّة الأرضيّة. رأوا أنفسهم ملفوظين إلى وسط العالم المتوحّش. الحيوانات نفسها كانت أحْسن حالاً منهم، فهُم على العكس منها، يمتلكون الوعي، ويشعرون بالألم، والضّعف، وانعدام الحيلة، لا يشفق عليهم أحدٌ.

- «ليكُنْ لديكم بعض الصَّبر!». صرخ بهم فيلوغانينون، وهو مفعمٌ بالحماسة: «بدءاً من الغد، ستستلمون أراضيكم الجديدة. الحِصْن الذين ستبنونه سيكون أوّل صرحٍ يشيَّد للاحتفال بمجد مَلِكنا هنري الثّاني».

توقّف لحظةً، فظنَّ جمهوره المتهاوي أنّه قد رأى المحنة التي هُم فيها.

- «لقد فكّرتُ في أنْ نطلق على مشيّداتنا هنا اسم هنريفيل». قال مجدّداً، وقد بَدت على وجهه سحنة رجُل بلاطٍ متواضعٍ على وشك التّملُّق: «لكنّ ذلك غير كافٍ بالنسبة إلى مَلكٍ. عندما نصير أسياد البلاد بأكملها، سنبني عاصمةً ما بين مكاسر الأمواج هذه، وسيكون لدينا وقتٌ كافٍ لكي نطلق عليها ذلك الاسم الملكيّ. في الوقت الحاضر، ما سنقوم ببنائه هو حِصْنٌ صغيرٌ. فلْنطلق عليه اسم حصن كوليني، لتمجيد السّيّد غاسبار دو كوليني، أميرال فرنسا الكبير الذي وقف إلى جانب مشروعنا».

كان من الواضح أنّه يلفظ ذلك الاسم بكثيرٍ من الاحترام، لكنْ دونما حبٍّ كبيرٍ.

- «يعيش حِصْن كوليني!». صرخ، وهو يرفع ذراعيه.

صوتُ نقيق ضفدعٍ مزدوجٍ صَدر من جهة النّخيل المظلم في الجزيرة، فبدّد صمْت طاقم البحّارة الكئيب.

- «هيّا!». عنّفهم فيلوغانيون: «هل ستتركونني وحْدي أقوم بتلك التّحية؟ هيّا، كلّنا، جميعاً معاً: يعيش حِصْن كوليني».

كان في لفظهم لتلك الكلمات ما يشبه حماستهم فيما لو انتزعتهم رفسات مفاجئة من أعمق أعماق النوم. وقد ارتأى فيلوغانيون أن من دواعي الحذر الاكتفاء بذلك.

كانت كولومب الوحيدة التي لا تقاسم طاقَم البحّارة يأسهم العام. كانت تشعر بسعادةٍ غريبةٍ. ربّما كان مردُّها دِفء الّليل، وذلك الهدوء المدغدغ، وتلك الرُّطوبة التي تشبه أنفاساً مبهّرةً بالفلفل قادمةً من الغابة. كانت تشعر، وهي جالسةٌ أسفل الصّاري بنوعٍ من الشّبق في متابعة الاهتزاز البطيء للمركب المتوقّف. ابتسمت لجوست الذي أتى ليلتحق بها، لكنّ وجهه كان أكثر تقطيباً ممّا كان عليه بعد الظُّهر، وكان مارتان يسير وراءه وقد بَدت عليه أمارات الغضب.

- «هل اقتنعتِ الآن؟». سألها جوست عندما جلس بدوره على قاعدة الصّاري.

نظرت إليه من دون أن تفهم. شرح لها وهو يمدُّ ذراعه مشيراً نحو السّاحل:

- هل تظنّين أنّ هناك أدنى أمل في أن نجد والدنا بين الإوزّ والبطّ البرّيّ؟

كان ذلك بدهيّاً تماماً. مع ذلك، لمْ تعرف بمَ تجيبه. في الحقيقة إنّها لمْ تعُد تفكّر، ومنذ فترةٍ طويلةٍ؛ بما كان الهدف الأوّل من رحلتهما، ولقد شعرت من جرّاء ذلك بنوعٍ من الدّهشة، وبشيءٍ من الخجل.

- «آه، نعم، أبونا». قالتها ثم سكتت.

- «صدِّقوني إنْ قلتُ لكم»، زمجر مارتان: «حتّى إنْ كان عليّ أنْ أقطع هذا الخليج الملعون سباحةً، أقسم أنه لنْ يمرَّ أكثر من ثلاثة أسابيع قبل أن أعود في رحلةٍ في الاتّجاه المعاكس».

الفصل 2

ما إنْ لامست قدما كادوريم الجسر العائم في ساحة سان مارك حتّى اجتاحته كآبةٌ مخيفةٌ. كان يحبُّ مدينته إلى حدِّ الشَّغف: يحبُّ الآجر المزخرف كالدّانتيل في قصر الدّودج، والبرج المربّع في السّاحة؛ أمّا الذّهب الذي يغطّي الكنيسة، فكان يملأ عينيه بالدُّموع. كان القَدَر قد شاء مع الأسف أنْ يخدم المدينة من دون أن يعيش فيها أبداً، فلقد ملأته الجمهوريّة شرفاً ويأساً عندما اختارت له أن يكون جنديّاً في جيشٍ غير مرئيٍّ يتألّف من دبلوماسيّين وجواسيس، كان قد جُنِّدَ في أرجاء العالم المعروف جميعها. كانت فينيسيا الضّعيفة تجد قوّتها في المعرفة المعمّقة التي تقدّمها إليها تلك الشّبكة من الرِّجال البعيدين الذين استبدلوا بالاستقامة الخِسّة، وأقسموا على أن يخونوا كلَّ شيءٍ لكي تبقى المدينة مخلصةً لنفسها.

عندما عاد كادوريم إلى المدينة، كان ذلك لكي يقدّم المعلومات للدوق والمجلس الأكبر. وبسبب سوء نيّته، لَزمه شهرٌ، أو شهران لكي يروي كلّ ما سمعه، وما تكهّن به.

في انتظار ذلك راح يتسكّع في تلك المدينة التي يحبّها، التي كان

في كلّ مرّةٍ يجد صعوبةً في التّعرُّف إليها. وجد أطفاله، وقد كبروا وصار من الصَّعب معرفتهم، وزوجه كعادتها تزداد غربةً عنه؛ أمّا قصره، فكان يبدو كأنّه يغيّر موقعه من دون توقُّفٍ؛ لكثرة ما تتزايد ورشات العمل على أطرافه. كانت العين تضيع لكثرة البيوت الجديدة، والجسور غير المتوقّعة، ومشاريع بناء الكنائس المدهشة. من نافذته، صار بمقدور كادوريم أن يرى الواجهات الجديدة تماماً لسانتا ماريا فورموزا ولقصر فاندرامان، وهي تنبثق وسْط غابةٍ من الأخشاب المدبّبة. هكذا تولّد داخل ألْسنة البحيرات المتشعّبة أجمل كنوز العمارة التي تخترق قشرة كتيمة من السّقّالات تحيط بها لتعرض ألوانها الورديّة البِكْر، والبيضاء النّاصعة، والعاجيّة النّاعمة، التي صُمّمت لتدوم إلى الأبد. كان كادوريم يعبد هذه المدينة المصنوعة من ليمونٍ وجوهرٍ، لكنْ ما كاد يُتاح له الوقت الكافي ليستحوذ عليه ذلك الشَّغف حتّى أزِفَتْ ساعةُ الرَّحيل من جديدٍ. كانت هناك أشباح طرقاتٍ مغبرّةٍ، وفنادقُ سيّئةٌ، وأكاذيبُ، ورفقةٌ تعِسةٌ، تصعد إليه من القناة الكبيرة، وتغمره في اللّيل إلى درجةٍ انتهى معها بأن يهرب ويقرّر الرَّحيل فعليّاً هذه المرّة، ومن جديدٍ.

كان قد وصل إلى هذه الحال في ذلك الصّباح من شهر آب/ أغسطس في المدينة التي كانت تضيئها في ذلك الوقت شمسٌ صيفيّةٌ حادّةٌ، لكنَّ ذهنه كان المكان الوحيد الذي ظلَّ معتماً بعنادٍ. أراد أن يحتفل بموعده الأخير مع المدينة، فكان عليه أن يجتاز ما يقارب عشرين قناةً، وعدداً لا متناهٍ من السّاحات الصّغيرة. تناقضت مشاعره على نحوٍ مُرعبٍ؛ إذْ بمقدار ما شعر بالمتعة أمام مرأى الجنْدولات، والأسواق المكشوفة في الهواء الطّلْق، وآلاف المشاهد الصَّغيرة من حياة فينيسيا في الصّباح، بمقدار ما كان يتألّم من معرفة أنّه لنْ يلبث أن يضيّع تلك المتع لفترةٍ طويلةٍ. في النّهاية وصل

إلى القصر الجديد تماماً، الذي يوجد فيه الشّخص الذي كانت المباحثات تجري معه في ذلك اليوم. في أثناء دخول كادوريم إلى القصر تشكّل لديه الانطباع بأنّه عاد إلى السّفر من جديدٍ، فالبناء الذي كانت أعمال البناء ما تزال منتشرةً في أرجائه، الذي تفوح منه رائحة الكِلْس الطَّريّ، كان مفروشاً بطريقةٍ أبعد ما تكون عن أسلوب أهل فينيسيا. كانت هناك صناديقُ خشبيّةٌ مجلوبةٌ من الجُزُر، وكنباتٌ غريبةٌ كثيفة الزَّخارف، بلْ وجدارٌ من الزّليج. تلك التّفاصيل كلّها كانت تشي بالرَّغبة في إضْفاء سمات برتغالية على هذا الموقع، لكنّ هذا الادّعاء السَّخيف لمْ يثبت عَظَمة صاحبه، بلْ على العكس كانت تفوح منه رائحة النِّعمة المُحدثة، والنّبالة المسروقة. كان كادوريم معتاداً هذا النَّوع من التّصرُّفات الهمجيّة التي تفلت من عقالها بمجرّد اجتياز منطقة ميلانو. تنهّد، وهو يجلس على كرسيٍّ ضخمٍ من العاج، تنقصه الرّاحة، ويبدو مضحكاً؛ إذْ يهتزّ تحت الجالس عليه على الرغم من متانته الظّاهريّة.

تركوه ينتظر فترةً طويلةً، ثمَّ فُتح بابٌ ظهرت من خلاله كنيسةٌ مذهّبةٌ من أرضها حتّى السَّقف. بعد ذلك ظهر الأسْقُف.

- «تحيّاتي واحتراماتي لقداستكم!». صرخ كادوريم، وهو ينكبُّ على خاتَم الأسْقُف.

لا يخطئ أبداً من يعطي لشخصٍ ما درجةً لمْ يصل إليها بعْد، ذلك أنَّ من يتمتّع بمثل هذه الغَلطة يكون مستعداً لمسامحتها؛ إذْ يظنُّ أنَّ من يتملّقه قد ذهب أبعد من الواقع بقليلٍ.

- «هيّا هيّا!». قال البرتغاليُّ بشيءٍ من الاضطّراب المصطنع: «قِف، ولا تتحدّث عن القداسة أرجوك؛ إذْ لمْ أصبح بابا بعْد».

كان التّواضع الشّرِه الذي تحمله تلك الملحوظة يبيّن أن يواخيم

كويمبرا الذي صار أسْقفاً في عُمر الخامسة والأربعين يطمح إلى مستقبلٍ مزهرٍ.

كانت هناك بعضُ كلمات التّرحيب، ثمَّ الزّيارةُ الإلزاميّة إلى غرف الاستقبال التي كان البرابرة يعتقدون أنَّ من واجبهم أن يفرضوها على زوّارهم من أهل فينيسيا، ثمَّ جلسةٌ على شُرفة القصر حيث أخذا مواقعهما جلوساً وجهاً إلى وجهٍ على كنباتٍ من الحجر، مصنوعةٍ بذوقٍ متدنٍّ للغاية. بعدها، استطاع كادوريم في النّهاية أن يصل إلى موضوعه.

- «هكذا إذاً». بدأ القسّيس كلامه، وهو يشبك أصابعه فوق بطنه: «أنت وصلت حتّى هذا المرفأ الجديد الذي كان الفرنسيّون يحضّرون فيه مشاريعهم المعادية لوطني؟».

- لقد ذهبتُ إلى هافر دو غراس، يا صاحب النِّيافة.

بفرقعةٍ صغيرةٍ من لسانه، ذَكّره الرّاهب بأنّه لمْ يصل بعْد إلى هناك، ثمَّ قال:

- إنَّ مَلكنا شديدُ العِرفان للبندقيّة؛ لأنّها قبلت طلبه. كنّا نعرف أنّنا لا يمكن أن ننال معلوماتٍ أفضل من تلك التي تصل إلينا منك. وماذا علمتَ فيما يتعلّق بنيّات هؤلاء الفرنسيّين تُجاه الأمريكيّتين؟

كان يمكن لكادوريم حين وصل قبل أكثر من ثلاثة أسابيع أن يروي لرجُل الدّين ما يعرفه، لكنْ كان يجب قبلاً أن تقوم الجمهوريّة بالتّفاوض على سعر هذه الخدمة. لمْ يكن البرتغاليّون حلفاء فينيسيا، و بسبب تكالبهم غير المفهوم على فتح طريقهم الخاصّة نحو الهند، أسْهَموا في كسر الاحتكار الذي كانت فينيسيا قد حافظت عليه فترةً طويلةً في الشّرق. مع ذلك، كان لا بُدَّ من وضع كلّ حدثٍ ضمن سياقه، فقد كانت البرتغال مع كلّ ما تسبّبه من أذىً تعْدل كفّة إسبانيا، أحد الأعمدة الأساسيّة في

إمبراطوريّة كارلوس الخامس[I] الذي كان على فينيسيا أن تأخذ حذْرها منه. بالتّالي، ما كان يمكن إهمال هؤلاء البرتغاليّين الهَمَج، وإنْ كان من الممكن تقديم خدمةٍ لهم؛ لأنَّ الرّحمة تقضي ألّا يُحرموا من ذلك، فإنَّ الشّرط كان يقضي أن يدفعوا ثمن ذلك غالياً. كان كادوريم قد عَلم في الّليلة السّابقة بتلبية هذا الشّرط المسبق بعد مساوماتٍ طويلةٍ، وها هو الآن يستطيع أن يروي ما رآه في الهافر كلّه بكثيرٍ من الأريحيّة.

- «تقول إنّه كانت هناك سُفُنٌ ثلاث؟». قال الأسْقُف مفكّراً بعد أن استمع إلى هذه الرّواية. قطّب حاجبيه، ثمَّ تابع: «وفوق ذلك مجهّزةٌ استعداداً للحرب. إنّه لأمرٌ مزعجٌ».

كانت هناك ستارةٌ حمراءُ ممدودةٌ فوق الشُّرفة، أمّنت لهما بعض الفَيء بينما عكست عليهما مياه القناة الْتماع مبارزات الضّياء فوق سطحها المشمس. أكْمل الأسْقف جُملته:

- عندما يلتقي رجالنا بسفن معزولةٍ، أو بقوافلَ من المراكب الصَّغيرة التي لا تحمل أسلحةً، فإنَّهم يعرفون كيف يقنعونها بألّا تذهب إلى البرازيل التي هي ملكيّتنا.

وتنهّد رجُل الدّين، وقد فاضت مشاعره حناناً عندما فكَّر بمواطنيه، وهُم يؤدّبون التّائهين. صحيحٌ أنّهم كانوا فوق ذلك يقطعون أذْرُعهم وسيقانهم، ويجعلونهم يموتون جوعاً، إلّا أنَّ ذلك لمْ يكن سوى تفاصيلَ سخيفةٍ لا تستحقُّ الذِّكر، فالإنسان لا يستطيع أن يشعر بالحُبّ إنْ لمْ يعرف كيف يعاقب بكراهية.

- لكنْ ليست لدينا في هذه البحار أيّة قوّةٍ تستطيع الوقوف في وجه ثلاثِ سفن مقاتلةٍ وعنيدةٍ.

(I) كارلوس الخامس أو شارل الخامس: حاكم الامبراطورية الرومانية المقدسة والممالك الاسبانية.(م).

كانت البرتغال الصَّغيرة لا تملك ما يكفي من الإمكانات البشريّة، ولذلك فقد أعطت لممثّليها مهمّاتٍ عديدةً، فدون يواخيم الذي كان في إيطاليا للقيام بمهمّاتٍ كنسيّةٍ، كان في الوقت نفسه يلعب دور السَّفير، وقد أنهك نفسه في التَّفكير السِّياسيّ، ما جعل تقطيبة الشّراهة ترتسم على شفاهه. شعر كادوريم بالرِّضا بسبب ذلك الصَّمت، وأفادَ منه لكي يسرح بخياله. كان الحنين يفترسه، وهو يشاهد المراكب على القنال الكبيرة، وكان يتساءل إلى أيّ هلاكٍ سيرسلونه في هذه المرّة.

- «هل تعتقد أنَّ وجهتهم هي ريو دي جانيرو؟». سأله الأسْقُف بصوتٍ قويٍّ استطاع أن ينتزع الجاسوس من أحلامه.

- «ريو... نعم». تمتم كادوريم.

وأضاف لكي يثبت أنّه ما زال ينصت:

- هل لديكم قوّاتٌ فيها؟

- «مع الأسف». تأوّه دون يواخيم: «البرازيل تلك كبيرةٌ للغاية، وبلدنا البرتغال صغيرٌ جدّاً. لدينا رجالٌ في ساو سالفادور دو لا باهيا، لكنّها بعيدةٌ عن خليج ريو بُعد لِشْبونة عن إنجلترا، ثمَّ لدينا موقعٌ صغيرٌ في جنوب ساو فيشنته، لكنّه غير كافٍ على الإطلاق للقيام بهجومٍ».

استغرق في التّفكير، وأمسك بكأسٍ من نبيذ ماديرا كان موجوداً أمامه. شرب ببطءٍ، ثمَّ وضعه فجأةً بقوّةٍ.

- «لكنّنا سنجد طريقةً لجعلهم يحترمون سُلطتنا». صرخ، وقد أضاع رقته الكهنوتيّة كلّها: «أيّاً كانت الصُّعوبة، سنحضّر لحَملةٍ تنطلق من باهيا، أو الكاب فير، أو حتّى إنْ لزم الأمر، من لِشْبونة».

بعد ذلك استعاد هدوءه.

- في النّهاية، القرار يعود إلى المَلك.

كان كادوريم قد رسم على وجهه سحنةً وقائيّةً؛ فقد زمّ عينيه كي لا تعميه الْتماعات الشَّمس على البحيرة، وسرح بأحلامه مستفيداً من تلك الوضعيّة.

- «يجب فقط أنْ نصوّر لصاحب الجلالة الوضعيّة الحاليّة للموقف الأوروبّي».قال الأسْقف، وهو يحافظ على برود عينيه السّاهمتين، كما لو كان أمام رؤيا: «لأنَّ لحظة الفعل قد حانت، وفرنسا تستهلك قواها في مقاومة الإمبراطور. عينها على الشّرق. ساحة المعركة التي ترمي فيها بثقلها كلّه هي مقاطعة بيكارديا، وهي مقاطعة هينو، وإن كنّا نتنازعها اليوم على إحدى المحطّات التّجاريّة الأمريكيّة التَّعِسة، فإنّنا نستطيع أن نراهن على أنّها لنْ تقوم بأيّة ردّة فعلٍ. ليس هناك وقتٌ نضيّعه».

رنَّ بخاتمه ثلاث مرّاتٍ على الكأس القرمزيّة، تماماً كما يفعلون للدّلالة على نهاية القدّاس.

- «ما كان يجب أن أعود إلى لِشْبونة قبل الشَّهر القادم». صرخ وقد تملّكته الحميّة: «لكنّني سأقدّم موعد سفري. يجب أن أقنع صاحب الجلالة بأسرع وقتٍ ممكنٍ. ليساعدني الرَّبُّ، أنا أكيدٌ من ذلك!».

نظر كادوريم إلى المدى في اتّجاه مورانو واليابسة.

كان ذلك الحماس قد أثار اضطّرابه، لكنّه سرعان ما استعاد قدرته على التّفكير: البرتغاليّون، نعم، نعم، أصبح كلُّ شيءٍ واضحاً له.

- «في الواقع يا صاحب النّيافة»، قال كادوريم على الرغم من أن رجُل الدّين كان قد قرّر إنهاء المقابلة: «إنْ شعرتم مع ذلك بالرّغبة في مهاجمة تلك المستعمرة الفرنسيّة، فقد احتطتُّ لذلك، ولديّ الرّجُل المناسب للمهمّة».

كانت لهجته المرحة تقول أشياء كثيرةً، منها: «ذلك كلّه متضمّنٌ في السِّعر نفسه».

- «ممتاز». قال الأسْقف، وقد حان دوره في زمِّ عيونه، لكنْ تواطُؤاً، وليس بسبب نور الشّمس.

قام كادوريم بوصف فيتوريو بصفاتٍ أفضل ممّا يستحق.

- «ربيير». سَخِرَ الأسْقف بمتعةٍ واضحةٍ: «ربيير! يا إلهي! أيّة حذاقة؟ لا شكَّ في أنكم شعبٌ من المتآمرين الاستثنائيّين!».

كانت هناك ابتسامةٌ ذكيّةٌ على شفاه الرّجُلين سمحت لهما أن يُعلنا أنّهما قد فهما تلك الكلمات على أنّها مديحٌ. مع ذلك، أحسَّ كادوريم بوخزةٍ صغيرةٍ. ما كان ليغضب؛ لأنَّ فينيسيا لمْ تنل الإعجاب لتحضُّرها، إنّما للفساد الذي فيها، لكنْ مع ذلك، بعض الاحترام....

الفصل 3



أتت الفكرة من كانتان. كان قد نشرها بين المجموعات بطريقته التّلميحيّة المتواضعة. حسْب اعتقاده، لمْ يكن هناك أيُّ جديدٍ في هذا العالم الذي سيرسون فيه؛ ومن المضحك أنْ نظنَّ أنَّ البشر كانوا يجهلون ذلك حتّى تلك الّلحظة. على العكس تماماً، كان هذا العالم قارّةً ميتةً، واحدةٌ من تلك الأراضي الملعونة التي انتصرت على أنواع الحياة كلّها، وخصوصاً الحياة البشريّة. وراح كانتان يذكر عشرات المقاطع الغامضة من الإنجيل التي تؤكّد هذا الأمر، حسْب رأيه.

عندما وصلت الزّوارق الأولى في الصَّباح إلى الجزيرة، لمْ تكنْ لدى الرِّجال أيّة رغبةٍ بالنُّزول منها. كانت تنبُّؤات كانتان قد أثّرت فيهم كثيراً، ولمْ يشكّوا في أنَّ ذلك المسحوق الأبيض شديد النُّعومة، الذي كان يمتدُّ على طول الشّواطئ كان مسحوق عِظامٍ، وأنَّ ما ظنّوه في البداية جذوع أشجارٍ، كان عندما اقتربوا منه أعناقاً دقيقةً لهياكلَ عظميّةٍ، وتراكماً لفَقرات عِظامٍ جفّفها الهواء. كانت هناك قرقعاتٌ تنذر بالشُّؤم تصدر عن تلك الأوراق المتصلّبة مثل أضلاع المشنوقين، التي عُلّقت فيها طاقاتٌ من الجَماجم.

عندما حزموا أمرهم، وقرّروا أمام صرخات البحّارة أن يقفزوا في

الماء الدّافئ والصّافي، وأنْ يدوسوا الشّاطئ بأقدامهم أخيراً، تبدَّدت تلك الأوهام، لكنْ بقي في أذهانهم نوعٌ من الذُّعر الذي لا يمكن تفسيره، حين بدأوا يتجمّعون، وقد تملّكتهم الدَّهشة، واعترتهم الرّعشة تحت أوّل شجرات جوز هندٍ صادفوها، وبدأ ظلُّها يُصبح مُنعشاً. كان عددهم يقارب ثلاثمئة في ساعة الظّهيرة تلك حين نزلوا من المراكب متدلّين من عَنفات ستّة زوارق. كانوا متلاصقين وعيونهم تدور في الاتّجاهات جميعها بحميّةٍ مجنونةٍ.

- «حياتي مقابل حذاءٍ». قال مارتان ساخطاً.

كان قد مشى بقدمين عاريتين طيلة حياته، مع ذلك فإنَّ ملمس الطَّحالب الدَّبق كان ينتزع الصَّرخات منه، ناهيك عن الكُرات الضَّخمة الممتلئة بمادة تشبه الفرو، التي كانت متناثرةً على الشّاطئ.

- «أقسم إنّها جرذانٌ نافقةٌ». قال، وهو يتأوّه متجنّباً سحْق تلك الشّظايا النّباتيّة.

لمْ تكن لدى جوست الذي قفز من مركبٍ آخر القُدرة على أن يلتهي بقدميه؛ إذْ كانت عيناه معلّقتين بالسّلسلة الجبليّة في الخليج بما فيها من أسوارٍ قاتمةٍ، وبالخُضرة اللّامعة للنّباتات البرّيّة التي كانت تحيط بها، وعلى عكس أولئك الذين كان فراغ الجزيرة يرْعبُهم، كان مصعوقاً من بداهة وجود هديرٍ غير مرئيٍّ للحياة فيها. كان هناك عددٌ لا يُحصى من الكائنات تفرض عليهم بصمتٍ نوعاً من الحصار أكثر تهديداً ممّا لو كان هناك فراغٌ، وعلى أنّه كان شبه مشلولٍ من القلق، فإنّه لمْ يستطع أن يمنع نفسه من أن يرى في ذلك الوجود الغامض نوعاً من التّحدّي الهائل لشجاعته.

- «توقّف عن فتح فمك للهواء». صرخ به أحدُ البحّارة منتزعاً إيّاه من تأمُّلاته: «وساعِدْنا في تفريغ الحقائب».

إلى جانب الزّوارق التي كانت ترسو محمّلةً بالرُّكّاب، كانت هناك أيضاً طوّافةٌ مصنوعةٌ من دعاماتٍ خشبيّةٍ تكوّمت الحقائب فوقها. انشغل جوست الذي غطس في الماء حتّى خصره في إنزال الحقائب بنشاط؛ لأنَّ ذلك كان يزيل التخشُّب الذي طال عضلاته، ويغيّر أفكاره.

- «تمسّك جيّداً بالطّوّافة». صرخ به البحار.

كانت أمواجٌ غير منتظمةٍ تأتي في بعض الأحيان متدحرجةً نحو الشّاطئ، فتحرّك الأشياء التي أُنزلت عليها، لكنَّ جوست الذي كان يتمسّك بثقله كلّه بالوزن الطّافي على الماء لمْ يستطع أن يقاوم المدّ الذي صار أكثر شِدّةً. كان البحّارة قد أخفقوا للمرّة الثّانية على التّوالي في سحْب الطّوّافة إلى الرّمل عندما وصلت الموجة إلى أعلى ارتفاعٍ لها، وفي تلك المرّة أيضاً، أفلتت الطّوّافة منهم مُجدّداً، وراحت بعنفٍ داخل طيّة الموج، ما أدّى إلى انتشار الأمتعة على سطح الماء.

صرخ البحّارة بأعلى صوتهم:

- التقطْ هذه الأشياء كلّها!

لمْ يعرف جوست من أين يبدأ. كانت تتبعثر من حوله بفوضى، وفي الجهات كلّها أوشحةٌ، وجواربُ، ودفاترُ، وعلى أنَّ الشّاطئ كان يتدرّج بانحدارٍ ناعمٍ، فقد وصل جوست إلى منطقةٍ كان فيها رأسه وحْده يخرج من الماء، وخَشي أنْ يحمله الموج. كانت بعض الأغراض تغوص في الماء، وبعضها الآخر يبتعد نهائيّاً.

في اللّحظة نفسها، اقترب زورقٌ يحمل فيلوغانيون، وحَرسه، وتيفيه. كان هؤلاء قد فضّلوا أن ينتظروا مرتاحين على السفينة ليكونوا آخر النّازلين إلى الشّاطئ. كولومب كانت معهم. كان يُفترض أن يكون وصولهم المتأخّر بمنزلة تتويجٍ للرّحلة، فبمجرّد أنْ صار فيلوغانيون على

الرَّمل، أمسك قبضةً منه، وتركه ينساب مثل مسحوقٍ على الأرض، وأعلن بخطابيّةٍ مفخّمةٍ:

- أرض فرنسا!

كان لو توريه يقف خلفه مع الرّاية، ولقد مدَّ قبضتها إلى رئيسه الذي فرد في النّسيم الدّافئ الرّاية الحريريّة التي تزيّنها زهرات اللّوتس. باقي البروتوكول كان يقضي بأن يذهب مع هذا الموكب إلى أعلى نقطةٍ في الجزيرة؛ لكي يضع الرّاية فيها، لكنّ هذا البرنامج انقطع مع الأسف؛ بسبب الصَّرخات الحادّة التي أطلقها تيفيه، فقد تملّك اليأس من الرّاهب عندما تعرّف إلى حقيبته التي كانت تعوم مثل سدّادةٍ من الفلّين بعيداً عن الشّاطئ.

- «كُتبي!». صرخ مزمجراً: «مجموعاتي!».

في أثناء ركضه نحو الشّاطئ أمسك بكومة القماش والورق التي كان جوست قد أخرجها بعنايةٍ من الموج بعد أنْ تغيَّرت معالمها عندما اختلطت بالرَّمل، وصرخ مثل حيوانٍ تخلّى عنه أصحابه:

- ثيابي، مُسوحي!

هَرول الضُّبّاط جميعهم، لا بلْ إنَّ فيلوغانيون نفسه عندما رأى خطورة الموقف أفْلت الرّاية، وراح في مقدّمة الفريق. صاروا ستّةً بمن فيهم جوست يقومون الآن بالتقاط ما يستطيعون التقاطه.

- «الإناء المقدّس القرمزيّ!». تأوّه تيفيه الذي كان قد سقط جاثياً على ركبتيه.

كان ما فقده قد ملأه باليأس، لكنّ ما أعادوه إليه زاده ضياعاً، فدفاتره تشبّعت بالماء حتّى صفحاتها الدّاخليّة، وراح الحبر يسيل على الصَّفحات. الملحوظات والوثائق كلّها التي جمعها من أجل الرِّحلة، وحتّى أدوات القياس، ضاعت في الأعماق، أو تكسَّرت.

فيلوغانيون الذي كان قد رغب في تكريم الجغرافيّ بإنزال حقائبه معه شعر بالنَّدم يأكله، وعندما صار من الواضح تماماً أنّه ما من شيءٍ يمكن إنقاذه بعْد، عادوا إلى الشّاطئ، وهُم يقطرون ماءً.

- «يا أبانا، لا أعرف كيف أعوّضك ملابسك المقدّسة!». صرخ فيلوغانيون، وهو يكاد يبكي.

- «ووثائقي العلميّة كلّها!». أضاف تيفيه الذي كان يبدو أنّ هذا بالذّات ما أثّر فيه أكثر من غيره.

كان من الضّروري مواساته ودعمه. استعاد الموكب تنظيمه بعد أن فقد روعته، فقد تبلَّل معظم من فيه إمّا بحمّام الأمواج، وإمّا بحمّام الدُّموع. كان نصيب كولومب أنْ تحمل الرّاية. أمسكت بها في البداية، وهي ملفوفةٌ، وعندما انضمَّ جوست إليها، راحت تتسلّى بجعلها تخفق في الهواء.

مشوا وراء فيلوغانيون ومجموعته، وصعدوا في اتّجاه أعلى قمّةٍ في الجزيرة، في حين حَذت حَذْوهم جموعُ الرُّكّاب التي ظلّت صامتةً.

اقترب النّهار من منتصفه، وصار الحَرُّ شديداً، فقد الهواء رطوبته مع ابتعادهم عن البحر، وصارت الأرض التي يمشون عليها أقسى تغطّيها قشرةٌ صلبةٌ، وراحت ترتفع بهم بالتَّدريج. حلَّت محلَّ شجرات جوز الهند أشجارٌ من الأرزّ الكبير مبعثرةٌ ومتباعدةٌ. رأت كولومب كمْ كانت سِحنة الواصلين مُرتعبةً، وشعرت بجوست يمشي حولها، وقد ازداد جدّيّةً وتوتُّراً، لكنْ لم يستطع أيٌّ من هذا أن يثنيها عن شعور الإثارة الذي كانت تشعر به في هذا المكان. حرارة الشّمس الحارقة، وهدوء الظّلّ الملطّف، وخرخرة النّسيم في أغصان الصَّنوبريّات، والخضرة الزُّمرّديّة للبحر الذي يحيط بالجزيرة، ذلك كلّه كان يحمل لها نوعاً من المتعة لمْ تكن تنتظرها، وفيما عدا الدَّهشة من كونها الوحيدة التي تشعر بذلك، لمْ يكن هناك قلقٌ،

ولا أسفٌ، ولا أيّ شيءٍ آخر يعكّر تلك المشاعر الصّافية من السّعادة واليُسر.

- «أين الرّاية!». قال فيلوغانيون بنفادِ صبرٍ، وهو يصل إلى الفُسحة التي كانت ترتفع قليلاً في وسط الجزيرة.

ركضت كولومب لتعطيه إيّاها. قام الأميرال الذي قصّر من أمَد الاحتفال المقرّر بغرس الرّاية بين الحجارة، وقد اضطرَّ إلى أن يعدّل موقعها مرّتين، أو ثلاث؛ لأنَّ الهواء كان شديداً، وبناءً على طلب فيلوغانيون، تمتم تيفيه بصلاةٍ في حين راح فيلوغانيون يطلق كلمة «آمين» عدّة مرّاتٍ، وهو يدعو الحشود لترديدها جماعيّاً من بعده، وعلى جهوده، لمْ تستطع مجموعة الواصلين أن تفعل أكثر من حساب طول فترة الصَّمت المهيمن.

بعد هذا الاحتفال الموجَز، قام الأميرال بإعادة الخطاب الذي كان قد حضّره إلى جيبه، وفرّق الجميع. كان لا بُدَّ من التَّعجيل بإجراءات النُّزول من السفينة، والبدء في استكشاف الجزيرة. حَذا جوست بدافع الفضول حَذْوَ الفرسان الذين شكّلوا فرقةً خلف فيلوغانيون لقياس مساحة ملكيّتهم؛ ولأنَّ مارتان انضمّ إليه، فضّلت كولومب ألّا ترافقهما، فهي لمْ تعُد تحتمل المتسوّل الشّابّ الذي كان يتكلّم بصوتٍ أعلى ممّا كانت تحبّ. كانت تظنُّ أنّها قد حملت له الضّغينة منذ تصرّفه الخشن تُجاههما في المرّة الأولى، لكنَّ السَّبب الحقيقيَّ لمقتها كان مختلفاً.

جلست في ظلّ الشُّجيرات الكبيرة النّامية قُبالة الخليج، التي كانت أوراقها الصَّغيرة الخضراء تشكّل على الأرض ظلّاً ناعماً. غطّت في النّوم، وقد هَدْهدتها الحركة التي كان افتقاد حركة السفينة قدْ أضْفاها على الأرض.

بعد ساعةٍ على وجه التّقريب، رجع جوست وجلس إلى جانبها.

- «لا يوجد ماءٌ». أعلن لها بوجهٍ مكفهرٍّ: «لا يوجد نبعٌ، ولا ساقيةٌ. لا شيء».

- «ماذا سنفعل؟». سألته بجزعٍ كولومب.

- سنبقى. فيلوغانيون يقول إنّه يكفي أن نحفر خزّاناتٍ، وأن نملأ البراميل بالماء من اليابسة.

شعرت كولومب بالارتياح حين عرفت أنّهم لنْ يرحلوا مباشرةً، وقد تفاجأت هي نفسها من هذا الشّعور.

- «فيما عدا الهضبة حيث نقف»، تابع جوست كلامه: «هناك مرتفعان في كلّ طرفٍ من أطراف الجزيرة. فيلوغانيون يريد أن يُحصّنهما».

أمام أعينهما، كانت ألوان الخليج تتعاكس مع تغيّر موقع الشّمس. كانت زُرقة الماء التي ازدادت قتامةً تنعش العين، ومن السفن الثّلاث في عرض البحر تصاعدت فوضى صرخاتٍ، وضجيج روافع؛ إذْ كان تفريغ البضائع قد وصل إلى أوْجِه.

انضمَّ إليهما مارتان، وهو ما يزال مهتمّاً بموقع أقدامه. كان يحمل في كلّ واحدةٍ من يديه الاثنتين ثمرات جوز هندٍ قُطِعَ أحد أطرافها.

- «اضطررْت إلى أن أقاتل من أجل الحصول عليها، صدّقوني». قال، وهو يمدُّ الثّمار نحوهما.

شرب جوست وكولومب كميّاتٍ كبيرةً من السّائل الحلو. كانا قد نسيا تقريباً ما هو الشراب النقي. قال مارتان وهو يتفحّص بدقّةٍ قعْر الخليج الذي كان ما يزال ضباب الحَرّ يهيمن عليه بسماكةٍ:

- يجب أن نحدّق أمامنا الّليلة. إنْ كانت هناك نار، فمعنى ذلك أنَّ الاتّجاه صحيح.

- «اتّجاه ماذا؟». قالت كولومب التي كانت قد تركت الّلبَّ الأبيض والمنعش لثمرة جوز الهند على شفتيها.

هزَّ مارتان كتفيه قائلاً:

- المحطّات التّجاريّة النّورمانديّة بالتّأكيد!

في الّليل ظلّ جوست ومارتان واقفين يحدّقان في عتمة الخليج الذي كان البحر يملأه بصوت تنهيدةٍ منتظمةٍ، لكنّهما لمْ يَريا أيّة نارٍ، ما جعل كولومب تنام سعيدةً.

*

- أَكَلة لُحوم البشر! أَكَلة لُحوم البشر!

الصّرخات التي أيقظتهم في الصّباح أتت من المرفأ الصَّغير حيث رَست الزّوارق. كان الرُّكّاب قد انتشروا من أجل النّوم في أرجاء الجزيرة جميعها وصولاً إلى الشّاطئ. أوّل من هبّ على قدميه كان مارتان الذي علّمه وضعه القديم كمتسوّلٍ ألّا يستغرق تماماً في النَّوم، وانضمَّ إليه جوست وكولومب، وهُما يتثاءبان.

ملأ المسافرون شاطئ الجزيرة بأكمله قُبالة اليابسة. كان هناك جنودٌ، وبحّارةٌ، أو مدنيّون عاديّون يقفون على الرَّمل عند حدود الماء ويحدّقون بالسّاحل. ذراع البحر التي كانت تفصلهم عنه كانت ضيّقةً، بحيث سمحت لهم أنْ يروا بوضوحٍ مجموعةً من أهل البلد الأصليّين يقفون في صفٍّ واحدٍ على الشّاطئ المقابل، وعددهم يقارب مئتيْ مقاتلٍ.

كانت وحشيّة أكْل لُحوم البشر قد جالت بسَعةٍ في أكثر من رأسٍ خلال الّليلة الأولى، في أرضٍ يُفترسُ فيها النّاس، وها قد انفجرت مثل مثانةٍ ثُقِبَت حين لاح منظر الهنود.

- «هل أنزلتم قطع القماش والمسبحات؟». وجَّه فيلوغانيون سؤاله إلى الرّاهب لو توريه.

- نعم يا أميرال.

- «كلّفْهم إذن بالبحث عن قطعةٍ من القماش الأحمر، ودلوٍ كاملٍ من هذه الأشياء؛ أمّا أنتم»، موجّهاً كلامه إلى البحّارة: «فحضّروا أكبر زورقٍ لدينا».

- «هل يجب أن نُخرج البنادق؟».سأل دون غونزاليس.

- نعم، لكنْ يجب أن تضعوها هنا، مُعبّأةً بالذَّخيرة، وجاهزة للتصويب. الرّاهب يقول إنَّ هؤلاء المتوحّشين أصدقاءٌ للفرنسيّين، لكنْ لا أحد يعلم. الرُّماة خاصّةً يجب ألّا يطيعوا سوى إشارتي أنا.

خلال ذلك الوقت احتلَّ المجذّفون مواقعهم في الزّورق. نظر فيلوغانيون حوله لكي يشكّل الوَفْد. تطوّع تيفيه للذّهاب، على الرغم من أنّه كان ما يزال يشعر بالأسى لغرق أغراضه في البحر. عيّن الأميرال خمسة اسكتلنديّين من حَرسه، ومعهم لو توريه، ثمَّ نادى جوست؛ لأنّه كان يريد أن يظهر أمامهم برفقة حاجبه الخاصّ، وكان يريد أن يأخذ معه الأقوى بين الاثنين في حال كانت هناك ضرورةٌ لاستعمال القوّة.

صعد هؤلاء كلّهم الزّورقَ. كان فيلوغانيون يقف في المقدّمة، مستقيماً مثل حرف الألف، وأنفه مهدّدٌ مثل مهماز توجيه الدّفّة في قاربٍ حربيٍّ.

قطع الزّورق المسافة المؤدّية إلى اليابسة بسرعةٍ. نظر إليه الهنود، وهو يقترب من دون أن يتحرّكوا. أعطى فيلوغانيون أوامره بأن يديروا لهم عرض الزّورق؛ لكي يستطيع أن يلتفَّ، ويعود بسرعةٍ في حال حصل طارئٌ، لكنْ من مساوئ هذا التّرتيب أنَّ الرُّكّاب اضطرّوا إلى القفز في مياهٍ عميقةٍ نوعاً ما. مع ذلك، سرعان ما تغلّب الأميرال على التّشنُّجات

والشُّعور المزعج بالبَلَل الذي وصل إلى قمّة صدريّته، فتقدّم بصلابةٍ على الرَّمل بنُبلٍ مماثلٍ لملكٍ يتقدّم نحو جلْسة إصْدار التّشريعات. ظلَّ الهنود بلا حراكٍ أمام اقترابه. كانوا جميعهم يبدون متشابهين للوهلة الأولى: متوسّطي الطّول، تكوين أجسادهم يشبه سائر البشر من دون أن تكون لديهم أيدٍ، أو سيقانٌ، أو رؤوسٌ زائدةٌ، لكنّ ذلك الشّكل الطّبيعيّ بالذّات هو ما جعل من عُريهم الكامل أمراً مزعجاً. ما كان في مظهرهم الخارجيّ ما يسمح بمقارنتهم بالحيوانات التي اعتدنا رؤيتها تظهر بأعضائها التي لا يغطّيها شيءٌ. وحْدها فكرة المقارنة مع العصور الإغريقيّة كانت تجعل من ذلك التّجاوز أمراً مفهوماً، بلْ ومثيراً للإعجاب. وكانت هذه المقارنة تصحّ؛ لأنَّ المتوحّشين كانوا يأخذون وضعيّاتٍ نبيلةً ومترفّعةً عوضاً عن أن يبدو عليهم الخوف، أو الضّيق، وبذلك كانوا ينافسون فيلوغانيون بما لديهم من ثقةٍ ذكوريّةٍ بالنّفس.

- «فرنسيّون!». صرخ فيلوغانيون، وهو يضع في هذه الكلمة درجةً عاليةً من الصِّدق.

- «مير!». تدخّل تيفيه عارضاً الكلمة التي قرأ أنّها ترجمةٌ لكلمة «فرنسيّون» في لغة التّوبي.

تولّدت لديه ذكرى فيها من الحنين أكثر مما فيها من الفخر؛ لأنّها ذكّرته بدفاتره التي ضاعت، والعلم كلّه والمعرفة التي غاصت في البحر معها.

عند سماعهم لتلك الكلمة، تبادل السُّكّان الأصليّون تعليقاتٍ بلغتهم. تقدَّم أحدهم، وكان شابّاً وقويّاً، شَعره حليقٌ على الجبهة، وفي شفته السُّفلى حجرةٌ كبيرةٌ مسطّحةٌ. ألقى خطاباً غير مفهومٍ، لكنّ لهْجته كانت لطيفةً.

- «لا تبدو عليهم العدوانيّة». همس فيلوغانيون في أُذن لو توريه.

لكنّ لو توريه ظلَّ متحفزاً، مستعداً لأنْ يسحب سيفه في أيّة لحظةٍ. كان من قدماء المشاركين في حملات إيطاليا. جُرح في معركة ميراندول، ويعرف بالتّجربة أنَّ للعدوّ دائماً هيئةً طيّبةً، لكنّ ذلك لا يمنعه من أن يكون غايةً في الشّراسة.

بعد أنْ أنهى الهنديُّ الشّابُّ خطابه، سار في اتّجاه الغابة. قامت جماعة المتوحّشين، وهي تغطّي فيلوغانيون وموكبه الصّغير، بجَرّهم في الاتّجاه نفسه. كان الابتعاد عن البحر مخاطرةً؛ لأنّهم لنْ يعودوا بحماية البنادق. مع ذلك، لمْ يتردّد الأميرال ولا لحظة؛ لأنّ أيّة مقاومةٍ كانت تعني التّصرُّف كأسْرى، وإظهار أنّ هزيمتهم ممكنةٌ. كان فيلوغانيون هو السّيّد الجديد، وقد صار كذلك شرعيّاً بشهادة تكليفٍ من الملك، وما كان يستطيع أن يخاف من أيّ شيءٍ، ولا أن يشعر بنفسه غريباً في أيّة نقطةٍ من هذه الأرض التي صارت بدءاً من تلك اللّحظة مُلكاً له.

في تلك البقعة من السّاحل كان الشّاطئ ضيّقاً، لذلك سرعان ما صاروا تحت الغطاء السَّميك للغابة المؤلّفة من عدّة طبقاتٍ من الأشجار. كان الظّلّ الكثيف يحفظ لتلك الغابة السُّفليّة رطوبةً غير متوقّعةٍ. ما كادوا يسيرون مئة خطوةٍ تقريباً حتّى ظهر لهم من فتحةٍ داخل أكبر الأشجار بيتٌ مستطيلٌ من سَعف النَّخيل كان يركض أمامه أطفالٌ عُراةٌ.

بمجرّد ظهور فيلوغانيون وحَرسه، تصاعدت صرخاتٌ حادّةٌ في البقعة الخالية من الأشجار كلّها. قفز القادمون رُعباً، وظنَّ الأميرال حين رأى أنّه ما من كمينٍ ينتظرهم أنَّ ظهور الاسكتلنديّين مع خناجرهم المعلّقة في رَبْلة سيقانهم، وشعرهم الأحمر الذي يعطيهم هيئةً مُرعبةً، قد أخاف الأطفال، لكنّ الاسكتلنديّين لمْ يكونوا السَّبب. كان هو نفسه الذي أثار تأوّهات الألم التي أطلقتها النّساء من البيوت.

عرف المتوحّشون أنَّ فيلوغانيون هو القائد بسبب مظهره السُّلطويّ، كما أحسّوا بأنَّ تيفيه بثوبه الطّويل يمكن أن يكون هو الآخر من الأعيان المهمّين، وبالتّالي قادوهما معاً نحو أرجوحةٍ معلّقةٍ على الأشجار، وأجلسوهما فيها. في هذه الأرجوحة التي جلس فيها فيلوغانيون من دون راحةٍ إلى جانب الرّاهب، راح يتلقّى خلال عدّة دقائق تحيّاتٍ ممتلئةً بالحُزن والعَويل من النّساء الهنديّات. كان عددهنّ خمس عشرة امرأةً تقريباً، أتين ليجلسْن القرفصاء أمام الضّيوف، ورؤوسهنّ في أيديهنّ. كُنَّ يبكينَ ويتأوّهْن كما لو اختُطِفَ أعزّ من لديهنّ. كُنّ عارياتٍ تماماً مثل الرِّجال، وداخل تلك النّوافير من الدُّموع، وأمام عيون فارس مالطة، ورجُل الدّين المرتعبين، كانت هناك مجموعةٌ كاملةٌ من الأثداء، والأرداف، والأعضاء الجنسيّة، وعلى الرغم من الرغبة في الهرب التي كانت تراودهما، فقد استطاع الرَّجُلان أن يتحمّلا تلك التّجربة بشجاعةٍ. جُمود الرِّجال الهنود الذين كانوا يقفون بلا حراكٍ في محيط المشهد، وجدّيّتهم الهادئة، كانت تُظهر بما فيه الكفاية أنّ هذا الاستقبال الغريب كان بالنّسبة إليهم شكلاً عاديّاً من التّصرُّف الاجتماعيّ.

لكنّ فيلوغانيون شَعر بالذُّعر فجأةً عندما رأى الأحمق تيفيه وقد أثارت أشجانه الآلام العامّة، ولمْ يعوّضه شيءٌ عن فقْد أغراضه، فأجْهش بالبكاء إلى جانبه. هذه المشاعر الفيّاضة المتبادلة ضاعفت صرخات النّساء، وجعلتهنَّ يبكينَ مُجدّداً بكلّ ما لديهنَّ من قوّةٍ.

في النّهاية، خفّت الضّجّة شيئاً فشيئاً، عندها اقترب من فليلوغانيون وحيّاه هنديٌّ طويلٌ، أكبر سِنّاً من أولئك الذين استقبلوهم، وقد غطّت أردافه وظهره ريشاتٌ ناعمةٌ أُلصِقَتْ بالقُطْران. كانت شفته العُليا ملجومةً بقطعة الحجر نفسها التي كانت ترصّع شفاه الرِّجال جميعها، وبدأ الهنديُّ يُلقي خطاب ترحيبٍ طويلٍ.

وقف الأميرال تاركاً تيفيه ينوحُ كالثَّور في أرجوحته، وأشار إلى جوست.

- «هل أنزلتم الهدايا؟». همس قائلاً لجوست.

ركضَ جوست إلى الزّوارق، وبمساعدة بحّارٍ جَلب قطعة القماش، والدّلو الممتلئ بالحجارة، وضعها عند قدمَيْ فيلوغانيون حين كان هذا الأخير قد وصل إلى نهاية خُطبةٍ طويلةٍ خَتمها بقوله:

-... ولهذا، فإنَّ مَلك فرنسا قد سَرّه أنْ يصبح لديه رعايا جُدُد من المحاربين الأقوياء مثلكم، وأضيف أنّكم إذْ عَرضتم أمامنا الأدوات التي نستطيع أن نحكم بها على رُجولتكم، سيكون من الأفضل من الآن فصاعداً ألّا تفرضوا مرآها على الغرباء. هذه القطعة من القماش النّاعم التي يسرّني أنْ أهديها إليكم يمكن أن تفيدكم كلباسٍ؛ أمّا هذه المجوهرات، فإنّها ستبرز أناقة نسائكم، لكنْ عليهنّ قبْل ذلك قبول ارتداء الملابس.

أخذ القائد قطعة القماش، ووضعها على قطعة خشبٍ مستطيلةٍ، في حين بدأ الأطفال، وهُم يضحكون؛ بفَردها على التُّراب؛ أمّا دلو الحجارة الزُّجاجيّة الذي وضعه على الأرض، فقد أحاطت به النّساء اللّواتي أخذْن يحملْن منه قبضاتٍ كاملةً. لمْ يعُد هناك أيُّ بكاءٍ، وراح الجميع يعبّرون الآن عن أخوّةٍ ممتلئةٍ بالبَسمات. قام المحاربون بمصافحة القادمين، وعانقوهم، وقدَّموا إليهم الرّيش والعظام المنحوتة، ولكي لا يخربوا ذلك المزاج الحَسَن، قام الفرنسيّون بترك الهنود يجرّدونهم، وهُم يضْحكون؛ من قُبّعاتهم، وسيوفهم، وأحزمتهم، وراحوا يتزيّنون بها، وهُم يضحكون.

كان فيلوغانيون يريد الحفاظ على السُّلطة التي مرّت بمراحلَ خطيرةٍ منذ الخروج الصَّعب من الزَّوارق، لكنّه لمْ ييأس قَطُّ من استرجاعها ضمن هذا الصَّخب الفَرِح، حيث لمْ يكن هناك من يُلقي بالاً له.

لذلك، مع المفاجأة، شعر بالرّاحة عندما رأى قدوم رجُلٍ جعل مرآه الهنود يصمتون مباشرةً. من شكل لباسه، ظنَّ فيلوغانيون أنّه كان أحد زعمائهم، لكنّه عندما تقدَّم في اتّجاهه، شعر بأنّ رأيه كان خاطئاً.

- «أهلاً بك أيُّها الفارس». قال الرّجُل بلغةٍ فرنسيّةٍ لا تشوبها أيّة لَكنة. عندها اكتشف الجميع برُعبٍ أنّه كان رجُلاً أبيضَ.

الفصل 4

الرّجُل الذي بَرز في الحال عكْس اتّجاه الضَّوء داخل القرية الهنديّة كانت له هيئة رجُلٍ نبيلٍ. كان يرتدي قُبّعةً وصدريّةً لها فتحاتٌ في الأكمام، بالإضافة إلى الرِّداء القصير والضّيّق الذي يزيّن عادةً ما تحت الخصر، ويحمل سيفاً طويلاً على جنبه.

لكنْ عندما تحرّك فيلوغانيون قليلاً كي لا تعود الشَّمس التي تخترق الأجمة مزعجةً لعينيه، فوجئ باكتشاف المظهر الغريب لذلك الرّداء المألوف. كانت خوذة الرّجُل، على شكلها الدّائريّ ذي الطّرف المرتفع من الأمام، ومن الخلف؛ مثل خوذات ذلك العصر، إلّا أنّها كانت مصنوعةً من جلد البقر سيّئ الدِّباغة. كانت شعيراتٌ بيضاءُ وسوداءُ ما تزال عالقةً بها. للوهلة الأولى كان يبدو أيضاً أنَّ صدريّته من المخمل الرَّماديّ، لكنّها كانت في الحقيقة تتألّف من ريشاتٍ صغيرةٍ للغاية، مربوطةٍ ببعضها بخيطانٍ من القطن عُقدت بمهارةٍ كبيرةٍ؛ أمّا السّيف، فلمْ يكن يتطلّب أيّ غِمْدٍ؛ لأنّه كان بكلّ بساطةٍ سيفاً خشبيّاً.

على غرابة هذا الزّيّ، كان الرّجُل يتّخذ وضعيّات رجُل البلاط؛ أمّا فيلوغانيون، فلمْ يكن قد ارتدى سوى القميص في خِضمّ استعجاله، وفوقها كان ذلك القميص وسخاً، ولذلك أقْسم في داخله أنّه سيحاول

في المستقبل أنْ يضاعف من عنايته بمظهره في هذا المكان الذي كان فيه الرِّجال العُراة، أو الذين يغطّيهم الرّيش يُظهرون نبالةً كبيرةً في التّصرُّفات.

قال الرّجُل عدّة كلماتٍ للهنود بلُغتهم. تراجعوا وأولئك الذين كانوا قد استحوذوا على الأغراض التي قدّمها لهم الزّائرون، قاموا بإرجاعها إليهم. أعلن الرّجُل، وهو ينحني أمام فيلوغانيون:

– غوتييه، المسمّى بلو فرو (الغُراب).

كان وجهه العريض أجْردَ، ومع ذلك حَلَقَهُ بإصرارٍ إلى درجة أنّ بعض القشور الحُمْر راحت تغطّي بشرته، وكانت تلك العلامات تشبه الرّيش، كما تشبه الوبْر أيضاً، ما جعلها تبدو كأنّها مجموعة أسماكٍ.

– «أنت فرنسيٌّ إذاً؟». سأل الأميرال باضطّراب من يحاول أنْ يجد تصنيفاً لورقةٍ ضمن مجموعة الأعشاب التي لديه.

– لو لمْ أكن فرنسيّاً لكنت وجدتني يا صاحب السّعادة في بطن أحد هؤلاء المضحكين. إنَّ أمّتنا هي الوحيدة التي يوفرونها؛ لأنّهم يعدّوننا أصدقاءهم.

كان فيلوغانيون الذي هدّأ من روعه استقبال الهنود قدْ نَسي عادتهم المقيتة، فقام بإلقاء نظرةٍ شرّيرةٍ عليهم.

– «في الواقع، لمْ نكن ننتظركم من هذه الجهة». قال الغراب: «وهذا يفسّر تأخُّري في القدوم. عندما رأينا بواخركم تدخل إلى الخليج، ظننّا أنّها تتّجه نحو الشّاطئ الآخر كما يفعل الجميع. هل أنتم هنا لمجرّد توقّفٍ عابرٍ؟ وهل تريدون الانضمام إلى سائر المنشآت؟».

– «لا». قاطعه فيلوغانيون الذي لمْ يقرّر الاستمرار في الحوار: «سنبقى في الجزيرة التي تقع قُبالةَ هذا الشّاطئ».

- «لا يوجد ما هو أفضل من هذا الخِيار». علّق الغراب بلهجة تملُّقٍ: «فهي مهجورةٌ».

كان الأميرال ما يزال ينظر إلى الهنود بحَذرٍ.

- «أمّا فيما يتعلّق بهؤلاء». سأله فيلوغانيون: «هل تقول لنا إنّهم قد دُجّنوا؟».

- لمْ يعودوا يأكلون الفرنسيّين، وهذا مُؤكّدٌ. ما عدا ذلك، فإنّهم وَقِحونَ ولُصوصٌ. سرعان ما ستتعرّف إليهم، وعلى أنّهم بعيدون عن ركْب أيّة حضارةٍ، وأكثر غباءً من الأطفال، فإنّهم يتجرّؤون على الاعتقاد بأنّهم مساوون لنا. علينا أن نفرض احترامنا عليهم.

بينما كان يتكلّم، ألْقى الغُرابُ نظرةً على لُفافة القماش التي فَرَد الأطفال جُزءاً منها على التُّراب، فانحنى وأمسك بها.

- «قماشٌ رائعٌ». قال، وهو يفركه بين إصبعيه: «سأسْمح لنفسي أن آمَل ألّا تكون قد خصّصتها لهؤلاء المتوحّشين».

اضطّرب فيلوغانيون، وقال:

- قيل لي...

- «حسنٌ يا صاحب السّعادة»، قال الغراب لكي لا يطول أمَدُ هذا الانزعاج: «أنت مُحقٌّ تماماً. سوف يستفيدون منها، لكنْ شَرط أنْ تُشْرَحَ كيفيّة استعمالها لهُم. هذا الجُزء من الخليج بعيدٌ نوعاً ما، والمتوحّشون فيه أقلُّ أُلفةً مع صناعتنا. إنّهم يستطيعون أن يتعلّموا كلّ شيءٍ شريطة أن نعرف كيف نعلّمهم؛ أمّا بالنّسبة إلى قطعة القماش هذه فلْتكُن مطمئناً. سوف أتولّى الأمر».

شَكره الأميرال بطيبة خاطرٍ. تفحّص من جديدٍ الرّداء المصنوع من

الرّيش الذي يرتديه الرّجُل. ما من شكٍّ في أنّه عرف كيف ينال كلّ شيءٍ من أكَلة لُحوم البشر هؤلاء.

- «هل أنت هنا منذ وقتٍ طويلٍ؟». سأل الأميرال في حين كان الرّجُل يجهد في طيّ قطعة القماش جيّداً.

- «سأُنهي سنتي العاشرة قريباً»، ثمَّ أضاف مستبقاً سؤالاً أكثر دقّةً: «لقد غرقت سفينتي».

- هل تعيش في مكانٍ قريبٍ؟

- «بالقُرب من هنا». قال الغُراب متهرّباً: «في المكان الذي تسوقني إليه أعمالي».

كان يتحدّث مثل مندوب شركة فوغر، إلى درجة نسيان أنّه كان يرتدي جِلد البقر.

- هل لديك زوجٌ وأولاد؟

كان فيلوغانيون قدْ أشفق على هذا التَّعِس.

- يوجد ما يكفي من النّساء هنا؛ أمّا بالنّسبة إلى الأولاد، فلا شكّ...

كان الغراب قد أجاب عن هذا السُّؤال بتبجُّحٍ، وهو ينظر إلى ما حوله بخُبثٍ، وفي الواقع كان هناك عدّة جنودٍ كادوا يختنقون من الضّحك، لكنّ فيلوغانيون وتيفيه رسَما على وجههما علامات استنكارٍ جعلته يرى أنّ من الأفضل تغيير الموضوع.

- بماذا أستطيع إفادتكم؟ ستحتاجون بلا شكٍّ إلى جَلْب أشياءَ كثيرةٍ من اليابسة..

- «ماء عذب». قال فيلوغانيون: «هل تستطيع أن تدلّنا على مكانٍ ملائمٍ نستطيع أنْ نملأ منه براميلنا؟».

- لا يوجد ما هو أسْهل من ذلك.

- وطعامٍ، نحن ستّمئة.

كانت عيون النّاجي من الغرق قديماً تلتمع حماسةً. قال بسرعةٍ:

- في هذه الحال، سنقدّم إليكم مؤونةً من السَّمك المجفَّف، والطَّحين، والفواكه، وكلّ ما يلزم في الواقع. ستجد كلَّ شيءٍ هنا، شريطة دفْع الثَّمن.

- «الثّمن؟». صرخ الأميرال: «لكنّ هذه الأرض قد صارت فرنسيّةً، كلّ ما تحمله مِلْكُنا».

- «بالتّأكيد، هذا ما أقصد»، قال الغُراب مُتأوّهاً، وقد رسم على وجهه تعابير كاذبةً: «لكنّ هؤلاء المتوحّشين عنيدون. طالما لمْ نكن قادرين على كسر عنادهم، فيجب أن نعتمد على إرادتهم السّيّئة. إنّهم شَرهون، أولادُ الحرام.

نظر فيلوغانيون إلى المحاربين العُراة، وإلى الجِرار الخزفيّة الثّلاث المبعثرة، وإلى بيوت سَعف النّخيل. كان يتساءل أين يستطيع هؤلاء الملاعين من أهل البلاد أن يُخفوا الثّروات التي كانوا شرهين كثيراً لنيلها، على ما يقول الغراب.

- «بواخرنا محمّلةٌ بالثّروات ذاتِ القيمة، نستطيع أن نتبادلها معهم». أقرّ فيلوغانيون الذي استسلم مُؤقّتاً لميزان القوى.

- اِعْتمد عليَّ، وستحصل على كلّ شيءٍ بأفضل الأسعار.

مرّ سِربٌ من الببّغاوات فوق القرية مُصدراً قوقاةً صاخبةً في السَّماء كان لها دورها في تذكير الأميرال بأنّه في غابةٍ وحشيّةٍ. كان هَرم (إناء الزّبدة) ينبثق بين الأشجار. مع تلك القَلنسوة من الخُضرة التي تقبع مائلةً فوق قمّته، بدا من السَّهل إضْفاء روحٍ على الجبل الذي كان يشبه مُراقباً فضوليّاً ضخماً يطلُّ على مبعوثي ملك فرنسا.

- «هل يوجد البرتغاليّون بعيداً عن هنا؟». سأل فيلوغانيون

أشار الغراب بحركةٍ من ذراعه إلى اتّجاه الجنوب.

- أقربهم إلى هنا موجودون في ساو فيسنته، في أراضي موربيون. بيننا مسيرة عشرة أيّام، لكنَّ أهمَّ موقعٍ لهم يقع في الشّمال، في السّلفادور، داخل خليج القدّيسين جميعهم.

- هل يأتون في بعض الأحيان إلى هنا؟

- نادراً. هناك من وقتٍ إلى آخر بعض البحّارة الذين يضِلّون طريقهم. مثلاً: في السّنة الماضية فقط، كان هناك ستّة أتوا إلى جزيرتكم، فقام هؤلاء بأكلهم.

كان لا بُدَّ من استحضار كلّ المراعاة الممكنة التي تُظْهَرُ عادةً لأبناء البلد نفسه من أجل إضْفاء مصداقيّةٍ على اتّهامٍ كهذا، فقد كان المذنبون الذين يقفون بين أكواخهم يبدون غايةً في البراءة.

- «لدينا نيّةٌ أنْ نبني منذ الآن قلعةً على الجزيرة». أعلن فيلوغانيون لكي يستعيد رباطةَ جأشه: «هل تستطيع أن ترسل إلينا ما يقارب مئةً من هؤلاء الهنود ليساعدونا في أكثر المهام صعوبةً؟ لدينا بين رجالنا كثيرٌ من الميكانيكيّين، لكنّهم ليسوا بقوّة هؤلاء البدائيّين».

- العمل؟ لا تعتمد على ذلك. ما من هنديٍّ يقبل ذلك على الإطلاق.

- ولماذا؟

- ذلك يتعاكس مع شرفهم.

- «بحقِّ جسد سان جاك». صرخ فيلوغانيون الذي لمْ يعُد يستطيع صبراً في هذه المرّة: «شرفهم يستمدّونه من الآن فصاعداً من شرف ملك فرنسا. لا يمكن أن ينالوا شرفاً أكبر من تكليفهم ببناء أوّل صرحٍ في المملكة الجديدة».

خفض الغراب عينيه، وترك فيلوغانيون يتحدّى الهنود بنظره. تراجع تيفيه بالغريزة خطوتين، وأتى ليقف بين الاسكتلنديّين.

على أنَّ المحاربين من السُّكّان الأصليّين لمْ يفهموا أيّ شيءٍ من الكلام الذي قيل، فقد بدأوا يتوتّرون، وامتدّت أيديهم نحو الهراوات الخشبيّة. كان هناك صمتٌ ممتلئٌ بالحذر يُهيمن على القرية. عند حدود النّخيل، كان هناك هنودٌ آخرون يتقدّمون في الضّياء، ويستعرضون قاماتهم المهدّدة. بالقُرب من (وعاء الزبدة)، تصاعدت صرخات ببغاء آرة العملاق كأنّها تدقُّ ناقوساً جنائزيّاً آتياً من غياهب الزّمن.

ترك الغراب ذلك التّهديد يملأ الهواء لفترةٍ كافيةٍ لجعل فيلوغانيون يَعي حدود سُلطته.

– لكنْ يا صاحب السّعادة. لا تخشَ أيَّ شيءٍ، هناك حلولٌ أُخرى.

استرخى المتوحّشون، وتنفّس الحُرّاس الاستكتلنديّون الصُّعداء الذين كانوا قد تشنّجوا ممسكين برِماحهم.

– «إنّهم في حالة حربٍ لا تنتهي بين بعضهم»، تابع المترجم: «سيبيعونكم بكلّ طيبة خاطرٍ ما يوجد لديهم من سجناء ليكونوا عبيداً عندكم، وهؤلاء قد فقدوا الشّرف الذي يمكن أن يمنعهم من الاستماتة في المهمّة المطلوبة منهم».

هذه الكلمات كانت بمنزلة خاتمةٍ سعيدةٍ، ولمْ يعُد فيلوغانيون مهتمّاً بأنْ يضطّرّ لمواجهة مثل هذا الإنذار من جديدٍ. بدأ طريقه نحو الشّاطئ، وقد أُبرِمَ الاتّفاق على أن يقوم الغراب و(شركاه) كما سمّاهم بكلّ جدّيّةٍ بالمجيء في اليوم التّالي لزيارة البواخر، ورؤية ما يمكن أن يقدّموه كثمنٍ لما تحتوي عليه.

مشى الأميرال يتبعه تيفيه والحُرّاس بكلّ كبرياءٍ حتّى الشّاطئ. عندما

صاروا في الزّورق، نظروا بصمتٍ إلى الجزيرة الصَّغيرة، وهي تقترب، معزولةً وهشّةً في وسْط هذا الخليج الكبير، وما فيه من تهديدٍ.

- «هل أنت واثقٌ تماماً من أنّه قد اختيرَ المكان الجيّد؟». قال تيفيه الذي جعله ذلك المرور العابر باليابسة يشعر بالذُّعر.

- «هذه الجزيرة؟». قال فيلوغانيون مشاكساً، وهو ينظر إلى الخطّ النّاعم الذي ترسمه قِممها: «خلال ستّة أشهُرٍ لن تستطيع التعرف إليها».

*

كان آمبيري كاتب العدل خالي الأشغال خلال الرّحلة، إلى درجة أنّه سجّل على دفترٍ عدد الأسنان التي فقدها كلُّ مسافرٍ على باخرة (لا غراند روبيرج)، فلربّما، حسْب تفكيره، عُوِّضَ الضَّحايا بمقدار التَّضحية التي قدَّموها؛ أيْ: بمقدار عدد أسنان الرَّحى التي تُخلّيَ عنها خلال الطريق. هو نفسه دفع الثّمن من قواطعه، وكان يمكن أن يعقد آمالاً كبيرةً على ذلك التَّعويض.

مضى شهرٌ على وصولهم إلى الخليج. ماءُ جوز الهند والفواكه التي حُملت من الشّاطئ هدّأت آلام الّلثة التي كان كاتب العدل يشعر بها، واستعاد بهجته، مثله في ذلك مثل سائر الرِّفاق. مع الأسف، لمْ يستفد من تلك النّقاهة؛ لأنَّ فيلوغانيون لمْ يتركْ له دقيقةً واحدةً من الرّاحة. كان قد أمره بكتابة محاضرٍ لكلّ شيءٍ، بدْءاً من زيارة آكلي لحوم البشر - وكان قد سجّل بعنايةٍ ولاءهم الصّامت لملك فرنسا- وصولاً إلى الاتّفاقيّات التي عُقِدتْ مع الغراب خلال الزّيارات العديدة التي قام بها ذلك الأخير إلى سطح البواخر من أجل تفحُّص قعْرها.

إلى جانب هذا، أضاف الأميرال عملاً ضخماً، هو وضع المخطّط الكادسترائي للجزيرة. نُصِّبَ كولومب لمساعدته في هذه المهمّة التي

تتطلّب الثّقة، مشكّلةً بذلك فريقاً مع كانتان. كانا يحملان سلسلة المسّاح الأرضي بيَد، ويركضان في الطّبيعة، ليَقيسا الأجمات وبساتين النّخيل، وليَضعا علاماتٍ على الصُّخور الكبيرة في الشّاطئ، وهُما يخوضان في قصب مستنقعٍ صغيرٍ. كان آمبيري يتبعهما، وهو يحمل أدواته المخصّصة للكتابة، فيقوم بتسجيل كلّ شيءٍ بجدّيّةٍ تشبه ما لو كان الأمر يتعلّق بأسنانٍ مفقودةٍ.

في ذلك الوقت، كانت كولومب قد صارت تعرف كلّ زاويةٍ من تلك الجزيرة، وزادها ذلك حبّاً بها. كانت تشبه حديقةً وضعت فيها بالتّرتيب كلّ ما في اليابسة من ماهيّاتٍ أساسيّةٍ متداخلةٍ. المستعمرون حين حطّوا الرِّحال انقسموا بالغريزة إلى مجموعتين في أماكن لا يتعدّى حجمها حجم المراكب، ولهذا السَّبب ظلّت الجزيرة ممتلئةً بأمكنةٍ خاليةٍ، ونائية يمكن فيها النّوم في الظّلّ في السّاعات الحارّة من دون رؤية، أو سماع أحدٍ آخر. مع ذلك، سرعان ما صارت تلك العزلة أكثر ندرةً من يومٍ إلى يومٍ، فحتّى أكثر النّاس جُبناً، والمرضى في مرحلة النّقاهة بدأوا يتجرّؤون على التّجوال في تلك الأرض المضيافة.

كانت كولومب مثل الباقي قد بدأت تنظر إلى السّاحل برغبةٍ؛ لأنَّ الجزيرة كانت قد فتحت قابليّتها على الاسكتشاف من دون أن تشفي غليلها، لكنّها رأت بأسىً أنَّ جوست لمْ يكن يشاطرها ذلك الفضول. كان مارتان قد ازداد التصاقاً به، وراح يبحث معه عن طُرقٍ للهرب من ذلك المكان. لمْ تكن كولومب معتادةً على أن تخطط لمشاريعٍ من دون أخيها، وكانت قد تقبّلت فكرة أن تتبعه فيما لو اكتشف طريقةً للعودة إلى فرنسا، لكنْ في هذا المكان المنعزل والمجهول، كانت الصُّعوبات تتراكم، وتجعل من تلك الإمكانيّة أمراً بعيداً وغير مُؤكّدٍ أيضاً. كانت كولومب قد قرّرت

أن تستعمل فترة بقائهم في البرازيل في اكتشاف ما فيها من أشياءَ ممتعةٍ، بالتّالي كانت تتابع انتظار اللّحظة التي تستطيع فيها أن تستكشف منطقةً أوْسع قليلاً من هذه الجزيرة الصَّغيرة، التي صارت فجأةً كثيفة السُّكّان.

لكنّ فيلوغانيون كان يرفض بعنادٍ أن يترك لأيّ إنسانٍ حرّيّة الذَّهاب إلى اليابسة. كان يمارس رقابةً دقيقةً على العلاقات بين الجزيرة وبين القارّة، وفيما عدا مجذّفي المراكب، وبعض البحّارة المكلّفين بحمل البضائع إلى الغراب، لمْ يكن لأيّ أحدٍ الحقُّ في ترك الجزيرة. لمْ يخفّف ذلك القرار من عزيمة كولومب، وفي النّهاية، هي أُرسلت إلى هذا المكان لتعمل في يومٍ من الأيّام كتُرجمان، وربّما ينتهي الأمر بالأميرال بأن ينتبه إلى ذلك. اللهمَّ إلّا إذا استطاعت الاستفادة من فرصةٍ أُخرى، وهكذا، في اليوم الذي ارتأى فيه آمبيري بأن المسح الكادسترائي للجزيرة قد انتهى، أصرّت هي على أن تحضر عرضه أمام فيلوغانيون، فلربّما قرّر هذا الأخير أن يوسّع المسح ليشمل المنطقة السّاحليّة.

في منتصف الطّريق إلى الهضبة التي كانت تشغل مركز الجزيرة، كان الأميرال قد أمر بتسوية مصطبةٍ واسعةٍ. كانت فيها أوتادٌ من الخشب تحمل مخمّسةً من السُّطوح المصنوعة من النَّخيل مظهرها جميل. كانت تلك المشيّدة بسبب ارتفاعها، ونوعيّة الطّبيعة المحيطة بها، تشكّل مقرّاً للإدارة لا بأس به، ولأنَّ تلك الفترة من الفصل كانت جافّةً، لمْ يتردَّد فيلوغانيون في أن يضع في ذلك المقرّ مكتبه المصنوع من خشب الأبْنوس، والسُّجُف المربّعة، وكلّ ما يتناسب معها من الصّناديق والأثاث الذي سُحبَ من البواخر الأُخرى. وكان أكثر الأشياء إثارةً للانتباه سريرٌ بأعمدةٍ مزوّدٌ بستائر. كانت حرارة اللّيل مرتفعةً إلى درجةٍ جعلت الأميرال يفضّل النّوم على أرجوحةٍ، لكنّه كي يجمع الرّاحة مع الحميميّة التي كانت تحملها له

ستائر السَّرير، أمَر بمدّ أرجوحته على نحوٍ مائلٍ بين عمودين من الأعمدة التي كانت تسند سقف السَّرير.

عندما أُعلن عن مجيء آمبيري، وهو يحمل مخطّط المساحة الملفوف بكثيرٍ من العناية، كأنّه وعاءُ القُربان المقدّس، وكولومب في أثره بكلّ خضوعٍ، كان هناك موكبٌ صاخبٌ في الكوخ يشغل القسم الذي خصّصه الأميرال للاستماع إلى زُوّاره.

- «أعيدوا الزَّورق على الأقلّ. سأتّخذ إجراءات لما سيأتي بعدها». قال الأميرال مُنهياً الجلسة بصخبٍ.

عندما لفظ هذه الكلمات، هدأ الحضور، وخرجوا بكلّ كبرياءٍ يقودهم حارسان من الاسكتلنديّين. كان هناك حارسان آخران يعلنان في الوقت نفسه عن مجيء كاتب العدل ومساعده. ذلك كلّه كان يجري في الهواء الطَّلْق في هذا الكوخ المفتوح من الجهات جميعها، لكنْ مع بروتوكولٍ يلائم أكثر المكاتب المبطّنة هدوءً. كان يبدو على فيلوغانيون الغضب المسعور، لكنّه لَجم نفسه ليرحّب بكاتب العدل بكلّ تهذيب؛ أمّا هذا الأخير، فقد قام بفرد الخريطة كما لو كان يقوم بفكِّ قماط طفلٍ وليدٍ، ونشرها على المنضدة الكبيرة التي كانت بمواجهة المرفأ الصَّغير، وجبل رغيف السُّكّر المطلّ على خليج ريو دي جانيرو.

كان منظر حدود الجزيرة التي حُدّدتْ بعنايةٍ على الورق حَريّاً بأنْ يرخي قَسمات وجْه الأميرال، فمنذ أن انتهت عمليّة رُسوِّ البواخر، صار لدى هذا الأخير حلّاقٌ، لديه أدواتٌ جيّدةٌ، قصَّ له لحيةً قصيرةً منتظمةً أعْطته هيئة استعدادٍ كانت أكثر تناسباً مع أعمدة السَّرير منها مع الغابة العذراء. لَحظت كولومب أنّه كان يضع خاتماً من حجر التّوباز لمْ يستعمله خلال الرِّحلة كلّها، لكنْ كلّ هذه العناية، وحتّى عطر القرنفل، لمْ تلغِ شيئاً من الفوضى

الهائلة التي كانت تحيط بشخصه الذي ينوءُ تحت ثقل عظامه، وأنفه، ونفادِ صَبره.

- «آهٍ». صرخ الأميرال: «فكرةُ الجزيرة!».

وفي الواقع، على هذا المخطّط، كان الجمال البرّيُّ لتلك الهضاب وما فيها من جداول يأخذ شكل ثعبانٍ صغيرٍ مرسومٍ بقلم الرَّصاص، ويقضم ذنبه على الورق. فيلوغانيون الذي كان امتداد البحار والغابات لا يثير فيه أيّة بلاغةٍ، دبَّت فيه الحماسة بمجرّد أن لَحظ فيها عملَ إنسانٍ: كتاباً، أو لوحةً، أو خريطةً.

- «انظروا». قال وقد الْتمعت عيناه: «هنا سيرتفع أوّل سورٍ من أسوار الحِصْن».

كانت يَده تنزلق على المساحات البيضاء في المخطّط.

- هنا ستكون القلعة، وهنا المخازن، وفي هذا المكان الرَّصيف. أترون ذلك؟ آهٍ يا آمبيري، الفكرة، الفكرة. إنّها الجمال، والمنعة، والألوهيّة.

وضعه ذلك الاندفاع عدّة لحظاتٍ في حالةٍ من التَّسامي، لكنّه لمْ يلبث أن سقط أرضاً، وهو يُتمتم، فثنى الخريطة، وحملها إلى دُرج مكتبه.

- حسنٌ يا آمبيري، سوف أدرس هذا كلّه. يمكن أن تذهب؛ أمّا أنت، فابقَ هنا.

كانت كولومب التي تفاجأت قليلاً تنظر إلى الأميرال من دون خشيةٍ. جلس أمام المنضدة. لمْ تجرؤ كولومب على أن تفعل مثله، ربّما بسبب تلك المشيّدة الجديدة.

- «ماذا تنتظر لتجلس؟». لقد عرفتك أكثر جرأةً.

ابتسمت كولومب، وجلست بقُربه على كرسيٍّ صلبٍ مبطّنٍ بالجِلد.

- لمْ أعُد أراكَ على الإطلاق.

- كنت مع المعلّم آمبيري.

- وأخوك؟

- أنا أيضاً لمْ أعُد أراه كثيراً منذ أن بدأتُ أركض في الجزيرة.

- أرسله إليّ. الآن وقد وصلت إلى توزيع المهام، أريد أن أعْهد إليه بعملٍ. لديّ أفكارٌ جيّدةٌ بالنّسبة للبِكْر في عائلة كلامورغان، صدّقني.

اعتقدت كولومب أنَّ ذلك كان كلّ شيء. نهضت في حين قال لها فيلوغانيون:

- ولك أنت أيضاً.

كان الأميرال يتفحّصها، وهو يتكلّم، وفي الوقت نفسه كان يتجنّب أن تتقاطع نظراته مع نظرتها التي لا يحبّها.

- أنت أصغر النّاس هنا، وهذا شيءٌ لا يمكن الشّكّ فيه، وعلى أنَّ غونزاغ لمْ يكن يفهم أيَّ شيءٍ ممّا كان يفعل، فقد كان ذا نظرةٍ صائبةٍ حين جاء بك إلى الباخرة للترجمة. يبدو لي أنّه لا يجب أن نبدّل رأينا. هذا أفضل مجالٍ يمكن أن تكون فيه مفيداً.

لمْ تصدّق كولومب ما سمعته بأذنيها.

- «سترسلني إلى الهنود!». صرخت.

لمْ يفهمْ تماماً معنى هذا الحماس، وظنَّ أنّه وليدُ الخَشية.

- لا يوجد ما تخشاه. إنّهم لا يأكلون الفرنسيّين. إنّهم بسطاء، لطيفون، وجميلون مثل آلهة العصر القديم. إنسانيّة آبائنا كلّها موجودةٌ هنا. إنّهم الرُّعاة الذين تحدّث عنهم هوميروس، مع بعض المبالغة.

سعل، لكنّ كولومب أنهت اضطّرابه بابتسامةٍ كبيرةٍ.

- « آهِ، يبدو عليك أنّك ترغب بذلك». قال الأميرال متمتماً، ثمَّ أضاف بطيبةٍ:

- أنت تعرف أنّي لن أعرّضك للخطر. لنْ تذهب وحدك. في نيّتي أن ترافق موكباً سيذهب إلى اليابسة بحثاً عن ستّ مساكين هربوا في الحال مع زورق.

الوصف الذي أعطاه فيلوغانيون عن الهاربين جعل كولومب تظنُّ أنَّ الأمر يتعلّق بالأناباتيست. تابع قائلاً:

- ستكون تلك حُجّةً جيّدةً لزيارة قُرى أُخرى غير تلك التي قادنا إليها ذلك التُّرجمان المسمّى بالغراب. بمجرّد أن تكتشف مع الثُّلّة التي ترافقك معسكراً للهنود يستقبلونك جيّداً. ابقَ فيه بعض الوقت، وتعلَّم شيئاً من لغتهم. حاول أن تعرف أكثر ما يمكن عن القبائل وارجع إلى هنا لتخبرني بما عرفت. يجب أن نتوصّل للتّخلُّص من خضوعنا الحاليّ لهؤلاء المترجمين الملاعين. أنا مقتنعٌ أنّهم يسرقوننا. لو ترى السِّعر الذي يجعلنا الغراب ندفعه ليرسل إلينا طحينهم السّيّئ، وأسماكاً شبه فاسدة.

كان من الممكن أن ترجع كولومب متى أرادت، فقد كانت الزّوارق تذهب وتعود الآن عدّة مرّات في النّهار بين الجزيرة واليابسة، وكان أصعب شيءٍ هو منعها من أن تذهب مباشرةً.

الفصل 5

قفز فيتوريو من المفاجأة. منذ وصولهم إلى الجزيرة قبل أكثر من شهرٍ كان ينتظر بشغفٍ هذه الّلحظة، وانتهى به الأمر أن يعتقد أنّها لن تأتي أبداً.

- «أهذا أنت يا ابن فينيسيا؟». سأله الرّجُل، وقد ظهرت لكْنة أهل بادوا بوضوحٍ تامٍّ في كلامه.

- «أنا بذاته». أجاب فيتوريو، وقد اختنق صوته بالدّمع.

كاد مِعوله يسقط من يَده من وقْع المفاجأة، يجب القول إنّ فيلوغانيون وأتباعه لمْ يراعوا معرفته العميقة بالبلطجة، فأجبروه بالقوّة على القيام بهذه الأعمال التي لا تليق به، وها قد حان الوقت ليأتي من ينتزعه منها.

- «بصحّتك يا ابن بلدي!». قال القادم الجديد، وهو يمدُّ إلى فيتوريو مطرة الماء الجلديّة.

الخبر الجيّد هو أنَّ ذلك الرَّجُل الذي أتت به العناية الإلهيّة لمْ يكن قد جاء لينضمَّ إلى الصَّفّ الطَّويل من عمّال بناء المصطبة، فقد كانت تبدو عليه حرّيّةٌ في الحركة، واستقلاليّةٌ في فعل ما يقوم به.

- «أنا أحد شركاء الغراب». قال بفخرٍ موضحاً.

كان ذلك الوسيط التُّرجمان قد صار شخصيّةً مهمّةً في الجزيرة، فهو

يخرج برفقة فيلوغانيون الذي يعامله معاملة النِّدّ للنِّدّ؛ وكان يأتي من اليابسة بمركبه الهنديّ الخاصّ المصنوع من جذْع شجرةٍ عملاقةٍ أُفرغَتْ من الدّاخل، ويجْهد لِسَوقها عشرة مجذّفين وقوفاً. وكان يعود دائماً محمّلاً ببضائع ثقيلة يسحبها من البواخر، ولا يعلم أحدٌ ما الذي يفعله بها.

- «اسمي إيجيديو». قال السِّمسار.

كانت ملابسه مثل ملابس شريكه ومعلّمه، لكنّها أبْسط. طرازها أوروبّيٌّ، لكنّها صُنعت من موادّ مأخوذةٍ من أعماق الطّبيعة البِكْر. كان يرتدي قبّعةً مدبّبةً صُنعت من جِلد حيوانٍ ما، ويرخي طرفها نحو الأمام، ما يعطيه شكل فلّاحٍ طيّبٍ من الجبل.

انتظر فيتوريو التّتمّة، وهو يرتجف. دعا زائره للابتعاد قليلاً عن مجموعة عمّال المصطبة، كي لا يشعر بضيقٍ كبيرٍ حين يلفظ كلمة السِّرّ المنتظرة. ذهبا للجلوس عند جذْع شجرة نخيلٍ كانت تنتظر بصبرٍ وصولَ الفأس.

- «أيُّ عملٍ!». قال إيديجيو، وهو ينظر إلى خطّ عمّال المصطبة الذين يحفرون الرَّمل المتصلّب في الهضبة.

العمّال جميعهم، أيّاً كانت مهارتهم في خياطة الأحذية، أو صنع الخبز، كانوا قد أُجبروا على القيام بهذا العمل البدائيّ بالنّسبة إلى مهارة أيديهم، الذي لا يتعدّى رفع المعول، وجعله يهبط من جديدٍ. من ذلك الموقع عند شجرة النّخيل كانوا يبدون مثل صفٍّ من الفلّاحين المنشغلين بحصاد الصُّخور من دون جدوى.

- «فيلوغانيون رجُلٌ مجنونٌ». أكّد فيتوريو ليثبت أنّه قد فهم السُّخرية المبطّنة في الإعجاب المصطنع الذي صدر عن ابن بلده.

- آملُ أنّه على الأقلّ يدفع لكم أجوراً جيّدةً.

- «يدفع لنا؟!». صرخ فيتوريو الذي لم يفقد عادته السّيّئة في أنْ يبصق لأتفه الأسباب: «لا شيء! إنّه بكلّ بساطةٍ يعاملنا كعبيدٍ. أرأيت الهنود العشرة الذين جاء بهم الغراب؟ يبدو أنّهم سجناء، وقد ميّزناهم عن الباقي؛ لأنّ فيلوغانيون أمر بخياطة سُتراتٍ حمراءَ لهُم خوفاً من أن نرى أردافهم العارية. إنّهم سجناء بيعوا كعبيدٍ من قِبَل قبائل السُّكّان الأصليّين، ووضعنا نحن مثل وضعهم تماماً».

- «مع ذلك». ألحّ ايجيديو الذي كان يبحث عن طريقةٍ تجبر فيتوريو على البوح: «فإنّ فيلوغانيون يقدّم لكم كلّ شيءٍ: الطّعام، والشّراب، والمنامة».

- الطّعام؟ مجرّد جذورٍ مطحونة، وأسماكٍ مدخّنةٍ. هل تسمّي هذا غذاءً؟

بالنّسبة لإيطاليّين يعرفون ما تعنيه كلمة طبخ، كان ذلك الوصف كنايةً عن الجحيم. غبّ فيتوريو جرعةً كبيرةً من القُربة لكي يهدّئ من غضبه، شعر برأسه يدور قليلاً بسبب هذا المشروب، وأنّه كان سلساً ناعماً، فقد شعر به يسري في عروقه بقوّة.

- «يا لهذه الكحول الرّائعة». قال وهو ينظر إلى القربة: «من أين أتيت به؟».

- إنّه شراب الكهوان الذي يصنعه الهنود من أجل احتفالاتهم. أستطيع أن أجلب لك منه إنْ أردت.

- «مع الأسف!». قال فيتوريو، وقد استعاد حذره فجأةً؛ لأنّه ليس من الضّروريّ أن يعرف هذا الرّجُل المجهول أنّ لديه ذهباً: «لا أملك الوسائل لشرائه».

- لأجلك يا ابن بلدي، أقدّمه مجّاناً.

- أنت طيّبٌ جدّاً، هيّا، لو لمْ تكن رائحتنا مقرفة للغاية لكنت عانقتك.

بدا على إيجيديو أنّ ذلك الاندفاع قد سرّ خاطره، وفي الوقت نفسه كان سعيداً؛ لأنّ هناك ما حدّ منه، وهكذا اكتفيا برفع قربتيهما تحيّةً.

- «ماذا عن البقيّة؟». قال السّمسار، وهو يشير إلى عمّال المصطبة بذقنه: «هل يحتاجون إلى شراء شيء ما؟».

- حتماً. هؤلاء الذين تراهم جميعاً يمتلكون مبلغاً صغيراً خبّأوه في مكانٍ ما في جسمهم، أو بين أمتعتهم، ويقومون بمراقبته ليلاً نهاراً. إنّهم لمْ يشربوا نقطة كحولٍ واحدةٍ منذ شهور، وأنا متأكّدٌ من أنّهم مستعدّون لإعطاء أيّ شيءٍ في سبيل الحصول عليه.

في شمس الظّهيرة، كان الرِّجال يتوقّفون بعد كلّ عشر ضربات معولٍ، ويرفعون أيديهم إلى جبهاتهم كما لو كانوا يريدون تهدئة غضبهم المسعور، وتعبهم الكبير.

- «سأترك لك زجاجتين من الكهوان». قال إيجيديو: «دعْهم يتذوّقوا منه، ويكلّفوك بالطّلبيّة. أستطيع أن أؤمّنه لك بسعر أربعة تستونات فضّةٍ للبرميل، ولك ديناران عمولة على كلّ برميلٍ تبيعه».

- «ثلاثة». قال فيتوريو الذي كان خبيراً بالتّجارة.

- اتّفقنا.

تصافحا. صارت اللّحظة أجمل بفعل طلاوة شراب الكهوان الذي طيّب خاطر فيتوريو، وجعل جبل (خبز السُّكر)، وكلّ الجبال الأُخرى في الخليج تتراقص.

- «والنّساء؟». سأل فيتوريو الذي كان بعيد النّظر فيما يتعلّق بالأعمال.

- «أتظنُّ أنّهم يمكن أن يرغبوا في النّساء مع تعب الرّحلة كلّه؟». قال إيجيديو بخُبثٍ.

يجب أن تسمع المحادثات في الّليل حول نار المخيّم.

– هل يمكن أن يعجبوا بالهنديّات؟

– يعجبوا؟ عندما تجتاز بعض الهنديّات بمراكبهنّ الملعونة طرف الجزيرة، وأثداؤهنّ عاريّةٌ في الهواء زيادةً في القهر، بالكاد يمتنع الرّجال عن القفز إلى الماء، على أنّهم لا يعرفون السِّباحة.

هزَّ إيجيديو رأسه كما لو كان يلوم مع شيءٍ من التّسامح جنونَ هؤلاء الرِّجال. أضاف فيتوريو:

– يبدو لي، إنْ لمْ يتغيّر شيءٌ في الوضع أنّ رغبتهم ستطال حتّى إناث الببّغاوات.

ثمَّ تابع بصوتٍ خفيضٍ:

– أعرف أنَّ بعض المجذّفين يحضّرون لمشروع نقل من يريد في الّليل –مقابل المال طبعاً– إلى حيث ينالون من النّساء المتوحّشات.

– مجانين! يجب ألّا يفعلوا أيّ شيءٍ من هذا. يظنّون أنّ الهنديّات متحرّرات؛ لأنّهنّ يبدين للجميع ما نجهد نحن لإخفائه؟ هذا خطأ. إنّهم لا يفقهون شيئاً عن نظام القربى لديهنّ. يمكن لواحدةٍ أن تُحضر لزوجها عذراء لينام معها، في المقابل يمكن لأُخرى أن تثير رغبة الانتقام لدى عائلتها بأكملها ضدّ زوجها الذي خانها. ذلك كلّه لا يمكن توقُّعه. أنا أحذّرك: إثارة قبائل لا نعرفها من أجل الهنديّات مخاطرةٌ كبيرةٌ.

ظهرت على فيتوريو خيبة الأمل.

– «لكنْ لحُسن الحظّ»، طمأنه إيجيديو بصوتٍ ناعمٍ: «نحن الذين مضى علينا هنا وقتٌ طويلٌ، لدينا إماءٌ جميلاتٌ وجيّداتٌ، لن تسبّبن مشكلاتٍ لأحدٍ. نستطيع أن نؤمّن للرّجال ما يكفيهم منهنّ».

انعقد لسان فيتوريو. وعد نفسه أن يكون أوّل واحدٍ في تلك الرّحلة، وأن ينال وحده اثنتين معاً، ولذا اندمج في مخطّط إيجيدو الذي كان يرمي إلى أنْ يجعل منه الآمر النّاهي بين أقرانه في هذه التّجارة.

- «قُل لي يا فيتورو»، قال التُّرجمان الوسيط، وقد ظهرت عليه معالم التَّفكير: «لا بُدّ من أنّه غنيٌّ، هذا الأميرال، حتّى يدير مثل هذا العمل. هل لديه ذهب؟».

- «لا بُدّ». قال فيتوريو، وقد كادت سوائله تنفجر.

- «ألست متأكّداً من ذلك؟ جعلكم تبحرون في هذه المغامرة من دون أن يكون لديكم ما تبادلون به سوى قِطَع القماش، وما شاهدناه في قعْر السّفينة من أدواتٍ لتسلية المتوحّشين؟هيّا. لا بُدَّ من أنّ هناك شيئاً آخر».

- لقد رأيتهم ينقلون صندوقاً مغلقاً يبدو عليه أنّه ثقيلٌ جدّاً، وقد أمر بوضعه تحت سريره.

- «تحت سريره»، ردّد إيجيديو باهتمامٍ: «هذا مكانٌ غير آمنٍ، مع كلّ هؤلاء الأوغاد الذين يتجوّلون في الجزيرة».

ارتجف فيتوريو. كلمة وغد تعني السّجن؛ والسّجن يعني الجريمة، والجريمة بالنّسبة إلى فيتوريو تعني ريبير. كان يتوقّع بين لحظةٍ وأُخرى أنْ تصل إليه تلك الإشارة المهمّة، لكنْ لمْ يحصل أيّ شيءٍ.

- «ما الذي قلته لك وأثار اضطّرابك إلى هذه الدَّرجة؟». قال إيجيديو مدهوشاً: «يبدو عليك الذُّهول».

- لا. كنت أفكّر. عن ماذا كنّا نتكلّم؟ آهِ! نعم. عن الصّندوق تحت السّرير. نعم، إنّه في مكانٍ آمنٍ فعليّاً. الاسكتلنديّون الأربعة الذين يحرسون الأميرال، الذين رأيت بنفسي مقدار انتباههم يتناوبون أمام هذه الغرفة ليل نهار.

قام إيجيدو بتسجيل هذه التّفاصيل كلّها في رأسه من دون أن يبدو عليه أنّه اهتمَّ كثيراً بما سمع، وبما أنَّ فيتوريو فقد الأمل في أن يسمعه يتحدّث عن ريبير، ولأنّه رأى أنّهم راحوا يبحثون عنه في الورشة، فقد حدّد لإيجيديو موعداً في المساء نفسه، وعاد ليحفر الأرض، وهو ممتلئٌ بآمالٍ جديدةٍ.

*

زوارق ثلاث تركت الجزيرة في ذلك الصّباح الباكر من شهر كانون الثاني/ يناير، وهي محمّلةٌ بالذين عَهد إليهم فيلوغانيون بمهمّةٍ على اليابسة. لمْ يرد التّخلّي عن حرسه الاسكتلنديّين، ولا عن فرسان مالطة الذين كانوا بمنزلة مراقبين على العمّال في ورشات الجزيرة؛ ولذلك شكّل فرقة تضمُّ ما يقارب عشرين جنديّاً غير متجانسين، من بينهم الجنديّ لوبالت الذي كان مسافراً على باخرة (لا روزيه)، واثنان من المرتدّين عن المسيحيّة عُثرَ عليهم لدى العثمانيّين، وهنغاريٌّ على درجةٍ مرعبةٍ من النُّحول حتّى شكّلت عظام خدّه الجزء الأكبر من وجهه، وقد ذاب إلى نصف حجمه منذ أن حُرم من حصانه. كانت هذه الفرقة، على أنّها غير مناسبةٍ للقتال تتمتّع بميّزة الصَّمت التي أُجبرت عليها بحُكم الضّرورة؛ إذْ لمْ يكن أيّ من أفرادها يفهم لغة الآخر؛ كما أنّها قد تمرّست بفنون الملاحقات، والكمائن، والبقاء على قيد الحياة في أكثر الأوساط عدوانيّةً. كان لدى أعضاء هذه الفرقة أوامر بإلقاء القبض على الأناباتيست، وإعادتهم مكبّلين بالسّلاسل إلى الجزيرة، وقد قام فيلوغانيون بتقسيمهم إلى مجموعتين.

المجموعة الأولى التي عليها أن تذهب نحو عمق الخليج كانت تتألّف من ثمانية جنودٍ، ومن مارتان الذي توصَّل عن طريق الحيل والدَّسائس إلى أنْ يُنصَّب كترُجمانٍ متدرّبٍ. كان يرغب في أن يبتعد قدْر الإمكان، وأن

يكتشف الطّريق التي ستحمله إلى محطّات الضّفّة الثّانية، برفقة الجنود، أو من دونهم، وذلك حسْب توافقهم مع رأيه، ولقد أقسم أمام جوست قبْل أن يرحل بأنّه سيعود للبحث عنه. المجموعة الثّانية كان عليها أن تتقدّم في الاتّجاه الآخر؛ أي: نحو مصبِّ الخليج. اتُّفقَ في البداية على أن يذهبوا إلى المكان الأكثر انخفاضاً حيث كان الهاربون قد تركوا مراكبهم. بعد ذلك يصعدون الغابةَ في اتّجاه جبل (خبز السُّكّر)، محاولين الوصول إلى قمّته، والالتفاف حولها.

كولومب التي ترافق المجموعة الثّانية كانت لديها صلاحيّاتٌ مطلقةٌ في اختيار مأوى هنديٍّ مريحٍ لمْ تلوّثه إنْ أمكن، مؤثّرات لو فرو وأتباعه. كانت مزوّدةً بدفترٍ وحبرٍ، ما يسمح لها أن تجمع أقصى ما يمكن من الكلمات في لغة السُّكّان الأصليّين المحلّيّة، وذلك ليتسنّى لها التّواصل معهم.

فعل جوست كلّ ما بوسعه لكي يثنيها عن الذَّهاب. لكنْ كان من المستحيل إقناع فيلوغانيون بالتّراجع عن أوامر صارمةٍ كان قد أعلنها. ولقد جهدت كولومب لطمأنة أخيها، وظلّت كذلك حتّى اللّحظة الأخيرة التي صعدت فيها سطح الزّورق، وعندما رأته يبتعد أكثر فأكثر وهو واقفٌ على الشّاطئ بشَعره الأسْود الذي يتطاير في الهواء، شعرت بتأثُّرٍ كبيرٍ لرؤيته هكذا، ممزّقاً وممتلئاً بالحنان والقلق؛ ففي نهاية الأمر هو أهمّ كائنٍ بالنّسبة إليها، لكنْ في حين كان الحُبّ الذي يحمله لها جوست يتطلّب الحضور، وصلت هي على العكس إلى تلك الدّرجة من القناعة الأكيدة التي يمكن معها الاحتفاظ بالمشاعر كما هي لا تُمسّ، بلْ ويمكن جعلها أكثر قوّةً مع متابعة الرّحيل والعودة، وهكذا شعرت كولومب بنفسها وهي على سطح الزّورق أكبر وأقوى من جوست فيما يتعلّق بالرَّغبات.

لكنّ الرّحلة كانت قصيرةً، وبمجرّد أن لمست كولومب الماء بقدميها، استسلمت بكليّتها لمتعة اكتشاف هذه اليابسة التي كانت قد حلمت بها.

انتظمت الفرقة على شكل طابورٍ، ودخلت من فجوةٍ داخل أشجار المانغروف تقع مقابل المكان الذي رسا فيه الأناباتيست في أثناء هروبهم. كان الفجر صامتاً وبارداً، وبدا لكولومب أنّهم قد أخذوا الطّبيعة على حين غِرّةٍ في أثناء استيقاظها، ففي ذلك المهجع الضَّخم الذي يمتدُّ تحت أشجار الغابة، امتلأ الهواء بمرارةٍ عَطرةٍ من أنفاس النّباتات والحيوانات المنسيّة خلال النّوم. كان جلد أشجار الأبنوس الرّطب، وسواعد شجيرات الفربيون المستديرة، ورؤوس الكرنيب الضَّخمة تمتدُّ من دون حياءٍ، وبلا وعيٍ على ثنايا تربة الدّبال وفوق السّرخسيّات العملاقة، وعالياً، فوق تلك الرُّؤوس كلّها. كانت هناك شبكة من أغصان الجاكاراندا تغطّي بظلالها النّباتات المستسلمة.

في هذه المنطقة من الغابة الكثيفة مشوا ساعاتٍ طويلةً من دون أن تصادفهم أيّة قريةٍ. كانت الشَّمس قد ارتفعت عالياً في كبد السَّماء، وبدأت ترسل نحو أسفل الغابة سهاماً لمّاعة تفجّر أطرافها المدبّبة خُضرةً صارخةً على الأوراق، وجروحاً حمراءَ فاقعةً في الجذوع. سمح الصَّمت للسّائرين أن يسمعوا حفيف الثّعابين في النّباتات المتدلّية، وأصوات الخنازير البرّيّة، ورفرفة العصافير الصَّغيرة الملوّنة، وهي ترسم خطوطاً متعرّجةً، ومع صعودهم التّدريجيّ نحو الأعلى كانوا يكتشفون بين الأوراق اذا ما استداروا امتداد الخليج الشّاحب تحت الشّمس التي وصلت إلى السّمت، والجزيرة التي تأخذ شكلَ مركبٍ، التي كانت البواخر قد رست إلى جانبها.

كان الأناباتيست قد تلاشوا داخل الأدغال، وتزايدت القناعة بأنّه لمْ يعد من الممكن على الإطلاق العثور عليهم، ولذلك، بعد أن أكل

المُشاة الأسماك المجفّفة التي كان لوبالت يحملها في حقيبته، وبعد أن شربوا الماء الموجود في المطرات، خلدوا إلى شيءٍ من الرّاحة تحت شجرة أرُزٍّ. كذلك فعلت كولومب التي أسندت رأسها إلى غصنٍ زاحفٍ ونامت. كانت الغابة شديدة الكثافة، وشديدة الهدوء، إلى درجةٍ جعلتهم لا يتكلّفون مشقّة وضع حرّاسٍ لهم؛ ولذلك لمْ يستطيعوا فعل أيّ شيءٍ عندما استيقظوا، فوجدوا أنفسهم محاطين بما يقارب عشرين هنديّاً مسلّحاً بهراواتٍ وأقواس نشّابٍ تماثل الرِّجال في الطّول.

لمْ تسنح لكولومب فرصة أن تتفحّص أحد السُّكّان الأصليّين عن كثبٍ من قبل. كانت تعرف من خلال الثّرثرة البذيئة التي سمعتها على الجزيرة أنّهم كانوا عُراةً، لكنّها لمْ ترَ في ذلك سوى تفصيلٍ من التّفاصيل الطّريفة، ولذلك عندما اكتشفت أمامها أولئك الرِّجال الصّامتين الذين ما كانت تغطّيهم أيّة قطعة قماشٍ، لمْ تستهجن ذلك قَطُّ. ما كان يغطّي أجسادهم سوى عقودٍ من القواقع، وأساور من الصَّدف زيّنوا بها صدورهم، أو أعناقهم من دون أن تخفي أيّ شيءٍ من الأعضاء التي كان الحياء الأوروبيّ يعتّم عليها، وكما كانت الأشجار تدلي ثمارها على نحوٍ طبيعيٍّ، كانت تلك الكائنات التي ولدت في الغابة، واعتنقت بساطتها الخصْبة، تعطي للشّكل البشريّ اكتمالاً مألوفاً، ولذلك عندما وقف الجنديّ البلطيقيّ، وهو يرتعد، وعلى جسده أسماله النّتنة، كان هو الذي بدا لكولومب مضحكاً وأخْرقَ بتنكّره العبثيّ، لا بلْ إنّها قد شعرت بنفسها هي أيضاً متنكّرةً.

– «مير!». تمتم البلطيقيّ، وهو ينفّذ برُعبٍ التّعليمات القليلة التي أسْمعه إيّاها فيلوغانيون.

– «مير، مير». ردّد بعده سائر جنود الفرقة كلّهم من دون أن يحاولوا استعمال أسلحتهم التي كانت ما تزال جاثمةً على الأرض.

أجاب واحدٌ من الهنود بجملةٍ طويلةٍ. الّلغة المجهولة يمكن رؤيتها عوضاً عن سماعها. كانت ملوّنةً بعددٍ لامتناهٍ من الأحرف الصَّوتيّة، ومتضافرةً، مثلما هو الحال في هذه الأماكن الخفيضة من الغابات العذراء؛ وكان يمكن التّعرُّف فيها إلى تضاريس تعذبها الأحرف الصّمّاء التي تهيمن بقسوتها الفجّة على الّلحن.

– «مير». كرّر البلطيقيّ لكي يوحي بأنّه قد فهم شيئاً ما من كلام الهنود.

أثارت تلك الكلمة ضحك الهنود؛ لأنّها بيّنت أنَّ الغرباء لمْ يفقهوا كلمةً واحدةً ممّا أرادوا أن يقولوه لهم.

هذا المرح، مضافاً إليه كون الهنود أعادوا وضع أقواسهم على أكتافهم، هدّأ من روع الجنود. بدأوا يمشون وراء أدلّتهم الجُدد نحو طريقٍ ضيّقةٍ رُسمت معالمها ضمن الأعشاب.

مشت كولومب وراء هنديٍّ لمْ يكن أطول منها. ما كانت تستطيع إبعاد نظرها عن آليّة عمل عضلاته. لمْ يخطر في بالها قطُّ أنَّ الكائن البشريّ مصنوعٌ هكذا من حبالٍ مشدودةٍ، ومن عضلاتٍ منفوخةٍ، مثل الشّراع. فجأةً، وَعَت سرَّ حركاتها هي، وأدركت كيف تتوضّع على سطوح الأجساد قوى مشتركةٌ بين عوالم المعادن والحيوانات، كما أنّها فوق ذلك شعرت بعبثيّة إصرار البشر على التّعبير عن الفهْم بحركاتٍ ضئيلةٍ بالوجْه فقط، في حين أنّ حركات الجسد الواسعة والرّائعة تستطيع أن تعكس ذلك على نحوٍ ممتاز.

وصلوا إلى القمّة حيث يلتقي خليج غواناباراً بفضاء المحيط الأطلسيّ المفتوح. كان يتصاعد من ذلك السّفح هواءٌ رطبٌ جعل رائحة غرفة النّباتات تتلاشى لتحلّ محلّها الحموضة البحريّة الواخزة التي تتشكّل من

الأملاح والأشنيات. تغيّرت نوعيّة النّباتات، وصارت أقلّ ارتفاعاً، تتشكّل من أجماتٍ عطرةٍ تشبه الغار الورديّ والشمشاد.

في لحظةٍ ما، اتّسع الممرُّ الضّيّق ليوحي بالثّقة، لكنّ الهنود قاموا بحركةٍ تدلُّ على الحذر من التّقدُّم داخله. قام أحدهم من خلال سهامٍ طويلةٍ كان يحملها على جنبه بإفهام الجنود أنّ الأرض في هذا الموقع كانت تتشكّل من سياجٍ من البامبو المغطّى بالأعشاب، ولو أنّهم غامروا بسلوكه، لكان الفخُّ جعلهم يهوون جميعاً في حفرةٍ ممتلئةٍ بالأوتاد المدبّبة.

ساروا وراء الهنود على طول دربٍ يلتفُّ حول ذلك العائق، وبعد مرور خمس دقائق من المسير دخلوا إلى قريةٍ. كانت تتألّف مثل تلك التي زارها الأميرال من بيتٍ وحيدٍ من القشّ يمكن لمئة شخصٍ أن يقيموا فيه.

كانت تنتظرهم هناك الطُّقوس الاحتفاليّة البكائيّة نفسها، لكنْ نظراً إلى أنَّ أحد الجنود كان قد خضع للطُّقوس نفسها مع فيلوغانيون عندما رسا هناك، فقد تقبّلها الجميع بترحابٍ. كلُّ شيءٍ في هذا الاستقبال كان كفيلاً بطمأنةِ كولومب: فرح الأطفال العُراة الذين يلعبون على الأرض، انتباه الرِّجال الذي أجلسوا القادمين الجُدد على أراجيح، وقدّموا إليهم قصعاتٍ ممتلئةً بالطّعام، الرّائحة العطرة للنّيران التي كانت تُطبخ فوقها جرار الطّعام.

في اللّحظة التي تملّكها فيها شعور الرّاحة من وصولهم إلى هناك، حصل ما عَدّتهُ بمنزلة إنذارٍ غير متوقّعٍ. جاءت النّساء العاريات مثل سائر السُّكّان الأصليّين، وأحاطوها بضحكاتٍ وتساؤلاتٍ ممتلئةٍ بالحنان. قُمن بمداعبة شَعرها، وأمْسكن بيديها، وجرّوها جانباً بمرح. انفتحت عيون الجنود المدهوشين فجأةً، وفهموا بأنّ النّساء قد عرفنَ أنَّ كولومب هي واحدةٌ منهنَّ.

الفصل 6

عندما كان جوست في ذلك الصّباح يسير في اتّجاه الشّاطئ بقدميه العاريتين في التُّراب الذي تجمّع على تلك الأرض المهجورة، خطر في باله أنّه قد مضى على رحيل كولومب ما يقارب خمسة عشر يوماً كاملاً، وأنّه لا يملك أيّة أخبارٍ عنها. كان مزاجه معكّراً للغاية عندما وقف في الصّفّ ليستلم وجبة الغذاء. مدّ له الطبّاخ بيديه القذرتين سمكة أجاجٍ مشويّةً أكثر ممّا يلزم، فأخذها وذهب ليعلكها عند جذع شجرة جوز هند.

خُضرة مياه الخليج الشّاحبة صارت البديل الوحيد عن أفكاره السّوداء. كان شغوفاً بالبحر في مقاطعة نورماندي، وعندما لمْ تكن أحلامه تدور حول تسكُّعات الفروسيّة، أو أرياف إيطاليا، كان يفكّر في أن يجوب أرجاء المحيط، فالقلب النّبيل يستطيع أن يتغذّى حتّى الثّمالة بتلك الرّياح العاصفة، وتلك الأمواج الصّاخبة، وبحركات المدّ والجَزْر التي تدعو إلى معارك لا تنتهي إلّا بمنازلاتٍ تدور في مقالع الحجارة، لكنْ أيمكن إطلاق تسمية بحر على حساء المناطق المداريّة السّاكن هذا؟ نظر جوست إلى ارتعاش الزَّبد، وهو يحفر أنصاف دوائر في الرّمل تشبه الدّانتيل الرَّخيص في ملابس خادمةٍ. يا للبؤس! على مسافة عدّة بوصاتٍ كان الماء قليل العمق، وكثير الهدوء، حتّى ليظنّ المرء أنّه زجاجٌ خشنٌ وُضع على جلد

وحشٍ ممتلئٍ بالتّجاعيد. كلُّ شيءٍ في هذا المكان الموحش المُثقل بالشَّمس والحرارة كان يبيّن بوضوحٍ أنَّ حياة البشر لمْ تكن فيه موضع ترحابٍ. الجهد، والحيويّة، والرّغبة القاتمة التي تثيرها في الرّوح النّسمات الباردة، لمْ تكن تجد لها مكاناً في هذا الموقد الملائم لتناسل ديدان الثّعابين، والحشرات المكسوّة بالشَّعر، والطّيور الملوّنة، كما لو كانت مرسومةً على الحرير.

شعر جوست أنّه مثل غريقٍ يتعلّق بفكرةٍ وحيدةٍ هي العودة. لمْ تكن العودة بالنّسبة إليه آخر المطاف، إنّما شرطٌ أساسيٌّ. ما كان يعرف ما يستطيع فعله حين وصوله إلى فرنسا، وأفق تفكيره كان ينحصر بجعل ذلك الوصول ممكناً، وفي أسرع وقتٍ ممكنٍ، وضمن هذا المنظور طوّر صداقته بمارتان. لمْ يكن هناك أيّ شيءٍ مشتركٍ بينه وبين ذلك اللّصّ الشّاب، ولئِن كان قد أثار اهتمام جوست بحكايا لكماته وضرباته، فإنّ ذلك كان بسبب مواهبه كراوٍ، وبسبب مرحه. لمْ يكن جوست يرى نفسه يعتنق هذه الحياة الإجراميّة على الإطلاق، حتّى إنْ اقترحها عليه مارتان. كان يحبُّ الضّياء كثيراً، والشَّرف، وجمال المعارك، لا أن يمارس بنفسه فنَّ الكمائن المعتم. لكنَّ مارتان كان في الظّروف القصوى التي يعيشونها حليفاً ثميناً، ولمْ يشكَّ جوست بأنّه سيعود من رحلته الاستشكافيّة في اليابسة محمّلاً بمشاريعَ رحيلٍ سريعةٍ.

مع فكرة اليابسة هذه عاد إلى التّفكير في كولومب، وكان ذلك بمنزلة إضافةٍ للمصادفات التي توافقت مع لحظة انتهائه من أكل لحم السَّمكة الضّئيل، وبدأ يغزّ لثته بحَسكها. ما زال الحُبُّ الذي يشعر به تُجاه أخته على القدْر نفسه من القوّة، ولمْ تكن فكرة العودة بالنّسبة إليه سوى طريقةٍ أُخرى ليرسم خططاً معها، لكنّه كان يشعر بنفسه ممزّقاً على نحوٍ غريبٍ. كان مطمئنّاً لرؤيتها سعيدةً بأشياء تافهةٍ، تجابه بقوّةٍ هذا المناخ الخانق، وتلك

الأراضي الوحشيّة. كانت طفولتها كافيةً لجعلها تتسلّى بذلك، وذاك هو التّفسير الوحيد الذي وجده لشغفها بتلك المناظر، ولرغبتها في أن تزور اليابسة. مع ذلك، كان يتساءل فيما لو كان ذلك المنفى الذي تقبله على نحوٍ ممتازٍ، وهذا التّنكُّر الذي أجبرت عليه، وهذه الحياة المنحطّة، وتلك الأكاذيب، حَرِيّةً بحرمانها إلى الأبد ممّا كان يعتقد أنّه يشكّل مادّة الحياء، والبراءة، والفضيلة، والنّعومة التي تتشكّل منها المرأة. لمْ يكن يعرف تماماً ما هي هذه المادّة، لكنّه لمْ يكن يحتمل فكرة أن يراها وسط المتوحّشين، وهُم يعرضون «أعضاءهم» أمامها.

رمى جوست عظام السَّمكة بعيداً، ومسح فمه. إرسال كولومب إلى اليابسة كانت فكرة فيلوغانيون! وهكذا وضع فوق الألم الذي يشعر به مرهم النّفور الذي كان يغذّيه تُجاه الأميرال، وعندما اجتاحته تلك الأفكار التي يجترّها ارتاح، وعاد بهدوءٍ نحو الورشة.

الجزيرة التي مضى على نزولهم فيها ما يقارب الشّهرين صارت مختلفة المعالم. بالكاد استطاعت الفؤوس أن تعضّ خشب أشجار جوز الهند، وأن تضرب جذوعها الممتلئة بالألياف بضرباتٍ صمّاء، ومع ذلك أُسقِطت مئاتٌ منها حيث يمكن رؤية بقايا جذوعها تخرج من رمل الشّاطئ، وصارت أشبه بمقاعد بلا مسندٍ، تتجنّب الجلوس في الرّمل. جذوعٌ طويلةٌ ملأت أرض الجزيرة، وفي كلّ مكانٍ كانت تُسمع ضجّة معولٍ ومنشارٍ، وزفراتٌ تترافق مع جرِّ عضائد الخشب نحو هيكل الحِصن الذي بدأ يتبدّى بوضوحٍ. الأخشاب الثّمينة قُطِّعت وحُمّلت على باخرة (لا غراند روبيرج) التي كان فيلوغانيون يفكّر في إعادتها بسرعةٍ إلى فرنسا؛ كي يبيع حمولتها. كميّة خشب البرازيل الموجودة في الجزيرة كانت قليلةً، علماً بأنّ زيوتها كانت مطلوبةً أكثر من أيّ شيءٍ آخر؛ وقد قبل لو فرو أن يقطع أشجارها على الشّاطئ مقابل سعرٍ مرتفعٍ. كان حجم شجرة خشب البرازيل يقارب

حجم السّنديان، وورقها كثير الخضرة، ولتلك الشّجرة المستعملة في الصّباغ جذعٌ قاسٍ إلى درجةٍ يبدو معها خشباً ميتاً. كان هناك ما يقارب عشرين عبداً جهّزهم الفرنسيّون بفؤوسٍ، ومعاولَ، وخطّافاتٍ، وغيرها من المعدّات الحديديّة، وكان عليهم تنفيذ المهمّة المرعبة الموكلة إليهم بقطع تلك الأشجار التي تنمو في أماكن شديدة الانحدار وخطيرةٍ، وبعد ذلك قصّها على شكل مربّعاتٍ. جُثث هذه الأخشاب النّبيلة التي جلبتها المراكب كانت تجثم بفوضى على شاطئ الجزيرة في انتظار تحميلها على البواخر، وبالإضافة إلى هذه المجزرة كانت هناك قففٌ ممتلئةٌ بالرّمل حُشرت الواحدة إلى جانب الأُخرى مثل براميل، وقد شكّلت قبل الانتهاء من بناء الحِصن في المواضع الضَّعيفة صفّاً أوّلَ من الأسوار لصدِّ أيِّ هجومٍ محتملٍ للبرتغاليّين.

عاد جوست إلى مكان عمله. كان قد فُرِزَ إلى مقلعٍ للحجارة يقع على واجهة الجزيرة التي تطلُّ على الخليج عند جرفٍ صخريٍّ تُستخرج منه حجارةٌ للبناء بشعة الشّكل، لكنّها متينةٌ. راح عمّال قصِّ الحجر الذين يرتدون مراييل من الجلد يكسرون واجهة الصَّخر في محاولةٍ لإعطاء شكلٍ ما للكتل التي يستخرجونها وينقلونها من يدٍ إلى يدٍ عبر سلسلةٍ بشريّةٍ نحو المتراس الأوّل. هناك عبيدٌ هنودٌ أتى بهم لوفرو ليعملوا بوصفهم حمّالين، وألبسهم قمصاناً قصيرةً صنعها بسرعةٍ خيّاطان جاءا مع الحملة. المهمّة التي أوكلت إلى جوست كانت أن يخلع كتلاً من الحجارة بعتلةٍ طويلةٍ من الحديد، مثل تلك التي يستعملونها في المناجم، وأنْ يراقب مسار العمل في هذه الورشة. لكنّه كان ملزماً أيضاً بتنفيذ أوامرَ صريحةٍ تنصّ على أن يحتفظ السُّكّان الأصليّون بهذه الأسمال مهما حصل، والواقع أنَّ هؤلاء المساكين الذين يتعرّقون بشدّةٍ في اللّيل كانوا يبحثون عن الرّاحة

من دون عوائق، وبالغريزة يكشفون أكثر مناطق أجسادهم سخونةً من دون أن يفكّروا بأنّها أكثرها إثارةً للخجل. كانت هناك عدّة نساءٍ بين العبيد، وعلى أنّهنَّ كنَّ على درجةٍ كبيرةٍ من البشاعة ومستهلكاتٍ للغاية، فقد شعر جوست أنَّ عُريهنّ يثير في عيون العمّال القادمين من أوروبّا لمعةً يمكن أن تخلق فوضى، لكنّه، ولهذا السّبب بالذّات؛ لمْ يكن يحبُّ على الإطلاق وظيفته كمراقبٍ للمحكومين بالأعمال الشّاقّة.

مع ذلك، ولتسهيل خطّته في الهروب مستقبلاً، كان يهمّه تجنُّب العنف في تلك الجزيرة، والحفاظ على المراقبة الّلطيفة المعتادة فيها.

في ذلك الصَّباح، وفي أثناء صعوده نحو الورشة، رأى جوست دون غونزاغ يسير في اتّجاهه.

- «وجدتك!». صرخ الجنديُّ العجوز، ووضع يده على قبّة جوست.

لم يكن جوست يحبُّ تلك الطّريقة المتوددة في التّصرُّف قطُّ، وهو لا يستطيع أن ينسى أنَّ دون غونزاغ كان الأداة التي أوصلته إلى المنفى. لا شكَّ في أنّه فعل ذلك من دون نيّةٍ سيّئةٍ، وأنّه عبّر من وقتها عن تعلُّقه الكبير بهما. مع ذلك، لمْ يكن جوست يستطيع أن يبادله المودّة تماماً.

- «ألّفتُ قصيدةً». أسرَّ له دون غونزاغ، وهو يخرج قطعة ورقٍ مجعّدةً أمسكها، وهو يمدُّ ذراعه إلى بعيدٍ، وبدأ: «مارغريت... اسم بالمصادفة...».

- لديَّ عملٌ يا غونزاغ.

- لا. اسمع، أرجوك، إنّها قصيدةٌ قصيرةٌ للغاية:

مارغريت، في جزيرتي كأنّني داخل عُشٍّ
أداعب اسمكِ يا حبيبتي
مثلما العصفور يحضن تحت جناحه
ذكرى الحلوة التي يحبّ

كان جوست مهموماً، فهزَّ رأسه، وجمع كلّ ما لديه من اللباقة كي لا يجيب بأيّة كلمةٍ.

- «أليست جميلةً». أصرَّ عليه دون غونزاغ.

- وزنها مكسور.

- وزنها مكسور؟ من يتحدّث عن الوزن يا حمار. حسنٌ، اذهب لرؤية الأميرال، إنّه يريدك هذا الصَّباح.

بدا الخبر سيّئاً بالنّسبة إلى جوست الذي كان يبتعد قدْر الإمكان عن فيلوغانيون. وعندما تطلّبت التّحصينات مشاركة الرّجال الأقوياء جميعهم، استفاد جوست من ذلك ليتطوّع للعمل فيها متهرّباً بذلك من وظيفة الوصيف التي أسندها الأميرال إليه.

عندما وصل إلى مركز القيادة، وهي التّسمية التي صارت سائدةً، قاده الحَرس الاسكتلنديّون على الفور إلى حضرة الأميرال الذي كان في الواقع ينتظره. نهض عندما رأى جوست، وأمسك بيديه، وتأمّله برهةً. كان جوست بلا شكٍّ أجمل شابٍّ في الجزيرة، بشعره الأسْود المتموّج الذي ينتصب لكثرة سماكته وقسوته، وبلحيته المبعثرة بفوضى، لكنّها مرسومةٌ بدقّةٍ، بحيث تخطُّ قوساً واضحاً تحت الشّفة السُّفلى، نبالة أصْله التي لم تسنح لها الفرصة لتتبدّى بعْد تمهّلت في أن تكمن وراء كلّ حركةٍ من حركاته، كأنّها بذلك، ومن دون ترفُّعٍ، تتحدّى العالم أن يمنحها التّجربة التي تسمح لها أن تبرهن عن أهميّتها.

بدا فيلوغانيون راضٍ جدّاً بعد تفحّصه لجوست. أفْلته من يده، وجعله يجلس إلى جانبه.

- «كلامورغان». بدأ كلامه بجفافٍ لا يخلو من الحُنوّ: «لقد تركتك تقوم بمغامراتك الأولى في هذه الورشة حيث كانت هناك حاجةٌ لك. الآنَ، صار لزاماً عليّ أن أقوم بواجبي في تربيتك كرجُلٍ نبيلٍ».

- «لكنْ... الحِصن؟». اعترض جوست.

رغماً عن إرادته، كانت فكرة التّعامل الدّائم والمنتظم مع فيلوغانيون تثير حَنقه. كان مقتنعاً بأنَّ الأميرال قد تلاعب به، ومن دون أن يفكّك الآليّة التي حصلت، كان يشكّ بوجود اتّفاقٍ بين فيلوغانيون وبين المستشارة والرّاهبات، بحيث يعتقدان أنّهما سيلتقيان بوالدهما، وبذلك يبعدانهما إلى الأبد عن كلامورغان.

- تستطيع أن تعمل في الحِصن كلّ يومٍ بعد الظُّهر إنْ كنت ترغب في ذلك، لكنْ في الصَّباح، من الآن فصاعداً، سوف تأتي في البداية إلى هنا لتتلقّى دروسي. أين تنام؟

- في الورشة.

- داخل كوخ؟

- لا. في الهواء.

- في هذه الحال، سأقول للاسكوتلنديّين أن يجدوا لك بقعةً ما في هذا القصر. بعد قليلٍ سيبدأ موسم الأمطار، ولا أريدك أن تهمل الكتب التي سأعيرك إيّاها.

فكرة القراءة سبّبت متعةً شديدةً لجوست، وفكّر بأنّ كولومب ستكون هي الأُخرى أكثر سعادةً منه، وفي النّهاية، وحتّى إنْ لمْ يكن يحبُّ فيلوغانيون، من الأفضل الاستفادة من اهتمامه قبل أن يهرب. وذلك لنْ يقدّم، أو يؤخّر الموعد النّهائيّ.

- «ما الذي قرأته حتّى الآن؟». فجأةً، سأله الأميرال.

استعاد جوست من ذاكرته قائمةً فيها خليط من الشُّعراء اللّاتين والإغريق. ذكر هسيودوس، وفيرجل، ودانتي، ثمَّ بعدما برهن عن جدّيّة قراءاته، اعترف بقراءة برسوفال، والأماديس.

- «تلك هي كلاسيكيّات الأدب، ومغامرات الفرسان». قال فيلوغانيون: «يبدو لي أنّك تعرف عن ذلك ما فيه الكفاية، لكنْ كما ترى نحن في زمن الأفكار الجديدة، وقد قدّمها إلينا مفكّرون عِظامٌ يمجّدون الخالق كما يمجّدون الجنس البشريّ. هل قرأت إيراسموس؟».

- «لا».اعترف جوست من دون ندمٍ، ولا تبجُّحٍ.

- «خُذ -إذاً- كتاب (الانكيريديون) الذي هو أجمل مؤلّفاته في رأيي». تابع فيلوغانيون حديثه، وهو يخرج كتاباً صغيراً من صندوقٍ تحوّل إلى مكتبةٍ: «اقرأه خلال هذا الأسبوع، وحاول أنْ تفهمه جيّداً؛ لأنّني سأطرح عليك أسئلةً حول مضمونه. إنّه مكتوبٌ بلاتينيّةٍ سهلةٍ لمن يعرف فيرجل جيّداً».

شعر جوست بمتعةٍ غير منتظرةٍ حين ضمَّ إليه هذا الكتاب المغطّى بغلافٍ جلديٍّ شديد الاهتراء، حليبيّ اللّون.

- «هناك شيءٌ آخر». أضاف فيلوغانيون، وهو ينهض فجأةً: «على سطح الباخرة، برهنت عن شجاعتك بقبضات يديك، وهذا جيّدٌ، لكنْ صار من الضّروري أن تعرف كيف تستعمل في المستقبل أسلحةً أكثر نُبلاً. سوف ننزل إلى الشّاطئ كلَّ صباحٍ بعد بزوغ الفجر، وسوف تردّ ضرباتي بالسَّيف».

كان تعلُّم المبارزة من أهمّ الرّغبات لدى جوست، لكنّه لمْ يتخيّل في حياته أنّها ستتحقّق بتلك الشُّروط الغريبة، وكما في كلّ مرّةٍ توشك كلماته فيها أن تثير مشاعر مُحرجةً، أتمّ فيلوغانيون جُملته تلك، وهو يدير ظهره.

شعر جوست أنّه يجب أن يستأذن للذّهاب، لكنّه كان شديد القلق على كولومب. سأله قائلاً:

- أميرال، هل لديك أخبارٌ عن أخي؟

- ليس بعد. لمْ ينقضِ سوى أسبوعين على ذهابهم، وحتّى الجنود لمْ يعودوا بعْد.

كان هدف تلك الكلمات طمأنةُ جوست، لكنّ النّبرة لمْ تكن كذلك. نهض هذا الأخير، لكنّه تردّد في الذّهاب كأنّه يظنّ أنّ فيلوغانيون سيكشف في تلك اللّحظات الأخيرة أفكاره الحقيقيّة. كان يمكن لهذا الانتظار أن يدوم لولا تصاعد ضجّةٍ غير متوقّعةٍ من الكوخ المجاور الذي كان يُستعمل كردهة انتظارٍ. وراء فتحات النّخيل ارتفعت أصوات الاسكتلنديّين الفجّة، تعلو عليها صرخاتٌ مهدّدةٌ ما كان يمكن أن تصدر إلّا عن تيفيه.

- «اذهب لترى ما يحصل!». أمره فيلوغانيون.

فتح جوست شيئاً يشبه الباب، فحشر الرّاهب الفرانسيسكاني نفسه فيه ليدخل. كان يحمل بيده اليمنى مديةً مقوّسةً، وفي اليسرى ثمرةً كبيرةً سمراءَ مصفرّة اللّون تعلوها كتلةٌ من الأوراق المدبّبة.

- «بسرعة، أعطني صحناً يا أميرال». صرخ الرّاهب.

وعندما رأى صحناً من القصدير على الطّاولة، وضع فيه الفاكهة، وقطعها بضربةٍ واثقةٍ. ظهر منها نسيجٌ أصفرُ قانٍ تبعثرت عليه الألياف.

- بالله عليك تذوّق هذه الرّوعة.

وبمهارةٍ، كان قد قطع حزّاً من اللّبّ، وشكّه في مقدّمة سكّينه، وقدّمه لفيلوغانيون. لمْ يجرؤ العملاق الذي أخذته المفاجأة أن يقاوم فأمسك بالقطعة بين أسنانه وعلكها، بلعها، ثمَّ صرّح في النّهاية كنتيجةٍ:

- إنّها لذيذة.

- «آهٍ، آهٍ». قال الرّاهب بسُخريةٍ: «هذا أقلّ ما يمكن قوله! أمّا أنا فأقول إنّها ممتازةٌ يا أميرال، إذا ما سمحت لي. لقد حمل إليّ المترجمون هذه

الثّمرة من اليابسة. يجب عليَّ أن أتحقّق منها، لكنّني أعتقد أنّه ما من اسمٍ علميٍّ لها حتّى الآن. السُّكّان الأصليّون يدلّون عليها بكلمة (أناناس)».

من الهيجان الذي يتبدّى من صوته، يتبدّى أنَّ شراهته لمْ تتأتَّ من طعم هذه النّبتة، إنّما من توقُّع إخْصابها بهذا الاسم الّلاتينيّ الذي سيجعلها كونيّةً.

- «أيُّها السّيّد الرّاهب». قال فيلوغانيون بتعبٍ واضحٍ إلى درجةٍ قطع معها ذلك الرِّضا: «تفضّل بالجلوس، أرجوك».

كان قد نسي جوست الذي كان ما يزال واقفاً بالقُرب من الباب لا يجرؤ على الحراك. جلس الرّاهب، ووضع سكّينه مُرغماً. بدأ الأميرال حديثه هكذا:

- ما من أحدٍ يمكن أن يسرّ أكثر منّي بالاكتشافات التي تجعل العِلم يتقدَّم، مع ذلك، هل عليّ أن أذكّرك أنّك الوحيد القادر هنا على الاحتفال بالأسرار المقدّسة؟ بكلمةٍ أُخرى؛ أنا أسألك بكلّ بساطةٍ: متى تنوي أنْ تقيم القدّاس في النّهاية؟

- اكفهرَّ وجهُ الرّاهب.

- لمْ يعُد لديَّ شيءٌ من زينتي الكنسيّة.

- حسْب ما أعرف، المسيح أعطى مثلاً عن الفقر. تستطيع أن تسْبغ القداسة على المكان الأكثر تواضعاً من خلال الصّلاة.

فيلوغانيون الذي قاتل جيوش البابا، وخالط أصحاب النّزعة الإنسانيّة، واختلط في إيطاليا بمفكّرين جريئين وقفوا إلى جانب الإصلاح، كان شعر بالغضب حتّى أعماقه من كلّ ما يشبه التّعلُّق بالأبّهة. كان يؤمن بكنيسةٍ غير مرئيّةٍ، ومجّانيّةٍ تجمع بين البشر الذين نالوا الرّحمة الإلهيّة أيّاً كانت أعمالهم، أو حركاتهم.

قال تيفيه في هجومٍ مضادٍّ على فيلوغانيون:

- لا تعتمد عليّ في إدخال هؤلاء الوحوش إلى المسيحيّة طالما لمْ تكن لديهم معرفةٌ مبدئيّةٌ بلغاتنا، وبعاداتنا.

- «لا يهمُّني المتوحّشون!». اعترض فيلوغانيون: «من يتحدّث عنهم؟ سيأتي دورهم لاحقاً. رعايانا هنا هُم الذين بدأوا يضيّعون بسبب نقص ما يذكّرهم بالأخلاق، وبالإيمان. كلّ يومٍ تردني معلوماتٌ بأنّ الأخلاق والإيمان يزدادان تبخُّراً. العمل لا يتقدّم. كلّ صباحٍ هناك من يُضبط في حالة سُكْرٍ حتّى الموت ولا يستطيع أن يقف على قدميه».

زمّ فيلوغانيون عينيه، وقرّب وجهه المرعب من الرّاهب الذي أدار وجهه من مرمى أنفاسه، وأضاف:

- لا بلْ أظنُّ أنَّ هناك ممارساتٍ أخطر تنتشر، ولها علاقةٌ بالجسد.

قال هذه الكلمة بصوتٍ مزمجرٍ وقويٍّ لدرجة أنَّ أحد الحَرس الاسكوتلنديّين مرَّ برأسه من الباب.

- «اتركوني!». صرخ فيلوغانيون.

ثمَّ عندما لمح جوست الذي كان قد بقي بالقُرب من المدخل، طرده بقسوةٍ قائلاً:

- ما الذي تفعله أنت هنا؟ اغرب عن وجهي، ولا تذكر كلمةً ممّا سمعت لأحدٍ.

كان جوست في طريقه نحو الخروج عندما سمع فيلوغانيون يستدير إلى الكوزموغرافيّ، ويقول له:

- دعنا نرى معاً أيُّها السّيّد الرّاهب ما هي الاجراءات التي يجب اتّخاذها كي نقتلع هذه الجذور السّيّئة.

الفصل 7

كانت تلك حماقةٌ بلا شكٍّ، لكنْ هناك بعض المتع التي ينساق إليها الإنسان؛ لأنَّ رفضها يعني اقتراف جريمةٍ ضدَّ نفسه. عندما شعرت كولومب بنفسها محاطةً بأولئك النّسوة الهنديّات اللّواتي تضيء الضّحكات وجوههنّ؛ وحين رُحن يداعبنها، ويتحدّثنَ بثرثرةٍ فهمتها من دون أن تدرك معناها، لمْ تحاول أن تقاومهنّ، ولا أن تمنعهنّ. كان لديها الانطباع بأنّها قد تحرّرت من عبءٍ. قبل ذلك بلحظةٍ، كانت ما تزال غير مهتمّةٍ بتنكُّرها كرجُلٍ، وقد تدرّبت جيّداً على ألّا تفكّر بنفسها كامرأةٍ إلى درجة أنّها لمْ تعد متأكّدةً من أنّها بالفعل كذلك. مع ذلك كان جسدها قد تحوّل خلال الرّحلة، فقلّة الطّعام التي فُرضت عليها في الباخرة لعبت دورها في ألّا تعطي لقوامها حجمه كجسدٍ راشدٍ، لكنَّ نظام الطّعام على الجزيرة كَسر ذلك الحاجز، وأعطاها استداراتٍ ما استطاعت أسمالها أن تخفيها تماماً.

كان يكفي أن تقوم الهنديّات بجرّها معهنّ لكي يتبدّى للجنود ما كان الاعتياد قد منعهم من ملاحظته، ولقد شعر البلطيقيُّ وكتيبته بخليطٍ متساوٍ من الإعجاب والرُّعب عندما خلعت كولومب سترتها دونما مقاومةٍ،

فظهر لجميع الحاضرين ثدياها المشدودان اللّذان لم تعُد لهما أيّة علاقةٍ بالطّفولة. عندما انتبهت كولومب لوجودهم، ورأت اللّوم في نظراتهم، اقتربت من الجنود من دون أن تحاول تغطية نفسها، ثمَّ قالت لهم بشجاعةٍ معلنةٍ:

- الآنَ وقد عرفتم سِرّي، من الجبان منكم الذي سيذهب لنقل الخبر؟ سأبقى هنا. لعلّها أوامر الأميرال الأخيرة التي يتوجّب عليَّ تنفيذها.

صدرت عن البلطيقيّ زمجرةٌ، وأخذ البقيّة ليتنحّوا جانباً. بعد أن أكلوا في صحون الخشب التي قدّمها إليهم الهنود، عادوا ليغذوا السّير وراء الهراطقة، وقد عرض عليهم محاربان أن يذهبا معهم ليدلّوهما على الطّريق.

بقيت كولومب وحدها، وملأ رحيل الجنود المخيّم بما بدا لها صمتاً كبيراً. كان يلزمها بعض الوقت لتفهم سبب هذا الهدوء الغريب. كان الهنود يتحرّكون من دون أيّة ضجّةٍ؛ فالقرية تقع في قلب الغابة، ووجود كائناتٍ بشريّةٍ ما كانت له ضجّة تختلف عن تلك التي تنجم عن الطّيور، والأفاعي، والحشرات.

كانت هناك بعض المواقد التي يحترق فيها خشب البرازيل من دون أن يدخّن. بعد أن خلعت النّساء عن كولومب ما بقي عليها من رداءٍ، أظْهرن بحركات الأصابع قرفهنّ من وساختها، وقد شعرت كولومب، وهي تخلع ملابسها، برغبةٍ كبيرةٍ في أن تُخلَّصَ من الأوساخ الملتصقة عليها والتي صارت مثل بطانةٍ حميمةٍ لجسدها. أخذتها الهنديّات بمرحٍ نحو جدولٍ صغيرٍ يسيل في الغابة، ووصلْنَ عبْر بضع درجاتٍ من البازلت إلى شلّالين صغيرين يغذّيان فسحةً صغيرةً تجمّع فيها الماء. هناك قامت إحدى النّسوة بالغطس قبْل غيرها، وبيّنت لكولومب أنّها يجب ألّا تخشى الانزلاق فيها.

نزلت كولومب بدورها، وتحلّقت النّساء حولها، ورُحْنَ يفركنها بقبضاتٍ من النّباتات تشبه الرّغوة، كما قُمنَ بمدّ طبقةٍ من الزّبد الأبيض على جسمها.

عُدْن بعد قليلٍ إلى القرية، ولمْ تشعر كولومب، وهي عاريةٌ بين البقية بخشيةٍ، أو بخجلٍ حتّى عندما ظهرت النّسوة مجتمعاتٍ أمام الرّجال.

حلّت العتمة. جلست النّساء حول مواقد النّار، وبما أنّ كولومب لمْ تكنْ معتادةً على برودة المساء، وكانت ترتعد، فقد رَمت النّساء الهنديّات على كتفيها، وهُنّ يبتسمْن قماشةً واسعةً من القُطن الأبيض.

في تلك الّلحظة، في دفْء الجمْر والرّداء وَعتْ كولومب، وهي تفرك قدميها المزْرقّتين من الماء البارد مقدار ضيقها.

لنْ يلزم الجنود أكثر من ثمانية أيّامٍ ليعودوا، ومُؤكّدٌ أنّهم سيَشون بها عند فيلوغانيون مباشرةً، ولو بالمُصادفة لمْ يفعلوا ذلك، فإنّها ستكون عندئذٍ تحت رحمة مساوماتٍ قميئةٍ، وسيكون عليها أن تعترف بكلّ شيءٍ بنفسها، وهذا ما يعني أنّها قد خانت ثقة الأميرال بلا رجعةٍ، وسيتحمّل جوست هو أيضاً النّتائج؛ لأنّه كذب معها.

أيُّ عقابٍ سيفرضونه عليهما؟ لا تعرف، لكنّها توقّعت أن يُفرّقَ بينهما بلا شكّ. تملّكتها رغبةٌ حيوانيّةٌ في أن تلجأ إلى حضن جوست بينما كانت ترتعد على نحوٍ كبيرٍ. كان هناك شعورٌ بالظّلم والبُؤس يملأ عينيها بالدُّموع. في تلك الّلحظة الحلوة التي جعلها الكشف عن جنسها ترمي عنها بعيداً الأوهام والأكاذيب كلّها، بدأت تفكّر من دون مواربةٍ بالظُّلم الذي يلفّ حياتها: التّيه، التّخلّي، والآن المنفى.

العقار الشّافي من تلك السُّموم، والسُّور الذي يحمي حياتها، جوست الذي كانت تعبده، لنْ يعود بعد الآن ملجأً للحُبّ بالنّسبة إليها. عندما

ستظهر أمامه كامرأةٍ، ستُحرم إلى الأبد من الحنان الطّبيعيّ الذي كانا يشعران به كطفلين، الذي عكّره في الأيّام الأخيرة نوعٌ من الضّيق الخفيّ.

شعرت بالرّغبة في أنْ تنادي إيميلين، ثمَّ مع انهمار الدُّموع من عينيها، بدأت تشعر بقسوة الغابة التي كانت قد صارت معتمةً كلّها في حين أنّ السّماء كانت ما تزال زرقاء. أتت امرأتان هنديّتان، وحملتا إليها قصعةً من الحساء. ركض طفلٌ نحوها، وهو يحرّك غصناً صغيراً. امرأةٌ عجوزٌ تحمل قصعةً ممتلئةً بالحبوب المحمرّة ركعت أمامها، ورسمت على وجهها علاماتٍ هدّأت من رَوعها. كان هناك ربع قمرٍ ينساب بين أشجار الجاكرندا، وكانت تلك هي الصّورة الأخيرة التي حملتها معها في إغفاءتها الأولى كامرأةٍ.

*

– «انتبه يا حمار!». صرخ فيلوعانيون، وهو يلمس خصمه بسيفه.

الجلد الواقي الذي ارتداه جوست كان قد تمزّق بفعل الضّربة الرّابعة.

– ذلك أنّه في اللّحظة نفسها...

– «تماماً». زعق الأميرال: «في هذا الذي تسمّيه اللّحظة نفسها، التي تتخبّط فيها، يجب أن تردَّ الضّربة. هيّا. اندفعْ وسمّعْ لي الدّرس: عندما ترى قريبك يتألّم، لماذا لا تتألّم روحك؟».

– «لأنّها ميتةٌ». الفصل الأوّل.

– حسنٌ. انتصب! القدم إلى الوراء. هنا. ولمن يجب ألّا تتوجّه كي تعود إلى الحياة مسيحيّاً؟

– للخوارنة الممتلئين بالكراهية، و.. سريعي الغضب، و.. كثيري الـ.... التّبجُّح بـ...

-... مزاياهم. الفصل الثّاني. أصبتك، لكنّك في النّهاية صرتَ أفضل.

كان جوست يسبح بالعرق، وقدماه العاريتان تغوصان في الرّمل النّاعم للشّاطئ، وعليه أنْ يقوم بمجهودٍ كبيرٍ لكي يقفز بعيداً عن مرمى هذا الأميرال الشّيطانيّ. كان هناك ما يقارب عشرين من سكّان المستعمرة يجلسون على جذوع الأشجار، ويتابعون بالصُّراخ من بعيدٍ كلَّ حركةٍ من حركات الهجوم.

- انْتبه! أين يمكن أن نجد الخلاص وغذاء روحنا؟

- في القانون الإلهيّ، كما كُشفَ لنا عبر الرّسائل المقدّسة والدّنيويّة، الفصل الرّابع.

- هذا يعني؟

- القدّيس بولُص، القدّيس أُغسطينوس، دونيز الحكيم في أثينا، أوريجين...

- و؟

- أفلاطون.

- برافو. انتصب! هل الإنسان طيّبٌ؟

- نعم؛ لأنّه من خلق الله.

- هل الإنسان حُرٌّ؟

- نعم؛ لأنه صورة الرَّبّ.

- ممتاز. أصبتك. يكفيك هذا اليوم.

واقترب فيلوغانيون من جوست. أخذ منه سيفه والواقي الجلديّ، ثمَّ أمسك به من ذراعه، وصعد معه نحو الأكواخ. في قمّة الجزيرة، على المصاطب، بدأت تظهر معالم الحِصن.

- لقد قرأتَ ايراسموس جيّداً، وكما يجب، وسوف أعطيك مؤلّفاتٍ أُخرى. لكنْ قُلْ لي...

توقَّفَ ونظر إلى جوست بثباتٍ بتلك النّظرة المرعبة.

- لماذا لا يبدو عليك الاهتمام بهذا كلّه؟

- بأيّ شيءٍ؟

- بما أعلّمه لك.

- «أنا مهتمٌّ». اعترض جوست، لكنْ من دون رغبة حقيقية بالإقناع.

أمسك به الأميرال من ذراعه وهزّه:

- لا تكذب.

لمْ يحاول جوست أنْ يتهرَّب من نظرات تلك العيون الغامقة، لا بلْ إنّه اتّخذ وضعيّةً ممتلئةً بالكبرياء والتّحدّي.

- «أنت لا تشبه أباك». تمتم فيلوغانيون، وهو يفلته من قبضته، ويعود للمسير: «ومع ذلك، فأنت مثله تماماً. هذا الصَّلف!».

شعر جوست بقلبه يدقّ أقوى بكثيرٍ من تلك اللّحظة التي كان فيها يقفز حاملاً السّيف بيده. كان يتحرّق شوقاً للمعرفة، وللخلاص من الوساوس كلّها، ولطرح الأسئلة التي كانت تشغله، لكنّ كلمة الصَّلف...

- «آخر مرّةٍ رأيته فيها». قال الأميرال، وهو ساهٍ: «كان ذلك في فينيسيا، لدى بول مانوس، ابن آلدي الذي استلم العمل في مطبعة أبيه. كان ذلك عام 1546، وكنت عائداً من هنغاريا حيث حاربتُ الأتراك».

- «وهو؟». أفلت السُّؤال من جوست الذي لمْ يعد يحتمل.

- «أترى كمْ أنت ممتلئٌ بالفضول حين يكون الموضوع مهمّاً بالنّسبة إليك؟». قال فيلوغانيون، وهو يرمقه بنظرةٍ من طرف عينه: «كان هو في

طريقه إلى روما، وأنا ذهبت إلى هناك بعد ذلك بزمنٍ قصيرٍ، لكنّه كان في خدمة آل ميديتشي بينما كنتُ أنا في خدمة آل ستروتزي. كنّا على وشك أن نتقاتل. تلك هي الحقيقة. هل تفهم؟».

- «نعم». أجابه جوست.

- لا. أنت لمْ تفهم أيَّ شيءٍ.

كانا قد وصلا إلى حدود شجر جوز الهند، وكان صفُّ الجذوع المقصوصة التي تخرج من الرّمل الرّماديّ توحي بمقبرةٍ فيها قبورٌ عملاقةٌ. توقّفَ فيلوغانيون.

- لا تستطيع أن تتصوّر كم أُعجبت بذلك الرّجُل.

كان الفارس العملاق ما زال يضمُّ إلى صدره السّيوف وصدريّة الجلد.

- لقد وصلتُ إلى إيطاليا عندما كنت في الثّلاثين، وصدّقني إنْ قلت لك إنّي كنت ما أزال مشبعاً بتقاليد الفروسيّة القديمة التي كان الإنسان فيها يستهلك نفسه بقيام اللّيل والصّلوات، ويمتلئ جسمه بالنّدبات، ولا يلقي بالاً لنفسه على الإطلاق. كانت الصّدمة الأولى بالنّسبة إليّ تلك التي تلقّيتها في فلورنسا حين رأيت تمثال دافيد لمايكل أنْجلو، وتعميد المسيح لسانسوفينو، وهكذا، مع خيانة آدم، كانت فكرة الله ما تزال موجودةً حاضرةً في الإنسان، وكان يكفي دعمها ورعايتها. الإنسان مثاليُّ الجمال، أروع ما خلق الرَّبّ. الإنسان فاعل الخير الذي يتفوّق في السّلاح، وفي الفنون. الإنسان الطّيّب، الهادئ، الوديع، الأنيق، الذي يتحكّم بنفسه هو تماماً الإنسان الذي يصبح بحدِّ ذاته مثلاً يُحتذى.

لكي يتابع هذه الأفكار، سرح فيلوغانيون بصره في المدى في اتّجاه غيمةٍ بعيدةٍ مستديرةٍ، وثابتةٍ لا تتحرّك في السَّماء.

- الصّدمة الثّانية التي تلقّيتها هي عندما التقيت بأبيك؛ لأنّني لمْ أرَ في حياتي شخصاً اقترب إلى هذه الدّرجة من الاكتمال، لا بلْ كاد أن يصل إليها.

بدا عليه فجأةً أنّه عاد إلى نفسه، وألقى نظرةً على جوست.

- أقول كاد؛ لأنّه لمْ يكن مع ذلك خالياً من العيوب، كما سيتبيّن لك ممّا سيلي، لكنْ تلك قصّةٌ أُخرى؛ أمّا الآن، فأريد أن أقول لك بكل بساطةٍ ما يلي: أيّاً كانت ظنونك، اِعلم أنّه ليست لديّ أيّة مسؤوليّةٍ في قصّة إبحارك نحو أمريكا.

وببضع جُملٍ قصّ عليه ما كان يعرفه عن المناورات العائليّة القاتمة التي أدّت إلى رحيلهم.

- والآن، لكي أجيب عن السُّؤال الذي تتحرّق لطرحه عليّ، لكنّ كبرياءك يجبرك على أن تصمت. اسمع هذه الحقيقة البسيطة: لن تجد أباك هنا؛ لأنّه ليس هنا، ولمْ، ولنْ يضع قدمه هنا على الإطلاق.

- «لماذا كذبت علينا؟». صرخ جوست الذي نال منه الغضب المسعور عندما وصل إليه تأكيدُ ما كان يتوقّعه، ولمْ يجد سوى فيلوغانيون ليصبّه عليه.

- «لا تكرر هذه الكلمة، اذا سمحت!». زمجر الأميرال: «أنا اخترت اللّحظة المناسبة فقط لأعلن لك عن الحقيقة. لو أنّني فعلت ذلك على الباخرة لما كان أمامك سوى منظر البحر ليهدّئ من روعك؛ أمّا الآن، فانظر حولك.

باعد فيلوغانيون من ذراعيه، وأشار إلى امتداد الخليج الرّائع من الشّمال إلى الجنوب، بما فيه من غاباتٍ غزيرةٍ بِكْرٍ، ومرتفعاتٍ ممتلئةٍ بالعَظَمة والجلال.

- ها أنت ترى أمامك فرنسا الأنتاركتيكية. علينا أن نبنيها كلّها، وأن نستحوذ عليها كلّها.

ثمَّ بعد أن مال بأنفه الطّويل نحو الشّاب، أضاف:

- هذا كلّه ملك يمينك.

- «هل مات؟». سأله جوست.

- نعم.

كانت الرُّطوبة المداريّة الخانقة تتصاعد من الأدغال مع هواء الجنوب، ومع طيور خطّافات البحر البيضاء.

نظر جوست نحو اليابسة. الغموض الذي يمتزج بهذه الغابات الجرفيّة تبدّد أمامه مثل بخارٍ. صارت الألوان أكثر وضوحاً وفجاجةً. وعلى أنَّ هذه الفضاءات كانت مسكونةً بالحياة، فإنّها صارت من لحظتها ملكاً للعُزلة. كان فيلوغانيون قد استدار لكي لا يرى دموعه، وربّما لكي يخفي دموعه هو، ثمَّ بعد أن عانقه على نحوٍ متعثّرٍ وجلفٍ، ابتعَد.

- اذهب إلى العمل، وتعالَ قبل المساء لأعطيك كتاب كومينتاريولوس[1] لكوبرنيكس.

نظر جوست إلى ظلّ الرّجُل الضَّخم المقوّس والملتوي قليلاً، وهو يتلاشى في البعيد. بقي للحظةٍ مذهولاً، يستمع دون جدوى إلى الّلحن الباكي للأمواج القصيرة. كان مدهوشاً من شعوره بأنّه عندما امتلك فجأةً هذه الأسباب كلّها التي تجعله يرغب في الرّحيل، فقد في الوقت ذاته أيّة رغبةٍ في أن يذهب.

*

---

(1) العنوان يعني باللاتينية التعليقات الصغيرة، وهو كتاب شرح فيه كوبرنيكس النظام الشمسي وجعل من الشمس مركز الكون. (م).

كانت الحياة الهنديّة على أقلّ ما يمكن من الخصوصية. الأشخاص جميعهم يعيشون عارين في بيتٍ مشتركٍ، والنّشاطات تتمُّ في فضاء المخيّم المكشوف. مع ذلك، لا بُدَّ من مراقبةٍ طويلةٍ؛ لفهم ما يمكن أن يثير هذه الجماعة من الكائنات البشريّة لكثرة ما كانت تبدو جامدةً، فكلّ شيءٍ، سواءٌ كان شكل التّعبير عن المشاعر أم الحركات اليوميّة، وسواءٌ كان جُزءاً من الحياة الرّتيبة أم اللّحظات الاستثنائيّة التي تُقام فيها الأعياد، فهذا كلّه كان يتبدّى مغلّفاً بمظاهر متراخيةٍ، مبطّنةٍ، وغامضةٍ.

تشرّبت كولومب ذلك كلّه على نحوٍ طبيعيٍّ. في البداية لزمها بعض الوقت لكي تمّحي، فوجودها كأوروبيّة، حتّى لو أرادت له أن يكون هادئاً ومخفيّاً، كان يسبّب مفاجآتٍ تكسر الانسجام الهنديّ. أكثر الأشياء سهولةً في الحقيقة كانت لُغة الكلمات. علّمتها النّساء المبادئ الأوّليّة في المحادثة، وسرعان ما أَلِفتها، لكنَّ الأصعب بالنّسبة إليها كان فهْم تراكُب مكوّنات لغة الجسد، فغريزتها في فهْم الانفعالات البشريّة قد انحرفت كلّها عن مسارها الطّبيعيّ في هذا العالم الجديد، ذلك أنَّ التّعبير يكتسب لدى الهنود اتّساعاً مُربكاً: ارتعاش العضلات، وضعيّات الأعضاء، وحتّى التّغيُّرات البسيطة في تضخُّم العضو المذكّر، وغير ذلك. كلُّ شيءٍ كان له معنىً بدهيّاً ومواربّاً في الوقت نفسه، قابلاً للقراءة بوضوحٍ مثل كتابٍ، وغامضاً مثله عندما تكون اللّغة فيه مجهولةً.

فهمتْ كولومب أيضاً أنَّ هنود التّوبي كانوا يرون فيها هي أيضاً علاماتٍ تتوافق مع فكرهم ومعتقداتهم؛ فمنذ اليوم الأوّل بالتّأكيد أتوا لرؤية عينيها، شحوبُ أهدابها الطّبيعيّ ملأهم بالإعجاب، سمّوها باسمٍ بسيطٍ: (عين-شمس)، وعندما فهمت لغتهم على نحوٍ أفضل عرفت أنّ وجهها كان يوحي لهم أيضاً بطيرٍ جارحٍ من الغابة كان يحمل حسب معتقداتهم أرواح

الموتى، وعندما يتبادل محاربٌ ما النّظرات مُصادفةً مع هذا الطّائر، تعود إليه طاقة أقاربه المتوفّين كلّهم، وتملأُه بقوى جديدةٍ، وهكذا اعتاد النّاس أن يأتوا عند كولومب كي تحدّق فيهم قبْل أن يذهبوا نحو الغابة لينخرطوا في حملاتهم المستمرّة من أجل الصَّيد، أو مراقبة الأعداء.

في كلّ صباحٍ كانت فتياتُ ونساءُ المخيّم يأخذونها معهنّ إلى الحمّام. كانت أكبر متعةٍ بالنّسبة إليهنَّ على ما يبدو الغطس فترةً طويلةً في المياه. مجرى الماء المجاور للمخيّم كان من وسائل الرّاحة، لكنّ النّساء إنْ كان لديهنَّ وقتٌ كُنّ يفضّلنّ الذّهاب أبعد في اتّجاه الشّلّالات وفروع النّهر الصّغيرة، ويبقين هناك طيلة ساعات القيْظ؛ لِبلّ أجسادهنَّ بالماء، وتمشيط شُعورهنّ، ونزع الوبر عن أجسادهنَّ بمساعدة ملاقط صغيرةٍ من الخشب الصّلب. لمْ يكن هناك شيءٌ يفلت من تلك المعالجة. لا الحواجب، ولا شَعر العانة. عين-شمس التي كان الشّعر قد بدأ ينمو لديها الآنَ تخلّت عنه بشيءٍ من الأسف من أجل عادةٍ ما كان من الممكن الإفلات منها.

في يومٍ من الأيّام ذهبت النّساء مبكّراتٍ، ووصلْن إلى الشّاطئ الذي يقع في الأسفل، من الجانب الآخر لـ(وعاء الزّبدة). كان شاطئاً واسعاً بِكْراً ينفتح على المحيط الأطلسيّ، وتتفجّر فيه لفافاتٌ ضخمةٌ من الأمواج على شكل طاقاتٍ. هبّات الهواء كانت فيه قويّةً إلى درجةٍ تجعل الشَّعر يطير، والجسد يرتعد بفعل البرودة، لكنَّ الرَّمل كان يتلظّى بحرارة الشّمس. ظلّت كولومب طويلاً جالسةً قُبالة الأفق المشوب بخُضرة الزُّمرُّد. في خيالها، وعلى استحالة ذلك، تهيّأ لها أنّها تميّز في أبعد نقطةٍ من ذلك البحر ذي الظّهر المستدير خطّ سواحل أوروبا، وأراضي شاطئ النّورماندي الرّماديّة. لمْ يكن ذلك حنيناً، على العكس تماماً، كان مجرّد

جهدٍ للجمْع بين طرفيْ حياتها: الماضي والحاضر، من دون أن تعرف إلى أيّة جهةٍ سيتدحرج نَرْدُ المستقبل.

لكنّ هذا الشّاطئ المقْفِر الذي كان الهنود يسمّونه كوباكابانا لمْ يكن يوحي بالأمان، ومن بين الأماكن كلّها التي كانت النّساء تذهبنَ إليها، تلك المنطقة كانت الوحيدة التي يذهب إليها معهنّ عدّة محاربين يقومون بدور الدَّوريّة الصّامتة، وعيونهم تستدير نحو الغابة في حين تبقى النّساء في الماء.

ضمن مجموعة الهنديّات، سرعان ما تعلّقت كولومب بواحدةٍ كان اسمها باراغواتشو. كانت شابّةً من عمرها تقريباً، تضحك أكثر من البقيّة، وتُظهر تُجاه المجموعة سُخريةً لا تخلو من التّهريج، ما جعل كولومب تجد فيها ما يشبه ميلها إلى الهُزْء. قدَّمت إليها باراغواتشو إسوارتين منسوجتين من الأصْداف، وعقداً من العاج على شكل هلالٍ، وفي الصّباح كانت هي التي تستولي على المشط الخشبيّ لتقوم بتسريح صديقتها عين-شمس.

في الحياة العاديّة للقرية تحصل في بعض الأحيان إنذاراتٌ غير مفهومةٍ. كانت كولومب تخشى هجوم القبائل المعادية، وتتخيّل نفسها أسيرةً مُستعبدةً، لكنّها فهمت بسرعةٍ أنّه ما كان يمكن الخوف من شيءٍ كهذا في الأماكن المحيطة بالمخيّم، فالمخاطر التي تهدّد الهنود لها طبيعةٌ أُخرى، وباراغواتشو التي كانت حين يُذكر ذلك أمامها تصبح جدّيّةً وقلقةً قالت لها إنَّ الشّياطين هي سبب هذه الإنذارات. كانت هناك علاماتٌ خفيّةٌ تأتي من الغابة، وتدلُّ على وجود هذه الأرواح المعادية، مثل: صرخةٍ مشبوهةٍ، أو ظلِّ حيوانٍ مهدّدٍ. عندها كان الهنود يُخرجون من أحد الصّناديق ثمارَ قرعٍ ممتلئةً بالأصداف، وكان أحدهم يلعب دور الكاريب؛ أي: السّاحر الذي يهزّ الخشاخيش لجعلها تتكلّم؛ لأنَّ الإيقاع، والصّوت،

والجرس الغامض لتلك الآلات كان يجعل السُّكّان الأصليّين يفهمون ما تتطلّبه الأرواح منهم. بعدها تُقام احتفالاتٌ يقوم فيها كلُّ واحدٍ منهم بطقوس طلاء الجسد بلون الغينيبا الأسْود، والرّودو الأحمر، مع مقادير متنوّعةٍ من التُّربة البيضاء، ثمَّ تبدأ الرّقصات، والأغاني اللّيليّة، وإلى ما هنالك من معالم الأعياد التي كانت باراغواتشو تجهد لشرح معناها من دون أن تفلح في ذلك. كان شراب الكهوان المخمّر جيّداً، الذي يُغرَفُ من القدور الكبيرة الطّينيّة يدير رؤوس الشّاربين، في حين تنتشر عِصيٌّ طويلةٌ من تبغ البيتان التي ينتقل دخانها الطّيّب من فمٍ إلى فمٍ. اعتادت كولومب على حالات السُّكر هذه، بلْ صارت حين يعود الهدوء تتمنّى عودتها القريبة. صار نومها للمرّة الأولى في حياتها ممتلئاً بالرُّؤى والحركات، على أنَّ الغابة التي كانت شاهداً على ذلك لمْ تتوقّف عن أن تكون بئراً من الصَّمت، ومن الظّلمة.

في اللّيل كانت كولومب تنام في الكوخ الكبير المشترك حيث تمتلئ العتمة بالتّنهُّدات، والقرقعات، والهمسات، فتستعيد وقتها الانطباعات كلّها التي مرّت بها في النّهار. ما كان الأزواج يشعرون بأيّ حرجٍ في أن يتعانقوا، حتّى لو كانوا قريبين جدّاً منها، وكانت تصدر عنهم تأوّهاتٌ، ولهاثٌ، وحشرجاتٌ. في الصّباح كانت العلاقات تنفكّ، لكنّ كولومب لمْ تكن تستطيع أن ترى أجساد هؤلاء النّساء والرِّجال من دون أن تفكّر أنّهمْ حين يتفرّقون خلال منعطف النّهار المضيء إنّما كانوا يتحضّرون لذلك التّماهي اللّيليّ الذي كان يخلطهم معاً.

حتّى باراغواتشو، مثلها مثل سائر الفتيات غير المتزوّجات، كانت حُرّةً في أن تمنح نفسها لرجالٍ من القبيلة. كانت غالباً ما تنام مع واحدٍ معيّنٍ منهم، يبدو أنّها كانت تكنُّ له مودّةً خاصّةً. كان اسمه كارايا، وهو أصغر

قامةً من سائر المحاربين. الحجر الذي يخترق شفته السُّفلى كان مختلفاً، ويبدو مثل قرصٍ من التُّراب، وحول عنقه عِقْدٌ من الأصداف البيضاء أكثر استدارةً والتماعاً من البقيّة. في أمسيةٍ من أماسي العيد، وبما أنّهن شربن الكاهوان، ودخّنّ بالتّناوب لفافةً كبيرةً من البيتون، تحدّثت الصديقتان عن رغباتهما، وعن آمالهما.

- «اليوم أنا أتسلى».قالت باراغواتشو في يومٍ من الأيّام: «وبعد ذلك سأتزوج عمّي».

- «أمّا أنا»، أجابتها كولومب، وهي تبحث عن كلماتها: «اليوم سأبقى عاقلةً، بعد ذلك سأتزوّج أخي».

ضحكتا معاً من هذا البوح، كما كانتا تضحكان من آلاف الأشياء خلال النّهار، لكنْ في ساعة النّوم، في القيْظ الشّديد الذي كان يهيمن على الكوخ الكبير، فكّرت كولومب برُعبٍ باعترافها الغريب. لئِنْ كانت الغابة من حولها قد صارت أليفةً، فإنَّ ذلك زاد من تأثيرها القسريّ عليها. صار يبدو لها أنّ فروعها وجذورها بدأت تتغلغل في فكرها، خالقةً فيها شياطين، وإشاراتٍ، ورغباتٍ ممتلئةً بالجاذبيّة وبالخطر. نامت وهي تتأوّه من خيوط الأشجار التي تربطها، واستيقظت مرّتين، وهي تكاد تختنق. صرخت فجاءت امرأةٌ عجوزٌ لتلمس لها يدها.

في صباح اليوم التّالي، توقّف ذلك العذاب، لكنّ كلّ شيءٍ تبدّى بوضوحٍ أمامها. يجب أن تعود إلى الجزيرة بأسرع وقتٍ ممكنٍ، ومهما قال فيلوغانيون، فإنّها ستجابه غضبه. لمْ تعُد تذكر عدد الأيّام التي مضت عليها هناك، ولا شكّ في أنّ هذه الانعطاف الكبير الذي عاشته لدى الهنود قد أغناها، لكنّها في الوقت نفسه قد تركت لديها حنيناً للحياة الأُخرى، تلك التي تدور في الشّاطئ المقابل للأطلسي، الحنين للأميرال، والمراكب،

وكانتان، وأنواع الزّينة الأوروبيّة، ونظام التّفكير فيها، وحرّيّة الحديث بلغةٍ واضحةٍ، والحنين خاصّةً لجوست.

عندما أسرّت بقرارها للهنود، قاموا باستشارة الخشخيشات، ونظّموا عيداً كبيراً. ارتدى الرّجال لفترة يومين زينةً من الرّيش قاموا بلصقها على الظّهر، والذّراعين، والسّاقين، مستعملين نوعاً من الحبوب. قدّمت باراغواتشو هديّةً لصديقها، هي أرجوحةٌ ضُفِرَت في الحال. في الصّباح، ارتدت كولومب الثّياب التي وصلت بها، التي قامت النّساء بغسلها بعنايةٍ. قصّت شعرها قصيراً لتترك لباراغواتشو ذكرى ثمينةً من خصلات شعرها الذّهبيّة.

قام رجالٌ ثلاثةٌ بمرافقتها حتّى السّاحل مقابل الجزيرة. أحد هؤلاء الرّجال كان كارايا الذي كانت باراغواتشو تخصّه غالباً بحنانها.

كانت الطّريق طويلةً، وكولومب التي صارت تستطيع أن تعبّر عن نفسها على نحوٍ مفهومٍ ثرثرت مع الرّجال. حدّثتهم عن القبائل الأُخرى، وعن التّراجم النّورمانديّين الذين كان يبدو عليهم أنّهم يخشونهم أكثر من أيّ شيءٍ آخر. عندما صار الشّاطئ مرئيّاً لهم، جلسوا على الرّمل ليأكلوا في انتظار أن يتبدّى مركبٌ يقوم بالنّقل بين الضّفّتين.

في لحظةٍ ما قال أحد المقاتلين لكارايا ملحوظةً لمْ تفهما كولومب. ضحك الشّابُّ، وحاول أن يفكّ العِقد الذي كان حول رقبته. ترك إحدى القواقع تنزلق خارج الخيط، ثمّ ربط العِقد من جديدٍ، ورمى اللّؤلؤة المنزوعة في الرّمل.

- «ما الذي فعلته؟». سألته كولومب.

- «اكتمل القمر اليوم». أجاب الشّابُّ على نحوٍ طبيعيٍّ للغاية: «يجب أنْ أخلع حجرةً من عِقدي».

- «كارايا سجين». قال أحد المقاتلين، وهو يختنق من الضَّحك: «عند كلّ اكتمالٍ للقمر يخلع حجرةً، وعندما لا يتبقّى أيُّ حجرٍ سنأكله».

ضحكوا معاً؛ أمّا كولومب التي تملّكها الرُّعب فكانت سعيدةً أن ترى في الّلحظة نفسها زورقاً يقترب من الضّفّة.

الفصل 8

- ضَع يديك على رأسك، ولا تحاول القيام بأيّة حركةٍ.

ضربة البندقيّة القديمة التي ردّدت صداها الغابة مرّتين نثرت رذاذ الرّصاص على الأغصان الدّقيقة لشجرة جوز الهند. من الصَّعب القول إنْ كان الرّامي قد قصد التّسديد عالياً جدّاً، أم إنَّ موجةً ما قد حرّكت الزّورق، فحرفت مجرى الضّربة. المهمُّ أنّ كولومب التي كانت تتقدّم بثقةٍ نحو الشّاطئ وقفت متسمّرةً في مكانها بسبب ذلك.

- هيّا، ارفع يديك وتقدّم.

لمْ يكن الصّوت الآتي من الزّورق غريباً عليها. تردّدت لحظةً، وفكّرت أنّها مع قليلٍ من الحظّ قد تستطيع الهروب ركضاً نحو الغابة، لكنْ لا شكّ في أنّ الهنود قد ذهبوا، وستجد صعوبةً في أن تجد طريقها من دونهم. كان المركب يحمل ستّة رجالٍ، واحدٌ منهم فقط كان مسلّحاً، لكنّه بينما راحت تفكّر بعواقب قرارها، كان قد حمل سلاحه مجدّداً إلى وجنته.

- «ما كنت أظنُّ أنّهم يمكن أن يصلوا إلى هذا الحد». قالت في نفسها.

كانت تنتظر أنْ تُعاقبَ بمجرّد أن يعلم فيلوغانيون بكذبتها؛ أمّا أن تُقتَل مثل حيوانٍ برّيٍّ...

طال الصَّمت وسْط همسات الأمواج. كانوا كلّهم؛ هي على الشّاطئ، والمجذّفون في المركب يراقبون بعضهم من بعيدٍ، ويحاولون التّحقق من هُويّة الخصم. أخيراً، سمعت كولومب صرخةً كبيرةً لُفظتْ من الخلف وراء ظهرها، وكانت موجّهةً نحو طاقم الزّورق.

- هدوء يا أصدقائي، ولا تطلقوا! لقد عرفته.

في الّلحظة نفسها صرخت كولومب بعد أن ربطت بين الصّوت وبين اسمٍ معيّنٍ:

- كانتان!

قفز الرّجُل القصير إلى الماء، وخاض فيه حتّى وصل إلى الشّاطئ. أسرعت كولومب نحوه، ومن دون أن تخشى أيّ كمينٍ، أو عقابٍ تعلّقت برقبته.

- «يا طفلتي الصَّغيرة». تأوّه قائلاً، وهو يمسك ذراعيها ملتصقين بجسدها: «أنت حيّة! أيّة سعادةٍ؟! ليشهد الله أنّني لمْ أفقد الأمل إطلاقاً».

أخذت دمعاته النّحيلة تتبع المجريين الأليفين الّلذين كان تدفّق شبيهاتها قد حفرهما على وجنتيه منذ سنواتٍ طويلةٍ. خلال ذلك كان الزّورق يتأرجح على بُعد فَرسخين. وضع أحد المجذّفين يديه على فمه مثل قرن الصّيد، وصرخ:

- ماذا نفعل؟

- اذهبوا لتحميل البراميل على العوامة، وارجعوا لأخذنا في طريق عودتكم.

- ابتعد الزّورق.

- «دعيني أصلّي». قال كانتان بنعومةٍ، وهو يستدير إلى جهة كولومب.

سقط على ركبتيه في الرّمل، وتمتم طالباً الرّحمة، وهو يرفع عينيه نحو الله. آليّاً تبعت كولومب نظرته. بدت لها السّماء بعد ذلك الحضور الصّاخب للأرواح في الغابة فارغةً على نحوٍ غريبٍ، كأنّها ميتةٌ.

قام كانتان، وأمسك بيدي كولومب.

- إلى أين ذهبتِ؟ ها قد مرَّ أكثر من شهر. أخوكِ صار شبه مجنون.

- ألمْ يقل الجنود لكم شيئاً؟

لمْ تكن كولومب تتذكّر الجنود من دون غضبٍ. كانت ما تزال ترى أمامها الهيئة المستنكرة للبلطيقيّ عندما خلعت قميصها.

- لمْ يقولوا شيئاً؟ المساكين، لمْ يكونوا في حالٍ تسمح لهم بقول أيّ شيءٍ عندما وجدناهم.

- هذا يعني؟

- لكنْ كيف لمْ تعلمي شيئاً، مع أنّكِ كنتِ معهم؟

- لا. لقد تركوني في قريةٍ هنديّةٍ.

- «آهٍ، الآن فهمت». صرخ كانتان، وهو يرسم بداية ابتسامةٍ على وجهه الأشبه بورقةٍ مجعّدةٍ تراخت طيّاتها بفعل الدُّموع: «يا للسّعادة! يا للسّعادة الكبيرة!».

تساءلت كولومب في نفسها إنْ لمْ يكن جنونُ الرّجُل القصير قد تزايد، لكنّه استعاد جدّيّته المألوفة وأضاف:

- لقد ماتوا يا صديقتي. كلّهم ماتوا. وأنتِ، أنتِ هنا.

عادت الدُّموع من جديد.

- ماتوا؟ أين؟ كيف؟

- «إنّها جريمةٌ مرعبةٌ. عندما وجدناهم على الشّاطئ على مقربةٍ من

هنا». ومدَّ كانتان إصبعه النّحيلة في اتّجاه وعاء الزّبدة: «كانوا.. أوه، ما زلتِ صغيرةً على سماع ذلك...».

- تكلّم.

- كانوا كلّهم مقطوعي الرّأس، ورؤوسهم مغروزةٌ من طرفٍ إلى طرفٍ آخر، ومشكوكةٌ على حبل مركبٍ مثل مسبحةٍ مرعبةٍ.

- «من استطاع أن يفعل شيئاً مماثلاً؟!». صرخت كولومب التي خجلت فجأةً من مشاعر الثّأر التي كانت لديها.

- ظننّا في البداية أنّ من فعل ذلك هُم الهنود، لكنْ إلى جانب الأجساد كانت هناك كلماتٌ مكتوبةٌ على الرّمل، وشبه ممحيّة: ليتمجّد الله في الأعالي.

في تلك اللّحظة انبثقت نافورةٌ حقيقيّةٌ من الدُّموع من عيني كانتان.

- «أليس هذا مرعباً؟». قال متأوّهاً، وهو يضمُّ يديه.

- «الأناباتيست». لفظت كولومب تلك الكلمة، وهي تنظر في اتّجاه الغابة.

- «لمْ يخطر في بالي قطُّ أنّهم يمكن أن يكونوا قادرين على فعل شيءٍ مشابهٍ». شهقَ كانتان باكياً.

تذكّرت كولومب منظره، وهو ينام في أرجوحته فوق مدفعٍ من دون أيّ خوفٍ على الباخرة، في حين كان هؤلاء البؤساء السّتّة ينامون حوله.

- متى كان ذلك؟

- قبل ثمانية أيّام. من وقتها صرنا نتوقّع كلّ شيءٍ. كان فيلوغانيون يريد أن يجهّز حملةً ليجدهم، وكان أخوكِ المسكين مستعدّاً لاجتياز الآلاف من مخاطر الموت لكي يثأر لكِ؛ لأنّنا لمْ نكن نشكّ في أنّ هؤلاء البؤساء قد احتفظوا بكِ من أجل أفعالهم الشّائنة.

فكّرت كولومب بتلك الأيّام الّلاهية لدى الهنود، بالاستحمام مع باراغواتشو، بليالي العيد، وشعرت في الوقت ذاته بندمٍ كبيرٍ؛ لأنّها نسيت بقيّة العالم، وبأنّها تحنّ إلى ذلك السّلام.

ظهر مركبٌ آخر يعود نحو حصن كوليني. أوقفه كانتان وركبا به.

•

كانت الجزيرة قد تغيّرت معالمها كُلّياً. عندما وضعت كولومب قدمها شعرت بالشّكّ لحظةً. هل كان ذلك بالفعل المكان نفسه الذي رسوا فيه قبل ثلاثة أشهر؟ كانت هناك مجزرةٌ من الجذوع عوضاً عن سعف النّخيل، كما أنّ شجر الأرز قد اختفى كلّه. طاقات القصب قد حُلِقَت أيضاً، وحتّى البوص. التّضاريس المنتظمة للجزيرة خُفِّفَتْ على شكل مصاطب، وجدرانٍ مهيّأةٍ للبناء. كان قد أُنجِزَ لسانان من الخشب يمتدّان على القمّة الشّماليّة والجنوبيّة، ويمكن رؤية مناوبي الحراسة يتحرّكون فوقهما.

مركز القيادة الذي اتّجها إليه مباشرةً قد تضاعف هو الآخر. كان هناك سقفٌ من الآجر يغطّي الغرف الأساسيّة اتّقاءً من الأمطار المُؤكّدة، كما أنّ أسواراً من عصب النّخيل بطول إنسانٍ كانت تمنع رؤية ما يدور في الدّاخل.

وجدا الأميرال مع جوست في الغرفة الرئيسة حيث كانت تجثم خزانة الأبنوس بما فيها من كُتبٍ. عندما دخلت إلى هذه العتمة، ما عادت كولومب ترى أيّ شيءٍ بسبب انكسار ضوء الظّهيرة عبر الفتحات. وقف جوست فجأةً لدرجة أنّ المقعد الصّغير الذي كان يجلس عليه وقع إلى الخلف. رأته في مواجهة الضّوء، فبدا لها ظلّه أكبر، وأعرض ممّا كانت تحفظ في ذاكرتها. كانت رغبتهما في أن يلتقيا لا تتناسب مع الوسائل التي يمتلكانها للتّعبير عنها. بدا عليهما أنّهما يتردّدان على حافّة العناق الذي ستكون قوّته

أقلّ من جمودهما المرتجف، وقد شعرا بالامتنان لفيلوغانيون؛ لأنّه وقف في وجه فورةٍ كانا يخشيان منها، وهُما يرفعان يديهما.

- «أين كنت؟». سأل بصوتٍ قويٍّ للغاية يحاول أن يطرد النّشيج الذي كان يثقل حنجرته.

- لدى الهنود، كما أمرتني.

كانت في ذلك الضّياء الذي يمرّ من فتحات النّخيل متعدّدة الألوان، وقد شعرت كولومب بنفسها أكثر من أيّ وقتٍ مضى أنها «عين-شمس».

رفرفت أهداب فيلوغانيون:

- هؤلاء الكلاب الأناباتيست لمْ يؤذوك؟

رَوت كولومب كيف تركت الجنود.

- لماذا بقيت تلك المدّة الطّويلة كلّها؟

تذكّرت مخاوفها، وأدركت أنّ فيلوغانيون لا يعرف شيئاً عن سرّها. قادتها غريزتها إلى أنْ تغلق قَبّة قميصها التي كانت قد أهملت إغلاقها على صدرها؛ لأنّها اعتقدت في البداية أنّه كان من غير المفيد أن تلعب تلك المسرحيّة بعد ذلك.

- «كنت أتعلّم اللّغة». قالت.

- وصرتَ تتحدّث بها؟

- قليلاً.

- على الأقلّ كنت مفيداً في شيءٍ.

كان جوست ما زال يحدّق فيها بكثافةٍ. رأى أنّها تغيّرت. صارت ملساء ناعمةً مشدودةً، وقد تشكّل صدرها، وتخلّص جمالُها من تلافيف الطّفولة. تساءل بخوفٍ كيف كان من الممكن بعد أن يجعلا فيلوغانيون يصدّق أنّها كانت شقيقه.

لكنّ الأميرال كان قد استدار وقتها ليتأمّل الصّور العظيمة التي كانت تسكن مخيّلته. تابع تلك الصّور لحظةً طويلةً في صمتٍ، ثمّ ضربَ بقبضته على الطّاولة.

- «فرنسا الأنتاركتيكية في خطر!». زأر بصوته، وهو يقف: «ستّةٌ من جنودي قد ماتوا في الحال. ليست لدينا أخبارٌ عن البقيّة الذين ذهبوا في الوقت نفسه، ولكنْ في الاتّجاه المعاكس. هناك فرقةٌ من الكفّار ترسم الزّبد على الشّاطئ، وهنا كلّ شيءٍ يستسلم للشّهوات».

رمى بنظرةٍ عبر دعامات النّخيل.

- انظروا إليهم! إنّهم يسْكرون، ويَزْنون، ويذهبون إلى اليابسة لأتفه الأسباب، وأنا أعرف تماماً لماذا. بحقّ جسد سان جاك. أولئك التّراجم الملاعين يبيعون لهم العاهرات، وهُم لا يعرفون كيف يقاومون ذلك، وخلال هذا الوقت، لا يتقدّم العمل. ستأتي الأمطار من دون أن يتغطّى أيُّ شيءٍ. ما من شيءٍ محميّ. فلْيأتِ البرتغاليّون، ويهاجموننا، وننتهي!

وسقط متصلّباً على كنبةٍ.

ذَرع الحجرة ببصره، وقد تملّكه جنونٌ يشبه ما يشعر به حيوانٌ يبحث عن مَخرجٍ خلال المطاردة. وقفت نظرته لحظةً على الطّاولة المثقلة بالكتب، ثمّ على كولومب، وعادت إلى جوست وخزانة الأبنوس، ثمَّ من جديدٍ إلى الخارج.

- «ذلك كلّه». زمجر من جديدٍ: «بسبب المرأة».

ارتعدت كولومب، لكنّه لمْ يكن ينظر إليها.

- «المرأة تفسد كلّ شيءٍ». أكمل بكآبةٍ: «صار يجب أن تعرفا ذلك. وكلامورغان، والدكما، كان يمكن أن يوحي له ذلك بأشياء كثيرةٍ».

تبادل جوست وكولومب نظرةً متسائلةً.

- «المرأة». قال فيلوغانيون خارجاً عن طَوره، وهو يعدّل من وضعيته: «هي أداةُ التَّردّي، حاملُ الإغواء والشّرّ. فكّرا في ذلك من دون توقُّفٍ، وابتعدا عن ملذّات الجسد عندما تتبدّى لكما في هيئة أنواع الفجور والبهجة».

كانت هناك مجموعةٌ من العمال تهبط من الحِصن، وكانت تسمع أصوات غنائهم، وهُم يمشون نحو أكواخهم. ارتسمت على الوجه العريض للفارس تعابير القرف والرُّعب، لكنْ عندما عادت نظراته من جديدٍ لتجول في الغرفة، التقت بلوحة لوتيسيان التي تمثّل لون بشرة العذراء النّاعم، وحركتها في اتّجاه الطّفل لحمايته، أعلن عندها، وقد استنار:

- لحُسن الحظّ أنّ الله قد أراد أن تكون هاوية الخطيئة هذه، هذا المخلوق من متعةٍ وضياعٍ...

ابتسم بنعومةٍ للعذراء في الّلوحة.

-.. الطّريق الواسعة نحو الخلاص.

كان بودّ كولومب أن تفعل أيّ شيءٍ لتوقف هذا المونولوج، وتأخذ جوست بين ذراعيها، وتذهب معه نحو الشّاطئ؛ لتروي له كم اشتاقت إليه، لكنّ فيلوغانيون كان قد انساق وراء فكرته، وما كان في نيّته أن يتخلّى عنها في هذه الأثناء. الأغرب هو أنّ جوست كان يُنصت إليه على ما يبدو باحترامٍ، بلْ ويوافقه الرّأي.

- «كلّما فكّرتُ في ذلك»، أعلن الأميرال من جديد: «فهمتُ أنّ التّتويج الرّئيسَ في وضعنا هذا هو الزّواج. هو، وهو وحْده الذي يكرّس هذه الّلقاءات، ويعيد هذه التّجاوزات إلى طريقها النّظاميّ. ليأخذوا ما شاءوا من النّساء، ليذهبوا للبحث عن المتوحّشات بالقوّة، ليدفعوا لهنّ، ليغتصبوهنّ إن أرادوا، لكنْ يجب أن يتمّ ذلك كلّه أمام الله!».

فجأةً، رسم على وجهه الذي اجتاحته اللّحية تعبيراً ملائكيّاً، وخلال تحديقه بالعوارض الخشبيّة لشجر النّخيل، كان يبدو عليه كأنّه يتأمّل الرّوح القُدُس.

وعندها، قال بصوتٍ سماويٍّ يصفر:

- سيكون هناك أطفالٌ يملؤون فرنسا الأنتاركتيكية هذه، ويتغنّون بمجد الملك. لنْ تكون هناك حاجةٌ أبداً لإدخال المتوحّشين في الدّين طالما أنّ نساءهم حين تحبلنَ ستُنجبْنَ مسيحيّين صغاراً.

ضاع برهةً في هذه الفكرة، ثمّ عاد فجأةً إلى كولومب.

- قلت لي إنّك تتكلّم الهنديّة؟

- نعم.

- إذن، تحضّر لاستعمالها؛ لأنّني سأبدأ بدءاً من اليوم بالعمل على استبعاد هؤلاء المترجمين الملاعين. لقد نلنا مصائب كثيرةً من هذا الغراب الذي يسرقنا ويخوننا. إنّ نموذجهم قد أفسد كلّ شيءٍ هنا. من الآن فصاعداً، أنا الذي سأحدّد الشّروط، وإذا قاوموا سنعرف كيف نكسرهم. اتركاني الآن، سوف أكتب إعلاناً.

*

عندما وجد جوست وكولومب نفسيهما في الخارج كان كانتان قد ذهب. مشيا جنباً إلى جنبٍ في اتّجاه الحِصن. كانت الورشة خاليةً في هذه الفترة من بعد الظّهر فيما عدا الأكواخ المؤقتة التي فيها بعض العمّال. نظرت كولومب بأسىً إلى تلك الكومة من الحجارة والدّعامات. لمْ تكنْ قد صعدت نحو الحِصن إلّا لترى المنظر الذي تحبّ في اتّجاه (خبز السُّكّر) والخليج؛ أمّا جوست، فكان من جهته يتأمّل جروح تلك الأرض بفخر من دفع دمه ثمناً للعمل. قال:

- هنا سيكون طريق الحراسة، وستُرتَّبُ المدافع بهذه الطّريقة في فتحات السّور المتناوبة لتغطية نِقاط السّمت كلّها.

بينما كان يتكلّم، فوجئت كولومب بنفسها تبحث ضمن الغطاء القاتم للغابة عن القرية حيث كانت تعيش باراغواتشو.

- «لكنْ مع ذلك». قالت مقاطعةً جوست في منتصف شروحاته: «فقد اشتقت إليك».

- يجب أن أعتقد العكس. لكُنتِ عُدتِ إلى هنا قبل ذلك.

كان ذلك اللّوم صادقاً، وكان قد أجاب بتلك الطّريقة لكي لا يبدو عليه أنّه يرغب في شيءٍ ما. لا شكّ في أنّه خاف كثيراً من أن يفقدها، لكنّه لمْ يشعر بألم الغياب بالقدْر نفسه. قالت لنفسها إنّه صار يفكّر مثل رجُلٍ.

- «لقد كذبت علينا المستشارة». قال لها بصوتٍ عميق: «والدنا قد مات، ودو غريف قد سرق كلامورغان».

قفزت كولومب:

- كنتُ متأكّدةً من ذلك! من قال لك هذا؟

-فيلوغانيون، لقد عرف أبانا في إيطاليا.

في الواقع كانت كولومب قد عوّدت نفسها على فكرة أنّها لن ترى والدهما أبداً. كانت تحتفظ في رأسها بقليلٍ من الذّكريات عنه، وتتألّم من ذلك الفقدان أقلّ من اليأس من القُدرة على معرفة من هُما بسبب ذلك، فقد ظلّ أصلهما، بلْ وقرابتهما سرّاً سيتحكّم بالمستقبل أكثر من تأثيره على الماضي. جعلتها تلك الفكرة تضطّرب، وعادت إلى التّفكير بالمستشارة.

- «يجب ألّا نتركها تحرمنا من كلّ شيءٍ». قالت بغضبٍ مسعورٍ: «يمكن في النّهاية أن نقاتل دو غريف. لدينا حقوقٌ. قد يستغرق ذلك عشر سنين ربما، لكنْ...».

توقّفت. كان جوست الصّامت قد هزّ كتفيه. سرحت بنظرها مثله إلى ما وراء الشّاطئ نحو الغرب الملطّخ ببقع ورديّةٍ. مع اقتراب الطّقس الماطر، صارت فترات الغروب على الخليج تفقد صفاءها الذي يشبه ذوبان الألوان في لوحةٍ مائيّةٍ، وبدأت تتّشح بالأخاديد والعُقد كما هو حال خشب الأشجار المثمرة.

صمتُ الخليج الذي تقطعه ضَحكات وأصوات الرّجال من جهة المرفأ كان يثقل القلب بطريقةٍ مؤلمةٍ. التفتت كولومب نحو جوست، وباعدت ذراعيه اللّذين حافظ عليها بلا حراكٍ، وعلى الحَرج الذي شعر به من جرّاء ذلك، فقد لاذَت بحضنه لكي تبكي.

الفصل 9

صارت الأمطار تهطل كلّ يومٍ عدّة ساعاتٍ مطراً حارّاً يرسل رذاذه مثل كلبٍ ينفض جلده من الماء. تلك الأمطار تترك العالم مذهولاً، ثمّ تمرُّ ساعاتٌ طويلةٌ بعدها من دون أن يحصل أيّ شيءٍ، في حين تجد الشّمس طريقها لاجتياز حاجز الغيوم، ومثل وصيف لا يريد أن يترك سيّده المحتضر، تجْهد لامتصاص أكبر سبخات الماء التي يخوض فيها سكّان الجزيرة.

فرض فيلوغانيون إقامة صلاةٍ يوميّةٍ بعد الفجر بقليلٍ أمام مركز القيادة. لمْ يكن ذلك قدّاساً، إنّما سلسلةٌ قصيرةٌ من الوعظات التي كان تيفيه يديرها من دون متعةٍ. كان الكوزموغراف يذهب إلى الصّلاة، وهو يدخّن عصاً من البيتون، فمنذ أن عرّفه التّراجم على هذه النّبتة، لمْ يعد يتوقّف عن استكشاف مزاياها الطّبّيّة. كان يشعر من جرّائها بمتعةٍ كبيرةٍ إلى درجةٍ لمْ يعُد معها يستطيع أن يمضي ساعةً واحدةً من دون أن يسحب منها عدّة نفخات. لكنْ على ملاءمة هذا العلاج لصحّته، فإنّه لمْ يشْفه من كآبته، ففيما عدا مجموعاته التي صارت الآن ضخمةً، وتحتوي على أشياء مثيرةٍ للفضول، كان الرّاهب يبدي نفوراً كبيراً جدّاً من كلّ ما له علاقة بمهامه الدّينيّة، فمرّةً كان يستيقظ في موعد الصّلاة، ومرّةً لا يفعل، ما يجبر فيلوغانيون على

أن يدير الشّعائر وحْده، ولكي يعطي تلك الصّلاة مزيداً من الفخامة، كان قد ضمّ إليه خدمات عازفٍ جوّالٍ أُجبر على العمل مثل البقيّة في قصّ الحجارة، مع أنّ لديه موهبةً رائعةً في النّفخ بآلة الساكوبوت. هذه الطّريقة في إعلان النّفير، بالإضافة إلى كونها تطلق في هواء الخليج السّاكن أصواتاً خارقةً وسماويّةً بامتياز، فإنّها كانت تحمل ميّزة إقناع أولئك الذين جعلتهم الصّلاة يغطّون في النّوم أنّه قد حان وقت الاستيقاظ.

كان فيلوغانيون شديد الفخر بتلك المؤسّسة الجديدة التي تذكّر كلّ شخصٍ منذ الفجر بواجباته تُجاه الرّبّ. كان ينظر بعد ذلك بحنانٍ إلى فرقته من العاملين في المصاطب، وهُم يصعدون نحو أسوار حِصن كوليني، التي كانت ما تزال في طور التّشكُّل. قلائل هُم الذين أُعْفوا رسميّاً من هذه العبوديّة؛ فالجنود كانوا يشاركون فيها كمراقبين، وفي بعض الأحيان يعملون فعليّاً؛ أمّا العبيد الحقيقيّون من الهنود، وعددهم يقارب الخمسين، فكانوا قد أظهروا عدم قدرتهم على المبادرة، ولمْ يشكّلوا سوى إضافةٍ تُستدعى في حالة الأعمال الأكثر صعوبةً. ما كان فيلوغانيون يتحمّل أن يُعفى أيُّ شخصٍ من أعمال البناء عدا الحرفيّين الذين لا يمكن الاستغناء عنهم: (طبّاخين، ولحّامين، وخيّاطٍ، وحلّاقٍ، وخبّازيْن)، وكلّما ارتفع الحِصن تبيّن طموح هذا المشروع، بلْ ولا عقلانيّته، نظراً إلى عدم وجود أدواتٍ جيّدةٍ لدى اليد العاملة التي كان عليها أن تؤمّن بناءه.

الجدران الاستناديّة الرّمليّة التي تقع في الجهة الشّرقيّة من الجزيرة ارتخى قوامها بفعل المطر، وصارت كقطع عجينٍ مائلةٍ وسيّئة الصُّنع يمكن الاختباء بينها. في هذا الموضع كان يتوارى فيتوريو بمجرّد أن تنتهي الصّلاة، أملاً في أن يفلت من أعمال السُّخرة. أولئك الذين يبحثون عنها كانوا يعرفون أنّهم سيجدونه هناك جالساً على حجرٍ يعدُّ قطع العملة

الذّهبيّة، أو يسنّ مدْيته، ولذلك لمْ يتفاجأ في ذلك الصّباح حين رأى إيجيديو يظهر من بين المنصّات.

- مرحباً يا رفيق.

- مرحباً.

- الغراب يريد أنْ يراك فوراً.

كانت أوامر التُّرجمان تعادل أوامر فيلوغانيون على الجزيرة، لا بلْ إنّها أكثر فعاليةً ومسموعةً؛ لأنّه كان يعرف كيف يحرّك شعور المتعة والخوف معاً، في الوقت الذي كان الأميرال فيه يجهد بلا جدوى في العزف على الأوتار المتراخية للواجب والمُثل العُليا.

نهضا وسارا بمحاذاة الشّاطئ حتّى مرفأ الزّوارق. أشار فيتوريو بيده، فترك مجذّفان في مناوبة الماء مكانهما. امتلأ الفينيسي بالفخر ولو لمْ يُظهر ذلك، لكنْ لا شكّ في أنّ مشكلة هذا النّجاح أنّه يجعل منه شخصيّةً مهمّةً في مكانٍ لا وجود له على الخريطة. مع ذلك، كان يستمتع بأن يثير الخشية، وأن يستطيع تقديم المكافأة، فهو في نهاية الأمر الرّجُل الذي يؤجّر النّساء ويتمتّع، للمفارقة، بحرّيةٍ تتأتّى من أسيراتٍ.

بعد وصول أبناء فينيسيا الاثنين إلى اليابسة، صعدا إلى القرية الهنديّة التي ذهب إليها فيلوغانيون في اليوم الأوّل. سلكا درباً في الغابة يلتفّ حول القرية، ويوصل إلى كوخٍ صغيرٍ منعزلٍ يستعمله الغراب كعرينٍ له. كانت هناك أسلحةٌ معلّقةٌ بالدّعامة الخشبيّة التي تحمل الكوخ، وبعض الهنديّات تجلسنَ القرفصاء في زاويةٍ، وقد قُيّدت أقدامهنّ بالسّلاسل، في حين كنّ ينظرنَ برُعبٍ إلى القادمين. كان هناك صبيٌّ أنفه أفطس يتأرجح نائماً في أرجوحة النّوم، في حين راح الغراب يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. عندما اقترب فيتوريو، تعرّف إلى مارتان الذي كان قد اختفى من الجزيرة في الفترة التي اختفت فيها كولومب تقريباً.

- «لا يمكن أنْ يدوم هذا!». صرخ الغراب، وهو يرى الفرقة قد اكتملت بمجيء الإيطاليّين.

أشار إليهما أن يجلسا على جذعين من خشب البرازيل.

- «هل رأيتما إعلان فيلوغانيون؟». سألهما الغراب.

- «نعم». أجاب فيتوريو باحترامٍ: «إنّه يريد من الرّجال البيض في الجزيرة في حال وطؤوا الهنديّات أن يتزوجوهنّ. إنّه مجنونٌ».

- «في الواقع «. أكّد التّرجمان: «لكنْ هذا لا شيء؛ لأنّه يمكن أن نتوقّع ذلك. الخبر الحقيقيّ أكثر غرابةً، ويبدو أنّكما ما زلتما تجهلانه».

قام الغراب بجولةٍ في المكان، وهو يضرب بكعب حذائه على الأرض الموحلة.

- هذا المجنون يريد منّي أنا نفسي أن أتزوّج.

بعد أن انتهى الذُّهول الذي أصابهما، أطلق الرّجُلان القذران ضحكةً شرّيرةً تخلّلتها نوباتُ سُعالٍ.

أكمل التُّرجمان، وقد قرّر أن يذهب بشحنة التّهريج إلى الحدّ الأقصى وقال:

- نائب أميرال بروتانيا، حاكم فرنسا الأنتاركتيكية استدعاني. تصوّروا ما الذي أعلنه لي: أيُّها السّيّد الغراب، لماذا لا تعرّفني بزوجِك؟

كان أسلوبه الحربيّ الأنيق، وصوته القاسي والمتلوّن، قد جعل تقليده التّهكُّميّ لفيلوغانيون جيّداً.

- «زوجي!». صرخ الغرابُ ببراءةٍ، وهو يقلّد نفسه.

كانت ريشات صدريّته كلّها قد انتصبت خلال هذه القفزة. أمسك بقبّعة جلد البقر بيده مثل فلّاحٍ يشعر بالخجل أمام صاحب أملاكه.

- «لكنْ يا سيّدي»، قلت له: «أيّة واحدةٍ منهنّ؟».

تضاعفت الضّحكات، لكنّ الغراب وضع حدّاً لها بجدّيّة قسمات وجهه:

- عندها أمسكني من ياقتي، هل تسمعون. هذا المجنون أمسك بي، أنا، من ياقتي وهدّدني أنا قائلاً: أيُّها السّيّد الغراب آمرك أن تأتي بزوجكَ إلى هنا، أيّاً كانت، وأيّاً كان العرق الذي تنتمي إليه، شرط أن تكون واحدةً وحيدةً، وفي عمرٍ يسمح بالزّواج، وأن تقدّم لي الإثباتات أنّكما قد ارتبطتما ببعضكما أمام الله. إنْ لم تكن لديك واحدةٌ، وهو ما أستطيع فهمه، فإنّ الأب تيفيه الحاضر هنا - كان اللّعين يجلس إلى جانبه يدخّن جذع شجرةٍ- سوف يقوم بمراسم تزويجك بالطّريقة الملائمة.

- «وإنْ لمْ تقبل؟». قال له فيتوريو مستنكراً.

- « إنْ رفضتَ يا سيّد غراب، وعَدّاً من قرارك هذا، لنْ يكون هناك داعٍ إلى أنْ تأتي إلى هذه الجزيرة أبداً، ولا أنْ ترسل إليها أحداً من أصدقائك؛ إنّنا نستغني عن خدماتك».

- الحقير! نستغني عن خدماتك!

- «لقد فقد عقله». قال إيجيدو معلّقاً.

- «مُؤكّدٌ أنّه لمْ يستوعب». أكّد فيتوريو من جانبه، ثمّ سأل: «ماذا ستفعل؟».

كان الغراب واقفاً في أرض الباحة القرمزيّة، وقد قال بطلاوةٍ، وهو يدلّ على واحدةٍ مذعورةٍ من أسيراته:

- سآخذ واحدةً من هؤلاء الآنسات. سنخيط لها فستاناً جميلاً أبيضَ له ذيل، وسأمرّ أمام القسّيس، وأعطي وعداً ألّا أحبّ غيرها طيلة حياتي.

- «أجادٌّ أنت؟». تجرّأ إيجيديو على القول، وقد تأثّر قليلاً من تلك الفكرة.

فتح الغراب عينيه مثل فوّهتين ظهر منهما المنجنيق.

- يا غبي!

استلّ التّرجمان سيفه المنحوت من قطعة خشبٍ مدبّبةٍ، الذي لمْ يكن أقلّ خطراً من سيفٍ معدنيٍّ، وبدأ يقوم بحركاتٍ دائريّةٍ خطيرةٍ به.

- سوف أخنقه، فيلوغانيون هذا، هو وفرقته كلّها. هذا ما سأفعله! بدءاً من الغد، سنتوقّف عن تقديم أيّ شيءٍ لهذه الجزيرة. لا الطّحين، ولا السّمك، ولا لحم الطّرائد. لا شيء. سنسكب كيسين من مسحوق الحنّة الهنديّة في الماء الذين يأتون لسَحبه، وعندما يفهمون أنّ هذا الماء مسمومٌ، لن يعودوا إلى هنا مجدّداً، ولنْ يمرّ خمسة عشر يوماً حتّى نرى هذا الأميرال الكلب آتياً ليطلب المغفرة والرّحمة، وعندها سأقوم أنا، الغراب، في ذلك اليوم، بتزويجه على طريقتي.

أثارت هذه الجُملة الطّويلة حماسة الرّجُلين من أعوانه. لمْ يشكّا في أنّهما سيحصلان على كلّ ما يمكن لفيلوغانيون والمستعمرين أن يقدّموه: فقد كانت مخازن البواخر فارغةً، وما اقتصده المهاجرون قد نفدَ تقريباً من شراء الكهوان والنّساء، لكنْ بقيت حقيبة الأميرال الصَّغيرة الغامضة التي لمْ يكن يرغب بمسّها، وكانت فكرة أن يقوما ولو لمرّةٍ أخيرةٍ بإظهار قوّتهما قد أغرتهما.

- «ما تقوله جيّدٌ». قال صوتٌ أتى من الأرجوحة: «لكنْ يبدو لي أنّك تخطئ إذْ تتصرّف بهذه الطّريقة».

أبعد مارتان ببطءٍ الملاءات عنه ليخرج. نظر إليه الآخرون بدهشةٍ؛ لأنّهما كانا قد نسياه نوعاً ما.

- «اشرح رأيك». قال له الغراب وهو يتجشأ.

- «حسنٌ». بدأ مارتان بالكلام، وهو يقف بصعوبةٍ: «تعلم أنّي أتيت من المراكز النّورمانديّة الواقعة على الضّفّة الأُخرى».

- نعم، وإنّني لأتساءل لماذا لم تبقَ هناك. كنت أعتقد أنّ لديك النّيّة للعودة إلى فرنسا.

- ما زالت لديّ في الواقع. ما تخلّيت عنه، هو الرّغبة في أن أبقى فقيراً.

- افرح إذاً. عندما يُجبر الأميرال على إعطائنا كلّ ما كسبه، ستكون لك حصّتك.

- لا أعتقد.

- «هل تشكّك في كلامي؟». صرخ الغراب.

- لا. إنّما أشكّك بطريقتك. أعتقد جيّداً أنّك ستعطيني حصّتي، لكنّها ستكون حصّةً من لا شيء؛ لأنّ فيلوغانيون لن يعطينا أيَّ شيءٍ، إلّا في حال ذهبنا لقطع رقبته.

- هل تعتقد أنّني لا أملك الوسائل لجعله يختنق؟

- «أيها الغراب العزيز». قال مارتان، وهو يوشّح صوته بسُخريةٍ ظاهرةٍ: «أنت الرّجُل الأكثر قوّةً على هذه الضّفّة من الخليج. هذا مفهومٌ، لكنْ هناك فرنسيّون آخرون على الضّفّة الأُخرى، وهُم ليسوا جميعاً من أصدقائك. إنْ طلب فيلوغانيون النّجدة منهم، لن يرفضوا».

- آه، آه. أنت تظنّ بلا شكٍّ أنّه سيجتاز الخليج للبحث عن الماء.

- إنّه موسم الأمطار، ولا شكّ في أنّه قد أنهى بناء الخزّانات.

أكدّ فيتوريو تلك الفكرة مُرغماً. كان الغراب قد تزعزع.

- وما الذي كنت ستفعله، أنت؟

- كنت سأهاجم.

- «ستّمئة شخصٍ من بينهم فرقةٌ من الفرسان الجاهزين للحرب؟». قال الغراب بلهجةٍ هازئةٍ.

قفز مارتان بدوره على الحلبة الملوّنة بلون الدّم داخل الباحة.

- اسمع يا غراب، أنت كنتَ شحّاذاً، وأنا أيضاً، لكنّك على ما يبدو قد نسيت مبادئ المهنة. الخصْم دائماً أقوى، لكن أسلحتنا هي المباغتة، والسُّرعة، والخدعة.

استطاع الصّبيُّ بكتلة جسده القويّة، وقبضاته الضّخمة، أن يجسّد هذه الفضائل على نحوٍ طبيعيٍّ، لكثرة ما كان لمّاحاً وحيويّاً يفيض بذكاءٍ شرّيرٍ.

- أمامنا ثمانية أيّامٍ لكي نتصرّف.

- «بسبب زواجي؟». قال الغراب مقهقهاً.

- لا، بسبب الباخرة.

- أيّة باخرة؟

- (لا غراند روبيرج). إنّها ممتلئةٌ بخشب البرازيل، وقد انتهوا من وضع أقفاص الببّغاوات، والقرود طويلة الذّيل، وخلال ثمانية أيّامٍ سوف تبحر. لماذا نتركها تفلت؟ إنْ أردنا أن ننهي المسألة يجب أن نأخذ كلَّ شيءٍ.

بقي الغراب لحظةً صامتاً، ثمَّ مدّ يده، وشدّ على كتف مارتان على نحوٍ أخويٍّ قائلاً:

- انظر إلى ثيابك كم هي قميئة! إنّها تصلح للرّكض في الأدغال، لكنّني أظنّ أنّك فيما لو ارتديتَ واحدةً من صدريّاتي، ستكون جديراً بأن تصبح شريكي.

عادا للدُّخول إلى البيت من أجل إتمام مسألة الأناقة، ولكي يتحدّثا.

أمضى فيتوريو وايجيديو يومين وهُما ينتقلان من مجموعةٍ إلى أُخرى من أجل إتمام الحسابات. في كلّ مكانٍ، كانت هناك تأوّهات.

- حقّاً؟ أدين لك بهذا المبلغ كلّه؟ ألا تستطيع أن تقرضني أكثر؟

كان الفينيسيّان يجيبان مع تنهيدةٍ:

- آهٍ يا صديقي، يؤسفنا ذلك مثلك تماماً، لكنْ يجب عليك أن تتوجّه إلى فيلاوغانيون. هو، لا نحن، من أمر بالنّداء معلناً منع الكهوان والنّساء.

كان الذين تعلّقوا بتلك المتع يقترحون أن يدفعوا أكثر، لكنّ الجواب كان دائماً هو نفسه:

- إذا كنت مُصرّاً على أن تُشنق، فأنت حُرٌّ، لكنّنا نفضّل ألّا نتحرّش كثيراً بهذا العنيد؛ لأنّه قادرٌ على فعل ما يقول، ولقد توعّد من لا يطيع الأمر بحبل المشنقة.

وهكذا، كانت تنطلق زمجراتٌ معاديةٌ تلعن الأميرال في أوساط البحّارة، والحرفيّين، وطريدي العدالة، وحتّى الجنود الذين كانوا من زبائن الغراب الذي يحقّق لهم المتعة. اتّخذ فيتوريو تُجاه ذلك سحنةً متواضعةً، لا بلْ كان في بعض الأحيان يمنح نفسه شرف لفظ بعض كلمات التّعاطف مع فيلوغانيون المسكين، وعندها، كانت تنهال كلمات الكراهية التي تبيّن أنّ الفارس لن يجد في حالة الخطر عدداً كبيراً من النّاس للدّفاع عنه.

وفي نهاية الأمر، كان الجميع يدفعون. كان المهاجرون كلهّم يملكون مدّخراتٍ قليلةً يضعونها جانباً، أو يخفونها في حُفرٍ، لكنْ كان يجب على كلٍّ منهم ألّا يترك كنزه فترةً طويلةً من دون مراقبةٍ في هذه الجزيرة التي يُحفرُ فيها دائماً ضمن ورشات العمل، بالإضافة إلى ذلك، كان من الصّعب القيام بالحَفر من دون أن يلحظ الآخرون ذلك، ما جعل من إخفاء هذه القطع نشاطاً شبه دائمٍ.

فيتوريو وإيجيدو كانا يجمعان حصصهما في كيسٍ من القماش معلّقٍ بالرّقبة كما لو كان إناءً كئيباً لجمع الدُّموع. في حال وجدا من لا يستطيع الدّفع نقداً، كانا يلزمانه بسداد ديونه عينيّاً حسب المهنة، كأنْ يُكلّف الحرفيّون بمهامٍ تتلاءم مع ما يعرفون فعله، وهكذا عدا أنَّ صانع القبّعات سدّد دَينه مقابل تقديم أربعة أذْرعٍ من المخمل كان الفينيسيّان قد اكتشفاها لديه.

في كلّ مرّةٍ، كانا يجدان مناسبةً لغرس مزيدٍ من السُّمّ في نفوس هؤلاء المساكين، فإذا ما لمحا أحد الحرفيّين يضرب الصَّخر كانا يلمّحان له قائلين:

- هل من المعقول استخدام رجُلٍ ماهرٍ مثلك في تكسير الحجارة؟ يا للعار! لولا أنّ هذه الجزيرة محكومةٌ بالمقلوب، لكنتَ وصلت إلى الرّخاء من زمنٍ بعيدٍ، ولَكان أولئك الذين يعيشون على اليابسة جعلوك غنيّاً.

السّاحل الذي تراجعت إليه آمالهم بالنّساء والكهوان صار يحتلّ المنزلة الكبرى في عقولهم، إلى درجة أنّ فكرة الدّفاع عن الجزيرة صارت موضع إهمالٍ، بلْ عبئاً أيضاً.

كان فيتوريو يعمل جاهداً لتحقيق ذلك، وعندما كانا ينتقلان من مَدينٍ إلى آخر كان يقول لزميله:

- لا بُدَّ من الاعتراف أنّنا نقوم بعملٍ رائعٍ.

كانا قد انتهيا تقريباً، وبقيت عندهما في القائمة بعض الحالات المعزولة التي كان لا بدَّ من معالجة كلّ واحدةٍ منها على حِدة.

- «هيه يا كانتان». صرخ فيتوريو عندما رأى إحدى هذه الحالات يمرُّ بقربه.

- «بمَ أستطيع مساعدتكما، يا إخوتي في المسيحيّة؟». أجاب الرّجُل

القصير العابس الذي كان لا يحبُّ أن يلتقي بشخصٍ مقيتٍ، ولذا كان يذكّر نفسه أنّ الرّجال كلّهم إخوةٌ مع كلّ شيء.

تطلّع فيتوريو إلى قائمته، وساعده إيجيديو بأفضل ما يمكن، على أنّه لمْ يكن يعرف القراءة.

- «كانتان!». صرخ الرّجُل صاحب اللّحية: «هاك. ما من كاهوان بالنّسبة إليك، لكنّك طلبت أربع نسوةٍ ثلاث مرّاتٍ في الأسبوع».

ابتسم فيتوريو ابتسامة خادمٍ مداهنٍ، ورسم على وجهه تعبيراً حنوناً.

- «ممتاز». قال باقتضابٍ.

تصلّب جسم كانتان الذي كان قد ازداد هزالاً أكثر من أيّ وقتٍ مضى، لكنْ لمْ يهتزّ له هدبٌ.

- «لدينا هنا ستُّ أوقيّاتٍ، رطلٌ، وديناران»، أعلن إيجيديو الذي كانت إمكاناته في الحساب أفضل.

أجاب كانتان باحتقارٍ، وقد بدا عليه أنّه يريد متابعة طريقه:

- لا أعرف عمّ تتكلّم.

لكنّ الرّجُلين سدّا عليه الطّريق قصداً، وجابهاه عن قُربٍ قائلين:

- «النُّقود». أمره فيتوريو، وهو يهزّ الكيس.

- «النّساء؟». أجاب كانتان بكبرياءٍ: «كنت بصَدد إدخالهنّ في الدّين المسيحيّ».

- «إذا أردت يمكن أن تعدّها نقود زكاة». قال فيتوريو جاعلاً رفيقه ينطّ من الفرح.

- ألمْ تسمعا أحداً يتكلّم عن مجّانيّة الخلاص؟

- لا شيء مجّانيٌّ عندنا. نحن نقدّم لك النّساء، وأنت تدفع. هذا كلُّ

شيءٍ. الصَّدقة أمرٌ منظّم، وإنْ أردت يمكن أن نذكر لك بعض الجُمل التي تؤكّد ذلك.

قال كانتان وهو يتّخذ هيئة من يستمدّ الرّوحانيّة من السَّماء رافعاً نظره إليها:

- آه. كنت شبه متأكّدٍ من أنّ أولئك النّسوة المسكينات قدْ مررْن بتجاربَ صعبةٍ، لكنْ عُرِّفْنَ الآنَ بالإنجيل. أنا الوحيد. هل تسمعني، الوحيد هنا الذي يهتمُّ بإعلان الأخبار الطّيّبة للسُّكان الأصليّين. حتّى هذا الرّاهب لمْ يكلّف نفسه عناء أن يجعلهنّ يخضعن لمهازله، وهو يقرأ القدّاس.

نفد صبر الـفينيسيّين، لكنْ بما أنّ كانتان كان يفتّش في جيوبه، فقد انتظرا أن يخرج منها بعض النُّقود.

- أنا الذي أثَرت انفعال النّساء الأربع، وجعلت الدُّموع تنفر من عيونهنّ عندما عرّفتهنّ إلى آلام سيّدنا المسيح. منهجي يتلخّص بكلمتين: الله محبّة. هذه الحقيقة اخترقتهنّ من الجهات جميعها.

- «هه، هه». قال إيجيدو ساخراً.

- «كفى». زمجر كانتان مثل كلبٍ يعوي. لا يمكن أن تستمرّ أفكاركما البذيئة في تدنيس كلّ شيءٍ هكذا.

وبحركةٍ نهائيّةٍ، كما لو كان يسدل السّتارة على مأساةٍ، سحب من جيبه ما كان يبحث عنه: منديلاً كبيراً فيه رسوم مربّعاتٍ.

وصل فيتوريو إلى قمّة الغضب، فهجم على كانتان، ووضع بجلافةٍ مديةً على عنقه.

- النُّقود، فوراً.

- «سوف أشتكي إلى الحاكم». قال كانتان بغضبٍ.

- النُّقود، أقول لك.

- لن يحتمل فيلوغانيون هذا الابتزاز.

- «اترك فيلوغانيون في حاله. لمْ يعد أمامه وقتٌ طويلٌ». قال إيجيدو، وهو غاضبٌ.

عندما يشعر إيجيديو بالغضب، يصل صوته الرّفيع والأجشّ إلى البعيد. كان هناك عددٌ من الجنود يمرّون من هناك في طريقهم في اتّجاه الحصن الجنوبيّ، التفت أحدهم، فخبّأ فيتوريو المدية. تابع إيجيديو وعلى وجهه سحنة الغضب:

- أمهلك حتّى الغد وقت العشاء.

- «ستّة أوقيّاتٍ، ورطلٌ، وديناران». ردّد إيجيديو على مسمع كانتان مذكّراً إيّاه.

- وإلّا...

قام فيتوريو بحركة من يذبح خَروفاً، ومع هذه الحركة ابتعدا عن المكان. ظلَّ كانتان بلا حراكٍ يفكّر برهةً، ثمَّ ركض خلفهما، وهو يصرخ:

- إنْ رأيتما الفتيات قبْلي، قولا لهنّ أن ترجعن كلهنّ إلى هنا بسرعةٍ، وأنّني أحبّهنّ.

مشى الفينيسيّان بخطواتٍ سريعةٍ ليتخلّصا منه.

*

ضاعفت العواصف من التّهديدات التي كان يبدو أنّها تهيمن على الخليج، وقد جعلت ظلالها جبل خبز السُّكّر يبدو كشيءٍ أسْود متجلّدٍ. الغابة التي كانت تلتمع من الماء اكتسبت تدرُّجات الزُّجاج المسحوق كلّها، في حين بدا البحر الذي طغى عليه لون حجر الأماتيست البنفسجي مثل صفيحةٍ ثابتةٍ من معدنٍ كريمٍ لا يظلّ على حاله طويلاً.

راح فيلوغانيون يذْرع المكان في مقرّ القيادة، وهو يراقب الماء الذي يرشح عبر سقف سَعف النَّخيل، ليقوم بتغيير مكان الكتب حسْب ظهور المزاريب. منذ أن بدأ صراع القوى مع المترجمين راح يهيمن على الجزيرة صمتٌ مقلقٌ. تراخى إيقاع العمل خلال النّهار، ولمْ تعد تُسمع على الإطلاق ضجّة الهَراوات، أو المعاول، في حين راحت الأحاديث تدور بصوتٍ خفيضٍ. توقّف كذلك ذهاب وإياب الزّوارق، وفي الّليل لمْ يعد يخرج من المخيّمات أيُّ صوتٍ مرتفعٍ. حتّى الرَّعد الذي كان رجْع صداه يتردّد على المرتفعات، لمْ يكن يقطع الصَّمت، إنّما يؤكّد عليه. كان بتدحرجه القادم من عرض البحر يعلن عن المجيء الأكيد لصاعقةٍ لا يعرف أحدٌ إن كانت ستنزل من السّماء أم تصعد من الأرض.

كان فيلوغانيون قد تخلّى في تلك الفترة عن دروس المبارزة التي كان يعطيها لجوست؛ لأنّ الأمطار الغزيرة كانت تجبرهما على التّوقُّف، وبسبب قلقه على كتبه، ما كان يرغب بإخراجها من القاعة، حيث يستطيع أن يراقبها، بالتّالي كان يُسمح لجوست وكولومب أن يقرآ هذه الكتب حيث هي. حضورهما الصّامت والمنتبه كان يهدّئ من روع الأميرال الذي كان يذْرع الغرفة جيئةً وذهاباً، وهو يراقب الأفق.

كانت قد بقيت أربعة أيّامٍ على المهلة الأخيرة التي أُعطيت للمترجمين حين قام شخصٌ قصير القامة، غريب المظهر بإيقاف جوست في أثناء صعوده الحِصن بعد الظّهر ليراقب الورشة. كان الرّجُل يستند إلى رفشه، وقد بدا عليه أنّه لمْ يستعمله قَطُّ منذ الصّباح. كلّ ما حوله كان من الطّين المبلول، والحجارة المتناثرة؛ أي: الأشياء المعتادة في الحِصن منذ أن بدأت الأمطار تلعب دورها.

- «يا سيّد كلامورغان». نادى بنعومةٍ عامل المصطبة في حين كان جوست يمرّ بقربه.

- نعم.

- هل أستطيع أن أطلب منك المساعدة؟

لمْ تكن اللّهجة تحمل تملُّقاً، لكنّها كانت تجاريّةً، مثل لهجة الباعة في المحالّ الكُبرى.

- ها هي القصّة: أنا أعمل في صنع القبّعات.

- عملٌ مشرّفٌ.

- شكراً، ولو أنّي كما ترى...

رفع ذراعيه، وأظهر أسماله البالية، وسيقانه العارية الموحلة.

- لقد قُمتُ في ساعات الفراغ بصُنع أربع قبّعاتٍ من المخمل. من كلّفوني بصنعها أمروني أن أتوجّه إليك لتسليمها إليهم.

- وأين هُم؟

- على اليابسة.

كانت تلك ساعةً استثنائيّةً عادت فيها الشّمس التي طردت الغيوم لتتفحّص الخليج مثل متنزّهٍ يعود إلى بيته برهةً بحثاً عن غرضٍ كان نَسيه. كان الضّباب يتصاعد من منطقة الشّلّالات حيث توجد الخزّانات المهيّأة لتمتلئ بالماء، وكان صفير الببّغاوات يخمش الصَّمت. سأله جوست:

- عمّن تتكلّم؟

- لا أعرفهم. إنّه تكليفٌ.

كان من الواضح أنَّ الرّجُل لمْ يكن يعرف كلّ شيءٍ. أيُّ فخٍّ يمكن أن يختفي وراء هذا العرض؟ أن يذهب بمفرده إلى الشّاطئ يعني أن يعرّض نفسه للعُنف، لكنْ ألّا يذهب يعني أن يفوّت فرصة مفاوضاتٍ ممكنةٍ. ما كان فيلوغانيون ليقبل بهذا العرض، لكنْ ربّما كان هذا هو السّبب الذي جعلهم يتوجّهون إليه هو.

كانت هناك نقطة مراقبةٍ لمنع الزّوارق من الذّهاب إلى اليابسة والعودة منها بلا سببٍ، ومن دون أيّة مرافقةٍ من الجنود.

- «هذه اللّيلة». قال صانع القبّعات: «عند بزوغ القمر، سيأتي مركبٌ للسُّكّان الأصليّين عبر الرَّصيف البحريّ، وصولاً إلى مقابل الحصن الغربيّ، وسيحملك إلى هناك».

*

الزورق المصنوع من شجرةٍ طويلةٍ جُوِّفتْ حَرقاً بالنّار كان يستطيع أن يحمل عشرة أشخاصٍ. جلس جوست في الوسط بسهولةٍ، مع العتمة؛ لأنّه عندما سلك طريق الرَّصيف البحريّ استطاع الوصول إلى مستوى المركب تقريباً. كان المجذّفون من الرّجال والنّساء عُراةً تماماً، من دون أن يبدو عليهم أيُّ ضيقٍ من برودة اللّيل الرّطبة. جهة الغرب كانت العاصفة تشقُّ الأفق بخطوطٍ متتاليةٍ.

راح جوست يفكّر بفيلوغانيون الذي قال أمامه إنّه ذاهبٌ في نزهةٍ إلى الشّاطئ؛ أمّا كولومب فقد أبدت ممانعة أكبر؛ لأنّها أحسّت بوجود شيءٍ ما غير طبيعيٍّ، وعندما اعترف لها بما يريد فعله، وجد صعوبةً كبيرةً في إقناعها ألّا ترافقه.

كان ظلُّ القمر مغلّفاً بغلالةٍ لوّنت الماء بطبقةٍ رقيقةٍ رماديّةٍ، بدا كأنَّ رذاذ المجاذيف يريد تبديدها. لمْ يكن جوست قد خرج من الجزيرة منذ ذلك اليوم الأوّل حين قاموا بزيارة القرية الهنديّة. كان يعرف كلّ تفاصيل الورشات، والمخطّطات المستقبليّة لفرنسا الأنتاركتيكية، وحتّى المشاريع الأكثر جرأةً عن مدنٍ وممالكَ كانت تداعب مخيّلة الفارس. داخل هذا الجذْع المجوَّف، وفي تلك العُزلة الرّائعة لخليجٍ يحيط به متوحّشون صامتون وعُراة كما في الأزمنة البدائيّة، فَهم جوست أبْعاد رغبة فيلوغانيون.

كان حلمه بفرنسا المستقبليّة يتجاوز قُدرة البشر، وخارقاً إلى درجةٍ يمكن معها عَدّهُ حُلماً مجنوناً، أو رائعاً. كان فيلوغانيون بأدواته الحربيّة يصارع الكتلة الصَّمّاء لتلك الطّبيعة الجلفة بحماسة الفنّان الذي يقف قُبالة رخام المقالع، راغباً في أن يستخرج منه تمثالاً لعذراء منتحبةٍ. كثيراً ما كان فيلوغانيون يستعمل هذه المقارنة أمام جوست في أحاديثهما الطّويلة عن إيطاليا، وعن الفنّ، وعن حركة الأفكار التي قلبت رأساً على عقبٍ غلظة الأخطاء القوطيّة القديمة، لكنّها المرّة الأولى التي فهم جوست معناها تماماً.

كان الزّورق ينزلق بسرعةٍ كبيرةٍ إلى درجة أنّهم ما لبثوا أنْ سمعوا بعد وقتٍ قصيرٍ للغاية في صمت اللّيل حفيفَ عجلاته على الشّاطئ. قفز جوست في الماء، ووصل إلى الضّفّة. تناهى إليه صفيرٌ من ظلال الأشجار. مشى في ذلك الاتّجاه، وفجأةً شعر بيدٍ عريضةٍ تمسك بيده. كان جوست قد وضع خنجراً في حزامه فتصلّبت أصابعه على قبضته.

- هدوء! ليس لديك ما تخشاه.

تعرّف جوست إلى صوت مارتان اليافع الأجشّ. مشى في أثره حتّى وصلا إلى مخيّمٍ ضيّقٍ. كان عبارةً عن كوخٍ صغيرٍ فيه قنديلٌ من الزّيت يضفي لونه الأصفر على المدخل. جلسا على قطعٍ كبيرةٍ من الأشجار. عرض عليه مارتان شراب الكهوان، أو شراب الفاكهة، وذهب ليغرف هو بنفسه في جرّةٍ من الطّين قصعتين من شرابٍ فاتحٍ فاحت منه رائحة الأناناس.

- «كنّا نعتقد أنّك قد متّ». قال له جوست الذي على الرغم من سروره برؤية مارتان من جديدٍ، شعر بشيءٍ من الحَرج في وجوده.

- يدفنوني بسرعةٍ دائماً...

- ذلك بسبب الجنود الذين قتلوا في الجهة الثّانية.

- نعم، لقد عرفت ذلك، لكنْ أيّة فكرةٍ سيّئةٍ أن يُبحث عن هؤلاء الأناباتيست الأجْلاف؟ أمّا نحن، فقد كنّا حكيمين بالذّهاب إلى المحطّات التّجاريّة التي يملكها النّورمنديّون، وجنودي الشُّجعان ما زالوا حتّى السّاعة يعيشون فيها مرتاحين.

- لماذا عُدتَ إذاً؟

صمت مارتان لبرهةٍ كانت كافيةً بالنّسبة إليه ليختار، وليكذب.

- هل تظنُّ أنّي كان يمكن أن أتخلّى عن أصدقائي؟

- أيُّ أصدقاء؟

ضرب مارتان ركبتيه براحتيه العريضتين:

- أيُّ أصدقاء؟ اسمعوه بربّكم! هذا هو جزاؤنا. لقد اجتزت هذه الغابة الملعونة كلّها من أجل أن آتي للبحث عنك، وتقول لي: أيّ أصدقاء؟

- هل عُدت من أجل ذلك؟

كان جوست يشعر في قرارة نفسه بشيءٍ من الحذر من مارتان، لكنّ رغبته في أن يؤمن بالطّيبة البشريّة كانت قويّةً إلى درجةٍ لمْ يرد معها أن يضيّع أدنى فرصةٍ في الحصول على ما يؤكّد ذلك. خفض مارتان عينيه لأنّه كان لا يهتمُّ بالانتصارات السَّهلة، خاصّةً عندما تؤدّي إلى قتل الفضيلة.

- أين أخوك؟

- في الجزيرة.

- أحسن. هل تظنُّ أنّه قادرٌ على أن يلحق بك هذه اللّيلة إذا ما أرسلت الزّورق إلى هناك؟

- يلحق بي؟ إلى أين؟

- ألا تشعر بالرّغبة في أن ترى فرنسا من جديد؟ صرت أعرف طريق المنشآت الآن. يمكنكما أن تصبحا حُرَّين.

خلال وهلةٍ، رأى جوست كلامورغان، والنّورماندي، ثمّ حدائق فرنسا كلّها، وسهول إيطاليا، وساحلها المزروع بأشجار الصّنوبر الممتدّة كمظلّةٍ، وبشجر الزّيتون.

- «هيّا، أجبني». استعجله مارتان: «يجب أن نرحل اليوم مساءً، أو غداً في أقصى الأحوال. لقد ساومت على أسعار أماكننا في سفينةٍ سترحل خلال عشرة أيّام، ويلزمنا ثمانية أيّام لنصل إليها».

ارتعد جوست وهو يسمع تلك الكلمات، وفهم فجأةً ما الذي كان يزعجه. لمْ يكن قد تخلّى عن فكرة العودة إلى فرنسا، لكنّه لمْ يكن يريد أن يأخذ هذا الرّحيل شكل التّخلّي. كان يشعر بأنّ ثقته بفيلوغانيون تكفي لجعله يطلب إليه مباشرةً الإذن بالسَّفر على ظهر إحدى السُّفن العائدة إلى فرنسا، وإن رغبت كولومب، يمكن أن يكون ذلك على ظهر الباخرة التّالية التي كانت جاهزةً، وتكاد تقلع؛ أمّا الخيانة، فهذا ما لمْ يكن يريده. قال لمارتان:

- إنّنا نفضّل أن نبقى هنا.

صدرت عن وجه مارتان حركةٌ عصبيّةٌ. كانت تتنازعة الرّغبة في أن يمسك ابن الحرام هذا من ياقته، وأن يزيل بقبضة يديه ملامحه المترفّعة وأفكاره الفارغة تلك. ألحّت عليه الرّغبة في أن يقول له دفعةً واحدةً إنّه لا يملك الخيار، وإنّه إنْ رفض الهرب....

- «لديك حتّى مساء الغد لتفكّر». قال بنوعٍ من الغضب: «وإذا غيّرت رأيك، خذ فانوساً، وارسم بضوئه جهة الغرب إشاراتٍ ثلاث».

- ألن تأتي إلى الجزيرة لكي تقدّم نفسك لفيلوغانيون؟

شعر مارتان بالتّأثّر من سذاجة هذا السُّؤال، فرفع كتفيه، وشدّ على يدي جوست، ورافقه حتّى طرف الشّاطئ. في أثناء عودته إلى الكوخ وجد الغراب الذي كان قد خرج من العتمة.

- «هذا مؤسفٌ». قال هذا الأخير باقتضاب.

- «في نهاية الأمر، هي غلطته». قال مارتان هامساً كما لو كان يحدّث نفسه: «أنا سدّدت الدَّين الذي عليّ. كنت أدين له بالحرّيّة، وليس بالحياة».

الفصل 10



كان روبرت ميلروز حارساً استكتلنديّاً، وعازفَ قُرَبٍ، كرّس حياته كلّها لفيلوغانيون منذ ثماني سنوات. ذلك الشّغف هو ثمرة مصادفةٍ عجيبةٍ لا يستطيع أن يفكّر فيها قطّ من دون أن تغمر الدُّموع عينيه.

حصل ذلك في الفترة التي كانت فيها ماري ستيوارت في السّادسة من عمرها قد تزوّجت مرّتين تقريباً، فملك إنجلترا أرادها زوجاً لكي يستولي على اسكتلندا، وهنري الثّاني ملك فرنسا كان يفكّر في تزويجها بابنه وليّ العهد رغبةً منه في أن ينقذ بهذا الزّواج الجانب الكاثوليكيّ في اسكتلندا، وكانت الطّفلة المسكينة معزولةً مع أمّها في قصر دومرتون بعد أن حاصرها فيه رعاياها البروتستانت الذين ثاروا.

كان روبرت، وهو رامي رُمحٍ من منطقة هايلاند من ضمن المؤمنين الذين يصعدون الأرصفة المحصّنة التي تحفّ بنهر كلايد، ومثل الجنود الكاثوليك جميعهم المُلحقين بخدمة الأميرة الصّغيرة السَّمراء، كان روبرت يعشقها، ويتابعها بحنانٍ خلال نزهتها الصّباحيّة على الأسوار. السّرّ الذي كان يحيّره هو أن تظلّ هذه الطّفلة مشرقةً وبريئةً، مع أنّها موضع هذه الدّسائس كلّها. كان يحصل أحياناً في شهر أيّار/ مايو الدّافئ أن تظهر في الهواء الطّلق عارية الذّراعين، مع احتفاظها بحزام العفّة؛ وكان روبيرت

مستعدّاً لأن يموت آلاف المرّات مقابل ألّا يقوم أيّ إنسانٍ في يومٍ من الأيّام بتدنيس مثل هذا الكنز.

لكنّ ضغط اللّوثريّين المرعب كان مع الأسف يُحكم إغلاق الفخّ حول الأسيرتين، ومع عودة الشّتاء، لمْ يعد هناك شكٌّ في أنّ القلعة ستسقط. ذلك الرّبيع الأخير قبل المأساة كان أكثر امتلاءً بالزّهور، وأكثر حزناً من فصول الرّبيع الأُخرى جميعها التي عاشتها اسكتلندا الكئيبة في حياتها.

وفيما عدا الإعجاب بماري الصّغيرة، لمْ يكن لدى روبرت سوى شغفٍ واحدٍ هو العزف على آلة القِرَب. كانت تلك الآلة حتّى ذلك الوقت تشعره بالمتعة؛ وقد تعلّم ألحانها من خلال النّظر إلى أصابع عمّه، ولمْ يكن هناك أكثر انسجاماً بالنّسبة إليه من حوارٍ بين زمّيرتين يدعمها إيقاع القُربة المتلوّي. شعر بنفسه يموت عندما علم من رئيسه أنّ الملكة الصّغيرة لا تحبُّ صوت القرب، لا بلْ إنّها كانت تخشاه كنوعٍ من نذير شُؤمٍ، وهكذا تلقّى روبرت الأوامر بألّا يعزف في ساعات فراغه النّادرة، اللهمَّ إلّا إذا فعل ذلك في أثناء سيره على الصُّخور في الهواء الطّلق يحيث يستطيع أن يبتعد بما فيه الكفاية، ويرمي بنغماته إلى غياهب النّسيان في عرض البحر.

انتشر خبرٌ وصلت أصداؤه إلى الجنود أنّ ملك فرنسا أرسل أسطولاً ليخلّص الصّبيّة وأمّها ماري دو غيز، لكنّ الإنجليز كانوا مرهوبي الجانب في مجال البحريّة. لمْ يستطع الأميرال ستروتزي الذي كان يقود الكتيبة الفرنسيّة أن يصل إلى اسكتلندا، ولمْ تكن لديه أيّة وسيلةٍ لخرق السَّدّ المنيع البريطانيّ سوى أن يغامر بمعركةٍ لن يكون له أن يتفوّق فيها.

أمضى النُّبلاء الفرنسيّون الذين يحيطون بالملكة الصّغيرة أيّامهم، وهُم يراقبون الجنوب الغربيّ بالمنظار، لكن ستروزي لمْ يصلْ.

كانت عناقيد اللّيلك البرّيّ الأزرق تنزلق على الواجهات، كما أنّ

الأوراق الجديدة التي تفتّحت جعلت أشجار الصّفصاف تبدو فضّيّة اللّون، وفي أطراف أجمات شجر البلّوط الصّغير كانت تتبدّى براعم خضراء. كان روبرت يصوّر ذلك الفرح كلّه بأصوات قربته المزدوجة مع خلفيّةٍ من النّغمات المنخفضة الأليمة. كان يعزف واقفاً على طرف نتوءٍ من الصُّخور الغرانيتيّة التي تضربها الأمواج في شرق القلعة، حيث كان من الصّعب رؤيته. هناك، في صباح يومٍ من أيّام منتصف أيّار/ مايو تلقّى الصَّدمة التي لن تكون حياته بأكملها سوى صدى لها.

كانت هناك ثلاثة مراكب دقيقة الصُّنع تتقدّم داخل الماء بكلّ ما في مجاذيفها من سرعةٍ، وتقترب بسرعةٍ وسط البحر الهادئ. سرعان ما ميز روبرت راياتها: لقد كانت فرنسيّةً. اختلطت عليه الأمور للحظةٍ، وهو يحاول البحث عن اتّجاه الشّمس، لكنْ لمْ تكن هناك أيّة إمكانيّةٍ للشّكّ. كانت المراكب كلّها آتيةً من الشّمال الشّرقيّ، ولو كان من الصّعب تصديق ذلك.

أمسك العازف بقربته من قطعها الخشبيّة كما يُمسكُ بأرنبٍ برّيٍّ من أُذنيه، وركض حتّى القصر ليعطي إشارة الإنذار. كان الأطفال يلعبون على شرفات البرج، وكانت ماري ستيوارت مع صديقاتها الثّلاث: ماري سيتون، وماري فليمينغ، وماري ليفينغستون. ركضت الفتيات في اتّجاه السّياج الحديديّ من الجهة المعاكسة لتلك التي كثيراً ما كنَّ يحدّقن بها دون جدوى. المراكب الثّلاث التي صار صوت طبولها مسموعاً بدأت تسلك مجرى النّهر، وراحت تبطئ من سرعتها لكي ترسو على الرّصيف. كان الحرس الفرنسيّون والاسكتلنديّون مشدوهين، وقد اعتقدوا أنَّ في الأمر خدعةً، فبدأوا بتوجيه مقدّمة بنادقهم نحو المراكب بسرعةٍ، لكنْ مع اقتراب تلك المراكب تدريجيّاً بدأت تظهر على سطوحها مجموعةٌ من

الجنود يلوّحون بقبّعاتهم، ويرفعون سيوفهم بعلاماتٍ تدلّ على الفرح، وبمجرّد أن رسا المركب الأوّل، لفظ من بطنه موجةً لمّاعةً من الفرنسيّين الفرحين، على رأسهم، وفي مكانٍ لا يمكن لأحدٍ أن يفكّر في انتزاعه منه، كان هناك عملاقٌ مُفعمٌ بالفرح، أنفه أحمر من الدُّموع التي ذرفها، ويبدو صليب فرسان مالطة واضحاً على بطنه وهو يركض بسرعةٍ إلى القلعة. كان بابها موصداً، وبانتظار فتحه، استدار الفارس ليواجه رجاله، أمرهم بالرُّكوع، وتلا صلاةً باللّاتينيّة، وبصوتٍ قويٍّ إلى درجة أنّ صخور الشّاطئ كلّها التي كانت تشكّل دهليزاً مثل المحارة ردّدت صدى تلك الصّلاة، في حين خرجت من ثقوب الصُّخور سلاطعين صغيرةٌ، لونها ورديٌّ، لترى ذلك الحشْد القادم. في النّهاية، بدأت مفاصل الأبواب تئنّ، وفُتح الباب؛ وأمام الملكة الوصيّة على العرش التي ظهرت، قام نيقولا دوران دو فيلوغانيون بلفظ اسمه بما يشبه الخُوار، وارتمى على الأرض، وهو يشهق في حركة عبادةٍ خرقاءَ.

كان روبرت يتابع المشهد من أعلى الأسوار. من هناك رأى للمرّة الأولى هذا الشّيطان الذي قاد تلك الحملة. كان فيلوغانيون قد استطاع وحْده أن يقنع ليون ستروزي أن يتركه يحقّق ما لمْ يستطع أيُّ إنسانٍ قبله أن يفعله في الحرب؛ أي: الالتفاف حول اسكتلندا بأكملها من جهة الشّمال، وشقّ طريقه عبر جُزر الشّمال ليفلت من حرس المراقبة الإنجليز، ولقد استطاع أن ينجز هذه المعجزة بمساعدة خريطةٍ سيّئةٍ لنيكولاس دو نيكولاي سُرقت من خلال التّجسُّس على الإنجليز.

أبحر بلاط اسكتلندا في المساء نفسه، ونال فيلوغانيون شرف أن يمدّ اثنين من أصابعه الغليظة للملكة الصّغيرة لكي تصعد إلى سطح باخرة (الريال) من دون مشقّةٍ، وبعد عدّة أيّامٍ كانت في مورليه تنعم بالأمان.

ذلك كلّه جرى في 1548، ونحن الآن في سنة 1556. من يومها لمْ يترك روبرت فيلوغانيون قطّ، كان جزءاً من حرسه الاسكتلنديّين، وحتّى في وسط هذه الفرقة من القلائل الذين يشكّلون النّخبة الأكثر قرباً من الأميرال، ويتقاسمون الوقوف أمام بابه، ما كان يمكن لمس شعرة من فيلوغانيون من دون أن يغامر روبرت بحياته دفاعاً عنه.

الإخلاص لشخصٍ ما شعورٌ يمكن التّوصُّل إليه بسهولةٍ فيما لو استطاع هذا الأخير تحمّله. كان روبرت يشعر بالسّعادة طالما أتيح له أن يتبع سيّده إلى البرازيل، أو إلى أيّ مكانٍ آخر. الشّيء الوحيد الذي أسِفَ له، ولو على نحوٍ بسيطٍ جداً، هو أنّ الأميرال، مثله مثل ماري ستيورات، لمْ يكن يحبُّ موسيقا القُرب، ولذلك كان يبتعد عن الآخرين من أجل العزف على تلك الآلة.

ونظراً إلى أنّه كان مكلّفاً في ذلك اليوم بمرافقة الزّورق الذّاهب لملء البراميل، فقد استغلّ الفرصة، وأخذ آلته معه. كان قد بقي بالكاد يومان على انتهاء المهلة التي أعطاها الأميرال للغراب. كلّ شيءٍ كان على درجةٍ كبيرةٍ من الهدوء والسُّكون، ولمْ يكن هناك أيّ شخصٍ يبدو من بعيدٍ على الشّاطئ.

لمْ يكن روبرت من أصحاب المخيّلة الغنيّة. كان الهدوء بالنّسبة إليه هدوءً، وما كانت هناك حاجةٌ للتّفكير بما يتجاوز ذلك.

رمى البحّارة مرساة الزّورق عند الجسر الصَّغير المبنيّ قُبالة الشّلّالات، وبدأوا يفرغون البراميل. ابتعد روبرت نحو الغرب ليسير قليلاً بمحاذاة شجرات جوز الهند. لمْ يكن يترك المركب من ناظريه، وبالتّالي فإنّه لم يُخلّ بواجباته. كلّ ما هنالك أنّه لمْ يستطع مقاومة متعة الذّهاب إلى تلك البقعة من الشّاطئ التي جنح إليها حوت. كان الحيوان الضَّخم

هناك منذ بعض الوقت، وقد نشف جلده في الشَّمس، وبدأ يتفسَّخ، ما جعل من السَّهل الإمساك بعظم فكّه للزّحف فوق الرّأس. طاب لروبرت أن يعزف ألحانه من فوق ذلك الحيوان الذي يشبه الصَّخرة السَّوداء. كان ينظر إلى الخليج، ولو أنّه تجنّب النّظر إلى جبل خبز السُّكر الذي لا يمكن الغلط فيه، لاستطاع أن يظنّ نفسه في اسكتلندا تقريباً، ففي ذلك الفصل كان الضّباب الأسود يقلّد صيف بلاده على نحوٍ ممتازٍ. بدأ روبيرت يعزف لحناً من مدينة أبيردين، يستعيد أغنيةً حفظها من زمن طفولته.

يتطلّب تحميل البراميل جميعها على المركب وقتاً طويلاً، ومنذ أن اندلعت الأزمة مع المترجمين، لمْ يعد هناك أيُّ شخصٍ على اليابسة يساعد في تلك العمليّات. وعندما بدأ البحّارة بتعبئة البرميل الأخير كان الّليل قد حلّ.

كان روبرت سعيداً؛ لأنّه استطاع أن يعزف من كلّ قلبه. ترك مبسم القربة من فمه، وتحضّر لفكّ الآلة عندما قامت يدان قويّتان برميه إلى الخلف. آخر ما رآه روبرت في السّماء كان ملفوفةً كبيرةً بيضاء لن يأكل منها أبداً، ففي الّلحظة نفسها قامت شفرة يدٍ خبيرةٍ بقطع حنجرته.

كان الّليل حالك السَّواد عندما بدأ الصَّفير من المركب لدعوة الاسكتلنديّ من أجل الإبحار. صعد المركب في الّلحظة الأخيرة، وقد أخفى رأسه بوشاحه ذي المربّعات الصّوفيّة الاسكتلنديّة. لمْ يكن القمر قد ظهر بعد، وكان البحّار الذي يقف في وسط المركب يمسك بيده مصباحاً مكتوم الضّوء. اتّخذ الاسكتلنديّ مكاناً في طرف المركب الثّاني الذي كان غارقاً في الظّلمة. لمْ يتكلّم أحد خلال طريق العودة، فقد كان العبوس يهيمن على وجوه الجميع بفعل التّعب، والقلق، والقناعة اليائسة بأنّه لن يكون هناك بعد اليوم كهوان وهنديّات للتّرويح عن النّفس.

كانت الجزيرة مظلمةً، فقد استُعملت الشُّموع أكثر ممّا يجب في الشُّهور الأولى، وبالتّالي صارت الحياة من وقتها فصاعداً تنتظم حول ما ترغب السّماء بتقديمه من الضّياء، وفي ليالي العواصف حيث لا شموع، ولا قمر، كان لا يبدو من الأشخاص سوى ظلالهم، وكانوا ينامون بمجرّد أن تختفي الشّمس في السّماء. ذهب البحّارة المجبرون على الأعمال الشّاقّة للنّوم في أراجيحهم، في حين راح روبيرت المزيّف الذي كان يعرف الطّريق جيّداً في اتّجاه قيادة الحرس. كانت هناك ساعةٌ رمليّةٌ مثبّتةٌ على قاعدةٍ تسمح للحارس المناوب عند باب الأميرال، والمجهّز بضوءٍ صغيرٍ أن يقيس المدّة التي تستغرقها نوبة حراسته. عندما أدار الرّجُل السّاعة مرّتين، تثاءب ونهض لينادي (روبرت) من بين الحرس. بُدّلَ الحرس بصمتٍ كما يحصل بين أشخاصٍ يشعرون بالنُّعاس، وليس لديهم ما يخشون منه.

وهكذا في السّاعة الواحدة من فجر ذلك اليوم، استطاع مارتان الذي يرتدي الوشاح الاسكتلنديّ ذا المربّعات أن يجد نفسه كما كان يتوقّع عند باب غرفة فيلوغانيون. من الفتحات التي تفصل بين ألواح الباب المطلّ على الشّاطئ، انتظر أن يصبح ضوء القمر كافياً، وبعد تضرّعٍ صامتٍ لربّ اللّصوص الذي كان مارتان يؤمن به بشدّة، فتح ببطءٍ باب الغرفة.

كان مخطّط قطّاع الطُّرق بسيطاً للغاية: عزْل فيلوغانيون عن حرسه، ثمَّ قتله، وقد نُفّذ الجزء الأوّل من الخطة، فمعظم المهاجرين فقدوا حماستهم، وثاروا على العمل غير المجدي الذي كُلّفوا بإنجازه، وكانت الأخطاء كلّها تُرمى على كاهل فارس مالطة، وخاصّةً تلك الأخيرة التي حرمت المساكين من المكافأة الوحيدة التي يمكن أن ينالوها ليعدّلوا كفّة سوء حظّهم، وفي صراع كسر الإرادة الذي اندلع بين الأميرال والمترجمين، كان تعاطف

المهاجرين يذهب على نحوٍ طبيعيٍّ نحو المترجمين، فقد أُعجبوا بحرّيّة هؤلاء، وبالمتع التي يحصلون عليها، والتي كانت تُعدّ في أجواء المناطق المداريّة المجهولة تلك، أشكال الإنجاز الوحيدة التي يمكن التّوصُّل إليها، بلْ وأفضلها. كان يمكن إذن الاعتماد على حياد المهاجرين في حالة الهجوم، بل وربّما على مساعدتهم.

بقي الجنود. كان الإنهاك قد نال من قسمٍ كبيرٍ منهم، فيما عدا أفراد الحرس الاسكتلنديّين الذين كان يبدو أنّه ما من شيءٍ يفقدهم شجاعتهم. ومع ذلك، هؤلاء الحرس جميعهم، من أكثرهم شجاعةً إلى أكثرهم رخاوةً، كانوا مدرّبين بالطّريقة الحربيّة نفسها القائمة على تلقّي الأوامر، وبالتّالي كان على المهاجمين أن يبدؤوا بحرمانهم منها.

كانت مهمّة مارتان الذي افتتح هذه المأساة أن يضرب القائد الأعلى ضربةً مميتةً. بعد ذلك، ومن الخلاص منه تأتي البقيّة. صار الآن قاب قوسين من السَّرير مع قنديله، السّتائر مرفوعةٌ، ويمكن رؤية حبل الأرجوحة التي رُبطت بإحدى قواعد السَّرير، التي شدها فيلوغانيون على نحوٍ عرضانيٍّ. الخيار الصّعب أمام القتلة جميعهم هو الضّرب من وراء السّتارة أم فتحها. لمْ يكن مارتان قد فكّر في ذلك من قبل. كثيرات من فتيان المرفأ كنَّ قد حدّثْنه عن فئتين من الرّجال: أولئك الذين يتركون النّور مضاءً في أثناء ممارسة الحُبّ، وأولئك الذين يفضّلون إطفاءه؛ أمّا هو، فكان سخر من الفئتين؛ لأنّه اعتاد أن يأخذ ما هو متاحٌ له. تلك الفكرة جعلته يبتسم في الظّلمة. وبما أنّه كان يحبّ الاستفزاز، فقد قال لنفسه إنّ عليه وللمرّة الأولى أن يختار، وهكذا رفع السّتارة بضربةٍ واحدةٍ.

كانت الأرجوحة فارغةً.

نظر بجنونٍ داخل السّرير وتحته. هناك حيث كان كنز الأميرال الحرْبيّ،

الذي كان من المقرّر ألّا يستحوذ عليه إلّا بعد أن ينتهي كلّ شيء، لكنّ الصّندوق لمْ يكن موجوداً. خلع مارتان بضربةٍ واحدةٍ الوشاح الصّوفيّ الذي كان يخنقه، وبكلّ ما لديه من وعيٍ يعينه في أصعب أنواع الكمائن راح يتفحّص الظلّ وهو يرفع المصباح. لمْ يرَ أحداً في الغرفة، وشعر أنّه قد وقع في فخٍّ. كان قد حان الوقت ليستجمع شجاعته، وليستحضر كلّ ما لديه من غرائز يقاوم بها الخطر، وقد تدخل اللّصّ في داخله لنصرة المتآمر، وكما لو كان يريد أن يؤكّد هذا التّغيير بحركةٍ ما، أمسك مارتان في ردّة فعلٍ آليّة بالإطار المذهّب لمنمنمةٍ كانت تلتمع على طاولة الحاكم، ووضعها في جيبه. ولأنّه فقد الأمل في أن يستولي على الكنز الآخر خرج من الغرفة. مع الأسف، عندما رأى معاونو مارتان القابعون في الظّلمة وقد استحوذت عليهم كلّ مخاوف اللّيل أنّه قد رفع مصباحه بهذا الشّكل أمام الباب، ظنّوا أنّه يقوم بالحركة المتّفق عليها، فانطلقوا في الهجوم. رموا مشعلاً في أسرّة القشّ التي كان ينام عليها فرسان مالطة، فالتهمت النّيران أشجار النّخيل. الغراب الذي كان يقود مجموعة المهاجمين قام بشدّ العائق الذي التهمته النّيران. كانت هناك بندقيّتان تركهما لمارتان الجنود الهاربون من الخدمة، وبندقيّة ثالثة قام إيجيديو بفكّها، وكانت تلك البنادق تشكّل مستودع الأسلحة كلّه الذي حازهُ المترجمون، لكنّهم كانوا يعتمدون على تأثير عنصر المفاجأة على الأعداء، وبالتّالي حسبوا أنّ تجهيزات المدفعيّة تلك ستصدر ناراً مخيفةً، والواقع أنّه كان من السّهل التّسديد على الحرس الاسكتلنديّين الذين أُخِذوا على حين غِرّةٍ، وقد حُرموا من سلاحهم، وكانوا شبه عُراةٍ.

ظنَّ المهاجمون أنَّ نصرهم كاملٌ، لكنّ مارتان كان يرى أنّ ذلك النّصر كان أسرع ممّا ينبغي، لا بلْ كان غريباً. لمْ يتصاعد أيُّ صراخٍ من

ثكنة الجنود المشتعلة، وفيما عدا تلك الحفنة من الحرس الاسكتلنديّين لمْ يخرج أيُّ شخصٍ من داخل الأكواخ المؤقتة.

كان الصَّمت يهيمن على كلّ شيءٍ فيما عدا وسوسة ألسنة النّار. في بعض الّلحظات كان التماع العاصفة بعيداً في جهة الشّرق يحدّد بوضوحٍ، وبصمتٍ أطراف كتلة جبل (خبز السُّكّر) المهدّدة. أحسّ مارتان بالكمين الذي وقعوا فيه. بدأ يشمُّ الهواء مثل كلب حراسة، وفجأةً، وبالغريزة قام بتحطيم قنديله. في الّلحظة نفسها تعالى صوت ضربة بندقيّةٍ قادمٍ من الحِصن، لكنَّ الرّامي أخطأه بسبب غياب الضّوء.

تَلت ذلك ضرباتٌ أُخرى، وصراخ ألمٍ تصاعد من الكتلة المظلمة للمهاجمين.

فَهم مارتان بلحظةٍ واحدةٍ أنّه قد وُشيَ بخططه، وأنّ الأميرال قد وضع لهم بدوره فخّاً. كان قد التجأ إلى الحِصن مع فرسانه، وبدأ يرمي على المهاجمين كمّيّةً هائلةً من النّار. نال الذُّعر منهم، وكانت هناك أصوات فرارٍ جماعيٍّ وسقوطٍ. استفاد الاسكتلنديّون من تشتيت الانتباه، لكي يلفّوا بطريقتهم قطعة قماشٍ حول أردافهم، ولمْ يتردّدوا بعدها في أن ينطلقوا بغضبٍ مسعورٍ ضمن الحشود. نزلت قوّات فيلوغانيون، وهي تركض منطلقةً من ورشة بناء الحصن نحو الشّاطئ، فسدّوا بذلك طريق الانسحاب أمام المترجمين، وكان صوت الأميرال يلعلع في وسط تلك المعارك.

الجزء الوحيد الذي بدا صحيحاً من خطّة الهجوم هو حياد العمّال الحرفيّين، فقد التصق هؤلاء بأمكنتهم، وشاهدوا كلّ شيءٍ من دون أن يتحرّكوا.

الزّوارق التي حملت رجال الغراب كانت قد رست في موضعين على

الشّاطئ: على الطّرف الجنوبيّ منه، وفي الجهة الأُخرى في اتّجاه الخليج، بعد أن تغلغلت بين الأرصفة المعدّة لرُسوّ المراكب. سارع الهاربون كيفما اتّفق في اتّجاه الزّوارق، ما هدّد بغرقها، وجعل المجذّفين يضمّون صرخاتهم إلى صرخات المقاتلين والجرحى.

بحث مارتان عن منفذٍ آخر للهرب، ولـمّا رأى خسارة خطّته، استعاد ما كان دائماً يفعله، وهو أن يترك الآخرين لمصيرهم، وأن ينفذ بجلده.

ذهب نحو الزّوارق، لكنّ الاسكتلنديّين كانوا قد سبقوه إلى هناك، وبدأوا يتناوبون الحراسة بأعدادٍ كبيرةٍ. خطرت في باله في البداية فكرة الذّهاب سباحةً، وكان قد تمرّن طويلاً على ذلك، محضّراً لحالات الهروب الكثيرة التي كان قد حلم بها، لكنّ السّاحل كان بعيداً.

بقي أمامه حلٌّ واحدٌ. صعد إلى مقرّ القيادة، وأراد أن يلفّ حوله ليعبر الطّريق بين الحصن وبين التّحصينات الشّمالية، ولـمّـا كان يدور حول الزّاوية، رأى خيال رجُلٍ يتّجه نحوه، وقد رفع سيفه. وعلى ضوء النّار القريبة، تعرف إلى جوست.

– «لا تتحرّك». قال جوست بصوتٍ هادئٍ.

– «أترون!»، قال مارتان: «ها هو كلامورغان، وهو يهددني. هيّا، اتركني أمرّ. أردتُ أن أنقذك، لا تنسَ ذلك».

– أردتَ أن تبعدني.

– «وكنتُ مصيباً». قال مارتان: «لأنّني أرى أنّك تقاتل مثل أسدٍ دفاعاً عن سيّدك الجديد».

كان دائماً يشعر بالاحترام تُجاه جوست.

– «كنتَ تريد معركةً متساويةً في الماضي». قال مارتان، وهو يثبّت نظره عليه: «الأمر ليس كذلك الآن تماماً».

كان، على عادته؛ يُشير إلى ما يُزعج جوست، وقد رأى مارتان خصمه ينظر حوله بسرعةٍ.

- «تبحث عن سلاحٍ لي؟». قال مارتان بلهجةٍ ساخرةٍ.

ولأنّ الآخر كان قد بدأ يضطّرب، فقد قفز مارتان جانباً. هجم عليه جوست بسيفه، لكنّه لمْ ينل منه، فعاد إلى الوراء. ظلّ الوضع على حاله، فيما عدا أنّ جدار النّخيل لمْ يعد وراء ظهر مارتان الذي صار محاطاً بالظّلمة المفتوحة.

- إنّك تتمرّن على المبارزة في الصّباح مع فيلوغانيون كما قيل لي، والحقيقة أنّه حتّى لو كان لديّ سيفٌ، فإنّنا لن نكون متساوين، أيُّها السّيّد.

ادّعى مارتان أنّه ينحني للتّحيّة، لكنّه في الواقع كان قد فرد ذراعه حتّى الأرض، وبضربةٍ واحدةٍ، رمى حفنةً كبيرةً من الرّمل النّاعم في عيني جوست. لمْ يعد جوست يرى أيّ شيءٍ، فأرخى سيفه، ومدّ يده الحرّة في اتّجاه وجهه، وإذْ به يشعر عندها بقبضة مارتان الغليظة تضرب بطنه، فانهار على الأرض.

كان ما يزال شبه غائبٍ عن الوعي عندما سمع الأميرال يقترب، وهو يرمي اللّعنات، ثمّ أمسكت به يدان، وظنَّ بأنّه يرى كولومب. كما أنّه في تلك الحالة الشّبيهة بالحلم سمع شخصاً ما يتأسّف لأنّ مارتان كان قد أفلت منهم.

عند الفجر، ومع اصطكاك الأسنان، أُحصيَت أعداد الأسرى، والجرحى، والموتى. بالنّسبة إلى هؤلاء تمَّ الأمر بسرعةٍ كبيرةٍ، ففيما عدا روبرت الذي كان مفقوداً، كان هناك ثلاثة جنودٍ قد ماتوا. من جهة المهاجمين، أُحصِيَتْ ضحيّةٌ ماتت بضربة منجنيقٍ، وغريقان لم يستطيعا الصُّعود إلى المركب. كان هناك جنديّان قد أصيبا أيضاً، لكنّ جروحهما

كانت طفيفةً، وأخيراً، على المنصّة، قُبالة مقرّ الحاكم، كان هناك أربعة أسرى احتُفِظَ بهم مقيّدين بـأصفادٍ من حديدٍ جُلبت من المراكب. الغراب، وفيتوريو، وإيجيديو، كانوا بين هؤلاء، ومعهم رابعٌ كان وجهه مخيطاً، ومغطّى بأكمله بالرّيش مثل سيّده، كما كان بلا أسنانٍ، ويشبه الجوارح.

جُرَّ جوست إلى مقرّ الأميرال حيث قامت كولومب بالسَّهر عليه، وهو يستعيد وعيه.

حلّت ساعة خُطبة الصَّباح. أمر فيلوغانيون بالبحث عن تيفيه، وانتهى الأمر باكتشاف مكان اختباء رجُل الدّين الذي كان يخفي نفسه في زاوية خزّانٍ أسفل أسوار الحصن الجنوبيّ. كان جسمه كلّه يرتعد، وراح يؤكّد متلعثماً أنّه لمْ يشعر بمثل هذا الخوف طيلة حياته. ولكي يهدّئ أعصابه حسْب ما كان يقول راح ينفث نفحاتٍ قصيرةً عصبيّةً من عصاً طويلةٍ من البيتون ادّعى أنّه كان قد احتفظ بها دائماً من أجل المناسبات الكبرى.

- «هل ستقود الصّلاة هذا الصّباح أم لا؟». قال له فيلوغانيون متوعّداً.

- «لقد اتّخذت قراري». قال تيفيه، وهو يلقي نظرةً ملتهبةً مثل بغلٍ ملاحق: «سوف أعود إلى فرنسا».

فكّر فيلوغانيون في أنّ العالِم كان دائماً عبئاً عليه أكثر من كونه يقدّم أيّة مساعدةٍ. كان يتحسّر بالتّأكيد؛ لأنَّ المستعمرة ستُحرم هكذا من رجُل الدّين، لكنْ هل كان ذلك الكوسموغرافي شيئاً آخر غير رجُل علمٍ طيلة حياته؟

- «هل سمعتني؟». قال تيفيه الذي كان ضعف غريمه قد أعطاه شجاعةً مفاجئةً: «أطالب بالرّحيل مع حملة (لا غراند روبيرج)».

ابتسم الأميرال ابتسامةً شاحبةً، وأجابه بنعومةٍ:

- اذهب بالباخرة يا أبتِ منذ اليوم. سنعرف كيف نتدبّر أمورنا من دونك.

ثمّ استدار نحو جوست. كان الصّبيُّ واقفاً، ويشرب حساء الفاصولياء.

- «هل تشعر أنّك تحسّنت؟». سأله الأميرال.

- أشار جوست أنْ نعم.

- هذا حسنٌ. دعْني أقول لك إنّك قد قاتلتَ جيّداً.

عانقت كولومب أخاها. من كان يمكن أن يتخيّل أنَّ شاطئاً من أشجار جوز الهند سيكون موضع حملاتهم الاستكشافيّة. كان جوست قد صار أجمل من ذي قبلٍ مع العلامات التي تركتها على وجهه ليلة السَّهر، والشُّحوب الذي كان عاد إليه في هذا الفصل الذي تقلّ فيه أشعّة الشّمس، بالإضافة إلى تلك الهيئة الصّامتة والنّبيلة التي صارت الآن هيئة رجُلٍ مكتملٍ.

لكي ينهي فيلوغانيون المحادثة، وقبْل أن يأخذ قسطاً من الرّاحة، خرج إلى السّاحة، وذهب ليقف في مواجهة السُّجناء. توقّف أمام الغراب:

- «كاد مخطّطك ينجح»، قال الأميرال: «لكنْ حتّى أفضل الآلات يمكن أن يحصل فيها ما هو غير متوقّع. لولا هذا الأحمق الذي أتى ليطلب إليّ أن أزوّجه النّساء الأربع اللّواتي ادّعيتَ أنّك تبيعهنّ له، ما كان لي أبداً أنْ أعلم أيّ شيءٍ. بالمناسبة»، تابع فيلوغانيون، وهو يستدير نحو دون غونوزاغ: «يمكن لهذا الشّيطان أن يخرج من مَخبئه، فهؤلاء السّادة سيتركونه بسلامٍ».

سار غونزاغ، وهو يعرج نحو المخبأ الذي حُفِرَ في الحصن، حيث وُضعَ كانتان في مأمنٍ.

خلال ذلك أعلن الأميرال الذي ما زال واقفاً أمام الغراب عن حُكمه.

- «سوف تُشنق». قال الأميرال، وهو ينظر إلى الغراب: «وأنت»، تابع، وهو ينظر إلى التّرجمان الآخر المغطّى بالرّيش: «لقد رأيناك تزرع سكّينك في صدر جنديٍّ. حبل المشنقة لك أيضاً».

كان الجميع يراقبون المحكومين ليروا الجهة التي سيسقطون فيها: جهة الرّجاء وطلب المغفرة، أم جهة الكراهية الصّافية التي كانوا عادة ممتلئين بها. وعلى نحوٍ كان يمكن أن يكون مضحكاً في أيّ ظرفٍ آخر، رسم التّراجم على وجوههم، وعلى التّوالي أمارات الرُّعب، والاحتقار، والهمّ، والوقاحة، ثمَّ بعد أن فهموا أنّه ما من شيءٍ يمكن أن يثني فيلوغانيون عن قراره، أرسل الغراب بصقةً قصيرةً في اتّجاه فيلوغانيون، لكنّها سقطت في الرّمل، وفهم كلُّ واحدٍ من الموجودين أنّ الأمر كان محسوماً بالنّسبة إلى هذين الاثنين على الأقل.

بعد ذلك استدار فيلوغانيون لكي يقف بمواجهة الاثنين الآخرين اللّذين كانا مربوطين مع الغراب من جهة الظّهر بالحبل نفسه.

- «وهذان الاثنان»، سأل فيلوغانيون: «من هُما؟».

- «أبرياء يا سيّدي». توسل فيتوريو

كان هو ورفيقه مبلّلين بالدُّموع. لو توريه الذي كان بالقُرب من الأميرال قال، وهو يشير إلى الفينيسي:

- هذا سجينٌ كان حُكمه قد تأجَّل.

- هل مصيرك إذن أن تكون مقيّداً بالأصفاد دائماً؟

وجد فيتوريو في هذه الجملة التي وجّهت إليه فرصةً للخلاص.

في نهاية الأمر، كان قد أصغى إلى كلّ ما قيل، وحتّى آخر لحظة عندما

كانوا ذاهبين للهجوم على الجزيرة، لمْ يقل له أحدٌ قطُّ كلمة السّرّ (ريبير) التي ينتظرها. يبدو أنّه كان قد تشارك مع محتالين، ولمْ يكن لديه أيّ سببٍ ليتضامن معهم في سقوطهم.

- «آهِ يا سيّدي»، تأوّه قائلاً: «إنّ ضعفي هو الذي يجعلني أقع دائماً بين أيدي أشخاصٍ أشرار يدفعونني إلى التّصرُّف بسوءٍ. لقد ضحك عليّ هؤلاء كي أربط مصيري بهم».

في أثناء قوله ذلك أشار برأسه إلى الغراب الذي كان خلفه.

- «أنت الذي ربطت نفسك بنفسك». سخر منه الغراب: «على الأقلّ حتّى هذا الصّباح».

- «اِخرس يا مشنوق!». صرخ فيتوريو: «لقد أفسدتني في حين أنّي أتيت إلى هنا لكي أصل إلى الخلاص».

عندما رأى إيجيديو الشّرخ الذي بدأ يحصل، سرعان ما استفاد من الفرصة، وبدأ هو نفسه يتشكّى من الغراب، لكنّ فيلوغانيون سرعان ما أوقف هذه الجوقة من الإهانات.

- «هل رآهم أحدٌ وهم يقتلون؟». سأل من دون أن يوجّه كلامه إلى أحدٍ.

لمْ يرغب أحدٌ بتقديم شهادته حول هذا الموضوع:

- على كلّ حال، لِنُعطِهم فرصةً جديدةً. سيعملون وهُم مقيّدون بالأصفاد حتّى أقرّر شيئاً آخر.

في ذلك اليوم، ظهرت الشّمس طيلة النّهار، ما يدلّ على أنّ فترة الأمطار بدأت تنتهي. منح الأميرال للجميع فرصة قيلولة بعد الظّهر، ما سمح لهمْ أن ينسوا رعب اللّيلة الماضية. حتّى الحرس المناوبون أغفوا، وهكذا، فإنّ

مارتان الذي كان قد وصل سباحةً إلى باخرة (لا غراند روبيرج) تسلّق حبلاً، كما تعلّم أن يفعل طيلة طفولته، ولمْ يلحظ أحدٌ الرّذاذ الذي أحدثه في الماء. وبصمتٍ، تغلغل في الموج الشّفّاف حتّى وصل إلى الزّوارق. فكّ أحدها، وسحبه، وهو يسبح حتّى وصل إلى مسافةٍ مقبولةٍ من الجزيرة، ثمَّ تأرجح صعوداً إلى سطح المركب، وأمسك بمجذافين، وبدأ يجذّف بكلّ ما فيه من قوّةٍ.

أحد الاسكتلنديّين الذي كان ما يزال نعساً لحظ وجوده عندما كان قد وصل تقريباً إلى الشّاطئ، وبينما ذهب ليأتي ببندقيّةٍ ويملأها بالذّخيرة، كان مارتان قد قفز على الأرض واختفى.

الفصل 11

هناك انتصاراتٌ توحي باليأس، والنّصر الذي حقّقه فيلوغانيون في الحال كان من هذا النّوع. أغلق على نفسه الباب، وراح يفكّر في ذلك الفشل. طيلة يومين لمْ يره أحدٌ يخرج من الغرفة إلى الباحة، حيث كان يعمل، ويأكل، وينام عادةً، وهو بالفعل خلال هذين اليومين لمْ يعمل، ولمْ يأكل، ولم ينمْ تقريباً؛ لانشغاله بالمشي جيئةً وذهاباً وهو يتأوّه. من وقتٍ إلى آخر كان يتوقّف ويضرب بضربةٍ قويّةٍ سطح منضدة السّنديان في غرفته، وهو يصرخ.

كان ما قام به جيّداً بحقّ جسد سان جاك. فحمل الحضارة إلى منطقة أكلة لحوم البشر كانت مهمّةً صحيحةً، ومشرّفةً، وضروريّةً. لكنْ على من الاعتماد للقيام بذلك على الوجه الصّحيح؟ على الجبناء الخوّارين؟ على طريدي العدالة، والعمّال السّيئين؟ في اللّيلة نفسها التي هُزم فيها التّراجم، أبحرت زوارق أربعةٌ تحمل إلى الأدغال ما يقارب ثلاثين من الفارّين البؤساء. كانوا قد فضّلوا حياة الملذّات بين الهنود على المستقبل المشرف الذي كان هو يقدمّه لهم.

أعطى فيلوغانيون أوامره بأن تُحرس معسكرات المدنيّين خلال النّهار كما خلال اللّيل، وصارت هناك دوريّة تنام أيضاً في المرفأ بالقرب من

الزّوارق. لمْ يكن العدوّ الخارجيّ قد جاء بعد؛ فالفساد المميت ولد من الدّاخل، وراح يهدّد العمل. هل يجب إذن أن نتخلّى عن الفكرة بأكملها؟ الكلمة بحدّ ذاتها، إنْ لم نتحدّث عن الفكرة، باتت تخيفه. أمام أسوار الجزائر في 1549، تحت المطر، عندما قام كارلوس الخامس بإعطاء إشارة الانسحاب، كان فيلوغانيون الذي رافق الملك بطلبٍ من فرسان مالطة من بين اثنين وعشرين ألف شخصٍ ضمنهم أربعمئة فارسٍ؛ الوحيد الذي عاد ليغرس سيفه في باب المدينة. ناله من ذلك جرحٌ من طلقة بندقيّةٍ، وذراعٌ يسرى مهشّمةٌ، وكثيرٌ من السُّخرية، لكنْ لا يهم. كان قد صرخ على المورسك المذهولين الذين كانوا يسدّدون عليه من أعلى الأسوار: «سوف نعود!»؛ أمّا الغراب هذا...

قال فيلوغانيون لنفسه وهو يفكّر بذلك إنّ غلطته كانت أنّه عهد بمهمّة الاهتمام بالقطيع السّيّئ الذي يقوده إلى تيفيه. رجُل الدّين هذا لا يساوي شيئاً كقسّيسٍ، ولمْ يكن لديه من سلك الكهنوت سوى الثّياب، هذا إذا ما فكّر يفكّر بارتدائها على نحوٍ صحيحٍ. لا يمكن لومه على عدم اهتمامه الدّينيّ. إنّه على شاكلة كنيسة فرنسا منصرفٌ تماماً إلى المصالح الدّنيويّة، لكنّ مصالح تيفيه لمْ تكن أوقاف الكنيسة، ولا النّساء، إنّما العلم، ولا شيء سوى العلم، وبالتّالي يمكن الصّفح عنه.

لكنّ المشكلة ظلّت كما هي. كان الأميرال قد كتب إلى الملك، وإلى كوليني لكي يطلب دعماً بقوّاتٍ، ومستعمرين جُددٍ، وأموالٍ. ستذهب الرّسائل بعد يومين مع باخرتيْ: (لا غراند روبيرج) و(بوا لو كومت)، لكنْ متى سيرسلون إليه ما طلبه؟ لمْ تكن لديه أوهامٌ كثيرةٌ حول هذا الموضوع، والشّيء الأساسيّ الذي بقي هو المتابعة الرّوحانيّة لهؤلاء البؤساء، ودعم العمود الفقريّ الأخلاقيّ لفرنسا الأنتاركتيكية، وروح جينيبر.

كانت تلك الكلمة الأكثر نعومةً التي يطلقها بينه وبين نفسه على

مستعمرته. كلمة جينيير تشبه كلمة جنفييف، وجنفييف كانت فتاةً في الخامسة عشرة من عمرها لمْ تقبل به حين كان ما يزال في سنّ العشرين. جينيبر، جنفييف، جنيف.

- كالفن!

تهاوت قبضة فيلوغانيون على خشب البلوط، ما أدّى إلى وقوع الجرّة الفولاذيّة.

كالفن! جنيف! كالفن الذي نشر الإصلاح الدّينيّ في جنيف. كالفن، المفكّر المسيحيّ الكبير الذي نادى بإصلاح القانون. كالفن الرّجُل النّاعم، والمختلف عن ذلك الجلف لوثر الذي لمْ يحفّز لدى الألمان سوى الفوضى والفجور، والحمد للرب أنّه مات منذ عشر سنوات، اللّعنة على روحه؛ أمّا كالفن، صديقه!

على الاختلاف في مصيرهما فيما بعد، كان كالفن وفيلوغانيون يدرسان معاً في كلّيّة أورليان، ذلك أنّ الأميرال لمْ يكن في الأصل مُهيّأً لحمل السّلاح. في عائلته الصّغيرة التي اشترت لقب النّبالة في البروفانس، كان الجميع من رجال القانون. وهكذا كان من الطّبيعيّ، بعد قيامه بدراساتٍ جدّيّةٍ وشريفةٍ -مع أنّها دراسة القانون- أنْ يتسجل فيلوغانيون بوصفهِ محامياً في برلمان باريس. في سنّ الحادية والعشرين اختار طريقه الخاصّ به، ربّما بسبب السّيوف الثّلاثة المغروزة في الرّمل، والمحفورة على الميداليّة التي كان يحملها، وربّما بسبب قراءاته عندما كان طفلاً، وربّما بسبب جسده الذي كان كبيراً للغاية بالنّسبة إلى المكان المخصّص للمرافعة، وهو الأمر الذي جعله لا يناسب الدّفاع، إنّما تنفيذ الحُكم، وربّما بسبب جنفييف، المهمّ أنّه ارتدى -ولمدى العمر- السُّترة الخارجيّة القرمزيّة التي تحمل شعار صليب مالطة الأبيض.

مع ذلك، عندما كان يعود إلى ذلك الماضي، ويفكّر في كلّ أولئك الذين سمحت له الحياة أن يلتقي بهم، فإنّ فيلوغانيون كان يوجّه إعجابه الصّاخب تُجاه أصحاب الدّراسات، والفنّانين، والفلاسفة، مثل: شيشرون، وبلوتارك، وجوستينيان، وألسيات، وكانوا كلّهم بالنّسبة إليه بمنزلة الآلهة، وهكذا عندما نشر كالفن (تأسيس الدّيانة المسيحيّة) قبل عشرين سنةً، تبوّأ مكانه بين هؤلاء.

كان شغفه به قد ظلّ كما هو، على أنّهما لمْ يلتقيا قطّ. عندما كان يفكّر في كالفن كان يرى التّلميذ الشّاحب المنكبّ على النّصّ الذي ينسخه، والشّابّ اليافع النّحيل والشّغوف الذي جعله حادثٌ أذلّ عائلته يتّجه بحميّةٍ للانتقام عن طريق الفِكر.

كان من الخارق التّفكير في أنّ قلمه قد خطّ الجُمل اللّاتينيّة الرّائعة من كتاب (المؤسّسة) لمْ يهمّه أنّ الكتاب قد أثار الجدل واللّعنات، فقد كان الزّمن مناسباً للأفكار الجديدة، وللجرأة، وهكذا لمْ يشكّ فيلوغانيون في أنّ كالفن، ذلك الرّجُل الذي يدعو إلى العودة إلى بساطة أزمنة بدايات الكنيسة، هو تماماً من يحتاج إليه ليسلّح قطيعه المبعثر في الاتّجاهات جميعها.

أشعل شمعةً؛ لأنّه في تلك السّاعة من المساء كان لا يستطيع الرُّؤية بوضوحٍ، وكتب رسالةً وجّهها إليه، ذكّره في البداية بالأزمنة القديمة حين كانا أصدقاء، ثمَّ وصف له المستعمرة على نحوٍ أفضل ممّا هي عليه في الواقع، وإنْ لمْ يكن وصفه يحتوي على كذبٍ. توقّف طويلاً عند عَظَمة فرنسا الأنتاركتيكية المقبلة، لكنّه لمْ يخفِ عن كالفن أنّه كان في حاجةٍ إلى نجدةٍ روحانيّةٍ ليعيد إلى الطّريق القويم قطعانه المتخبّطة. كم راع كان يجب أن يطلب من كالفن؟ بعد أن فكّر في ذلك مليّاً، وبعد أن ترك

الرّقم فارغاً، قال لنفسه إنّ خمسة قساوسةٍ كافين لتأمين شعائر تشدّ الانتباه على الجزيرة، والأفضل أنْ يطلب ضِعف هذا الرّقم ليحصل على ما يريد. كتب: عشرة، ثمّ توقّف كي يفكّر، وعاد بسرعةٍ إلى الكتابة، وبما أنّه كان قد ترك العنان لجرأته، فقد أضاف بخطٍّ حازمٍ أنّه سيكون من المفيد جدّاً للمستعمرة إرسال فتياتٍ للزّواج. لا يعني ذلك أنّه لمْ يخشَ التّعقيدات التي ستحصل مع دخول الجنس اللّطيف إلى هذا المعبد، لكنّه كان قد استسلم تماماً أمام بدهيّات الواقع، فهؤلاء الأجلاف يمكن أن يتوصّلوا دوماً إلى أن يجدوا ما نمنعه عنهم. والأفضل في هذه الحالة أن تكون هناك فتياتٌ متواضعاتٌ، وذوات أخلاقٍ جيّدةٍ، قادراتٌ على ترسيخ العادات على نحوٍ صحيحٍ. وهكذا يمكن أن يُحتفَل بالزّيجات الأولى مع فتياتٍ ترسلهنّ جنيف؛ أمّا أولئك الذين لن ينالوا امتياز الحصول على زوجٍ، فيمكن لهم على الأقلّ أن يستوحوا من ذلك المثال، وأن ينظّموا سلوكهم مع فتياتٍ من السُّكّان الأصليّين، وفوق ذلك إنْ وجد كالفن بين أهل جنيف هؤلاء حرفيّين ماهرين، ومزارعين أفاضل، وكلّ أنواع الرّجال الذين لديهم فيضٌ من الشّجاعة والإيمان، وتكون لديهم الرّغبة في أن يسخّروا مزاياهم تلك لمشروع البرازيل الكبير، فلْيرسلهم من دون أن يتردّد مع القساوسة ومع العذراوات.

في اللّحظة التي وضع فيها فيلوغانيون ختْمه على الرّسالة، تملّكتْه بعض الشُّكوك الأخيرة. لا بُدَّ من أنَّ فرصة قَبول كالفن بهذا العرض ضئيلةٌ جدّاً، ولا بُدَّ من أنّ لديه مهمّاتٍ أُخرى، وتطلُّعاتٍ أُخرى، لكنْ لنفترض أنّه فعل ذلك، ماذا ستكون ردّة الفعل في باريس؟ فيلوغانيون الذي نال صداقة عائلة غيز، والذي كان من فرسان مالطة، ونائب أميرال بروتانيا، ألن يُتّهم بالخيانة فيما لو طلب رجالاً تنظر إليهم الكنيسة بعين

الشّكّ؟ سواءٌ أرادوا ذلك أم لا، وعلى اعتدال تعاليم كالفن فقد كان يُنظَر إليه كشخصٍ من الهوغونوت، ومهاجموه يضعونه في السّلّة نفسها مع الطّاعون الّلوثري.

مشى فيلوغانيون، وهو يرسم دائرةً بخطواته، ثمَّ طرد هذه الاعتراضات بظاهر يده مثل العثّ الذي يشدّه الهواء الرَّطب إلى لهب الشَّمعة. تذكّر بلاط فيراري حيث أقام، كانت رينيه دو فرانس، ابنة لويس الثّاني عشر، وزوج دوق فيراري، تنشر حولها في البلاط فكراً مثقّفاً ومتسامحاً، تُناقَش فيه الأفكار الجديدة جميعها، وعلى أنّ الكهنة الكاثوليك كانوا يرتادون ذلك البلاط، فقد كان يُنظَر إلى كالفن فيه بكثيرٍ من الاحترام، لا بلْ يقال إنّه كان كاهن الاعتراف الخاصّ بالدّوقة.

أحجم فيلوغانيون عن أنْ يضرب بقبضته على المائدة من جديدٍ؛ لأنّه لمْ يكن يريد أن يفقد الضّوء: تمام! هذا بالذّات ما كان يريد فعله بجنيبر؛ أن يجعل منها واحة سلامٍ تحفظ لكلّ شخصٍ منزلته، وتغذي جرأة الفكر فيها إيماناً حقيقيّاً متوافقاً مع بساطة الأصول، وهو ما تساعد عليه على نحوٍ طبيعيٍّ ظروف المستعمرة.

وضع الرّسالة في درج طاولة الأبنوس مع غيرها من الرّسائل التي يجب إرسالها مع باخرة (لا غراند روبيرج). ارتمى على الأرجوحة الموضوعة على نحوٍ مائلٍ على السّرير مُحدثاً ضجّةً هائلةً في الألواح والتّجاويف كلّها التي تثبّت الخشب، والتي نخرتها الرّطوبة والدّيدان، ثمَّ ارتفع شخيره مباشرة.

•

أتت الأخبار السّيّئة دفعةً واحدةً خلال تلك الأيّام التي تلت الانتصار. أولًا، وبعد أن أُحْصِي الذين هربوا تبيّن أنّ من بينهم أصحاب مهنٍ أساسيّةٍ،

مثل: النجّارين، والحدّادين، والصّيادلة. بعدها، في أثناء ذهابهم إلى مخازن الماء العذب، هُجِمَ على البحّارة، وكان من بينهم أربعة مزّقتهم السِّهام. عندما حُملت الأجساد إلى المخيّم، كان من السّهل التّعرُّف إلى السّهم الطّويل الذي يستعمله السُّكّان الأصليّون ويصنعونه من القصب، في حين يُصنع الجزء المدبب من الرّأس من العِظام، وفي بعض الأحيان من ذيل سمكة الرّنكة السّامّة. كان من الواضح أنّه لا يجب انتظار أيّ تعاطفٍ من قبيلة توبي، على الأقلّ أولئك الذين يقيمون على الشّاطئ القريب، والذين كانوا تحت سيطرة التّراجم المهزومين. نَجَم عن ذلك أنّ الغذاء الطّازج لنْ يصل بعدها من اليابسة، وبالتّالي كان يجب الصُّمود بفضل مخزون الطّحين، والمانوكا، والأطعمة المملّحة التي كان فيلوغانيون لحُسن الحظّ قد خزّنها احتياطاً. تبيّن أنّ هناك عدّة براميل من الحبوب لمْ تُفرّغ بعد من أسفل البواخر، ومن بينها حبوب الجاودار، والقمح، والشّعير، بالإضافة إلى حبوب الكرنب، والملفوف، والكرّاث، بالتّالي هناك ما يكفي لزراعة كلّ شيءٍ، لكنّ الأميرال لمْ يكن في تحصينه للجزيرة قد ترك أيّة أرضٍ صالحةٍ للزّراعة خارج الحصن، وأماكن السَّكن. فات الوقت لتلافي هذه المشكلة، لا بلْ تبيّن من النّظر عن كثبٍ إلى الحبوب أنّ معظمها قد فسد من الدّود ومن الرّطوبة. الآمال كلّها كانت معقودةً إذاً على مهمّة (لا غراند روبيرج)؛ فحمولة الباخرة كافيةٌ لتلبية كلّ ما هو ضروريّ إذا ما تمّت المساومة جيّداً عليها. وإنْ كان من الضّروري الصُّمود لمدّة ستّة أشهرٍ في انتظار ذلك، يمكن شدّ الحزام، وعند الحاجة، يمكن الذّهاب لشراء بعض المستلزمات في المحطّات التّجاريّة النّورمانديّة في آخر الخليج، لكن تلك كانت مذلّة يأمل فيلوغانيون أن يتجنّبها بأيّ ثمنٍ.

عشيّة إبحار (لا غراند روبيرج)، استدعى الأميرال ضبّاطه الكبار،

وتيفيه، ووصيفيه، إلى عشاء وداعٍ. كان يجب إضفاء المرح على المحادثة من أجل نسيان ما في الصّحون والكؤوس من طعامٍ وشرابٍ، وقد قام فيلوغانيون بذلك بنجاحٍ، فجثّته الهائلة والقويّة التي تتحرّك بيُسرٍ وسهولةٍ في أرض المعركة قد تعلّمت أيضاً من بلاطات الأمراء كيف تصير أداةً للفتنة وللشِّعر. كان صوته العريض يعطي لطريقته في تلاوة الشِّعر قوّةً يعرف كيف يتحكّم بها، فتبدو تعبيراً عن القوى الكبيرة التي تتفاعل في روحه العاشقة، وهو يمتاز بقُدرته على التّعبير عمّا هو مأساويٌّ، وعمّا يجيش بالعاطفة، وحتّى عمّا هو مضحكٌ عندما يبدأ فجأةً بالضَّحك، وإذا ما أضفنا إلى ذلك أنّه كان يغنّي بصوت الباريتون اللّذيذ والمتوازن، يمكن أن نفهم كيف استطاع رجُل البلاط المتميّز هذا أن يجعل الجميع ينسون خلال تلك السّهرة الوضع اليائس الذي كانوا كلّهم فيه وقتها.

قام الاسكتلنديّون بجلب زجاجة خمرٍ كانت قد أفلتت بمعجزةٍ من مخاطر السَّفر، وسلسلة المشكلات التي تلته، وقد حملوها بعنايةٍ كما لو كانت رُفات قدّيسٍ. قام فيلوغانيون بفتحها، وأمر بإخراج كؤوسٍ من الكريستال من صندوقه احتفالاً بالمناسبة؛ ولتسقط أكواب القصدير أمام هذا الرّحيق! كان يجب شربه كما ينبغي؛ أي: البدْء بالنّظر إليه بالعينين مع جعل شعلة الشُّموع تتأرجح ببطءٍ في لونه القرمزيّ، وقبل أن يرفع فيلوغانيون نخباً، وضع كأسه، ونظر إلى جوست، وهو يخرج ورقةً من جيبه، وراح يقرأ:

- أيُّها السّيّد جوست دو كلامورغان، باسْمِ رئيسي في سلك فرسان مالطة، الذي نقل إليّ سلطاته في هذا المجال، أُعلن...

كانت المجموعة بأكملها، وقد تملّكتها الجدّيّة تنظر إلى جوست، وعلى شفاهها ابتسامةٌ حانيةٌ.

-.. أنّه خلال معركة 12 شباط/ فبراير 1556 في خليج جونيبر في حصن كوليني، برهنتَ على شجاعةٍ كبيرةٍ، سواءٌ في التربّص للعدوّ ومتابعته، أم في التّسديد عليه ودفعه، ولقد قام خصمٌ غير شريفٍ بالتّسبُّب بجرحٍ كان يمكن أن يودي بحياتك، نتيجة لذلك، فإنّني أمنحك شرف حمل سلاح الفرسان من أجل خدمة سيّدنا يسوع.

كان ذلك احتفالاً غير متوقّعٍ، وأسلوبه عَفا عليه الزّمن. في مناسبةٍ أُخرى كان يمكن أن يبدو نوعاً من التّهريج، لكنّ فيلوغانيون عبّر فيه عن قناعةٍ لا يقدر عليها سوى الذين يجهدون لنقل تقاليد يعرفون أنّها كانت قد ماتت؛ أمّا جوست الذي لمْ ينخدع تماماً بشعوره بالمتعة، فقد رغب في أن يستفيد من تلك اللّحظة في الزّمن المستقطع، وفي هذه الأراضي التي يجهلها البشر، لكي يوهم نفسه أنَّ تلك الخرافة كانت حقيقةً. وقف جوست، وقام فيلوغانيون بوضع سيفه على كتفيه، وعلى رأسه، وتلفّظ ببعض الصّيغ التّقريبيّة، وأنهى كلّ شيءٍ بعناقٍ حقيقيٍّ.

تعالت صرخات التّهنئة بعدها، ثمَّ بدأ الشّراب. مرارة النّبيذ كانت تشوبها نكهة الأسى والوداع، فكلّ واحدٍ من الحضور راح في داخله يسلك طرقاتٍ تبتعد به كثيراً كما لو أنّ النّار التي دخلت إلى أحشائه جعلته يستعيد الأماكن الغالية التي اختفت، وقصص الحبّ المفقود.

- «سوف يأتي دورك». قال فيلوغانيون لكولومب: «عندما تقرّر لحيتك أنْ تنمو».

ضحك الجميع ما عدا كولومب التي بدا عليها بعض الضّيق.

- «يا أولادي». عاد فيلوغانيون للكلام من دون أن يصرّ على ما قاله في الحال: «إنَّ قيمتكما ليست عبثيةً. إنّها علامةٌ على المنبت الطّيّب. لقد كان أبوكما مقاتلاً بارعاً».

ثمَّ جلس، وعلى وجهه أمارات التّفكير والضّيق.

- مع الأسف أنّه بدأ حياته بهزيمةٍ، فقد كان في بافيا عندما أُسِرَ الملك فرانسوا الأوّل، وقد رافقه في أسْره. وربّما جاء كلّ شيءٍ من هناك.

قطّب حاجبيه، وتابع في ذهنه أفكاراً لمْ يفصح عنها، وفجأةً عاد إلى الواقع. بعدها، قال بقوّةٍ أكبر:

- شارك في حملات حلف كامبري، ثمَّ أرسله صاحب الجلالة إلى روما كي يفاوض على زواج كاترين دو ميديسيس من ابنه، الذي هو ملكنا الحاليّ.

التمعت عينا جوست عند سماع ذلك.

- وهكذا صار يا أولادي رجُل الظّلّ، المفاوض والرّسول السّرّي الذي يُكلّف بالمهام الصّعبة المحفوفة بالمخاطر في كثيرٍ من الأحيان، فقد قُتل شخصان كانا مكلفيّن من قِبل الملك على ضفاف نهر البو في 1544، مع أنّ تلك كانت فترة سلام.

- «أي إنّه»، قالت كولومب، وهي مندهشةٌ: «عندما كان يأخذنا من مدينةٍ إلى أُخرى لمْ يكن يفعل ذلك من أجل القتال؟».

- في بعض الأحيان، كان يقاتل بأسلحةٍ حقيقيّةٍ، لكنّه غالباً ما كان يستعمل أسلحةً أُخرى مخفيّةً. كان يحضّر للسّلم، أو للحرب.

سعل فيلوغانيون.

نظر جوست وكولومب إلى بعضهما. كانت فكرة أن يكون أبوهما شيئاً آخر غير جنديٍّ قد ضيّعتهما، وأكثر ما أدهشهما هو أنّه استطاع أن يكون من الدّبلوماسيّين نوعاً ما.

- لا أستطيع أن أقول لكما أكثر من ذلك حول هذه النّقطة؛ لأنّنا لمْ نكن نرى بعضنا دوماً.

- «كيف مات إذاً؟». سأل جوست الذي بدا عليه أنّه يطالب بدفع دينٍ مستحقٍّ.

خفض الأميرال بصره وفكّر. حول الطّاولة كان بوا لو كومت، وهو الضّابط الذي يجب أن يقود باخرة (لا غراند روبيرج) يقف من دون حراكٍ، ومن دون تعبيرٍ؛ أمّا تيفيه فكان ينام، في حين ضاع دون غونزاغ في بحثه عن قافيةٍ لا يستطيع العثور عليها في قصيدةٍ مخصّصةٍ لمارغريت. وحْده لوتوريه كان يتابع باهتمامٍ هذه المحادثة.

- «أعرف عن ذلك ما يعرفه الجميع لا أكثر». قال فيلوغانيون بنوعٍ من الغضب: «لقد قُتل في سيين في توسكانيا في السّنة التي سبقت رحيلنا».

- «أليست توسكانيا.. إسبانيّة؟». سأل جوست الذي بدأ يعرف بعض الأشياء عن إيطاليا بفضل قراءاته الحديثة.

- نعم، لكنّ مدينة سيينا كانت قد ثارت وطلبت مجيء الفرنسيين.

كان هناك ضيقٌ غريبٌ يمنع فيلوغانيون من أن يتكلّم بيُسرٍ وسهولةٍ. تبادل مع لوتوريه نظرةً ممتلئةً بالحذر.

- لقد قاتلنا هناك.. هذا كلّ شيءٍ، وقد قُتل أبوك.

- لقد سمعت أنّه كان قد فقد حظوة ملك فرنسا.

- بالفعل، كان قد رفض قبلها أنْ يلتحق بالقطعات التي تدافع عن البيمون.

- لماذا أرسله الملك إذاً إلى سيينا طالما أنّه رفض أن يقاتل في البيمون.

- «لمْ يرسله». صرخ فيلوغانيون، لكنّ الضّيق نفسه منعه أن يفسّر أكثر من ذلك.

كان توريه ينظر إليه بعمقٍ، ثمّ حوّل بصره بصرامةٍ إلى أبناء كلامورغان.

- «هل يعني ذلك»، قال جوست بألمٍ: «أنّه كان مع الإسبان؟».

- «هذا كلّه غير واضحٍ». قاطعه فيلوغانيون بسرعةٍ، وأضاف بصوتٍ قويٍّ: «أنا لمْ أكن هناك أصلاً».

تَلت ذلك فترةٌ طويلةٌ من الصّمت.

- «وأمّنا، هل كنت تعرفها؟». تدخّلت كولومب متسائلةً.

منذ فترةٍ طويلةٍ كانت تنتظر الفرصة لتطرح هذا السُّؤال المرْبك، وبما أنّه قد بدا أنّ الضّيق لن يزيد أكثر في هذه المرّة، فقد قرّرت أن تطرحه.

كان الصّمت الذي حلَّ كثيفاً إلى درجة أنّه انتزع دون غونزاغ من أشعاره، وتيفيه من نومه.

- «لا». قال فيلوغانيون من دون أن يزيد كلمةً أُخرى.

ولكي لا يُطلب منه أكثر من ذلك، نهض فجأةً، واقترح نخباً جديداً للفارس الجديد:

- «الآن يا أولادي». قال بسرعةٍ حتّى لا يعودوا إلى الأسئلة المحرجة: «هناك شيءٌ أخيرٌ أريد أن أقوله لكما. لقد قمتما بخدمتي جيّداً، على الرغم من أنّ ظروف رحلتكما إلى هنا لمْ تكن عاديّةً، وواجبي...».

في اللّحظة التي أراد فيها إتمام تلك الجُملة، توقّف عن الكلام، وظهر في وجهه الأسْود من كثرة الشّعر شريانٌ صغيرٌ يتحرّك فوق ذقنه.

- ... أنْ أقول لكما إنّ لديكما مطلق الحرّيّة إنْ كنتما تريدان الإبحار عائدين على ظهر (لا غراند روبيرج)، على أنّ هذه الباخرة لا تحمل على ظهرها أيّ مسافرٍ فيما عدا السّيّد الكاهن، فإنّني أسمح لكما بذلك.

ارتعد جوست وكولومب، ونظرا إلى بعضهما. قرأ كلٌّ منهما في عينيّ الآخر الاضطّراب نفسه تُجاه معنى هذا الانفعال.

- لست أطلب منكما إجابةً فوريّةً. تناقشا حول الموضوع. ستُقلع (لا غراند روبيرج) غداً بعد الظُّهر؛ ولديكما الوقت الكافي من الآن حتّى لحظة نزع السُّلّم لاتّخاذ القرار.

*

لمْ يقلْ جوست أيّة كلمةٍ عندما ذهبا إلى النّوم. في اليوم التّالي سحب كولومب جانباً ليتناقشا حول قرارهما النّهائي. بدآ بالسّير على طول الدَّرب الصَّغير الذي يفصل أساسات القلعة الشّماليّة عن الخطّ المتعرّج لأرصفة المرفأ، الذي تحوّل إلى مكانٍ للتّفكير لمن يصاب بالكآبة، ومكاناً للتآمر لمن يشعر بالتّمرُّد.

كان جوست قد حضّر خطاباً طويلاً أصغت إليه كولومب، وهي تسير ببطءٍ إلى جانبه. شرح بصراحةِ الأسباب كلّها التي تدعوهما إلى الرّحيل: سرقة ميراث كلامورغان، مستقبلهما، الاحترام الذي يجب أنْ تناله كولومب؛ ولقد جهد ليُضفي على الحُجج التي كان يسوقها قوّةً مهيمنةً. بعد ذلك بدأ يتحدّث عن الوضع المعاكس: حالة فيلوغانيون اليائسة، المساعدة التي يمكن أن يحملاها إليه، وعظمة فرنسا الأنتاركتيكية.

كانت كولومب تبتسم، وتترك نظرتها تسرح على الشّاطئ البعيد، من جهة جزيرة مارغاجيت التي كانت تتبدّى في البعيد. كانت الشّمس تؤكّد من جديدٍ، وعلى نحوٍ أكبر انتصارها، في حين راحت الغيوم المنهزمة تزحف على الأرض من جهة الغرب وقد تمسّكت بكل قواها بسلسلة جبالٍ بعيدةٍ. فاضت الطّبيعة بمزيدٍ من الخضرة بفضل أمطار الأسابيع الماضية وضاعفت من حنانها ومن إغرائها.

عندما سكت جوست أخيراً، نقلت كولومب نحوه نظرتها الّلمّاعة المشبعة بالزُّرقة التي أضافها البحر، وقالت له، وهي تضحك:

- كم تبذل من الجهد يا جوست الحبيب! هل تظنُّ أنّني لا أعرف من زمنٍ بعيدٍ ما ترغب به؟

- «ما معنى ذلك؟». صرخ جوست، وقد احمرّ وجهه.

أمسكت به، وبدأت تقفز من حوله، ثمَّ ذهبت للجلوس على كوم الحجارة. كانت تلك الأنقاض الجافّة قد بدأت تعكس حرارة الشَّمس، في حين راحت ترتعد بفعل النّسمات بقايا أعشابٍ ابيضّت من الملح، ومن الغبار.

- سوف نبقى، وأنا سعيدةٌ بذلك.

كان جوست فريسة انفعالاتٍ متناقضةٍ. ما كان يحبّ أن تُقرأ أفكاره بسهولةٍ. في نظره كان على الرّجُل، وخصوصاً إن كان فارساً، أن يكون شجاعاً، وبالقَدْر نفسه كتوماً لا يُسْبر سرّه، لكنّه من جانبٍ آخر شعر بنوعٍ من الارتياح؛ لأنّه ليس مضطّراً لأن يعرض كل ما كان يشعر به، وكلّ ما لمْ يكن يحبُّ ذِكره.

ذلك أنَّ الواجب الذي كان يطمح إلى القيام به من خلال مساعدة فيلوغانيون في وضعه الخطير كان بسبب المودّة الصّادقة التي صار يشعر بها تُجاه الفارس. الفرصة السّياسيّة لتأسيس فرنسا الأنتاركتيكية لمْ تكن بالنّسبة إليه سوى المظهر الذي اكتسبته بالمصادفة فكرة الشّرف، والمجد، والتّضحية، التي تجد جذورها في التخيّلات الأكثر روعةً، التي كان يغذيها في طفولته.

فبعد أن تبحر (لا غراند روبيرج) التي يقودها بوا لو كومت، لن يبقى لمساعدة فيلوغانيون سوى لو توريه، ودون غونزاغ التَّعِس الذي تجعله صحّته المتدهورة يوماً بعد يومٍ أقدر على قرض الأشعار منه على القيام بأيّة مهمّةٍ أُخرى.

كان جوست يشعر أنّه منذورٌ للفعل وللقيادة، وكانت كولومب بابتسامتها تعفيه من أن يشرح السّعادة كلّها التي غمرته من جرّاء ذلك.

- «وأنتِ؟». سألها كأنّه يؤكّد أنَّ القضيّة صارت واضحةً بالنّسبة إليه.

استغرقت في التّفكير لحظةً قبل أن تجيب. ما كانت ترغب به لمْ يكن أقلّ وضوحاً ممّا قاله جوست، لكنّها لمْ تكن مثله تقوم بالأشياء من خلال الاستنتاج والحُجج المجرّدة. حاولت أن تحلّل بوضوحٍ ما تشعر به، ورأت أنّ هناك شعورين يسيطران عليها: الأوّل هو المتعة التي تشعر بها من مشاركة جوست سعادته، لكنّها لمْ تكن تريد أن تقول أيّ شيءٍ عن ذلك، وتفضّل أن تجعله يعتقد أنّ لديهما الأحلام نفسها، لكنّ ذلك لمْ يكن صحيحاً تماماً، ففي الواقع، كانت فرنسا الأنتاركتيكية آخر همومها، وهي تنظر إلى تلك الأفكار الكبيرة بالنّظرة السّاخرة نفسها التي تلقيها على فيلوغانيون الذي يدّعي أنّه يمثّل تلك الأفكار، وفوق ذلك، كان يجتاحها شعورٌ آخر منذ عدّة أيّامٍ.

- «أريد أن أرجع إلى الهنود». قالت له.

مصير باراغواتشو، صديقاتها، وذلك السَّجين الذي ينزع القواقع من عِقده، الشّباب، الشُّيوخ، الأولاد، المقاتلون... كانت مشتاقةً إلى القبيلة بأسرها.

- «الهنود!». صرخ جوست: «مُؤكّدٌ أنّكِ لا تفكّرين بذلك. لقد صاروا في حالة حربٍ معنا الآن».

- «أقصد هنود السّاحل». قالت له معترضةً.

ردّة فعل جوست أجبرتها على أن تجادل، لكن لمْ يكن لديها أيّ مشروعٍ، ولا أيّة نيّة حقيقيّةٍ. ما تعرفه فقط هو أنّها تريد أن تعيش مرّةً ثانيةً ذلك السّلام الواسع الذي يهيمن على الغابة، وأن تستحمّ في الشّلّالات،

وأن تجبر نفسها على أن تصير ظلّاً بلا ضجيجٍ؛ كي تتوصّل إلى أنْ تمشي في الطّبيعة من دون أن تزعجها.

- أعرف قبيلةً أُخرى في الدّاخل ربّما يمكن أن تساعدنا.

كانت ترمي الأفكار جزافاً من دون تفكيرٍ:

- وأنا الوحيدة هنا التي تستطيع أن تتحدّث لغتهم.

نظر جوست إلى أخته. غرابة وجهها لمْ تلفت نظره قطّ كما الآن، عيونها التي تبدو كأنّها في الوقت ذاته تسبر الأغوار في الدّاخل، وتعكس إلى الخارج روح من تتأمّله، هذه الجميلة التي تزداد اكتمالاً بطول جسدها، ونحوله. صارت امرأةً فلورنسيّةً تماماً مثل تلك التي صوّرها رسامو المدرسة الفنيّة التي ازدهرت في القرن الماضي.

ما يفصل بينهما صار بالنّسبة إليه، وللمرّة الأولى، أكثر وضوحاً ممّا جمع بينهما في زمن الطّفولة. ملأته الجاذبيّة المضطّربة لهذه الاختلافات بانفعالاتٍ مرعبةٍ.

- «بالتأكيد». قال، وهو يحاول أن يسبغ على نفسه قُدرة رجُل السّياسة على التّحكُّم بالمشاعر: «لا شكَّ في أنّكِ ستكونين مفيدةً للغاية كتُرجمانٍ».

- «وأنت، هل تستطيع أن تقنع فيلوغانيون بذلك؟». قالت من دون أن تشكّ بأنّ الفارس الجديد سيتلقّف هذه الصّيغة التي لا يترتّب عليها نتائج كأساسٍ للتّفاهم؛ أيْ: إنّها ستكون بالنّسبة إليهم بمنزلة قَسَمٍ.

فكّر طويلاً، وقال في النّهاية:

- ليكُن. أتعهّد بذلك.

شعر الاثنان بالمفاجأة من المنحى الذي أخذه مصيرهما، وعادا إلى الزّوارق لكي يريا (لا غراند روبيرج) وهي ترحل.

الفصل 12

- «تابعي من دوني، لمْ أعد أستطيع الاستمرار». تأوّه كانتان، وهو يسقط جالساً على جذعٍ كبيرٍ.

كانت الأرض صاعدةً، فقدت صلابتها، وراحت تتهاوى تحت الخطوات. أجمات الجمّيز والجكاراندا كانت ترفع عالياً فوق الأرض جذوعَ أغصانها الأولى الثّلاثيّة التي تحمل مظلّة الأغصان مثل قبّةٍ؛ أمّا الشَّمس فقد انكسرت أشعّتها حين كانت تمرّ عبر الأوراق كما يحصل في الزّجاجيّات الملوّنة المزيّنة بالرُّسوم النّباتيّة؛ وبذلك أعطت الغابة مظهرها المنظّم والضّخم الذي يشبه كاتدرائيّةً، وهو ما جعل كانتان يشعر بضيقٍ كبيرٍ.

- «هيّا، الوقت غير مناسبٍ لأن تضعف». قالت كولومب بانزعاجٍ.

كانت تمسك بيدها إحدى بوصلات الباخرة التي أراد فيلوغانيون أن يعيرها إيّاها كي تجد طريقها في الأماكن المغطّاة بالنّبات.

- كنت أعتقد أنّكِ تعرفين الطّريق، وأنّكِ تعرفين كيف تجدين أصدقاءكِ.

- «قلت ذلك لكي يقبل الأميرال أن نذهب». قالت كولومب من دون أن تتوقّف عن تفحُّص البوصلة المظلمة.

- «يا إلهي!». تنهّد كانتان قائلاً.

لمْ يكن يخاف من الخطر بقَدر ما يشعر بالهمّ مسبقاً من فكرة أن يُنهي حياته بعيداً عن البشر، ومحاطاً بالقرود.

- «تخيّلي ألّا أراهنّ بعد اليوم؟».

كانت الـ(هنّ) تدلّ على رفيقاته الأربع اللّواتي أغرق كولومب بالحديث عنهنّ منذ رحيله عن الجزيرة قبل ثلاثة أيّام.

- «لا أفهم». تمتمت كولومب غير مهتمّةٍ بتأوّهات الواعظ: «نحن تقريباً في المفترق الذي يفصل الخليج عن الجزء الآخر، لكنّنا لمْ نلتقِ بأحد».

- «بمن تريدين أن نلتقي في مكانٍ كهذا بربّك؟». قال لها كانتان متوسّلاً- لا يخفى على أحدٍ أنّه ما من كائنٍ حيٍّ غامر بالوصول إلى هنا من قبل.

ذلك أنّه لمْ يكن يعرف عن الهنود سوى الصّورة التي كوّنها عنهم بعد أن استأجر أربعةً منهم ليدلّهم على الجنّة؛ أمّا كولومب، فكانت تتذكّر أنّها قد قطعت مثل هذه العوائق في الأدغال من دون أن تخرق شيئاً من سكونها. كانت تعرف أنّ الهنود يستطيعون ألّا يغيّروا شيئاً من صمت القبور هذا، الذي كانت تبدّده من وقتٍ إلى آخر تعويذاتٌ رنّانةٌ تطلقها عصافيرُ غير مرئيّةٍ، أو قرودٌ مزمجرةٌ. عدم ظهور أيّ كائنٍ بشريٍّ منذ دخولهما إلى الغابة طمأنها في البداية؛ لأنّها كانت تخشى القبائل المعادية الموجودة على السَّواحل، لكنّ عزلتهما الآن صارت موضع قلقٍ لها، وكانت تجد لها تفسيرَين معقولَين، لكنّهما سيّئان بالمقدار نفسه: إمّا يعني ذلك أنّه لا يوجد أيّ إنسانٍ هنا، وأنّهما قد ضاعا؛ وإمّا أنّ شعور العدوانيّة تُجاه المستعمرين وصل إلى القبائل جميعها، وعليهما أن يخشيا أن يصيرا بين لحظةٍ وأُخرى ضحايا هذه العدوانيّة.

كانت كولومب تلصق أنفها بالإبرة الممغنطة، وتتابع التّوجّه نحو الجنوب، وهي تمشي على نحوٍ مُلتوٍ جيئةً وذهاباً بين الجذوع عندما بدرت عنها فجأةً صرخةٌ مدوّيّةٌ.

- «ماذا حصل؟». صرخ كانتان وهو يقف.

بلحظةٍ صار بقربها، وهو ينظر حوله من دون أن يفهم.

- «على الأرض...». تمتمت، وهي تمدُّ إصبعها.

كان هناك جسدٌ عارٍ مرمياً على ظهره. كان هنديّاً من قبيلة باراغواتشو، فالزّمرّدة على شفته تبدو واضحةً، لكنّ الموت جعل فمه يرتخي ما سبّب سقوط الشّفة المثقوبة على أنفه مثل عنق جرّة. كانت عيناه مفتوحتين، وتفسّخ الغابة قد بدأ يرسم حول جثّته هالةً مبيّضةً من الدّيدان التي كانت بلا شكّ قد ملأت أحشاءه، لكنّ الجزء الذي ظهر من جسده لهم كان ما يزال سليماً؛ وكذلك الجلد الذي كان ما يزال يحتفظ بآثار الدّهان الطّقسيّ المرسوم بثمرة الغينيبات على الفخذين؛ إذْ لم يقطعه أيّ جرحٍ، أو تمزُّقٍ. لمْ يكن الرّجُل قد قُتل في معركةٍ إذاً، إضافةً إلى أنّه من النّادر أنْ يظلّ مقاتلون مرميّين هكذا في ساحة المعركة، فالهنود يولون عنايةً كبيرةً لدفن موتاهم؛ في حين كانوا -على ما يقال- يأكلون أعداءهم في أرض المعركة نفسها؛ أمّا هذا فلمْ تكن قد ذاقت لحمه سوى الدّيدان.

لمْ تسمح عتمة الغابة بتفحُّصٍ أكثر دقّةً، لكنّ كانتان، وقد سدّ أنفه، كانت لديه شجاعة أن يركع أرضاً ليتأكّد وهو يقترب من تفصيلٍ صغيرٍ أثار اهتمامه.

- «انظري إلى هذه البثرات». قال لكولومب التي لمْ تُظهر أيّ اهتمام بهذا المشهد، وشدّته لكي يبتعدا: «إنّ لديه بثوراً على جسمه كلّه. شيءٌ يشبه جدري الماء».

على شؤم اكتشاف هذه الجثّة، فإنَّ ذلك لمْ يقلّل من عزيمة كولومب. على العكس، كان ذلك دليلاً على أنّهما صارا قريبَين.

- «لا شكَّ في أنّه لمْ يكن لديه الوقت ليصل إلى القرية». قالت، وهي تعود للسّير على الدّرب.

لمْ يعد كانتان يفكّر بالرّاحة. تبعها وهو مضطّربٌ. بعد ساعةٍ اكتشفا جثّةً أُخرى عليها العلامات نفسها.

على الرغم من ذلك ظلّت كولومب تحتفظ بمزاجها الحَسن؛ لأنّها كانت قد بدأت تتذكّر المكان. وصلا إلى المدخل العريض للقرية حيث كان يوجد فخٌّ مخفيٌّ شرحت لكانتان آليّته بفرحٍ. دارا حول الفخّ، ورأيا من بعيدِ الكوخ الكبير، وركضت كولومب بكلّ فرحٍ، وأعلنت عن قدومها بالصَّرخات.

لكنْ لم يكن هناك شيءٌ يخرق الصَّمت. كان الكوخ فارغاً، وسقفه شبه مهدّمٍ، في حين كانت الأدغال تقضم بشراهةٍ الفسحات والفتحات التي كان الهنود قد غذّوا نيرانهم بها. فيما عدا بعض الكسرات الفخّاريّة على الأرض، لمْ يكن هناك ما تبقّى من الحياة السّابقة للقرية، لكنْ لم يكن هناك جثثٌ أيضاً.

جلست كولومب على لوحٍ من الخشب، ووضعت رأسها بين يديها، وتركت نفسها أسيرة خيبة الأمل؛ أمّا كانتان الذي لمْ تكن هذه الأثار كلّها تدلّه على أيّ شيءٍ، فقد كان الأمر برمّته يعني له أنّهما توقّفا للاستراحة في مكانٍ مناسبٍ للمرّة الأولى منذ رحيلهم. أخرج أرجوحته من كيسه، ومدّها بين عارضتين خشبيّتين، وتسلّق نحوها كي ينام قليلاً، لكنّ التّأرجح أعاد إلى رأسه العذاب الذي أذاقه إيّاه الغراب الذي يجب أن يكون قد شُنق مع شريكه المسكين في هذه السّاعة نفسها. كانت تلك إحدى الأسباب التي جعلت كانتان يسعد لأنّه اختيرَ كي يرافق كولومب، لكنّ تلك الذّكرى

سرعان ما جفّفت فمه. اعتدل بجذعه داخل الأرجوحة، وهو يحمل يده إلى عنقه. المصادفة وحْدها إذاً هي التي جعلته يبصر في هذه الّلحظة بالذّات الرّجُلَ الذي كان يخرج من الكوخ، ويمرّ بصمتٍ وراء كولومب محاولاً الذّهاب إلى الغابة.

يعني ذلك أنّ هذا الشّخص قد ظلّ بلا حراكٍ، ومختبئاً حين كانا يتفحّصان داخل الكوخ. لو أنّه هنديٌّ لكان تسلّل إلى الطّبيعة من دون جهدٍ، لكنّه كان رجُلاً أبيضَ، وعلى الرغم من اعتياده الغابة كان يتّخذ احتياطات طويلةً للغاية.

- «قِف!». أمَره كانتان.

كان قد استغلّ الظّلّ حيث كان يقف ليوحي بأنّه كان مسلّحاً. بدا كأنّ في صوته بندقيّتين مسدّدتين، لكنْ مع الأسف، ومثل العادة، لمْ يكن لدى كانتان أيّ شيءٍ في يده ليدافع عن نفسه.

لحُسن الحظّ أنّ الرّجُل الهارب لمْ يكن يبدو عدوانيّاً، فبعد أنْ أدْرَك أنّ أمْره قد كُشِف، باعد بين ذراعيه قليلاً واستدار آتياً إلى موضع الضّوء في الفسحة قُبالة كولومب.

كان له ذلك الوجه المجعّد الذي لا عُمر له، مثل الذين لا نعرف إن كان المناخ المداري قد جعلهم يشيخون قبل الأوان، أو حفظهم كما هم أطول من الوقت المحدد. الوبر الأشقر الذي ينتظم مثل شعيرات كوز ذرة على قمة جمجمته كاد يجعله مناسباً ليُدرج بين أنواع الأناناس ضمن مجموعات تيفيه. كان يلبس مثل المترجمين ثياباً مصنوعة من الأقمشة المحلية، لكنّه على العكس من الغراب وجماعته، لم يكن قد بذل أيّ جهدٍ لتأتي ثيابه تقليداً لملابس النّبلاء. بزّة وبنطال طويلان لا شكل لهما جعلاه في خشونتهما يشبه كولومب التي ذهب ليجلس بقربها.

- «هالو»، قال بهدوءٍ.

- «هل أنت فرنسيّ؟». سألته كولومب بلهجة المفاجأة، بلْ وبنوعٍ من اللّوم لكثرة انزعاجها من أنْ تجد رجُلاً أبيضَ في هذه القرية حيث كانت تعتقد أنّها ستلتقي بأصدقائها.

- «الجميع هنا فرنسيّون، حتّى لا يُؤكلوا»، ثمَّ أضاف بلكنةٍ قويّةٍ جعلت كلامه بالكاد مفهوماً: «حتّى أنا، الإنجليزيّ».

- «وماذا تفعل في هذه القرية؟». تابع كانتان بلهجة الغضب الخارق الذي اعتقد أنّه قادرٌ على الإيحاء بالخشية وبالاحترام.

لكنّ الانجليزيّ كان ذا مظهرٍ يخلو من الانفعال إلى درجة أنّ هذه التّهديدات بَدت سخيفةً للغاية.

- مثلكم -على ما أعتقد- أنا أتنزّه.

- «ما الذي حلّ بالهنود؟». سألته كولومب.

- «من أين أتيتم لتجهلوا ما حلّ بهم؟». قال الرّجُل، وهو ينظر إليها بانتباهٍ.

لفتت انتباهه غرابة وجمال نظرتها، لكنّه لمْ يُبدِ أيّة خشيةٍ.

- «لقد انتهى أمرهم دفعةً واحدةً بسبب الوباء». قال مكملاً كلامه.

قفز كانتان من الأرجوحة، ولأنّ الفضول تفوّق لديه على الحذر، اقترب بدوره من الضّوء.

- من جدري الماء، أليس كذلك؟

- لا أعرف شيئاً. لا يوجد أطبّاء هنا. أنت تعرف الهنود. يقولون إنّ السّبب روحٌ شرّيرةٌ، وأطلقوا عليها اسماً من عندهم.

- «هل ماتوا كلّهم؟». أصرّت كولومب.

- لا. ليس كلّهم، لكنْ كثيرون. لقد سمعت عن كوانيمبيك؟

- لا، من هو؟

هنديٌّ شجاعٌ كان قد قتل كثيراً من الأعداء في المعركة، وأسر عدداً كبيراً منهم. كان شعبه يحترمه كأنّه ملكٌ. السّماسرة في محطّات التّجارة التي كان يزورها من وقتٍ إلى آخر علّموه كيف يطلق القذائف. أكثر ما كان يحبّه هو أن يضع مدفعاً على كلّ كتفٍ، ويطلق منهما النّار من دون أن يفلتهما.

وقف الإنجليزيّ، وقلّد ضاحكاً كيف يلقّم الهنديُّ مدفعين من الخلف مديراً رأسه لكي يسدّد، ثمَّ عاد للجلوس وهو مكفهرٌّ.

- مع الأسف، مات المسكين خلال يومين، وقد أكلته البثور.

هزَّ كانتان رأسه. لمْ يكن ليشعر باليأس من اختفاء مجنونٍ مهووسٍ بالحرب، لكنّه فكّر بهنديّاته الأربع، وأصدر زفرةً قويّةً.

- «هل أتيتم من محطّات التّجارة؟». قال الإنجليزيّ بشيءٍ من الجرأة.

- «لا. من الجزيرة. نحن مع فيلوغانيون». قالت كولومب بسرعةٍ؛ لأنّها شعرت بالثّقة تُجاه ذلك الرّجُل.

- «يا لبؤس الرّجُل!». صرخ الإنجليزيّ، وهو ينتصب بقفزةٍ واحدةٍ.

ندمت على صراحتها، وشعرت بكانتان يتراجع.

- «إنْ وجدكم الهنود»، تابع الإنجليزيّ: «لا تدلوا بهذا الاعتراف على الإطلاق. إنّهم مقتنعون أنّ مجيء مستعمرتكم هو الذي حمل هذه الأمراض».

- من الذي أقنعهم؟

- تراجم السّاحل.

- «وأنت، ألست منهم؟». قال كانتان مستغرباً.

- «أنا!». قال الإنجليزيّ، وقد انتصب مستنكراً.

- «اعذرني»، تابع كانتان: «كنت أعتقد أنّ كلّ البيض في هذا السّاحل كانوا من أصدقاء الغراب».

- «الغراب». تلفّظ الإنجليزي الاسم باحتقارٍ: «صحيحٌ أنّ قاطع الطّريق هذا هو الذي تعامل معكم، وقد نلتم جزاء ذلك».

- «هو أيضاً في هذه السّاعة»، قاطعه كانتان، وهو يكاد يبدو سعيداً: «لأنّ التّرجمان سيتدلّى من طرف مشنقةٍ.

تلى ذلك الحديث صمتٌ منزعجٌ».

- «ألم تسمعوا قطُّ بباي لو؟». قال الإنجليزي.

نظر كلٌّ من كولومب وكانتان لبعضهما باضطّراب.

- أهو أنت؟

- «لا». شهق الإنجليزيّ: «أنا بكلّ بساطةٍ تشارلز».

- أنا كانتان.

- وأنا كولان.

بعد أن تعارفوا، ابتسم الجميع برضاً. لمْ تستطع كولومب أن تتخيّل أنّ هذا المكان الذي عاشت فيه مع الهنود يمكن أن يصير مسرحاً تتحرّك فيه شخصيّاتٌ مختلفةٌ تماماً. كان يمكن لهنود توبي الذين كانوا يعيشون هنا أن يضحكوا من فكرة أن يستطيع اسم التّقريب بين كائنين، ويسمح بمعرفة من هما.

- «باي لو هو أهمّ إنسانٍ في هذا الخليج كلّه». قال الإنجليزيّ بجدّيّة.

- «إلى أيّة قبيلةٍ ينتمي؟». سألت كولومب.

ضحك تشارلز، وقد ظهرت بقايا أسنانه البشعة التي ظلّت صامدةً على السَّفرات العديدة.

– إلى قبيلتنا نفسها، أو قبيلتكم. بالأحرى، إنّه رجُلٌ أبيضُ، وكان فرنسيّاً قبل أن يصير... ما صار إليه.

– ماذا يعني ذلك؟

طرح كانتان هذا السُّؤال مقطّباً حاجبيه، ما يعني أنّه كان يخشى تعداداً جديداً للمنجزات الحربيّة على طريقة كونيمبيك، أو للخدع على طريقة الغراب.

– يعني أنّه صار رجُلاً ذا حكمةٍ كبيرةٍ، وطيبةٍ رائعةٍ.

– «وأين يعيش هذا القدّيس؟». سأل كانتان مع شيءٍ من السُّخرية في صوته، فما كان يعرفه عن تلك البلاد لا يهيّئه ليعتقد أنَّ مثل هذه المزايا يمكن أن تسمح لأحدٍ أن يبقى على قيد الحياة فيها، وأن ينال الاحترام.

– على مسافة يومين من هنا، في الغابة التي يسمّيها الهنود تيجوكا.

– «لماذا سألتنا إنْ كنّا نعرفه؟». سألت كولومب.

– كنتم تريدون معرفة إنْ كان البيض كلّهم مع الغراب. حسنٌ، أحاول أن أوضح لكما وجود كثيرين منهم لا يعترفون لحُسن الحظّ بسُلطة اللّصوص.

– وباي لو هو بشكلٍ، أو بآخر زعيم هؤلاء؟

– «آه»، قال الإنجليزيّ ساخراً: «ليته يسمعكما! هو، زعيم؟ ربّما. لمْ يخطر في بالي أن أتصوّر شيئاً من هذا القَبيل. بكلّ الأحوال هو زعيمٌ لا يعطي أوامر، ولا يعاقب، ولا يوزّع مكافآت».

الوصف اللّطيف لهذا الإنسان الذي لا يعرفونه جعل القادمين الجُدد

يفقدون الاهتمام به. كولومب خاصّةً كانت قد عادت إلى حنينها للهنود، ولا يعزّيها شيءٌ.

- لقد عرفنا الهنود الذين كانوا هنا. هل تعتقد أنّ من الممكن العثور عليهم؟

- «سيكون ذلك صعباً». تمتم الإنجليزيّ، وهو يهزّ رأسه: «الهنود لديهم عادة أن يرحلوا هكذا، في ليلةٍ واحدةٍ؛ لأنّ الخشخيشات تأمرهم بذلك لتهدئة الأفكار، لا بلْ يبدو أنّ بعضهم قد وصل إلى النّهر الكبير الذي يجتاز غابة الأمازون في الغرب».

كانت كولومب تداعب بطرف قدمها حبّتَيْ عقدٍ بيضاويّتين كانتا قد سقطتا في التّراب. خطر في بالها للحظةٍ أن تبحث عن مثل هذه الآثار لتتبع طريق هروب الهنود، لكنّها سرعان ما تأكّدت من عبثيّة ذلك. تنهّدت.

- «الشّخص الوحيد الذي يمكن أن يعرف شيئاً هو باي لو». أضاف تشارلز موضحاً.

- لقد وصفته لنا كحكيمٍ عجوزٍ، وتخيّلته من النُّسّاك المنعزلين.

- إنّه كذلك، لكنّه يعرف كلّ شيءٍ، وتلك معجزةٌ، بلْ إنّني متأكّدٌ من أنّه يعرفكما.

- نحن؟ هل تقصد أنه يعرف فيلوغانيون.

- لا. أنتما، أنتما الاثنان خاصّةً، إنْ كانت لديكما أيّة علاقةٍ مع الهنود.

اضطّرب كانتان للحظةٍ، ثمّ انطلق قائلاً:

- ولماذا لمْ يظهر قطُّ؟ إنْ كان على تلك الدّرجة من الطّيبة، وإنْ كان يعرف كلّ شيءٍ، لماذا تركنا في براثن لو فرو حتّى كدنا نموت؟

- لأنّ باي لو يعرف كيف ينتظر.

- «أنت إذن تعتقد أنّه يمكن أن يساعدنا على إيجاد الهنود؟». سألته كولومب، لكنّ كانتان أضاف قبل أن يأتي الجواب:

- هل تظنّ أنّه يمكن أيضاً أن يساعد المستعمرة على البقاء على قيد الحياة من خلال تقديم طعامٍ طازجٍ وماءٍ؟

- «باي لو ليس تاجراً». قال الإنجليزيّ ببطءٍ، وهو يفكّر: «وليس لديه ما يبيعه، ولا يتمنّى شراء أيّ شيء».

عبّر كانتان عن خيبة أمله بتقطيبةٍ.

- لكنْ إنْ كانت قضيّتكم عادلةً، وإنْ أراد أن يساعدكم، فإنّه يستطيع فعل كل شيءٍ.

كانت كولومب قد عقدت عزمها، وعندما استدارت نحو كانتان فهمت أنّه كان يشاطرها الرّأي. قالت وقد فتحت عينيها على اتّساعهما:

- هل تقبل يا تشارلز أن تقودنا إلى باي لو الذي نرغب كثيراً بمعرفته؟

أمسك الإنجليزيّ بيديها، وصرخ:

- حقاً؟ يسعدني ذلك. يسعدني كثيراً. في كلّ مرّةٍ أستطيع فيها أن أعرّف فيها باي لو إلى أيّ شخصٍ يستحقّ ذلك، أشعر أنّي أقوم بشيءٍ... مفيدٍ.

كسر التحفّظ البريطاني تلك الانطلاقة الغنائيّة، لكنّ الانفعال ظلَّ واضحاً في صوته من دون أن يدعمه بالكلمات.

- لنذهب اليوم مساءً إن أردتما، ما زلنا قريبين جدّاً من السّاحل الذي أحبّ. الغراب مات. هذا مفهومٌ، لكنْ هناك لصٌّ شابٌّ قد وصل معكما على ما يبدو، واستطاع أن يهرب، وهو يدّعي أنّه صار زعيم المهرّبين في السّاحل.

مارتان. قالت كولومب في نفسها.

- يبدو أنّه أكثر خطورةً ممّا كان عليه الغراب.

ذهب كانتان ليطوي أرجوحته. أكل كلّ واحدٍ منهم سمكتين مدخّنتين، وشربوا بعض الماء، وبدأوا المسير.

قادهما تشارلز عبر الغابة. اجتازوا هضاباً مزروعةً بالباكوس ذي الأوراق العريضة، وبأجماتٍ عَطرةٍ من المستيكة نبتت ضمن فتحات منبسطةٍ. وجدوا في طريقهم أدغالاً مظلمةً، وامتداداتٍ واسعةً مغطّاةً بشجيرات القرفة المزهرة.

لمْ يتوقّفوا في أثناء صعودهم، لكنّهم اضطرّوا إلى القيام بكثيرٍ من الالتفافات التي فرضتها الصُّخور، أو مجاري المياه البرّيّة، ما سمح لهم من وقتٍ إلى آخر بتأمُّل الخليج الذي ازداد بُعداً، وفي صباح أحد الأيّام دخلوا ضمن أجماتٍ واسعةٍ من أعواد القطن، ومن بعيدٍ كانت تبدو شجرات صنوبر تنبثق عالياً.

- «تيجوكا». قال تشارلز وهو يمسح العرق عن جبهته: «سوف نلتقي بباي لو قريباً».



III

أجساد وأرواح

الفصل 1

مضت سنةٌ منذ رحيل (لا غراند روبيرج) إلى فرنسا. عاد الشّتاء ومعه الرُّطوبة العفنة، وسبخات المياه، والعواصف التي تسيل أمطاراً، ثمَّ ترك من جديدٍ مكانه لصيف المدارات غير المتناهي. في تلك السّنة من الحرمان حيث كان الماء نادراً، ويُسحب من قاع الخزّانات، أرادت الشّمس الظّالمة أن تعطي للمدافعين المساكين عن حصن كوليني امتحاناً جديداً، فالحَرُّ بقي شهوراً طويلةً كثيفاً يبثّ الجفاف في كلّ شيءٍ. لمْ تكن لدى الرّجال القُدرة على حماية أنفسهم بالظّلال؛ لأنّ أشجار الجزيرة كانت قد قُطعت كلّها، وطيلة اللّيالي الخانقة، كان النّوم ينأى عن جفونهم، ولذلك راحوا يتأوّهون في أراجيحهم.

كان كلّ شيءٍ يسير متباطئاً، فلقد نال النُّحول والتّعب من المستعمرين، وأصيب معظمهم بأنواع الحُمّى، ولذلك كانوا لا يبدون أيّ استعجالٍ لإتمام العمل. لمْ يتقدّم بناء الحصن، فأسواره التي ظلّت في منتصف ارتفاعها لمْ تكن تعطي الانطباع بأنّها ستنتهي قريباً، وقد شعر الجميع بأنّ طموح فيلوغانيون كان أكبر ممّا تسمح به القوّة التي لديه. أغرق فصل الأمطار كلّ شيءٍ بالماء، وجعل الجدران تتساقط، وأصاب التّدهور البناء والمعنويّات بالقدْر نفسه.

منذ عودة الحَرّ، صارت اليابسة قُبالة الشّاطئ بما فيها من غاباتٍ سميكةٍ وارفة الظّلال تمارس جاذبيّةً أكثر قوّةً من أيّ وقتٍ مضى. وعلى الرغم من مضاعفة الحراسة، والمراقبة الدّائمة، استطاع تسعة رجالٍ آخرون أن يهربوا.

كان جوست خلال تلك السّنة قد صار رجُلاً مكتمل الرُّجولة، وقد أفعمه ذلك بالرّضا. كان قد قرأ المؤلفات كلّها في المكتبة التي حملها معه فيلوغانيون، فأثبت قدرةً كبيرةً على التّفكير ومناقشة المواضيع المهمّة في عصره، بالإضافة إلى أنّ دروس السّلاح جعلت منه مقاتلاً ممتازاً. كانت القوّة التي يتعامل بها مع السّيف، أو البندقية مثيرةً للإعجاب، خصوصاً أنّه مثل الآخرين قد أصابه الهزال، ونالت منه البثور والقروح على جسده الذي كان بالأصل نحيلاً، بدا كأنّ تلك المشكلات المُتعِبة قد هاجمت جلده وصولاً إلى الأدَمة حتّى كاد يظهر عموده الفقري كما هو. احتلّت عيناه السّوداوان المساحة الأكبر من وجهه، وأكلت اللّحية التي لمْ يستطع حلاقتها بسبب نقص الماء ما تبقّى. وحْده شعره الأسود كان يحتفظ بكلّ قوّته. كان فيلوغانيون قد جعل منه ساعده الأيمن مثلما كان الأمر مع لو توريه الذي كان يقود الفرسان.

كان جوست مسؤولاً عن الورشة، وذلك هو العبء الأعظم، فهو على احتكاكٍ مباشرٍ بالرّجال، وعليه أن يجبرهم على العمل. كان الحرمان يعطيهم حُجّةً ليمتنعوا عن العمل، لكنّ السّبب الحقيقيّ في بطء العمّال كان الكراهية التي يشعرون بها تُجاه فيلوغانيون الذي يحمل بنظرهم مسؤوليّة كلّ شيءٍ: خيبة الأمل لكونهم أتوا إلى تلك الجزيرة، قسوة حرمانهم من الكحول ومن الرّفقة، والمراقبة التي صاروا يخضعون لها الآن. جوست بدوره، لمْ يعد يلقى لدى العمّال في الورشة سوى السُّخرية

والعدوانيّة الصّمّاء منذ أن صار يعتنق نوعاً ما أفكار فيلوغانيون حول فرنسا الأنتاركتيكية، وعظمة ممارسة العفّة، وجمال التّضحية، وعندما يحاول أن يقنعهم بوجوب إنهاء الحصن قبل مجيء الأمطار الجديدة، وخصوصاً عندما يذكر خطر البرتغاليّين، كان يرى في عيونهم الأمل أكثر من الخشية. كلّ شيءٍ كان يبدو لهؤلاء الرّجال أفضل من استمرار دكتاتوريّة فيلوغانيون البغيضة، ولئن أتى البرتغاليّون، فسيستقبلونهم كمحرّرين. لمْ يكن من المستبعد إذن اندلاع ثورةٍ جديدةٍ، ولذلك كان جوست وسائر الفرسان ينامون مسلّحين ويقومون بنوبات الحراسة على نحوٍ جماعيٍّ، وهكذا فإنّ جمال الصّباحات المداريّة الشّاحبة، والبحر الزّمرّديّ، والسّماء المعدنيّة بلا غيومٍ صارت تخفي تحتها رعباً كبيراً، ومشاعر كراهيةٍ تسبّب الذّعر مثل طلاءٍ تجميليٍّ وضع للإضحاك على جلد شخصٍ يموت.

أمّا في اليابسة، فقد استرجع مارتان سُلطة الغراب القديمة، وزاد عليها بفضل عبقريّته. فلكي يقف في وجه النّورمانديّين الذين يعيشون في الضّفّة الأُخرى، الذين كانوا يمدّون نشاطاتهم نحو كابو فريو، بدأ ينسج شبكة علاقاتٍ مع الأراضي الواقعة جنوباً فيما وراء نهر الفاز، وفي اتّجاه أقصى الشّمال حتّى باهيا، ويقال إنّ مبعوثيه صاروا على اتّصالٍ مع برتغاليّي منطقة ساو سالفادور. كانت كراهيّته لفيلوغانيون ما زالت قويّةً، وبالتّالي جعل الوصول إلى اليابسة أمراً شديد الصّعوبة على المستعمرين؛ إذْ أمر بمهاجمة زوارقهم ومنع الهنود من أن يبيعوهم أيّ شيءٍ، مع ذلك لمْ يكن تأثيره على الهنود مطلقاً لا ينازعه فيه أحدٌ، ففيما عدا قبائل ساحل البحر الذين كانت تقع عليهم مباشرةً أعمال العنف التي يمارسها مارتان، كان الهنود في غالبيّتهم ما زالوا مخلصين لباي لو الذي كانت كولومب قد التقت به في تيجوكا. وبفضل الاتّفاق الذي عقدته معه، استطاعت

الجزيرة أن تستمرّ في تلقّي المانوكا، والسّمك المجفّف، والفواكه. كانت الزّوارق تذهب لتحميلها خلال اللّيل في عمق الخليج، في الموضع الذي استطاعت فيه مجموعةٌ صغيرةٌ من الهنود الذين يحتمون بنتوءٍ صخريٍّ أن تفلت من سلطة مارتان ومترجميه، وهكذا لمْ يضطرّ الأميرال قطُّ للّجوء إلى النّورمانديّين على الشّاطئ الآخر من أجل البقاء على قيد الحياة.

بعد هذا النّجاح، كُلّفتْ كولومب أن تذهب بانتظامٍ، وبرفقة كانتان لزيارة باي لو. لمْ يكن جوست يحبّ كثيراً تلك المسالك الخطيرة داخل أراضي الهنود، لكنّه فهم فائدتها. فوق ذلك كان عليه أن يفرح لأنّ أخته استطاعت وحْدها من بين المهاجرين أن تحافظ على صحّةٍ جيّدةٍ استمدّتها من المياه الصّافية في الجبل في ظلّ الغابات العذب، والفواكه التي تلتقطها من الأشجار فيها.

في أوّل أحدٍ من شهر أذار/ مارس، وكان قد مضى على رحيلها شهرٌ، قام اسكتلنديٌّ مكلّفٌ بالرّصد والمراقبة في الجزيرة بإطلاق الإنذار بصرخاتٍ عاليةٍ. كان ذلك صباح يوم أحدٍ حين اجتازت الممرّ أربعُ بواخرَ راحت تتغلغل في الخليج. لمْ تكن تلك المرّة الأولى التي تأتي فيها بواخر إلى الخليج منذ أن استقرّوا في الجزيرة، في كلّ مرّةٍ، كان يحصل الهرج نفسه، لكن في العادة، كانت تأتي باخرةٌ واحدةٌ تسلك المسار في اتّجاه المحطّات التّجاريّة؛ أمّا هذه البواخر الأربعة فكانت تشقّ طريقها من دون تردُّدٍ نحو فور كوليني. كان الهواء يدفعها من الخلف من دون أن تكون لديها حاجةٌ لتغيير اتّجاهها في حين لم تكن الأعلام التي ترفعها مرئيّةً.

استولى على الجزيرة جزعٌ صامتٌ دام فترةً طويلةً، ففي حال كان الأسطول برتغاليّاً ستكون الهزيمة محقّقةً، وهكذا عوضاً عن أن يؤدّي الإنذار إلى استعراض القوّة، عرض أمام الجميع مظاهر الضّعف الواضحة،

فالجدران غير المنتهية ستنهار تحت وقع القنابل الأولى، والمدافع التي لمْ تنلها الصّيانة خلال مواسم الأمطار لن تطلق من البارود إلّا ما لم يكن مشبعاً بالرّطوبة؛ أمّا المقاتلون، فكانت ملابسهم مهملةً، ومنهكين من الحرمان. فوق ذلك كان يُخشى أن يستغلّ نصفهم ما تبقّى لديهم من طاقة ليغرِّزوا سكاكينهم في ظهور الآخرين.

لكنْ على العكس، إنْ كانت البواخر فرنسيّةً، فيعني ذلك أنّهم أُنقذوا!

مرّت ساعةٌ من دون أن تبدر أيّة إشارةٍ تسمح بالتّعرّف إلى القادمين. سلّم الفرسان أمرهم إلى الله، في حين توسّل الآخرون إلى الشّيطان كي يخلّصهم من الفرسان. كان الحرّ خانقاً، وهناك جحافل من النّاموس خرجت من المستنقع الصّغير حيث كانت تنمو أشجار الصّفصاف في الماضي وراحت مثل طلائع جيشٍ خائنٍ تقرص الأقدام من الكعب.

في النّهاية، استطاع فيلوغانيون أن يرى الرّاية. كانت راية ملك فرنسا.

يلتهم الأمل كلّ شيءٍ. إنْ رفضنا أن نقدم له الطّعام الذي ينتظره فإنّه يقبل أيّ طعامٍ آخر، شرط أن يساعده على البقاء على قيد الحياة. كلّ الذين كانوا يرجون هزيمة فيلوغانيون، ومجيء البرتغاليّين أطلقوا صرخات التّرحيب بمجيء الفرنسيّين. صحيحٌ أنّهم لن يتعرّضوا للأميرال، لكنّهم على الأقل سينقذونهم جميعاً. تحوّلت الجزيرة كلّها إلى صرخاتٍ من الفرح، وضجيج العناق بين أجسادٍ نحلت، واحتكاك أنوف غطّتها اللّحى. أمر فيلوغانون بتجهيز زورقين، وركب في أحدهما لكي يكون في موقع قيادة البواخر عندما تتبدّى على الرّصيف، وهكذا ذهب تحت شمس الظّهيرة القاسية من دون أن يضع قبّعته، وإلى جانبه جوست بقميصٍ مفتوحٍ يقف في الزّورق وسط حبالٍ رُميت كيفما اتّفق للاستعجال بالإبحار. عندما وصلا إلى أسفل جدار المركب الأوّل الذي كانت مقدّمته قد ابيضّت من

القواقع، بدآ حواراً موجزاً مع سطح الباخرة. كان رؤساء الحملة يريدون أن يرسوا على الأرض مباشرةً. أمر الأميرال بتعليق سُلّم حبالٍ قام الزّورقان بالانتظار تحته من دون أن يتحرّكا؛ لأنّ البحر كان ساكناً. نزل منه ثلاثة أشخاصٍ وقورين، كان أحدهم يرتدي لباس نبلاء الرّيف والآخران لباساً أسْود.

في ذلك المكان الذي لا يمكن التّحرّك فيه تمّت مراسم التّعارف. كان الرّجال الثّلاثة في حالةٍ ممتازةٍ، على الرغم من الرّحلة التي دامت أربعة أشهر.

- «فيليب دو كورغيوري، السّيّد دوبون». قال الرّجُل الأوّل الذي يرتدي لباساً من المخمل الأحمر وبنطالاً يصل إلى الرُّكبة من اللّون نفسه.

قام بحركة تحيّةٍ واسعةٍ مناسبةٍ للأرض، لكنّ موجةً مفاجئةً قطعت مسارها، وقذفت به بين ذراعيْ أحد المجذّفين.

- «بيير ريشير». قال أحد الرّجال الذين يرتدون الأسود من دون أن يتبسّم، أو يتخلّى عن مظهر الجدّيّة والاهتمام.

كانت لحيته قصيرةً رماديّةً مقصوصةً على نحوٍ مدبّبٍ، ولمْ تكن تزيّن ثيابه التي تغطّي الذّراعين والسّاقين أيّة زخارف. كانت ثيابه تلك مصنوعةً من قماشٍ سميكٍ، وسوداء مثل ريش غُرابٍ. أظهر هذا الرّجُل ما يدلّ أنّه الزّعيم، وأنّه لا يمكن التّعبير عن أيّ رأيٍ غير رأيه، وقد أشار بحركةٍ موجزةٍ إلى الشّخصيّة الثّانية التي كانت ترتدي لباساً قاتماً، وقال عوضاً عنها:

- غيوم شارتييه.

بعد برهةٍ، انطلقت ضحكاتٌ ساخرةٌ هزّت هيكل الخليج، وجعلت الماء يهتزّ من حول المركب، لكنّ فيلوغانيون لمْ يكن يرغب بأن يتسلّى بهذه الموجة التي تحولّه إلى مهرّج.

- «ملك فرنسا هو الذي أرسلكم؟». صرخ متسائلاً ليعرف إلى أيّة جهةٍ يجب أن يوجّه دموع فرحه، وأمارات رضاه.

- «لا». قال ريشير، وهو يتمسّك برأس أحد المجذّفين كي لا يقع: «كالفن. نحن مرسلون من جنيف».

كانت الأمواج قد مرّت، وعاد الزّورق إلى هدوئه. لمْ يعد هناك سوى المفاجأة والصّدمة القاسية التي ضربت دماغ فيلوغانيون، فجعلته يتهالك إلى الوراء. سقط على طوله في الزّورق، وكاد أن يجعلهم يقعون جميعهم في أعماق البحر.

•

حملوه وهو غائبٌ عن الوعي حتّى سريره، ثمَّ بدأ الأميرال يستعيد وعيه بالتّدريج، وأعطى لجوست ولوتوريه تعليماته لكي يؤمّنوا إقامة القادمين. بعد ذلك سمح لنفسه وللمرّة الأولى منذ طفولته البعيدة أن يمضي يوماً كاملاً في السّرير، حيث انغمس بقراءة رسالة كالفن التي كان دوبون قد سلّمها إليه.

خلال ذلك الوقت كانت المراكب التي رَست بالقرب من الباخرتين الأخريَين توحي بأشرعتها الملفوفة بوجود أسطولٍ فخورٍ تحت الشّمس. أفرغ سِربٌ من القوارب على الشّاطئ عناقيدَ المسافرين الذين كانوا في جوفه، لكنّ هذه الحمولة كانت مختلفةً تماماً عن الفرنسيّين الذين نزلوا من البواخر قبل سنتين على الجزيرة التي كانت ما تزال مقفرةً. القادمون الجُدد كانوا يتمتّعون بصحّةٍ جيّدةٍ؛ إذ لم يكن لديهم (فيلوغانيون) ليمنعهم من الصِّدام مع الآخرين، ولم يكن هناك ما يردعَ بواخرهم عن استهداف ضحايا مختلفةٍ من سفنٍ تجاريّةٍ تبحر بمفردها، أو قوافل غير محميّةٍ، أو سُفنٍ حربيّةٍ أقلّ عدّةً وعدداً. بفضل ذلك استطاع القادمون الجُدد أن

يتموّنوا بالأشياء الضّروريّة، لا بلْ كانت لديهم كماليّاتٌ ذات قيمةٍ؛ فقد صادروا بعد رحيلهم بقليلٍ كمّيّةً من نبيذ مادير كان سرورهم بها كبيراً؛ كما استولوا على المأكولات الطّازجة التي وجدوها في مستودعات مركبٍ هرب صاحبه الإنجليزي بسرعةٍ في مرفأ بورتماوث من دون أن يستهلك منها شيئاً، وأخيراً، وقبل أن يصلوا إلى كابو فريو بسطوا سيّطرتهم على مركبٍ صغيرٍ إسبانيٍّ محمّلٍ بالأطعمة المملّحة. ولأنّهم كانوا على مقربةٍ من مكان الوصول، قاموا بجرّه وراءهم بعد أن تركوا طاقم بحّارته لمصيرهم على متن زورقين صغيرين؛ لهذا السّبب، بعد أن رحلوا من فرنسا على متن بواخر ثلاثٍ، وصل القادمون الجُدد إلى غوانابار بأربعة مراكب. كانوا قد استمتعوا بالرّحلة الجميلة، وأكلوا، وشربوا النّبيذ الطّيّب، كما نشّطتهم المعارك السّهلة التي كان تفوّقهم فيها مؤكّداً، ولذلك وقفوا على الشّاطئ مرتعبين من منظر القطعان الصّامتة لأولئك الذين سبقوهم إلى هناك.

كان الواصلون سابقاً إلى الجزيرة قذرين قد ضَمرت أجسادهم، وصاروا أشبه بطرائد مذعورةٍ. كانت تتنازعهم مشاعر الخجل والفخر الشّرّير، الخجل من وضعهم المؤلم؛ إذْ صاروا مثل قبيلةٍ من المتوحّشين المعزولين في أرضٍ نهبوها، والفخر؛ لأنّ هؤلاء الضّحايا الأبرياء وقعوا في براثنهم، وسيكون عليهم أن يوضّحوا لهم الواقع المرّ للحياة في المستعمرة. لقد تحمّلوا الكثير، وها هُم يشعرون بالعزاء الكئيب لكونهم ما عادوا المحطّة الأخيرة في رحلة الألم، بلْ صاروا قادرين على رميها على عاتق من لا حول لهم ولا قوّة. تمّت عمليّة الاستيلاء مباشرةً، فقد بحث كلٌّ واحدٍ من القدامى بين القادمين في الحال عمّا يشبه ما كان عليه في الماضي في مهنته، وهكذا ذهب الجنود نحو الجنود، والحرفيّون نحو الحرفيّين.

أخذوهم في جولةٍ ضمن الجزيرة، وجعلوهم يرون أين سيقيمون؛ أيْ: على الأرض بين سَعف النّخيل. نقلوا إليهم التّعليمات المتعلّقة بالجدول الزّمنيّ وبالعمل. كانت تلك الأمور مناسبةً لعقد علاقةٍ أولى، وقد كان لخيبة أمل الواصلين واضطّرابهم دوره في جعل القدامى يشعرون بالأمل في حصول تسوياتٍ سيكون لها ثمنها.

كانت مهمّة جوست أن يقود الشّخصيّات الأهمّ في الحملة الجديدة نحو أماكن إقامتهم، وهُم: دوبون، ريشير، وعشرة حرفيّين بروتستانت من أتباع كالفِن كانوا يرتدون السّواد مثل أساقفةٍ، ويتباهون بأهمّيّتهم. قضت أوامر فيلوغانيون أن تُفرغَ مساكن الفرسان وتُقدّم لهم. كانت تلك الكبائن المستندة إلى الأسوار قيد التّشييد في الحصن، وقد بُنيت جزئيّاً بالحجارة، وغُطّيت بالصّفائح. وسْط ذلك التّقشُّف العام، بَدت وسائل الرّاحة هذه نوعاً من الرّفاهية، وقد وعى جوست، وهو يقدّم تلك الزّنزانات للقادمين أنّه يخصّهم بشرفٍ كبيرٍ، لكنّ صرخة استنكارٍ صادرةً من الحلق كانت ما تلقّاه عندما فتح أمام دوبون الباب الخلفيّ المصنوع من خشب الصناديق، الذي كان يطلّ على الحُجيرة الأولى.

- «هل تريدون منّي أن أُقيم في هذا الجُحر؟». قال النّبيل مستنكراً.

كان بعمر فيلوغانيون تقريباً، لكنّ بنيته أكثر ضعفاً، ما يضفي عليه هيئة الألم والعجز. لمْ يعرف جوست بمَ يجيب، فقد كان ممتلئاً بالاحترام.

- «هذا أجمل ما لدينا». تمتم قائلاً.

- كيف! خلال عامين كاملين، لمْ تستطيعوا أن تبنوا بيوتاً أفضل مع كلّ هؤلاء الحرفيّين لديكم؟

- «أقصد...»، قال جوست مُحرجاً: «أنّ الأميرال قد رغب أن يولي الأمن الأهمّيّة الأولى. لقد بنينا الحِصن».

رفع دوبون أنفه نحو الأسوار قيد التّشييد، وتبدّى لجوست من نظرة الاحتقار التي رماها عليها كلّ ما كان من الضّروري فعله لجعلها ضخمةً مهيمنةً.

دخل ريشير قائلاً بصوتٍ يرتعش ويهتزّ مثل لولبٍ:

- يبدو لي أنّ السّيّد فيلوغانيون يقيم في مكانٍ أفضل. لقد وجدتم الوقت الكافي على ما يبدو لتشييد قصرٍ له.

- «لا». قال جوست مستنكراً، وهو يحتفظ بلهجةٍ ممتلئةٍ بالاحترام: «ليس له. لا بدّ من تشييد مقرٍّ للحُكم يظهر سُلطة الملك على هذه الأراضي».

- «مقرٌّ للحُكم!». قال دوبون بلهجةٍ متعاليةٍ: «ليَكُن. لكن في هذه الحالة، ما الذي يعطي للسّيّد فيلوغانيون وحْده الحقّ في الاستفادة منه؟».

كاد يعبّر عن غضبه، لكنّ الأسقف ريشير لمس ذراعه، ووضّح له بنظرة تفاهمٍ بالعينين أنّ الوقت ليس مناسباً لحلّ هذه المسألة.

استعاد دوبون هدوءه وسَعل، ثمَّ بعد أن سحب نفَساً طويلاً يمكن أن يؤمّن له الهواء طيلة فترة زيارته تلك، دخل إلى الصّومعة الصّغيرة الأولى، كذلك قام كلُّ واحدٍ من الآخرين باستلام حُجيرته. كانت لريشير حجيرةٌ خاصّةٌ به في حين أقام سائر البروتستانتيّين اثنين اثنين في كلّ صومعةٍ، وبعد أن وضعوا أغراضهم، وخرجوا بسحنهم المهمومة، دعاهم جوست لإكمال الزّيارة، وقادهم نحو ورشة الحصن.

- تجنُّباً للفوضى، يتمنّى الأميرال أنْ يُستأنف العمل بدءاً من يوم غد. هل تستطيع أن تأمر رجالك بأن يأتوا إلى الورشة بعد طعام الإفطار؟ سوف نوزّعهم إلى فرقٍ، وسوف أنتظركم أنا بنفسي لأدلّكم على أماكنكم.

- «أماكننا!». صرخ الواصلون.

- «فيلوغانيون يرانا عمّالاً لديه إذاً؟». قال دوبون بخُيلاء.

- «ليس لديه، مونسينيور». قال جوست بجدّيّة: «إنّما عمّالاً في فرنسا الأنتاركتيكية. ما من أحدٍ مُعفى من هذه المهمّة. إحدى أهمّ المهامّ أن ننهي هذا الحِصن قبل موسم الأمطار. لقد تجنّبنا حتّى الآن هجوماً من البرتغاليّين، لكنْ...».

- «أيُّها الشّاب»، قال دوبون بترفُّعٍ «لا شكَّ في أنّ اميرالك هذا ممتازٌ في التّنظيم...».

تبادل نظرةً ساخرةً مع ريشير.

-... لكنْ دعني أقول لك إنّه على ما يبدو لا يفقه شيئاً في السّياسة. الاحتمال في أن يغامر البرتغاليّون بإغضاب فرنسا في أمريكا صار أكثر من أيّ وقتٍ مضى معدوماً، فمنذ أن تخلّى الإمبراطور عن العرش...

- ماذا! كارلوس الخامس تنازل عن العرش؟

- منذ ثمانية عشر شهراً، هل من الممكن أنّك لمْ تعلم بذلك؟

دهشة جوست بيّنت بوضوحٍ أنّه كان كذلك. رمى القادمون على الجزيرة من حولهم نظرةً ممتلئةً بالرُّعب، فأولئك الذين يسكنون فيها كانوا في حالة من الانعزال تفوق حالة الغرقى. لا شكّ في أنّهم المتحضّرون الوحيدون الذين لمْ يسمعوا الخبر المجلجل لسقوط أقوى حاكمٍ في العالم.

- «وهكذا». أكمل دوبون بصبر من يريد أن يعلّم طفلاً صغيراً: «بدءاً من تلك اللّحظة، انفصلت إسبانيا عن الإمبراطوريّة».

لمْ يستطع كارلوس الخامس أن يعطي كلّ شيءٍ لابنه فيليب الثّاني، فانتقل التّاج الإمبراطوريّ إلى أخيه فرديناند. كلّ القوى الأوروبيّة وقّعت

معاهدة سلام، ولذلك سيكون من الصّعب أن تقوم البرتغال بإشعال النّار في البارود من أجل...

داهمه وهو يتكلّم شعور غثيانٍ:

-... من أجل هذه الجزيرة!

كانت تلك الأخبار جيّدةً، لكنّ الشّهور الأخيرة من الطّاعة والجهد جعلت من جوست جنديّاً حقيقيّاً يلتزم بالأوامر.

- «لا فرق». قال وهو يهزّ رأسه: «طالما أنّ الأميرال لمْ يقرّر، يجب أن نتابع بناء الحصن، وسوف أقودكم غداً إلى أماكنكم».

*

حلَّ اللّيل مفاجئاً الجميع، وهُم في حال الفوضى التي بدأت بعد الظُّهر. كانت هناك حقائب على الشّاطئ والزّوارق تتابع رواحها ومجيئها، وكما كان متوقّعاً، قام عشرةٌ من القدماء بالاستفادة من هذه الفرصة لكي يهربوا إلى اليابسة، ولمْ يلحظ ذلك أحدٌ سوى في اليوم الثّاني.

لمْ يكن القادمون الجُدد معتادين على منع التّجوّل الذي فرضه على سكان الجزيرة نقص الشُّموع، لذلك قاموا بإشعال القناديل قويّة الضّوء، وحتّى المشاعل في غرفهم. لوَّح كلّ واحدٍ بضوئه وشمعته حتّى بانت الجزيرة كلّها في حالة عيد.

عندما وصلت تلك الإضاءة إلى أقصى التماعها، جاء ريشير، وهو يحمل سراجه بيده، أمسك بكُمّ جوست، وقال له هامساً:

- الآن وقد حلَّ الظّلام، صار الوقت سانحاً لإنزال الفتيات.

نظر إليه جوست برهةً كما لو أنه قد طُلب إليه القيام بدسائس سرّيّةٍ وملعونةٍ شبيهةٍ بتلك التي يقوم بها الغراب، لكنّه حين رأى أمامه سحنة

الأسقف الزّاهدة فَهم أنّ الأمر معاكسٌ تماماً. كان النّزول من الباخرة يتطلّب مناورات وعمليات قفزٍ من السّلالم تبدو غير متوافقةٍ مع كرامة العذراوات البروتستانتيّات، ونظراً لكونهنّ مكرّساتٍ لزيجاتٍ شريفةٍ، كان من الأفضل عدم إظهارهنّ منذ البداية مثل الشّركسيّات.

- «ما هي تحضيراتكم فيما يتعلّق بإقامتهنّ؟». سأله ريشير.

وبما أنّه كان لديه حول هذا الموضوع أفكاره الخاصّة، فقد أضاف:

- ألا يمكن إيواؤهنّ في مقرّ القيادة؟

توتر جوست من فكرة أن يُطلب بكلّ فجاجةٍ من فيلوغانيون المجبر على ملازمة سريره حراسة تلك المخلوقات، لكنْ هل كان هناك ثمّة حلٌّ آخر؟ كان في قمّة اليأس عندما جعله تداعي الأفكار في رأسه يجد حلّاً:

- «كوخ الحرس الاسكتلنديّين». قال بفخر.

كان الكاليدونيّون المساكين قد تحمّلوا تضحياتٍ أسوأ من ذلك. يمكن وضعهم كلّهم في الغرفة الملحقة بمخدع فيلوغانيون، وسيُحمى على نحوٍ أفضل.

كانت الفتيات ينتظرنَ في إحدى البواخر، وقد أُقفل عليهنّ الباب في مقصورة الباخرة الخلفيّة مع وصيفاتهنّ. رافق جوست ريشير من أجل الإتيان بهنّ، وعندما دخلا الغرفة، اكتشفا خمسةَ ظلالٍ نحيلةٍ سوداء تقف في وسط الغرفة، وخمسَ مربّياتٍ مستلقياتٍ على كراسٍ.

كانت الغرفة المغلقة خانقةً من الحَرّ. عند دخول جوست، ارتخت العيون، واكتسبت الأجساد هيئة الحَياء، لكنّ ذلك لم يمنع النّظرات من أن تعود خلسةً لتتوضّع على هذا الصّبيّ الجميل الذي كان يرافق الأسْقُف، وعلى أنّ الضّوء كان قويّاً في الباخرة مثل أيّ مكانٍ آخر، فإنّ جوست لمْ يكوّن عن الفتيات انطباعاتٍ واضحةً، والواقع أنّ ما لفت انتباهه لمْ يكن

الأجساد، ولا الوجوه، إنّما هذه الثّياب السّوداء التي تأخذ شكل غِمدٍ، والأكمام الواسعة، وعطر الصّابون الممتزج بروائح العرق الحامضة التي تختلف عن رائحة عرق الرّجال.

لمْ تكن الباخرة مريحةً على الإطلاق. مع ذلك شعر جوست بالذُّعر من فكرة أن تخضع هذه الكائنات الدّقيقة من دون رحمةٍ لظروف العيش القاسية في الجزيرة. لمْ يخطر في باله أنّ كولومب كانت تعيش فيها معه على نحوٍ طبيعيٍّ تماماً، وأنّ الهنديّات تتقاسمن الحياة بالتّساوي مع الرّجال على تلك الأرض منذ الأزل.

بعد أن مرّ الانفعال الأوّل، اجتاحت الغرفة عاصفةٌ من الأقمشة المجعّدة، مع هديلٍ تخللتّه تنهّداتٌ متبرّمةٌ أطلقتها الوصيفات. مرّت أمام جوست عشرة وجوهٍ لمْ يحتفظ بذكرى أيٍّ منهم، فيما عدا وجهٍ شديد التّجاعيد لإحدى الوصيفات جعله يفكّر بحيوان الإيغوانا. آنّب نفسه على هذه الفكرة، ونظر إلى قدميه وهو محمرٌّ من الاضطّراب.

في تلك الأثناء راحت الفتيات الّلواتي فوجئن بالنّسيم المنعش يتمسّكن بسُلّم الباخرة بفوضى، وهنَّ يصرخن صرخاتٍ قصيرةً.

- «ساعدني في نقل آخر واحدةٍ منهنّ». قال ريشير الذي كان جوست قد نسيه.

مشى خلفه، ودخلا حُجرةً صغيرةً ضمن المقصورة كانت مفصولةً عن الغرفة الأساسيّة بسجفٍ قماشيّةٍ.

- «كيف حالها الآن؟». سأل القسّيس الوصيفة التي كانت جالسةً بقرب السّرير.

- «أظنّ أنّه يجب حَملها». همست: «لمْ تنخفض حرارتها».

- «بالنّسبة إلى هذه المريضة بالذّات»، قال ريشير: «أرى من الأفضل

أن نحجز لها أحد الأكواخ التي ما تزال فارغةً من بين تلك التي منحتها لنا».

ثمَّ بدرت منه حركةُ انحناءٍ نحو المَخْدع المُظلم. مع نحول بنيته لمْ تبدُ عليه القُدرة على حمْل جسدٍ، ولو كان لصبيّةٍ. عرض جوست خدماته، وتنحّى القسّيس تاركاً له المكان من دون أن يلحّ. كانت المريضة ملفوفةً بعباءةٍ سوداء عريضةٍ لها قبّعةٌ تغطّي وجهها. قال جوست في نفسه إنّ أيّ إنسانٍ يمكن أن يغلي اذا ما تغطّى بذلك الرّداء. مدَّ يديه تحت الجسد المستلقي، وشعر به ينتفض. حمله بمرونةٍ وهو متفاجئٌ من خفّة وزنه.

- «احرصْ عليها». قال ريشير ثمّ أضاف ليزيل أيّ سوء فَهْمٍ:

- إنّها ابنة أخي.

وصل جوست إلى الباب، وخرج إلى سطح السَّفينة. مجرى الهواء حول الشّراع جعل غطاء الرّأس يسقط فجأةً. كان هناك قنديلان كبيران يتدلّيان من عارضة تحريك الشّراع الكبير، فانسكب ضياؤهما من دون مراعاةٍ على الوجه الذي ظهر. كانت تحيط به خصلات شَعرٍ أسودَ طويلٍ، ومع الحُمّى، تبدو العينان فيه ضاحكتين. كان الوجه على درجةٍ من الجمال جعلت جوست يكاد يطلق صرخةً، لكنّ زمّة شفاهٍ خفيفةً أوقفته. أعاد رخي القبّعة بيده، وقال لنفسه إنّ هذا الفَم هو تماماً ما يصلح للتّعبير عن القُبلة.

ظلّت المجهولة في العتمة حتّى وصولهما إلى عتبة حُجرتها حيث تركها.

الفصل 2

كانت تلك السّنة سعيدةً بالنّسبة إلى كولومب؛ فقد كانت حُرّةً بتحرّكاتها، تروح وتجيء على هواها بين الجزيرة واليابسة. كانت تعيش قُرب جوست، وتشعر بسعادةٍ كبيرةٍ في ترك الطّفولة، والدُّخول في عالم الكبار من دون أن تبتعد عنه. كانت تراه في كلّ مرّةٍ أجمل ممّا كان من قبل. تضحك معه من آلاف الذّكريات، وترى بأنّ صورته الجديدة كفارسٍ شجاعٍ تناسبه جدّاً، ما زاد من إعجابها به هو الطّاقة الكبيرة التي كانت لديه في هذه الظّروف الصّعبة، وهو حادٌّ من دون قسوةٍ؛ يعرف كيف يدرّب الرِّجال، ويؤمن بالمُثل التي تضفي على نظرته بريقاً. النّموذج الذي يحتذيه كان فيلوغانيون، لكنْ ما كان لدى هذا الأخير ممتلئاً بالمبالغة، ويصل إلى حد الإضحاك، كان يكتسب عند جوست التّوازن والتّواضع الجميل اللّذين يكمنان وراء العَظمة الحقيقيّة. كان الأميرال يدعو إلى العفّة، ويكرّر اللّعنات نفسها ضدَّ المرأة، وهو ما لمْ تستطع كولومب أن تسمعه من دون قرفٍ، أو ثورةٍ؛ أمّا جوست الذي اعتنق ذلك المثال كنوعٍ من الزُّهد، فقد كان على العكس يحمل نعومةً كبيرةً تُجاه المرأة، ويبرهن عن ذلك في كلّ مرّةٍ من خلال تعامله بإنسانيّةٍ مع الإماء الهنديّات في الورشة. ضمن هذه الصّرامة استطاعت كولومب بسهولةٍ أن تجد لنفسها

مكاناً، فالجزيرة كلّها قد فهمت الآن أنّها فتاةٌ، لكنْ بما أنّها كانت مفيدةً بسفراتها إلى اليابسة، وبما أنّها كانت محبوبةً جدّاً، ما كان أحدٌ يريد أن يشي بتلك الحقيقة لفيلوغانيون الذي كان مصرّاً على ألّا يرى أيّ شيءٍ. هكذا كانت تمرّ الأيّام على جوست وكولومب اللّذين كانا، على إدراكهما للفرق بين جنسيهما، متّفقين ضمنيّاً ألّا يكون لهذا الفرق أهمّيّةٌ عندهما. كانا يعطيان لحبّهما فسحةً من الحرّيّة والحماية تشبه ما يميّز الصّداقة العفيفة، والزّمالة في العمل، والفروسيّة الذّكوريّة التي لا تتنافى مع وجود امرأةٍ مثل جان دارك.

رضخت كولومب لعدم وجود خيارٍ آخر أمامها؛ ولأنَّ جوست يبدو سعيداً بذلك. ربّما ما كان لها أن تتحمّل الأمر بسهولةٍ لولا تلك السّعادة الأُخرى المختلفة التي كانت تملؤها بها فترات غيابها الطّويلة لدى الهنود.

بمجرّد أنْ تعرّفت إلى باي لو، عرفت أنّ العالم الذي عرفته في اليابسة ظلَّ مخلصاً لها، وعاد إليها في الوقت الذي ظنّت فيه أنّه اختفى وصار معادياً. كانت تحتفظ بذكرى لا تُنسى من ذلك اللّقاء الأوّل، فمن سيرهما وراء تشارلز الإنجليزي، وصلت هي وكانتان إلى المرتفعات الممتلئة بالغابات التي كانت تطلّ على خليج الجنوب. كان جبل (خبز السُّكّر) عند النّظر إليه من علٍ صغيراً جدّاً، يتفوّق عليه بجدارةٍ جبل كوركوفادو. بعد الكثافة الخانقة للنّباتات في الخليج شعر كلٌّ من كولومب وكانتان بالهواء المنعش يأتيهما من عرض البحر مشوباً بحرقة هواء المرتفعات العالية. لمْ يكن مقرّ باي لو محاطاً بأيّة حدودٍ، لكنّ الدّاخل إليه يشعر أنّه وصل إليه من اختلاط العطور البرّيّة لخشب البرازيل والصّنوبر مع روائح الأشجار المفيدة التي دُجّنت، مثل: شجر الكاجو الممتلئ بالثّمار، وأشجار الكوباير التي يرشح من جذعها زيتٌ ثمينٌ، وأدغال القطن. لا أحد يعرف إنْ كان

هناك مَن زرع تلك الأشجار، أو أنّها ربّما شعرت بوجود باي لو فتقدّمت تُجاهه مثل ملوك المجوس المثقلين بالهدايا.

في لحظةٍ ما، داخل غابة صنوبرٍ غضّةٍ، وجدوا بداية دَرجٍ طويلٍ مبنيٍّ من الخشب، وخلال ما يقارب السّاعة، كان عليهم أن يتسلّقا مئات الدّرجات النّاعمة المصنوعة من خشبٍ، ومن ترابٍ، وهُم يسمعون صرير تكسُّر إبر الصَّنوبر الجافّة تحت أقدامهم. كان الدَّرج قطعة أثاثٍ تتلوّى مثل ثعبانٍ في الهضبة المغطّاة بغابةٍ هائلةٍ، وعلى طول هذه الطّريق كانت هناك مجموعاتٌ من النّسانيس، ومن الببّغاوات تطلق صرخات التّرحيب. أعلى قليلاً كانت مجموعة من ثلاثين طاووساً تقريباً تفرد أذيالها الملوّنة مثل أسْهُمٍ للدّلالة على الطّريق. التقوا في أثناء سيرهم بقبيلةٍ من الهنود الذين يهبطون الدَّرج، وهُم عراةٌ كالمعتاد، ويبتسمون.

في النهاية ظهر البيت لهما. ما كان لكولومب وكانتان أن يلحظا وجوده لولا تشارلز الذي دلّهما عليه. كان البيت في الحقيقة مجموعةً متشابكةً من السُّقُف المصنوعة من أغصان الأشجار، تحملها جذوعُ أشجارٍ حيّةٍ؛ بمعنى آخر غُطّي بهو الأعمدة الطّبيعي في الغابة، ولم يكن البيت سوى مجموعةٍ متاليةٍ من الحواجز الخشبيّة شُدَّت بين تلك الأعمدة، وحملتها الجذوع الجديدة النّامية، فانقسمت، وارتفعت، وانثنت حسْب حركة نموّ النّباتات التي حُزمت عليها تلك الحواجز المخرّمة. مع ذلك كان كلّ شيءٍ غايةً في التّنظيم؛ فمع عدم وجود بابٍ للبيت، كان له مدخلٌ تفضي إليه الدّرجات على الأرض، في هذا الرّواق، سُوّيَت الأرض، وفُرشت بالبلاط البرتغاليّ الذي رُسمت في مركزه سلّة فواكه أنيقةٌ، ولتزيين أطراف المدخل وُضعت مجموعةٌ من الجرار المطليّة بالمينا ذي الألوان النّاريّة في حين تكدّست فيه مجموعةٌ عشوائيّةٌ من عيدان القصب، والثّمار العتيقة، والمظلّات.

ولَجا خلف تشارلز إلى داخل المنزل. في العتمة تُنسى الأشجار الكبيرة التي تشكّل هيكل البيت. هناك رائحة طينٍ طريٍّ وراتنج تذكّر وحْدها بأنّ المشيّدة لمْ تكن سوى فجوةٍ في الطّبيعة سُلِمت طوعاً للبشر. مهارة من قام بترتيبها تجلّت في أنّه اختار موقعها في الجبل، بحيث تُخفى فيه، وفي أنّه من جانبٍ آخر فتحها على امتداد عرضها لتطلّ على فضاء الأفق بعيد المنال. كان المنظر من تلك الجهة يتهاوى فوق الأمواج المزرقّة من الغابة حتّى الخليج مترامي الأطراف، الذي يشبه لونه لون نبات حزّاز الصَّخر الباهت. التقلّصات الكبيرة في خطّ السّاحل، وتلك الكآبة الحادّة التي تعطيه مظهر فكّ كلبٍ كانت تكتسب من هذا المرتفع أهميّةً شبيهةً بأهميّة غضب الأطفال العبثيّة، وفي اتّجاه الغرب، كان المدى المترامي لقمم الجبال يذكّر بأنّ الخليج لمْ يكن سوى جرحٍ صغيرٍ ضمن قارّةٍ مترامية الأطراف.

جمال هذا المنظر طغى قليلاً على ما يحصل في الدّاخل، لكنّ الدّهشة عند العودة إلى عتمة الغرف لمْ تكن أقلّ، فقد كانت هذه الغرف مفروشةً بقطع أثاثٍ أليفةٍ ومذهلةٍ في الوقت نفسه: تمثالٍ ضخمٍ انتزع من مقدّمة باخرةٍ يزحف مكشّراً، وقد غطتّه ألوان حمراءُ وذهبيّةٌ، صناديقَ من الجلد المزيّن بمسامير مزخرفةٍ من البرونز، قطع مينا من فرنسا، صحونٍ من الفضّة. ذلك كلّه كان موضوعاً بفوضى كيفما اتّفق، ومتروكاً للحيوانات تتحرّك ضمنه بألفةٍ، أو تبثّ فيه الفوضى. فقد استولى ببّغاوان على درجٍ مفتوحٍ في خزانةٍ للآنية في حين كانت مفرزات الحشرات تربط قطع الخشب المشغول بالأرض التّرابيّة حيث تتبعثر الجذور، وتسدّ الجحور، ومع حلول المساء، بدأت عشرات الضّفادع تنقّ في العتمة بإيقاعٍ رتيبٍ مثل قلوبٍ صغيرةٍ اقتُلِعَتْ وهي حيّةٌ من صدور كائناتٍ مقدّسةٍ.

في زيارتهما الأولى كان باي لو مريضاً. استقبلتهم زوجُه، وهي هنديّةٌ طويلةٌ وجدّيّةٌ، أحاطت كتفيها بشالٍ من القطن الأبيض كان يعطيها هيئة مواطنةٍ رومانيّةٍ. كانت هناك نساءٌ أُخريات كثيرات، صبايا ومسنّات ضاحكات، تتحرّكن جيئةً وذهاباً في المنزل من دون أن يظهر في تصرّفاتهنّ أيُّ تمييزٍ بين سيّدةٍ وخادمةٍ. التمعت عينا كانتان أمام هذا العالم كلّه الذي عليه أن يدخله في الدّين المسيحيّ حتّى اضطرّت كولومب إلى أن تذكّره بالعودة إلى التّعقّل، أو على الأقلّ إلى الحذر. كان هناك محاربون من قبيلة التّوبي يدخلون ويخرجون بهيئة القتال. في بعض الأحيان كانوا يستطيعون الدُّخول إلى الغرفة التي يعتكف فيها باي لو، ويخرجون منها، وهُم يفكّرون بما أعطاهم إيّاه من آراء. كان البناء هشّاً إلى درجة أنّه على الرغم من الهدوء، وتراكم قطع الأثاث، كان يمكن سماع أصوات أطفالٍ غير مرئيّين، ما يدلّ على أنّ مقرّ باي لو كان ضمن مشيّداتٍ أُخرى مبنيّةٍ داخل الغابة وتحتوي على عدّة بيوتٍ.

كان الّلقاء الأول مع المعلّم في صباح أحد الأيّام؛ جاء تشارلز للبحث عن كانتان وكولومب، وأعلن لهما بابتسامةٍ عريضةٍ أنَّ باي لو قد تحسّن، وهو ينتظرهما في الشُّرفة المستديرة التي تشكّل امتداداً للغرفة الرّئيسة. كانت هذه الشُّرفة مبنيّةً من دون إفريزٍ يظلّلها، وهي مجرّد بروزٍ من الخشب يمدّ راحته المفتوحة وسْط جذوع أشجار الجمّيز والصّنوبر، ويشكّل الخليج البعيد خلفيّته المتوهّجة. في ذلك المكان كان أيّ حضورٍ بمنزلة رؤيا؛ ومجيء باي لو كان أكثرها روعةً. كان كلّ شيءٍ فيه دقيقاً: جسده الهشّ، وعنقه النّحيل، ويداه الكبيرتان. مع ذلك، مثل مهاجمٍ عنيدٍ يقاوم قذائف النّار والسّهام؛ كان يبدو قادراً على أنْ يخيف الموت نفسه، وأن يجعله يتراجع عن الموعد الذي رسمه القَدَر. لمْ يكن باي لو مسنّاً فقط، بلْ كان صورة الزّمن بحدّ ذاته. كلّ ما يبدو من الحياة عندما تستهلكها السّنون

حتّى العظم كان يتجلّى في وجهه الذي ملأته التّجاعيد، فلحيته البيضاء تحيط بملامحه الفريدة في مهدٍ هادئٍ رسمته خصلات شعره الحريريّ الملتفّة؛ أمّا عيناه الصّافيتان، فكانتا داخل محجريهما الممتلئيْن بالتّجاعيد تبدوان سعيدتين؛ لأنّهما تخلّصتا من أنواع اللّوم والكراهية كلّها، وصارتا صافيتين تماماً لا تعكسان سوى الفضول.

بعد أن قام بتحيّة القادمين، استدار باي لو نحو كولومب، وثبت نظرته في نار عينيها الشّقراوَين، وقال لها:

- ها أنا أرى أمامي عين-شمس.

أمام تلك الكلمات، شعرت كولومب أنّها عادت إلى أولئك الذين تبحث عنهم. حتّى لهجة باي لو كانت تذكّرها بباراغواتشو، ولمْ يعد لديها أدنى شكّ في أنّه قد عرف اسمها منها.

لكنْ قبل التّطرُّق إلى موضوع الهنود، وبعد أن أجاب باي لو عن الأسئلة التي كان كانتان قد جهّزها بدقّةٍ، قدّم نفسه لهما، وحدّثهما عن مهمّتهما.

أثار استغرابهما أنّه بالفعل يعرف كلّ شيءٍ، ولديه علمٌ بأدقّ التّفاصيل عن المستعمرة منذ وصول فيلوغانيون إلى الجزيرة حتّى مشكلاته الأخيرة مع الغراب ومارتان، ولقد اجتهد ليبدّد فضولهما، وليلغي لديهما أيّ حذرٍ منه.

- «أتعرفان ماذا؟». قال ببساطةٍ: «الهنود يروون كلّ شيءٍ لي. إنّهم يعرفونني جيّداً، وأنا أقدم أوروبيٍّ في هذه المنطقة».

- «لا بدَّ من أنّ مركبك قد غرق». قال كانتان.

- لا. حتّى لو بدا لك جوابي استثنائيّاً. لقد أتيت إلى هنا راضياً، و بقيت هنا بمحْض إرادتي.

- هل كنت تاجراً؟

بدا باي لو ضئيلاً جدّاً أمام جذوع الأشجار العملاقة. فرك عينيه لكي يبدّد غشاوةً من الملل، وأجاب:

- لا. على الإطلاق.

كان من الواضح أنّه لم يقبل بهذا البوح الذي يجرح تواضعه إلّا لأنّه بدا له ضروريّاً.

- اسمي لوران دو ميهون، ولقد حوّره الهنود إلى باي لو؛ أي: الأب لوران. والداي كانا من النُّبلاء، لكنْ ليس من كبارهم. علّماني الفنون السّبعة المتحررة، وصرت دكتوراً في الفلسفة. كان شغفي هو الجغرافيا، وقد سِرتُ على خُطى التُّجّار النّورمانديّين، ووصلت إلى هنا في الأيّام الأولى من هذا القرن.

- «لكنّ البرتغاليّين لمْ يأتوا إلى هنا إلّا في العام 1501». صرخ كانتان.

- صحيح، ولو أنّكما أتيتما قبل سنتين لكنتما التقيتما بأحد الرّجال الذين تركهم البرتغاليّون هنا. تعرفان أنّهم قد رسوا في منطقة أعلى من هنا، من جهة باهيا.

وقام باي لو بحركةٍ من ذراعه نحو الشّمال. في ذلك المنظر الذي يحيط بالقارّة كلّها، كان يبدو أنّ مئات الأميال يمكن أن تتقلّص إلى ما هو انزلاق إصبعٍ.

- كابرال الذي كان زعيم هذه الحملة الأولى، أخذ معه في الرّحلة عدداً كبيراً من طريدي العدالة؛ لأنّه ما من شخصٍ يقبل القيام بهذه المغامرة، وعندما وصل إلى البرازيل، وضع صليباً على الشّاطئ، وأمر بترك اثنين من المحكومين بالأشغال الشّاقّة كان قد تسلّمهما. كان الوضع مخيفاً، فقد راح المسكينان يصرخان ويتمسّكان بأطراف المراكب، حتّى اضطّر

البحّارة إلى ضرب أيديهما بالمجاذيف ليفلتا قبضتهما، وهكذا وجدا أنفسهما على هذا الشّاطئ المجهول وحيدين ومرتعبين.

- أنت كنت هنا وقتها؟

- كانت قد مضت عليّ سنةٌ. كنت قد رفضت العودة مع النّورمانديّين، وعندما وجد الهنود هذين الرّجُلين البرتغاليّين قادوهما إليّ. أحدهما عاش هنا حتّى توفّي، والثّاني ذهب إلى سان سلفادور بعد أن قام البرتغاليّون بتأسيس المدينة.

- «معنى ذلك أنّك أنت من اكتشف البرازيل!». صرخت كولومب.

- لا يهمّ. لا بدَّ من أنّه لدى الأوروبيّين ما يكفي من التبجُّح ليعتقدوا بأنَّ هذه القارّة كانت تنتظر مجيئهم لكي توجَد.

أطرقت كولومب. لامت نفسها لأنّها عبّرت عن رأيٍ على تلك الدّرجة من السَّذاجة.

- «بالنسبة لي، هذه البلاد هي التي اكتشفتني». أضاف الرّجُل المسنُّ، وهو يبتسم بلُطفٍ.

هكذا كان باي لو، وقد استطاعا بعد محادثاتٍ طويلةٍ، ونزهاتٍ أن يعرفاه ويحبّاه.

عندما سألاه لماذا ترك الغراب يبسط سُلطته البغيضة على الجزيرة إلى درجة أن يصل إلى هدم كلّ شيءٍ أجابهما:

- في الغابات هنا، الشّرُّ يقاتل الشّرّ. الكائنات الضّعيفة كي تبقى على قيد الحياة لا تستطيع أن تأمل إلّا شيئاً واحداً: أن يتقاتل أعداؤها بين بعضهم، لكنّني أقرُّ لكما بأنّني كنت أكثر ميلاً إلى فيلوغانيون على الرغم من أفكاره عن الغزو، وليس إلى التّراجم في الشّاطئ الذين كانوا قُطّاع طُرق.

مع هذا، خلال زيارتهما الثّانية التي جرت بعد شهرين، كان باي لو قد قبل أن يساعدهما في تموين الجزيرة. كان قد تحدّث إلى الهنود، وقبلوا أن تقوم قبيلةٌ من الخليج بتقديم منتجاتٍ يأتون للبحث عنها، مع الحذر من كمائن مارتان.

- إنّني أفعل ذلك من أجلكِ يا عين-شمس، ولأجل أخيكِ الذي يعامل الهنود بإنسانيّةٍ على جزيرتكم الملعونة، لأنه بالفعل الوحيد الذي يفعل ذلك.

الطّلب الوحيد الذي قبل به باي لو طواعيةً هو البحث عن باراغواتشو وأهلها. كانت القبيلة قد مرّت من هنا خلال هربها في بداية الوباء، لكنّه لمْ يعد يعرف أين صارت بعد ذلك، ومع الوسائل كلّها التي بذلها من أجل ذلك لمْ يحصل على أيّة معلومةٍ.

كانت تلك الزّيارة الثّالثة التي قاما بها لباي لو، والقبيلة ما زالت مفقودةً. ربّما كان أهلها قد ماتوا جميعاً من الحُمّى، وربّما اتّخذوا الحيطة للهرب نحو الأراضي التي يشغلها الأعداء، ذلك أنّ المارغاجات، وهُم حلفاء البرتغاليّين، كانوا في مناطق الجنوب يهاجمون بلا شفقةٍ قبائل التّوبي القادمين من الخليج فيما لو دخلوا بالخطأ إلى أراضيهم.

في كلّ مرّةٍ، كان كانتان وكولومب يقيمان فترة أسابيع طويلةً لدى باي لو، بالإضافة إلى الزّمن الذي تستغرقه الرّحلة. لمْ يعد بيته موضع أسرارٍ بالنسبة إليهما، فقد صارا يعرفان زواياه، وشرفاته، وممرّاته الأرضيّة. حتّى قطع الأثاث الأكثر غرابةً صارت مألوفةً لديهما. كان باي لو يلمّ كلّ ما تتركه البواخر الغارقة على الشّاطئ، وكان الهنود بمجرّد أن يروا الأمواج تدفع بباخرةٍ نحو الرّصيف يقومون من دون نقاشٍ بحمل الصّناديق، والأوراق، والأغراض، والأجزاء المنحوتة على ظهورهم، ويصعدون مباشرةً إلى

مقرّ الرّجُل العجوز ليقدّموها له هديّةً. في حال اكتشفوا أشخاصاً بقوا على قيد الحياة كانوا يقودونهم أيضاً إلى حضرة باي لو الذي كان يقدّم لهم كلّ شيءٍ، من دون أن يأمرهم بفعل أيّ شيءٍ، ويبيّن لهم طريقته في الحياة، بعد ذلك كان لدى هؤلاء الذي صاروا مخلصين له الحُرّيّة في أن يذهبوا حيث يريدون. بعضهم كان يبقى ليقيم في المنزل مثل ذلك الطّبّاخ الفلامنكي الذي كان يحضّر النّقانق المشويّة، ولحم الفخذ بطريقة آنفير، وبعضهم الآخر ينتشر في الخليج، وبذلك كانت تتشكّل المواضع التي يمتدّ إليها تأثير باي لو النّاعم.

فيما عدا زوجِه الحاليّة، كانت للأب الكبير عدّة رفيقات، وذلك مراعاةً للعادات الهنديّة، ومن دون أيّ خرقٍ للقواعد التي يحترمها السُّكّان الأصليّون، ولقد ربّى عدداً كبيراً من الأولاد، وكان المنحدرون من نسله كثيرون في الخليج إلى درجةٍ يمكن معها لصيّادين من التّوبي أن يعلنوا أنّهم من سلالته، والحقيقة أنّه ترك في الغابة أثراً منه تجلّى باللّون الأزرق الذي يوجد أحياناً في حدقات العيون المتوحّشة للمحاربين العُراة. ما كان يمكن للأوروبيّين أن يتخيّلوا على الإطلاق بأنّ هؤلاء كانوا ممتلئين بدمائهم.

عندما وصلت البواخر المحمّلة بالبروتستانت إلى الخليج، كانت كولومب في منتصف رحلتها الثّالثة لدى باي لو وبرفقة كانتان كالعادة. كان قد مضى على وصولها أربعة أسابيع، وإقامتها تكاد تنتهي. كانت تتعلّم مع نساء باي لو كيف تعقد الأقمشة المصنوعة من الرّيش عندما ناداها باي لو في صباح أحد الأيّام. عندما وصلت إلى حضرة الأب الكبير، وجدت لديه مقاتلَين اثنين من قبيلة التّوبي عرفتهما من شفاههما المشقوقة، والصّحن الكبير المعلّق بها، الذي يجعلها تتدلّى.

– «هذا ابن أخي آفاتي». بادر باي لو بالكلام، وهو يشير إلى الهنديّ:

«لقد صعد كوباكابانا لكي يعلن لي عن مجيء قافلةٍ من البواخر تتّجه نحو الجزيرة».

- «البرتغاليّون!». صرخت كولومب التي ظنّت فجأةً أنّ جوست كان في خطرٍ محْدقٍ.

- «لا يبدو أنّهم برتغاليّون». قال باي لو، وهو يهزّ رأسه: « لمْ يطلقوا مدافع، ولو أنّهم فعلوا لسمعنا حتّى هنا أصداء المعركة. على العكس، أظنّ أنّها التّعزيزات التي طلبها فيلوغانيون».

ثمَّ أضاف وهو ينظر إلى يدها التي تعقد الأقمشة:

- مع الأسف.

وصل كانتان في هذه الّلحظة، وهو يلهث.

- «ما زلت تبشّر بالإنجيل؟». قال الأب الكبير، وهو يضحك؛ لأنّه لمْ يكن يجهل شيئاً عن الحميّة التّبشيريّة لدى الرّجُل القصير، وكان يتسلّى بها مثل سائر النّاس في قريته.

- «ربّما تفضّلان الانتظار هنا لتريا كيف ستسير الأمور». قال مضيفاً: «بكلّ الأحوال لكما الحُرّيّة في الاختيار».

لكنّ كولومب لمْ تكن قادرةً على إخفاء نفاد صبرها.

- إنْ أردتم الرّحيل الآن فإنّ آفاتي سوف يقودكم. لقد تزايد خطر التّراجم على الشّاطئ. اتّبعا نصائحه، وسوف يحميكما من خطر الوقوع في أيديهم.

للمرّة الثّالثة، استأذنا الرّجُل المسنّ، وغاصا في الخليج المشمس.

الفصل 3

بمجرّد شفائه من وعْكته، أعلم فيلوغانيون المبعوثين ودوبون أنّه سيستقبلهم رسمياً في مقرّ القيادة في اليوم التّالي، بعد ذلك سيذهب الأميرال والقادمون الجُدد معاً إلى المنتدى، حيث كانت تقام الصّلوات، وذلك لكي يُحتفَلَ بالقُربان المقدَّس.

لبّى دوبون هذه الدّعوة رغماً عنه، ذهب مرتدياً رداءً أزرقَ كان قد احتفظ به نظيفاً من أجل تلك المناسبة المهمّة؛ أمّا فيلوغانيون فقد ارتدى، على عكس عاداته الفوضويّة، سُترةً طويلةً عليها صليب مالطة، غُسِلتْ على نحوٍ ممتازٍ. من جهته، ملأ جوست مركزه كملازم على نحوٍ يثير الاحترام، وقد شدّ جسده بسُترةٍ مخمليّةٍ بلا أكمامٍ كان الخيّاط قد صنعها له في اليوم السّابق؛ أمّا الأساقفة ريشير وشارتييه فكانا يشكّلان في المشهد بقعاً حالكة السّواد.

والواقع أنّ جدّيّة هؤلاء القادمين ما لبث أنْ ضيّعت فيلوغانيون تماماً. في البداية كان مرضه قد منعه من أن يستقبلهم، لكنّه بمجرّد أن تماثل إلى الشّفاء راح يعبّر عن فرحٍ حقيقيٍّ، ويندهش لأنّهم لم يشاركوا به معه.

- «يا أصدقائي الأعزاء». صرخ، وهو يرى ضيوفه يدخلون: «أرجوكم اجلسوا».

عند سماعه هذه الكلمات تراجع دوبون كما لو أنّ حشرةً سامّةً قد لَسعته. أبْعد الكنبة التي كانت قد قُدّمت إليه بنفس الحميّة التي كان يمكن أن يظهرها فيما لو اضطّرّ إلى إبعاد خنجرٍ عن رقبته، وهكذا جرت سائر المحادثة وقوفاً.

– «كيف كانت رحلتكم؟». سأله فيلوغانيون، وهو يزداد مفاجأةً.

– «بأفضل شكلٍ ممكنٍ». أجاب دوبون بجفافٍ.

كان مع ذلك ينظر حوله، ويتفحّص ما بدا له ترفاً بالمقارنة مع المقرّ الذي فُرض عليه: السّرير الذي تحيط به الأعمدة، الطّاولة، الخوابي، الكتب. كان مقرّ الحاكم قد خضع بعد الاعتداء إلى بعض التّعديلات التي هدفت إلى جعله أكثر أماناً. كانت جدرانه من الحجر وتحتوي على مصاريع من الخشب السّميك، كما فُرشت أرضيّته بحِزَمٍ من ورق النّخيل الذي مُسِّدَ بالمجرفة، ما جعلها تبدو ليّنةً تحت وقْع الأقدام.

– «وهل استطعتم أن تروا كوليني في فرنسا؟». سأل الأميرال.

– «الأميرال كوليني جاري»، أعلن دوبون بلهجة نفاد الصّبر نفسها التي لم يستطع فيلوغانيون أن يفهم سببها: «إن أرضي في كورغيوريه مجاورةٌ لشاتيّون حيث تقع ملكيّته. إنّه لمْ يستقبلنا فقط، إنّما كلّفنا أيضاً بمهمّة المجيء إلى هنا».

لم يجد فيلوغانيون أيّ خطأ فيما قيل، سوى اللّهجة.

– يسعدني أنْ أعلم أنّ زمن الاضطّهاد بسبب الأفكار الجديدة قد انقضى في فرنسا.

– «كنيسة الحقيقة انتشرت فيها منذ سنتين». أضاف ريشير.

المداهنة التي يستعملها في صياغة كلامه كانت تجعل غطرسته تنزلق بنعومةٍ مفتعلةٍ.

- «وسوف تنمو على نحوٍ أفضل في فرنسا الأنتاركتيكية!». صرخ فيلوغانيون بحماسٍ.

للحظةٍ، خطر في باله أن يدعوهم إلى الشّراب، لكنّه تذكّر أنّ نقل السّرّ المقدّس صار وشيكاً، وأسْعده أنّه لمْ يقل شيئاً.

- «فرنسا ماذا؟». قال دوبون وهو يزم عينيه.

- فرنسا الأنتاركتيكية. إنّها الفكرة التي أطلقها جغرافيٌّ كان هنا، هو الأب تيفيه. كان قد اقترح اسم فرنسا الاعتدال الرّبيعيّ، ثمّ استقرّ على كلمة الأنتاركتيكية.

- «تيفيه...». بحث دوبون في رأسه، ثم قال: «أليس هو الذي حمل معه تلك العشبة التي تجعل كلّ شيءٍ يدخّن حولها؟ أطلق عليها اسم الأنغوموازين؛ لأنّه كان من أبناء أنغوليم، وكان يتشاجر مثل كلبٍ مع نيكو الذي يدّعي أنّه أخذها قبله من البرتغاليّين».

هذا التّصرُّف كان ينتقص من جدّيّة ذلك الشّخص، وقد ندم فيلوغانيون لأنّه ذَكَره.

- «هل نقل لك الملازم الخبر الجديد الذي يتعلّق بالإمبراطور؟». قال دوبون، وهو يشير إلى جوست.

- تخلّيه عن العرش. نعم! إنّها نعمةٌ من الله، وهكذا فأنتم واثقون من أنّ البرتغاليّين...

- سوف يتركوننا بسلام.

تبادل فيلوغانيون نظرةً سريعةً مع النّبيل، وفهم فجأةً ما كان يبدو له غريباً في حضوره. إنْ كان كوليني لا يخاف على المستعمرة، لمَ قام إذن بإرسال هذا المحارب؟ وما هو الوعد الذي قطعه له. استولت عليه فجأةً موجةٌ من الحيطة والحَذر جهد لأنْ يبدّدها.

مع ذلك، ما كان يمكن أن تخطر في باله حقيقة الأمر؛ إذْ لمْ يكن كوليني هو من فرض دوبون لتلك المهمّة على الإطلاق، إنّما هذا الأخير هو الذي لمْ يتوانَ عن القيام بالمكائد لنيلها، وقد لعب الطّمع دوره بلا شكّ، لكنّ السّبب الرّئيس يظلّ طبيعة الرّجُل نفسها. كان الكابتن التّعِس يعاني من التهابٍ فظيعٍ في البواسير التي لم تترك له أيّة راحةٍ، وكان مستعدّاً لأنْ يقوم بالمعارك كلّها كي يلهي نفسه عنها، شريطة ألّا يُطلب إليه الذّهاب إليها بالحصان، وكانت رغبته الأخيرة كما يقول من دون أن يمزح هي أن يموت واقفاً.

- «يا أبتِ». قال فيلوغانيون، وهو يدير وجهه نحو ريشير: «لقد ترأستُ الصّلاة وخْدي طيلة هذه السّنة، وقمتُ وخْدي بشكلٍ، أو بآخر بوظيفتيّ: القيصر والبابا، وها أنا أتخلّى لك بكلّ طيبة خاطرٍ عن الوظيفة الأخيرة».

كانت تلك طريقةٌ حازمةٌ ليعلن أنّه يريد أن يحتفظ بالأولى، ثمَّ أضاف:

- الآن إنْ أردت، يسرُّنا أن نتبعك لنستمع إلى الاحتفال بتكريس العشاء الأخير.

كان فيلوغانيون يعرف جيّداً ما حصل منذ قضية الملصقات[I] وحتّى اللّقاءات التي تمّت في فيراري؛ ولذلك ألغى كلمة قدّاس، واستعمل تعابير معاصرةً عوضاً عنها. قام ريشير بحركة قبولٍ في حين تابع الأميرال:

- سوف ترى إلى أيّة درجةٍ يبدو هذا المكان ملائماً لممارسة ديانةٍ صافيةٍ متوافقةٍ مع الأعراف القديمة التي كانت متّبعةً عندما أسّسها سيّدنا.

(I) قضية الملصقات: حادثة حصلت في فرنسا عام 1534، حيث انتشر عدد كبير من الملصقات المناهضة للكاثوليكية في شوارع باريس وعدد من المدن الفرنسية، كان لها دور كبير في إنهاء سياسة التسامح لدى الملك فرانسوا الأول التي عملت على حماية البروتستانت. (م).

ما كان يمكن لدُعاة الإصلاح سوى أن يوافقوا على هذا المديح للبساطة الذي قطع الطّريق أمام الانتقادات كلّها التي كانت على شفاههم حول أماكن إقامتهم السّيئة؛ أمّا فيلوغانيون فقد دفعته الحميّة إلى أن يرتمي على الباب ويفتحه تاركاً الشّمس تدخل إلى المكان، وبعد أن استوحى من ذلك النّور جرَّ الجميع وراءه نحو الضّياء.

في السّاحة، كان سكّان الجزيرة جميعهم ينتظرون الاحتفال. ظلَّ القدماء والجُدد منفصلين، وكانوا ينظرون إلى بعضهم من دون تآلف. كان النُّحول، والوسخ، والتّراخي بمنزلة فضيحةٍ فاجأت القادمين الذين أقسموا على ألّا يتركوا أنفسهم فريسة ذلك على الإطلاق. في الوقت نفسه، كانت صحّة، وقوّة، ونظافة أولئك الذين رسوا في الحال تبدو للمستعمرين القدماء مثل إهانةٍ لآلامهم التي ما عاد بمقدورهم أن يتحمّلوها بعد ذلك.

في أثناء ممارسة الشّعائر ابتُهلَ إلى الله لكي يكون الفصْل والحَكم فيما يتعلّق بنِقاط الضّعف هذه، ولقد فوجئ الجميع به يستجيب لهذا النّداء، فسواد ملابس المبعوثين، وهيئتهم الجدّيّة، والمداهنة في تصرّفاتهم صار لها فجأةً معنى؛ وصارت بمنزلةِ شَركٍ عجائبيٍّ يجذب الرّوح القُدس نحوه. الأقدم من بين الحضور استعادوا ذكرى آخر احتفالٍ على أرصفة الهافر أخذت الحماسة فيه بمجامع قلوبهم، فانخرطوا بالبكاء. ومن يومها، ما كان لشطحات تيفيه المجنونة، ولا للوعظات التّأديبية التي كان يلقيها فيلوغانيون مثل عبءٍ يقع على كاهله أن توقظ لديهم أدنى مشاعر الإيمان، وفي المواجهة التي كانوا يعيشونها مع الطّبيعة، كانت هي التي تفرض قوّتها بلا توقُّفٍ: كانوا بمنزلة ألعوبةٍ في أيدي الشّمس، والأمطار، والوحوش، والنّباتات، والأمواج المالحة. لمْ يأتِ أيُّ ربٍّ لنجدتهم في تلك المعركة، وها هو الآن فجأةً، وبنعمة هؤلاء الأساقفة يُظهر لهم أنّه لم يتخلَ عنهم.

رفع الرّجال رؤوسهم ونظروا إلى الخليج نظرةً جديدةً. شواطئه الخرساء، وأدغاله الخانقة، وجباله الحادّة، وفي مقدّمتها جبل (خبز السُّكّر) هذا؛ كلّ شيءٍ كان يتراجع بخشيةٍ أمام البريق الهائل الصّامت للخالق الذي كان يتبدّى لهم. هذه الرُّؤيا أدرجت في نظراتهم شهوات الانتقام، والتماع الكبرياء.

في الشّعائر التي أدارها الأساقفة، كانت التّلاوة البطيئة للصّلوات تأخذ نغمة الحديث العاديّ من دون حاجة للصُّراخ من أجل الوصول إلى مسامع ذلك الذي كان بينهم. كان كلُّ شيءٍ في هذا الاحتفال يبدو في الوقت ذاته جديداً وأليفاً، فاستعمال نصوص الكتاب المقدس كان أكثر ممّا هو عليه في الكاثوليكيّة الرّومانيّة؛ ولمْ تعد العذراء والقدّيسون معها يفرضون ظلالهم التي تثير الرَّوع، وبذلك يستطيع المؤمنون أن يستفيدوا وحْدهم -من دون وساطةٍ- من ضيفهم الإلهيّ، ومن ابنه.

عندما جاء وقت المناولة، تمّت الشّعائر ببساطةٍ وطبيعيّةٍ كما لو كانت تدور حول مائدة طعامٍ، لكنَّ الأطعمة التي وُزعّت للتّناول، وهي الخبز الأبيض المستعمل كقربانٍ، والنّبيذ خاصّةً، كانت نادرةً جدّاً في الجزيرة، ما جعل استهلاكها يؤثّر على أجسادهم، ويبيّن لهم على نحوٍ مُؤكَّدٍ أنّ هناك ألوهةً ما تتخلّلها.

تابع فيلوغانيون مراسم الاحتفال بوجه تملؤه الدُّموع.

الفرح، والانفعال، والشّعور بأنّه انتصر، وبأنّه يدين بذلك كلّه إلى ربّ البساطة والمُتع الذي أُعيد إليه؛ هذه المشاعر كلّها اختلطت ببعضها لديه، فأخضعته لتأثير الحماسة السّاحق. كان يشعر بالامتنان للأساقفة؛ لأنّهم لمْ يتطلّبوا ركوعاً، ولا تعبيراً كبيراً بالجسد؛ إذْ ما كانت لديه القوّة لأن يمنع نفسه من أن يرتمي تحت أقدامهم، وهو ينتحب، لكنْ عندما جاء وقت

القربان المقدّس، أمر بوضع وسادةٍ صغيرةٍ من المخمل القرمزيّ على الأرض كان جوست بناءً على طلبه قد سحبها من مركز القيادة. تناول الخبز والنّبيذ، وهو راكعٌ على تلك الرُّقعة المربّعة، لا ليشعر بالرّاحة، إنّما ليرسم بينه وبين الأرض ذلك الاتساق الذي يمكن أن يجعله بعيداً عن لعنات الطّبيعة كلّها، ويبقيه - على وضاعته- داخل فضاء السّماء المقدّس.

*

شيئاً فشيئاً بدأ السُّكان يختلطون في ذلك الحيّز الضّيّق الذي تشكّله الجزيرة. كانت النّشاطات قد صارت فيها كثيفةً إلى درجةٍ بدت معها مزدحمةً بالسُّكّان. من جانبٍ آخر بدأت الفروق تخفُّ؛ فالقادمون الجُدد بعد أن خضعوا لنظام أكل طحين المانوكا، بدأوا يكتسبون بشرةً رماديّةً؛ أمّا القدماء الذين نشّطهم النّبيذ الذي كانت قوافل البروتستانت قد استولت عليه، فصاروا يمشون بتوازن أقلّ ربّما، لكنْ بثقةٍ أكبر.

استؤنف العمل داخل القلعة، ووصلت الأسوار إلى ما يقارب الارتفاع المطلوب. كانت عشرة أيّام تقريباً فترةً كافيةً للوصول إلى هذا التّقدُّم، وهو دليلٌ على أنّ شيئاً كثيراً كان قد أُنجز من قبل، وأنّ يأس المستعمرين كان وحْده ما أظهر لهم استحالة تحقيق هذا المشروع.

العقبة الوحيدة أمام هذا النّسيج المنتظم للحياة اليوميّة كانت إعلان رحيل ما يقارب ثلاثين رجُلاً من القادمين الجُدد. إحدى البواخر التي حملتهم أرادت أن تعود فوراً حسب شروط العقد مع أصحابها، فأعلن أولئك العنيدون أنّه ما من أحدٍ يستطيع إجبارهم على البقاء فترةً أطول في هذا المكان. كان فيلوغانيون يستطيع حلّ هذه المشكلة بسهولةٍ، لكن دوبون اتّخذ موقف الدّفاع عن هؤلاء العنيدين، ما أعطاهم فرصة الرّحيل. شكّل ذلك نموذجاً سيّئاً بالنّسبة إلى الآخرين، لكنّ القادمين الجُدد كانوا

قد وصلوا من فترةٍ قصيرةٍ جدّاً، والقدماء من فترةٍ طويلةٍ جدّاً، ما جعلهم جميعاً يتجاوزون شعور الحنين، وينظرون إلى هذا التّراجع عن البقاء بعدم مبالاة، وهكذا عادوا إلى العمل.

بين الأشياء الجديدة التي كانت تدلّ على أنّ الزّمن تغيّر، وأنّ تلك القافلة الأولى كانت تنتمي إلى ما قبل التّاريخ، وجود النّساء. أولئك الذين يذكّرون الزّمن الذي كان فيه الغراب يموّن الجزيرة بالأسيرات يمكن أن يقدّروا تماماً الفرق بين الحالَين؛ فالنّساء اللّواتي أتين من جنيف كُنَّ بعيداتٍ جدّاً عن العُريّ المتفلّت للعاهرات المطيعات، كنَّ وقوراتٍ، وكان لباسهنَّ سميكاً، لكنّ ذلك كان يضاعف فتنتهنّ. في كلّ يومٍ بعد الظُّهر كُنَّ يُنتزعنَ من غرفهنّ مثل صيصانٍ جعلهم الحَرُّ يفقسون، كنّ يخرجن متّكئات على وصيفاتهنّ، وقد وضع الأميرال نظاماً صارماً يسمح أن يكون الدّرب مفتوحاً عند مرورهنّ مع مراقبة العبيد الهنود لكيلا يتركوا أيّ جزءٍ غير محتشمٍ من أجسادهم يظهر أمام أعين العابرات. كان على الحفّارين أن يزرّروا قمصانهم، وحتّى السّعادين الصّغار الذين يتواثبون فوق السّدود، طُردوا بالحجارة كي يذهبوا لاستعراض مؤخّراتهم الزّرقاء في مكانٍ آخر.

ثمَّ تظهر الفتيات؛ فساتينهن السّوداء، أو الرّماديّة كانت كافيةً لجعلهنَّ متفرّدات بالنّسبة إلى المستعمرين المعتادين على ألوان الخليج الصّارخة، وعلى زُرقة البحر، وخضرة الأدغال، وصُفرة الببّغاوات، وحُمرة الطّين بعد أن يجفّ، وكلّها من صفات الرُّعب الطّبيعي الذين كانوا ضحاياه؛ أمّا الأسْود والرّمادي فكانا اختراعاتٍ بشريّةً صِرفةً تثير لديهم شهوةً عميقةً للحضارة. ولا واحدة من هؤلاء الفتيات كانت جميلةً فيما لو اعتمدنا معايير الجمال الصّارمة، فرفضهنّ اللّجوء إلى الأشياء المصطنعة جعل وجوههنّ تزدان بالحبوب عوضاً عن المساحيق، وقد كان لاتّباعهنّ أنظمةً

غذائيّةً سيئّةً دوره في إصابتهنّ بالنُّحول، أو حشْر أجسادهنّ داخل الثّياب. الخلاصة، إذا نظرنا إلى كلٍّ منهنّ على حِدة، لمْ تكن أيّة واحدةٍ من ربّات الجمال خاليةً من العيوب، ومع ذلك كان كمالهنَّ يتبدّى بوضوحٍ للعيان. ذلك أنّ كلّ واحدةٍ منهنّ على حِدة، وكلهنّ معاً كنَّ تجسيداً لمفهوم المرأة، أو كما كان يمكن أن يقول فيلوغانيون، تجسيداً للمفهوم الصِّرف للمرأة الصِّرفة، في هذا العالم الذي كانت الطّبيعة فيه لا تتوانى عن عرض ملامح فسادها على أيٍّ كان، وحيث كانت الأشياء تتداخل ببعضها، وتمارس العُنف على بعضها، وتتلاقح، كانت الفتيات صورةً عن العذريّة، وعن قدرة الكائن على أن يكرّس نفسه للطّهارة؛ بمعنى آخر: كنَّ نساءً يمكن للحبِّ أن يتحوّل معهنّ إلى صلاةٍ.

ما كان هناك شيءٌ يتعب العمّال بقدر رؤية الفتيات تعبرْن الطّريق من دون أن يتسنّى لهم الارتماء فوقهنّ.

لمْ يستطع أحدٌ أن يعرف من الذي قام بتحديد برنامج نزهة الفتيات. لا شكّ في أنّه كان من الصّعب تقديم مكانٍ فارغٍ ليتنزّهن فيه، لكن في الوقت نفسه ما كان هناك ما يستوجب أخذهنّ عبر الطّرقات الضّيّقة داخل ورشات العمل، حيث يجدن أنفسهنّ في تماسٍ مباشرٍ مع العمّال المساكين. كان من الواضح في هذا التّدبير المفتعل وجود نيّةٍ متناقضةٍ بإشعار الجميع بتواضع هؤلاء الفتيات، وفي الوقت نفسه التّذكير بأنّهنّ كنَّ مُتاحاتٍ. ذلك أنّ سبب وجودهنّ في هذه الجزيرة كان في النّهاية الزّواج، وطالما لمْ يتمّ ذلك، كنّ عاطلاتٍ عن العمل، تماماً مثل عامل بناءٍ أُخذت مجرفته منه.

وبما أنّ الطّلبات انهالت على فيلوغانيون، فقد أسرع منذ اليوم الأوّل لعقد خطبة اثنتين من الفتيات مع شابّين من القافلة الأولى كانا يعملان في خدمتهنّ. سمح ذلك بوجود وقتٍ كافٍ لتفحُّص الطّلبات الأُخرى. كان

هناك كثيرٌ من المرشّحين، وكانوا يلحّون في طلبهم، ولقد تشكّلت لدى الأميرال من جرّاء ذلك القناعة الممتعة بأنّه من الممكن حتّى للوصيفات الّلواتي جيء بهنّ من دون تلك النّيّة أن يجدْن من يأخذهنّ.

مع ذلك، من بين الفتيات السّتّ الّلواتي هبطْن من المركب بقيت واحدةٌ لمْ يرها أحدٌ، فمنذ أن حملها جوست من الزّورق، وأخذها إلى الأرض، كانت قد انزوت في الكوخ الذي أعطي لها. هذا الاعتزال أثار قلق فيلوغانيون؛ لأنّه جعله يخشى أن يضيّع واحدةً من الفرص الثّمينة والنّادرة ضمن الزّيجات المتاحة. كانت تلك المرّة الأولى التي لم ينتظر فيها جوست أوامر الأميرال، فبعد عدّة أيّامٍ، اقترح أنّه ربّما يكون من الجيّد السُّؤال عن أحوالها، وقد ظهر قلقه الصّادق كأنّه حيلةٌ عندما عهد إليه فيلوغانيون بمهمّة الذّهاب بنفسه للسُّؤال عن الصّبيّة.

كان الكوخ حيث تقيم مع وصيفتها آخر واحدٍ في سلسلةٍ طويلةٍ تصل إلى المعقل الغربي. في الماضي، كانت قد نمت في ذلك الموضع طاقةٌ من البامبو، وبعض البراعم الضّالّة التي ما تزال تظهر حول الجدران. عندما وصل جوست ظلّ فترةً طويلةً متردّداً في الخارج. لمْ يكن للكوخ بابٌ، إنّما ستارةٌ، فلمْ يعرف كيف يعلن عن مجيئه. من الدّاخل تناهت إلى سمعه نقراتٌ مزدوجةٌ لآلةٍ موسيقيّةٍ.

سعل جوست، فطغت الضّجّة التي خرجت من حلقه على النّغمات، وسبّبت في الدّاخل صمتاً، ثمَّ وشوشات. في النّهاية، فتحت الوصيفة السّجف، وعلى وجهها أمارات القسوة. تمتم جوست متلعثماً:

- لقد أتيت لأسأل عن أخبار الآنسة.

ثمَّ أضاف، كما لو كان يرفع ترساً في وجه الأعداء:

- من طرف الأميرال.

- «لقد صارت بحالٍ أفضل». أجابت المعلّمة بأسلوب جافٍ، ثمّ أرخت السّتارة، واختفت.

شعر جوست بنفسه أخْرقَ أمام هذا الصَّدّ. ظلّ برهةً واقفاً في مكانه في حين تضاعفت الوشوشات في الدّاخل. في النّهاية، فُتحت السّتارة من جديد.

- «إنْ أردت أن تراها». قالت الوصيفة بتكشيرةٍ لطيفةٍ.

دخل جوست. كان المكان الضّيّق داخل الكوخ قد قُسم إلى اثنين بقطعة قماش. في إحدى الزّوايا كان هناك معزفٌ مفتوحٌ، وفوق علبة المفاتيح الضّيّقة كانت تهتزّ أوراقٌ دُوّنت عليها نوتةٌ موسيقيّةٌ. فوق الصّندوق كانت توجد حصيرٌ ملفوفةٌ لا شكّ في أنّها كانت مخصّصةً للوصيفة. لمْ يكن في تلك الرّدهة أيّ أثر للصّبيّة، لكنّها ظهرت وسط أغراضها كلّها عندما فتحت الوصيفة السّتارة العازلة بعد أن ألْقت نظرةً أخيرةً من الجهة الثّانية. كانت هناك صناديقُ مفتوحةٌ، ومنضدةٌ ممتلئةٌ بالكتب قرب النّافذة، وصندوقٌ صغيرٌ من الخزف لمستلزمات الزّينة، وبعض الفساتين المعلّقة على شوكة شجرة نخيلٍ كانت قد التصقت بحجارة الجدران لكي تستعمل كشمّاعةٍ. ذلك كلّه كان يشكّل ديكوراً لطيفاً يُنسي فراغ الكوخ المُعْدَم. كانت الصّبيّة جالسةً على حافّة السّرير، ويداها على ركبتيها، وعيناها مسبلتان. تركت لجوست الوقت الكافي لكي يتشبّع هذه المرّة بذلك الجمال بحُريّةٍ، وفي الضّوء السّاطع، كان هناك تناسقٌ في اللّون الأسود يتأتّى من شعرها المشدود، ومن حواجبها الدّقيقة، ويتناغم مع التّوشية في ثوبها. بشرتها البيضاء كانت تتناوب مع تلك البقع السّوداء كما على لوحة مفاتيح المعزف. رأى جوست أنفاً مستقيماً، وذقناً دقيقةً، وجانبي الجبهة حيث يرسم الوبر لدى السّمراوات ظلّاً فوق الوجه. كأنّ ذلك كلّه لم يكن

كافياً؛ إذْ رفعت الصّبيّة عينيها، وثبّتت عليه فتحتيّ النّار التي كانت تشعّ من حدقتيها.

- «شكراً يا سيّدي». قالت بصوتٍ متماسكٍ للغاية، وحاد، وبنبرة جدية قليلاً: «شكراً لأنّك لمْ تتخلَّ عنّا».

- «الأميرال»، بدأ جوست كلامه هكذا؛ لأنّه نسي أنّ كلمة (أنا) موجودةٌ: «الأميرال قلقٌ على حالة صحّتك».

تنهّدت الفتاة، ومدّت يدها الطّويلة نحو طرف السّرير، ومسّدت بنعومةٍ ثنيةً في القماش.

- صحّتي أفضل، أشكرك. لكنْ...

ارتجف جوست. بدا له أنّها توشك على البكاء.

- .. لكنّني لا أشعر بنفسي جاهزةً للخروج من هنا.

- لا ضرورة للعَجلة.

هل كان يفكّر برؤيتها مرّةً ثانيةً وحْدها؟ لمْ يفكّر جوست بذلك عندما صاغ جملته هذه.

- «آه يا سيّدي!». صرخت الصّبيّة، وهي تدير عينيها تُجاهه.

رأى الدّموع تلتمع فيها، ولمْ يعرف ما الهيئة التي عليه أن يتّخذها.

- «يبدو أنّك طيّبٌ للغاية». قالت متأوّهةً: «أشعر أنّ من الممكن الحديث معك».

- بالتّأكيد. إنْ كان هناك ما أستطيع فعله...

هزّت رأسها، لكنّها فعلت ذلك بنعومةٍ لكي لا تتغيّر ملامح وجهها، ثمّ قالت فجأةً، وهي تعدّل وضعيّة رأسها برشاقةٍ:

- إنّك تعرف على ما أفترض لماذا يريدون منّا أن نتنزّه، وما يريدون

فعله بنا، ومع أنّي ابنة شقيق الأسقُف، فإنّني لا أشكّل أيّ استثناءٍ. ومن جرّاء ذلك سرعان ما سأوضع في المزاد.

قال جوست الذي رأى في هذا الارتباك صدىً لثورته هو عندما جعلوه يرحل تحت تأثير كذبةٍ حقيرةٍ:

- لكن، لماذا قبلتِ المجيء؟ هل أخفوا الحقيقة عنكِ؟

- لا ياسيّدي، قالوا لي ذلك، لكنْ لا خيار لديّ. لقد مات أهلي في حملات الاضطّهاد قبل عشر سنوات من الآن، ولم أفلت من المجزرة سوى بفضل عمّي، وعندما قرّر المجيء إلى هنا لم يكن من الممكن قطُّ أن أبقى وحْدي من دونه.

بعد أن شعرت الفتاة أنّ المعجب بها قد نضج من إحدى الجهات، بدأت تحاول الإمساك به من الجهة الأُخرى. غيّرت فجأةً لهجتها ومزاجها. وبهيئةٍ فرحةٍ، وصوتٍ يغنّي، استأنفت الكلام من دون أن تُنقص الاحترام الذي يجبرها عليه وقارها:

- لكنْ اعذرني! لقد استسلمت للبوح... ولربّما أتعبتك. لمْ أقدّم لك نفسي. اسمي أود موبان، من مواليد لونس لو سونييه، ووصيفتي هي الآنسة سولانج.

أدّت كلتاهما تحيّةً أنيقةً ردّ عليها جوست بكثيرٍ من الارتباك؛ لأنّ فيلوغانيون لمْ يعلّمه شيئاً في هذا المجال، وذكر اسمه.

- «لمْ تستطيعي حتّى أن تذهبي إلى العشاء الربّاني البارحة؟». قال بنعومةٍ.

- كان بودّي ذلك؛ لأنّني كنت في حاجةٍ ماسّةٍ للقداس، لكنْ إن خرجتُ مرّةً استثنائيّاً، سيكون لزاماً عليّ أن أفعل الشّيء نفسه في المرّات الأُخرى.

كان جوست يشعر هو أيضاً بالاستنكار من رؤية هذا الكائن النّقيّ جزءاً من المساومة الغليظة التي تستعرض تلك الفتيات البريئات أمام من يريدون اختيارهنّ للزّواج.

- «ربّما كانت هناك وسيلةٌ لإعفائك من ذلك». استطرد: «سوف أتحدّث إلى الأميرال. إنّ علاقته بعمّكِ ممتازةٌ. ربّما...».

عبست أود، وخاف جوست كثيراً أن يكون قد أزعجها، ولذلك قطع كلامه فوراً.

- «أجل، ممتازةٌ إنْ أردت». قالت بحدّةٍ: «لست واثقةً من أنّها ستبقى كذلك فترةً طويلةً».

- «بسبب ظروف سكنكم؟». قال جوست مستبقاً الحديث: «آه، أعرف ذلك، لكنْ صدّقيني أنّنا سنقوم بأقصى ما يمكن من الجهد».

- «ليس هذا فقط». قالت الفتاة، وقد اكتسب وجهها مظهراً يزداد قسوةً باضطّراد، وكانت عيناها الغامقتان رائعتين عندما ادّعت القسوة.

شعر جوست بالفزع في حين أضافت هي بجدّيّة:

يجب على الأميرال الذي تتحدّث عنه أن يحسّن سلوكه.

- يحسّن سلوكه؟ لكن كيف؟

- لقد بدر منه خلال الصّلاة سلوكٌ يدعو كثيراً إلى الشّك، حسْب ما قال عمّي. لديه مظاهرُ وثنيّةٌ عليه أن يستأصلها بأسرع ما يمكن.

- وثنيّةٌ؟

- ألم يركع على وسادةٍ من المخمل في أثناء المناولة؟

- صحيح، لكنْ ما المشكلة؟

نظرت إليه أود نظرة غضبٍ مستشيطٍ، لكن بعد لحظةٍ، بدا عليها أنّها تطرد هذه الأفكار بهزّةٍ من أكتافها. قالت منهيةً الحديث:

- سيعرف عمّي كيف يوقف هذه التّجاوزات.

كاد جوست يجيب، وأن يحاجج، لكنّها بدأت تبتسم، وانتقلت إلى شيءٍ آخر.

- إنّ طيبتك تؤثّر بي يا سيّدي، ويبدو لي أنّه بفضل حمايتك سأستطيع أن أجد الأمان الضّروريّ لكي أخرج قليلاً. متى ستكون الصّلاة القادمة؟ هل تعرف؟

- أظنّ أنّ عمّكِ والأميرال بصَدد تحضير مراسم زيجتين سوف يُحتفَل بهما معاً.

- «سولانج. هل تسمعين؟». صاحت الصّبيّة: «سيكون هناك عشاءٌ ربّانيٌّ جديدٌ. لو تعرف يا سيّدي كم يريحني تناول القربان، وكم أشتاق إليه».

- سوف أرافقك وقتها، إنْ أردتِ.

- «آه، شكراً شكراً». قالت، وهي تمسك بيدي جوست.

لمْ يدم هذا الاندفاع سوى برهةٍ قصيرةٍ؛ مع ذلك ظلّ يشعر فترةً طويلةً في يديه بالضّغط الدّافئ لراحتها النّاعمة، وهكذا أمضى جوست بقية النّهار حالماً.



الفصل 4

ما لبثت صدمة الأفكار الجديدة أن انتشرت في أفئدة سكان الجزيرة. في البداية لم يكن المستعمرون الأوائل قد رأوا في مجيء أهل جنيف سوى نجدةٍ أمدّتهم بالعُدّة والعتاد، لكنّ التّعامل المباشر سرعان ما خفّف من تأثير تلك النّظرة التي حلّت محلّها فكرةٌ ثانيةٌ: فأولئك الذين رسوا في الحال لمْ يكونوا يحملون كلّ ما لدى البشر الأصحّاء من سذاجةٍ وحسْب، بلْ كانت لديهم أيضاً أفكارٌ غريبةٌ، ومعتقداتٌ فريدةٌ من نوعها تُقُبِّلَت مثل غيرها، وضمن فوضى حماسة الوصول الأولى، بمزيجٍ من الاستعجال وعدم الوعي، ثمَّ خطر في بال أحدهم في يومٍ من الأيّام أن يذكر كلمة «هوغونوت»، فإذا بالجميع ينظرون إلى هؤلاء بفضولٍ أكبر.

من بين الذين أخرجهم فيلوغانيون من السّجن كان هناك من يعرفون تلك الأفكار، وقد اصطفّوا طوعاً إلى جانب أتباع الدّيانة الجديدة. هؤلاء كانوا في الماضي قد دفعوا حرّيّتهم ثمن السِّحر الذي مارسته عليهم كتابات لوثر، ولمْ يعرفوا سوى الاضطّهاد والعمل السّرّيّ؛ لأنَّ الإصلاح الأوّل خُنق في مهده في فرنسا قبل ذلك بعشرين سنةً، ولذلك كانوا ينظرون بحماسٍ إلى هؤلاء الهوغونوت الجُدد الذين يحكمون في جنيف، ويأسّسون كنائس إصلاحيّةً في كلّ مكانٍ في فرنسا تقريباً؛ وها هُم

الآن يختارون المجيء طوعاً إلى الأمريكيّتين بعدما أوصاهم بذلك أقرب وزراء هنري الثّاني.

لكنْ كثيرون غيرهم تمنّعوا. كان يجب إقناعهم ووعظهم. في كلّ مكانٍ من الجزيرة نظّم القساوسة مجموعات، وبدأوا بتعليم عقيدتهم الجديدة. بدأت الأناجيل تنتقل من يدٍ إلى يدٍ مع تفسيرٍ وشرحٍ للنُّصوص. بدأ المستعمرون الذين نالوا كفايتهم من الأدغال، والبحر، و(خبز السُّكّر) يناقشون بمتعةٍ أمور الّلاهوت التي جعلتهم يسترجعون الانقسامات البشريّة الغنيّة، وماهيّة الحضارة بحدِّ ذاتها.

لكنّ ذلك التّبشير كان قد قدح شرارة الاستنكار في مجموعةٍ أُخرى، تلك التي كانت ترفض جازمةً أيّة فكرةٍ فيها مساسٌ بالإيمان الكاثوليكيّ. كان دون غونزاغ قرب فيلوغانيون النّاطق الرّسمي باسم ذلك التّوجُّه الصّارم.

- «لنْ أتخلّى أبداً عن العذراء مريم». قال غونزاغ، وقد اهتزّت لحيته الصّغيرة.

لا شكّ في أنّه لم يكن يحبُّ السّلك الكهنوتيّ، ويجد فيه عيوباً كثيرةً، لكن في حين كانت النّساء الّلواتي يحملن أسماءً كاثوليكيّةً مثل: كاترين ومارغريت ينظرن إليه بتعالٍ، كانت أمُّ الرّبّ من جهتها تأتي لنجدته، ولمْ يرغب أن يظهر جاحداً تُجاهها.

كان فيلوغانيون يهدّئه قدْر المستطاع. في الواقع، كان هو نفسه يجد أنّ طريقة الهوغونوت في حثّ الذين انضمّوا إليهم في إعلان ذلك غير صائبةٍ. ما كانت هناك ضرورةٌ للتّحوُّل في اتّجاه العقيدة الجديدة، طالما أنّ المعتقدات كانت قريبةً جدّاً من بعضها. ألمْ يكن الإصلاح نوعاً من العودة إلى الجذور؟ كان قد قال ذلك خلال عشاء القربان الإلهيّ، وبدا وقتها أنّ كلامه أعجب الجميع.

بدأ الأميرال بدوره يعمل جاهداً لدعم هذا المعتقد المسكونيّ. كان يشعر بغضبٍ مسعورٍ؛ لأنّ مكتبته صغيرةٌ للغاية، وذاكرته ضعيفةٌ للغاية، لكنّه من خلال ما يعرفه، وكان يعرف بالفعل آلاف الصَّفحات عن ظهر قلب، أو تقريباً، كان قادراً على جمع حُججٍ متينةٍ يمكن أن يجابه الجميع بها من أجل أن يقارب بينهم.

كان يخوض تلك المعركة بالرّوحيّة نفسها التي يخوض بها معركةً مسلحةً. إنّه هكذا. لا يستطيع أن يفعل أيّ شيءٍ إلّا بأحسن وجْهٍ. كان جوست يساعدة أحياناً، وفي وقتٍ متأخّرٍ، بأنْ يقرأ له على ضوء الشّمعة النُّصوص القديمة، وأن ينسخ له منها مقاطع. كان الأميرال سعيداً من هذه العودة المفاجئة للفضول، وللثّقافة، وللتّخمينات، وبفعل ذلك أهمل تماماً الأشغال على الجزيرة.

على أنَّ مجيء كولومب تمَّ من دون ضجيجٍ، إلّا أنّه أثار الأزمة الأولى. كانت قد عادت من عند باي لو متجاوزةً المزالق التي كان ينشرها على السّاحل أتباع مارتان، والقبائل التي تتحكّم بالمنطقة، ووصلت عندما بدأ الهوغونوت نوعاً ما. عندما رأت من بعيدٍ البواخر الجديدة، وكتلة الإمدادات التي استقبلتها الجزيرة، وصحّة المسافرين الجيّدة، رغبت كولومب في البداية أن تفرح بذلك. لمْ تكن تتقاسم مع أخيها أحلامه بخصوص فرنسا الجنوبية، مع ذلك ما كان لها إلّا أن تسعد برؤية زمن الخشية والحرمان قد انتهى. لكنّ كانتان بدّد هذا السِّحر عندما أمسك بها بكلّ قواه بمجرّد أن وضعا أقدامهما على الشّاطئ.

- «لا!». صرخ، وقد غضب فجأةً: «هذا مستحيل. ليسوا هُم. النّجدة، أنقذوني!».

ثمَّ هرب بأسرع ما يمكن، واختبأ وراء كثيب رملٍ.

- «ما بكَ؟». سألته كولومب بعد أن لحقت به.

- «هؤلاء الرّجال الذين يرتدون الأسْود». تمتم كانتان، في حين كانت أسنانه تصطك.

- حسناً. ماذا عنهم؟

ساورها الشّكّ في أنّه سيبكي؛ لأنّه لمْ يعطِ نفسه تلك المتعة منذ زمنٍ طويلٍ عند باي، لكنّها لم تتوقّع نشيجاً بهذه القوّة، ولا تشنُّجات رُعبٍ مماثلةً.

- «أريد أن أعود إلى اليابسة». قال لها، وقد بدأ يمشي نحو الزّوارق. منعته كولومب:

- اشرح لي. إنْ كان هناك خطرٌ ما فهو يحدق بنا جميعاً.

ظهر على كانتان أنّه بدأ يعود إلى رُشده. شخر ومسح وجنتيه بظاهر يده التي التصقت بها حبيبات رملٍ، ثمَّ أخذ نفساً طويلاً، وبدأ يخبرها:

- كانت تلك السّنة التي سبقت رحيلنا. كنت في ليون.

- كنت أعتقد أنّك كنت في روان؟

- نعم، لكنْ قبل ذلك بسنةٍ قمت بتلك الرّحلة. كنّا مجموعةً صغيرةً حول رجُلٍ استثنائيٍّ. كان طبيباً إسبانيّاً. لن تتخيّلي كم كان جيّداً. كان يعرف كلّ شيءٍ. لغته اللّاتينيّة صافيةٌ، وكتبه روعةٌ في الذّكاء. كان اسمه ميشيل.

- ميشيل ماذا؟

- «ميشيل سيرفيه». قال كانتان موضحاً من دون أن يحاول حبس دموعه: «أدان الفرنسيّون كتبه، وذلك طبيعيٌّ جدّاً في بلدٍ لا يفقه أي شيءٍ عن الحقيقة».

- «والرّجال الذين يرتدون السّواد؟». سألته كولومب التي لم تكن ترغب بأن تطيل هذا الوضع غير المريح.

- اعتقد هذا المسكين سيرفيه أنّه سيجد نجدةً في جنيف. رافقتُه حتّى أبواب المدينة، وهناك رأيتهم، هؤلاء القساوسة كلّهم، هؤلاء الرّجال كلّهم الذين يرتدون السّواد.

- لكن، أنت أيضاً يا كانتان ترتدي السّواد.

- لا. الأمر مختلفٌ. هؤلاء هُم أنفسهم الذين رأيتهم في جنيف، بل إنَّ أحد المجذّفين في القارب أكّد لي ذلك.

مال برأسه إلى جهة قفة التّراب. كان ريشير يقف عند المكان الذي يفضي إليه الشّاطئ على منصّةٍ صغيرةٍ من السّحاحير يلقي وعظةً لمْ تكن مسموعةً.

- لقد حرقوه، يا كولومب.

- من؟

- حرقوا سيرفيه. كالفن لمْ يكن متّفقاً معه، وتعامل معه بقسوةٍ ما كان الفرنسيّون ليظهروها. لقد حرقه بالمحرقة، هل تسمعينني؟

- كنت أعتقد أنَّ الهوغونوت يقفون في صفِّ الحُرّيّة.

- حرّيّتهم! لكنّ تيودور دو بيز المرعب كتب في السّنة التّالية نشرة عنوانها: «الحق في معاقبة الهراطقة». صدّقيني. يجب أن أذهب. لن أبقى ولا لحظةً على الجزيرة نفسها مع هؤلاء النّاس.

ظلّت كولومب ساعةً كاملةً تحاول أن تعيد كانتان إلى رُشده. وعدته أنّها ستكلّفه بأسرع ما يمكن بمهمّةٍ جديدةٍ. في النّهاية قَبِلَ أن يختبئ كي لا يغامر بالذّهاب وخده إلى الغابة.

في أثناء بحثها عن جوست في الجزيرة، تفاجأت كولومب بما رأته، فالأشغال قد توقّفت بعد أن كانت قد وصلت إلى مرحلةٍ متقدّمةٍ. وفي كلّ مكانٍ كانت هناك مجموعاتٌ تتناقش بحماسٍ حول مواضيع غير معتادةٍ في هذه الأرجاء، مثل: خلود الرّوح، والخلاص عبر الرّحمة الإلهيّة، أو حُريّة الاختيار. في الورشات هناك دعاةٌ يرتجلون وعظاتهم، والأشخاص الذين يحبّون العزلة وكانوا يجدون التّسلية بالقرب من السّاحل صاروا الآن يسيرون حاملين الإنجيل في يدهم. بدا كأنّ المستعمرة كلّها غاصت فجأةً في التّأمُّل.

لكنّ هذا التّأمُّل لم يكن مسالماً، أو أخويّاً على الإطلاق، فهناك نظراتٌ سيّئةٌ تُتبادلُ من وقتٍ إلى آخر. كان مكان إقامة القساوسة والهوغونوت منعزلاً، وموضع مراقبةٍ على ما يبدو، وعوضاً عن أن يؤدّي اكتساب الرّوحانيّة إلى التّفاهم والتّفاؤل، راح يزيد على ما يبدو من العدوانيّة، والانعزال، والقلق. وفي النّهاية، عندما استطاعت كولومب أن ترى جوست في مركز القيادة، رأت بغضبٍ أنّه هو وفيلوغانيون كانا قد وقعا تحت سيطرة تلك الحُمّى التّفكيريّة.

استقبلها الأميرال بلطفٍ، وجعلها تروي له ما حصل لها خلال إقامتها لدى باي لو، لكنْ بدا أنّ هذا الموضوع ما كان يهمّه في حين أنّ الملحوظات التي كوّنتها منذ مجيئها إلى الجزيرة كانت بالنّسبة إليها بمنزلة اكتشافٍ حقيقيٍّ، فصرخ:

- بحقّ جسد سان جاك، إنّكِ محقّةٌ، كولان هو الفوضى.

أمسك برزمة أوراقٍ كان قد ملأها بملحوظاته، وبدأ يجمعها بيديه الاثنتين، ثمَّ قال بلهجةٍ خطابيّةٍ:

- كلّ شيءٍ قد صار الآن واضحاً بالنّسبة إليّ، أو تقريباً. في كلّ

الأحوال، بدءاً من الغد سوف نجمع القساوسة، ونتناقش في الأمر. يجب أن نضع حدّاً لهذه الخلافات، وأن نعطي لرجالنا يقينيات، ثمَّ نعود لاستئناف العمل.

بقيت كولومب لتناول العشاء في مقرّ القيادة مع جوست. وجدته قد تغيّر، وصار غريباً. من الجانب الفيزيائيّ كان هو نفسه، مع اهتمامٍ غير معتادٍ بمظهره. كان فيلوغانيون قد أعاره من فترةٍ طويلةٍ شفرات حلاقةٍ، لكنّه لمْ يستعملها وقتها. في هذه المرّة كانت وجناته ملساء، وكان عنقه عند القبّة مقصوصاً على الطّريقة الإسبانيّة بعنايةٍ شديدةٍ. الشّيء الأهمّ أنّه لم يولِها أيّ اهتمامٍ.

كانت قد اعتادت أن تراه صامتاً وهادئاً، لكنّ نوعيّة شروده بدت لها مختلفةً من دون أن تستطيع تفسير ذلك. كان لديها حدسٌ أنّه لم يكن متحفّظاً، إنّما مأخوذاً بكلّيته بمشاغل جديدةٍ تجهلها.

المحادثات التي سادها طابعٌ رسميٌّ للغاية بين فيلوغانيون ودو بون والمبعوثين نُظِّمت بسرعةٍ، خاصّةً أنَّ البروتستانت كانت لديهم من جهتهم أشياء كثيرةٌ ينتقدونها، ويريدون التّعبير عنها، ويتمنّون تفسير موقفهم تُجاهها. أتوا إلى مركز القيادة في منتصف الصّباح. كان الأميرال قد فضّل استقبالهم وحْده؛ لأنّه خشي أن تُفلت من دون غونزاغ ردودُ أفعالٍ صارخةٌ حول مسائل الدّين. مع ذلك، ولكي يكون هناك شاهدٌ على المحادثة، طلب إلى جوست أن يساعده.

بمجرّد دخول الهوغونوت، بدا واضحاً أنَّ النّقاش سيكون صعباً. لمْ يكونوا قد عادوا إلى مقرّ القيادة منذ يوم العشاء الرّبّاني، وبدا من طريقة دوبون في النّظر إلى قطع الأثاث وزينة المكان أنّه كان يحمل ضغينةً واضحةً لمظاهر الفخامة تلك، التي كان محروماً منها. قرّر فيلوغانيون

أن يتجاوز عدم صلاحيّة رتبته بوصفه فارساً، وهو ما أُعلِمَ به في النّهاية، فجلس على الكنبة، ودعا الآخرين لأنْ يفعلوا الشّيء نفسه. نفّذ القساوسة، وقد اعتادوا في هذه النّقطة بالذّات ألّا يخضعوا للزّهد الذي كان دوبون يفرضه على نفسه، وبالتّالي ظلّ وحْده واقفاً.

سألهم الأميرال في البداية عن صحّتهم، وعن سكنهم، لكنّ هذا الاهتمام الذي عُدَّ نوعاً من الاستفزاز لمْ يوقظ لديهم سوى همهمات تذمُّرٍ.

- «يا إخوتي الأعزّاء». بدأ الأميرال كلامه، وقد اكتسب وجهه هيئةً جدّيّةً: «أريد أن أتحدّث إليكم عن شيءٍ يشغل بالي، وها هو بكلمةٍ واحدةٍ: العمل لمْ يعد يتقدَّم. يبدو لي أنّنا يجب أن نعيد النّظام إلى ما كان عليه. النّقاشات زادت عن حدّها على هذه الجزيرة. الحميّة الدّينيّة شيءٌ عظيمٌ، وأنا أفهم ذلك، لكنّها يجب ألّا تتداخل مع متطلّبات الحياة، بلْ والبقاء على قيد الحياة، ذلك أنّ فرنسا الأنتاركتيكية، من دون الحصن، ستبقى تحت رحمة أعدائها الذين لا يمكن حصرهم».

جال ريشير ببصره في الغرفة، وهو يدّعي عدم الاهتمام، لكنّه بدا عندما لمح لوحة العذراء لتيسيان كأنَّ سمكة الرّعاد الكهربائيّ قد لدغته، عاد ببصره دفعةً واحدةً نحو فيلوغانيون، وهو يكاد يفقد توازنه.

- بين المعتقدات العديدة الموجودة على هذه الجزيرة، أظنّ أنّ الأشياء التي نتّفق عليها أكثر من الأشياء التي نختلف بصَددها. الشّيء الأهمّ هو تلك الرّغبة الطّيّبة الرّائعة التي تجعل الكائن البشريّ صنيعة الله. إنّني أؤمن بالإنسان، وأنا واثقٌ من أنّكم أنتم أيضاً تفعلون الشّيء نفسه. حسنٌ، يمكن أن نعطي لهذا الكائن العاقل أسباباً ليؤمن، إذا ما استنبطنا من معتقداتنا قاعدةً مشتركةً تسمح لكلّ واحدٍ فينا أن يحترم الآخرين من دون أن يخون نفسه.

الصّمت المعادي الذي ساد بين ضيوفه جعل فيلوغانيون يطلب إليهم الكلام محاولاً أن يعرف ما رأيهم.

- «إنّنا موافقون على ضرورة إعادة النّظام إلى المكان». قال دوبون بنبرة احتقارٍ: «ولقد كان ذلك انطباعنا منذ البداية، لكنْ يجب أن نعترف أنّ مهمّتنا لمْ تكن سهلةً. لقد جعلتنا منذ البداية نقوم بأعمال الحيوانات رغبةً منك في أن تحيّدنا، ولقد تركت لنفسك وحْدك حقّ استعمال مقرّ الحُكم هذا الذي يجب أن يكون مع ذلك رمزاً للسُّلطة المتبادلة. فما الذي تنتظره منّا؟».

ارتأى فيلوغانيون أن يبقى هادئاً على الاستنكار الذي شعر به جرّاء هذا الكلام.

- يبدو لي قبل كلّ شيءٍ أنّ عدد خطب الوعظ يجب أن يتحدّد، ويبدو لي أنّ نصف ساعةٍ في اليوم كافيةٌ لتذكير هؤلاء النّاس بواجباتهم تُجاه الرّبّ. يبدو لي أيضاً أنّ مضمونها يجب أن يكون معتدلاً، ولكي لا نجرح بعض العقول المرتبطة بالتّقاليد، أظنّ أنّه يجب منع أيّة شتيمةٍ تجاه البابا -الذي لا أشعر بالمودّة تُجاهه كما تعلمون- أو تُجاه الكنيسة عامّةً.

أراد دوبون أن يتدخّل، لكنّ الأميرال أشار له بيده أنّه يريد أن يكمل كلامه.

- في النّهاية، أظنُّ بصراحةٍ أنّه من غير المفيد الوصول إلى حالات ارتدادٍ عن العقيدة، أو تحوُّلٍ إلى غيرها. الأفضل هو أن يجتمع الكلّ في المسيح، لا أن يحصل انقسامٌ بين أولئك الذين يؤمنون به.

اعترض ريشير بجلافةٍ:

- إنّنا نجمع أولئك الذين يعرفون ويمارسون حقيقة الإنجيل. أنا متّفقٌ معك أنّه يجب أن نلغي روحيّة التّفكير العقلانيّ والشّكّ المقيتين؛ لأنّهما يضعان عائقاً هنا أمام التّقبُّل الهادئ للكلام الإلهيّ.

قال فيلوغانيون وقد دبّت فيه الحماسة:

– لقد كنت متأكّداً من أنّنا سنتّفق حول هذه النُّقطة.

– «أنت ترى»، تابع ريشير من دون أن يقاسمه مزاجه الحَسن: «أنّنا عندما نقدّم الكتاب المقدس للإنسان، وعندما نعطيه حريّة الوصول إلى النُّصوص المقدّسة، فإنّنا نخاطر بأن نضعه في مواجهة شعوره بأنّه لا شيء، والواقع أنّنا رأينا بعدها مباشرةً مجانين تائهين يدّعون تفسير كلام الرّبّ بطريقتهم، ويستنبطون نتائج عبثيّةً لا معنى لها عن الحقيقة، لا بلْ إنّ بعضهم ذهب إلى حدّ ادّعاء أنّه إذا ما كان الإنسان لا يستطيع أن يجد خلاصه عن طريق أعماله، فمن غير المفيد له أن يقوم بأيّ جهدٍ لكي يصحّح مساره، وسواءٌ قتل أم سرق، أو استمتع، فالرّبُّ وحْده يمكن أن يمنحه رحمته، ويبعده إن أراد عن هذه الشَّهوات».

– «أعرف هؤلاء المتعصّبين»، أكّد فيلوغانيون: «والواقع أنّه كانت لدينا هنا فرقةٌ من الأناباتيست».

– «أين هُم؟». قال دوبون مباشرةً، وبسرعةٍ كبيرةٍ كما لو كان يريد أن يسحب سيفه.

– يبدو أنّهم يعيشون عُراةً في الأدغال، وأنّهم عادوا إلى عادة أكل لُحوم البشر.

سرى بين الحضور صمتٌ ممتلئٌ بالرُّعب، ثمَّ عاد ريشير إلى الكلام وقد ارتاح؛ لأنَّ ذِكر الأناباتيست قد حضر على نحوٍ طبيعيٍّ ليضع حداً لهذه المحادثة.

– لهذا يتبيّن أنَّ الحريّة لا تعني أيّ شيءٍ من دون التّفسير، لا نستطيع أن نقدّم الإنجيل من دون أن نتطلّب في الوقت نفسه إيماناً يجعل المؤمنين يدخلون في أمان الكنيسة، فينظّم إيمانهم، ويعدّل سلوكهم.

- «إنّني أعترف طواعيةً بضرورة وجود كنيسةٍ». قال فيلوغانيون: «لكنّك توافقني أنّه عامّةً، وخصوصاً في هذه الجزيرة الصَّغيرة، لا معنى إطلاقاً لأنْ يكون لدينا اثنتان».

عبّر ريشير عن موافقته بإشارةٍ خفيفةٍ من رأسه.

- «إنّنا نستطيع بسهولةٍ أن نصل إلى حلٍّ وسطٍ إذا ما ناقشنا كلَّ نقطةٍ»، تابع الأميرال، وقد نشّطه ذلك الحديث: «خذوا على سبيل المثال بتولية المبعوثين. لا شيء في الإنجيل يقف ضدَّ زواج الكَهنة، وهو قرارٌ يجب أن نتفاهم حوله بتعقُّلٍ.

- «توقّف عن هذا الكُفر!». قاطعه دوبون.

تبيّن من لهجته وطريقته في الحركة داخل مقرّ الحاكم كما لو كان في بيته أنّه صار واثقاً من سُلطته، وأنّه عندما يدافع عن الهوغونوت، فإنّه يتكلّم باسم قوّةٍ لا يمكن كسرها، وكثيرة العدد.

- «أجل. توقّف!». أكّد من جديد: «لا تحدّثنا عن العقل، والنّقاش، والحلول الوسطيّة. الرّبُّ ليس شيئاً يمكن التّفاوض حوله. لا يوجد حلٌّ وسطٌ في عبادة الأوثان. نصف هذه الجزيرة قد اعتنقت الإيمان الحقّ، ولقد قامت بذلك بحُريّةٍ؛ أي: من خلال الاعتراف بصحّة مبادئ كنيستنا، وقبول إطاعتها. لنْ نعكّر هدوء هذه الأرواح التي أُنقذتْ بإعادة تفحُّص ما صار يسلَّم اليوم بأنّه الحقيقة».

- «اسمح لي». صرخ الأميرال: «لا يبدو لي أنّ هناك ما يندرج ضمن عبادة الأوثان بأيّ شكلٍ من الأشكال، وفي الوقت نفسه، هناك في بعض ممارساتكم ما أرفضه».

- «أيٌّ منها؟». سأل ريشير بلؤمٍ شديدٍ.

- «هاك». بدأ فيلوغانيون الحديث وهو سعيدٌ في قرارة نفسه لأنّه

بدأ بالمقارعة: «لنأخذ فكرة المناولة بمظهريها، إذا ما عُدنا إلى نصوص آباء الكنيسة، فالمناولة شرعيّةٌ تماماً، لكنّ سان كليمان، تلميذ الحواريّين يوضح لنا شيئاً: النّبيذ يجب أن يمزج بالماء في حين أنّ نبيذكم صافٍ. إنّها ممارسةٌ يجب أن تقبلوا تصحيحها، على الأقلّ لكي تبيّنوا أنّ أساسها صحيحٌ لاهوتيّاً».

كان فيلوغانيون قد أنهى هذا العرض بابتسامة الرّجُل البليغ، لكن البروتستانت بدا عليهم أنَّ دمهم قد جمد في عروقهم من الغضب والاستنكار. فجأةً صرخ دوبون:

- من أنت لكي تشكّك في قواعد الحقيقة في كنيستنا؟

- «ومن أنتم لتفرضوها عليَّ؟». أجاب الأميرال: «لماذا يجب أن أعتقد بهذا عوضاً عن ذاك إنْ كان العقل هو ما يقودني لكي أؤسّس خياري؟ ما فائدة دراسة المؤلّفين العظماء الذين قدّموا على مدى العصور عصارة عقولهم لمساعدة لإنسان؟».

- «لا شيء». قال ريشير بوجهٍ أغبر.

جمد فيلوغانيون في مكانه في حين أكّد القسّيس بكلّ هدوءٍ:

- المؤلّفون الذين تتكلّم عليهم لا يعرفون المسيح. فكرهم يغوص في الظُّلمات، ولا يمكن أن يفيدنا بأيّ شكلٍ من الأشكال. كلُّ ما علينا فعله هو أن نؤمن، نقطة على السَّطر.

- «هذا ما يقوله الخوارنة والبابا أيضاً». قال الأميرال بغضب.

- «أجل». أكّد ريشير باحتقارٍ: «لكنّ الفرق هو أنّهم مخطئون».

نظر فيلوغانيون بألمٍ إلى كومة الأوراق التي كان قد حضّرها. كان قد استبق كلّ الحُجج، ووجد جواباً ذكيّاً لكلّ واحدٍ من الاعتراضات التي يمكن أن تأتي من حيث لا يحتسب، كما أنّه بنى خلاصةً يمكن للجميع

قبولها، وها هم ينكرون عليه استعمال هذه الحُريّة الجميلة. بدا أنّ الإصلاح الذي ينتظره كخلاصٍ قد رمى عليه شبكةً من العنف راح يتخبّط فيها بلا جدوى. وقف بدوره، وبدأ يدور في الغرفة، وفي أثناء مروره أمام منضدة الأبنوس، نسي نفسه إلى درجةٍ قام معها بحركته المألوفة: أحاطها بذراعيه، فهو في لحظات الضّياع الكبير كان يجد طاقته هنا. نظر إليه الحضور بحرجٍ. كان بطنه يلامس صينيّة العاج والخشب التي كانت تستجيب له بأبّهةٍ. ذلك كلّه كان يتمّ عشيّة عقد الزّيجات، والقساوسة وحدهم هم الذين يستطيعون القيام بمراسمها. شعر فيلوغانيون أنّه يجب عليه مرّةً أخرى أن يضحّي بمشاعره، وأن يبتلع استنكاره، وألّا ينظر إلّا إلى مصلحة المستعمرة. استدار نحو ضيوفه، وهو يبتسم لهم:

- «حسنٌ. ليكُن». استنتج وهو يقوم بجهدٍ كبير في داخله: «لننحّي جانباً خلافاتنا، ولنقُم بما يلزم من أجل إعادة العمل إلى هذه الجزيرة».

- «يمكن أن تعتمد علينا في النّضال ضدّ البطالة كما ضدّ الزّندقة». قال دوبون.

تلت ذلك متطلّباتٌ لا تنتهي تتعلّق بإعفائهم من العمل، وبإعطاء القساوسة الحقّ في الاجتماع داخل مقرّ الحكم، وتشكيل مجلس يصير مقرّاً لدوبون إلى جانب الأميرال.

رأى فيلوغانيون في هذه الإجراءات مساساً بسُلطته، لكنّه وجد فيها أيضاً دعماً يسمح له بأن يعتمد على طاعة البروتستانت، وفي النّهاية وافق على كلّ شيءٍ شريطة الالتزام بتقليص وتخفيف لهجة الوعْظ.

الفصل 5

كانا أكثر العرسان سذاجةً، وتوجّب أن يكونا أكثرهم أناقةً إذ ارتديا الثّياب التي اختارها فيلوغانيون على عَجلٍ، ثمَّ خاطها الخيّاطون. كان فيلوغانيون هو الذي ميّز بنفسه هذين المرشحَين اللّذين يعرف فضائلهما وميزاتهما، فمن بين خدمه، وقع اختياره على اثنين لم يكونا كثيري السّرقة، أحدهما من مقاطعة بيكارديا، والثّاني من بروفانس، كانا جلفين، وولدا من دون مخٍّ، لكنّهما يعملان جيّداً من دون أي تغيُّرٍ في المزاج؛ أمّا الفتاتان اللّتان انتُقيتا فقد عوّضتا عن الغضب الخفيف الذي سبّبه لهما هذا الخيار بالفخر لكونهما أوّل من نال سرّ الزّواج المقدّس.

في اليوم المحدّد، جرى الاحتفال على المصطبة المعتادة، ولكي يشعر كلّ واحدٍ بأهمّيّة هذا المثال، ويرغب بتقليده، أمر فيلوغانيون بتشييد خشبةٍ صغيرةٍ من ألواح أشجار جوز الهند تمّت المراسم عليها. ما كان يمكن القبول بتغيُّب أحدٍ عن هذه المناسبة، ولهذا استدعيَ العبيدُ الهنود، رجالاً ونساءً، حيث أجلسهم الأميرال في الصّفّ الأوّل؛ لكي لا يكون هناك أيّ عائقٍ يمكن أن يحجب المشهد الذي يجب أن يدهشهم. دخلت الفتاتان متكئتان على ذراع اثنين من البروتستانت اختيرا بين الأكبر سنّاً ليكونا

بمنزلة الآباء. لمْ يكن هناك تغييرٌ في لباسهما الأسْود، لكنْ ربّما من أجل التّعبير عن غيظهما من ذلك اللّباس أطلقتا العنان لغرائبيّةٍ جريئةٍ تجلّت في تسريحة شعرهما، فقد قامتا بلفٍّ ضفائرهما على جبهتيهما، وعلى تخوّفهما من سماع بعض التّحذيرات في اللّحظة الأخيرة، لمْ تتورّعا عن استعمال الأمشاط العاجيّة. وُضعت الفتاتان جنباً إلى جنبٍ مع العريسين، وقد تلوّن وجهاهما بمسحوقٍ طبيعيٍّ مناسبٍ تماماً. ونظراً لشحوب وجه الوغدين اللّذين كانت رذيلتهما الوحيدة هي الشّراب -في حال وجد- فقد صار لون وجنات الشّابّين والصَّبيّتين متشابهاً، ومستوحى من لون لحم الخنزير.

لكنّ ذلك الانسجام الذي بدا على الخشبة كان يخفي حركاتٍ قلقةً بين الحضور، وفي الكواليس، حيث كان هناك تبادل نظراتٍ متفاهمةٍ بين ثلاثة أشخاصٍ، يقبع كلٌّ منهم في مكانٍ. جلست أود بحياءٍ مقابل الخشبة بين المرشّحين المقبلين للمزاودة الذّكوريّة. خفضت عينيها على عكس البطّات من جاراتها اللّواتي كنَّ مسروراتٍ من النّظرات اللّولبيّة التي يلقيها عليهنّ المستعمرون الجائعون. لكنْ، من وقتٍ إلى وقتٍ، وبما أنّها ميّزت جوست في الصّفّ الثّاني جهة اليسار، راحت تصبّ عليه ما يشبه البرق الفريد الذي يمتزج فيه الألم، والتّواضع، والتّهالك. من جهته راح جوست ينوس بين الوضعيّة النّبيلة الطّبيعيّة لديه حين يتفحّص بنظرةٍ ساهمةٍ الأفكار التي أظهر له فيلوغانيون وجودها، وبين مراقبةٍ مواربةٍ، وقلقةٍ، وشرهةٍ لتلك التي صارت تشغل باله، وكان يتساءل عن ذلك الضّعف الغريب في طباعه الذي يجعله، بمجرّد أن ينال جواباً من العيون التي يبحث عنها، ينحّي نظره بفعل قوّةٍ لا يمكن كبحها، وينتقل إلى المشهد المملّ للعذراوات راعيات الغنم والخنازير الذين بعهدتهن.

من الجهة الأُخرى، كانت كولومب تستطيع أن تراقب في الوقت ذاته جوست والصّبيّة البروتستانتيّة، وقد رأت كلّ شيءٍ: القلق الذي يسكن جوست، اهتمامها بأن تستجيب له، والجهد الذي يقومان به كلاهما كي لا يبدو عليهما أيُّ شيءٍ ممّا كانا يخفيانه. في البداية تسلّت كولومب بهذه اللّعبة. كانت تلك المرّة الأولى التي ترى فيها جوست يخرج عن خجله الفروسيّ العفيف الذي كان ينادي به عبر ممارسته، لكنّ تصرُّف البروتستانتيّة لمْ يعجبها. طريقتها الخبيثة في التّصرُّف كما لو أنّها لمْ تطلب أيّ شيءٍ، وفي ادّعاء البراءة والانزعاج عندما تتقاطع نظراتهما، ذلك كلّه جعلها تشعر بأنّ في الأمر كذباً أكثر ممّا فيه من شغفٍ. شعرت بخطر هذه الازدواجيّة، وغضبت من الشّعور بأنّ جوست لم يكن لديه أدنى شكّ في ذلك.

من المكان الذي كان موجوداً فيه، كان جوست سبّاقاً في اكتشاف نظرة كولومب الصّافية وهي تحطُّ عليه، وكان لدهشته دورها في جعل أود ترنو إلى الجهة نفسها فترى كولومب، عندها تبدّلت اللّعبة، وتصرّف كلُّ واحدٍ بحيث يبدو عليه أكثر ما يمكن من الضّيق بسبب شعوره بالمراقبة.

خلال ذلك، كانت هناك دراما أُخرى أكثر أهمّيّةً تدور من دون ضجيجٍ بالقرب من الخشبة. كان فيلوغانيون حسب مرتبته قد جلس في الموقع الأوّل بين الحضور، ولأنّ الشّعائر البروتستانتيّة لا تعترف إلّا بالسّرّين المقدّسين المذكورين في الإنجيل: المعموديّة والقربان، سرعان ما أخذ الاحتفال طابع العشاء الربّانيّ الذي ينتهي بالمناولة. لمْ يكن الأميرال يريد بدافعٍ من الكبرياء أن يتنازل عن النّقطة الأولى من العقيدة التي كان قد ذكرها أمام القسّيس، فكان مُصرّاً على أن يشرب النّبيذ ممزوجاً بالماء، ولأنّ ريشير لمْ يكن لديه القدرة على الوصول إلى طلبه هذا، تجاوز

الصُّعوبة بمهارةٍ، فقد تناول فيلوغانيون في حين كان السّاقي يقف إلى جانبه، وفي اللّحظة التي أراد أن يمسك فيها بالكأس قام هذا الأخير بمزج الماء الذي يجعل الشّراب متناسباً مع الفكرة التي كانت لدى الأميرال عن الدّم الإلهيّ. كانت تلك النّقطة بالذّات تكثّف وحْدها الجدل كلّه الذي اندلع خلال السّاعات السّابقة، وبعد أن رأى القسّيس أنّ المشكلة حُلّت اعتقد أن الأمر قد انتهى، لكن في تلك اللّحظة حصل أمرٌ مفاجئٌ وإنْ كان متوقّعاً، فقد أخرج فيلوغانيون قطعةً من المخمل مطرّزةً من جيبه وفردها على الأرض، وركع. يبدو أنّ الحركة كانت قد نالت إعجاب الهنود الذين أطلقوا صيحات الإعجاب؛ أمّا القسّيس، فقد صار بلا لونٍ.

- «هيّا!». همس له قائلاً: «انهض».

كان يحمل القربان بيده، ولم يقدّمها للمتناول.

- «لا يمكن!». تمتم الأميرال: «عندما يظهر الرّب، عليّ أنْ أنحني أمامه».

- «أيّ مثالٍ تعطيه للهنود؟». قال القسّيس بصوتٍ منخفضٍ: «إنّها عبادة الأوثان بشكلها الصّرف».

- إنّني أعبد الرّبّ الموجود هنا بذاته.

- تعبد قطعة خبز؟

- «كيف؟». صرخ فيلوغانيون، وهو يرفع صوته بشكلٍ فجٍّ: «لكن...».

نظر ريشير حوله مثل غريقٍ، وقد تشنّجت يده على القرص الصّغير الأبيض. في هذ المشهد الذي يشبه فجر العالم، الذي تنتشر فيه الأدغال والصُّخور، ما كانت هناك أيّة نقطة ارتكازٍ بشريّةٍ يمكن أن توحي بالأمان للعين. كانا وحيدَين، وكان ذلك الشّعب الصّغير القابع في ذلك الموقع متعلّقاً تماماً بقراراتهم، وفشلهم، وأغلاطهم. بدأت تسري الهمسات على

نحوٍ خطيرٍ. فجأةً، بين هذه الوجوه كلّها، لمح ريشير وجه دوبون. رمش ذلك السّياسيُّ الكبير بعينه إشارةً إلى أنّ المصلحة تقضي بالانسحاب التّكتيكيّ.

وضع القسّيس القربان في فم فيلوغانيون النّهم بأسنانه السّيّئة، وانتقل نحو التّالي.

في الفوضى الصّغيرة التي تلت الاحتفال، اعترف الجميع بأنّه كان ناجحاً. كانت تلك الزّيجات الأولى تخلق الأمل بأزمنةٍ جديدةٍ تتوافق مع الأزمنة القديمة في أوروبّا، التي كان يشتعل الحنين إليها: من بيوتٍ، وأطفالٍ شرعيّين، وتعاونٍ منسجمٍ بين الرّجُل والمرأة... والسّلام.

في التّدافع، بحثت كولومب عن جوست من دون أن تكون لديها نيّةٌ محدّدةٌ، كانت ترغب فقط أن تكون بقربه، ذلك أنّها منذ عودتها، كانت ترى نفسها وحيدةً، وغريبةً، وتشعر برغبةٍ مكنونةٍ في أن تستعيد من جهتها الأمان السّابق. التقت به مصادفةً بينما كان يتكلّم إلى أود. وما عاد بمقدورها أن تهرب.

كان جوست يتمتم أشياء غير مفهومةٍ، وقد بدت هيئته أسيرة خجلٍ جامحٍ يجعله أخرق؛ أمّا البروتستانتيّة الصّبيّة، فعوضاً عن أن تشعر بالشّفقة على تلك الضّحية في هذه المعركة غير المتساوية، كانت تمسك بسلاحٍ هو وجهها، وعيناها، وعطرها المسدّد على رقبة ذلك الذي كان يطلب الرّحمة منها بالنّظر. مجيء كولومب زاد من ارتباك أخيها. تلعثم قائلاً:

– أقدّم إليكِ.. شقيقي كولان. كولان، الآنسة أود موبان، ابنة شقيق القسّيس ريشير.

– «شقيقك؟». تردّدت، وهي تركّز شكّها على تلك الكلمة: «لي الشّرف».

سدّدت أود إلى كولومب سهام نظراتها، واخترقت بضربةٍ واحدةٍ الغلاف الضّئيل لثيابها الوسخة، وتفحّصت صدرها كما لو كانت تريد أن تعرّيها، وتنقر قلبها حتّى تصل إلى استخراج قطرات الدَّم منه.

- «إنّه يقوم بالتّرجمة مع السُّكّان الأصليّين». سارع جوست إلى القول، وكان يمكن أن نفهم من ذلك أنّه كان يريد الاعتذار عن هيئة كولومب التي لا تتناسب مع يوم العيد هذا.

انزعجت كولومب من هذا الجُبن، لكنْ كان يمكن ألّا تجيبه لولا أنّ أود أخذت المبادرة في المبارزة، معلنةً الهجوم بدورها:

- «مع الهنود». ردّدت مرّةً ثانيةً بتعاطفٍ مصطنعٍ: «يا للمسكينّ!».

- «ولماذا يجب أن أشتكي من ذلك.. يا آنسة». صرخت كولومب، وقد سدّدت عينيها على عيني البروتستانتيّة.

- لأنّهم -بالتّأكيد- متوحّشون!

- كانت لهجتها الممتلئة بالسُّخرية تقول: «ومن يعاشر القوم يصبح مثلهم».

- «بالنّسبة إليّ». قالت كولِومب، وقد انزعجت لكونها لمْ تجد كلمةً أفضل: «هُم كائناتٌ بشريّةٌ».

- «معك حق في أن تأمل أن يصيروا كذلك». تنهّدت أود، وهي تقول ذلك: «لحُسن الحظّ أنّنا نحمل لهم الإيمان».

- وهُم يحملون لنا السَّمك والطّحين.

حلَّ صمتٌ موجزٌ للغاية رافقه تبادلٌ مميتٌ للنّظرات. لمْ يجد جوست ما يقوله كي يضع حدّاً للمجابهة. عادت أود إلى الحديث راغبةً في أن تدعم تفوّقها:

- يا للمقارنة الجميلة! أنت تشبّه الإيمان ببضاعةٍ. هذا ما يفعله البابويّون الذين يتاجرون بالحركات وبالصّلوات، لكنْ مع الأسف، الإيمان ليس مسألة حركات، إنّما رحمةٌ.

- «أولئك الذين تسمّيهم متوحّشين ليسوا محرومين منها إلى هذه الدّرجة كما تعتقدين». قالت كولومب.

كانت الذّكرى التي هاجت بخاطرها فجأةً عن باراغوتشو، والشّلّالات، وبيت باي لو، قد جعلتها تشعر للمرّة الأولى أنّها قد تجد هناك ما يريحها أكثر ممّا يمكن أن تجده لدى جوست.

لكنّ أود لم تكن تريد أن تترك أيّ شيءٍ بلا توضيح.

- «مستحيل». أجابت: «من لا يعرف المسيح لا يمكن أن ينال الرَّحمة. عمّي يقول ذلك بوضوحٍ: هؤلاء السُّكان الذين يعيشون في الطّبيعة لا ربَّ لهم».

- «لا ربَّ لهم!». صرخت كولومب: «لكنْ يبدو لي أنّ لديهم ربّاً أكثر منّا بكثير».

- «بوف!». قالت أود، وهي تعبّر عن قرفها: «أوثان. لا يا سيّدي، الرّبُّ الذي ينقذ ليس شيئاً من هذا. الرّحمة الحقيقيّة لا يمكن تقليدها».

غرزت كولومب نحاس عينيها السّقيمتين في وجه خصمها المتهرّئ المكشوف.

- «ليس كما الفضيلة». قالت.

تفاجأت هي نفسها بهذا الهجوم، وعندما رأت لون البروتستانتيّة يشحب، استعادت كولومب فجأةً الوعي بأنّ جوست كان إلى جانبها. كانت تشعر بما يكفي من الغيظ منه بسبب جُبنه، ولمْ تكن ترغب في أن تعطيه الفرصة ليزيد منه باتّخاذه موقفاً ضدّها أو، وهو الأنكى، أن يلعب

تماماً دور الحَكم المحتار، وهكذا استدارت بعنفٍ على عقبيها، واختفت في الجموع.

*

سلكت كولومب مصادفةً درباً يجاري البحر على امتداد الحصن. منذ وصولهم إلى الجزيرة كان ذلك بالنّسبة إليها دائماً مكان الوحدة والتّأمُّل، لكنَّ الحصن صار الآن يهيمن على المكان، ومن الأعلى صار يُسمع وقع خطوات الكتيبة المكلّفة بالحراسة. في بعض المواضع حُفرت في السّور فتحاتٌ ضيّقةٌ يسيل الماء منها، وتتّسع بالكاد لحجم رجُلٍ مقرفصٍ. من واحدةٍ من تلك الفتحات رأت بفزعٍ كانتان يقفز فجأةً.

- «وجدتك!». صرخ قائلاً: «متى سنرحل؟».

كانت قد نسيته نوعاً ما.

- «هذا الصّباح». تأوّه قائلاً: «بالكاد استطعت الإفلات من إجباري على العمل في الورشة، وقبل قليلٍ، قام أحد هؤلاء القتلة بإمساكي من كُمّي حين كنت ذاهباً للبحث عن الماء، وسألني بعدوانيّةٍ إن كنت أؤمن بالمطهِّر».

- ماذا أجبته؟

- كدت أقول له إنَّ الجحيم حيث يوجدون هُم، والجنّة في كلّ مكانٍ آخر، لكنْ لا يمكن المزاح في أشياء كهذه. متى سنرحل يا كولومب؟

- «بمجرّد أن تُتاح لنا الفرصة». أجابت، وكانت بالفعل تفكّر في ذلك.

لقد راقبت الميناء جيّداً البارحة مساءً. الجنديُّ الذي يناوب في الرُّبع الثّالث رجُلٌ جلفٌ من ميكلمبورجوا، وأنا أعرفه جيّداً. لا يمكنه الامتناع عن النوم. يكفي أن نصعد أحد الزّوارق.

- «لكنّ القوارب مربوطةٌ بالسّلاسل». اعترضت كولومب: «وأنت تعرف أنّ لديهم أوامر بإطلاق النّار بمجرّد أن يروا شخصاً يهرب».

كان كانتان يعرف هذه العوائق، ولا يملك شيئاً لحلّها. سكتا، ثمَّ قالت كولومب:

- اترك لي هذا اليوم، وسأرى ما يمكن فعله.

كانت تفكّر في الذّهاب إلى الأميرال والحديث إليه، لكنْ في تلك اللّحظة كانت تريد أكثر من أيّ شيءٍ آخر أن تبقى وحدها. قالت لكانتان أن يختبئ، وتابعت سيرها على طول الرَّصيف.

عندما وصلت إلى طرف الجزيرة، التقت بمجموعةٍ من الهنود الأسْرى كانوا يغسلون ثيابهم في البحر. كان الماء العذب نادراً جدّاً على الجزيرة، بحيث ما كان يمكن السَّماح لهم باستعماله لهذه الغاية. كانوا كلّهم، رجالاً ونساءً، قد تعرّوا ليغمروا ثيابهم بالماء. أولئك الذين انتهوا كانوا ينتظرون أنْ تجفَّ ثيابهم في الشّمس بعد أن فردوها على الصَّخرة. الاحتفال الذي سمح به الأميرال بالقرب من المرفأ على شرف العرسان خفّف من المراقبة، ولذلك ظلَّ العبيد وحْدهم، وهو ما لم يكن يحصل إلّا نادراً. اقتربت منهم كولومب، وبما أنّهم همّوا بالابتعاد خائفين، طمأنتهم بكلماتٍ من لغتهم.

جلست بالقُرب من مجموعة نساءٍ، وبقيت صامتةً. للحظةٍ خُيّل إليها أنّها عادت إلى زمن النّزهات مع باراغواتشو، وشعرت بالرّغبة في أن تتعرّى مثل البقيّة، لكنّها تذكّرت أنّها على الجزيرة، بالإضافة إلى ذلك كان أولئك الأسرى مختلفين عن أصدقائها القدامى. كان الغراب قد اشتراهم من أعدائهم، فعملوا في ورشات الحِصن منذ البداية. ملامحهم الخنوعة، والمثيرة للشّفقة كانت تبيّن إلى أيّة درجةٍ يعيشون خائفين. كانت تبدو عليهم ملامح حزنٍ لا يمكن لشيءٍ أن يخفّف منه. ليس لأنّ معاملتهم

سيّئة؛ إذْ إنّ فيلوغانيون لمْ يظهر أيّة قسوةٍ تُجاههم، لكنْ بانتزاعهم هكذا من قبائلهم، ووضعهم على تلك الجزيرة التي اختفت فيها ملامح الحياة الطّبيعيّة كلّها، حرمهم الأسر من الغابة، ومن الصّيد، ومن التزيّن بالرّيش، باختصار، من كلّ ما يشكّل الإطار الرّوحانيّ لحياتهم. كانوا بشكلٍ، أو بآخر، قد ماتوا، فقبلوا هذا الفائض من الحياة مثل لعنةٍ. لكي تبدّد كولومب هذا الضّيق الذي أثاره وجودها، سألتهم رأيهم عن احتفال الصّباح. بدا أنّه ليس هناك من يرغب في إجابتها. في آخر الأمر، قالت امرأةٌ أكبر سنّاً من الآخرين، وجهها ممتلئٌ بالتّجاعيد، متحدّثةً بلغة أهل توبي:

– لماذا لا تصدرون ضجيجاً أكبر عندما ترقصون؟

جعلتها كولومب تعيد طرح سؤالها، وسألتها عدّة أسئلةٍ أُخرى لتفهم المعنى الذي تقصده. توضّح لها في النّهاية بأنّ الهنود الذين لم يتعلّموا من اللّغة الفرنسيّة سوى الأوامر الموجزة التي كانت تلقى عليهم، قد بقوا جاهلين بالهدف الحقيقيّ من هذا الاحتفال. الزّينة والمنصّة، وحركات النّاس، كلّ شيءٍ فُسِّرَ من قِبَلهم على أنّه عيدٌ، وما أدهشهم هو الإيقاع البطيء جدّاً الذي كان هؤلاء البيض يرقصون عليه.

– «لمْ تكن رقصةً، إنّما عرساً». فسّرت لهم كولومب.

لكن تلك الكلمة بلغة التّوبي كان توحي للهنود بشيءٍ آخر تماماً. قام اثنان، أو ثلاثةٌ منهم بتحريك رؤوسهم بهيئة من لا يصدّق، ومع شيءٍ من الاستنكار.

– «ولماذا تُلبسون نساءكم بهذه الطّريقة طالما أنّ الهدف هو جعلهنّ يُنجبن الأولاد؟». سألت العجوز.

لا شكّ في أنّ لباس العرسان كان أكثر ما أدهش الهنود. فهمت كولومب أنّه فيما عداها، لأنّها ترتدي ثياب الصّبيان، لمْ تكن النّساء قد

شاهدن أوروبيّاتٍ في ثيابهنّ. عندما لمحنهنّ من بعيدٍ عند وصولهنّ، كانت تلك المرّة الأولى التي بَدت لهنَّ فيها البروتستانتيّات، وعن قربٍ.

- هنَّ يلبسن ملابسهن الآن، وسوف تخلعن الثّياب بعد ذلك.

هذا الشرح المرتبك، وغير المفيد، جعلها تحمرّ، ثمَّ ضحكت بصوتٍ عالٍ، وقام الهنود بتقليدها بخجلٍ في البداية، ثمَّ بمتعةٍ حقيقيّةٍ.

عندما عاد الصّمت، ظلّوا جميعهم للحظةٍ يشاهدون الماء الذي بدأ يميل لونه إلى الحُمرة وهو يلعق أحشاء الأرصفة.

- «هذا بالذّات ما يريدونه منّا!». قالت امرأةٌ، وهي تشهق، وهزّت سائر النّساء رؤوسهنّ بجدّيّةٍ.

سألتها كولومب ما الذي تعنيه. بعد أن تردّدت كثيراً، انتهت بأنْ تشرح أنّه منذ بضعة أيّامٍ، عاد رجال الجزيرة لإزعاجهنّ من جديدٍ. في زمن الغراب كنَّ مضطّراتٍ للخضوع لرغبات هؤلاء، ثمَّ تلت ذلك فترةٌ طويلةٌ عاد فيها الهدوء. كانت تجهل أنّ ذلك بسبب أوامر من الأميرال. الآن وقد صار الزّواج ممكناً، بلْ وموضع تشجيع، عاد الرّجال لأخذهنّ جانباً، وإجبارهنّ.

شعرت كولومب بخجلٍ كبيرٍ من سماع قصّة ذلك التّوحُّش، وذهبت أفكارها إلى جوست الذي صار من دون أن يدرك شريكاً في ذلك.

- ما يريدونه هو جعلنا جميعاً نرتدي هذه الفساتين السّوداء مثل البقيّة.

شعرت كولومب بالرّغبة في الضّحك من هذا الاختزال، لكنّ الحقيقة التي كان يخفيها كانت جارحةً جدّاً، وخطيرةً إلى درجةٍ جعلتها تمتنع عن الضّحك، فالهنديّات المعزولات عن البشريّة الحيّة ما زلن يتصوّرن وجود درجاتٍ أعلى من المذلّة. كنَّ كأسيراتٍ قد حافظنَ على حرّيّة التّصرُّف

بأنفسهنّ، وعلى عبوديّتهنّ للجميع، كنَّ قادراتٍ على الخشية من ألّا يَصِرْنَ إماءً سوى لشخصٍ واحدٍ يقوم بممارسة إرادته عليهنّ.

- «ألم تفكّروا بالهروب قطّ؟». سألتهنّ كولومب بصوتٍ خفيضٍ.

سَرت رعشةٌ بين الهنود الذين نظروا إلى بعضهم بعضاً بخوفٍ. من بعيدٍ، من جهة المرفأ كانت تُسمع أصوات المحتفلين العالية. نظرة واحدةٌ كانت كافيةً لرؤية أنّه ما من حرسٍ يراقبهم. اقترب رجُلٌ ضخمٌ بطنه ممتلئٌ بالنّدبات من كولومب، بعد أن ابتعد عن جماعته وتحدّث إليها بصوتٍ خفيضٍ مبتدئاً كلامه هكذا:

- أنت تعرف لغتنا، ونظرتك تدلّ على أنَّ روحك ليست سيّئةً.

سَرت في ظهر كولومب رعشة فرحٍ شبيهةٌ بالتي تجعلها الحرّيّة تسري في الأجساد عندما يُتّخذ قرارٌ مفاجئٌ بمنحها.

- «أترى الجذع هناك؟». قال الرّجُل، وهو يدلُّ بذقنه على شجرة نخيلٍ طويلةٍ مهجورةٍ في عرض الأرصفة الأخيرة- لقد حفرناه بصمتٍ ليلةً بعد ليلةٍ، وقد صار الزّورق جاهزاً.

- «كم من رجُلٍ يمكن أن يتّسع له هذا الزّورق؟».همست كولومب.

- عشرة، لكنّنا نريد أن ننقذ النّساء.

- «جيّد». هتفت كولومب: «متى سترحل النّساء؟».

بدا على العبد فجأةً ضيقٌ غير منتظرٍ. نظر إلى أقدامه، وقال مقطّباً:

- ليس بعد.

- «لماذا؟». استنكرت كولومب: «كلُّ شيءٍ جاهزٌ. لا يجب الانتظار».

- «على اليابسة ستتعرّضن إلى الموت أكثر من هنا». قال الأسير معترفاً.

– ماذا تريد أن تقول؟ أنتم تعرفون الغابة. تستطيعون أن تختبئوا هناك، وتهربوا.

– لكنْ، أين نذهب؟ نحن سجناء منذ عدّة أقمارٍ. كيف نجد أهلنا؟ كلّ من على السّاحل أعداءٌ لنا. لا توجد لدينا أسلحةٌ.

فكّرت كولومب بالـ(لامعمدانيّين) الذين ما كانت لديهم مثل هذه المخاوف، واستطاعوا على ما يبدو البقاء على قيد الحياة من دون أن يكونوا عارفين بالأدغال، لكنّ ذلك كان يعني عدم معرفة طريقة تفكير الهنود، فمن دون دعم الأرواح والنُّذُر، ومن دون خشاخيش، أو لغاتٍ كاريبيّةٍ لتفسير نبوءاتهم كان الهنود ينظرون إلى الغابة كمكانٍ للّعنة، وللقوى المعادية التي لا يملكون لها دفعاً.

نهضت كولومب، ومشت قليلاً نحو الحصن، نظرت من بعيدٍ إلى الشّجرة المجوّفة، والسّاحل الأزرق القريب جدّاً من الجهة الثّانية للسان البحر. تذكّرت كلام الفتاة البروتستانتيّة، الكراهية التي لا تستطيع أن تشعر بها تُجاه أخيها مضافةً إلى هذه السّفالة انفجرت ضدّ أود. فجأةً، عادت نحو التّوبي، وهي تبتسم.

كان ضوءُ ما بعد الظّهيرة يضيء وجهها كلّه، وقد وضع الانبهار الخفيف لؤلؤةً من الدُّموع على أهدابها. شعرت بنفسها أكثر من أيّ وقتٍ مضى عين–شمس، استدعت السُّلطة الغامضة كلّها لنظرتها، وقالت لهم:

– هل تساعدونني إذا ما ساعدتكم؟

ما كانوا مضطرّين للإجابة؛ لأنّه كان من الواضح أنّهم أحبّوها.

الفصل 6



الإرادة المشتركة في وضع حدٍّ للفوضى اللّاهوتيّة التي شلّت الجزيرة تُرجمت إلى إجراءٍ بسيطٍ: صارت الوعظات لا تتجاوز نصف ساعةٍ، وتقدَّم مرّةً واحدةً في اليوم، وفي مكانٍ يتّفق عليه. لمْ تكن تحتوي على هجماتٍ على البابا، ولا على كفرٍ بالعذراء مريم. هذا الاعتدال أسْهَمَ في إعادة الهدوء نوعاً ما، لكن في الوقت نفسه، لمْ تعد الدّيانة الجديدة تتقدّم، كما أنّ الدّيانة الثّانية المخلصة للمعتقدات الكاثوليكيّة حاولت بلا جدوى القول إنّها انتصرت. صار هناك معسكران محدّدان، كلّ واحدٍ منهما حذرٌ تُجاه الآخر، وتوشك العدوانيّة بينهما أن تنفجر في أيّة لحظةٍ.

كان من المُلحّ دائماً اقتراح حلٍّ يمكن أن يحافظ على الوحدة، حلٍّ قلقٍ في القمّة محلّ الاضطرّاب الذي سرى في القاعدة، الذي هدأ منه انتهاء الخطابات الوعظيّة. ذلك أنّ كلّ واحدٍ كانت لديه عن الاتّحاد فكرةٌ خاصّةٌ تفترض استسلام الآخرين. بالنّسبة إلى دون غونزاع الذي كانت إدارة الحزب الكاثوليكيّ قد أنعشته، يمكن مسامحة القادمين الجُدد بمجرّد أن يتلوا صلاة «أومن»، وبالنّسبة إلى البروتستانت، وحده التّخلّي الكامل عن عبادة الأصنام كان مقبولاً، ولقد لجأوا من أجل تقوية معسكرهم إلى تعليم المتحوّلين الجُدد عن دينهم مبادئ كالفِنْ، كما أنّهم نظّموا داخل

مستعمراتهم شرطةً قادرةً على إخراج الهرطقة من حيث تجد لنفسها ملجأً. كان دوبون السّيّد الدّنيويّ لهذا الفصيل، وفيما يتعلّق بالبروتستانتيّين الذين يشكّلون نصف الشّعب في الجزيرة، ما كان يمكن القيام بأيّ شيءٍ من دون أن يتّخذ هو قراراً بشأنه.

الوحيد الذي لمْ يتخلَّ عن فكرة حلٍّ وسطيٍّ معقولٍ هو فيلوغانيون. أراد أن يدرس أحدث اقتراحات مصلح جنيف، وأن يرى إن كان ما يزال بالإمكان تقريبها من ديانة روما، ولذلك طلب من ريشير الكتاب الأخير لكالفن المعنون بـ(المراسيم الكنسيّة). لمْ يتمّ ذلك من دون مشكلةٍ؛ لأنّ القسّيس لمْ يكن يَملك سوى نسخةٍ واحدةٍ، وخشي أن يستغلّ فيلوغانيون تلك الفرصة لإتلافها.

ما اكتشفه الأميرال في هذا النّص رَعَبةُ. كلّ الحُرّيّة، والجرأة، وحِمم الذّهن المتفجّرة التي كانت تسيل عبر الكتابات البروتستانتيّة الأولى تجمّدت في (المراسيم)، فقد بثَّ كالفِنْ الموت في أفكاره هو بحُجّة تنظيمها، وتحوّل الإصلاح في كتاباته إلى أنظمةٍ، وعقوباتٍ، وشرطةٍ. لام فيلوغانيون نفسه؛ لأنّه بدافع الجهل بذلك التّطوّر لجأ إلى مثل هذا الرّجُل، لكنّ الغلطة اقترُفتْ، ويجب الآن الخروج منها. في الّليل، وفي النّهار، من دون أن يأكل، ومن دون أن يخرج، أو يأخذ قسطاً من الرّاحة، قام فيلوغانيون بفرم هذه الأفكار كلّها، وخلطها ببهاراتٍ مستقاةٍ من القدماء، ووضع في المزيج حشوةً من قطع الإنجيل، ثمَّ عجن، وقلّب، وحمّر، وملّح بطريقته الفجّة كرجُل حربٍ. هذا المطبخ الّلاهوتيّ ساعده على أن يستوعب الصُّعوبات الأساسيّة، وأن يقلّص المشكلة المركزيّة التي كان يجب حلّها، وكما لو أنّه صار لديه حدسٌ مسبقٌ، رأى أنّ كلّ شيءٍ يمكن حلّه في النّهاية. لمْ يكن في الإنجيل ما يتطرّق إلى بتولية

الخوارنة، ولمْ تُرفَض مجّانيّة الخلاص من قِبَل الجناح الكاثوليكيّ الذي يرأسه دون غونزاغ. كان هذا الأخير يخشى السِّلك الكهنوتيّ إلى درجةٍ ما كان معها يقبل إعطاءه سلطة منْح الخلاص. كانت هناك حُرّيّةٌ دائمةٌ في إقامة الصّلوات مقابل المال، والصّلاة يمكن أن تساعد على إنقاذ الأرواح، لكنّها لا تسبّب ذلك؛ أمّا مريم العذراء، فكانت تشكّل العقبة الأكثر جدّيّةً، لكنّ روحيّة دون غونزاغ الشِّعريّة وجدت الحلّ لتلك المعضلة: يمكن ترك الكاثوليك يمجّدون مريم من دون أن يعني ذلك الاعتراف بطبيعتها الإلهيّة، وفي النّهاية لمْ تكن المرأة الأولى التي نسبت إليها قدراتٌ أكثر ممّا لديها بالفعل. يستطيع البروتستانت قبول مشاعر الحنان تُجاهها، لكنْ من دون أن يخلطوا هذه المحبّة بعبادتها؛ أمّا فيما يتعلّق بالشّعائر الدّينيّة، فكانت المناولة بشقّيها تتوافق مع روحيّة الأزمنة الأولى؛ وأمّا عن النّبيذ الصِّرف، أو المخلوط بالماء، فلكلّ واحدٍ أن يقرّر ما يريد بصَدده.

في النّهاية، عقدة الجدل التي لا بدَّ من حسمها، ومركز النّقاش القادر حسْب نتيجته أن يفرّق نهائيّاً بين الفريقين، أو يجعلهما معاً هي تماماً النّقطة التي كان الأميرال قد تلمّسها في أثناء العشاء الرّبّاني: هل كان المسيح حاضراً بنفسه في القربان؟ لأنّ الواقع أنّ كلّ شيءٍ كان ينبع من هذه النُّقطة، فلو لمْ يكن المسيح حاضراً في القربان، فهذا يعني أنّ الإنسان تُخُلّي عنه، وهو يستطيع أن يتلقّى النّعمة الإلهيّة ربّما، لكنّ كلّ تواصلٍ مع هذا الرّبّ المنقذ يكون ممنوعاً عليه، ولا يعود من الممكن للإنسان أن يتوجّه إليه، ولا أن يتغذّى من حياته. الرّبُّ أرسل ابنه، ثمَّ استعاده، ولمْ يعد لدى الانسان سوى الكلام الذي تركه المنقذ. في هذه الجزيرة الواقعة في آخر العالم، كان فيلوغانيون يعرف ما تعنيه العُزلة، وإن كان لمْ يتألّم منها على الإطلاق، فذلك لأنّه عبر قناة القربان الضّيّقة، كان يظنّ أنّه يستطيع أن

يكون في كلّ زمانٍ، وفي كلّ مكانٍ في حضرة ربّه الذي يهدّئ من روعه، ربّه الذي تنبع منه الحياة والأبديّة.

إن كان المسيح في القربان، فذلك يعني أنّ المؤمن ليس بأيّ شكلٍ من الأشكال وحْده، وهو لا يضيع أبداً، ولا يجوع أبداً، وفي يوم الحساب، لا تتعلّق القيامة فقط بروح الأموات، إنّما أيضاً بأجسادهم التي تصير حيّةً من خلال التّشبُّع الفعليّ بجسد المسيح، لكن ما كان هناك أيّ شيءٍ واضحٍ حول هذه النّقطة. الكاثوليك يتحدّثون عن الاستحالة الجوهريّة(I) حيث يستحيل الخبز والنّبيذ إلى جسد ودم المسيح الحقيقيّين؛ أمّا لوثر فيستعمل كلمة التّحوُّل(II)؛ إذْ لا تنتفي طبيعة الخبز والنّبيذ الدّنيويّة حين يصيران لحم ودم المسيح. لكن ما الذي كان يقوله كالفن؟ كان يبدو عليه أنّه يرفض الأفكار الكاثوليكيّة كما اللّوثريّة حول هذه النّقطة، وينكر الحضور الماديّ للمسيح. مع ذلك، كان ينتقد بشدّةٍ أولئك الذين مثل سوكان، أو زوينغلي(III)، يجعلون من سرّ المناولة حركةً رمزيّةً خاليةً من الرّبّ، ومجرّد احتفالٍ حزينٍ بالذّكرى الأبديّة للمخلّص الذي غاب.

هذا هو مركز الجَدل. كان يجب حثُّ الكالفنيّين على شرح موقفهم،

(I) الاستحالة الجوهرية باللغة الفرنسية **transsubstantiation**، وبموجبها تتحول مادتا الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح الحقيقي، ولا يبقى منهما سوى شكلهما الخارجي فقط. (م).

(II) لم يرفض لوثر عقيدة «الاستحالة الجوهرية» «**Transubstantiation**» كلها لكنه قدم تفسيراً معدلاً لها أطلق عليه تعبير «**Consubstantiation**» أو التحول، ومفاده: أن الخبز والخمر يبقيان كما هما خبزاً وخمراً حقيقيان، ولكنهما يحتويان على جسد المسيح ودمه. (م).

(III) أولريخ زفينغلي رفض فكرة لوثر وقال بأن الخبز والخمر هما مجر رمز لجسد المسيح ودمه لأنه جالس بجسده في الأعالي ولا يمكن أن يكون حاضرا جسدياً في الافاخارستيا أو القربان المقدس. (م).

وعندما حشرهم الأميرال في حصنهم الحصين، كان يأمل أن يراهم يقعون أخيراً في هذا الجانب، أو ذاك؛ فإمّا أن يقبلوا في النّهاية -ولو رغماً عنهم- الوجود الحقيقيّ، وكان فيلوغانيون يعوّل على تذليل سائر الصُّعوبات مع الكاثوليك، وإمّا أنْ يرفضوه، عندها لا يعود هناك من يعبد هذا الرّبّ الذي لا يمكن الاقتراب منه، والذي يترك الإنسان نهباً للعزلة وللموت. القساوسة كانوا محتالين إذاً، والأسرار المقدّسة مجرّد ادّعاءٍ، ولن تقوم للهوغونوت بعدها قائمةٌ.

فهم فيلوغانيون أنَّ الخلوات العقيمة بين الجَهلة -التي انتهت لحُسن الحظّ- يجب أن يُستبدلَ بها نزالٌ على مستوى القمّة، وأنّ التّركيز عليها يجب أن يتمّ بأفضل ما يمكن. رفض دعاة الإصلاح الدّعوات الأولى للنّقاش؛ لكنّهم لن يستطيعوا أن يتهرّبوا الآن من هذه الدّعوة التي ستقتصر على عددٍ محدودٍ، وتكون حاسمةً، وإلزاميةً على وجه الخصوص، وهكذا قام بطلب المعلّم آمبيري لكي يصيغ له أمر استدعاءٍ حسْب الأصول.

تلقّى دوبون في اليوم التّالي إخطاراً بالنّدوة التي دُعي إليها ريشير، وشارتييه، وبعض البروتستانتيّين (لم يتجاوز عددهم عشرة) ممّن يمكن أن تُعدّ مساعدتهم مفيدةً، وجُهِّزَ لسلامة المشاركين وأمنهم بدقّةٍ كبيرةٍ، مع عدم قبول أيّ نوعٍ من الأسلحة داخل الحَرم، حيث ستتمّ المناظرة، فالرّؤوس اشتعلت بما يكفي، وخصوصاً من جهة دون غونزاع، ما جعل تلك النّقطة لا تبدو أمراً ثانوياً. أجاب دوبون مباشرةً بأنه سيحضر.

*

على الجدار الفاصل بين جانبيّ الحصن، الذي كان قد انتهى تقريباً، لمْ يتبقَّ سوى وضع بعض الحجارة الكبيرة المستطيلة التي قُصّت بحيث تُستعمل كفتحاتٍ في أعلى السّور. كان جوست يراقب هذه العمليّة

الصّعبة. فنُّ التّحصين العسكريّ صار مألوفاً له، وهذه المعرفة بأمور البحر لمْ تكن متاحةً في أوروبّا سوى لفرسان مالطة. ما كان يُشيّدُ أيّ حصنٍ من دون نصائحهم، وكانوا يمتنعون عن البوح بأسرار ذلك الفنّ ضمن أيّ كتابٍ يمكن أن يسرقه أحدٌ؛ ولذلك فإنّ أسرار هذه المهنة ما كانت تنتقل إلّا من معلّمٍ إلى تلميذٍ، ولم يكن لدى فيلوغانيون تلميذٌ أكثر انتباهاً من جوست.

كان الفارس الشّاب، على الرغم من المصائب كلّها التي مرّت بها المستعمرة يشعر بفخرٍ عميقٍ عندما يتأمّل ذلك الحِصن، فكلّ التفافةٍ في السّور تحدّثه عن شيءٍ، وكان يفهم أهمّيّتها، ويعجب بذكاء ترتيبها. هذه الطّريقة السّاحرة التي لدى الفكر العسكريّ بأن يحوّل الحركة إلى هندسةٍ، وأن يحسب حساب الهجوم، ومحاوره، وسرعته، وأن يضع في وجهه المقاومة الثّابتة لسورٍ جيّد الصُّنع، لمْ يكن قد وصل إلى حدّ أن يتمنّى مجيء البرتغاليّين لكي يتحقّق من صحّة حساباته، لكنْ فيما لو حصل ذلك، فإنّه كان على ثقةٍ من أنّ القلعة قادرةٌ على الصُّمود.

كان يسلك في ذلك الصّباح الدَّرب الذي يحفّ بالأسوار، هناك حيث يجب أن يُبنى قريباً متراسٌ من الحجر. تناهت إلى سمعه ضجّةٌ يحبّها، هي أزيز بكرةٍ ترافق الارتفاع البطيء لكتلةٍ معلّقةٍ بسهم رافعةٍ من الخشب، هذا العمل الدّقيق الذي يخلق توافقاً محسوباً بين الكتل الجامدة المقصوصة كان يلهيه عن التّشابكات البشريّة الصّعبة، ففي مجالات الفكر هذه، كما في القلب خاصّةً - ولو أنّ جوست كان يرفض التّفكير بذلك- كان كلّ شيءٍ مبهماً، ومتحرّكاً، ومفاجئاً، فالنّيّات تغيّر مسارها، والمشاعر سرعان ما تنقلب إلى عكسها، والاتّفاقات تبدو غير ثابتةٍ، والمهدّئات صعبةٌ. ما كان هناك شيءٌ يعادل البساطة الجميلة لحجرٍ يهيمن بثقله على حجرٍ آخر ضمن مربع كأنّه يُقسم بأن يظلّ وفيّاً له لمدّة قرنٍ من الزّمن.

في الّلحظة التي وصلت فيها الكتلة إلى مستوى جوست، وبدأت تستدير على محورها ببطءٍ يجرّها رجُلان، رأى جوست كولومب تقترب من قمّة السّور، وتأتي نحوه. شعر بشيءٍ من الغضب، ومشى عدّة خطواتٍ في اتّجاهها كي لا تصل محادثتهما التي كان يخشاها إلى مسامع العمّال. وقفت أمامه في هذا الصّباح الذي بدأ حارّاً، كان ضياء الخريف القطبيّ يجعلها تبدو مختلفةً. لم يستطع أن يعرف ما الذي غيّرها. ربّما هذا المظهر الغاضب، وتلك العين القلقة التي تحاول تجنُّبه جعلاه يخشى بعض ملامح السُّخرية، أو الغضب، لكنّها تكلّمت معه برقّةٍ، ومن دون أن تبتسم كما تفعل عادةً.

- سأرحل يا جوست. يجب أن نودّع بعضنا.

بقامته الضّخمة التي تعطيه مظهر رجُلٍ مهمٍّ ومقاتلٍ، وبوجهه المستطيل، وخطّ أنفه المستقيم، وشفاهه التي مازالت سميكةً وشقّقها الهواء المالح، بدا جوست مختلفاً جدّاً عن المراهق المربوع الذي كان قد حطّ رحاله قبل سنتين ونصف هنا، كأنّما كان قد بنى نفسه مع الحصن، وبالمواد الثّقيلة المصقولة نفسها التي لا يمكن أن تضمحلّ. تمنّت كولومب أن تتشبّع للمرّة الأخيرة بهذا الوجه من دون أن يكون عليها في الوقت نفسه أن تتأمّله. كانت تخشى أن تستثير طقوس الوداع الأليمة.

- «إلى أين ستذهبين؟». سألها جوست.

كان ذلك شبيهاً باستعمال أصغر أداةٍ ممكنةٍ لتحريك مادّةٍ مجهولة قاسية يمكن أن تكون خطرةً.

- إلى الهنود.

- «مرّةً ثانيةً؟». قال جوست بتعجُّبٍ.

في البداية تضايقت كولومب منه؛ لأنّه قارن قرارها الحاليّ بسفراتها

السّابقة التي قامت بها بمنحى آخر تماماً، لكنّها قالت لنفسها مباشرةً إنّها إذْ تجعل المسألة عاديّةً جدّاً، تتجنّب الاعتراف بأنّها قرّرت هذه المرّة ألّا تعود.

- «نعم». قالت: «مرّةً ثانيةً».

خفض جوست عينيه. لمْ تكن الأمور كلّها مفهومةً، لكنّه شعر بأنّ هذا الخيار يتضمّن لوماً له، ولأنّ العالم الهنديّ ما كان يعني له سوى الحياة البريّة؛ أي: ما هو النّقيض السّيئ للحضارة، فقد شعر بما يتضمّنه هذا الإرجاع من نقدٍ، وحتّى إهانةٍ. ذلك أنَّ محبّة الغابة تعني النّظر إلى جهود المستعمرة بنظرةٍ تخلو تماماً من الشّفقة، وتشكيل أحكامٍ سلبيّةٍ وقطعيّةٍ عنها.

- «هيّا يا كولومب». قال بمزيجٍ من الخجل والهمّ: «سوف تتحسّن الأمور هنا».

كانت تتنازع جوست مشاعر غريزيّةٌ مختلطةٌ توحي له بأنّها كانت محقّةً، وفي الوقت ذاته مخطئةً.

- «سوف ترين». أضاف: «سنتوصّل إلى ذلك».

في هذه اللّحظة شعرت كولومب بأنّ لا شيء يشبه التّعلّق بكائنٍ آخر منذ زمن الطّفولة، فمن أيّام ألعابهما في كلامورغان، ومن المآسي التي عاشاها في إيطاليا، وحتّى من تلك الأيّام السّوداء، والمخاوف، والآمال في أثناء الرّحلة البحريّة، من كلّ هذا كانا قد استمدّا معاً الكثير من الحُبّ والشّجاعة، وصاغا ذلك كلّه بهاتين الكلمتين: سنتوصّل إلى ذلك، لكن ها هي هذه الجملة السّحريّة تلقى الآن أسوأ مصيرٍ، ففي الوقت الذي لم يعد لديها شكٌّ في أنّهما سيتوصّلان إلى ذلك بالفعل، فقدت كلّ رغبةٍ، بكلّ بساطةٍ.

- نتوصّل إلى ماذا يا جوست؟ إلى إماءٍ مغتصباتٍ، وجزيرةٍ خرابٍ، وكراهيةٍ في كلّ مكان؟ ألست ترى شيئاً في هذا؟

طريق الحراسة المستقيم، والكتلة التي بدأت الآن تنخفض في اتّجاه المتراس، والفخر بالأسلحة، والمراكب الرّاسية، وهذا الخليج الذي ينتظر من فرنسا الأنتاركتيكية أن تحتله، وتنتصر فيه؛ هذه الأشياء كلّها كانت تجيب عن السُّؤال عوضاً عن جوست، ولذلك اكتفى برفع عينيه ليحيط كلّ هذه التّحوّلات بنظره. فهمت كولومب ما يفكّر به.

- «لم أعد أحتمل الكذب». قالت، وهي تقرص قميصها الذي لمْ يكن له شكل.

كان ذلك يعني الانتقال من كذبة المستعمرة الكبيرة إلى الكذبة الصّغيرة المتعلّقة بها، التي كانا يستطيعان الاتّفاق عليها، على الأقلّ.

- «يمكن أن نعترف بالحقيقة لفيلوغانيون». قال جوست مجازفاً، لكنّ ما قاله لمْ يكن صحيحاً، شعرت بذلك لأنّها كانت تعرفه جيّداً. فمع وضع المستعمرة الحسّاس هذا، ما كان جوست ليرغب بإضافة مشكلةٍ جديدةٍ تزعج الفارس، بلْ كانت لديه أشياء كثيرةٌ يخشى منها في فترة التّوتّر هذه التي يمكن معها أن يتحوّل أيُّ شيءٍ إلى عاصفةٍ. قالت لنفسها إنّه ما زال على القدْر نفسه من الشّجاعة على ضغوطات النّار والعمل، لكنْ تنقصه تلك القوّة التي تحوّل الجرأة الخارجيّة إلى شجاعةٍ حميميّةٍ. تذكّرت النّظرات التي تبادلها مع أود والشّراسة كلّها التي تلت ذلك.

- «لن أكون هنا عندما تتزوّج». قالت من دون أن تستطيع منع عيونها من الابتسام، ومن القدرة على الإيلام بما يفوق الكلام.

- «أتزوّج!». صرخ: «عن أيّ شيءٍ تتحدّثين؟ أبداً لم...».

- «هيّا!». قاطعته، وهي تهزّ أكتافها: «على الأقلّ لا تكن أعمى. أنت تحبّها، وهذا حسنٌ لك».

خجلت فجأةً؛ لأنّها وضعت بكلّ صفاقةٍ نار كلماتها على جرح الحقيقة.

اضطّرب كما لو كان قد تلقّى رمحاً. لمْ يرتبك بسبب قدرتها على أن تقول له ذلك بكلّ شجاعةٍ، إنّما لأنّه كان جباناً إلى درجةٍ لم يُرد معها التّفكير في ذلك. تأرجح بين الشّعور ببدهيّة الأشياء وبين الاستنكار، ولم يعد يعرف تحت أيّة سُلطةٍ يجب أن يكون. كان يمكن لكولومب أن تحتقر نفسها فيما لو قبلت نجاحاً على تلك الدّرجة من السُّهولة.

- اِحذر من نفسك يا جوست العزيز!

من يعرف؟ ألمْ تكن في قرارة نفسها سعيدةً بأن يأتي ذلك الشّغف ليقطع تلك التّمثيليّة القديمة عن العفّة والرّفقة الذّكوريّة؟ لم تكن المشكلة في أنّها تجرؤ على أن يصيرا أخيراً ما كانا عليه؛ أي: رجُلاً وامرأةً، إنّما في أنّهما إذْ أضاعا رابطة الطّفولة التي كانت تربطهما، لمْ يعودا قادرين على إيجاد رابطةٍ أُخرى عوضاً عنها؛ لأنّهما كانا في النّهاية، ومهما كان الشّكّ الذي شعرت به دائماً، أخاً وأختاً.

فجأةً، قطعت الصّمت الممتلئ بالضّيق صرخةٌ، فقد انكسرت كتلة حجرٍ بين أيدي العمّال الذين يرفعونها؛ لأنّهم وضعوها من دون عنايةٍ. ركض جوست نحو الرّافعة.

استغلّت كولومب تلك الفرصة لتهرب من دون أن تستدير إلى الوراء.

*

تمّت النّدوة في اليوم التّالي بعد أن أعلن الهوغونوت أنّهم مستعدّون للمجابهة، ولا يتطلّبون أيّة مهلةٍ من أجل التّحضير لها.

اجتمعوا في حصنٍ جديدٍ مرتبطٍ بمقرّ الحُكم الذي شُيِّد كي يجتمع فيه مجلس الجزيرة المقبل الذي ضحّى فيلوغانيون ووافق على تشكيله. اتّخذ

القسّيسان، ونصف دزّينةٍ من المؤمنين أماكنهم في مقاعدَ خشبيّةٍ موجودةٍ على كلّ جانبٍ من الجوانب، في حين اختار دوبون لراحته أن يقف إلى الوراء قليلاً. قُبالتهم كان دون غونزاغ يتزعّم فرقةً صغيرةً من الحرفيّين كان قد ولّد لديهم ارتباطاً قويّاً بالعذراء مريم، والأمل بمنزلةٍ جيّدةٍ.

اختار فيلوغانيون الطّرف الضّيّق من القاعة على بُعدٍ متساوٍ من المجموعتين، في حين وقف جوست ولو توريه بمحاذاة الأبواب؛ أمّا المسكين كاتب العدل أمبيري فكان يجلس على مقعد تلاميذٍ صغيرٍ وسط الخطّين المتصارعين، ويبدو أنّ الاختيار وقع عليه ليكون أوّل ضحيّةٍ في حوارهما المتبادل. امتلأت القاعة بجوٍّ من العدوانيّة الواضحة، ففي الأيّام السّابقة، بعد أن تراجع عدّة متحوّلين إلى العقيدة الجديدة عن ارتدادهم، ضُغط عليهم، وتلقّوا تهديداتٍ. اندلعت من جرّاء ذلك معركةٌ داخل الورشة، فطُلب أن يعلن كلّ شخصٍ انتماءه إلى معسكرٍ ما، وأن يتّخذ قراره حتّى لو كان يجهل ما الفرق الدّقيق بين الجهتين، ولا يعرف لماذا يمكن أن يكون الإنسان (هوغونوتاً)، أو (بابويّاً). المهمّ أنّه بمجرّد أن يختار فصيلته، لا يعود بإمكانه تغييرها مطلقاً. بدأ يسود في القاعة جوٌّ من عدم الصّبر، كانت الفواصل من سعف النّخيل التي بُنيت على عَجلٍ تسمح من بعيدٍ برؤية بياض الرّمل، وخطّ الزُّمرُّد الذي تشكّله المياه. لَفّت الحرَّ الخانق غلالةٌ من الضّباب غير مألوفةٍ في ذلك الفصل، وراحت تغطّي الشّمس. شعر عددٌ من الحضور بعدم الارتياح وتساءلوا إنْ لم يكن من الأفضل لهم أن يقفزوا فوق الحواجز ويهربوا، ولذلك نشروا في الهواء السّاكن رائحة عرق آباطهم القلقة. في النّهاية سأل فيلوغانيون:

– هل أنت مستعدٌّ، يا معلّم آمبيري؟

علامة الموافقة التي صدرت عن الكاتب أعلنت افتتاح الأعمال.

- «أيُّها السّادة». بدأ الأميرال حديثه بصوت الشّاعر المفوّه القادر على استثارة السُّرور ومشاعر الأخوّة: «كلّنا نؤمن بسيّدنا يسوع المسيح. الضّياء والحقّ بين أيدينا على هذه الأرض المنعزلة التي سنجعل منها حديقةً لملك فرنسا».

تنهّد دون غونزاغ. كانت كلمة حديقة تولّد لديه أبياتاً من الشِّعر؛ لأنّه كان يحبُّ في قصائده أن يذكر المرأة، وشَعرها المسرّح، وزينتها، وحدقة عينيها، مشبّهاً ذلك شِعريّاً بالممرّات المرسومة بانتظامٍ، وبأحواض الزُّهور، والبحيرات الصّافية.

- «لكنْ»، صرخ فيلوغانيون، ما جعل الفارس العجوز يستيقظ من إغفاءته الشِّعريّة: «في مواجهة المخاطر التي تحيط بنا، واجبنا أن نبقى موحّدين، وألّا نبثّ الاضطّراب في مدركات أولئك الذين عُهد بهم إلينا بخلافاتٍ لا أهمّيّة لها».

أثارت هذه الكلمة استنكاراً من الحاضرين جميعهم. انتفخت الصُّدور، وصدرت عن عدّة أشخاصٍ قرقعةٌ من الحلق كما لو كانوا يتحضّرون لامتشاط سيوفهم.

كان فيلوغانيون حذراً، على أنّه أراد أن يُظهر أنّه مرتاحٌ ومسترخٍ، فهو الذي كان قد استقبل البروتستانتيّين بفرحٍ، معتقداً أنَّ روحيّة الحُرّيّة، والجدل الصّحيّ ستنتشر في المستعمرة، سرعان ما دفع الثّمن من جيبه حين عرف أنّ المناظرة لمْ تكن مستحبّةً بالنّسبة إليهم. ما كان يجب قبول مقارعة السّيوف من أجل تفاهاتٍ.

- سوف نلتزم بما هو جوهريٌّ، وعلى ذلك سيترتّب ما سيحصل تالياً، وهكذا فإنّني سأصيغ سؤالي بوضوحٍ: هل يحضر سيّدنا يسوع المسيح القربان المقدّس بذاته أم لا؟

ثمَّ أمسك بورقةٍ كان قد حضّرها، واستعرض النّتائج كلّها التي تنجم عن هذا الحضور من أجل الخلاص، ومن أجل استحالة تأسيس دينٍ لا يعترف بذلك، حسب ما كان يعتقد حول هذه النّقطة، ومع أنّه كان موجوداً في المنتصف، إلّا أنّه بدا أقرب إلى جهة الكاثوليك. عبّر دون غونزاغ عن موافقته في حين استلم ريشتر الكلام بفخامةٍ.

- «نعم». قال، وهو يداري جهده: «المسيح موجودٌ هنا خلال العشاء الرّبّانيّ».

ظهرت على وجه فيلوغانيون المتشنّج علامات الاسترخاء، ومشّط دون غونزاغ لحيته بفخرٍ، في حين قال ريشتر، وهو يقرأ بدوره في ورقةٍ:

- كما كتب كالفِن: إنَّ (يسوع المسيح) يعطينا في العشاء الجوهر الحقيقيّ لجسده ودمه، حتّى نتّحد به، ونملكه كلّيّاً.[I]

- «آهٍ يا أخي». هتف فيلوغانيون، وهو يقف: «دعني أقبّلك».

لكنَّ ريشير، أمام المخاطرة التي تحملها تلك المعانقة سارع إلى القول:

- دعني أكمل! - قلت إنَّ جسد المسيح فيه...

كان فيلوغانيون قد عاد إلى الجلوس، وابتسم من السَّعادة.

-... لكنّه ليس فيه.

هنا سُمعت (أوه) مستنكرةٌ هزّت الحضور من الجهة الكاثوليكيّة، وجعلت لون الأميرال يشْحب من الغضب.

- «ليس فيه». تابع ريشير، وهو يرفع يده لكي يتركوه يُكمل: «لأنَّ كالفِن كتب ذلك. لا يوجد هنا سوى الخبز والنّبيذ، وهي ليست أشياء

[I] جون كالفن، مقالة قصيرة في العشاء المقدس، ترجمة جورج صبرا، دار الثقافي 2004، ص 26-28. وردت في مدونة تنوير. (م).

موجودةً لتؤكّد خلاص أرواحنا، إنّها مجرّد لحمٍ قديمٍ مهملٍ كما يقول سان بول، مهيّأٍ للبطون».

- «بحقِّ جسد سان جاك!». صرخ الأميرال مزمْجراً: «يجب أن تقرّر، هو فيه أم ليس فيه؟ لا يعود لك أن تنزعه منه، أو تضعه فيه».

- «بلى، بالذّات. المسيح فيه؛ لأنّنا نضعه فيه». شرح ريشير.

تصاعدت صرخات الاستنكار من المقاعد الكاثوليكيّة:

- «إنَّ إيمان المؤمن»، تابع القسّيس من دون أن يتأثّر: «هو الذي يستدعيه إلى الفكر بطبيعته الإلهيّة؛ أمّا هو، فهو موجودٌ على يمين الرّبّ، بعيداً عن الخبز، وعن النّبيذ بُعدَ السّماء عن الأرض».

- «هكذا إذاً!». صرخ فيلوغانيون لكي يغطّي على الضّوضاء التي أتت من جهة دون غونزاغ: «يُتخلّى عن الإنسان، الإنسان الذي خلقه الرّبّ على صورته، الإنسان الذي يعكس كماله...».

- توقّف!». صرخ دوبون الذي كان حتّى تلك اللّحظة قد بقي في الظّلّ: «أجل، توقّف عن هذا الهراء يا أميرال حول طيبة الإنسان. الإنسان ليس طيّباً. الإنسان قد ضاع، حلّت عليه اللّعنة، قُيّد إلى مصيره لأنّه يريد الشّرّ، ويقوم به».

- «جسده المدنّس»، أضاف القسّيس، وقد امتلأت عيناه بالقرف: «ولحمه التَّعِس لن يكون لهما أيُّ نصيبٍ لحُسن الحظّ في قيامة اليوم الآخر».

حلَّ صمتٌ عظيمٌ كان فيلوغانيون سببه. كان حتّى اللّحظة يدافع عن النّظريّات الكاثوليكيّة بصدقٍ، لكنْ باعتدالٍ، محاولاً أن يجد الحلَّ الوسط والتّهدئة، لكنْ فجأةً بدا أنَّ ما سمعه قد مسَّ في الصَّميم قناعاته الحميمة، وإيمانه كرجُلٍ من أتباع المذهب الإنسانيّ؛ بمعنىً آخر: كانت

الضّربة قاسيةً. اعتدل في جلسته فجأةً بقوّةٍ جعلت التّمتمات تتوقّف للحظتها.

جال بنظره بين دوبون وريشير بكراهيةٍ لا يمكن وصفها. من بين الخطايا كلّها التي يمكن اقترافها، كانا قد وقعا فريسة تلك التي لا يمكن له أن يسامحهما عليها، وهي خطيئة ألّا تحبَّ من هُم مثلك، ولئن كان فيلوغانيون يريد أن يدافع عن فكرة أنَّ الإنسان يمكن أن يصل إلى الخلاص، فلأنّه كان مشبعاً بجماله وعَظمته، وبالكمال الذي يجعل منه دائماً مرآةً للرَّبّ، حتّى لو انكسر في أثناء السُّقوط. لا شكَّ في أنّهم لا يكرهون من هُم على شاكلتهم فقط، بلْ يكرهون أنفسهم. فهم الآن على نحوٍ أفضل كيف استطاعت ديانة الحبّ تلك أن تنتج في الوقت نفسه هؤلاء الوحوش الذين يسمَّون الأناباتيست. إنْ كان الإنسان سيّئاً ولا يستطيع فعل أيّ شيءٍ لينقذ نفسه، لا بأس عليه إذن أن يقترف الخطيئة بجوارحه كلّها، وأن يتشبّع بالرُّعب الذي يبثّه هو. بعد هذه الفترة من الصَّمت زمجر فيلوغانيون وهو يسدّد إصبعه نحو المعلّم آمبيري:

- سجِّل. سجِّل هذا الشّيء الذي يفصل هؤلاء السّادة عنّا، والذي سيفصلنا عنهم إلى الأبد.

وبدأ يقترح صيغةً لعدم الاتّفاق عارضها ريشير حتّى وصلا إلى صياغة إقرارٍ حقيقيٍّ بالطّلاق. كانت ريشة الكاتب تركض، وهي تزقزق على الورق السّيّئ، وفي صمتٍ مزعجٍ، كان كلٌّ واحدٍ يحسب النّتائج التي ستتولّد عن هذا الحدث.

في لحظة التّوقيع، وصلت إليهم الصَّرخات. كانت أدنى ضجّةٍ تدخل بحُرّيّةٍ إلى هذه الغرفة الخالية من الجدران. هذه المرّة، لمْ تكن الصّرخات تتأتّى عن طائرٍ، وكانت قريبةً. عندما تزايدت الصّرخات أكثر، وأكثر،

تعرّفوا إلى صوت امرأةٍ. فتح جوست بناءً على إشارةٍ من الأميرال أحد الأبواب، فدخلت إحدى الوصيفات، عيناها زائغتان، وشعرها مفكوكٌ، وثوبها الأسود ممزّقٌ يتدلّى فوق أحد ثدييها. راحت تصرخ داخل قاعة الاجتماع المغلق:

- «هيه يا سولانج»، صرخ ريشير: «ما الذي حصل؟».

- «الأنسة أود، الأنسة أود...».صرخت الوصيفة مولولةً.

- هيّا، هيّا، تكلّمي!

عندها، بدأت المرأة المسكينة تفقد وعيها، وضعت يدها على رأس الكاتب، وقالت قبل أن يُغمى عليها تماماً:

- لقد أكلها أكلة لحوم البشر.

الفصل 7

مرّت سنتان من الجنون، لكنْ لم يكن محتَّماً عليه أن يرجع عن قراره، كان المونسنيور يواكيم كويمبرا قد جعل من استرداد البرازيل مسألةً شخصيّةً. كان بطل هذا الحزب الذي كان مع الأسف حزبَ أقلّيّةٍ، وكان يرغب في ألّا تبقى البرتغال في الأمريكيّتين بهدفٍ وحيدٍ هو جَلب الذَّهب، أو استخراج السُّكّر منها. كان يرى فيها أرضاً لتوسيع الإيمان، والقيام بحملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ، وإن كان لدون يواكيم الحظّ في أن يرتدي وشاحها في يومٍ من الأيّام، فسيكون ذلك من خلال إنجازه هذا المشروع الذي كانت له فائدةٌ مزدوجةٌ هي إضعاف الفرنسيّين، وخدمة المسيحيّة.

لكن خلال هاتين السّنتين، ومنذ أن قام كادوريم بإعلامه عن الحملة الفرنسيّة، وقفت في طريقه عدّة عوائق جعلت الأسْقُف يظنُّ في البداية أنّه قد خسر الجولة.

ركض إلى لشبونة كما قال للفينيسي، لكنّه ركض بإيقاع دابّته البطيئة، وقد وصل إليها بعد تخلّي كارلوس الخامس عن العرش. الشّيء الأوّل الذي عَلِمه، وهو يقف في مواجهة نهر التّاج كان الهُدنة التي وُقّعِت بين الفرنسيّين وإسبانيا، وكما كان يخشى تماماً، لمْ يُرد الحاكم البرتغاليّ أن

يقرّر أيَّ شيءٍ يمكن أن يعكّر التّفاهم الأوروبيّ بخصوص الأمريكيّتين، ففرنسا التي عاشت فترة سلامٍ، وتحرّرت من عدوّها الأساسيّ، كان يمكن أن تجعله يدفع الثّمن غالياً.

كان كويمبرا قد عاد إلى فينيسيا التي صارت حالتها مزريةً، ولحُسن الحظّ جعله ذلك يرى أنَّ السّلام يمكن ألّا يدوم، فقد بقيت الحالة الإيطاليّة كما هي، مستودع بارودٍ قابلٍ للانفجار يواظب الأسْقُف بهيئته الطّيبة فعلاً على الّلعب فيه بحجارةٍ تقدح ناراً.

لا يمكن انتظار الأسوأ من دون المرور في وقتٍ ما بأشياء جيّدةٍ، وهذا ما حصل في ذلك الصّيف المبارك من عام (1556) عندما وصل إلى الأسْقُف خبران: الأوّل كان خبراً عامّاً يتعلّق بوصول فرانسوا دو غيز إلى إيطاليا على رأسِ ثلاثةَ عشرَ ألفِ رجلٍ. كانت مطامع هذا الضّابط الكبير الذي يتحرّق رغبةً في أن يُتوّج ملكاً على نابولي، وأن يضع شقيقه على عرش بُطرس، قد خرقت الهُدنة الأوروبّيّة. النّتيجة على المدى القصير كانت عودة الحرب بين فرنسا وإسبانيا، وتلك كانت نقطةً جيّدةً قادرةً على تحرير البرتغاليّين داخل الأمريكيّتين من أيّ تأنيب ضميرٍ.

الخبر الثّاني الذي وصل إلى الأسْقُف كان أكثر سرّيّةً، ويدين به إلى كادوريم، فقد أُعيد الفينيسي غضْباً إلى طرقات السَّفر، ودُفِعَ من جديدٍ نحو فرنسا، حيث راح يتجسّس على البلاط في باريس. تصرّف معه كويمبرا بكرمٍ كبيرٍ، ما جعله يتابع من وقتٍ إلى آخر إرسال البرقيّات إليه، البرقيّة الأخيرة احتوت على معلوماتٍ مهمّةٍ حول الرّحلة القادمة للمبعوثين الكالفنيّين إلى ريو، بمباركةٍ من ملك فرنسا، إنْ كان يمكن استعمال مثل هذه الكلمة للهَراطقة.

حصول كويمبرا على تلك المعلومات المهمّة جعله ينطلق في عربته،

ومن سرعته حطّم ثلاثة إطاراتٍ معدنيّةٍ للعَجلات، وعصا التَّحكُّم، وأعصابه، وهكذا وصل إلى لشبونة مرتاحاً مع كلّ شيءٍ، وعارفاً تماماً بما يجب أن يفعل.

حضّر كويمبرا خطّة الهجوم بالاشتراك مع كاهن الاعتراف الخاصّ بالملك، ومن يحيط به من اليسوعيّين، حيث إنّه عاد إلى موقعه بالقرب من الحاكم. لم يكن هناك ما هو أفضل بالنّسبة إليه في تلك المرّة. ففي بداية عام (1557)، كانت القطيعة بين فرنسا وإسبانيا قد تأكّدت، واندلعت المعارك في فلاندرا، وصارت الطّريق مفتوحةً، بالإضافة إلى ذلك، ولأشياء أُخرى، ما كان جواو الثّالث الذي كان شديد التّديُّن ليتقبّل فكرة أن يدخل الهوغونوت إلى البرازيل التي تخصّه. كان يستطيع التّغاضي عن اقتراف النّورمانديّين للخطيئة، أمّا أن تقدّم لأكلة لُحوم البشر ديانةً تعرّي الحقيقة، فأمرٌ لا يمكن قبوله، أو تسويغه.

نصَّبَ الملكُ حاكماً جديداً للبرازيل، وكلّفه بالذّهاب مباشرةً إلى سلفادور دو باهيا. كانت مهمّته الأولى أن يضع حدّاً لسلبيّة المستعمرين البرتغاليّين العبثيّ؛ إذْ ما كانوا يفكّرون سوى بطواحين السُّكّر التي لديهم. كان هناك يسوعيّون مساكين يقاتلون داخل الأدغال من أجل نشر الإيمان، وقد حان الوقت لإرسال نجدةٍ إليهم؛ لأنَّ رسالة البرتغال الحقيقيّة كانت تكمن فيهم؛ أمّا بالنّسبة إلى ريو، فقد كان الأمر غايةً في البساطة؛ إذْ يجب فتحها، واستخراج البذور الشّيطانيّة جميعها التي انتشرت فيها، وهكذا صارت أيّام فيلوغانيون ورفاقه الفرنسيّين معدودةً.

صار بمقدور دون كويمبرا أن يعود إلى فينيسيا راضياً. مع ذلك، قبْل أن يسلّم من جديدٍ فقرات جسمه إلى عذاب الطُّرقات السّيّئة، أصرّ على مقابلة حاكم البرازيل الجديد، وهكذا، ما إنْ وصل رجُل الحرب من مقاطعته إلى لشبونة، حتّى ذهب تلبيةً لدعوة الأسْقُف.

حدث اللّقاء بالقرب من كنيسة سان فرانسيسكو، في الدَّير الصّغير الهادئ ذي الجدران المغطّاة بالزّليج على ارتفاع قامةٍ. حرص الحاكم المُنصَّب ميم دو سا على أن يكون دخوله قمّةً في الأبّهة. كان رجُلاً قصيراً وأعرج، شديد النُّحول إلى درجة أنّ ترسه الذي لا يفارقه كان يعوّض ضعف هيكله العظميّ، ويحميه من أن ينداح برخاوةٍ على الأرض، مثل نبتةٍ لا يدعمها شيءٌ، وليخفي ذلك التّخلُّف الجسديّ حرص دو سا على أن يحافظ على رأسه الضّخم منتصباً دائماً بعينيه التي لها شكل كريّاتٍ، وبراطمه السَّميكة، وخشمه الضَّخم. كان شعره أسْودَ خشناً ومجعّداً مثل فرو الأستراكان، ومنه تتدلّى أرخبيلاتٌ صغيرةٌ عديدةٌ على الدّرجة نفسها من الصّلابة، في حين زادت الحواجب والشّوارب من قسوة هذا الوجه الشَّهواني الممتلئ بالعنف والشّراسة.

استقبل الأسْقُف كويمبرا زائره بحركةٍ مزدوجةٍ تحمل الرُّعب والرِّضا: ما كان يمكن أن يحلم بأفضل من هذا الإبليس ليرسله للهوغونوت.

- «آهٍ». صرخ كويمبرا، وقد تخلّى بحذرٍ عن مدّ خاتمه نحو فكٍّ مثل هذا الكلب: «كم أنا سعيدٌ برؤيتك أيُّها السّيّد الحاكم!».

عوضاً عن الإجابة المنمّقة، صدرت عن ميم دو سا زمجرةٌ، وبما أنّ بعض اللّعاب كان قد سال على شفاهه في اللّحظة نفسها، فقد مسحه بظاهر كفّه. كان كويمبرا سعيداً بتقديم هديّةٍ كهذه إلى الفرنسيّين.

أجْلس الأسْقُف ضيفه على كنبةٍ من الجلد، وبدأ يحدّثه عن البرازيل. شرح له مسألة ريو كلّها: الشُّكوك البرتغاليّة الأولى عندما دلّت الضّجّة القادمة من باريس على ما بدا كمحاولةٍ لإنشاء مستعمرةٍ منافسةٍ، والمعلومات التي حُصِلَ عليها في فينيسيا، وذهاب الإصلاحيين، وقد لحظ دون يواكيم برضاً أنَّ لفظ هذه الكلمة الأخيرة جعل ميم دو سا يفقد

سكونه، في حين صدرت عن أنفه وأذنيه حركاتٌ وإشارات توحي بمطاردة وطريدة. بعد ذلك، وبنوعٍ من الصَّبر، وبالبساطة التي تُردَّدُ فيها بعض الكلمات أمام شخصٍ غريبٍ، حاول كويمبرا أن يحصل من الحاكم على إشاراتٍ حول ما سيفعله، لكنْ يبدو أنَّ رجُل الحرب لمْ يسمع علامات الاستفهام التي كان الأسْقُف يزرعها بوضوحٍ أمام وخلف كلّ جملةٍ من الجُمل التي يلفظها، وهكذا خيَّم الضّيق، وسحابةٌ من الدُّخان المعكّر على المحادثة، ما جعل الأسْقُف يسعل. في النّهاية، عندما صمت هو الآخر، وبعد أن سيطر عليه شعورٌ من التّخاذل المشوب بالذُّعر، فتح ميم دو سا فمه كاشفاً عن أسنانٍ قويّةٍ ووورديّةٍ مثل العاج، وقال:

– يجب أن نشنّ الحرب، في ريو.

كان في صوته تلك الجدّيّة الخشبيّة التي يمكن أن تصدر عن خزانةٍ لها صريرٌ داخليٌّ.

كان يتكلّم إذاً! كان يتكلّم ويفكّر. وفوقها كان يفكّر جيّداً. استعاد الأسْقُف ألوانه مباشرةً، وكما لو أنّه وجد مُسوّغاً في ذلك الجواب الذي يبرهن على أنّه لم يُلقِ وعظته بلا فائدةٍ، بدأ بطلاوةٍ، ومزاحٍ، وبلاغةٍ، وفرحٍ حقيقيّين، يقدّم آلاف الملحوظات عن البرازيل، واليسوعيّين، وأكلة لحوم البشر، واللّؤم الفرنسيّ، ومساعدة أهالي فينيسيا، وحالة الطُّرقات التي لا تحتمل، وحلاوة نبيذ دورو، والملك، والبلاط، وعن نفسه أيضاً، وعندما وصل إلى هذا الموضوع بين المواضيع الأُخرى، تنهَّد وسكت أخيراً.

كان جرس الكنيسة قد رنَّ رنَّتين معلناً موعد الصّلاة، فتصاعدت أصداؤه في الدَّير.

– «يجب أن نشنَّ الحرب في ريو». ردد ميم دو سا بنغمةٍ تماثل نغمة الجَرس.

- «نعم». قال يواكيم، وهو يخفض رأسه.

هناك قوى يجب أن نعرف كيف نخضع لها.

ولكي يبيّن له أنّه ينوي هضْم تلك الكلمات التي تروي الغليل، صالب يديه على بطنه، وصمت برهةً طويلةً. كان ميم دو سا ينتظر بالصّبر نفسه، من لحظةٍ إلى أُخرى كانت أجفانه السَّميكة تكنس بأهدابها الخشنة حجر عينيه المتعرّج. قال كيومبرا لنفسه إنّ لديه وقتٌ قصيرٌ ليذهب إلى لبِّ الكلام، وهكذا من دون مقدّماتٍ اتّجه إلى هناك.

- «يا سيّدي الحاكم». قال، وهو يؤكّد على كلّ كلمةٍ من الكلمات: «ليست لديك سوى قوّاتٍ قليلةٍ في سلفادور دو باهيا، حسْب معرفتي، لمْ يعطك الملك الأمر بإرسال قوّاتٍ جديدةٍ. وبما أنّه كما تقول بحقّ، وبكثيرٍ من بُعد النَّظر، لا بدَّ من حربٍ في ريو..».

- «أجل». قاطعه ميم دي سا.

- «... تماماً». أكمل كويمبرا كلامه، وهو يخرج منديلاً لتجفيف عرقه: «حسنٌ، اسمح لي أن أسرَّ لك بترتيبٍ معيّن أدين به إلى عميلنا من فينيسيا».

كانت طيور سنونو تطير بذيلها المقسوم عالياً جدّاً في السَّماء الشّاحبة. رفع ميم دو سا عينيه إليها، وأطلق زفرةً قويّةً.

- «ترتيب مهمٌّ». أكّد كويمبرا بنبرةٍ أعلى؛ لأنّه لمْ يكن قادراً على إخفاء غضبه: «هل أستطيع أن أسرّ لك به وحْدك؟».

لكنّه فهم عدم اهتمام محدّثه بالأسئلة التي يطرحها، ولذلك لم ينتظر أيَّ جوابٍ:

- «سيكون»، أكمل وهو ينحني: « لديك رجُلٌ مع الفرنسيّين».

أعْلَمه بأبسط ما يمكن من التّعابير عن وجود فيتوريو.

- كلمة السّرّ لتتعرّف إليه هي ريبير.

لمْ يتحرّك أيُّ شيءٍ في وجه الحاكم.

- «ري..بير». ردَّد كويمبرا الذي أخذ العرق ينضح منه جداولاً.

لمْ تأتِهِ أيّة ردّة فعل. عاد إلى شروحاته؛ أمّا ميم دو سا فراح يحدّق في كأس البورتو الذي قُدّم إليه. مدّ يده النّحيلة، وشرب منه بشراهةٍ جرعةً كبيرةً.

- «ريبير». أتمّ كويمبرا كلامه، وقد رسم على وجهه ابتسامةً لمْ تستطع أن تخفي يأسه.

دقّت السّاعة بانتظامٍ في جرسٍ آخر أبْعد، كانت نغمته أكثر حدّةً. أصاخ ميم دي سا سمعه، وبداً عليه أنّه يعدّ الضَّربات. في الضّربة الأخيرة نهض، أرخى ترسه قليلاً، وهو يحرّك جسمه في الأنحاء جميعها، وشدّ أكمامه.

رافقه الأسْقُف باستعجالٍ حتّى الباب الصّغير الذي أتى منه. في هذا المكان، توقّف ميم دي سا برهةً، ونظر إلى رجُل الدّين، وقال بصوتٍ مفاجئٍ أكثر وضوحاً:

- يجب أنْ نشنَّ الحرب في ريو.

ثمَّ تصلّب، وأضاف مثل صيحة حربٍ:

- ريبير!

بعدها مباشرةً اختفى عبر الباب الخلفيّ.

الفصل 8

كانت أود مستلقيةً على سريرها، مغطّاةً بلحافٍ، وكانت تتأوّه، وهي تستقبل تدافُع الزُّوّار المرتعبين إلى غرفتها. أتى عمّها ودوبون أوّلاً، لكن فيلوغانيون وجوست سارعا أيضاً بعدهما. انتشر حول الكوخ طنين الجموع المستنكرة مثل النّحل، وقد اختلط داخلها المتفرّجون من الحزبين.

كانت أود تئنُّ وعلامات الألم الواضحة هي الضّريبة التي توجَّب عليها دفعها مقابل الخطأ في المفردات الذي اقترفته هذه الغبيّة سولانج. كانت الوصيفة قد رافقت الزُّوّار، وهي تحاول أن تستعيد حياءها وراء ثوبها الممزّق.

كان من الواضح أنّها عبّرت بسوءٍ، فأكَلة لحوم البشر لمْ يقوموا بالمعنى الحَرفيّ للكلمة بأكل الآنسة أود، وفي النّظرات المذهولة والمحبطة نوعاً ما، كان يمكن لأود أن تقرأ أنّهم اعتقدوا أنّه قد غُليت بالماء، وقُسّمت إلى قطعٍ، وهي حيّةٌ، وقادرةٌ على أن تفسّر ما حصل. سألها ريشير بجدّيّةٍ أن تروي كلّ ما حدث. أجْهشت بالبكاء، وهي تبثُّ نوعاً من العاطفة الجيّاشة في اللّوحة التي كان يمكن للمتفرّجين أن يجدوها مطمئنّةً بالمقارنة مع ما خشوا حدوثه:

- إنّه لأمرٌ مرعبٌ أكثر ممّا تظن!

- «هيّا يا صغيرتي، يجب أن تحكي لنا ليعود النّظام». قال دوبون هامساً، وهو يمسك بيد أود المرتجفة ضمن راحته الكبيرة المغلقة مثل صَدَفةٍ.

- «حسنٌ». بدأت حديثها، وهي تناضل ضدّ مشاعرها: «حدث ذلك قبل أقلّ من ساعةٍ. مثلما أفعل كلّ يومٍ بعد الظُّهر، ذهبتُ مع سولانج أتنزّه خلف الحصن على طول الصُّخور».

ضغطت منديلها بعصبيّةٍ على وجنتيها، لكنّه عاكس ما هو بدهيٌّ؛ فعلى أن عينيها بقيتا جافّتين، إلّا أنّها كانت تصرُّ على أن يعتقدوا بأن الاعتراف يتمُّ محاطاً بالدُّموع.

- «كنت أحبُّ ذلك المكان». قالت ساهمةً، وفي استعمالها لصيغة الماضي كان يمكن أنْ نفهم أنّها لن تستطيع أبداً أن تعود إلى هناك بعد الآن: «كان البحر فيه جميلاً جدّاً».

تدخّلت سولانج قائلةً:

- إنّه مكانٌ جيّدٌ للبشرة.

سرعان ما أمرتها النّظرات جميعها بما فيها نظرات أود، ألّا تعكّر التّحقيق بأشياءَ لا معنى لها.

- «اليوم»، استأنفت أود الكلام: «لمْ نلتقِ بأحدٍ في البداية. أظنُّ أنّ رجال الجزيرة كلّهم كانوا مجموعين في انتظار نتائج ندوتكم، أليس كذلك يا عمّي العزيز؟».

وافق ريشير، في حين أصيب فيلوغانيون الذي كان أطول من الجميع بمقدار رأس بنوبة سُعالٍ من الإحراج؛ لأنّه كان هو سبب ذلك الاجتماع، وكان يخشى أن يكون ذلك هو سبب الاعتداء.

- «كلُّ شيءٍ كان هادئاً». تابعت أود: «ولقد استفدنا من هذا الهدوء كي

نذهب أبعد قليلاً نحو طرف الجزيرة التي كنّا نحبّها؛ لأنّنا كنّا نرى فيها كلّ فلك الخليج والغابة من بعيدٍ، عندها نفّذن اعتداءهنّ».

- من؟

- «الهنديّات بالتّأكيد.». قالت موضّحةً.

- «إماؤنا؟». قال فيلوغانيون الذي كانت تتبع له هذه الفرقة من الأسرى.

- نعم، أولئك الذي يساعدون في بناء الحصن، أو بالأحرى نساؤهم؛ لأنَّ الأزواج حسْب ما تهيّأ لي قد تنحّوا جانباً.

- «وماذا فعلت الهنديّات؟». أصرَّ ريشير.

شعرت أود أنّه من المناسب أن تصدر عنها شهقة بكاءٍ تخفيها بيديها، وبعد أن تؤكد القهر الذي تشعر به، لن يستطيع أحدٌ أن يضحك من وصفها.

- «أيْ نعم». قالت بقرفٍ: «خلعن عنهنَّ الثّياب بلحظةٍ، وكانت أجسادهنَّ مغطّاةً بألوانٍ حمراءَ وسوداءَ تجعلهنَّ شبيهاتٍ بالشّياطين».

- «بالفعل!». قال فيلوغانيون مستنكراً.

- بدأن يصفّقن بأيديهنّ، ويرقصن حولنا. كان يجب سماع الصّرخات التي صدرت عنهنّ، وخصوصاً عن اثنتين كنّ أكبر سنّاً من البقيّة، تشبهن السّاحرات تماماً.

سمعت في الغرفة شهقات دموع أطلقتها سولانج.

- ضاقت الحلقة علينا، وكان الرعب قد أخرسنا. لا تستطيعون تخيل كم كان النّظر إليهنَّ مرعباً، والأسوأ من ذلك شمُّ روائحهنّ. لا يمكن أن تكون رائحة الجحيم مختلفةً.

- «لكنْ، ما الذي كنّ يرمين إليه؟». سألها ريشير.

- هذا ما لمْ نفهمه. لمْ نكن نعرف إنْ كان لديهنّ مخطّطٌ، أو زعيمٌ، أو كنَّ فقط تحت تأثير جنون النّاس البدائيّين.

- «مع ذلك كانت هناك الأُخرى». قالت سولانج متدخّلةً.

- «كنت سأتحدّث عنها». قاطعتها أود بضيق.

- «أيّة أُخرى؟». سأل ريشير.

سكتت الفتاة برهةً لكي تستعيد قواها، ورمت بنظرةٍ موجزةٍ على الحضور فعلت فعلها.

- يجب أن أخبركم هذا التّفصيل المرعب، على أنّي أقرف من ذِكره. من بين تلك الوحوش التي خرجت مباشرةً من الجحيم كانت هناك واحدةٌ هي الأصغر، وتنتمي إلى جنسنا المتمدّن.

- «ماذا؟ بيضاء؟». صرخ فيلوغانيون: «ومن أين يمكن أن تأتي؟».

- آهٍ يا أميرال، أنت تعرفها جيّداً!

سرت همساتٌ مستنكرةٌ مثل موجةٍ في الغرفة الصّغيرة، واستدارت النّظرات نحو فيلوغانيون.

- كانت مغطّاةً بالألوان نفسها مثل الأُخريات، مع ذلك كان من الممكن التّعرُّف إليها. لها عيونٌ بيضاء مثل الكرنب، تعطيها مظهراً من البلاهة على أنّها ليست كذلك مع الأسف.

استدار فيلوغانيون، وهو غير مصدّقٍ نحو جوست، ورأى أنّ لونه قد شَحُب.

- «مع هذا كلّه». قالت أود بحِدّةٍ: «لديها صدرٌ مكورٌ تماماً، ويمكن معه أن نستغرب كيف ظلَّ الجميع فترةً طويلةً يظنّون أنّها صبيٌّ».

- «من هي؟». قال ريشير الذي لمْ يكن قد لحظ كولومب على الإطلاق.

كانت أود تنظر إلى جوست.

- «إنّه وصيفٌ لديّ كنت أحبّه». قال فيلوغانيون بفخر.

لمْ يكن يتمنّى أن يقوم أحدٌ آخر بالإجابة عمّا كان مسؤوليّته، وهو يستطيع التّفاهم بعدها مع جوست في الوقت المناسب، ومن دون وجود شهودٍ.

- «مخنث!». قال ريشير بقرفٍ.

- «ربّما». قال فيلوغانيون: «كنت أجهل ذلك».

كثيرون على الجزيرة كانوا يعرفون ذلك، وكان كشف جنس كولومب بالنّسبة إليهم أقلّ إدهاشاً من مشاركتها في الاعتداء.

- «وماذا كانت تفعله هذه الفتاة مع الهنديّات؟». سأل دوبون.

- «كانت تقودهنّ. كان من المدهش سماعها تتحدّث لغتهنّ. لقد صارت الفتاة المسكينة مثلهنّ كائناً متوحّشاً».

- «وما الذي أمرتهنّ بفعله؟». قال ريشير.

- آهٍ يا عمّي، لا تتركني أتكلّم أكثر من ذلك. لقد كان من المؤلم أصلاً أن أحتمل هذه الرّقصات التي قامت بها الملعونات، التي كشفْن فيها عن مناطقهنّ الحميمة على نحوٍ حيوانيّ. لا أتمنّى أن أتلوّث أكثر من ذلك من خلال الوصف.

يمكن دائماً الاستناد في هذا المجال على المخيّلة. القاصُّ الماهر يترك السّامع يكمل مثل هذه المشاهد حسب عمره ورغباته. كانت هناك نفحةٌ فضائحيّةٌ قد داعبت برهةً الحضور من الرّجال المكبوتين، وتركتهم صامتين على حافّة المتعة والاستنكار.

بعد ذلك، قال ريشير وهو يبتلع ريقه بصعوبةٍ:

- بعد ذلك جاءت الإهانة الكاملة. أعطت البيضاء أمراً، فقامت النّساء بالارتماء علينا، وقُمن بتمزيق ملابسنا، واندفعن نحو أعضاء أجسادنا بأسنانهنّ.

- أردْنَ التهامكنَّ، وأنتنَّ على قيْد الحياة!

كانت تلك هي النّقطة التي تخشاها أود، ذلك أنّه في تلك اللّحظة، كان لا بدّ من تخفيف الدراما، وإظهار بعض الهَزل. لمْ يكن على ذراعها، وذراع سولانج سوى علامات أسنانٍ غير عميقةٍ، وبعضها اختفى. الإخراج كلّه الذي قامت به المتوحّشات كان يرمي إلى بثّ أكبر كمّيّةٍ من الرُّعب لديهما، من خلال الإيحاء بأنهنّ آكلات لحوم بشر، لكنْ كان لا بدَّ من قبول أنهنّ ما كانت لديهنّ أيّة نيّةٍ لفعل الشّر. فمن بين آثار العضّات جميعها، الوحيدة التي كانت تبدو جدّيّةً قليلاً كانت عضّةً مُضحكةً.

مع آثار العض هذه على طول ذراعيها العاريتين، وعلى الأكتاف، كانت أود تثير الشّفقة أكثر من الرُّعب. التّلخيص المرعب الذي قامت به سولانج في البداية، وهي تدقُّ ناقوس الخطر، كان قد زاد من الشّعور العامّ بالرّاحة، بلْ وولّد بعض الابتسامات، مع الأسف.

- «ألم تطلبا النّجدة؟». استنكر دوبون: «ألم يأتِ أحدٌ لنجدتكنّ؟».

كان حاجباه المقطّبان يدلّان على أنّه استنبط من ذلك علامات إهمالٍ جديدٍ، وربّما مؤامرة.

- «لقد صرخنا كثيراً... كثيراً». صرخت سولانج، وهي تشهق عدّة شهقات.

لكنّ أود لمْ تكن تفضّل الحديث عن اللّحظة التي كانتا فيها قد رفعتا قوائمهما الأربعة في الهواء، وأطلقتا تحت عضّات اللّواتي كنّ يأكلانهما صرخات زريبةٍ، أكّدت على طبيعتهما الصّالحة للأكل.

- «لمْ يدُم ذلك سوى ثوانٍ». قالت لكي تنهي هذه القصة: «بالكاد كنّا وقعنا على الأرض عندما هربت النّسوة، تحت إمرة تلك الفرنسيّة التي قد عادت إلى طباع الوحوش».

شعر جوست بأنّ فيلوغانيون كان يغلي إلى جانبه.

- «وإلى أين ذهبن؟». قال، وهو مستعدٌّ للذّهاب هناك مباشرةً لكي يُنزل بهنّ العقاب المناسب.

- «كلُّ شيءٍ كان مجهّزاً». قالت أود، وهي تهزُّ رأسها: «كان هناك جذع شجرةٍ مجوّفٌ وسطه، يعوم على طول رصيف الميناء. ركضْن في اتّجاهه، وهربْن نحو اليابسة، وهنَّ يصرخن صرخاتٍ متقطّعةٍ».

- «ألم يشاهدهنَّ أحدٌ. ألم يعطِ أحدٌ أيّ إنذارٍ. ألم يطلق النار عليهنّ أحدٌ؟». زأر فيلوغانيون: «ما الذي كانت دورات الحراسة تفعله عند الأسوار؟».

- «ذلك أنّه في اللّحظة نفسها»، قال صوتٌ من الوراء بالقرب من الباب: «كان هناك شخصٌ يرمي الحجارة على الزّوارق».

كان لوتوريه، بصفته زعيم الحرس قد تدخّل ليسوّغ لرجاله. رمى عليه الأميرال نظرةً صاعقةً.

- وماذا بعد؟

- ظنَّ رجالي أنّ هناك من يحاول سرقة الزّوارق، فأسرعوا من تلك الجهة.

- ومن رمى تلك الحجارة؟

- رأينا هنوداً يهربون في اتّجاه أكواخ الصَّيد.

- «فهمت». قال فيلوغانيون: «نوع من تشتيت الانتباه ريثما يهرب الآخرون. كم من واحدٍ قد هرب؟».

- «تسع هنديّات». قال لوتوريه: «.. و..».

حتى تلك اللّحظة، ومع أنّها صارت خارج الخطر، لمْ يستطع لوتوريه اتّخاذ القرار بأنْ يشي بكولومب، فمنذ زمنٍ طويلٍ، كان الجنديّ العتيق قد توصّل إلى ما يجب فعله معها، وكان قد حاول دائماً حمايتها، وقد تدخَّل مرّتين عند رجاله ليسكتوا عمّا اكتشفوه بخصوصها. كانت تجهل الحسنات كلّها التي قدّمها إليها هذا الملاك الحارس الصّامت.

كان الوقت قد تأخّر، والمذنبون صاروا بعيدين في تلك السّاعة. في الغرفة كانت تُسمع شهقات بكاء سولانج. قيّم فيلوغانيون الوضع للحظةٍ، ثمّ اقترب من السّرير، وقال بصوتٍ ممتلئٍ بالأبّهة كأنّه يأتي من كهف:

- أقدّم إليكِ اعتذاري يا آنسة. لِيحمك الرّبّ، ويشفيكِ.

ثمَّ استدار فجأةً على عقبيه، وخرج محاطاً بصفّين من الوجوه المقطّبة، وقد شعر بالكراهية تُجاه الجميع بلا استثناء.

*

الأمطار النّاعمة التي أتت في غير موسمها ملأت الشّاطئ بعبقٍ رطبٍ لمْ يبلّل الرّمل في العمق. عندما قفزْن من الزّورق، كانت كولومب والهنديّات ما زلن ضاحكاتٍ من الرُّعب الذي سبّبْنه للفتاتين الهوغونوت. كانت كولومب عاريةً، ومغطّاةً بطبقةٍ رفيعةٍ من العرق، والرُّطوبة، وماء المطر، وما تزال منفعلةً من جرّاء الفعل والخطر. شعرت بنفسها سعيدةً لأنّها حصلت على حرّيّتها ليس فقط في المكان الواسع في العالم، إنّما أيضاً في المكان الصَّغير الذي رُفضت لها الحُرّيّة فيه منذ فترةٍ طويلةٍ. فوق ذلك ها هي تتقاسم تلك الحُرّيّة مع الهنديّات، وتراهنَّ بمتعةٍ وهنَّ يتخلّين عن حركات الخنوع القديمة استعداداً للحيطة القديمة الضّروريّة في الغابة، تلمسن الجذوع الحيّة، والأوراق، والجذور، وتدخلن في عالم الأدغال النّابض.

كان كانتان قد ذهب قبلهنّ في الّليلة السّابقة؛ إذْ ذهب مع من راحوا لجلب الماء، وظلّ على اليابسة. كان ينتظرهنَّ في المضيق الضّيّق الذي تحميه القبيلة الوحيدة التي ظلّت بمنأى عن استبداد الغراب في الماضي، ثمَّ مارتان بعده، وهذه القبيلة هي التي ما زالت تقبل، بناءً على طلبٍ من باي لو، تقديم الماء لاحتياجات الجزيرة.

لكنْ إن كان التّوبي يُظهرون بعض الصّداقة مع الفرنسيّين، فإنّهم يظلّون هنوداً مسكونين بمخاوف سحريّةٍ. عندما رأين النّساء الأسيرات يتقدّمن، أمسكوا بالهراوات، وأطلقوا صرخاتٍ، وأبدوا نيّة الشُّروع في القتل. خافت كولومب من مأساةٍ جديدةٍ، فوقفت بينهم وبين النّساء، وصرخت على الزّعيم:

– النّساء بريئات.

– «إنّهن من قبائل تاباخاريس». زمجر الهنديُّ الذي كان لا يزيح عينه عنهنّ: «إنّهنَّ من أعدائنا».

– «اُعْفُ عنهنّ». قالت كولومب: «انظر، لمْ تعُدْنَ من قبائل تاباخاريس، إنّما إماءٌ شبه ميتاتٍ من العمل».

كانت المسكينات ملتصقات ببعضهنّ، فما كنَّ يخشين منه قد حصل، مع ذلك لمْ يكن لديهنَّ خوفٌ؛ إذْ ربّما ارتاح فؤادهنّ لعودتهنّ إلى هذا النّظام، حتّى لو كان بلا شفقةٍ؛ لأنّه نظامهنّ.

– «التاباخاريس»، كرّر الزّعيم بعنادٍ: «قتلوا منّا عدّة مقاتلين. لا نستطيع أن نسامح. سيكون ذلك عكس القاعدة، والأرواح ستغضب منّا».

– «اشْفُق عليهنَّ». كرّرت كولومب.

لكنّها شعرت تماماً بأنّ تلك الكلمة لم يكن لها أيّ معنىً في الظُّروف الحاليّة. بدأ المقاتلون يقتربون للإمساك بالنّساء.

- «لحظة!». صرخت كولومب التي أعطتها تلك اللّحظة الأخيرة فكرةً جديدةً: «إنّهنّ لسْنَ لكم».

نظر إليها الزّعيم من دون أن يفهم.

- «لقد بعتوهنَّ للبيض». شرحت بحميّةٍ: «صارت النّساء لنا، ولمسهنَّ نوعٌ من السَّرقة».

يصرّ الفرنسيّون على إلباس الهنود كسوة الأخلاق؛ كان احترام الملكيّة أوْضح، وأكثر العناصر بُعداً عن مفاهيمهم؛ إذْ لا يحتفظ التّوبي بأيّ شيءٍ لا يكون لجيرانهم القدرة على استعماله، حتّى من دون أن يطلبوا الإذن بذلك، وكانوا غريزيّاً يفعلون الشّيء نفسه مع البيض، ما يستثير غضب هؤلاء، وعلى الرغم من عدم قدرتهم على إدراك الدَّوافع وراء هذا الرّأي، فقد فهموا أنَّ الفعل الذي يسمّيه الغرباء سرقةً يستثير لديهم أكبر أنواع الرُّعب. كانوا يشفقون في سرّهم على هؤلاء التُّعساء الذين جعلتهم الفاقة يعطون كلّ تلك القيمة للجمادات، والبرهان بالنّسبة إليهم كون هؤلاء يأتون إلى الأمريكيّتين للبحث عن أشياءَ طبيعيّةٍ ومتوفّرةٍ تماماً مثل الخشب.

عند ذِكر إمكانيّة السّرقة، ظهر على زعيم التّوبي ضيقٌ حقيقيٌّ. فكّر، ثمَّ نظر إلى السّجينات، وقال لنفسه إنّ ما سيناله من تلك العمليّة سيكون ضئيلاً، والممارسة الصّحيحة لأكل البشر تأمر بألّا يؤكل سوى الرِّجال. ما الذي يمكن أن يفعله إذنْ بتلك النّسوة؟ وكلّما كان يتفحّص هؤلاء المسكينات المنكهات من العمل كانت تتناقص لديه الرّغبة باستهلاكهنّ.

وفي النّهاية قال لكولومب بقرفٍ:

- أتركهنّ لكِ، لكنْ يجب ألّا تبقيْ في أراضينا.

وهكذا انتهى الأمر بمجموعة الهاربات المحمّلات بقِربٍ من الجلد ممتلئةٍ بالطّرائد المدهنة، وبالطّحين، بأن تسلك الطّريق في اتّجاه الغابة.

كان رذاذ الصَّيف يغطّي الأوراق بطلاءٍ جديدٍ يجعل الألوان تلتمع؛ وجحافل أكلة النَّمل والخنازير تتنزّه أملاً في الحصول على سبخات ماءٍ. كانت الهنديّات مشرقاتٍ. لمْ تعد أقدامهنَّ معتادةً على السّير في الأراضي المتنوّعة والخطرة في الغابة، فكنَّ يقْفزن الواحدة تلو الأُخرى بخشيةٍ لذيذةٍ، وهيئةٍ تشبه الرّقص. كان كانتان يمسك بيديه الاثنتين منهنّ، ويسير بثقة وحميّة من يعرف طريق الجنّة.

ناموا مرّتين في الطّريق محتمين بصخورٍ. توقّفت الأمطار في اليوم الثّاني، وعاد الصَّيف ليمدَّ نفوذه إلى السَّماء مثل راشدٍ يرجع للقيام بمهمّةٍ بعد أن ادّعى للحظةٍ أنّه يعْهد بها إلى أطفاله.

خلال فترة السَّير كلّها صعوداً، كانت كولومب تشعر بنفسها كاملة السّعادة. ليس لأنّها كانت فخورةً باعتدائها المجنون، فهي أرادت فقط أن تخيف أود قليلاً، وتركت نفسها على راحتها في تلك الّلحظة التي لعبت فيها لعبة أكلة لحوم البشر، لكنّها كانت على وجه الخصوص سعيدةً لكونها أسقطت القناع، وأكّدت حرّيتها على نحوٍ مزدوج: من خلال كشف هويّتها الحقيقيّة، ومن خلال إظهارها أنّ المرأة لم تكن ملزمةً بأن تتقيّد بتلك السُّجون الأُخرى التي هي التّواضع، والخجل المزيّف، والفساتين ذات الأردان. في تلك الّلحظة، وهي تركض بين طاقات نبات الفربيون والفرانجيبانيه، كان جسدها الذي تعوّد على الصُّعوبات، ودغدغته الألوان الطّقوسيّة جسداً شابّاً ومشدوداً مثل أوراق الكاوتشوك الريّانة. كانت تشعر بنفسها على مفترق جميع الأشياء القويّة، والنّاعمة، والصّلبة، والحنونة. لمْ يكن هناك أيّ مكانٍ في العالم، أو أيّ زمنٍ يمكن أن يعطيها تلك الحُرّيّة، وتلك القدرة، وفي حين كانت الزُّرقة الشّاحبة لمياه الخليج قد بدأت تنعكس فوق الأشجار، شعرت بروحها تكتسب هي أيضاً ذلك الّلون النّاعم الخالي من الظّلال، الذي هو لون السّعادة.

كانت كولومب تعرف الآن جيّداً طرقات السّاحل. أخذت طريقاً أطول، لكنّه أكثر أماناً، يتسلّق ملتفّاً وسْط الصُّخور السّوداء التي تنبت فيها أجمات اليوكا المزهرة. عند الأعالي، وصلوا إلى غابةٍ من الصّنوبر ذي الأعمدة الذي يمكن التّعرُّف إليه بسهولةٍ فوق الجرف. بقي عليهم عندها أن يتّبعوا الوادي الواسع المغطّى بالخبازى وشجر الغبيراء حتّى يصبح بيت باي لو في مرمى نظرهم.

كان الشّيخ جالساً على ما يشبه العرش المصنوع من الجذور الملتوية المرتبطة ببعضها بسعف الرافيا في حين راحت هنديّتان صغيرتا السِّنّ تمشّطان بنعومةٍ شعره الطّويل ولحيته. من رائحة الزّهور والقواقع التي تفوح منه كان من الواضح أنّه قد استحمّ في الحال. كان يستعمل لذلك جرّةً واسعةً من التّراب الممتلئة بالماء المسخّن بالنّار يحبُّ البقاء فيها عدّة ساعاتٍ.

رَوت له كولومب حكاية هروبهم كلّها، وعندما وصلت إلى النّساء التاباخاريات، بدأ يفكّر، وقال:

- أعرف قبيلتهنّ. لقد غيّرت مكانها، ولم يعد يوجد أيُّ أملٍ في الوصول إليها من دون الوقوع على عصاباتٍ من الأواتاكاس الذين يشبهون البغال بعنادهم، ولنْ يتوقّفوا لأيّ سببٍ من الأسباب عن تمزيقهنّ إرباً إرباً.

كانت النّساء قد انتشرن في المساحة الواسعة من الأشجار والأكواخ التي تشكّل مقرّ باي لو. استقبلهنَّ الهنود فيها بطيبةٍ، وقدّموا إليهنّ طعاماً وشراباً.

- «لكن إذا ما أردْن»، قال باي لو: «يمكن لهنّ البقاء هنا. لنْ يؤذيهنّ هنا أحدٌ من عائلتي، ومن الذين يعيشون معنا».

كولومب التي كانت جالسةً عند قدميه، ورأسها على ركبتيه، ظلّت

صامتةً للحظةٍ، في حين راح هو يداعب بنعومةٍ خصلات شعرها الملتفّة الشّقراء.

«لقد وصلت إليّ أخبارٌ عن صديقتك».قال باي لو.

- باراغواتشو؟ هل هي حيّة؟

- نعم، لقد عادت قبيلتها من هنا، وقد مات كثيرٌ منهم في أثناء الوباء.

للمرّة الأولى خطرت في بال كولومب فكرة أنّها هي التي ربّما حملت إلى الهنود من دون أن تعلم المرض والموت.

- هل أستطيع الذّهاب لرؤيتها؟

- قالت إنّها تفضّل أن تأتي هي لزيارتك. سوف أعلمها أنّكِ هنا.

أعادت كولومب وضع رأسها على ركبته. كان هناك طائرا طوقان يراقبان المشهد بجدّيّةٍ، وهما يقفان على صندوقٍ منحوتٍ آتٍ من أوروبّا، وقد تجذّر الآن في الأرض وسط السَّراخس وشجيرات الجهنّميّة.

زوال الخطر، وتعب الطّريق الطويلة، والانفعال الذي سبق الرّحيل، كلّ شيءٍ بدأ يتلاشى الآن في الرُّطوبة الهادئة لتلك الغابة. عاد فِكر كولومب الذي هدأ نحو الجزيرة، محلّ القرف الذي جعلها تولي ظهرها لها، حلّ الآن ضبابٌ من الحنين انبثقت فيه صورة جوست الحبيبة. في أثناء تحضيرها لهروبها من الجزيرة، لمْ تكن قد أدركت إلى أيّ حدٍّ حرقت سفنها كلّها، ومنعت نفسها عن العودة، وبالتّالي عن رؤيته مجدّداً. فجأةً انتقلت من ثمالة الخلاص إلى فكرة أنّها كي تكون حرّةً وكاملةً، قد اقتطعت من كيانها نصفه، وهكذا في تلك اللّحظة، وجدت نفسها مقيّدةً بسلاسل الرّغبة بأن تجتمع به من جديدٍ.

الفصل 9

منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي شهد القطيعة مع البروتستانت، والاعتداء على أود، ورحيل كولومب مع الهنديّات، لمْ يخرج فيلوغانيون من مقرّ الحاكم. كان هناك خادمٌ يقدّم له الشّراب والطّعام من دون أن يراه، أو يوجّه إليه الكلام. لمْ يقبل دخول أيّ إنسانٍ عنده، وحتّى جوست لمْ يشكّل استثناءً.

حبست الجزيرة أنفاسها. ورشة العمل كانت تتقدَّم ببطءٍ، بلْ يمكن القول إنّه لم يعد يحصل فيها أيُّ شيءٍ. فترة الحَرّ التي تلت فاصل الأمطار القصير توافقت مع تلك العطالة، وأعطتها طابع النُّعاس السَّميك والكسول. كان الرّجال ينامون في زوايا الظّلّ، أو يحلمون جالسين على الصُّخور، وأقدامهم في الماء. كان يبدو أنّهم ينتظرون إشارةً غامضةً، مثل: زمجرةٍ من الأرض، أو المياه، كي تأتي وتدلّهم على ما يجب أن يفعلوه، وتقول لهم بخاصّةٍ لماذا كانوا هناك. كان حصن كوليني جميلاً، وله حضورٌ، ويثير الإعجاب من نواحٍ مختلفةٍ، وينتصب أمامهم مثل أحجيةٍ؛ إذْ يبدو كأنّه لمْ يُصمّم ليحميهم من أعداءٍ غير مُؤكّدين، بلْ لحمايتهم من الشَّمس.

في المساء كانت الجزيرة تمتلئ بالحياة. مع ذلك ظلَّ الوضع بعيداً عن

التّسليات الجريئة التي كانت تتمّ في زمن الغراب. جثّته التي ما زالت تتدلّى مع جثّة شريكه من المشنقة التي عذّبهما فيلوغانيون فيها، لمْ تكن فقط تقيس الزّمن الذي انقضى بمقياس تفسُّخها، إنّما كانت رمزاً لأيّام السُّكر والنّسيان من خلال العشق، وهكذا ما كان يمرُّ أحدٌ أمام هذه الأشباح تحت الممرّ الغربيّ من دون أن ينزع قبّعته، أو يتنفّس عالياً.

منذ الافتراق الكامل بين الحزبين، لمْ تعد اللّيالي تضجُّ بالمداعبات، إنّما بالمؤامرات، والمشاورات، وأحياناً بالمراهنات. كان الكاثوليك ما زالوا أكثر عدداً، ويتجمّعون في جوار مقرّ الحُكم، عند المرفأ، أو عند مدخل الحصن. كانوا يحبّون أن يراهم الآخرون على شكل مجموعاتٍ؛ لأنّهم ما كانوا يتفوقّون على الآخرين سوى بالعدد. فيما عدا ذلك ما كان هناك شيءٌ يسير على ما يرام. ضمن هذه الفئة وعشوائيّاً، اكتُشفَ مؤمنون صادقون عارفون تماماً بأمور العقيدة، وبقرارات البابا، ويحنّون للفخامة الرّومانيّة، والقدّاس والتّقديس بأشكاله كلّها، ويحبّون خاصّةً الاعتراف لكثرة ما يقترفون من خطايا، لكنّ أولئك كانوا نادرين مقارنةً مع البقيّة، في حين كان الآخرون لا يتورّعون عن القتال من أجل العذراء، أو من أجل قدّيسٍ ما؛ لأنّهم يعتقدون أنّهم يدينون له ببقائهم على قيد الحياة.

كثيرون منهم كانوا هناك بمحض المصادفة، ويربكهم كثيراً أن يفسّروا خيارهم، ومع أنَّ هؤلاء كانوا أقلَّ تعصُّباً من البقيّة، إلّا أنّه كان يُنظر إليهم بسبب فتورهم هذا على أنّهم أكثر الموجودين خطراً، ولذلك اختاروا، من أجل تخفيف قبضة كمّاشة الشّكّ التي كانت تخنقهم، أن يصرخوا بقوّةٍ، وعلانيةٍ، كراهيةً لم يكونوا يشعرون بها، ثمّ ما لبث الاحتفال الجماعيّ بها أن جعلها تملؤهم تماماً.

الأكثر خطراً كان غياب القائد. لعب دون غونزاغ هذا الدّور بحُكم

الضّرورة، لكنْ بدأ يثير ضحك الآخرين، بلْ صار يقلقهم؛ لأنّه بعد أيّ نقاشٍ طويلٍ نوعاً ما، وأيّة سهرةٍ هادئة كان يقع علناً في خضمّ أحلام شعريّةٍ سرعان ما تصير شكلاً من أشكال الشّخير العالي. وللتّوصُّل نهائيّاً إلى نزع سلاح ذلك الحزب الذي طرح نفسه على أنّه المعبّر عن الحقّ، وعن العروش، لكنْ لا بدّ من عقيدةٍ ونهجٍ، وقد وصلت الأخبار أنّ مجمعاً كبيراً قد انعقد في ترانت برئاسة البابا، لكنّ أعماله امتدّت إلى ما لا نهايةٍ، وما استطاع أن يمنح المؤمنين بالكنسية الرّومانيّة رسالةً واضحةً عمّا يجب أن يعتقدوا به، أو يفعلوه.

هكذا بدا أنَّ العنف هو الأمل الوحيد، واللُّحمة التي تحقّق تماسك هذا الحزب الجلف، وللحفاظ على الأفكار متّقدةً، كان ذكر العذاب والجرائم التي يمكن أن يوقعوها بالبروتستانت أكثر فعاليةً من الصّلوات، كما أنّهم جهدوا في التّمرين على التّجسُّس على الأعداء ووضع الخطط من أجل التّنكيل بهم. هذه المهام أضْفت على تلك العمليّة الطّابع البسيط والمريح لحملةٍ عسكريّةٍ.

أمّا البروتستانت، فقد كان عددهم أقلّ، وإن كانوا أكثر قوّةً بسبب تحوُّل الآخرين من الكاثوليكيّة إلى عقيدتهم، قد تجمّعوا في الجانب الآخر للحصن. على هذه الجزيرة التي تبلغ مساحتها عشرة فدادين، التي كانت تفصل بين جزئيها مئتا خطوةٍ فقط، كانت هناكَ خطوط غير مرئيّةٍ لمْ يلحظها المعلّم آمبيري في تقسيماته الكاداسترائيّة، لكنّه كان قد كتب شهادة ميلادها بعد النّدوة حول المناولة، وقد حدّدت هذه الخطوط حدود معسكر كلٍّ من الجانبين. عند البروتستانت، كان القادة يحتفظون بكلّ قواهم: دوبون يدير كلّ ما هو دنيويّ، جاهز دوماً، يعطي الأوامر ويتحقّق من تنفيذها، في حين كان ريشير مسؤولاً عن كلّ ما يتعلّق بالرّوحانيّات،

ومسلّحاً بعقيدةٍ كالفِنْ بعد أن طرد الشّكّ إن لم نقل الشّيطان، وكان قادراً على إدارة طقوس الأسرار المقدّسة، وتزعُّم الصّلاة.

مع ذلك لم يكن هذا الحزب قد تمنّى القطيعة، ولو كان سببها قد يعدم تسامحه، فقد أعاقت الأزمة امتداد تأثيره، وصار عدد الهوغونوت معدوداً. أثار انكفاء فيلوغانيون، وعدم وضوح الموقف، تأمُّلاتٍ طويلةً، ونقاشاتٍ على مستوى القمّة لدى البروتستانت. كان ريشير ميّالاً لاتّخاذ موقفٍ هجوميٍّ، ربّما بسبب المذلّة التي خضعت لها ابنة أخيه، وكان يناصر فكرة العودة إلى التّبشير، وإلقاء خطاباتٍ عامّةٍ يدعو فيها المتردّدين للمشاركة، كما يناصر فكرة التّطلُّب، والمباغتة، والاستفزاز، وهكذا برأيه لن تلبث جدران أريحا الحزب الكاثوليكيّ أنْ تتهاوى أمام الأبواق[1]؛ أمّا دوبون، وعلى أنّ تلك لمْ تكن طبيعته، فقد ناصر فكرة الحذر. كان يجب برأيه تدعيم قوى البروتستانت، والقيام خفيةً بتحويل عدّة أشخاصٍ عن عقيدتهم في أوساط المعتدلين الذين لم يختاروا معسكراً محدّداً بعد. وخلال ذلك الوقت، اقترح إرسال إحدى البواخر التي أتت بهم إلى جنيف من أجل طلب الدَّعم، وعدم القيام بالهجوم إلّا بعد وصول تلك القوات الدّاعمة.

في النّهاية، اتّفق الجانبان على حلٍّ وسط. ففي البداية يقوم القسّيس الثّاني شارتييه بالذّهاب إلى جنيف ليطلب رأي كالفن حول هذه الأزمة، وفي الوقت نفسه يقوم بتجنيد قوّاتٍ جديدةٍ معتادةٍ على الأسلحة، وعلى الصّلوات، وقادرةٍ على أن تستعمل مع الكاثوليك اللّغة الوحيدة التي يفهمونها؛ أي: لغة القوّة. وتلبيةً لتعطُّش ريشير لفعل شيءٍ ما، قُرّر أن يحتفظ البروتستانت خلال هذا الوقت بزمام المبادرة في الأرض التي كان

---

(1) إشارة إلى رواية العهد القديم في حصار يوشع بن نون لمدينة أريحا، وانهيار أسوارها بنفخ الأبواق. (م).

تفوّقهم فيها أكيداً، فبما أنّهم كانوا الوحيدين الذين لديهم نساءٌ وقساوسةٌ، ما كان أحدٌ يستطيع منازعتهم الحقّ في القيام بعقد الزّيجات المقدّسة، وقد أفهمهم ريشير أنّه خلال أسبوعين من الزّمن سوف يقوم علناً بعقد زيجتين جديدَتين.

*

أكثر النّاس عزلةً في أيّام اللّؤم والانتظار هذه كان بلا شكٍّ جوست. ما كان هناك أحدٌ يشعر أكثر منه بأنّه قد أضاع كلَّ شيءٍ. كان فيلوغانيون بعد حكاية الاعتداء قد أخذه جانباً، وسأله بلهجةٍ جليديّةٍ أن يؤكّد بشرفه ما قيل بخصوص كولومب. نفّذ جوست، وهو يشعر بالموت داخل روحه. لمْ يُرد الأميرال أن يسمع أيّاً من الأسباب التي جعلت جوست يكذّب طيلة ذلك الوقت، وبالتّالي لمْ يقل له جوست أيّ شيءٍ منها. انسحب فارس مالطة عندها، وعلى وجهه تعبيرٌ مرعبٌ هو مزيجٌ من عدم المبالاة، والاستنكار، والاحتقار، وقد شعر جوست بنفسه مسحوقاً من جرّاء ذلك.

فوق ذلك، فهم تماماً بأنّ كولومب قد ذهبت نهائيّاً. كان حديثهما الأخير قد بدا له مثل فرصة أخيرة كانت بمتناول يده لمنعها من الذّهاب. نظر إلى الأدغال حول الجزيرة بالرُّعب نفسه الذي شعر به يوم نزلوا من الباخرة للمرّة الأولى. كان لديه الشُّعور نفسه بوجود طنينٍ وحضورٍ غير مرئيٍّ، وحيواتٍ مرعبةٍ تستشرس كي تبقى منسيّةً، وكانت عبثيّة هذه الحيوات تهيمن على صدره وتزعجه. الآن صار لديه فوق ذلك كلّه شعورٌ بالنّدم؛ لأنّه سلّم لها الكائن الذي يهمّه أكثر من أيّ شيءٍ آخر في العالم. كان خيار كولومب قراراً يائساً، وتعبيراً عن خيبة أملٍ، وقد رأى نفسه السّبب الوحيد لهذه التّعاسة.

ما كان يستطيع أن يجد ملجأً لا في الحزب الكاثوليكيّ مع تهريجات

دون غونزاغ، ولا في الحزب البروتستانتيّ الذي كان يشعر به مُعادياً. هام على وجهه أيّاماً طويلةً فوق الأسوار، بالقرب من ورشته التي هجرها. هذا العمل الإنسانيُّ الذي فقد معناه بسبب معارك البشر كان بمنزلة ترسُّباتٍ لكآبته، وكان يحبّه كما هو. في بعض السّاعات، عندما تكون الشّمس عاليةً، وعندما يكشف جبل خبز السّكر والغابات جميعها على السّاحل عن تداخلهم المميت وفوضاهم، كان جوست يشعر بالفخر؛ لأنّه ينتمي إلى الفصيلة الوحيدة القادرة على تنظيم الطّبيعة على هواها، وجعل الحجر والخشب يرسمان الصّورة المنتظمة، والصّافية، والمتوازنة للكمال. كلّ دروس الأميرال، سواءٌ تعلّقت بأفلاطون أم بالتّحصينات العسكريّة كانت تبدو له من فعل الإنسان على هذه الأرض. لكنْ في لحظاتٍ أُخرى، وفي المساء خاصّةً، عندما تكون هناك سحابةٌ كبيرةٌ ترخي سدولها على زُرقة المياه، كان جوست يمتلئ قرفاً. كان يتأمّل بحزنٍ ظلّ الأسوار البنفسجيّ، وتعاكس الضّياء الذي يُبرز قبل حلول اللّيل النّتوءات غير المنتظمة في أطراف السّور، وأثر المقصّات في الحجارة، والعيوب في صفّ وتشذيب الحجارة. ما الذي كانوا قادرين عليه، هو وأشباهه، حتّى يبنوا الجدران، ويفصلوا، ويقسموا، ويفرضوا بالقوّة؟ بدأوا العمل في الحصن عندما وصلوا، ثمّ أحاطوا الجزيرة بالمتاريس، وبنوبات الحراسة ليوقفوا انهياره. الآن صارت الجدران تُستعمل كحدودٍ لتفصل بين فريقين، وربّما سيقومون غداً بالتّقاتل من أجل الاستيلاء على هذه الحدود.

ظلّ يصعد الأسوار طيلة اللّيل، راح يصغي إلى الصَّرخات والنّفثات التي يحملها الهواء الرّطب من اليابسة. هل كانت كولومب هي التي تناديه؟ عندما كان القمر يصعد إلى كبد السّماء، كان الحصن غير المكتمل يكتسب شكل الأطلال. تذكّر برج الحراسة في كلامورغان، ونباتات الغار

المستلقية التي تحيط به وخنادقه الفارغة، وإنْ كان في النّهاية يغطُّ نائماً وهو يستند إلى المتراس، فذلك لكي يفلت من أحلامه السّيّئة.

في بعد ظهر أحد الأيام، وفي أثناء قيامه بجولته على غير هدىً، وحيداً كالعادة في طريق نوبة الحراسة بالجهة الشّماليّة، سمع أصواتاً صافيةً في الأسفل. انحنى بدافعٍ من الفراغ، وليس من الفضول. على الطّريق الذي كان يحفُّ بالبحر، في درب العزلة الذي كان كثيراً ما يمشي فيه مع كولومب، كانت هناك امرأتان. في اللّحظة التي تعرّف فيها إلى أود ووصيفتها لمْ يعُد بمقدوره التّراجع، فقد أبصرتاه.

منذ مسألة الاعتداء، لمْ يكن جوست قد عاد إلى زيارة البروتستانتيّة الشّابّة، ولعدم قدرته على تحليل مشاعره تُجاهها، عمل جهده لطردها من فكره. كان غاضباً عليها؛ لأنّ رحيل كولومب كان عن طريقها، وربّما بسببها. لمْ يكن يتذكّر دونما غضبٍ وخجلٍ حوارهما بعد الاحتفال. لكنْ ما كان يجعله يحجم أكثر من أيّ شيءٍ آخر عن رؤيتها، كان بلا منازعٍ تعليق كولومب عندما قالت له: أنت تحبّها. كان يرفض هذه الفكرة خاصّةً؛ لأنّه لمْ يكن متأكّداً تماماً من أنّه لا أساس لها.

فوجئت أود عندما رأت قمّة شعر جوست الأسْود فوق فتحات الأسوار. شدّت على ذراع سولانج وتوقّفتا معاً. عندها لحظ جوست على بُعد عشر خطواتٍ وراء المتنزّهتين قامة جنديّين من الذين انتقلوا إلى البروتستانتيّة كانا يقومان بحراستهما، تظاهرت أود للحظةٍ أنّها تتكلّم، لكنّ الجنديّين كانا على وشك الوصول إليهما؛ اكتفت بنظرةٍ طويلةٍ رمتها على جوست مثل لومٍ، وسؤالٍ، ووعدٍ. بعدها استأنفت نزهتها بخطواتٍ واثقةٍ.

فكّر جوست في المساء بذلك اللّقاء، وغضب من نفسه لأنّه اضطّرب. بعد العشاء الذي تناوله وحْده وراء مقرّ الحُكم، توصَّل إلى طرد أود من

أفكاره، وفرح بذلك. على الأقلّ ما كان الحزن الدّفين يتطلّب منه قراراً. الحزن يهدهد، ويحوّل من يستولي عليه إلى رضيعٍ نهمٍ مرتبطٍ بالثّدي الذي يطعمه. لكنْ كُتب عليه بلا شكٍّ ألّا يكون ذلك العزاء متاحاً له، فعندما وصل لينام في الورشة التي جعل منها مقرّاً له، وجد أحد الجنديّين الملحقين بحراسة أود ينتظره في العتمة جالساً على كتلةٍ مربّعة الشّكل.

كانت الأسوار بمنزلة الخطّ الأخير بين المعسكرين. صحيحٌ أنّه قلّما يمكن رؤية متنزّهين فيها، لكنْ كان من المسموح أن ينتقل أبناء الطّوائف من الدّيانتين بحُرّيّةٍ فيها. لذلك لمْ يظهر القلق على الجنديّ.

- «عندي رسالةٌ». قال لجوست.

كان الجنديُّ الجلف الآتي من مقاطعة سافوا بسيطاً ومبتسماً. كان يحبّ الجميع ما عدا فيلوغانيون الذي كان قد قسا عليه، وقد استطاع دوبون أن يستثمر بمهارةٍ هذا الشّعور المعادي.

- القسّيس ريشير يريد أن يتحدّث إليك. الأمر مهمٌّ على ما يبدو. هل تريد أن تتبعني؟

تماماً كما كان يحصل في زمن الغراب، كان هذا النّداء الصّادر من العدوّ يحمل من الإغراء بقدْر ما فيه من الخطر. لكنّ جوست لم يكن في وضعٍ يجعله يريد إنقاذ أيٍّ كان، وقد قبل بنوعٍ من عدم المبالاة، وليس بقناعةٍ.

عندما دخل جوست إلى الجُحر البروتستانتيّ بعد الجنديّ، استطاع للمرّة الأولى أن يدرك عمق التّخوّف الذي يرتسم بين الطّرفين المتعارضين. على طول الطّريق كانت هناك مجموعةٌ مبعثرةٌ من الأشخاص المسالمين ترتسم على وجوههم أمارات الحلم، أو النّوم، لكنّهم كانوا في الحقيقة مكلّفين بإعطاء إشارة الإنذار في حال تغلغل الأعداء. أعطاهما أحد الجنود كلمة سِرٍّ استطاعا بفضلها أن يكملا طريقهما بسلامٍ. وراء المعقل

الشّرقيّ كان معسكر الهوغونوت قد انتظم. تجمّع الرّجال حول نار الطّبخ، وقد وضعوا أسلحتهم جانباً مثل قطعاتٍ حربيّةٍ في معسكرٍ داخل ساحة معركةٍ. رافقت النّظرات السّيّئة جوست؛ لأنّهم كانوا يعرفون أنّه الذّراع اليمنى لفيلوغانيون.

استفاد دوبون من توقُّف الورشة، فجعل العمّال يعملون لصالحه. كانوا قد بنوا أكواخاً من الحجر- وقاعةً كبيرةً تُستعمل لاجتماعات الزُّعماء. لحظ جوست باستنكارٍ أنَّ عدّة بلوكات من الحجر المقصوص التي كانت مهيّأةً لإنهاء بناء الحصن نُقلت إلى هنا، ووضعت في الهيكل الذي بُني على عَجلٍ لمقرّ القيادة المعاكس هذا. أُصيب جوست بدهشةٍ كبيرةٍ عندما وصل الجنديُّ إلى مواجهة هذا البناء فالتفّ حوله، واستكمل طريقه، ليصل إلى بناءٍ صغيرٍ جديدٍ يستند إلى سور الحصن تغطّيه سعف النّخيل التي قطعت في الحال. كانت هناك شرفةٌ قد مُهّدت بين فتحة ذلك المسكن وبين البحر، ووضعت فيها منضدةٌ ومقعدان خشبيّان. كانت أود تنتظره هناك وحْدها، وقد أضاءها سراجٌ موضوعٌ على الحافّة. أشارت إليه أن يجلس قُبالتها، في حين اختفى الجنديُّ في العتمة.

جلس جوست، ونظر برهةً حوله. كان البحر قريباً جدّاً يمكن سماع ارتطامه بالصُّخور على بُعد ذراعين، أو أكثر. كان الكوخ الجديد مضاءً ومفتوحاً من جهة الأسوار، ويبدو بوضوحٍ أنّه فارغٌ؛ أمّا من جهة المعقل، فكانت تتصاعد من كتلة الهوغونوت المجتمعين حول النّار همسات لا تتوقّف من الخُطب الدّينيّة، أو من الصّلاة. كان المكان قد اختيرَ بعنايةٍ ليناسب لقاءً من هذا النّوع، فهو لا يخدش الحياء؛ لأنّه مكشوفٌ لنظر الجميع الذين كانوا يستطيعون أن يشهدوا بتواضع الموجودين فيه، لكنّه كان أيضاً مقفراً ومعزولاً بما يكفي لضمان حُريّة الكلام الذي يمكن ألّا يسمعه أحدٌ في حال بقي خفيضاً.

بدأت أود الكلام:

- «أنا سعيدةٌ لأنّك أتيت». ولكي تقطع الطّريق أمام أيّ اعتراضٍ أضافت: «عمّي هو الذي أرسل في أثرك لأنّه وجد أيضاً أنّه من الضّروريّ أن ألتقي بك».

لمْ يكن جوست مرتاحاً بحيث يستطيع الإجابة. قال لنفسه إنّ الظّروف المحيطة تفسّر ضيقه، لكنّ جمال هذا الوجه شديد الصّفاء الذي تبعثرت عليه إشعاعات الضّوء والظلّ العميقين كان وراء الشُّعور الصاعق الذي غمر روحه. استأنفت أود الكلام:

- كنت أريد أن أقول لك...

ثمَّ أظهرت بعض التّردُّد لتطمئنه بتعبيرها عن الضّيق الذي كانت تشعر به هي نفسها:

- .. إنّي أشعر بالأسف لما حصل.

عدّل جوست من جلسته، وكان مستعدّاً بدوره لأنْ يعبّر عن أسفه، لكنّها قاطعته قائلةً:

- لنترك الحديث عن هذا الموضوع. ليس الحدث بحدّ ذاته ما يهمّني، إنّما نتائجه: عزلتي الإجباريّة، صمتك، الملامة التي يمكن أن تكون خضعتَ لها. بكلمةٍ واحدةٍ، لتعلم فقط أنّني أعدُّكَ بريئاً، وما زلت أحتفظ تُجاهك بكلّ... احترامي.

في هذا الخطاب الذي بدا من الواضح أنّه قد حُضّرَ مُسبقاً، ظهر من وقتٍ إلى آخر بعض التّردُّد من النّوع الذي يضيفه الممثّلون الذين يعرفون نصّهم على نحوٍ كاملٍ، لكنّهم يريدون الإيحاء للجمهور أنّهم يخترعونه الآن، وقد اختيرت الكلمة الأخيرة ببطءٍ مثل يدٍ تجسّ الثّمار في صحن فواكه.

- «يشرّفني ذلك». قال جوست الذي طمأنته هذه الإجراءات: «صدّقيني، لو كان بمقدوري منع هذا التّعدّي...».

- «الأخطر في ذلك الموضوع ليس التّعدّي على شخصينا». قاطعته أود: «قلت لك هذا. لقد نسيت الأمر. لكنّ هذا الفعل غير المسؤول قد سرّع الفرقة بين النّاس على الجزيرة. المسيحيّة التي نمُثّلها تعطي صورةً محزنةً عن الطّلاق بين أفرادها».

كان ذلك هو تماماً ما يظنّه جوست، فهو قد لام كولومب لأنّها لمْ ترَ شيئاً آخر سوى مشاعرها، وحبّها، وكراهيتها، ولمْ تخضع إلى ما تفرضه المصلحة العامّة العليا.

- «صار الإخوة الآن مستعدّين لتمزيق بعضهم». قالت أود.

بهذه الكلمات، بدا لجوست أنّ فراق الأخ والأخت الذي تألّم منه كثيراً في الأيّام الأخيرة قد فقد أهمّيّته أمام قطيعةٍ أخطر طالت مشاعر الأخوّة التي تربط بين أفراد المجموعة البشريّة الهشّة. كانت البروتستانتيّة الشّابة بثوبها المزرّر، وبياقة الدّانتيل المرهفة والمحتشمة فيه، وبوضعيّة جسدها الممتلئة بالاحترام وبالغموض، تذكّر نوعاً ما بترتيب الحصن بجدرانه التي تنثني بالتّتالي، وبالفتحات المطليّة بالقار فوق أسواره، وبقوّته الأنيقة، لكنّ ذلك كلّه كان يشكّل المعادل العكسيّ لتلك الأدغال المهملة، والفاسقة والخالية من القوانين، والممتلئة بأكله لحوم البشر، التي خضعت كولومب لفوضاها.

- «أترى؟». قالت أود مستأنفةً الكلام: «لا يوجد أشخاصٌ كثيرون يعرفون ويشعرون بما نقوله هنا. إنْ كان هناك ما يمكن أن يجمع في يومٍ من الأيّام المسيحيّين كلّهم على هذه الجزيرة، فإنّ ذلك سيتمّ من خلال دعم العلاقات بين البشر ذوي النيّة الطيّبة، وأنت واحدٌ منهم».

عندما وضعت أود جوست داخل ذلك المستوى من التّعميم، شعر أنّه يستطيع الموافقة على كلامها وهو مرتاح، بلْ وأنْ يزيد عليه. قال:

- أجل، أنتِ على حقّ! لمْ يضعْ كلّ شيءٍ، وعلينا أن نشكّل سدّاً في وجه المتعصّبين، وإنّني واثقٌ من أنّ الأميرال نفسه ينتظر من يبرهن له أنّ الحُبّ بين النّاس أقوى من المعارك التي تمزّقهم.

- «الحبّ... تماماً». أكّدت أود، وهي تتّخذ بدورها موقف الحماسة الذي جعل التماع عيونها يتضاعف: «الحبّ بين البشر».

اضطّرب جوست عندما سمع هذه الكلمة الأخيرة، ثمَّ حلَّ استرخاءٌ مفاجئٌ جعلهما يضحكان كلاهما بنوعٍ من الوَجل. عادت أود إلى الكلام كي لا تترك لجوست وقتاً يتساءل فيه عن انفعالاته:

- ما يلزم هو أن نأخذ الأفضل من كلّ جانبٍ لكي نكون مثالاً يُحتذى.

وبما أنَّ مخطّطها كان يقوم على الاستفادة ممّا يبدو مُلحّاً، حتّى لو بالغت في ذلك، فقد أبدت نوعاً من التّردُّد على طريقة من يقرّر أن يدخل في النّار، ثمَّ هتفت:

- لقد قرّر عمّي أن يعقد زيجاتٍ أُخرى مهما حصل، وسيكون من المؤسف ألّا تقرّب هذه الزّيجات من كانوا متباعدين، وأعني بذلك مجموعتي المسيحيّين الذين يمزّقون بعضهم على عكس وصايا المحبّة التي قدّمها لنا يسوع.

لم يفهم جوست تماماً ما قصدته بذلك.

- هل قرر عمّك من هُم الذين سيزوجهم؟

- «لا». قالت أود: «تلك هي النّقطة. إنّه سيعقد الزّيجات التي سوف تُعرض عليه، لكن بسبب عدم وجود علاقات مع... من هُم في الجهة

المقابلة، فإنّه سيضطرّ للجمع بين أزواج لا ينتمون إلّا إلى ديانتنا، لكنّ ذلك لن يساعد أبداً في تقريب وجهات النَّظر».

- «فهمت». وافق جوست على كلامها، وأضاف وهو يعاكس ذلك التّأكيد: «ماذا يجب أن أفعل كي أذهب في الاتّجاه الذي تتكلّمين عنه؟».

- يجب أن تجد رجالاً من مجموعتكم يتزوّجون فتياتنا. أقنِع الأميرال، أو أيّ شخصٍ آخر لديه تلك السُّلطة بأن يسمح لهم بعقْد هذه الزّيجات.

عبس جوست؛ إذْ لمْ تكن لديه القدرة على الوصول إلى فيلوغانيون، وكان يعرف أنّ دون غونزاغ والمتعطّشين إلى الدّماء الذين يحيطون به لن يقبلوا بأيّ شيءٍ آخر سوى الخطف.

- أخشى أنّه لا توجد أيّة فرصةٍ للتّوصُّل إلى ذلك.

- هل وصلت بهم الكراهية إلى هذا الحدّ؟

من دون أن يجيب، بدرت عن جوست إيماءةً موافقةً على تلك الفكرة.

التزمت أود بصمتٍ كانت قد هيّأت لوجوده، ولذلك فقد بدأت على نحوٍ طبيعيٍّ، وبنوعٍ من الارتياح، الاستنتاج الذي توصّلت إليه، الذي كان هدفها في الوقت نفسه.

- «في هذه الحال». قالت بجدّيّة: «على كلّ واحدٍ منّا أن يلتزم بمسؤوليّاته. عندما لا يكون الكلام كافياً يجب أن نفعل مثل يسوع، ونبشّر بالأفكار عن طريق القدوة».

كانت نغمة المزمور رقم 104 التي يغنّيها الرّجال بصوتٍ خفيضٍ تتصاعد من جهة النّار. قالت أود، وهي تحدّق بعمقٍ في عيني جوست:

- لو أنّ الأجمل، والأعقل، والأكثر جرأةً من الجانبين تقدّموا، وهُم مُفعمون بالغفران والسّلام، ولو كانت إرادتهم أن يجسّدوا باتّحادهم معاً السّلام، والنّظام، والأخلاق، والحبّ...

كان فمها، وهي تلفظ هذه الكلمات، قد استعاد الشّكل الذي رآه جوست في المرّة الأولى عندما حملها خارج المركب، الذي أوحى إليه كثيراً بشكل القُبلة. اضطّربت بعدها، ولكي تنهي كلامها قالت بسرعةٍ مثل وشوشةٍ:

- يبدو لي أنّ من الممكن إنقاذ الجزيرة.

بقيا صامتين وقد غمرهما نسيم البحر، والأصوات المكتومة. نظرا إلى بعضهما برهةً طويلةً عبر الهالة المضيئة لشعلة السِّراج. كانت هناك حشراتٌ هوامٌ صغيرةٌ تدور حول الّلهب، مثل أرواح أطفالٍ يرقصون بنفاد صبرٍ في المطهر.

بعد أن قيل ما قيل، وسُكت عمّا لا يجب أن يقال، نهضت أود وتظاهرت بأنّها لمْ تعد تستطيع أن تحتوي الانفعال القويّ الذي كان يسكنها. رمت بكلمة وداعٍ قصيرةٍ، وذهبت بخطواتٍ متعجّلةٍ نحو القاعة الكبيرة حيث يُفترض أن يكون عمّها؛ أمّا جوست الذي كان محتاراً بنفسه، فكان أمامه الوقت كلّه ليتأمّل جسمها النّحيل، والثّنايا الطّريّة لثوبها الواسع، والحفيف النّاعم للحم يديها تحت أكمام الدّانتيل. كان قد فقد الاهتمام بالعُريّ الفجّ والبرّيّ الذي يوحي له بالرُّعب مثل الأدغال، وشعر بانفعالٍ قويٍّ عند رؤية هذه المرأة المزينّة. كانت عبقريّة الحضارة كلّها تكمن في تلك القدرة على جعل الجنس يتفتّح من خلال إخفائه، ويتكشّف عبر تغطيته، وجعل تأثيره يصل إلى الرّوح من خلال ما هو مصطنع، ومن خلال التّواضع.

عندما رافقه الجنديّ إلى الجانب الكاثوليكيّ، كان لدى جوست الانطباع المرعب أنّه قد وصل إلى المنفى.

الفصل 10

رحل شارتييه في اتّجاه أوروبا في بداية حزيران مستفيداً من الرّيح المواتية. الباخرة التي أقلّتّه كانت الأصغر ضمن الأسطول الصّغير. شعر الكاثوليك بسعادةٍ غامرةٍ لرؤية المعسكر المعادي يضعف، ولو قليلاً، ولذلك قبلوا أنْ يمدّوا الباخرة بالماء والطّعام. رافقها البروتستانت بعيونهم، وهُم ينشدون المزامير حتّى غيّبها الأفق الممتلئ بالسُّحب. كانت آمالهم كلّها مرتبطةً بكالفِن الذي كان على القسّيس أن يذهب إليه بمجرّد وصوله. ما كانت الأمطار ستتأخّر مع كلّ ما يحمله موكبها من وحلٍ، وارتعادٍ، وعفونةٍ. لكي يخلّص ريشير قطعاته من اليأس الذي كان يهدّدهم، ألحَّ على العودة من دون تأخيرٍ إلى المبادرة، فقُدِّمَ موعد الزّيجات. ثمانية أيّامٍ كانت كافيةً لتنظيم الاحتفال.

من البدهيّ أنّ الهدف من هذا الاحتفال لمْ يكن فقط اتّحاد الفتاتين الباقيتين مع الحرفييّن الاثنين اللّذين اختيرا من قِبل دوبون. وعلى أنّ الفتيات السّابقات كنّ سميناتٍ، ما كان يبشّر بازدياد عدد الحزب البروتستانتيّ، فقد كان من الواضح أنّ تلك الوسيلة لا يمكن أن تستعمل على المدى القصير من أجل تشكيل كتلةٍ في وجه العدو. القيمة الحقيقيّة للزّيجات كانت القدوة. لمْ يعد الأمر يتعلّق كما في البداية بإلهاء المستعمرين عن الرَّذيلة؛

لأنَّ ميّزة الصّراع الدّينيّ أنّه استطاع على الأقلّ إلهاءهم عنها. كان زعماء الهوغونوت يطمحون لأن يُظهروا للجميع، وخاصّةً للحزب الآخر، أنّهم وحدهم القادرون تماماً على استدعاء الرّبّ، وتأمين الخلاص. كنتيجةٍ لذلك كان من المهمّ ألّا تقتصر الاحتفاليّة على المقرّ البروتستانتيّ، إنّما أن تُرفع راية الإيمان الحقّ أمام أعين الجميع، وكان المكان الوحيد القادر على خلق هذا الصّدى هو الحصن. كان شاهداً حياديّاً يهيمن بكتلته على قطعتيّ الأرض المتنازعتين، كما أنّ ارتفاع القلعة يجعل منها مذبحاً مناسباً، هناك حيث السّماء قريبة.

قبل الاحتفاليّة بيومين، قام دوبون بتكليف حارسٍ أكثر جرأةً من الآخرين، ولا يعرف بوجود أعداءٍ بين الأعداء بأن يحمل خبر الاحتفال إلى مقرّ الحاكم. هناك قدّم رسالةً إلى حارسٍ اسكتلنديٍّ، ورجع وهو يروي أنّهم استقبلوه جّيداً، لكنّ فيلوغانيون حسب ما فهم منهم كان ما يزال منكفئاً على نفسه.

لمْ يكن دوبون يعرف كيف يفسّر ذلك الاختفاء. لا شكّ في أنّه يؤكّد عدم وجود قائدٍ في الحزب المعادي، وكان يجب أن يفرحه ذلك. لكنّ ذلك الصَّمت كان يرمي بثقله، ما يجعله ممتلئاً بالأسرار التي يحب البابويّون خلقها، وبالنّسبة إلى المضطَهَدين، غالباً ما يكون للأسرار طعم الفخّ.

أيّاً كان الوضع، فقد تأخّر الوقت على التّراجع. لمْ يعد بالإمكان حتّى استخلاص نتائج عسكريّةٍ من ذلك، ونشر رجالٍ مسلّحين على الجبهة، وكان هناك اتّفاقٌ ضمنيٌّ بين الحزبين يفيد بألّا يقوم أيٌّ من الطّرفين بنصب كمينٍ للجنود في الحصن تحت طائلة اندلاع العدوانيّة من جديدٍ. بالتّالي، في صباح ذلك اليوم تقدّم الموكب الذي أخذ شكل فرقةٍ مرحةٍ سار أمامها دوبون برأسه العاري، ثمَّ جاء دور العرسان، وخلفهم كلّ ما في المعسكر

البروتستانتيّ من مدنيّين. شعر ريشير بالرِّضا عندما رأى عند وصوله إلى سطح الحصن من جهة الكاثوليك حشْداً من الفضوليّين يجتمع سِلمياً. قام عدّة أشخاصٍ منهم عندما رأوه بنزع قبّعاتهم عن رؤوسهم، ورسموا إشارة الصّليب، وكان ذلك فألاً حسناً؛ أمّا العبيد الهنود الذين يبحثون عن اللّهو بطبيعتهم، فقد اتّخذوا كلّهم مواقعهم بين المشدوهين بالحدث.

تُرك الهوغونوت على هواهم، فأعطوا للاحتفاليّة طابعاً ساذجاً وبسيطاً، على الرغم من أنّها كانت جديّةً، وتفترض الاستغراق والتّأمُّل، وهي الطّريقة التي كانت بالنّسبة إليهم مناسبةً للتّوجُّه إلى الرّب، وليس إلى شخصٍ يُعجبون به. اصطفّ العرسان حول الرّاعي، وتفاجأ الجميع بوجوههم الطّيّبة والطّبيعيّة، على الأقلّ بالمقارنة مع ما سبق في هذا الموقع بالذّات.

وُضعت أود في الصّف الأوّل حيث أخذت مكانها من الجهة التي كانت تستطيع فيها أن تسرح ببصرها نحو المرفأ، ومقرّ الحاكم، والمعسكر الكاثوليكيّ كلّه، وقد تمّ ذلك على نحوٍ طبيعيٍّ كما لو كان محض مصادفةٍ. كانت عيناها تتابعان باستغراقٍ وحنانٍ انتشار الحشْد الصّغير حول القسّيس الذي يدير الاحتفال، ولم تلحظ على ما يبدو كيف كان الآخرون يتفحّصونها بشَرهٍ، ومن الجهات جميعها. في الواقع، لمْ يكن قد بقي غيرها من دون زواج، وكان يجب بعدها استدعاء الجيش الاحتياطيّ الذي يتألّف من الوصيفات، وهو ما كان يثير حماسةً أقلّ، لكنّ أود التي كانت مقدامةً وخجولةً في آنٍ، كانت تجهل أنّها موضع شهوةٍ، وبنظرتها التي تهيم غالباً في الأفق البعيد يصعب كثيراً التّكهُّن بما كانت تبحث عنه بدقّةٍ شديدةٍ، ومقدار يأسها لأنّها لمْ تره.

كانت الاحتفاليّة قد بدأت عندما أرضاها في النّهاية أن ترى جوست

يظهر من بعيدٍ. كان قد بقي فترةً طويلةً مختفياً وراء المعقل الجنوبيّ ينظر إلى السّاحل كأنّه ينتظر علامةً غامضةً آتيةً من الأدغال، أو صرخةً لمْ تكن من قردٍ، ولا من طائر مالك الحزين، لكنْ لم يظهر له بالتّأكيد أيّ شيءٍ يجعله يعدل عن قراره. منذ ذلك الحديث اللّيليّ مع أود، لمْ يكن قد فكّر بأيّ شيءٍ آخر، ومن منافع هذا الانبهار أنّ الكآبة زالت عنه، وكذلك اليأس. الطّاقة التي بثّتها الصّبيّة، وذلك الشّيء الذي لمْ يستطع أن يسمّيه رغبته جعلاه يمتلئ بأملٍ جديدٍ، وبدأ يلوح له منفذٌ ما. كانا يستطيعان مجابهة الانقسام المرعب الذي يخرّب أعمال البشر بنُعمى اتّحادهما معاً. لكنْ ألم يكن لديهما أسبابٌ أُخرى للرّغبة بذلك الاتّحاد؟ بكلمةٍ أُخرى: ما الذي كان يشعر به تُجاهها؟ كان قد قرّر ألّا يسأل هذه الأسئلة، وأن ينحّي جانباً الدّوافع العامّة والكريمة لقرارهما. مع ذلك، كان يشعر بأنّه تحت تلك الحُجج العقلانيّة كانت تتفاعل لديه مشاعر أقلّ وضوحاً، وربّما متناقضةٌ. كانت الصّبيّة بحدّ ذاتها تشدّه، وفي الوقت نفسه تغمره بالخشية. طبعاً كانت أوّل امرأةٍ متمدّنةٍ قُيّض له أن يلتقي بها منذ بلوغه سنَّ الرُّشد. كلّ شيءٍ فيها كان جميلاً، وصحيحاً، وحسناً، ويعكس هذه الفكرة الكاملة عن الإنسان، التي قام الله حسْب ما يقول فيلوغانيون بوضعها في المرأة؛ ليجعل منها على معايبها أداة خلاصه، لكنْ كما هو الحال في سطح الغابة المصقول الذي يتألّف من تموّجاتٍ خضراءَ، ومن حُزَم الجمّيز، ومظلّات خشب البرازيل، لكنّه يخفي داخله روائح موتٍ ومعارك من دون حبّ، كان الإنسان يستطيع أن يرى، أو على الأقلّ يتوقّع أن يرى وراء المظهر النّاعم والمتواضع لأود أعماقاً معكّرةً، وصبراً أقلّ، أو ربّما، بكلّ بساطةٍ كثيراً من العنف.

مع ذلك، في هذه الجزيرة المهجورة في آخر العالم، التي كانت على

حافّة اندلاع حرب الأشقّاء، لمْ يكن بمقدور جوست أن يبحث عن السّعادة الهادئة، إنّما عن قوّة النّموذج، واندفاعة الفعل. لمْ يكن عليه أن يقوم بخيارٍ بورجوازيٍّ يتوقّف عليه رخاؤه، ويرغب بأن يجعله يسيل بانسجامٍ في عائلته. ولو كانت لدى أود تلك الطّاقة المرعبة، فإنَّ ذلك لم يكن يزعجه في قرارة نفسه، والحقّ يقال إنّه منذ الأمسية التي تحدّثا فيها، كان قد التزم تجاه نفسه بقرار الزّواج منها، الشّيء الوحيد الذي يملأه بالألم كان التّفكير بكولومب والقناعة بأنّه بذلك يقوم بالفعل الذي يجعل ضياعها نهائيّاً، لكنْ لم تكن هناك أيّة إشارةٍ يمكن أن تمنعه من القيام بذلك.

وهكذا بشيءٍ من الكياسة التي علَمته إيّاها أخته ولم تكن مع ذلك تمارسها على الإطلاق، ذهب جوست ليحلق ذقنه، ويرتّب شعره بمشطٍ. استبدل بقميصه قميصاً آخر كان كلّ ما في خزانته من ثياب. لمْ يكن لذلك القميص قبّة، وقد فكّر رغماً عنه أنّه قد كشف عنقه مثل محكومٍ بالإعدام. بعد ذلك تبدّى للعينين المتديّنتين اللّتين كانت أود تدّعي أنّها تجول بهما في الأفق.

كانت نيّة جوست بسيطةً، فوسيلته الجيّدة ليهدأ كانت التّفكير بما عليه أن يفعله، ودراسة أدقّ التّفاصيل، حتّى عدد الخطوات ليذهب من نقطةٍ إلى أُخرى. في البداية سيتّخذ مكانه ضمن الحضور، ويتابع الطُّقوس، ثمَّ في اللّحظة الأخيرة، قبل أن يقوم القسّيس بتبديد الحشود، سوف يتقدّم ويطلب إليه بتفخيمٍ يد ابنة أخيه، وفي حال وافق، سيلقي من موقعه المرتفع خطبةً موجّهةً إلى المعسكرين يتمنّى لهما فيها السّلام. في قرارة نفسه شكر فيلوغانيون لأنّه زوّده بمرجعيّاتٍ أدبية، فبانتقاله من جملةٍ مأثورةٍ إلى أُخرى، مثل مسافرٍ يمشي من نُزلٍ إلى نُزلٍ، ستكون هناك فرصةٌ أقلّ في أن يضيع، أو أن يهاجمه أحدٌ ما في الطريق.

دخل جوست بصمتٍ إلى الحصن، وتسلّق الدَّرج الذي كان يصعد إلى الأسوار، واتّخذ مكاناً في الاحتفال. كان قلبه يخفق، وتجنّب أن ينظر إلى أود. كانت تلك الحيطة بلا فائدةٍ، لكنّه ما كان يعرف ذلك بعد؛ لأنّه كان مقدراً في ذلك اليوم أن يأتيه الخطر، لا من الأرواح ولا من النّظرات، إنّما سينبثق في اللّحظة التي ما كان أحدٌ ينتظره فيها، وتحت مظهرٍ غير متوقّع.

كان القائم على الاحتفال قد بدأ يتلو النُّصوص المأخوذة من كلام الله. كلّ شيءٍ سار وفق مراسم الاحتفال؛ أي: إنّ خدراً لذيذاً بدأ يسري في الحضور، مثل لذّة تهيُّئهم لاستقبال المقدّس، وجعل روحهم تتكلّم.

كانت السُّحب الكثيفة الثّابتة في الأفق بثوبها البنفسجيّ، وقبّعاتها البيضاء، تشكّل ما يشبه مجلساً ثانياً أوسع من الأوّل، تحيط به بمباركتها الصّامتة عصابات الببّغاوات التي هاجت بفعل العواصف القادمة، راحت تطير، وهي تعرج من قمّةٍ إلى أُخرى؛ وحول القسّيس كانت هناك فراشةٌ كبيرةٌ حمراءَ وزرقاءَ ترفرف بحيث بدت للذين ما زالت لديهم بواقي طفولةٍ في الرّوح كأنّها ملاك، وقد أفادَ من ذلك اثنان من العرسان كانا يمسكان أنفسهما بصعوبةٍ، فانفجرا ضاحكين.

قرأ ريشير أمثولةً لعازر، وهو يرمي بنظراته نحو المعسكر المعادي. فهم الجميع من كان ذلك الميت الذي استطاع يسوع أن يعيده إلى الحياة، لا بلْ إنّ أكثر من واحدٍ قال لنفسه إنّ غياب الكاهن لدى الكاثوليك مثّل موتاً روحانيّاً حقيقيّاً. كان هناك حنينٌ إلى التّوافق، وإلى الشُّعور المشترك، قد استولى بنعومةٍ على الأفئدة. شَعر القسّيس بذلك، فضاعف من استيحائه من تلك الأمثولة كي يجعل الشُّعور يتزايد.

الضّجّة المفاجئة التي أتت من مقرّ الحُكم أثارت في هذا السّلام

صدمةً حقيقيّةً. في البداية كانت هناك صرخاتٌ، ضجيج معادنٍ، أبواب، ثمَّ ظهرت مجموعةٌ صغيرةٌ تشكّلت عند المصطبة، وتقدّمت بعد ذلك نحو الحصن.

ضمن هذه الفرقة كان يمكن تمييز قامات الاسكتلنديّين الضَّخمة. كانوا بكامل لباسهم يضعون قبّعةً من قماش المربّعات، ويرتدون تنانير من القماش ذي العُقد، ويرفعون الرّماح منتصبةً؛ أمّا الكاليدونيّين، فكانوا يمشون بخطواتٍ عسكريّةٍ، لكنّها توحي بالثّقة؛ لأنّها تدلُّ على المراسم أكثر منها على الحرب. في وسطهم، كان دون غونزاغ يتقدّم الجموع، وهو يمشي الخُيلاء، ولحيته ممشّطةٌ، وعلى صدره قميص فرسان مالطة، وعلى وجهه الذي تبدو عليه تشنُّجات الألم من الرّوماتيزم قناعٌ من الغضب. عندما وصلت هذه المجموعة إلى أسفل الأسوار، انفتحت قسمين مثل جوزةٍ، ولفظت من داخلها، مثل نواة جسد فيلوغانيون الضَّخم الذي دخل بأبّهةٍ إلى الحصن. وعلى أنَّ القسّيس تابع تلاوته من دون أن يبدو عليه أنّه لحظ أيّ شيءٍ، فإنَّ النّاس انشغلوا عن الاستماع إليه. استدارت النّظرات كلّها نحو أسفل الدَّرج، حيث انبثقت قامة الأميرال ببطءٍ. كان منظره مخيفاً، فأيّام الصّيام الطّويلة جعلته هزيلاً يشبه الهيكل العظميّ، وفي المواضع التي لمْ تكن لحيته التي تتخلّلها خطوطٌ رماديّةٌ تغطّي جلده، كانت بشرته تبدو صفراء ولمّاعةً، مشدودةً إلى أوتارٍ من العظام التي تكاد تنفجر، وفي دوّامةٍ صاخبةٍ من التّجاعيد والانتفاخات، كانت عيون الفارس الغائرة مثل عيون محتضرٍ ترمي حزماً من الشَّرر.

لكنّ أكثر ما كان يلفت النَّظر هو لباسه، فقد ترك ثياب مالطة التي تعوّدوا جميعاً أن يروه يسبح فيها، وانزلق في لباسٍ جديدٍ صنعه الخيّاط بسرّيّةٍ في الأيّام السّابقة. كانت البزّة الجديدة مخيطةً من قماشٍ حريريٍّ لونه أزرق ملكيّ يلتمع في الشّمس؛ والسُّترة الصّفراء الفاقعة تنتفخ على

وركه مثل مهرّجٍ؛ أمّا ساقاه اللتان نحلتا، فكانتا مغلّفتين بجرابٍ من الصُّوف المشغول، لونه بلون التّفّاح الأخضر. كان يرتدي على كتفيه وشاحاً أحمرَ بلون الدَّم، وقلنسوةً بيضاءَ مصنوعةً من قماشٍ دقيقٍ يشكّل استكمالاً للرّيش الذي يغطّي هذا الببّغاء الهائل، لكنَّ السّيف الطّويل الذي كان يتدلّى على جنبه سرعان ما أزال أيّة رغبةٍ بالضَّحك لدى الجميع.

انقسمت الصُّفوف إلى نصفين، وجلس الأميرال بأُبّهةٍ لا افتعال فيها، في الصّف الأوّل قُبالة دوبون. جاء دون غونزاغ، وهو يجرّ قدميه ووقف بالقرب منه. عندها سدّد فيلوغانيون عينيه المرعبتين في عيني القسّيس وانتظر، أظهر ريشير شجاعةً حين أكمل الصّلاة كما لو أنَّ شيئاً لمْ يحصل، أو تقريباً؛ لأنّه من الواضح أنَّ يده كانت ترتعش، وهو يمسك الإنجيل.

عاد الصَّمت، وقد خففه هواءٌ رطبٌ، وسالت الكلمات المقدّسة فيه كما لو من قلب صهريجٍ مبعوجٍ. فجأةً، ارتفع صوت فيلوغانيون مسيطراً على النّبرة المملّة لصاحب الاحتفال. كانوا كلّهم يعرفون قُدرة صوته، وبالتّالي عرفوا أنّه لمْ يكن يتكلّم بعد سوى بصوتٍ خفيضٍ، ومع ذلك كان يُسمع من معقلٍ إلى آخر.

- «لست أفهم». قال مستغرباً، وهو ينحني على نحوٍ غير واضحٍ تُجاه دون غونزاغ: «أين الصّدرة، والزّنّار، ووعاء القربان المقدّس؟».

ريشير الذي كان يرتدي ثيابه السّوداء الأبديّة اضطّرب، وبدأ يتصوّر ما الذي سيأتي بعد ذلك. كانت المراسم قد وصلت إلى المرحلة التي يُجمع فيها بين الزّوجين. تقدَّم نحو الثّنائيّ الأوّل، وأمسك بيده اليمنى الاثنين الموعودين، ولفظ بعض الكلمات:

- «آهٍ». تعجَّب فيلوغانيون: «يا غونزاغ، أعطني زيت الشّريم المقدّس، من فضلك».

قام الكابتن المسنُّ الذي كان يعرف تفاصيل تلك المسرحيّة بإخراج قارورةٍ من الفخّار.

- «هاك». قال الأميرال متوجّهاً إلى ريشير: «لقد رُكِّبَ حسْب القواعد: مقياسٌ من الملح، ومقياسان من زيت الزّيتون، ومقياسٌ من اللّعاب».

في أثناء قوله ذلك كان قد اقترب، والقارورة الصَّغيرة في يده. تراجع القسّيس، وعلى وجهه أمارات الرُّعب.

- «ماذا؟ ألن تضمّخهما بالشّريم المقدّس؟». استنكر فيلوغانيون.

ترك بعض الثّواني تمرُّ، وهو يمدُّ له القارورة. بدرت عن الآخر حركة تحفُّظٍ، ثم بابتسامةٍ سيّئةٍ، ومظهرٍ مُداهنٍ عاد الأميرال إلى مكانه.

- «هذا غريبٌ!». أضاف متوجّهاً إلى غونزاغ: «أيتمُّ زواجٌ من دون العطر المقدّس؟ طيّب. سنرى التّتمة».

بدأ دوبون يضطّرب، وكان الحضور وقد جمدوا من الرُّعب يرون عربة المصيبة تقترب من الهاوية الحتميّة، فانتظروا الانفجار.

بعد ذلك جُمعَ بين الأزواج، زوج وراء الآخر حسْب الطّريقة البروتستانتيّة، وتحت بصر فيلوغانيون الذي كان يدّعي الدَّهشة وعدم التّصديق، ثمَّ جاءت لحظة المناولة. حسب ريشير في ذهنه، وهو يقوم بالصّلاة ما يمكن له أن يفعل من أجل تجنُّب الحادث. قد يكون من الأفضل إيقاف الاحتفال في هذه اللّحظة، لكنْ كانت هناك منصّتان من الخشب وضع عليها الخبز والنّبيذ بوضوحٍ للعيان، ولا يمكن أن يخطئ فيه أحدٌ. استعدَّ القسّيس للقيام بالمناولة، وهو يملك من الشّجاعة في ذهنه أكثر ممّا كان في عروقه؛ لأنَّ جسم الفارس الضّخم كان يشكّل كتلةً في الصّفّ الأوّل.

- «باسم العذراء والقدّيسين كلّهم!». صرخ فيلوغانيون بفرحٍ: «جسد سيّدنا يسوع المسيحّ!».

أمسك القسّيس الخبز، وهو يرتجف تماماً. تقدَّم الأميرال نحو المذبح، ووقف أمامه بارتفاعه المهدّد كلّه.

- «قبل أنْ أركع»، قال، وهو يحدّق بالرّاعي بعينيه اللّتين تآكلتا من الصّيام: «هل يمكن أن تؤكّد لي أنّه هنا على نحوٍ مؤكّد؟».

ارتأى دوبون أنّه قد حان الوقت ليتدخّل. قفز من جهة الطّاولة حيث كان ريشير، ولكي يدعم موقفه قال بحزمٍ:

- توقّف عن هذه الفضيحة يا سيّد! تراجع. ارجع إلى مقعدك.

- مقعدي في الصفّ الأوّل أمام الله عندما يشرّفني أنْ يتجلّى أمامي.

- «لن تنال تلك النّعمة إلّا بمقدار خنوعك». أجابه دوبون.

- «هل تؤكّد لي أنّه هنا؟». ردّد فيلوغانيون من دون أن يأخذ بعين الاعتبار أيّ شيءٍ سوى القسّيس والقربان الذي كان يرتجف في طرف يده.

- «إنّه هنا كماهيّةٍ». قال ريشير، وهو يحاول آخر ما يكنُّ له من ادّعاءٍ لاهوتيٍّ.

- «كماهيةٍ؟ مرحى!». قال فيلوغنيون بفرحٍ مرعبٍ: «لأنّ ماهيّته هي ما أرغب به. أنا جائعٌ لماهيّته، هل تسمعني؟ أريد أن أمزّق عضلاته، وأشرب دمه، وأتغذّى بلحمه، وأشعر في أحشائي بحرارة قلبه المقدّس».

قال تلك الكلمات، وهو يصرخ. كان صوته الأجشّ يهدر مثل عاصفةٍ، ولباسه الغريب بلون سماء العاصفة من دمٍ، ومن برقٍ يجعلان منه كائناً من عالمٍ آخر، وقع هنا لكي ينفّذ انتقاماً صعبَ الوصف من البشر جميعاً.

تراجع ريشير. كان كلّ شيءٍ يكاد يتهاوى. عندها قام دوبون منتفضاً، وأخذ مكان القائم على الصّلاة في مواجهة فيلغانيون، وتلفّظ ببطءٍ بهذه الكلمة:

- آكل لُحوم البشر!

بدا كأنَّ الخضرة الّلامعة للمياه قد تجعّدت تحت تلك الصّدمة، حتّى جبل خبز السُّكر نفسه تلقّى الضّربة، فانحنى، وتمايلت أسوار الحصن، وكادت تهوي. وحْدها الدَّهشة القصوى منعت الجماهير من الهرب. تصلّب فيلوغانيون كما لو كان قد ثُقِبَ من جهةٍ إلى الجهة الأُخرى. كان عدم حراكه مرعباً لدرجة أنّه صار بالمقارنة مع العنف مطمئناً نوعاً ما أمام العنف.

وسط الدَّهشة العامّة، تصاعدت همسات إعجابٍ من الهنود في الجانب الكاثوليكيّ فقط. كانت تلك الاحتفاليّة تبدو لهم أقلّ جموداً ممّا سبقها، لا بلْ أكثر توافقاً مع الفكرة التي كانت لديهم عن العيد. ألقى عليهم فيلوغانيون نظرةً قاتمة جعلتهم يسكتون، وبحركةٍ واحدةٍ سحب سيفه. قلّده دون غونزاع، كما أنّ الاسكتلنديّين رفعوا هراواتهم.

وحْدها الكأس، وقطع الخبز التي كانت تؤكّد ولو بوقتٍ متأخّرٍ قدراتها المقدّسة هي التي منعت فيلوغانيون من أن يضرب ذلك الذي كان يقف خلفها.

- «سوف أجعل تلك الكلمة تدخل في حلقك». صرخ الأميرال.

عندما سمع الفرسان الهوغونوت هذه الصَّرخات، ركضوا ليحملوا أسلحتهم، عبّأوا بنادقهم. من الجانب الكاثوليكيّ، في المقابل، حصل تدافعٌ، لكنَّ فيلوغانيون كان ما يزال واقفاً بلا حراكٍ، والخنجر في يده مثل عصفورٍ كبيرٍ ضمن شعارات النّبالة، ثمَّ فجأةً صاغ جملته التي استطاعت أن تؤجّل المجزرة.

- اغْربوا عنّي! يا خونة، يا هراطقة، يا قتلة الرّبّ الحقيقيّ. أعطيكم خمسة عشر يوماً لتتركوا تلك الأرض التي تدنّسونها، ولا تعودوا للظّهور أبداً.

كان دوبون يعرف جيّداً ميزان القوى، فلمْ يغامر بأنْ يعطي هو أيضاً شارة القتال. رسم على وجهه تعبيراً جليديّاً من عدم المبالاة، ومن الاحتقار.

من دون أن يغمد الأميرال سلاحه، قام بنصف التفافةٍ، وخرج يرافقه دون غونزاغ والحرس. بعد أن اختفى، نزل البروتستانت الدَّرج بدورهم.

كان جوست بلا حراكٍ حين رأى أود تمرُّ أمامه، وعيناها مسبلتان. لمْ يستطع أن يقرأ أيّ شيءٍ في تلك النّظرة الموجزة اللّامعة التي رمتها عليه.

بقي وحْده في الحصن محتاراً محطّماً، وفَهم أنّه يجب عليه بدوره أنْ يترك هذا المكان الذي احترق من الكراهيّة، وأن يختار معسكره. للحظةٍ أتت إلى ذهنه صورة كولومب، وغمرته الرّغبة في أنْ يكون إلى جانبها، وأن يستعيد معها ألعابهما القديمة في كلامورغان. نظر طويلاً في اتّجاه الأدغال، ثمَّ نزل، لكنَّ خطواته حملته رغماً عنه في اتّجاه مقرّ الحاكم.

IV

سيينا

الفصل 1

صار مارتان يسود إمبراطوريّةً كاملةً، لكنّه كان يفعل ذلك بسلطة الرُّعب. العنف الذي فرضه على هنود السّاحل لكي يخضعهم كانت تمارسه فرقةٌ من الأشقياء لا إيمان لهم، ولا قانون؛ وكان عليه بدوره أن يُرعبهم، فخلال الشُّهور التي انقضت، أفلت خمس مرّاتٍ من محاولات اغتيالٍ، وعلى كونه الرّجُل الأكثر سُلطةً على هذا السّاحل، والأكثر غنى بلا شكٍّ أيضاً، فإنّه لمْ يتخلّص من همّه الأبديّ كشحّاذٍ وضيعٍ، وهو أن يبقى على قيد الحياة، وأن ينفذ بجلده، وأن يمارس في الوحل معارك غير واضحة، وكمائن غير شريفةٍ. لم يكن ينام سوى في النّهار، في أرجوحةٍ من القطن النّاعم تسمح له إن كان مستيقظاً أن يميّز عبر القماش اقتراب ظلالٍ مهدّدةٍ. كان يحمل خنجراً صغيراً في يده اليمنى، ومنجلاً يعرضه على بطنه؛ أمّا اللّيالي، فكان يقضيها في حفلات شُربٍ. كان يقدّم الكهوان بغزارةٍ، ويقدّم النّساء لتلبية احتياجات أعوانه، وبذلك كان مارتان يُظهر كرمه وسُلطته بوصفهِ زعيماً، لكنّ قاطع الطُّرق المتخفّي الذي كان في داخله باستمرارٍ ما كان يرتاح حقّاً إلّا عندما يرى منافسيه المفسدين والمتقيّئين الذين بفعل الشّراب كانوا يخطئون أحياناً بأن يكشفوا خططهم السّوداء ضدّه، عندها كان يضربهم.

الحقيقة أنّه لم يستطع الاعتياد على الوحدة القاتمة في هذه الأدغال. ساعات اللّيل كانت بالنّسبة إليه لحظات قلقٍ مُرعبٍ وقرفٍ. كان قد بنى بيته في أعلى منطقةٍ في الغابة التي تمتدُّ صعوداً حتّى قلب جبل خبز السُّكر. هذا النّتوء الصَّخريّ كان يطمئنه؛ لأنّه يفلت من العتمة المرعبة لأعماق الأدغال، وعندما يسند ظهره إلى الحافّة الصّلبة والنّاعمة للجبل، كان متأكّداً من أنّه ليس لديه ما يخشاه، على الأقلّ من تلك الجهة. ومن الجانب الآخر، كان يستطيع منذ الفجر أن يرى بالتّفصيل البحر والجزيرة التي كان ذلك الكلب فيلوغانيون قد طرده منها.

قام العبيد الهنود بتشييد بيته بناءً على مخطّطات النّجّارين الذين انضمّوا إليه، فصار يشبه بيوت تجّار المرفأ في هونفلور. في الماضي، عندما كان يتسكّع هناك، ويستلقي على الأرصفة بين صفعتين، كان يتخيّل نفسه في كثيرٍ من الأحيان كبورجوازيٍّ غنيٍّ ومحترمٍ، وعندها كان في الحلم يملأ بالسُّكان إحدى تلك الأبنية في كولومباج، ويرى نفسه فيها يرتدي رداءً مطرّزاً بالذّهب، ويستقبل الأشخاص المهمّين في العالم، في حين يسمع ركض الأطفال في الطّابق الأعلى، وأصوات الخدم، وهُم يستخرجون الماء من الآبار في الخلف. ها هو الآن قد صار أغنى من أغنياء ذلك النُّزل التَّعِيس في مقاطعة نورماندي؛ فعند قدميه يمتدُّ أكبر خليجٍ في العالم حيث تتدفّق منتجات القارّة. صار بمقدوره أن يشترى عشرة بيوتٍ في أحواض هونفلور، لكنْ بما أنّه كان يحكم في الأمريكيّتين، وبما أنّه لم يكن لديه من يشغّله سوى مجموعةٍ غير قادرةٍ على أداء أية مهمة، أو بدائيّين، فإنَّ قصره لمْ يكن سوى نسخةٍ محرّفةٍ تهدّد بالانهيار في كلّ مرّةٍ تتساقط فيها الأمطار الكثيفة. كان قد زيّنه بأجمل الأغراض المسروقة من المحطّات التّجاريّة، أو من المراكب، لكنّ هذه الفوضى لم يكن لها أسلوب ولا مظهر، وعندما

كانت الأمور تتعلّق بما هو جوهريّ، كان يعقد اجتماعاته في الفسحة بالقُرب من السّاحل كما كان يفعل الغراب من قبله.

لمْ يكن يستقبل أحداً في بيته إلّا لكي يظهر له قُدرته. في الّليل، كانت كلّ غرفةٍ تضاء بعشرات المشاعل، ويخدمها ثلاثة عبيدٍ يرتدون رداءً أزرقَ أعطى الأمر بصنعه خصّيصى، وكان البناء البسيط يأخذ بذلك مظهراً فخماً، كذلك كان مارتان يضع عند قدميه ثلاث هنديّاتٍ اختارهنَّ من بين الأجمل، أمّا هو فيجلس على كنبةٍ إسبانيّةٍ كبيرةٍ لها أقدام أسدٍ. كان بعينيه المستطيلتين من التّجاعيد وبقبضاته الضّخمة، وأنفه المكسور يكتسب الهيئة الكئيبة لطفلٍ مرعبٍ، لكنّ المشهد لمْ يكن يستطيع أن يخلق أوهاماً إلّا مع الغرباء، ونادراً ما كان هؤلاء يأتون إليه، وهكذا، بمجرّد أن عرف في ذلك الصّباح أنّ اليونانيّ قد عاد من سلفادور مع رسولٍ برتغاليٍّ، قام مارتان لاستقبالهما بتحضير هذه الاحتفاليّة الّليليّة التي كانت مصدر متعته كلّها.

كان الّليل قد حلَّ منذ ساعتين، ليلٌ أسودُ، ومن دون نجومٍ، ما كان يدلّ على وجود غيومٍ سيّئةٍ، لكنّ موسم الأمطار لمْ يكن قد بدأ تماماً، وكان مارتان يأمل أن يأتي هذا الموسم متأخّراً قدْر المستطاع. كان بيته الذي بُني على نحوٍ سيّءٍ يرشح الماء من الجهات جميعها، ويفقد أبّهته كلّها في الطّقس السّيّء، لكنْ لحُسن الحظّ، سماع الرّيح تزأر في أشجار الجاكاراندا، يعني أنَّ الهواء ما يزال جافّاً وحارّاً، وهكذا دخل الزُّوّار من الباب الكبير يقودهم هنديٌّ يرتدي ثياب الوصيف حتّى وصلوا إلى حضرة المعلّم.

كان اليونانيُّ ما يزال يحتفظ بوجهه العنيد والوسخ كما هو حال القَتَلة المرتزقين. كان واحداً من المحكومين بالإعدام الذين اشترى حياتهم

فيلوغانيون، وقد هرب في اللّيلة نفسها التي قام فيها الغراب بالهجوم على الجزيرة. كان مارتان يثق فيه لتنفيذ المهامّ العنيفة والبعيدة التي كان يكلّفه بها، لكنّه لم يكن ينتظر منها أمارات الإعجاب، فذلك الرَّجُل الدّابّة كان عاجزاً عن رؤية أيٍّ شيءٍ، في حين أنّ البرتغاليّ حقّق رضاه في ذلك المجال على نحوٍ أكبر.

كان الرّجُل صغير الحجم، ووسخاً، كأنّه أمضى في الحال عدّة أسابيع في سبخاتٍ مستنقعيّةٍ، لكنّ وراء هذا المظهر التَّعِس، كان يمكن التّعرُّف إلى ملامح الانطواء والجدّيّة لدى رجُلٍ ذي منبتٍ جيّدٍ، ومع أنّه لم يكن على ما يبدو أكبر عمراً من مارتان، فإنّ شبابه قد أُثقِل بلحيةٍ قاسيةٍ، وشعرٍ قصيرٍ شبه أجْعد. كان أنفه طويلاً ودقيقاً للغاية، ووجنتاه البارزتان تعطيانه مظهراً فخوراً وصعب المراس. مارتان الذي كان يعرف الرِّجال جيّداً، ويدين بهذه المعرفة إلى بقائه على قيد الحياة، سرعان ما أدرك من النّظرة الأولى في عيني زائره بريق الذّكاء، والنّبالة، والخُبث، ما يجعل منه الشَّخص المطلوب هنا.

- «أغوستينو آلفاريس دي كونها». قال الرّجُل، وهو ينحني.

دلّ بذلك على الاحترام لسيّد المكان، وفي الوقت نفسه على هدوءٍ جيّدٍ يؤكّد ما معناه: إنّنا من العرق القياديّ نفسه، وقد أحبَّ مارتان هذا الشّيء:

- كنت تبحث عنّي على ما يبدو يا دون أغوستينو؟

قال مارتان، وهو يترك يده تسقط من عرشه إلى شعر إحدى الإماء الخانعات.

- ألستَ الرّجُل الأكثر قوّةً في هذا السّاحل؟ هل يمكن فعل أيّ شيءٍ هنا من دونك؟

قال أغوستينو بجدّيّة ابن البلاط، مع ابتسامة تواطؤٍ.

لمْ يكن مارتان معتاداً على مثل هذا الّلطف، وعلى أنّه كان مستعدّاً لفعل أيّ شيءٍ لتعليمه لأولئك الأوغاد الذين يديرهم،

ألقى نظرة ارتياحٍ نحو المرافقين الأربعة، أو الخمسة الذين كانوا يملؤون الغرفة متمترسين على سلالم قصيرةٍ.

– وماذا تنوي أن تفعل هنا يا سيّدي؟

تابع مارتان بالّلهجة المنمّقة نفسها التي طالما أحبَّ أن يسمعها لدى هؤلاء القَتلة لديه.

– مثلما تفعلون أنتم، أيُّها السّيّد الرّفيع النّبيل.

لم يكن هذا التّعبير الأخير المترجم حرفيّاً من البرتغاليّة يحمل كثيراً من المبالغة. نظر مارتان إلى القراصنة بمزاجٍ حَسنٍ. ما من شكٍّ في أنَّ هذين المشاكسين سيسخران منه في احتفالاتهما الماجنة بسبب هذا الّلقب.

– «اسمي مارتان». قال مؤكّداً.

– «أعرف، أيُّها السّيّد الرّفيع النّبيل مارتان». أكّد الآخر مُصراً على استعمال هذا الّلقب المبالغ به.

– ما الذي تريدان إذن فعله (مثلنا)؟

أعاد مارتان سؤاله؛ لكي يترك مسألة هذا الّلقب.

– هل الأمر تجارةٌ أيضاً، تجارة الخشب والفواكه؟

كان قد استعمل ليقول ذلك التّعبير السّيّئ الذي يمكن أن يستعمله سمسارٌ يستقبل منافساً له، لكنّه لمْ يكن يؤمن بذلك إطلاقاً. فاليونانيُّ عندما طلب إليه أن يستقبل أغوستينو كان قد أوحى إليه بأنّ مشروعه يمكن أن يجلب كثيراً من المال لمارتان ولمجموعته.

– «لا». قال دون الفاريز: «ليست لدينا على الإطلاق النّيّة بأن نعيق

نشاطاتكم. هدفنا سياسيٌّ بحتٌ. نريد أن نستولي على حصن كوليني، وأن نقتل فيلوغانيون».

في بعض الأوساط، ومهما كان العنف فيها بسيطاً وعاديّاً، فإنَّ إعلان جريمةٍ يمكن أن يُستقبل بعرفانٍ طيّبٍ وحنونٍ كمن يتلقّى هديّة عيد ميلادٍ. انتصب مارتان، وهو يسمع تلك الكلمات، مشى عدّة خطواتٍ نحو دون الفاريز، وأمسك بيديه.

- «رائع!». قال له، وهو يشدّ عليهما بحرارةٍ: «إنّها فكرةٌ ممتازةٌ».

- «هذه الأرض»، تابع المبعوث كلامه: «ملكٌ للبرتغاليّين بفعل شهادات ملكيّةٍ قديمةٍ، ولا يمكن الشّكُّ فيها. أولئك الذين يزرعونها ويتاجرون ضمنها كلّهم مرحّبٌ بهم».

قال ذلك، وهو يومي برأسه لمارتان الذي أجابه بالمثل.

- أمّا أولئك الذين يأتون بالسّلاح لتحدّي ملكنا، والذين ينوون نهب البلاد، وفوقها أن يفسدوها بدينٍ قائمٍ على الغلط، وعلى الدَّم، فسنطردهم منها.

ذهب مارتان ليجلس، وقرّب كرسيّين ليجلس عليهما اليونانيّ ودون الفاريز، وأمر بتقديم الكهوان، وصينيّةٍ من الفواكه. رأى مارتن فجأةً مكافأةً لجهوده كلّها. الله وحْده يعرف كم كان عليه أن يتعلّم دروساً ليُدخل مسحةً من التّحضُّر إلى تلك الأدغال. كان عليه حتّى أن يخنق بيديه هنديّاً أصرَّ أن يحشر يده في أكثر الأماكن حميميّةً من لباسه بينما كان يقدّم الشَّراب، وها هي التّربية النّبيلة لهذا الشّخص تعطي لكلّ شيءٍ معنىً، وللمرّة الأولى.

قال دون الفاريز بعد أن رفعوا عدّة أنخابٍ:

- إنَّ ملكنا قد أرسل في الحال حاكماً جديداً، هو صاحب السّعادة ميم دي سا، وقد كان لي شرف مرافقته. وصلنا إلى السّلفادور قبل ثلاثة أشهر، وقد كلّفني أن أرسل إليك تحيّاته باسم التّاج.

كان مارتان يفيض ارتياحاً. كان قد اجتاز الاطلسيّ في قعر سفينةٍ، وأفلت من الموت، واستولى على إمبراطوريّةٍ بالحديد والدَّم، وأكل لحم البشر مع الهنود، وأوقع هنديّاتٍ حبالى ببذرته، وجمّع الذّهب، وقتل من الرّجال أكثر ممّا يمكن عدّه، وها هو ملكٌ أوروبيٌّ يقدّم إليه فرصة الخلاص.

- إنّه ليسعدني يا دون ألفاريز أن أحمّلك تحيّاتي له.

قال مارتان وقد تقلّصت قسماته من كثرة الطّلاوة والخضوع.

- قُل له إنْ سمحتَ إنّه يستطيع أن يطلب منّي أيَّ شيءٍ، وسأنفّذه فوراً إنْ كان ذلك باستطاعتي.

- تماماً.

ارتعد مارتان. ها هي النّقطة الحاسمة.

- «صاحب السّعادة ميم دو سا رجُلٌ تقيٌّ». قال البرتغاليُّ مضيفاً: «لم يعُد يريد الاستمرار في ما فعله سابقوه؛ أي: ألّا يقدّم الحماية سوى للمزارعين والتُّجّار. نحن لم نأتِ إلى الأمريكيّتين من أجل السُّكّر والقطن، إنّما من أجل الإيمان والشَّرف، وقد عقد العزم على أن يُطلق حملةً في خليج ريو دي جانيرو تقوم بإنهاء فيلوغانيون، وتستبدل سُلطةَ ملكنا بما استولى عليه، وسوف يأتي معه بجيشٍ قويٍّ من اليسوعيّين القادرين على نشر الإيمان الحقيقيّ هنا. مساعدتك أيُّها السّيّد الرّفيع النّبيل ستكون حاسمةً في تحقيق ذلك».

لمْ يعد الوقت مناسباً لتمثيليّات البروتوكول المنمّقة. اعتدل مارتان في جلسته كي يفكّر جيّداً وبسرعةٍ:

- مساعدتي لكم مؤكّدةٌ، لكنْ ما الذي أستطيع فعله بدقّة؟

- قوّات مستعمراتنا ما تزال محدودةً. يجب أن نحذر من خطرين:

الأوّل هو إرسال حملةٍ ضعيفةٍ للغاية يقوم هذا الكلب الفرنسي بمقاومتها، لذا يجب أن تكون لدينا الوسائل للقضاء عليه مع دفاعه. الخطر الثّاني هو تكريس عددٍ كبيرٍ من القوّات لذلك، وبذلك نُضعف بلا فائدةٍ خلال فترة الحملة ما بنيناه في سلفادور دو باهيا؛ من أجل ذلك نحتاج إلى أن نعرف بدقّةٍ ما هي القوى التي يمتلكها العدوّ.

- «هذا ليس مستحيلاً». قال مارتان: «يمكن أن نضع قوّات استطلاعٍ على الشّواطئ، ونراقب، ونعدّ المدافع، ونرفع الخرائط».

- «حسنٌ جدّاً، لكنّ ذلك لا يكفينا». قال دون ألفاريز، وقد انحنى إلى الأمام، وتابع بصوتٍ خفيضٍ:

- نريد أن نعرف هذه القوّات من الدّاخل، بلْ ونقوم بما في وسعنا -إن فهمت ما أعني- كيلا يستطيع العدوّ أن يستعملها.

نظر إليه مارتان محدّقاً:

- فهمت، الخيانة...

وافق البرتغاليُّ على كلامه بهزّةٍ من رأسه.

- «سيكون ذلك صعباً». غمغم مارتان الذي أظلم وجهه من جديدٍ: «الجزيرة مراقبةٌ، ولا أتصوّر كيف يمكن أن نُدخل إليها أيّاً كان، إلّا في حال شراء ذمة أحد أولئك الذين يذهبون إلى اليابسة، لكنّهم صاروا لا يتحرّكون إلّا جماعاتٍ مع وجود حراسةٍ».

- «لا تتعب نفسك». قال أغوستينو: «بالنّسبة إلى التّجسُّس لدينا ما يكفي».

عبّر مارتان عن استغرابه.

- «أجل». أكّد البرتغاليّ: «لدينا رجُلٌ في المكان. نطلب إليك

فقط الاتّصال به، وتقديم ما يمكن أن يلزمه من مساعدة، والقيام بنقل المعلومات التي يجمعها لنا».

كانت تلك خبريّةً فريدةً من نوعها، تكاد تكون غير قابلةٍ للتَّصديق. طلب مارتان وصفاً للجاسوس، فقام دون الفاريز بتقديم وصفٍ لفيتوريو.

- «هذا الوغد؟». فكَّر مارتان في سرّه، لكنّه استطاع أن يمسك نفسه.

- إنّه يجيب عن كلمة سرٍّ واحدةٍ. يجب أن تقول له (ريبير).

- «ريبير!». كرّر مارتان من ورائه، وهو يسخر؛ لأنّه فكر بفيتوريو ولم يستطع أن يمنع نفسه من الإعجاب بمهاراته المذهلة في التّعامل مع الآخرين.

- «قُل لنا كم تطلب من أجل هذه المهمّة». قال أغوستينو.

ألقى اليونانيُّ نظرةً جشعةً على مارتان. كان ذلك تماماً ما توقّعه. كان في تلك المسألة الكثير من المال، وفرصةٌ للثّروة لا بدّ من أنَّ مارتان يعرف كيف يستفيد منها. أخذ الزّعيم الشّابُّ يفكّر. منذ أن جاءه اقتراح دون الفاريز راح يحسب قوّة وضعه هو: بدونه يقوم البرتغاليّون بمجازفةٍ كبيرةٍ، ومهارة فيلوغانيون العسكريّة يمكن أن تستجرّ مأساةً حقيقيّةً. كان مستقبل ريو دي جانيرو بين يديه. لم يعد الأمر يتعلّق بالمال، واكتساب السُّلطة في بلدٍ لا يوجد فيه شيءٌ ما عاد يكفيه. كان قد صار فاحش الثّراء مقارنةً مع ما يمكن أن يبذله في هذه المغامرة. ما كان يريده هو أن يكون شيئاً عندما تصبح هذه البلاد كلّ شيءٍ. فكّر مطوّلاً بصمتٍ، ثمّ قال:

- أقبل، لكن ها هي شروطي.

توقّف دون الفاريز عن الحركة. كان ينتظر مبلغاً، وكان يعرف ما يستطيع تقديمه.

- أريد سندات ملكيّةٍ لتلك الأرض التي نحن عليها. لقد استوليت

عليها باسم تراجم الشّاطئ الذين يقعون تحت إمرتي. إنّها تعود إلينا، وملككم يجب أن يعترف بذلك، و... يجعلني دوقاً.

هبّ هواءٌ باردٌ تصاعد مع القمر البدر آتياً من الشُّرفة. ارتعدت أعضاء جسد دون الفاريز الذي وصلت إليه تلك البرودة. كانت تلك الكلمات بالإضافة إلى الكهوان قد أثارت فيه الاضطّراب، فطلب فجأةً أن ينسحب كي يفكّر في جوابه.

*

منذ أن خرج من عزلته الطّويلة، لم يعد فيلوغانيون يبقى في مكانٍ واحدٍ. كانت المشادّة الكلاميّة مع البروتستانت قد استُعملت كإعلان حربٍ. ذرع الأميرال معسكره صعوداً كما لو كان يعطي الأوامر الأخيرة قبل المعركة. الإهمال الذي ساد خلال الأسابيع الأخيرة بسبب إدارة الأمور من دون زعيمٍ كانت له آثاره السّيّئة على الانضباط، وسير العمل، والتّموين. وزّع فيلوغانيون التّنبيهات، والعقوبات من دون أن يتصرّف بتلك الطريقة الجلفة التي كانت معروفةً عنه من قبل، وعندما مرّ تحت المشنقة التي كان الغراب قد تفسّخ تماماً تحتها، شعر بالرّغبة في أن يعلّق عليها ثماراً جديدةً، وهكذا شُنق أحد المستعمرين كان قد قُبض عليه في أثناء استخراج الماء وهو يلوّث نفسه مع امرأةٍ من السُّكان الأصليّين. حتّى الّلحظة الأخيرة، لمْ يصدّق أيُّ شخصٍ أنّ ذاك كان ذنبه. حتّى ولا هو نفسه؛ إذْ راح يتقدّم نحو الحبل، وهو يبتسم. لكن الأميرال نزع بنفسه البرميل الذي صعد عليه، وقد راح المحكوم يتخبّط على طرف حلقة القنّب التي تحيط به، وهو لا يشعر بالألم بقدْر شعوره بعدم تصديق ما يحصل.

الهنود كانوا الضّحايا التّالية لقسوة فيلوغانيون الجديدة. أحدهم، بسبب أنّه نام في العمل، أو ربّما لأنّه ضحك بصوتٍ عالٍ خلال العرس،

حُكم عليه بالجَلد؛ ولأنّه وجد أنّ الجلّاد ممتلئٌ بالرّحمة أكثر ممّا ينبغي، قام الأميرال بأخذ السّوط من يديه، وراح يضرب بقوّةٍ شديدةٍ، ولفترةٍ طويلةٍ، إلى درجة أنّ الهنديّ ظلّ فاقد الوعي تماماً على الأرض.

الأوامر كلّها صارت أكثر قسوةً؛ أيّ شخصٍ يظهر على الشّاطئ في المساء من دون سببٍ، ولو لم يكن يحاول فعل أيّ شيءٍ بالزّوارق كان يجب أن يُقتل من دون تنبيهٍ. أيُّ احتكاكٍ بالبروتستانتيّين كان يُعدُّ فعل خيانةٍ عُظمى، وكان فيلوغانيون يطبّق بنفسه على المذنب الحكم الذي كان يراه جيّداً. عبر تلك الصّيغة فهم الجميع أنَّ الموت يمكن أن يكون خلاصاً، وفيلوغانيون يحتفظ لنفسه بالحقّ في أن يجعله مسبوقاً بكثيرٍ من العذاب. الصّلاة صارت إجباريّةً في الصّباح، وفي المساء، ولأنّه ما كان هناك شخصٌ مكرّسٌ يدير الصّلاة، كان يقوم بنفسه بالقراءة من الكتاب المقدّس، وتقديم العِظات، كذلك رسم سلسلةً من ملابس المناسبات عمل الخيّاطون ليل نهار في صنعها. وصل به الأمر إلى أن يُنزل السّجف المعلّقة في مقرّ القيادة من أجل أن يخيط بها مسوح وصدريّات الرُّهبان. صنع لنفسه منها عدّة قطعٍ من قماش النانكين القطنيّ، ومن الحرير البرّيّ، ومن قماش الأشرعة، ومن القماش ثلاثيّ الخيوط، وحتّى من جلد قطع الأثاث. لمْ يعد يظهر سوى بهذه القمصان المبهرجة، وهو يجرّ وشاحاً وراءه، ويرفع قلانسَ مجعّدةً، ويرتدي قبّعاتٍ عريضةً، وأغطية رأسٍ مغروزة بالرّيش.

كان عازف البوق يرافقه في كلّ مكانٍ، ويسبق دخوله بجَرسٍ يُلَعْلع، كما أنّه اختار إسكافيّاً أشقرَ الشَّعر، طفوليَّ الوجه؛ ليخدم كوصيفٍ له، فكان يتبع الأميرال حين يذهب إلى الصّلاة، وهو يحمل على بطنه صورة عذراء تيسيان.

عندما عاد جوست إلى المعسكر الكاثوليكيّ صار في البداية الشّاهد الأخرس على هذه التّطوّرات، لكنّ فيلوغانيون استدعاه في اليوم التّالي إلى مقرّ الحُكم. استقبله وحْده في قاعة المجلس الواسعة. تفاجأ جوست برؤية الأميرال يرتدي قميصاً بسيطاً من الكتّان النّاعم. أمّا لباس الاحتفال الذي سار به متخايلاً في الصّباح نفسه فكان معلّقاً على مِشجبٍ من الخشب.

- «أُدخل». أمره الأميرال: «اِجلس».

انتظر جوست مدّةً طويلةً أن يخرج الأميرال عن صمته. كان يبدو عليه كأنّه يصغي إلى صوتٍ ما آتٍ من السّماء.

- «لقد كذبتَ عليّ». صرخ الأميرال، وقد عاد إلى الأرض.

شعر جوست بالخوف من أن يخضع هو نفسه لعقابٍ نموذجيٍّ، والواقع أنّه كان على درجةٍ كبيرةٍ من الضّيق، إلى درجةٍ ما كان ليعترض معها على شيءٍ.

- «هذا يثبت أنّك لست أفضل من الآخرين». قال فيلوغانيون باللّهجة المروّعة نفسها.

ثمَّ رقّ صوته فجأةً، وجلس في طرف الطّاولة، وأراح كوعه عليها:

- لكنّك في الوقت ذاته لست الأسوأ.

مرَّ بيده الضّخمة على عينيه المتعبتين:

- على الأقلّ، أنت شجاعٌ وذكيٌّ. كلّ الرّجال يرتكبون الخطيئة. إنّها غلطتي؛ إذْ اعتقدت أنّك يمكن أن تفلت من هذا القانون.

لمْ يعرف جوست أيّة هيئةٍ يأخذ: هيئة المحكوم أم هيئة النّادم؟ اكتفى بأن ترك يديه على ركبتيه، وعيناه في الأرض.

- «إنّني أسامحك». قال فيلوغانيون بسرعةٍ: «أسامحك، وأعيد ثقتي فيك، أو بالأحرى، أعيرك ثقتي؛ لأنّني في هذه المرّة، وصدّقني حين أقول ذلك، سوف أراقبك. سوف تقود نصف الجيش».

هذه الكلمة الأخيرة لمْ يكن لها أيُّ معنىً. رفع جوست حاجبيه من الدَّهشة.

- نحن في حربٍ، هل تجهل ذلك؟

هزّ جوست رأسه.

- لمْ يعد هنا جنديٌّ ولا مستعمرٌ، لا عبيدٌ، ولا عمّالٌ. هناك جيش. وهذا الجيش ينقسم إلى قسمين: من جهةٍ هناك الفرسان والمحاربون القدماء، ومن الجهة الأُخرى كلّ أولئك الذين كنت تعرف عملهم في الورشة من قبل، والذين ستقودهم من الآن فصاعداً في الحرب.

- «لكنّ أولئك الذين كنت أشغّلهم لا يعرفون القتال». قال جوست وقد استجمع شجاعته.

- سوف تعلّمهم النّظام ومبادئ القتال. يمكن أن نجعلهم يضربون المدافع، ويستعملون كُتلاً من الخشب، وقد طلبت إلى قسم الحدادة أن يحضّروا سيفاً مقوّساً لكلّ واحدٍ منهم.

أعطى فيلوغانيون بالإضافة إلى ذلك مجموعةً من التّفاصيل تتعلّق بما ينتظرْه من هذه القطعات الجديدة، ومن زعيمهم. كان الطّقس حارّاً في منتصف بعد الظُّهر الذي خنقته يدٌ هائلةٌ لعاصفةٍ بعيدةٍ. أظهر فيلوغانيون طاقةً أقلّ من تلك التي كانت لديه في بداية الحديث، ثمَّ جاءت لحظةٌ صارت فيها لهجته متراخيةً، ومتسكّعةً، كأنّه لم يعد يأمر، إنّما يسير في درب البوح المتعرّج.

- «لقد علّمتك أنّ الإنسان طيّبٌ». قال من دون أن ينتظر جواباً: «كانت

تلك غلطتي الكبيرة؛ لأنّني آمنت بذلك. لقد أنقذني هؤلاء البروتستانت بطريقتهم الخاصّة».

راح ينظر إلى صورة العذراء التي أعاد الإسكافيُّ تعليقها على نحوٍ مائلٍ، وكانت تبدو مورّدةً وسعيدةً؛ لأنّها صارت تخرج كثيراً إلى الهواء الطّلق.

- الحقيقة أنّ الإنسان الذي خرج من الجنّة قد تلوّث بنسبةٍ متغيّرةٍ حسْب نوعيّة الخطيئة. بعض البشر ما زالوا يحتاجون إلى التّحسين، لكنّ بعضهم الآخر تجاوز الخلاص. إنّهم يجسّدون الشّرّ، وهذا كلُّ شيء. من أجل إيصال الإنسانيّة إلى الكمال، يجب تربية أولئك الذي يمكنَ تربيتهم... وحذف الآخرين كلّهم.

أنهى فيلوغانيون هذه الخطبة المنمّقة بصوتٍ شبه خفيضٍ، لكنّه استيقظ فجأةً، وانتصب واقفاً بقفزةٍ واحدةٍ.

- «لقد عرفتُ غلطتي». صرخ: «من غير المفيد، هل تفهم؟ من غير المفيد اللّجوء إلى العقل من أجل تسويغ الإيمان. أن تؤمن يعني أن تخضع. بحقّ جسد سان جاك! الكَهنة هُم الذين فهموا. البشر لا يذهبون إلى الله، إنّما يتوجّهون إليه؛ بمعنىً آخر: إنّهم يستسلمون أمام كامل قدرته».

كان في أثناء ذلك قد وصل إلى بزّته الصَّفراء والزّرقاء التي كانت معلّقةً على عمودٍ من الخشب كأنّها ببّغاء.

- لا يمكن خدمة الرّبّ إلّا بالقوّة. الزينة، والموسيقا، والفنّ الأكثر ثقلاً؛ أي: الذي يترك البشر مسحوقين من التّفاهة، هذا ما يمكن أن يجعل الله ينتصر. وإلّا، فإنّهم عبارة عن ثعابين سامّةٍ، ملعونين...

في أثناء قوله هذا وجّه أنفه المرفوع مثل كلب الدّرواس الضَّخم في اتّجاه الحصن، وبعده في اتّجاه المقرّ البروتستانتيّ، وهو مفعمٌ برغبة الانتقام.

- «لن يهدأ لي بالٌ إلّا عندما يذهب هؤلاء الخنازير من هنا». زمجر قائلاً.

بعدها استدار نحو جوست، وهدأ قليلاً، ثمّ تابع باللّهجة العمليّة التي كان قد اتّخذها في البداية:

- ستقوم بتأمين إبحارهم نحو السّاحل خلال عشرة أيّام. لا أريد أيّة مهلةٍ، ولا ضعفٍ، وسذاجةٍ. سيظلّون خطرين علينا حتّى اللّحظة الأخيرة.

- «لكنْ أين سيقيمون على اليابسة؟». تجرّأ جوست، وسأله مع ذلك.

- «أين؟». هزأ فيلوغانيون: «فلْيعتمدوا على قدرة ربّهم الإلهيّة للعثور على الجواب. دعْه يقدّم المأوى إلى هؤلاء الخنازير في المغاور، وفي الأغوار. دعْه يرميهم في جهّنمه ويشويهم فيها! إلّا إن كان يفضّل أن يجعل الحيوانات المتوحّشة تبتلعهم، إنْ لم تعد تلك الحيوانات تخشاهم».

كان جوست قد ترك الأميرال مشتعلاً بفكرة الانتقام هذه، وقد تملّكته خطبته المحمومة.

بعد ذلك ذهب إلى المقرّ العامّ للفرسان، حيث كانت الاستعدادات العسكريّة على قدمٍ وساقٍ. كآبةٌ فظيعةٌ كانت تخنقه. لا شكَّ في أنّه كان سعيداً لأنَّ فيلوغانيون قد غفر له، لكنّه لمْ يكن يقاسمه لا هيجانه، ولا كراهيته. عندما كرّس نفسه لبناء فرنسا الأنتاركتيكية، كانت حميّة الفارس قد وصلت إليه، وكان يشعر بالرّغبة نفسها التي لدى فيلوغانيون بأنْ ينذر حياته هديّةً للدّفاع عن فكرةٍ، أو بناء شيءٍ ما.

لا شكَّ في أنَّ التَّعليم لا يقوم سوى بضرب الأوتار التي تكون بالأصل مشدودةً في الفكر الشّاب، والأميرال عندما نقل إلى جوست رسالة الإنسانيّين، تعرّف هذا الأخير فيها إلى الألوان الفاتحة التي كانت موجودةً أصلاً في جعبته، مثل: تدرّجات اللازورد، والآجرّي الفاتح، والبنفسجيّ

الشّاحب، وهي الألوان التي اكتسبها ربّما من تلك السّنوات المنسيّة في إيطاليا؛ أمّا اليوم، فكلّ شيءٍ فيه يتمرّد على الفلسفة السّوداء التي يبشّر بها الأميرال، وفكرة أن تُعهد إليه إحدى مراكز قيادة الجزيرة كانت بالنّسبة إليه بلا أهمّيّةٍ، لا بلْ ومخجلةً. كان الهرب ممنوعاً عليه، والحماسة صعبة المنال. لمْ يعد يجرؤ حتّى أن يفكّر بكولومب لكثرة ما كان يخجل من أن يرى نفسه بعيونها.

الفصل 2

صارت كولومب تعيش عاريةً. كانت قد اتّخذت ذلك القرار منذ عودتها إلى باي لو. بعد الاضطّراب الأوّل الذي شعرت به، وهي تترك الجزيرة، حلّ فيها غضبٌ مسعورٌ أصمّ ضدّ أيّ شيءٍ يأتي من هناك، وبما أنَّ ذلك العالم كان قد لفظها، فقد لفظته بدورها. لم يكن هناك ما يبدو لها مضحكاً وإجرامياً مثل تلك المحاولة الاستعماريّة. كانت ترى في فيلوغانيون وحشاً ثملَ بسُلطته. كراهيته للمرأة لم تكن سوى التّعبير عن خوفه أمام الحياة، والطّبيعة، والحبّ، وعوضاً عن هذه الأشياء النّاعمة، كان بستانيّ الرُّعب يزرع الحرب والدّمار، والكراهية. شيئاً فشيئاً، من أجل التّخفيف من شعور الفقدان الذي كانت تشعر به بعد غيابها، انتهى الأمر بكولومب بأن تضع جوست في اللّائحة السّوداء التي كانت ترسمها بنفسها عن الجزيرة، والذين يعيشون فيها كلّهم، وإنْ كان قد أخذ بتلك السُّهولة مظاهر السُّلطة بحيث جعل من نفسه أداةً لها، فذلك مردّه لا شكّ إلى أنّه مصنوعٌ من معدنٍ أكثر وضاعةً، وأكثر رخاوةً ممّا كانت تعتقد، وعوضاً عن أن تتابع الشُّعور بالألم في انتظار أخبارٍ عنه لمْ تصل، فضّلت أن تخبّئه تحت أكوام المثالب التي لديها تُجاه المستعمرة.

وهكذا انتهى بها الأمر إلى أن تظنَّ أنَّ القَدَر إذْ طردها من هذا الجحيم كان فعليّاً قد وقف إلى جانبها، وأساها كان بمنزلة حظٍّ، شريطة أن تكون لديها الشّجاعة لكي توصل إلى النّهاية الاستنتاجات التي كان يفرضها كلّها: الاستنتاج الأوّل أنّها لن تعود أبداً إلى العالم الأوروبيّ، الثّاني كان يأمرها بأن تعترف بأنّها صارت تنتمي إلى عالم الغابة في الأمريكيّتين. كان عليها أن تترك نفسها تنقاد إلى بساطتها وسلامها. باي لو لمْ يكن سوى مرحلةٍ، وفي يوم من الأيّام سوف تصل إلى قبيلةٍ، وستعيش ربّما بين هنود آخرين. كان عليها في انتظار ذلك أن تقاتل ما لا يزال يفصلها عن تلك الحياة الطّبيعيّة كلّه، وما أورثه إيّاها العالم القديم كلّه من أفكارٍ مسبقةٍ مقيتةٍ، ومن احتياجاتٍ. كان خلع الملابس المرحلة الأولى في هذا الاتّجاه الجديد.

كانت نساء باي لو تعشْنَ في هيئاتٍ متنوّعةٍ كان العُري من بينها مجرّد طريقةٍ للظُّهور مثل غيرها من الطُّرق، ولقد استقبلْنَ قرار كولومب ببساطةٍ، فقصَصْنَ لها شَعرها على الطّريقة الهنديّة، ورسموا لها على جلدها بزيت الروكو وشوماً. في المرّة الأولى التي رآها باي لو هكذا لمْ تظهر عليه المفاجأة، ولا الاستنكار. قال لها بكلّ بساطةٍ كنوع من المديح الحنون والممتلئ بالاحترام إنّه لو لمْ يكن عجوزاً منزوع الأشواك لكان تزوّجها. قدّم إليها هديّةً هي أساور من القواقع والصَّدف.

وحْده كانتان أبْدى بعض الضّيق أمام كولومب الهنديّة. هو الذي كان أوّل من علّمها بساطة الجسد التّقيّة. جُنّ جنونه عندما رأى هذا الجسد متعرّياً إلى جانبه، وربّما كان ذلك بسبب لونها الأبيض. كان الرّجُل المسكين يعيش في تلك الفترة أزمة وعيٍ، فعندما دخل إلى الأرجاء الأنثويّة لباي لو حاملاً معه مطامع تبشيريّةً كبيرةً، كان قد حوّل إلى ديانته حول الحبّ نصف دزّينةٍ من نساء ذلك البيت. كان يقبّلهنّ بالدّور، ويداعبهنّ بكثرةٍ،

مضيفاً إلى ذلك بعض البهارات من القراءات المقدّسة، لكنّه سرعان ما أدرك أنّ ذلك كلّه كان بالنّسبة إليهنّ بمنزلة لعبٍ. كانت النّساء يجدْنَ دائماً طريقةً لإحداث مفاجأةٍ في أثناء مجرى الدَّرس، فإذا بالفتاة التي جُرَّتْ إلى الدّين المسيحيّ تهرب، وهي تضحك مع صديقتها، في حين يبقى كانتان وحْده محتاراً.

أخيراً، في يومٍ من الأيّام، بدا على إحداهنّ أنّها أكثر جديّةً من غيرها. كانت هنديّةً ضخمةً، ملامحها ثقيلةٌ، اسمها إيغات. كان وجهها المربّع والمسطّح يرسم التّعابير بِبُطءٍ. لمْ تكن مثل رفيقاتها سريعة الاستجابة للضّحك، ولا للسُّخرية؛ وعندما كان كانتان يشرح لها الإنجيل لم يشعر لديها بتلك الحماسة الخفيفة التي كانت عادةً تتملّك النّساء اللّواتي يحاول تحويلهنّ إلى الدّين. ما كانت تلك المرأة قد خضعت لأيّ شيءٍ، ولا فرضت أيّ شيءٍ. استجابت لحركاته بحركاتٍ ممزوجةٍ بالجدّيّة، وبالحنان، وقد ترك نفسه يرتاح فيها في اليوم الأوّل، وهو للمرّة الأولى، لا يفكّر بالإنجيل بقدْر ما يفكّر بابتسامة النّشوة التي استطاع أن يولّدها على شفتيها الكبيرتين.

لا يوجد في العالم واعظٌ يُستمَعُ إليه، إلّا وتكون لديه الرّغبة في أن يكرّر نفسه، وقد انتهى الأمر بكانتان إلى أن يكرّس لتعليم إيغات جُلّ وقته وقوّته، والأصعب من ذلك أنّه ما عاد يشعر في داخله بالرّغبة في أن يحمل تعاليمه إلى أمكنةٍ أُخرى. جعلته تلك الحالة عابساً، وقد أسرّ بهذه المشاكل إلى باي لو.

– «وما الذي يزعجك كثيراً في ذلك كلّه؟». سأله العجوز.

– إنّك لا تفهمني. لقد كرّست حياتي لنشر إنجيل المحبّة، وها أنا أجد نفسي بلا قوّةٍ لمتابعة القيام بمهمّتي الرّسوليّة.

أمسك باي لو لحيته بيده المعروقة، وبدأ يداعبها.

- «ألا تستطيع أن تجعلني أستفيد من هذه التّعاليم؟». سأله باي لو بسذاجةٍ.

- «على الإطلاق!». صرخ كانتان باستنكارٍ: «إنّني أدعو إلى الاستعمال الحُرّ للرّغبة، ورغباتي لا تحملني سوى نحو النّساء».

- «ليس هذا ما أردت قوله». قال باي لو: «ألا تستطيع فقط أن تشرح لي كيف يتجلّى هذا الحُبّ الذي يبدو لك أنّه يتدفّق من رسالة يسوع؟».

أجاب كانتان بجدية:

- إنّها لغةٌ، أبجديّتها هي الجسد، وتصريفها هو المداعبات والحركات النّاعمة التي تنتهي بتمازج الكائنات، ما ينتزعها من حدودها، ويجعلها تتخيّل نوعيّة الحياة الأبديّة.

بقي باي لو فترةً طويلةً يفكّر، ثمَّ قال لكانتان، وهو يمدّ يده إلى سنجابٍ صغيرٍ أصْهب مرّ بقربه، وهو يقفز:

- سوف استفزّك قليلاً. أليس كذلك؟ لكن يبدو لي أنّ البروتستانت كانوا على حقٍّ حين أرادوا حرقك.

- «ولماذا؟». قال كانتان، وهو يكاد يقفز من المفاجأة.

- ذلك لأنّهم يدينون الخلاص عن طريق القيام بالأعمال، وهو ما تمارسه أنت.

- لا أفهم شيئاً ممّا تقول.

كان السّنجاب قد تسلّق أصابع باي لو فحمله ليقرّبه منه. راحت عين الحيوان المستديرة تحدّق بكانتان بحذرٍ.

- «أنت تعطي أهمّيةً كبيرةً للحركات يا صديقي!». قال باي لو: «لكي

تثبت الحبّ الذي أعتقدُ مثلك أنّه إلهيٌّ، يبدو لك من الكافي ممارسة طقوسه؛ أي إنّك تبقى، إن سمحتَ لي بالقول؛ على مستوى المظاهر».

خفض كانتان عينيه.

- أنت تمارس المداعبات مثلما يقوم غيرك بتهريب رفات القدّيسين، أو ببيع صكوك الغفران للوصول إلى الجنّة.

- «وماذا أستطيع فعله عدا ذلك، بما أنّ تلك هي رغباتنا؟». أجابه كانتان.

- «آه، ليست لديّ نصائح أقدّمها إليك»، قال باي لو بهدوءٍ: «يبدو لي بكلّ بساطةٍ أنَّ ما حصل لك هو فرصة كبيرةٌ.

- ألّا أستطيع نشر المحبّة فرصة؟

- ألّا تعود لنشرها، ربّما...». قال ذلك باي لو، ثمّ أضاف بنعومةٍ مع ابتسامةٍ لا يمكن مقاومتها لقَدْر ما فيها من ضياءٍ، ومن طيبةٍ: «إنّما أن تعرفها».

*

في يومٍ من الأيّام، جاءت باراغواتشو. كانت قبيلتها في موقعٍ قريبٍ، وقد قطعت الطّريق وحْدها مشياً على الأقدام؛ كي تأتي لرؤية صديقتها. كانت كولومب عند الشّلّالات في ذلك الصّباح مع نساءٍ أُخريات. انضمّت باراغواتشو إليهنّ هناك، والتقينَ في الماء العذب مع كثيرٍ من الدُّموع، والصّرخات، ومبارزاتٍ بالأغصان، وتيجانٍ من الورود.

- كم تغيّرتِ يا عين-شمس!

- «تغيّر مسوحي؟». قالت كولومب، وهي تضحك.

- لا. تغيّر جسدكِ. عندما عرفتك كنتِ قطّةً صغيرةً مسلوخةً، والآن أيّة امرأةٍ جميلةٍ صرتِ. هل اتّخذت رجُلاً؟

قطّبت كولومب. حريّة الهنديّات في هذا الموضوع لمْ تكن تضايقها. كانت تريد أن تصبح مثلهنّ، وأن تحكي ببساطةِ رغباتها، وقصص حبّها، لكن على أنّها صارت على شاكلتهنّ، فإنّها لمْ تترك بعدُ الخجلَ الثّقيلَ الذي تنوء تحت ثقله في أوروبا جروح الرّوح.

- «لا». اعترفت.

ضحكت باراغواتشو، وقلّدتها كولومب.

- «و... أخوكِ؟». سألتها الهنديّة التي كانت تتذكّر ما أسرّت لها به من زمانٍ في القرية.

- «لقد مات». أجابت كولومب بسرعةٍ.

ثمّ احمرّ وجهها، لكن بما أنّ باراغواتشو بدت منفعلةً بعمقٍ من هذا الخبر، وبدأت تداعب وجنتها، فقد أضافت:

- لقد مات بالنّسبة إليّ.

هذا الاعتراف فاجأها هي أيضاً، لكنْ لم تكن بمزاجٍ يسمح لها بتعميق القصّة. كان الموضوع يضايقها إلى درجةٍ لم تستطع معها أن تتابع. سارت ببوحها في اتّجاهٍ آخر حين سألتها ما الذي فعلته خلال تلك الفترة.

اكتسبت باراغواتشو فجأةً هيئةً ساهمةً ومتألمةً.

- «عائلتي عرفت عقاب الأرواح الكبير». قالت الهنديّة: «لقد أفلتت تلك الأرواح من عقالها وهاجمتنا. قتلت عمّي، وأبي، وأمّي، وأولاد عمّي كلّهم، ولكي نجعلها تهدأ كان علينا أن نهرب، لكنْ على التّضحيات والقرابين لمْ ينجح شعب الكاريبي في تهدئة الشّياطين. لمْ يبق منّا اليوم سوى ستّة أفرادٍ».

تذكّرت كولومب الجثث التي وجدتها في الغابة، والقرية المقفرة. عانقت باراغواتشو بذراعيها، وتركتها تبكي فترةً طويلةً.

لمْ تجرؤ أن تسألها عن أخبار كارايا، الشّابّ الأسير الذي كانت تمضي لياليها معه في الماضي. كانت كولومب تخشى أن تعلم أنّه كان هو أيضاً بين الأموات بعد أن التهمه المرض، إلّا إنْ كان البشر هُم الذين التهموه.

لمْ تقولا أيّ شيءٍ آخر حول هذا الموضوع، ورجعتا إلى ألعابهما وسعادتهما بالاجتماع معاً. الآن، وبفضل باراغواتشو، صار باستطاعة كولومب أن تشعر بالأمل في الدّخول كُلّيّاً إلى العالم الهنديّ. كانت تشعر بنفسها جاهزةً، وترغب في ذلك. عندما تعود الفتاة إلى قبيلتها، سوف تعرض عليها أن ترافقها.

في المساء، حضّر باي لو عشاءً كبيراً بمناسبة عودة باراغواتشو، وعلى الرغم من الغيوم التي ازداد تهديدها بالأمطار، كان الطّقس ما يزال حارّاً والنّهار جميلاً. قُدّمت الوجبة على الشُّرفات التي كانت مُنارةً بالشّموع والقناديل. كانت هناك أطباقٌ من لحم الطّرائد المتبّلة بالبهارات قُدّمت مع نبات المانيوكا. كانت هذه الوجبات قد طُبخت على نارٍ من خشب البرازيل، وفي جرارٍ هنديّةٍ، وقُدّمت في صوانٍ من الفضّة تحمل شعارات ملك إنجلترا، وقد التُقطتْ من سطح باخرةٍ محاربةٍ، لكنّها أُكِلتْ بالأصابع.

ضمن الأشياء الكثيرة الموجودة في الصّناديق، وفي الخزائن، التي كانت تملأ أرجاء البيت، اكتشفت كولومب ناياً جميل الصّنعة صُنعَ في النّمسا، وظلَّ كما هو في علبته من الخشب الورديّ المبطّنة بالتافتاه. عزفت عليه عدّة مقطوعاتٍ بعد العشاء. أغلق باي لو عينيه، وقد تملّكه الحنين. كذلك ظلّ الهنود هادئين. كانوا أكثر تفاعلاً مع الإيقاع منهم مع النَّغم، ولذلك كانوا يغيّرون تعابير وجههم حسب تلوّن الآلة. في بعض الأحيان كان الإيقاع يهدّئهم بارتعاشاتٍ ناعمةٍ، وأحياناً كان يستفزّهم من خلال نوتاتٍ متناويةٍ خفيضةٍ، ومهدّدةٍ. جالت كولومب بالنّاي بين الهنود

الذين كانوا ينظرون إليه من الخارج ومن الدّاخل، واقتنعوا في النّهاية أنّه كان مجرّد أنبوبٍ من المعدن. صاروا الآن ينظرون إلى عين-شمس بمزيدٍ من الاحترام، وكان من الواضح بالنّسبة إليهم أنَّ في داخلها يعيش العصفور الغامض الذي كان وجهها يشبهه، ومنه تتسرّب أرواح الأموات؛ ولمْ يشكّوا قطُّ في أنّ ما سمعوه في الحال كان تغريده.

تلا هذه الحفلة الموسيقيّة خدرٌ لذيذٌ. كان باي لو قد رغب في أن يترافق العشاء بنبيذ مادير الذي كان يملك منه براميل كاملةً أوصلها التّيّار إلى منطقة كابو فريو، وحُملت إليه على ظهور الرّجال. عوضاً عن الكهوان الذي كان يؤدّي إلى الاستثارة قاد النّبيذ الهنود إلى صمتٍ مسكونٍ بالأحلام. كانت الغابة من حولهم ممتلئةً بأصوات الحيوانات، والزّقزقة، والهمسات، وضجيج الالتهام، لكن فوق ذلك، ومن جهاتٍ عديدةٍ، كانت تأتي ضجّة الاحتفال مع إيقاعات الطّبول الجوفاء، وأجراس الخشخيشات، وضحكاتٍ برّاقةٍ.

عند سؤال كولومب عن مصدر هذه الضّجّة، أجابها باي لو ببساطة:

– لقد استعاد الهنود قوّتهم منذ الوباء، وهُم يتعجّلون الاحتفال بأضاحيهم قبل عودة العواصف.

– أضاحيهم...؟

– ... البشريّة.

استولى على كولومب رُعبٌ غير متوقَّعٍ عند سماعها تلك الكلمة. على غرابتها، كانت الحياة الهنديّة تبدو لها مثل استسلامٍ للنّعومة، ولما هو طبيعيٌّ. كان اسم أكلة لحوم البشر لديها مرتبطٌ بالكراهيَة والجهل الّلذين يميزان فيلوغانيون ما أن يتكلّم عن السُّكّان الأصليّين. وقد وصل بها الأمر إلى أن تلغي وجود هذه الممارسات من ذهنها. كان باي لو الصّامت يدخّن أمامها بهدوءٍ عصاً من التّتن. نظرت إليه بحذرٍ مفاجئٍ.

- هكذا إذاً، أنت أيضاً تؤمن بذلك؟

- بماذا؟

- بأنّهم أكلة لحوم بشر.

رفرف بعينيه ببطءٍ، ربّما لكي يطرد الدّخان الذي كان يحيط بوجهه:

- ليست القصّة أن أؤمن بذلك أم لا. إنّه أمرٌ واقعٌ.

- إنّهم يأكلون أشباههم.

- أجل.

- رأيتهم؟

باراغواتشو التي كانت جالسةً إلى جانب كولومب تركت رأسها وكتفها يسقطان، وهي تنظر بثباتٍ إلى فتيلة المصباح. لمْ تكن تفهم الفرنسيّة، وكانت تحبّ أن تدغدغها النّغمات النّاعمة لتلك اللّغة.

- «ولماذا يفعلون ذلك؟». سألت كولومب التي شعرت فجأةً بعُريها مثل ضعفٍ، فبدأت ترتعش.

- «لماذا؟». قال وراءها حالماً: «من يعرف؟ حتماً ليس ليتغذّوا كما يظنّ أصدقاؤنا في الجزيرة...».

رسم على وجهه ملامح ابتسامةٍ، لكنْ عندما رأى التّعبير المتألّم في قسمات كولومب، استعاد جدّيته وأخذ صوته نغمةً حنوناً.

- الهنود يعيشون في الغابة حيث كلّ شيءٍ يموت، ويعود إلى الحياة، وحيث تُتبادلُ القوى دائماً بين لحظة النزّع الأخير، ولحظة الولادة. إنّهم لا يأكلون إلّا أعداءهم، وهُم يفعلون ذلك كي يستحوذوا على قُدراتهم، وهُم يبدؤون ذلك بجعل سجنائهم يعيشون فترةً طويلةً فيما بينهم.

- لكن لماذا لا يهرب هؤلاء المساكين؟

- لأنّ لديهم المعتقدات نفسها. إنْ توصّلوا إلى العودة إلى بيوتهم سيُعاملون كجُبناء، وسيُقتلون أيضاً.

نظرت كولومب إلى باراغواتشو النّائمة، وفكّرت من جديدٍ بصديقها القديم. شعرت بأنّها لن تقدر بعد الآن أن تسأل عنه خوفاً ممّا تخشى أن تعرفه عنه من صديقتها.

- «يعني». قالت، وهي تمثّل اللّهجة الطّبيعيّة: «أنّهم يستسلمون للقتل مثل الحيوانات؟».

- «لا». أجاب باي لو بعد زمنٍ طويلٍ من التّفكير: «ما كنت لأقول ذلك. إنّهم يرضخون لقَدرهم، لكنّهم يظهرون أكبر قدْرٍ من الشّجاعة. عندما تبدأ عملية التّضحية بهم، يبدأ الأمر بربطهم إلى شجرةٍ لمدّة ثمانية، أو عشرة أيّام، ومن الخصر فقط. بذلك تبقى أيديهم حُرّةً ليرموا كلّ ما يجدونه في متناولهم على الفلّاحين الذين سوف يأكلونهم. يشتمون قَتلتهم حتّى آخر لحظةٍ، ويُقسمون بأن يجعلوا عائلاتهم تنتقم لهم، وهُم غالباً على حقّ فيما يتعلّق بهذه النّقطة».

كانت كولومب قد تجاوزت القرف، ودخلت في نوعٍ من الانبهار الذي جعلها ترغب في معرفة كلّ شيءٍ.

- وكيف يُقتلون؟

- «كيف؟!». تعجّب باي لو: «يقوم شعب الكاريبي بتنظيم طقوسٍ كاملةٍ مع رقصاتٍ، وما تتنبّأ به الخشخيشات، ثمَّ يتقدّم الشّخص الذي سينفّذ مع هراوةٍ مزيّنةٍ بشبكةٍ من المربّعات الحُمر في المكان الذي ستُضرب فيه الجبهة...».

- «ثمّ يأكلون كلَّ شيءٍ؟». سألت كولومب، وقد شَحب لونُها، وزمّت شفتيها، لكنّها كانت تريد أن تذهب إلى النّهاية فيما يجب أن تعرفه.

- كلّ شيءٍ تماماً. كلّ قطعةٍ من الجثّة تكون مهيّأةً طقوسيّاً لهذه الجماعة، أو تلك.

من خلال سماع إجابات المسنّ الواثقة، ولهجته الطّبيعيّة، تملّك كولومب شكٌّ مفاجئٌ.

- «إنّك تتكلّم عن ذلك بتفصيل دقيق». قالت فجأةً: «هل...».

- «شاركتُ في هذه الاحتفاليات؟ نعم، بالتّأكيد. أنا هنا منذ عددٍ كبيرٍ من السّنين؛ أمّا فيما يتعلّق بأكل اللّحم البشريّ، فلمْ أرضخ لذلك قطٌّ. قطٌّ». كرّر بحزمٍ.

ما كان يمكن لحُبّها له أن يقلّ لو أنّه اعترف بالعكس، لكنّ ذلك الجواب أراحها.

- إنّني تماماً ضدُّ القتل. الهنود يعرفون ذلك، والذين يعيشون هنا قبلوا أن يتخلّوا عن هذه الممارسات.

- «هُم، ربّما»، اعترضت كولومب قائلةً: «لكنْ ماذا عن الآخرين، أولئك الذين نسمعهم؟».

كان ضجيج المآدب قريباً جدّاً إلى درجة أنّ الهواء كان يحمل معه أحياناً روائح دهنٍ مقيتةً، وتلاوات ساحرٍ يبدو أنّها أتت من الجوار القريب.

- «لكنْ ماذا لو ذهبنا لنراهم». انفجرت كولومب قائلةً: «ماذا لو اعترضنا، لو صرخنا؟».

كان ذلك ما فعلته تقريباً، ما جعل باراغواتشو النّائمة ترفع رأسها.

- عندها سينظرون إليك كما لو كنتِ تريدين المساس بحياة مجموعتهم، طالما أنّهم بإدراجهم قوّة الميت في هذه المجموعة يَأملون أن يحموها، وأن يدافعوا عنها، وعندها تكونين أنت المهدّدة بأنْ يقتلوكِ.

- يبدو لي أنّه في هذه الحالات تكون القوّة...

ضحك باي لو بصمتٍ، لكنْ مع تشنُّجاتٍ صغيرةٍ طويلةٍ لم تحبّها كولومب.

- يبدو لي أنّكِ قد ذهبتِ بالفعل على خُطى يسوعيّي ساو فيسنته. إنّهم يحرقون قرى أكلة لحوم البشر. مبدأهم هو أنّه يجب قتل الهنود من أجل منعهم من القتل!

صمتت كولومب، لكنّ توتُّر أعصابها جعل ذقنها ترتجف. تملّكتها فجأةً رغبةٌ في الهرب، لكنْ إلى أين المفرّ عندما يكون العالم الذي أتيت منه قد لفظك؟ وأيّة ثيابٍ تخلع عندما تكون عارياً؟

- «أفهم ثورتكِ». همس باي لو بنعومةٍ: «يجب أن تحافظي عليها كما هي. أريدك أن تعرفي أنّ ثورتي لم تفقد شيئاً من قوّتها على مَرّ السّنين، ومع ذلك فإنّني أعتقد بصدقٍ أنّه إذا ما أردنا جعْل الهنود يتغيّرون، يجب في البداية أن نجبر أنفسنا على الاعتراف بأنّهم على حق».

كان يبدو عليه أنّه يزين ثقل هذا الكلمة بميزانٍ غير مرئيٍّ.

- أترين يا كولومب، أنا وأنتِ ولدنا في الجانب الآخر من عالمِ الطّبيعيُّ فيه هو تدمير العدوّ؛ أمّا الهنود، فهُم لا يدمّرون عدوّهم، إنّما يدمجونه في أجسادهم. لديهم صفةٌ رائعةٌ هي أن يتغذّوا بما هو عكسهم. ترمين أربع نغماتٍ موسيقيّةً، فإذا بهم يتشرّبونها في ألحانهم. تضعين قبّعتك على سُلّمٍ، فيجعلون منها زينةً للعيد. تعلّموا ذلك من الغابة حيث الأشياء كلّها تتداخل مع بعضها، وتخصّب بعضها بعضاً، وحيث ما لم يَلتَهِمْ يُلتهم. لا شيء أكثر غرابةً بالنّسبة إليهم من عقلنا الزّراعيّ الذي يلغي الفصائل كلّها كي لا يحافظ إلّا على واحدةٍ تكون مفيدةً له، وما يمتنعون عن فعله بالنّسبة إلى النّباتات، لا يفعلونه مع الكائنات الحيّة.

مدَّ باي لو يده، وداعب جبهة كولومب. جسمه الذي لامس جسمها أراحها على برودته، وبروز عظامه.

مدّت باراغواتشو يدها نحو صحنٍ، وعجنت كرةً من المانوكا.

- «يجب أن نقبل أن يغيّرونا، إنْ كنّا نريد أن نغيّرهم نحن». قال باي لو.

صار الوقت متأخّراً بالنّسبة إليه، فبعد أن قال تلك الكلمات وقف بصعوبةٍ، وسندته امرأةٌ لتساعده في الدّخول إلى عتمة بيته.

ظلّت كولومب فترةً طويلةً تحلم داخل الغابة حيث كان السّلام قد عاد رويداً رويداً بعد أن انتهت مراسم الأضاحي.

الفصل 3

الحروب الدّينيّة هي نعمةٌ بالنّسبة إلى المجرمين؛ إذْ يصبح العنف مقدّساً فجأةً؛ وطالما أنّهم يعرفون ادّعاء حالة الإيمان، على الأقلّ بالكلام، فإنّهم ينالون الإذن من ربٍّ ما كي يقوموا بالأعمال الخسيسة كلّها التي طالما حلموا بها. لمْ يكن قد غاب عن بال فيتوريو ما يمكن أن يناله من منافعَ من الصّراع الذي اندلع بين الجانبين اللّذين يتنازعان الجزيرة. عندما تزعّم دون غونزاع خلال عزلة فيلوغانيون الحزب الكاثوليكيّ، ارتمى فيتوريو عند قدميه، واستحلفه بأن يتركه مغلولاً إلى قضيّة العذراء. كان ذلك يفترض فقط أن ينزعوا عنه الأصْفاد الأُخرى التي أمر بوضعها في كاحله فيلوغانيون عندما عَفا عنه بعد مؤامرة الغراب. وافق دون غونزاع بسهولةٍ على هذا الطّلب، وقد أظهر الفينيسي أنّه أهلٌ للثّقة التي وضعها فيه.

جثّته الضّعيفة، وتجربته الخاصّة في مجال الأسلحة التي تجعله قادراً على استعمالها في وجه الخصوم الذين يعجزون عن استعمالها لم تكن -قطُّ- تهيئةً لأنْ يأخذ مكاناً في القوّات النّظاميّة، لكنّه بوصفه جاسوساً، كان يقوم بما يشبه المعجزات. كان أحد الأشخاص النّادرين الذين يستطيعون أن يتجوّلوا في كلّ مكانٍ، بما في ذلك لدى البروتستانت الذين

أقنعهم بأنّه كان ساخطاً على الأميرال؛ لأنّه حكم عليه ظُلماً قبل مجيئهم، وكان كلّ ما يسمعه هناك يصل بفضله إلى آذان غونزاغ الذي استطاع بذلك أن يعرف مخطّطات العدوّ ويتجاوزها.

بعد أن حدثت القطيعة، وبعد احتفاليّة العرس الفظيعة، وجد فيتوريو نفسه فترةً من دون عملٍ؛ لأنّ البروتستانت لمْ يعودوا يقبلون الغرباء لديهم؛ أمّا الأميرال، واعترافاً منه بخدماته، ولكي يعطيه إمكانيّة استعمال ميزاته، فقد كلّفه بمهمّةٍ أُخرى أكثر خطورةً، لكنّها أكثر جلباً للرّبح.

كان فيلوغانيون حاذقاً، فمنذ أن قام بطرد البروتستانت من الجزيرة، بدأ يخشى من خطرٍ جديدٍ؛ أن يتّحد البروتستانت ضدّه مع تراجم السّاحل، وعلى القرف الذي كان هؤلاء الأشقياء يوحون به إليه، إلّا أنّ الأميرال كان مضطّراً إلى قبول التّقارب معهم، ولهذه الغاية فإنّه على غضبه كلّه في أثناء العرس، فإنّه قد احتفظ بما يكفي من العقل لكي يعطي لنفسه أسبوعين من الرّاحة، تاركاً هذه المهلة للبروتستانتيّين كي يحزموا أمتعتهم.

في انتظار ذلك، سارع إلى إرسال رسولٍ عند مارتان الذي كان يتزعّم -كما يقال- قراصنة الأرض اليابسة، وبناءً على توصيةٍ من دون غونزاغ، حكم بأنّ فيتوريو مناسبٌ لهذه الغاية. كان هناك حتماً خطرٌ أن يستفيد المحكوم السّابق من هذه المهمّة لكي يهرب، لكنّ فيلوغانيون، ولكي يقلّل من هذه الإمكانيّة، لوّح له بمكافأةٍ كبيرةٍ فيما لو توصّل إلى النّتيجة التي كان قد حدّدها له.

وهكذا، في يومٍ من الأيّام، بعد أن نزل من زورقٍ كان ذاهباً للبحث عن الماء العذب في آخر الخليج، ابتعد فيتوريو طواعيةً حتّى ظنَّ الآخرون أنّه كان قد ضاع، وقد عدّوه مفقوداً عند العودة، وادّعى فيلوغانيون عندما أعلموه بذلك في المساء أنّه قد انزعج من ذلك.

بعدها، قام ذلك الذي ادّعى الهرب من الخدمة بالمشي فترةً طويلةً على طول الشّاطئ، في ظلّ شجرات جوز الهند الهزيل. كان ينتظر إشارةً تأتيه من الأدغال تبيّن أنّه قد مُيِّز، وهذا ما كان يفعله أولئك الذين يهربون. كانت لدى هنود السّاحل أوامر بأنْ يمسكوا بالفارّين برقةٍ، وأن يأخذوهم إلى مارتان الذي كان يقرّر إن كانوا على درجةٍ من السّوء تسمح لهم أن يلتحقوا بقطعات النُّخبة لديه، وفي الواقع، في الصّباح الباكر، كانت هناك كتيبةٌ من المتوحّشين تحيط بفيتوريو الذي كان قد نام بدعةً على الشّاطئ، ورأسه على كومةٍ من الرّمل غطّاه بسترته القماشيّة. هكذا، ومن دون أدنى كلمةٍ، وبأكثر ما يمكن توقّعه من اللّطف من هؤلاء البدائيّين ذوي الشّفة المشقوقة، أسْلم الفينيسي قياده عبر الأدغال حتّى المعقل الذي كان مارتان ينتظره فيه كي يفحصه.

- «أها». صرخ أمير التّراجم: «هل هذا أنت؟».

- «آهٍ يا مارتان!». أجاب فيتوريو، وفي صوته شهقة بكاءٍ صادقةٍ يطلقها من وجد معاملةً إنسانيّةً بعد الخروج من الجحيم: «أيّة مفاجأةٍ رائعةٍ!».

ولأنّه كان ما يزال مرتبطاً بالعادات التي اتّخذها مع دون غونزاغ، التي كانت تذكّره ببلاده، شرع يصلّي للسّيّدة العذراء، وهو جاثٍ على ركبتيه، لكنّ دهشة مارتان كانت أكثر قوّةً أيضاً من تلك اللّعنات كلّها، ولذلك راح الشّحّاذ القديم ينظر إلى فيتوريو بدهشةٍ يمكن تفسيرها كنوعٍ من العدوانيّة.

- «لعلّك كنت تظنُّ أنّني شُنقت مع الغراب؟». قال الفينيسي لكي يبدّد شكوك مارتان، ويبدأ بتفسير وضعه.

- «لا». قال مارتان من دون أن يخفّف من ثبات نظرته القلقة.

ثمّ أشار فجأةً إلى بعض الأفراد الذين كانوا يتجوّلون في الكوخ وحوله لكي ينسحبوا بعيداً عن مرمى صوتيهما، ثمَّ قال:

- يجب أن نتكلّم.

للمرّة الأولى منذ أن ترك الجزيرة، بدأ فيتوريو يشعر بالخوف. عندما صارا وحدهما وجهاً لوجه جلس مارتان قُبالة الهارب الكاذب.

- «كيف عرفت أنّنا كنّا نبحث عنك؟». قال له.

- «كنتم تبحثون عنّي؟». تعجّب الفينيسي: «كنت أجهل ذلك».

حدّق مارتان به، لكنّه كان من المستحيل قراءة أشياء أُخرى على وجه القاتل الذي كان الضّياع القاتم قد ألزمه بالصَّراحة. مع ذلك كان فيتوريو يشعر بالخوف في داخله، فالخطّة التي كان الأميرال قد صاغها له كانت تفترض أن يكسب ثقة مارتان، بحيث يسمح له هذا الأخير بالعودة إلى الجزيرة، لكنَّ الشّكّ الذي كان هو محوره جعل من الصَّعب تحقيق هذا الطّلب.

- ها قد مضت أيامٌ ثمانيةٌ منذ أن بدأت أحفر في دماغي لكي أعرف كيف أصل إلى التّواصل معك.

- «معي؟». صرخ فيتوريو فجأةً بقلقٍ شديد؛ لأنَّ تجربته قد علّمته بأنّه لا يمكن أن يُبحثَ عنه إلّا لأسبابٍ سيّئةٍ.

- «نعم، التّواصل معك». أكّد له مارتان، ثمَّ أضاف، وهو يزمُّ عينيه:

- أليس لديك أيُّ شكٍّ لماذا؟

فكّر فيتوريو بالأعمال السّيّئة كلّها التي اقترفها ليعرف أيّ منها كان قد أزعج التّراجم. لمْ يجد أيّة واحدةٍ منها؛ أمّا بالنّسبة إلى الأعمال الجيّدة، فقد كان تفحُّصها أسرع. عندها، وفي وسط تلك الغابة التي كانت ما تزال رطبةً بفعل الأمطار الأولى، وحيث كان كلُّ شيءٍ عبارةً عن ورقٍ وقشورٍ، رنّت كلمةٌ في أُذن الفينيسي جعلته يسترجع في قرارة نفسه صورة واجهةٍ لمّاعةٍ في الهافر، والتماع باخرةٍ، وصوت كادوريم النّاعم:

- «ريبير». قال مارتان.

- «ماذا؟». همس فيتوريو، وهو غارقٌ في حلمه.

- «أجل، ريبير».أكّد له الّلصّ، وهو ينظر إليه محدّقاً.

فجأةً، سالت الدُّموع بصمتٍ على الوجنتين التي أثقلتهما الّلحية في وجه الفينيسي.

- «أخيراً!». تأوّه قائلاً.

نظر إليه مارتان باستغرابٍ، ولمْ يستطع أن يتوقّف عن الشُّعور تُجاهه بإعجابٍ حقيقيٍّ. هكذا إذاً، هذا النّشّال الذي لم يلقِ له بالاً، والذي ما كان يلفت النّظر، ولا يبدو صالحاً إلّا لمهامٍ بسيطةٍ يقوم بها سارقٌ، هو الرّجُل الذي جعلت أقوى أمة في أوروبّا سياساتها تعتمد عليه؟ كان، وقد استطاع أن يخفي ذلك، عميلاً للأمراء، والأساقفة، وللحاكم، وما من شكٍّ في أنّه كان يعرف أكثر ممّا كان يُظهِر، ووجوده الذي ساقته العناية الإلهيّة إلى هذا المكان هو البرهان على تأثير قوّةٍ عُليا ما يزال يخضع لها، على أنَّ تواضعه والحذر كانا يجبرانه على أن ينكر ذلك.

- «أين هُم؟». قال فيتوريو، وقد عاد إلى وعيه.

- من هُم؟

- البرتغاليّون.

- «لن يتأخّروا». أجاب مارتان، وعيناه تلتمعان؛ لأنّه كان قد صار يعوّل على ذلك المجيء الآمال نفسها التي لدى (ريبير) هذا.

تماهى الاثنان لحظةً في فكرة هذا الخلاص الذي كانت تختلط فيه رؤى النّصر مع الذّهب.

- «سيكون من الضّروريّ أن تعود إلى الجزيرة». قال مارتان، وقد استعاد هذه المرّة لهجته العمليّة الآمرة.

استغرب فيتوريو قليلاً هذه النّتيجة التي توصَّل إليها. كان قد تخيّل دائماً أنَّ اليوم الذي سيسمع فيه الكلمة السِّحريّة، سيطير في الهواء نحو الحُريّة، لكنْ بما أنَّ الوظيفة الجديدة التي كانوا يهيّئونها له كانت تتقاطع، ولو لأسبابٍ أُخرى، مع تعليمات فيلوغانيون فقد قال:

- «كنت بصدد أن أقول ذلك لك». أكّد قائلاً.

وقد رأى مارتان في هذا التّوافق بين أفكارهما مزيداً من الغموض يستحقّ ويفرض الاحترام.

- يجب أن تجد وسيلةً تجعل فيلوغانيون يرسلك إلى هنا بانتظامٍ.

- سيكون ذلك سهلاً طالما أنّه قد كلّفني هو أيضاً بمهمّةٍ لديك.

وروى له الخطوط العريضة للمشادّة التي حصلت مع البروتستانت، وطردهم المقبل نحو اليابسة، وقد وعد مارتان ألّا يعقد معهم أيّ تحالفٍ، ولمْ تكلّفه هذه النيّة الطّيّبة شيئاً طالما أنّها كانت تخفي خطّةً هجوميّةً حقيقيّةً ستأتي من جهة البرتغاليّين.

- «أعطهم كلمتي». أعلن مارتان بالفخامة التي تليق بدوقٍ مستقبليٍّ.

- سأفعل ذلك، لكن...

- كيف، أليس ذلك بكافٍ؟

- «نعم، بالتّأكيد». سارع فيتوريو إلى القول: «لكنْ يجب عليَّ أن أثبت أنّني قد نلت ثقتك».

قال مارتان وهو يسحب ميداليّةً من جيبه:

- في هذه الحال، خذ هذه إلى فيلوغانيون.

كانت منمنمةً صغيرةً محاطةً بإطارٍ مستديرٍ تمثّل امرأةً ذات قسماتٍ جدّيّةٍ، وعلى شعرها قبّعة من الدّانتيل.

لقد أخذت هذه من على منضدته مساء الهجوم. إنّها تحمل لي الحظّ، فأنا عندما تسوء الأمور كلّها أقوم بالسَّرقة.

- «أمّا أنا». قال فيتوريو: «فإنّني أسرق عندما يسير كلّ شيءٍ على ما يرام».

- من الآن فصاعداً، ستكون أنت صِلة الوصل بيننا، أو هذا ما سيعتقده على الأقلّ، وبناءً عليه سيعيد إرسالك إلى هنا، لكنّك في الحقيقة ستكون مفيداً لنا في الاتّجاه المعاكس؛ لأنَّ البرتغاليّين يريدون معرفة كلّ شيءٍ عن القوّة الدّفاعيّة للجزيرة.

وأسرَّ له بتفاصيل المعلومات الأولى التي كان من الضّروري جمعها، لكنّ فيتوريو أكّد له بنفادِ صبرٍ:

- لا بدَّ من أن تحذّرني قبل بدء الهجوم؛ إذْ يجب أن الجأ إلى هنا.

- نعم، لكنْ يجب أن تبقى هناك حتّى النّهاية، بلْ لن تكون هناك معركة إنْ قمت بمهمّتك كما يجب.

قطّب فيتوريو جبينه، فالخطّة كلّها تناسبه عدا تلك النّهاية، لكنّه قال لنفسه إنّه يمكن أن يفكّر بذلك عندما تقترب السّاعة.

استمرّ النّقاش طويلاً، وقدّم فيتوريو تقريراً أوليّاً عمّا يعرفه. عند حلول المساء، قاده مارتان إلى بيته على المرتفعات لكي يبهره قليلاً بما لديه من سُلطة، وقد نصحه بأن يقدّم بمجرّد وصوله إلى فيلوغانيون وصْفاً ممتلئاً بالمديح عن مقرّ مارتان الحربيّ هذا من دون تقديم تفاصيل عن موقعه.

في اليوم التّالي بعد الظّهر، أعلن حرس المراقبة الذين وضعهم مارتان على أطراف الشّاطئ مجيء زورقٍ جديدٍ عاد أدراجه بعد تعبئة المؤونة. ذهب فيتوريو إلى الشّاطئ، وراح يصرخ وهو يلوّح بحركاتٍ واسعةٍ للزّورق. اقترب البحّارة، وتعرّفوا إليه، وأركبوه معهم. كان مارتان

المختبئ وراء أجمةٍ من نبات الفربيون ينظر إلى ظلِّ الرَّجُل، وهو يخوض في الماء الرّائق، ويحاول الصُّعود بصعوبةٍ إلى الزّورق ممسكاً بحلقات تثبيت المجاذيف. كان من المؤلم معرفة أنَّ مصير أممٍ عدّة، على الأقل في جزء من تاريخها، كان يرتبط بكائن على ذلك القدر من التواضع، وعلى ذلك القدر من الأهمية.

•

عشية اليوم الذي كان على البروتستانت أن يتركوا الجزيرة فيه، اندلعت العواصف الأولى بقوة غير متوقعة. هطل المطر طيلة الليل. وفي الصباح، عندما انبزغ الفجر، كاد لا يظهر لشدة العتمة التي أحاطت بالسماء بسبب الغيوم البنيّة الكثيفة. كانت الأرض مفعمة بماء المطر، ومن سقف المعقل الذي ملأته المياه راحت ترشح نقاط باردة. تشكل لدى جوست بعض الأمل في أن يؤجل فيلوغانون قرار الطرد، لكن ذلك لم يكن موضع نقاش أبداً، إذ لم يرغب الأميرال أن يتراجع ولو ليوم واحد عن القرار الذي أصدره، والأخبار الجيدة التي حملها فيتوريو لم تدفعه لأخذ الحيطة.

مع بداية الصباح، وزّع لو توريه جنوده المدججين بالسّلاح على عدّة نقاطٍ من الحصن. كان هناك خطٌّ من البنادق الملقّمة بالرَّصاص محمولةٍ على مناصب شوكيّة الشّكل وُضعتْ على طول الطّريق الذي تعيّن على الإصلاحيّين سلوكه من معاقلهم حتّى المراكب.

كُلِّفَ جوست بأن يؤكّد القرار لدوبون، وبأن ينسّق مع حزب البروتستانت تنظيم مسيرهم نحو ذلك المنفى الثّاني؛ أمّا النّقطة الحسّاسة فكانت التّفتيش الجسديّ. لمْ يكن هناك شيءٌ يثني الأميرال عن قراره هذا؛ لأنّه أراد ألّا يخرج أيُّ سلاحٍ من الجزيرة، وكان هناك شخص عليه أن

يتأكّد من ذلك باسم الأميرال، ويقوم بتفتيش المطرودين قبل صعودهم المراكب.

استنكر دوبون الطّريقة، وحاول التّفاوض. طالب بأن يخضع الجنود وحْدهم لذلك التّفتيش. ذَرع جوست الطّريق جيئةً وذهاباً من وإلى مقرّ القيادة، وعاد ليؤكّد بأن فيلوغانيون لمْ يوافق. طلب البروتستانت مهلةً. عاد جوست بعد ساعةٍ، فوجد أنَّ تلك الصُّعوبات قد تذلّلت بغرابةٍ.

- «ليكن!». قال ريشير: «قبِلنا أن نُفتَّش».

تنفّس جوست الصُّعداء.

- «لكن»، أضاف القسّيس: «شرط أن تكون أنت من يقوم بذلك، وليس أيّ شخصٍ آخر».

مال جوست إلى قبول هذا الحلّ من دون أن يُبدي أيّة معارضةٍ، لكنْ سرعان ما خطرت في باله مسألة وجود النّساء. طرح السُّؤال: هل سيكون هو أيضاً من سيعاني من مذلّة إخضاعهنَّ لمثل هذا التّعامل؟

- «عليك أن تحكم بنفسك إنْ كانت لديك حُرّيّة إعفائهنّ من ذلك». قال دوبون باحتقارٍ.

مع الأسف، كانت أوامر فيلوغانيون واضحةً صريحةً: لا أحد، أيّاً كان جنسه، يمكن أن يُفلت من المراقبة الضّرورية. تردّد جوست، ثمَّ قال لنفسه إنّه إنْ كان من الضّروري أن تُرتكب هذه الإهانة، فالأفضل أن يكون هو أداتها. على الأقلّ هو قادرٌ أن يجبر نفسه على جعل العمليّة لائقةً، بل ربّما يستطيع في الّلحظة الأخيرة أن يتجنّبها.

عادت الأمطار إلى الهطول، فاترةً وثقيلةً، يسبقها زئير الرَّعد المرعب، الذي كان يرتدُّ بكآبةٍ على الجبال. كان البروتستانت قد تكدَّسوا على مداخل أكواخهم، وقد وضعوا متاعهم الضّئيل عند أقدامهم. الماء الذي

ملأ الأكياس والصُّرر جعلها بلا شكلٍ، وثقيلةً. بدأ جوست بفحص الجنود الواحد تلو الآخر. بعد ذلك، ذهب هؤلاء في صفٍّ واحدٍ نحو المرفأ، وهُم يخوضون في الطّين. كان دوبون قد قرّر أن يذهب معهم لكي يكون أوّل من يصل إلى أرض اليابسة، ويمهّد معسكراً أميناً بالنّسبة إلى الآتين بعده.

لمْ تتوقّف الأمطار، وكانت تتساقط بكثيرٍ من الضّجيج الذي جعل الصَّمت الثّقيل السّائد بين المطرودين أقلّ هدوءً. شعر جوست بنظرات الكراهية تحطّ عليه، وكان شبه مرتاحٍ لذلك. لمْ يكن أكثر تسامحاً مع ذاته، وكان يحتقر نفسه تماماً؛ لأنّه قَبِلَ بمثل هذه المهمّة.

لحُسن الحظّ، بعد أن انتهى صعود أوّل كتيبةٍ إلى الباخرة، أتته من جهة الكاثوليك صرخةٌ، كانت إشارةً أمرته أن يعود إلى فحصه المشؤوم. هكذا على الأقلّ، يكون ذهنه منشغلاً بحيث ينسى خجله وشكوكه. تقدّمت نحوه كتيبةٌ جديدةٌ من الرّجال، وقد رفعوا أيديهم عالياً في الهواء. قام بلمس أجسادهم من الأعلى إلى الأسفل بكثيرٍ من السّهولة، خاصّةً أنّ الماء الذي كان يسيل من ثيابهم على جلدهم كان يكشف بسهولةٍ كبيرةٍ كلّ ما في داخلها.

جعله الجزع يشعر بالعطش. فاجأ نفسه يبتسم لأنّه قد تلقّى هذا العقاب العبثيّ؛ أن يعطش وهو محاطٌ بتلك المياه كلّها.

في النّهاية لمْ يبقَ أمامه سوى ريشير والنّساء.

بيّن القسيس أنَّ كرامة الأشخاص من الجنس الآخر تمنع أن تُفحصَ أجسادهنّ علناً، لا بلْ إنهنّ كنّ مخفيّاتٍ في أكثر الأكواخ ظلمةً. أتى جوست إلى الكوخ الأوّل؛ وعندما دخل إليه وجد واحدةً من الفتيات اللّواتي تزوّجن مؤخّراً مع زوجها الذي كان أكثر خوفاً منها. تأكّد بسرعةٍ، ومن دون أن يلمسها تقريباً أنّهما لا يحملان سلاحاً، ثمَّ انتظر بالقرب منهما

مرور وقتٍ كاف لكي يشهد من في الخارج أنّه فحصَ كما يجب. انتقل بعد ذلك إلى البيت الثّاني، وفي الثّالث التقى بوصيفتيْ العرسان، كنَّ ينتظرنَ، وأيديهنَّ مرفوعاتٌ في الهواء، وعيونهنَّ مضطرّباتٌ كما لو كنَّ يشهّدن الله على عدم فائدة مقاومتهنّ. اكتشفن متأخّراتٍ أنّه سيكتفي بالكاد بلمسهنّ، ولمْ يعبرّنَ عن أي امتنانٍ لهذا الاحترام. في البيوت التّالية، كانت الفتاتان اللّتان تزوّجتا في آخر احتفالٍ تنتظران من دون أزواجهما، ما يدلُّ ربّما على أنّ إيقاف الاحتفاليّة العنيف والمفاجئ الذي حصل جعل ريشير لا يتأكّد تماماً من صلاحيّتها، ولدهشته الكبيرة، اكتشف جوست في البيت التّالي ثلاث وصيفات، اثنتان منهنّ للزّوجتين، والثّالثة هي صولانج. قرأ في ابتسامة هذه الأخيرة رسالةً غامضةً أثارت اضطرابه.

عندما خرج مجدّداً، كانت العاصفة قد تضاعفت، وانقلبت إلى حبّاتٍ من البَرَد مدّت سجادةً من الكُرات البيضاء على الأرض المبتلّة. كانت هناك نفحاتٌ من الضّباب تتصاعد من الأرض الدّافئة، وتزحف بحذاء أسفل الجدران. تردّد جوست لوهلةٍ، وبينما كان فريسة الانفعال النّاجم عن الاستنتاج الذي قام به في الحال، وهو يحصي بذهنه عدد شاغلي الأكواخ، لحظ أنّ أود كانت تنتظره في الكوخ الأخير وحْدها.

هناك لحظاتٌ قصوى يشدُّها الوعي مثل قوسٍ ليحتوي الكائنات التي امتلكها القلب، والتي يهدّدها الفناء بسبب عنفٍ خارجيٍّ. شعر جوست أنّه قد حطّ في إحدى تلك اللّحظات التي لا تنتهي، والتي تتدافع فيها الانفعالات مع بعضها كالقطيع، ثمَّ تقف في وجه الكمّيّة نفسها من الأفكار المعاكسة المسلّحة لقتلها، وجعلها تموت.

كانت أود واقفةً تلتصق بالمدخل، بحيث أنّه عندما دخل في عتمة الغرفة وجد نفسه فجأةً أمامها. كانت ترتدي ثوباً أسود تصل فتحة ياقته المستديرة إلى منبت صدرها. كان الضّياء الشّاحب الآتي من الخارج

يدخل من الكوّة التي سُحبت ستارتها ليصل منهكاً إلى وجهها، فيرسم في العتمة ما يشبه كومةً من الرّماد تقبع في قعر جرّةٍ. وحْدها عيناها المفتوحتان على اتّساعهما كانتا تلتمعان، وفي هذه العتمة الدّبقة، لمْ يكن من الممكن أن يكون الضّوء فيهما آتٍ من الخارج.

شعر جوست بأنفاس الفتاة المحمومة على وجهه، واجتاحته رغبةٌ عارمةٌ جعلته يترنّح من الانفعال. ظلَّ بلا حراكٍ، وَجِلاً، وقد غمره شعورٌ بالقرف من نفسه، وملأه إحساسٌ فجٌّ بالغياب، وبالعدم جعله يجنح إلى التّخلّي عن جسده، وخلعه مثل جيفةٍ ميتةٍ، لكنّه سرعان ما أحسّ في اللّحظة نفسها على شفتيه بالحلاوة الرّطبة لغبطةٍ لم يعرفها من قبْل. لمْ يفهم للحظتها أنّ هناك فمٌ توضّع على فمه. ثمّ، مثل ثمرةٍ ما نكاد نذوقها حتّى نلتهمها، استجاب بجوارحه كلّها لتلك القُبلة.

تضاعف تساقط حبّات البَرد على النَّخيل حولهما، وصدرت عنها أصواتٌ كأنّها تطير. تسرّبت رطوبة الهواء الفاترة بسرعةٍ إلى ضمّة جسديهما مثلما الأسيد يجعل المادّة غير الملوّنة التي سُكب عليها تبدو مرئيّةً.

ثمّ فجأةً، وبحركةٍ لا يمكن تبيّنها ضغطت عليه بأصابعها الدّقيقة، وابتعدت عنه وهي تتمتم:

- أنقذنا.

كان جوست ما يزال غارقاً في بئر الحلاوة الذي أطلّ منه في الحال. اصطدم فكره بحوافّ ذلك البئر، ولمْ يستطع تشكيل فكرةٍ متجانسةٍ؛ إذْ حلّت محلّها فوضى من الصّور. رأى نفسه معها على الشّاطئ، ومعها في باخرةٍ، ومعها في يومٍ مشمسٍ في إيطاليا. كانت لديه رغبةٌ عارمةٌ في أن يعانقها من جديدٍ.

- «بسرعة». قالت له.

وكان لتلك الكلمة أن تعيد إليه فجأةً الظلّ كلّه، والعاصفة كلّها. والخطر كلّه، واليأس كلّه.

- «ماذا أستطيع أن أفعل؟». أجاب، وقد عقد العزم على أن يطيع ما يمكن أن تخطّط له.

فجأةً، انتقل إلى يديه من الجسد الذي كان ما يزال يمسك به تصلّبٌ غير مرئيٍّ.

كان ذلك بمنزلة ناقوس خطرٍ أتى منها هي.

- أُقتله.

- نظر إليها من دون أن يتحرّك، لكن من الممكن أنّ عينيه اللّتين اتّسعتا تركتا الانطباع بأنّه كان يحلم.

- «أنقذنا». كرّرت مرّةً ثانيةً» «أُقتله!».

- من؟

كان التّصلّب قد تحوّل إلى تشنُّجٍ. الآن صارت هي التي تشدّ عليه، وتتمسّك بقبّة قميصه المبلّل بكلتي يديها.

- «هو!». صرخت.

وكما لو أنّ الكراهية التي كانت تعبّر عنها في عينيها لمْ تكن كافيةً، قامت بهزّه، ثمَّ لفظت الاسم المكروه، وهي ترسم على شفتيها من الاحتقار والقسوة ما يماثل الحنان والاستسلام اللّذين ادّعت رسمهما على فمها قبل قليلٍ.

- فيلوغانيون!

أفلتها جوست من يديه.

- «فيلوغانيون!». كرّرت بصوتٍ عالٍ ضاعف من ضربات العاصفة: «أُقتله، وسأكون لك».

- «لا». صرخ جوست قائلاً.

فصلت بينهما مسافةٌ لا يمكن قياسها، لكنّها تشكّل البُعد الكامن بين الحُبّ والكراهية.

- «أبداً!». قال مرّةً ثانيةً بحزم كائنٍ يكتشف في داخله إرادةً لا يمكن العودة عنها.

عاد كلّ شيءٍ كما كان. البرد الخفيف الذي جعلته الرّطوبة ينزلق في الهواء؛ ثقل الأغراض والجدران؛ الغثيان.

- «الّلعنة على الكاثوليك!». صرخت.

فجأةً، وبالسّرعة المباغتة نفسها التي شعر معها بطلاوة قُبلةٍ لم يتوقّعها، أحسَّ بألمٍ حادٍّ يلتهم أحشاءه، وبغضبٍ غير منتظرٍ، وأكثر حرارةً، يمتزج بالتّهالك المقرف لقميصه المبلّل. رفع يده جانباً.

كانت أود قد لفّت حوله من أجل أن تقفز خارجاً. استدار جوست على نفسه، وصار عند العتبة. نظر إليها تبتعد تحت غلالة الماء، وقال لنفسه إنّ حبّات البرد قد حلّت من جديدٍ محلّ المطر. مجموعة النّساء الأُخريات التي تشكّلت مع ريشير كانت قد بدأت سيرها على طريق الشّاطئ. انضمّت أود إليهم، ومرّوا أمام البنادق. المعاطف التي رُميت على الأسلحة جعلتها شبيهةً بالطّيور المائيّة طويلات السّاق، كما أنّ فوهات البنادق التي التمعت فيها كانت تبدو مثل مناقير..

لمْ يقم جوست بأيّة حركةٍ لكي يوقفهم، وقد فسّر الجنود الذين رأوا المشهد من بعيدٍ جموده بأنّه نوعٌ من القبول. في الّلحظة التي انطلق فيها الزّورق الأخير. نظر جوست إلى يديه. رأى الدّم فيها، وفهم. أمسك بنفسه قدْر الإمكان، وعندما اختفى الزّورق في الضّباب، أفلت قبضته عن الجُرح، وانهار بجسده كلّه على الوحل.

الفصل 4

اتّكأ فيلوغانيون بظهره إلى مسند كنبته، وراح ينظر إلى الرّجال الثّلاثة، وهُم منشغلون بعملهم على السَّلالم. في الطّابق الأرضيّ للحصن، وخلف المدخل الواسع المزيّن بالقباب تقع القاعة العالية التي زُين سقفها بأعمدة النّخيل، التي صارت تُستعمل كمكانٍ للاجتماع، وكنيسةٍ من أجل إقامة شعائر الصّلاة خلال موسم الأمطار. هناك، وعلى أحد الجدران الخالية من النّوافذ، وُضعت الّلافتة الخشبيّة الهائلة. كان النّجّارون قد عملوا عدّة أيّامٍ في نشر أغصان الجمّيز في اتّجاه الطّول، ثمَّ قاموا بعدها بجمع الألواح مع بعضها. بعد ذلك كان لا بدًّ من أن يوضع على سطح ذلك الصرح خليطٌ من مسحوق العظام والصّمغ الحيوانيّ، ثمَّ يُحفّ بحجارة الخفّان الصَّغيرة التي كان يمكن العثور عليها بوفرةٍ في الأرض، وعندما بدأ وضع الألوان على الّلافتة، شعر الأميرال بالرّضا.

نظراً إلى عدم وجود فنّانين حقيقيّين، اختيرَ الرّسامون الثلاثة من بين عمّال البناء، لكنّهم كانوا يعرفون تقريباً مبادئ الرَّسم، وكان المطلوب إليهم القيام بالنّسخ لا أكثر. على مسندٍ صغير وُضعت بكلّ جلالٍ لوحةٌ صغيرةٌ لتيسيان تمثّل السّيّدة العذراء، كان عليهم أن يكبّروها وينسخوها على القطعة العملاقة، وهكذا، في تلك المنطقة المداريّة، راح تلامذة

المعلم الإيطالي يحوّلون عيونهم باستمرارٍ نحو الأصل، وينقلون بفحم حطب الغابات الملامح الأساسيّة بعد تكبيرها، فبدأت العذراء تأخذ أبعادها الجديدة بكلّ جدٍّ واجتهادٍ؛ ولأنّ كلّ واحدٍ منهم كان يهتمُّ بجزءٍ واحدٍ من الواجهة التي ستزيّن المكان، جاءت النِّسب غير متوافقةٍ، فوجه السّيّدة كان صغيراً جدّاً، وصدرها ضخمٌ، ما جعل الطّفل يسوع يختفي داخل أمواجٍ متلاطمةٍ من الأثداء. كان عليهم أن يعيدوا الكرّة ثلاث مرّاتٍ، وفي النّهاية، صار كلّ شيءٍ متقارباً ومنسجماً، وعلى خلفيّةٍ من صبغة الخزامى الحمراء برزت الخطوط الخارجيّة الضّخمة لأمِّ الرَّب التي أراد فيلوغانيون من خلالها أن يثير الأفئدة، ولئن كان لمجيء البروتستانتيّين من ميّزة، فهي أنّه جعل الأميرال يعرف ما عليه القيام به بدءاً من تلك اللّحظة، فلو أنّه وضع نفسه منذ البداية تحت حماية صورٍ مخيفةٍ ومعبودةٍ مثل تلك التي ترتسم ملامحها الآن أمامه، لما اضطرّ إلى الوصول إلى استعمال السّوط مع الهنود، أو فرض قسوته على المستعمرين.

مع نهاية موسم الأمطار، سيأمر بحفر أساساتٍ لكنيسةٍ مرتبطةٍ بالحصن، وفي انتظار انتهائها، سيكون عليه أن يتابع وحْده إدارة المراسيم الدّينيّة كلَّ صباحٍ، وسيفعل ذلك تحت حماية السّيّدة الضَّخمة التي ستجبر الحضور على احترام نظرتها الإلهيّة العذبة.

مع ذلك، في انتظار انتهاء اللّوحة في البداية، ثمَّ الكنيسة، كان عليه مع الأسف أن يحافظ على وسائل العنف، فمنذ عودة العلاقات مع مارتان وتراجمهِ، عادت الزّوارق إلى ممارسة التّجارة مع القرى القريبة من السّاحل، وعاد الحذر ليفرض نفسه من جديدٍ في التّعامل مع ميول البشر السّيّئة. أمر الأميرال بنصب منصّةٍ كان يعرض عليها تحت المطر أولئك الذين يفاجئهم في حالة سُكْرٍ. ذلك أنَّ الكهوان قد عاد مع البضائع،

وأولئك الذين كانوا مكلّفين بتفريغها مالوا من جديدٍ إلى البحث عن المتعة مع الهنديّات، لكنّه كان من الصَّعب الإمساك بهم بالجُرم المشهود؛ فأولئك الكلاب قد شكّلوا مجموعةً، وكانوا يغطّون على بعضهم عندما يتطلّب الأمر القيام بالكذب.

لذلك، وعند أقلِّ شبهةٍ، كان فيلوغانيون يأمر بالقيام بالاستجواب. كان شديد الفخر بالقاعة الصَّغيرة المغطّاة بخطّافاتٍ، وحلقاتٍ، وملاقط قام الحدّادون بتحضيرها. وصار يجد مزيداً من الرّاحة في العمل داخل مقرّ الحُكم حيث يستطيع أن يسمع عبر النّافذة الصّرخات التي تمزّق القلب وهي تخرج من ذلك الكهف. كان يبتسم مرتاحاً لسماعها؛ إذْ عدّها بمنزلة أناشيد لمسيرة الحقيقة. كان لا يستطيع البقاء حيادياً إزاء ضجيج الجهد الذي يقوم به رجُلٌ ما ليعود إلى جادّة الصَّواب بمساعدةٍ من الآخرين، ولولا هذه الطّريقة التي ساعدت على كشف عددٍ كبيرٍ من المذنبين، لظلَّ هؤلاء يعيشون داخل العزلة المأساويّة لخطاياهم. كان هناك تدرُّجٌ في العقوبات المتنوّعة التي تُطبّق عليهم، بدءاً من مجرّد الضّرب بالعصا، وصولاً إلى الإغراق في البحر، ومروراً بالجَلد في العلن، وغير ذلك من أشكال التّقويم. وحْده الشّنق كان مستبعداً حتّى إشعارٍ آخر، فالطّقس كان ما يزال شديد الرُّطوبة، ما يمنع انزلاق الحبال على نحوٍ صحيح.

عندما وصل إلى هذه الأفكار المتعلّقة بالنّظام، عاد الأميرال إلى نفسه. كان الرّسامونْ ينهون بجدٍّ واجتهادٍ وضع الألوان الورديّة على لحم اللّوحة المقدّس. شجّعهم بطريقته الجديدة؛ أي: من خلال توعُّدهم بقلع عيونهم إنْ لم ينسخوا تيسيان على نحوٍ صحيحٍ، ثمَّ خرج. كان فصل الأمطار قد حلَ تماماً، وبدأ يفرض عاداته الخاصّة، فالصّباحات صارت جميلةً ومنعشةً، وفي الظّهيرة هناك قطعانٌ من السُّحب تتجمّع في السّماء مثل

أشخاصٍ مشدوهين بما يرون؛ أمّا في الفترة التي تسبق حلول الّليل، فتجتاح الغيوم كلّ شيءٍ، ثمَّ يصير الحَرُّ خانقاً، وتندلع العواصف. كان فيلوغانيون فخوراً بجزمته الجديدة التي صنعها له إسكافيٌّ مسنٌّ في الجزيرة من جلد الأرمديل آكل النّمل المدرّع؛ فهي تسمح له باجتياز سبخات المياه من دون أن يبلّل قدميه. المهمّ في الوضع لمْ يكن الرّاحة، إنّما الكرامة. كان لا يريد الاستعجال في شيءٍ، فالفخامة صارت جزءاً من أسلوبه في الحُكم، بالإضافة إلى القسوة والإيمان.

وصل الأميرال من الحصن إلى خلف مقرّ الحُكم حيث توجد غرفٌ مفتوحةٌ. دخل إلى الغرفة الأولى حيث كان جوست مستلقياً. كان هناك شخصان يتجادلان عند أسفل فراشه، وقد بدت على وجهيهما أمارات الغمّ. سألهما الأميرال.

- ما الأخبار يا سادة؟ كيف حال مريضنا؟

كان الرّجلان بثيابهما الملطّخة بالطّين، وأيديهما المصابة بالجَرب يشبهان عمّال تسوية الأرض، والواقع أنّهما كانا يعملان بالفعل في تلك المهمّة المنهكة حتّى هرب الصّيدليُّ، فحُرمت المستعمرة من نور الطّبابة، عندها ذكر أحدهم أنّه كان يعمل لدى صيدليٍّ؛ أمّا الثّاني الذي كان أخوه سائق عربةٍ عند طبيبٍ، فقد وجد في تلك المرجعيّة المشرّفة مجالاً ليوصي بنفسه قائلاً إنّه يعرف كيف يعالج ويشفي. والواقع أنّه لا يمكن اتّهام أيٍّ منهما بالاحتيال؛ لأنّهما من خلال معاشرة رجال ذلك الفنّ استوليا على أهمّ أسراره، وهي اكتساب هيئةٍ مهمّةٍ، واستعمال تعابير لاتينيّةٍ قويّةٍ توحي للوجع بالخشية والاحترام، وكذا الأمر بالنّسبة إلى المريض.

قال أحد الطّبيبين المفترضين:

- لقد أعدنا مجدّداً وضع طين الفيتريول على الجُرح، فلمْ يعُد الدَّم

يخرج منه، كذلك فإنَّ دامل الجُروح يعمل بجدّيّةٍ. لقد بلّلنا الضِّماد بصبغة الآلويه لعدم وجود الزراوند.

- «أجل». قال الآخر متأوّهاً، ثمَّ ردّد بلهجةٍ منزعجةٍ: لعدم وجود الزراوند.

- «ما عدا ذلك». قال فيلوغانيون الذي كان يحترم العِلم، لكنّه لا يرى فيه سوى مجالٍ ضيّقٍ يُحشر بين الفنّ الحربيِّ والدّين: «كيف حاله؟».

- «رأسه يؤلمه». قال أحد المستشارين.

- «إنّنا نناقش فكرة أن نضع له قبّعة علاج الشَّقيقة». قال الآخر بلهجة من يفيض حكمةً.

- «بحقِّ جسد سان جاك!». صرّخ فيلوغانيون: «هل وصل الأمر إلى هذا الحدّ؟».

اكتسب وجه الطّبيبين المفترضين هيئة انزعاجٍ واحتقارٍ.

- «قبّعة علاج الشّقيقة!». كرّر الأميرال مرتعباً.

ثمّ بعد أن اكتشف أنَّ رُعبه كان من الكلمة لا أكثر، اتّخذ لهجةً متواضعةً، وسأل:

- لكنْ في الواقع، ما هي قبّعة الشّقيقة لو سمحتما؟

- «قبّعة الشّقيقة»، قال الطّبيب الأوّل متعالياً: «هي قبّعةٌ لها بطانتين مملوءتين بمسحوقٍ للرّأس، توضع على رأس المريض عندما يتألّم من مرض الشَّقيقة».

- وهذا المسحوق، ممَ يتألّف؟

- من مغليِّ الأعشاب.

- «إنّنا نوصي بها»، قال الأخر مزاوداً: «فيها لِبانٌ، وقرفةٌ، وقرنفلٌ فقط».

– ماذا تنتظران إذاً؟ ضَعا له قبّعة الشّقيقة إنْ كانت فيها منفعة.

– المشكلة أنّنا لا نجد هذه المكوّنات.



– أيّة مكوّنات؟

– «اللّبان». أجاب الاستشاري الأوّل.

– «والقرفة». أضاف الثّاني.

– «والقرنفل». أنهى الأوّل الكلام على نحوٍ مزعجٍ، وهو يخفض أنفه.

– «آه. فهمت». زمجر فيلوغانيون، وطرد الرَّجُلين.

كان جوست ما يزال ضعيفاً، ويحتفظ بعينيه مغلقتين. أتى الأميرال حتّى مكان رقاده، وجلس بنصف جسمه عليه، فكادت تقع تحت ثقله قطعة الأثاث بأكملها، ومعها المريض. فتح جوست عينيه.

– «هل تأكل كما يجب؟»، قال الأميرال، وهو مبرطمٌ.

مرأى الشّاب الذي أخذه تحت جناحه مجروحاً أغرقه في الحُزن، وبالتّالي كان يشعر بالضّيق.

– «لقد فقدتَ كثيراً من الدَّم.». استأنف كلامه.

– كلُّ شيءٍ على ما يرام يا أميرال. إنّني أستعيد قواي، وهذا كلُّ شيءٍ.

– حسنٌ! أنت في حاجةٍ إلى قواك، صدّقني؛ لأنّنا سنقوم بأشياء مهمّةٍ، وأوّلها أن ننتقم لك، ويجب أن تكون متأكّداً من ذلك.

هزّ جوست رأسه.

– «ماذا!». قال الأميرال مستنكراً: «أنت مُصرٌّ على أن تنكر ما هو بدهيٌّ. من تريد أن تقنع بأنّك جرحت نفسك بنفسك كما تدّعي؟ الخنجر المبلّل بالدَّم الذي وجدناه بالقُرب منك لمْ يكن خنجرك حسْب معرفتي».

رفع الجريح يده من الجانب الأيمن، وقام بحركة من يريد أن يمحي في الهواء كتابةً غير مفيدةٍ.

- سينتهي بك الأمر أن تقول لنا من ضربك على وجه التّحديد. لست أهتمُّ بالأمر إلّا لكي ينال هذا المجرم العقاب المثاليَّ الذي يتطلّبه مثل هذا التّصرُّف الحقير؛ أمّا بالنّسبة لما تبقّى، فأنا أعرف ما يجب أن أفعل. المذنب هو دوبون وفريقه من الهراطقة، هذا كلُّ ما يهمُّني.

بعد ذلك الكلام قام فيلوغانيون بلا تردُّدٍ بتلاوة آياتٍ لشكر الرَّبّ؛ لأنّه جعل النَّصْل ينزاح في اتّجاه الأضلاع. صحيحٌ أنَّ جلد أحشاء جوست كان منتفخاً، وأسْود من الدَّم الذي سال في الدّاخل، لكنّ ذلك قد تمَّ من دون أن تُصاب أعضاؤه الدّاخلية بأيّ ضررٍ. كان فيلوغانيون يعرف بالخبرة لكثرة ما اعتاد على خوض المعارك أنّه ما من جرحٍ يمكن أن يكون بسيطاً. كان يجب انتظار أن يندمل، وأن يقف المريض على قدميه لكي يطمئنّ، لكن مع ذلك، كان يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ.

أحياناً، حين تطول الزّيارة، يعود جوست إلى النّوم بسرعةٍ. عندها يُخرج الأميرال الميداليّة التي أرسلها مارتان إليه، وينظر مطوّلاً إلى وجه أمّه، ويتلو صلاةً لروحها، وفي بعض الأحيان، حين كان النّائم أمامه يتنفّس بانتظامٍ، ويجتاحه هو أيضاً النُّعاس، كان يرى نفسه قد عاد إلى عُمر جوست، وفي الوضعيّة نفسها التي له اليوم يسهر على أمّه المريضة. كان يبدو له في تلك اللّحظة أنَّ تلك المرأة الشُّجاعة قد اختارت وقتها الوقوف في مواجهة الرَّبّ، وأنّها سارعت طواعيةً نحو حُكمه؛ أمّا هو، فلمْ يتوقّف بعْدها كي يسير على خطاها عن رمي نفسه في المعارك التي كانت جرأته في خوضها لا تعادل أبداً جرأتها هي أثناء ذلك الاحتضار.

عندما عاد جوست إلى النّوم، وقد شجّعه على ذلك صمتُ الأميرال، خرج الزّائر من دون أيّة ضجّةٍ. مشى ببطءٍ حتّى مقرّ الحُكم، وهو يفكّر بالقرارات التي عليه أن يتّخذها. لمْ يكن رحيل البروتستانت سوى مرحلةٍ

أولى، وهو يرغب في أن يتخلّص منهم كُلّياً أيضاً، فإمّا أن يموتوا على السّاحل، وإمّا ينتهي بهم الأمر إلى أن يقلعوا بسفنهم نحو جنيف. في كلّ الأحوال، كانت ثقته بمستقبل المستعمرة أقوى من أيّ وقتٍ مضى، فهو بصَدد أن يسترجعها الآن على الصَّعيد الرُّوحانيّ، وإنهاء بناء الحصن يؤدّي إلى الحماية من هجومٍ خارجيٍّ؛ أمّا فيما يتعلّق بالتّحالف مع مارتان، وعلى الرغم من أنّه كان ما يزال محدوداً، إلّا أنّه قد يسمح له بمعرفة أشياء أكثر عن التّراجم؛ لأنّه في اليوم الذي سيتخلّص فيه من البروتستانت سوف يكرّس نفسه لهم. كان الأميرال قد أعطى لفيتوريو تعليماتٍ دقيقةً حول هذه النُّقطة، وصار الجاسوس ينقل له في كلّ مرّةٍ بدقّةٍ تستحقُّ الإعجاب تفاصيلَ مهمّةً للغاية حول قوّة مارتان والخطط التي يرسمها.

المزاج الجيّد الذي أوصل الأميرال إلى تلك الاستنتاجات جعله يستقبل لو توريه جيّداً عندما وجده واقفاً أمام مدخل مركز الحاكم.

- «ماذا تريد منّي؟». زمجر فيلوغانيون قائلاً.

كان يعرف الجواب جيّداً، فقد كان الكابتن قد ورّط نفسه في مسألةٍ سيّئةٍ. عاقبه الأميرال ومنذ أن أعلن له عن عقوبته، راح لو توريه يحاول أن يثنيه عن قراره.

- «أريد أن أقابلك». قال الجندي بجدية.

كان من قدماء المحاربين في البييمون، وقد جُرح في كيريزول، وفي كاسيل، ولديه الحقُّ في أن يدخل إلى حضرة الأميرال عندما يرغب بذلك، فلئِنْ كان يطلب الآن مقابلةً، فذلك لكي يعبّر عن الطّابع الشّخصيّ والاستثنائيّ للمسألة.

دخل فيلوغانيون، وترك الباب مفتوحاً؛ لكي يستطيع الآخر أن يتبعه، وعندما صارا وحْدهما في غرفة الاستماع، انتظر الكابتن الصَّموت، وهو واقفٌ، وعصاه في يده؛ أن يُسْتَجوبَ.

خلع الأميرال سُترته الزّرقاء الّلازورديّة، ووشاحه الأصفر. جلس، ثمَّ بدأ بطرح الأسئلة عليه:

- ماذا تريد منّي أيضاً يا لو توريه؟ عندما أرى سحنتك أرى أنّك لا ترغب في أن تكلّمني عن الأشياء التي تهمّني فقط، وهي الدّفاع عن الجزيرة، وسحق الإصلاحيّين.

- «لا». قال توريه موافقاً: «لا أريد أن أكلّمك عن هذا».

كان لديه الميّزة النّادرة بأن يستعمل مع الأميرال صيغة التَّحبُّب التي تُستعمل فقط مع رفاق السّلاح.

- للمرّة الأولى يا أميرال أطلب إليك أن تكون عادلاً معي.

كان لو توريه طويلاً، ونحيلاً، ووجهه المستطيل يبدو كأنّه مشدودٌ على نحوٍ فائقٍ نحو الأسفل بلحيته الكثّة ذات الأطراف المرفوعة، التي كانت معلّقةً بذقنه.

- «لقد نلتَ الحُكم العادل». قال فيلوغانيون، وهو يسكب لنفسه كأساً.

- إنّها ليست عدالةً حقيقيّةً يا أميرال.

كان صوته الأجشّ يخرج بغرابةٍ من عنقه الضّيّق الذي كانت تفّاحة آدم تبدو كأنّها تتأرجح على الحبال فيه.

صرّح لوتوريه بجدّيّةٍ:

- إنّك تعرف أنّني لمْ أقُم بإهانة لا فوسيل.

كان ذلك اسم رئيس القلعة الذي يخضع نظريّاً لأوامر لو توريه، لكنّ الإبهام كان يشوب التّراتبيّة فيما يتعلّق بعلاقة الرَّجُلين. كان لو توريه قد أمره بتنفيذ مهمّةٍ يرفضها، فأجابه لو فوسيل بوقاحةٍ. نعته الكابتن المسنُّ

بأنّه طريّ العود، وكادا يتبارزان لولا قيام رجالهما بالتّفريق بينهما. وصلت المسألة إلى الأميرال. لمْ يكن الأمر في حدِّ ذاته مهمّاً، لكنّه كان يكشف عن الخلفيّة المؤذية لجوّ العنف، والشّكّ، والغيرة الذي كان سائداً. أصْدر فيلوغانيون حُكمه مستنداً إلى قانون الجيوش الفاتحة، وهو قانونٌ يعود بتاريخه إلى شارل الثّامن؛ وبموجب تفسيرٍ له مشكوكٍ في أمره من فترة حرب الغاليّين، وبموجب مزاجه الخاصّ في تلك الّلحظة.

- «لقد عُددتَ مذنباً». قال الأميرال بوضوحٍ: «سوف تخضع للعقاب الذي يبدو لي خفيفاً جدّاً».

تغاضى لوتوريه عن التّهديد الأصمّ الذي كان يحمله هذا الجواب، وحدَّق في عيني قائده، ورفيق سلاحه.

- «للمرّة الأخيرة»، قال توريه بلهجةٍ رسميّةٍ: «هل تريد أن تتراجع عن هذا الحُكم الجائر أمْ لا؟».

منذ عدّة شهور كان لو توريه قد صار أكثر انغلاقاً على نفسه، وأكثر عبوساً، وقدرته على الطّاعة تبدو مهترئةً، مثل سجّادةٍ دُعسَ عليها بكثيرٍ من الإهمال. هو الذي كان قد خدم الملوك، ومشى مع القطعات في الرّيف، وجابه أعداءً مخيفين، كان يصعب عليه أن تُفرض عقوبة الأشغال الشّاقّة على مجموعةٍ من الحرفيّين منزوعي السّلاح، كذلك فإنَّ طرد الهوغونوت بتلك الطّريقة المزعجة قد أصابه بالغثيان، ومع ذلك، كان يمكن ألّا يقوم بأيّ شيءٍ لو لمْ يقم فتيل الظُّلم بإشعال بارود يأسه بلا مراعاةٍ.

- «لا». قال فيلوغانيون.

نظر الرّجُلان إلى بعضهما لحظةً، وفي عيونهما التي تجرّدت من الرُّتب العسكريّة، والألقاب، وحُسن الّلياقة، حلَّت قسوةٌ لم يكن قد قرَّ القرار على إضعافها من هذه الجهة، أو من تلك.

- «سوف أجمع المستعمرة بأكملها بعد يومين من أجل حضور تنفيذ الحُكم». قال فيلوغانيون: «وبما أنَّ الحُكم قد صدر عليك، فإنّك سوف تقرّ بذنبك، وأنت تحمل قبّعتك بيدك، راكعاً على الأرض، وسوف تُحرم من منصبك القيادي لمدّة أسابيع ثلاثة».

- «كما تشاء». أجاب لو توريه، وهو يحكم وضع قبّعته على رأسه.

في صباح اليوم التّالي، بعد الصّلاة، استُدعيَ فيلوغانيون على عَجلٍ من أجل تفحُّص آثارٍ مشبوهةٍ، وصندوق أسلحةٍ اكتُشفَ في فتحةٍ على الرّصيف عند الطّرف الغربيّ للجزيرة. استفاد لو توريه من هذا الإلهاء الذي كان قد نظّمه بنفسه، وأعطى الأمر بهدوءٍ لجنوده أن يفكّوا حبال زورقٍ في المرفأ. صعد إليه؛ أمسك المجاذيف أربعةٌ من الفرسان كانوا قد تبعوه من إيطاليا، ثمَّ هربوا من دون أن يزعجهم أحدٌ.

*

بمجرّد وصولهم إلى اليابسة بعد أن طُردوا، تجمّع الهوغونوت تحت غطاء أوّل شجراتٍ وجدوها، لكنْ على أنَّ الأمطار عرفت بعض الهدوء في نهاية بعد الظّهر، إلّا أنّها كانت قد بلّلت كلّ شيءٍ: الثّياب، والأرض، وأغصان الأشجار. كان الماء قد تجمّع على الأوراق الضّخمة اللّمّاعة، وتساقط على شكل شلّالاتٍ دقيقةٍ، كأنّها تنساب من قمعٍ صغيرٍ.

كانت اللّيلة الأولى مرعبةً، وتبدو بلا نهايةٍ. ارتعد اللّاجئون البائسون من البرد، ومن الحُمّى، وقد التفّوا على أنفسهم، وأحاطوا ركبهم بأيديهم؛ كي يحافظوا على بعض الدّفء داخلهم. كان دوبون بسبب عجزه قد ظلَّ واقفاً في وسط اللّيل، وانتهى به الأمر إلى أن يقع من التّعب ممدّداً على طوله في الرَّمل المشبع بالماء.

كانت أود قد أسرّت لعمّها عن فشل محاولتها، وعلى أنّه لمْ يكن يريد

معرفة أيّ شيءٍ عن الوسائل التي كانت ابنة أخيه ترغب باستعمالها، فقد وافق ريشير من دون تحفُّظٍ على تلك المبادرات. كانت قد أظهرت في تلك المسألة شجاعةً كان يعيب على دوبون أنّه لم يمتلك مثلها، فهو لمْ يستطع منع نفسه من النّظر بغضبٍ إلى النّبيل المسنّ الذي لو اتّبع نصائحه، وبدا أكثر عدوانيّةً، لكان مشروع التّخلُّص من فيلوغانيون قد وصل إلى نهايته منذ فترةٍ طويلةٍ؛ ولما كانت ابنة شقيقه المسكينة مضطرّةً إلى التّضحية بنفسها من أجل إنقاذ شرفها.

وعندما اعترفت أود لعمّها بأنّها ذهبت إلى ما هو أكثر من ذلك، وطعنت كلامورغان، زاد ذلك من شفقته عليها. كان قد عهد إليها بخنجر من أجل الدّفاع عن نفسها، ولمْ يكن يشكُّ في أنّها قد استعملته كحلٍّ أخيرٍ للحفاظ على عفّتها. مع ذلك فإنَّ النّتيجة تظلُّ أهمّ من الظّروف التي أدّت إليها، فمحاولة القتل تلك ستثير جنون فيلوغانيون على نحوٍ كبيرٍ، بالتّالي، لمْ يكونوا فقط معدمين وموجودين في أدغالٍ معاديةٍ، بلْ كانوا فوق ذلك يستطيعون الخوف من وجود من يلاحقهم، مثلما حلّ باليهود الذين لحق بهم فرعون، ولم تستطع بضعة أمتارٍ من البحر أن تثنيه عن ذلك.

في الصّباح، ولحُسن حظّهم، لمْ يروا أيّة حركةٍ معاديةٍ في الجزيرة التي كانت تتبدّى لهم من بعيدٍ. كانت تلك مناسبةً للقيام بصلوات جديدةٍ. لمْ يفخر ريشير بمعرفته عن ظهر قلب لهذا القدْر من المزامير كما كان حاله في تلك اللّحظة، فقد دعم بها رفاقه طيلة اللّيل، وفي الفجر أيضاً، كان ما يزال لديه قدْرٌ منها. رحمة الله التي لم تكن قد تبدّت لهم حتّى ذلك الوقت، كافأتهم طيلة الصّباح بشمسٍ حارّةٍ جفّفت ثيابهم، لكن مثل العادة، سرعان ما تجمّعت الغيوم في السّماء، ولن ينتهي النّهار قبل أن تنفجر تلك الغيوم. كان عليهم إذن أن يسرعوا لإيجاد مأوىً، أو لبنائه.

ولمزيدٍ من السّعادة في ذلك اليوم الذي كان بلا شكٍّ بهيّاً رأوا رجالاً يخرجون من الغابة يقودهم شابٌّ أبيض، وعلى أنّه لم تسنح لهم كثيراً فرصة الذّهاب إلى اليابسة، فقد كان الهوغونوت يعرفون بوجود التّراجم على السّاحل، ولم يهمّهم من مساوئهم المعروفة كلّها سوى أنّهم كانوا أعداءً لفيلوغانيون؛ وقد بقيت أمامهم بالتّالي فرصة إقناعهم بأنّهم ليسوا أعداءً لهم.

والواقع أنَّ الشّاب الأبرص الذي قدَّم نفسه باسم مارتان قد استقبلهم بلطفٍ، على أنّه رسم على وجهه ملامح مترفّعةً لم تكن في مكانها. كانوا يعرفون بما يكفي عادات تلك المنطقة البائسة بحيث أدركوا أنّ التّمادي كان مرضاً مشتركاً بين كلّ الذين جعلوا منها مكان إقامةٍ لهم، ولم ينزعجوا من ذلك.

- «أيُّها السّيّد». بدأ دوبون حديثه، وهو يتوجّه إلى مارتان باللّهجة المهمّة نفسها: «إنّك ترى أمامك أبرياء مساكين قامت يدٌ ظالمةٌ بضربهم. أنت لست صديق المذنب، ونحن نعلم ذلك. ربّما تقبل إذن أن تكون صديقنا».

كان مارتان يحبُّ أن يتلقّى تحيّات المديح من نبيلٍ حتّى لو كان هذا الأخير قد تحوّل إلى ما يشبه العوّامة لكثرة ما تمرّغ طيلة اللّيل بالرَّمل الرَّطب.

- «فلْتعلم يا سيّدي»، أجابه مارتان برفعةٍ: «أنّه ما من أحدٍ يستطيع إهانتكم طالما كنتم على أرضي. تستطيعون أن تعتمدوا على حمايتي لكم».

سرت في أرجاء مجموع المطرودين المرتعدين همساتُ ارتياحٍ. قال دوبون مزاوداً وقد ألهب حماسته ذلك الاستقبال:

- جاء دورنا لنقول لك إنّنا بمجرّد أن نستعيد قوانا، سنضيفها طواعيةً إلى قواتك من أجل قتال ذلك المنتحل، ذلك الطّاغية، ذلك الوحش.

لكنّ مارتان لمْ يكن ينوي الوصول إلى هنا، فالتّرتيب الذي ادّعى أنّه عقده مع فيلوغانيون كان يستبعد أيَّ فعلٍ معادٍ قبل وصول البرتغاليّين إلى الخليج، والمهمّ في ذلك الوقت كان أن يستطيع فيتوريو متابعة المرور من ضفّةٍ إلى أُخرى، وهو يحمل معلوماته المهمّة. والواقع أنّه لمْ يكن لدى مارتان ما يفعله بهؤلاء الهوغونوت، وما كان يستطيع أيضاً أن يرميهم في البحر. مع ذلك، كان إحساسه الفطريُّ بمصلحته يأمره بتجنيبهم هذا المصير، فهو كان يريد أوّلاً أن يستفيد من هذه الحماية؛ لأنّه لا يمكن لأشخاصٍ مثلهم ألّا يحتفظوا ببعض القطع الرّنّانة في جعبتهم ولو مرّوا بأسوأ الظروف، ثمَّ إنّه كان من الضّروري الحفاظ على المستقبل. ففيما لو فشل مخطّط البرتغاليّين، وهي فرضيّةٌ قليلة التّحقُّق، كان يهمّه ألّا يكون عديم الحيلة تماماً أمام فيلوغانيون، ويمكن لهؤلاء الحلفاء المعدمين أن يظهروا لاحقاً ذوي قيمةٍ كبيرةٍ بفضل ما لديهم من دعمٍ قويٍّ في أوروبّا.

- «هيّا يا أصدقائي!». قال مارتان، وهو ينظر إلى مجموعة الّلاجئين الذين كانوا مرتعدين حتّى الّلحظة: «سيكون قاسي القلب من يطلب إليكم القتال اليوم. يكفيكم البقاء على قيد الحياة، واستعادة قواكم. اتبعوني، سوف نؤمّن لكم المنامة».

كان مارتان الذي علم من فيتوريو بمجيئهم القريب قد أخلى قبل ليلةٍ القرية الهنديّة الواقعة عند طرف الغابة. قاد البروتستانت إليها، وأراهم البيوت المصنوعة من سَعف النَّخيل، وعلى أنّها كانت أكثر بساطةً من تلك التي كانوا قد سكنوها في الجزيرة، إلّا أنّها بدت لهم على درجةٍ من التَّرف، ومن الرّاحة لا مثيل لها.

وضعوا أغراضهم فيها لتجفّ، وارتموا على وجبات الطّعام التي حضّرها الهنود لهم.

عندما اندلعت العاصفة في نهاية بعد الظُّهر كانوا قد جفّوا وشعروا بالسّعادة. لم يعد من المستحيل بالنّسبة إليهم أن ينتظروا هناك بكلّ دعةٍ عودة شارتييه مع القوّات الدّاعمة من جنيف. عندها، ستحين ساعة الحساب بالنّسبة إلى فيلوغانيون.

الفصل 5

من بين الأوروبيّين الذين يشربون الكهوان قلّة كانوا يعرفون كيف، ومن ماذا يُصنع، أو بالأحرى، إنْ كانوا يعرفون ذلك، فقد كانوا يرفضون التّفكير فيه، وخصوصاً حضور طريقة تحضيره. شجّعهم على ذلك الهنود الذين كانوا يعتقدون جازمين أنّ الكهوان الجيّد لا يمكن أن يُطبخ بحضور الذُّكور، فالشّكل المثاليّ لتحضيره هو بوجود العذراوات. يمكن للنّساء المتزوّجات أن يلتحقنَ بهنَّ، على أن تمتنعنَ تماماً عن الجنس والكحول خلال أيّام التَّحضير، وكان يمكن قبول بعض النّساء المسنّات اللّواتي يعيدهنّ العُمر إلى العفّة، شريطة أن تكون أسنانهنّ موجودةً.

كانت كولومب تحبُّ كثيراً هذا التَّحضير، فهي إحدى أكثر الأوقات هدوءً ضمن هذا السّلام الهنديّ الذي تتمتّع به كثيراً. كانت قد نسيت قليلاً ذُعرها من أكل لحوم البشر، ولمْ يعد ضجيج المآدب في كلّ ليلةٍ بالنّسبة إليها سوى علامةٍ عاديّةٍ وبعيدةٍ عن وجود الأعياد.

كانت متربّعةً أمام النّار تمضغ جذر المانوكا الذي صار طريّاً بعد سَلقه. فعلت الشّيء نفسه الفتيات الأُخريات الجالسات حولها، وفي مقدّمتهنّ باراغواتشو التي كانت بقربها، وتفعل مثلها. حالة المضغ المستمرّ بجدٍّ واجتهادٍ كانت ترمي لتحريض أكبر قدر ممكنٍ من اللّعاب. الفرق الكبير

بين تلك الحركة المقصودة وبين المضغ الأوتوماتيكيّ للشّخص الذي يأكل، يشبه تماماً الفرق بين فعل الأكل بما فيه من متعةٍ ذاتيّةٍ، وبين فعل الطّبخ الذي تتوجّه العناية فيه إلى مصلحة الآخرين. عندما تصبح الجذور المشبعة بالرّحيق طريّةً ودبقةً، يجب التوقف. تُحضّرُ نارٌ خفيفةٌ توضع عليها حلّةٌ من الطّين بارتفاع طفلٍ عمره عشر سنوات، وفي داخلها يبصق بعنايةٍ الجذر الذي مُضغَ مضافاً إليه أطول ما يمكن من خيوط اللّعاب، وهكذا كانت الجرّة تمتلئ حتّى رقبتها طيلة النّهار بهذا الخليط من المادّة النّباتيّة، ومن العصائر العضويّة، في حين يستكمل التّخمُّر على نارٍ هادئةٍ. بعد ذلك، يُوزّعُ الشّرابُ الثّمين في قوارير مسطّحةٍ. تحتفظ النّساء فيما بينهنّ بتفاصيل ولادة مشروب الكهوان مثل احتفاظهنّ بأسرار بعض الصّناعات الأُخرى، وكان يُقدّم إلى الرّجال جاهزاً ونظيفاً في قوارير جميلةٍ بسَعة نصف زجاجةٍ من نبيذ بورغونيا.

خلال عمليّة المضغ هذه كان يمكن للنّساء أن تتكلّمن، لا بلْ إنَّ ذلك كان مطلوباً؛ لأنَّ الفكَّ يرتخي بفعل الكلام، ما يحمل اللّعاب إلى الفم.

بعد أن مزحت باراغواتشو كثيراً مع كولومب في ذلك الصّباح، قامت بإعلان شيءٍ غير متوقَّع:

- سوف أعود غداً إلى قبيلتي.

كولومب التي كانت وجنتاها قد انتفختا من العمل شعرت بالمباغتة. قالت متمتمةً: «من الآن!».

ثمّ راحت لتبصق الجذر الذي في فمها مستبقةً الرّخاوة المطلوبة. صحيحٌ أنّها كانت تتكلّم لغة التّوبي جيّداً وبطلاقةٍ، إلّا أنّه ما كان من السّهل عليها أن تظهر تلوّن النّبرة الخاصّة بتلك اللّغة عندما يكون فمها ممتلئاً. صرخت: «سوف أرافقك!».

كانت كولومب تنتظر تلك اللحظة منذ فترةٍ طويلةٍ، فالإقامة لدى باي لو لمْ تكن سوى مرحلة، وبالتّالي أصيبت بالدّهشة وخيبة الأمل عندما رأت صديقتها تهزّ رأسها.

- «هذا مستحيل». أجابت الهنديّة بانفعال.

- «لكنّني سأكون حذرةً، ولن أظهر أيّ شيءٍ». ألحّت كولومب: «وسأحترم قوانينكم. سوف أعمل».

نظرت باراغواتشو إليها نظرةً سوداء جعلتها تتسمّر في أرضها. بعد عودة باراغواتشو كانتا قد عاشتا لحظات من التآمر الصّادق، وخلال أحاديثهما الطّويلة في المساء، كانت الهنديّة تسأل كولومب عن فرنسا، وعن حياتها، وعن الفكرة الموجودة في فرنسا عن الحُبّ. كانت متفاجئةً من هذا الشُّعور، ليس لأنّ الهنود كانوا يجهلونه، إنّما لأنّهم كانوا يستعملونه على نحوٍ مختلفٍ. الحُبُّ بالنّسبة إليهم قدرة متعدّدةٌ ومبعثرةٌ لا يرضيها كائنٌ واحدٌ. يمكن أن يحبّ الإنسان أطفاله، وأهله، وقبيلته، يمكن أن يحبّ الشّمس، والأشجار الملائمة، وماء الشّلّال، والنّسيم العذب على الشّواطئ. يمكن أن يحبّ الأرض التي تلبّي حاجاته البشريّة، واللّيل، والنّهار، والنّار، والملح، والنّعامة، والخنزير البرّيّ، وفي هذا النّسيج المُحْكم من الحُبّ، ومن الخشية، لا يمكن تصوّر أن يستحوذ كائنٌ واحدٌ على كلّ شيءٍ له وحده. وفوق ذلك، عندما يتعلّق الأمر بخيارٍ مرتبطٍ بنظام العالم، مثل: ارتباط الزّوج والأب بأولاده، لا يؤخذ بعين الاعتبار ما يفضّله الفرد، لا بلْ يُنظَرُ إلى هذا التّفضيل على أنّه ذنبٌ؛ إذْ يجب الخضوع لقواعد القبيلة. مع ذلك فإنّ باراغواتشو، من خلال آلاف الأسئلة التي سألتها قد بيّنت إلى أيّة درجةٍ كانت تغريها صورة الحبّ كما تصفها لها كولومب.

حميميّة هذه الحوارات هي التي جعلت الرّفض الجافّ المفاجئ غير

مفهومٍ، خصوصاً أنّه أتى كردٍّ فجٍّ على اقتراح صديقتها. ألحّت كولومب قليلاً من جديدٍ، لكن كلّ محاولةٍ جديدةٍ كانت تشعل في عيون باراغواتشو التماعة الغضب نفسها بالإضافة إلى خشيةٍ تصل إلى حدود الذُّعر.

- «طيّب، هل أستطيع أن أرافقك في مرّةٍ أُخرى؟». سألت كولومب.

- «نعم، يا عين-شمس!». هتفت باراغواتشو، وقد ارتاحت فجأةً لتلك الفكرة: «مرّةً أُخرى، وبقدْر ما تريدين من المرّات، لكنْ ليس الآن».

على غرابة هذا الحلّ الوسط، قبلته كولومب، وعندما انتهيتا من علك المانوكا، رافقت صديقتها حتّى البيت. يبدو أنّ باراغواتشو قد انتظرت الدّقيقة الأخيرة لتعلن عن رحيلها؛ لأنّ صرّتها الصّغيرة كانت جاهزةً، وقد ذهبت مباشرةً من دون أن تستدير وراءها.

لمْ يكن قطُّ لدى كولومب الوقت الكافي لكي تضطّرب من هذا الاختفاء المباشر؛ لأنّ باي لو سقط صريع المرض بعد أن قامت العاصفة المرعبة بإغراق كلّ شيءٍ في الأسبوع الفائت. في فصل الأمطار تبدأ الغابة حياةً جديدةً مع انتفاضة النّباتات، ومع الطّحالب التي تخضرّ عند أسفل الجذوع، ومع الأخاديد الموجودة على سَعف النّخيل، التي تجعلها الرّطوبة أكثر سماكةً. خفتَ الضَّجيج بأشكاله كلّها، وساد جوٌّ من الانتظار والقلق؛ بسبب هذا الصّوت المكتوم، مضافاً إليه الصّمت القلق الذي كان كلّ واحدٍ يحرص عليه في البيت كي لا يضايق الأب الكبير. بدت الحياة كلّها مشدودةً، مسلّحةً، متأهّبةً كما لو كانت تضع سدّاً يمنع دخول الموت الذي يدور حول المكان.

قُبلت كولومب في نوبات السّهر على باي لو مع نساءٍ أُخريات؛ لأنّه كان من المهمّ ألا يُترك المريض وحْده، وأن تُلبّى رغباته واحتياجاته جميعها، وألّا يُترك أبداً وجهاً لوجه مع الأرواح الشّرّيرة التي تحاول الاستيلاء عليه.

كان الشّيخ مستلقياً على أرجوحته الكبيرة، المشدودة من كلّ طرفٍ بعصاً من الخشب. غرفته التي تجري في أرضيتها الجذور العارية كانت ممتلئةً بالأغراض المتنوّعة العزيزة عليه: خرائطَ مصفرّةٍ معلّقةٍ على الجدران تختلط بأوسمةٍ هنديّةٍ. نباتات القرع المزيّنة تتجاور مع آنيةٍ من السّيراميك من دلف الإغريقيّة، وفي إطارٍ كبيرٍ من الرّيش والبامبو، كان هناك منظرٌ طبيعيٌّ صغيرٌ من أوروبا يمثّل قريةً تحت الثّلج. كانت هناك أيضاً مجموعةٌ من الكتب المغلّفة بالجلد تتراكم على شريحة خشبٍ، وقد لفّتها الرّطوبة، ونفخت أوراقها مثل براعم تحاول أن تتفتّح.

كان باي لو يزفر بصعوبةٍ، ونوبات السُّعال الطّويلة تتعبه، لكنَّ فكره كان سليماً، وكان يحبُّ أن يتبادل أطراف الحديث على الصُّعوبة التي صارت لديه في تشكيل كلماته. استمرّ في تلقّي الأخبار من الذين كانوا يمرّون به كلّهم، وهكذا أعْلمَ كولومب بطَرد البروتستانت. لكنْ في كثيرٍ من الأحيان كانت تعاوده ذكرياتٌ قديمةٌ، فتخلط كلماته بين الماضي الأكثر بعداً، والحاضر الأحدث.

- «لقد تغيّرت حياتي». قال في مساء يومٍ من الأيّام لكولومب: «عندما قرأت بومبوناتزي. ما كان لي قطُّ أن آتي إلى هنا لولا كتابه الكبير».

وبناءَ على طلبه، ذهبت كولومب لتخرج الكتاب من الرّفوف. كان مجلّداً صغيراً صفحاته مهترئةٌ ملأها باي لو بالملحوظات المدوّنة على الهوامش.

- «كان تلميذ ابن رشد». تابع وهو يقلّب صفحات الكتاب بحزنٍ: «الوحيد الذي قاوم تأثير أفلاطون».

ما كان باي لو يستطيع القراءة بعينيه المتعبتين، لكنّه كان يعرف النّص جيّداً إلى درجة أنَّ الصَّفحات لم تكن سوى حاملٍ لذكرياته.

بالنّسبة إليه، الله في كلّ مكان. لا يمكن الفصل بينه وبين الأشياء، وهو داخل كلّ كائنٍ، وداخل كلّ شيء. لا يمكن أن يحصل أيُّ حدثٍ خارج إرادته.

تنهّد، ثمَّ وضع الكتاب على بطنه.

- الغلطة الكبيرة التي اقترفها الآخرون كلّهم هي أنّهم وضعوا الله في السّماء وطالبوه ألّا يخرج منها. ربٌّ واحدٌ، هذا قليل. وفوقها، هو غائبٌ، وسوف نجده بعد الموت. يا للبؤس!

فجاةً، انتصب بجدّيّةٍ في سريره المصنوع من القماش، واتّخذ لهجة قدْحٍ وذمٍّ لم تعهدها كولومب لديه من قبل.

- انظري إليهم يمزّقون أنفسهم ليعرفوا إنْ كان الرّبُّ ما يزال في خبزة القربان أم لم يعد في أيّ مكانٍ. لقد طردوه من العالم الذي خلقه، وها هُم يتشاجرون من أجل أن يمنحوه مكاناً صغيراً.

تشنّج باي لو بفعل هذا الجهد، فترك رأسه يسقط على صدره، وتنهّد.

- «اِهدأ يا باي لو». قالت كولومب وهي تمسك بيده.

هدأ قليلاً من لمسها، وعندما عاد إلى الحديث كان صوته قد صار أكثر هدوءً.

- عندما عرفتُ الهنود، بدا لي أنّني التقيت أخيراً بعالمٍ متحرّرٍ من هذا الجنون، عالمٍ محترمٍ.

ترك عينيه مفتوحتان في العتمة الفارغة.

- كلّ شيءٍ مقدّسٌ بالنّسبة إليهم: الزّهور، الصُّخور، المياه التي تسيل في الجبال. هناك عددٌ لا متناهٍ من الأرواح التي تعيش في الأغراض وتحميها، وفي المناظر والكائنات. لا يمكن أن نلمس أيَّ شيءٍ إلّا وتخرج منه تلك القوى، فتحدّ من الشّرّ الذي يمكن تقديمه للعالم.

دخلت إحدى الهنديّات بصمتٍ، وهي تحمل سلّةً من الفواكه. ظلّت واقفةً عند العتبة، ومن دون أن ينظر إليها، ابتسم باي لو لهذا الحضور الجديد الذي شعر به.

- «لكن الآخرين...». همس قائلاً، وقد استحوذت عليه المرارة من جديد: «عندما جرّدوا الطّبيعة من المقدّس، تركوها من دون حمايةٍ، خاضعةً لإرادة البشر القاتلة. يكفي أن نرى ما صنعوه بجزيرتهم. ما عاد ينبت فيها أيُّ شيءٍ حيّ، وها هُم الآن يمزّقون أنفسهم. إن صاروا في يومٍ من الأيّام سادة هذه الأرض كلّها، سيجعلون منها حقل موت».

ثمَّ، بعد أن ترك فترةً من الزّمن تمرُّ، أضاف:

- «ليس الإنسان من طُرد من الجنّة الأرضيّة، إنّما الله. استولى الإنسان على الأرض لكي يدمّرها».

مع مرور الأيّام، ظلّت حالة باي لو كما هي. كان يسبح في الأجرام السّماويّة التي تبدو كأنّها لا تنتمي إلى الحياة، ومع ذلك فإنّ أحلامه كانت ممتلئةً بالذّكريات، والألوان، والسّعادة، والأسى، وعندما يعود إليه وجوده، تبدو تلك السّاعات التي تسبق الموت خلاصةً شبقةً لحياته بأكملها.

في إحدى الأمسيات، صعد مقاتلان من السّاحل لكي يعلنا أنَّ أحدّ الضُّبّاط لدى فيلوغانيون قد هرب، وهو يطلب أن يُستقبلَ لدى باي لو برفقة أربعة جنودٍ كانوا معه. كان المقاتلان من التّوبي قلقين ويخشيان وجود فخٍّ، لكنّ الأب الشّيخ قال لهما أنْ يأتيا بالهاربين. وهكذا اقتيد لوتوريه لدى باي لو.

كان الجنديُّ العجوز على حاله القديمة، جافّاً متصلّباً وصامتاً. وحده غصن خضوعه لفيلوغانيون كان قد انكسر تماماً، وقد حضر عند باي لو وهو يحمل تلك الكبرياء المتوحّشة التي نجدها لدى سجين حربٍ كان

قد قاتل جيّداً. الطّلب الوحيد الذي طلبه لوتوريه من باي لو هو إمكانيّة أن يعود هو ورفاقه بأسرع ما يمكن إلى فرنسا على ظهر إحدى بواخر التّجارة التي كانت قد رست في الحال في الخليج.

– «لماذا لا تبقون هنا؟». قال له باي لو: «الهنود في حاجةٍ إلى رجُلٍ مثلك ليعلّمهم كيف يقاتلون مثل الأوروبيّين. سيأتي يومٌ لن يكون عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم فيه مثل اللّصوص، إنّما مثل جيشٍ».

رفض لوتوريه هذا العرض على نحوٍ قاطعٍ تماماً. لم يكن السّبب أنّه يحتقر الهنود، فهو لم يكن يملك أيّ رأيٍ تُجاههم، لكنّه كان مصنوعاً ليطيع، ولمْ يعد لديه طموح أن يكون رئيساً لأيّ أحد.

كرّر بأنّه يريد أن يركب على ظهر أوّل مركبٍ ويعود، ولم يلحّ عليه باي لو. كان يعرف النّورمانديّين في المنشآت القريبة جيّداً، بحيث يستطيع أن يوصي بلو ثوريه لديهم. حسب ما كان يعرف، كانت هناك عدّة مراكب صغيرةٍ تذهب وتعود بانتظامٍ في تلك الفترة من السّنة. اقترح على الجنديّ المسنّ أن يرتاح لديه قبل اقتياده إلى الضّفّة الأُخرى من الخليج. رفض هذا الأخير، وطلب الرّحيل بمجرّد أن يكون بمقدور دليلٍ هنديٍّ أن يرافقه، وحُدّد موعد الرَّحيل بعد غد ذلك اليوم. التقت كولومب بلوثوريه في المساء وهي عائدةٌ من الشّلّالات. كان منظر هذا الفارس المحترم الذي يرتبط في ذهنها بفيلوغانيون، وقد جلس في القاعة الكبيرة من منزل باي لو بما فيها من فوضى باروكية، ومن روث الببّغاوات قد فاجأها مثل لقاءٍ غير منتظرٍ بين عالمين. لمْ يكن أقلَّ اضطراباً عندما رآها تقترب عاريةً، مغطّاةً بالرُّسومات الهنديّة وبالقواقع، وتتحرّك بطبيعيّةٍ بدت له قمّةً في عدم الحياء. مع ذلك، ورغم هذا الضّيق، ومن خلال رسم كل ما يمكن من التّقشُّف والطّبيعيّة على وجهه لكي يطرد أيّ غموضٍ، عبّر لوتوريه عن

رغبته بأن يتكلّم معها خاصّةً. اقترحت عليه كولومب أن يقاسمها عشاءها. التقت به بعد قليلٍ في غرفةٍ لصيقةٍ بالمطبخ، وذهبت هناك بعد أن لفّت على جسمها شالاً كان يغطي أكبر قدْرٍ ممّا يمكن أن يزعج المحارب القديم، لكن بقيت عيناها اللتان لم تكن قد اعتادت أن تغطّيهما، واللتان كانتا تحدّقان فيه بالتماعهما الشّاحب.

بدأ لوتوريه بإعطائها أخباراً عن جوست. عندما علمت بجُرحه، شعرت كولومب التي كانت تظنّ نفسها بعيدةً تماماً، وهادئةً، أنَّ قلقاً مؤلماً قد اجتاحها، وعبّرت عن ذلك بآلاف الأسئلة الجَزعة.

- «اطمئنّي». قال لوتوريه: «إنّه لم يعد في خطرٍ. بعد عدّة أيّامٍ سيكون على ما كان عليه من المتانة من قبل».

ثمَّ أضاف مع ابتسامةٍ ضعيفةٍ:

- ومن الجمال.

منذ أن انطلقت الحملة من ميناء الهافر لم يعبّر لوتوريه عن أيّ اهتمامٍ بجوست وكولومب، فهو لا يتعامل مع أحدٍ بحرارةٍ. مع ذلك، من خلال عدّة حركاتٍ صغيرةٍ بدرت عنه تُجاههما، شعرت كولومب أنّهما يستطيعان دائماً الاعتماد عليه، وعندما بدأ جوست يتبع تعاليم فيلوغانيون، لم يُظهر لوتوريه قطُّ أيّ ضيقٍ، أو غيرةٍ، بلْ ساعده بإخلاصٍ، وقد شعرت كولومب دائماً بأنّه كان يمكن له بكلّ سهولةٍ أن يوقفها يوم هربت مع الهنديّات؛ فقد رأته من بعيدٍ على الشّاطئ، وقد حمل بيده بندقيّةً، لكنّه لم يطلق منها أيّ شيءٍ.

بينما كان لوتوريه يضيع في الأخبار غير ذات الأهمّيّة بخصوص الجزيرة، والهوغونوت، والحصن، تشكّل لدى كولومب الشُّعور أنّ لديه أشياء أُخرى يريد قولها لها، فهذا الرّجُل الممحيّ الذي لم يكن يتصوّر

أن يفشل في أيّ شيءٍ يتعلّق بالنّظام، وجد نفسه بلا شكٍّ متحرّراً من ثقل الصَّمت. كان من الواضح أن لديه الرّغبة في الكلام معها، وربّما كان ذلك هو سبب مجيئه عند باي لو، لأنّ مروره هناك ما كان ضروريّاً له، وفي النّهاية، كان يمكن له أن يهرب مباشرةً إلى البواخر في آخر الخليج، ولا خطر في أن يُستقبلَ هناك على نحوٍ سيّئ.

حاولت كولومب أن تساعده على القيام بذلك الاعتراف مع كثيرٍ من الصّبر، ومزيدٍ من نبيذ مادير. في النّهاية، وبعد أن انتهيا من مواضيع السّاعة، وحين بدأت نقاط العاصفة الكبيرة تداعب نخيل السَّقف، وتثير انفلاتاً لا مثيل له في الحواس، كما يحصل لدى الذين يحتمون منها، قرّر لوتوريه أن يذهب مباشرةً إلى الوقائع:

- «لقد خدمت تحت إمرة كلامورغان في إيطاليا». قال لها.

عندما لفظ هذا الاسم ارتعدت كولومب، فهي أقسمت منذ هروبها أن تحمل اسم عين-شمس. كانت تتمنّى ألّا تكون ابنة أحدٍ؛ لأنَّ ذلك يؤكّد استحالة تحقيق حلمها في أن تكون ولدت لدى هذا الشّعب الذي تحبّ.

أضاف لوتوريه كما لو كان هذا التفصيل يعطيه السُّلطة في أن يكون شاهداً:

- لقد بقيت معه ثماني سنوات.

ازدادت كولومب يقيناً أنّه لم يأتِ ليستعيد ذكرياته مجّاناً، إنّما كان يحاول أن يكشف شيئاً ما مهمّاً داخل هذه الذّكريات. تابع قائلاً:

- ما رووه لكِ عنه صحيحٌ ودقيقٌ.

كانت صيغة الغائب في فعل «رووه» تدلّ بديهيّاً على فيلوغانيون، هذا الرّئيس الذي لم يعد يعترف به، والذي كان يريد حتّى أن ينسى اسمه.

- لكنّ ذلك الذي حدّثك عن كلامورغان ما كان يستطيع أن يفعل ذلك كُلّيّاً مثلي؛ لأنّه لم يُطع أوامره قطُّ.

هذه الجملة في فم الجنديّ، كانت تعني: لم يكن يحبّه.

- لكنْ يبدو لي اليوم، وبالنّظر إلى... ما صرتِ عليه، أنّه ما عاد يجب أن تجهلي بعض الوقائع.

صمتت كولومب. كانت تنتظر بقيّة الكلام. أخذ لوتوريه بعض الوقت قبل أن يختار الكوّة التي يستطيع أن يبدأ الهجوم منها.

في النّهاية بدأ يقول:

- كان ذلك بعد معركة سيريزول. كان كلامورغان يقود سلاح المشاة، وكنت أقاتل تحت إمرته مع كتيبتي من حملة البنادق.

توقّف لحظةً فخوراً بالبداية التي وجدها، ثمَّ استجمع شجاعته، وقال:

- كان الوضع غامضاً. هُزم الإمبراطوريّون، لكنَّ عدداً كبيراً منهم بقي يتجوّل في المنطقة على شكل عصابات. كانت معنا كتائب المرتزقة التي لم يكن يقودها أحدٌ فعليّاً، والتي يُدفع لها حسب العدد. ظهرت أعمدة الدُّخان في أرجاء ريف البييمون كلّه، فقد قام هؤلاء النّهّابون بإشعال النّار في القرى جميعها.

كانت تطير فوق رؤوسهم بتثاقلٍ فراشةٌ كبيرةٌ حمراءُ وبيج طردتها العاصفة نحو المنزل.

- كان كلامورغان يفعل ما يريد بالأوامر، فهو يطيع عبقريّته التي لديه منها الشّيء الكثير. كانت سمعته جيّدةً في سيريزول، ولأنّ أحد الجنرالات الطّيّبين قال له يجب أن تنتصر، كان ذلك كافياً، لكن عندما رأى النّهب والسّلب، وعندما أعطيت له الأوامر بألّا يتدخّل، تصرّف كأنّه لم يسمع أيّ شيءٍ، وقد أرسلنا كلّنا لنوقف هؤلاء الأوغاد المرتزقة.

لمْ تفهم كولومب غايته من هذا الكلام. لم تكن قد أحبّت قصص المعارك قطّ، والآن ازدادت كراهيتها لها.

- «كنت أقاتل إلى جانبه»، تابع لو توريه: «كان النّصر مؤكّداً منذ فترةٍ طويلةٍ، ومع ذلك كان يعرّض حياته إلى الخطر في كمائن ينصبها للنهّابين، ذلك أنَّ الجنود النّظاميّين كانوا قد انفلتوا، ولم يعد في نيّتهم أن يتخلّوا عن غنائمهم. كانوا يطلقون النّار علينا، ولقد مات عدّة أشخاصٍ في صفوفنا. في كلّ مرّةٍ كنّا نحاول فيها أن نحمي قريةً، كان السُّكان يستغرقون وقتاً طويلاً ليفهموا من يريد مصلحتهم، فكان بعضهم يستقبلنا بضربات المعاول، وينصبون فخاخاً لنا».

ذكر المعارك جعل الجندي العتيق كثير الكلام، وقد اشتاق منذ مجيئه إلى أمريكا إلى هذه الحملات المنتظمة، ولو كانت نتائجها غير مؤكّدةٍ، لكنّه أمام صمت كولومب، هدأ قليلاً.

- «في صباح يومٍ من الأيّام». عاد إلى الكلام بصوتٍ خفيض: «وصلنا إلى كوخٍ صغيرٍ مقفرٍ أعلمونا بوجود المرتزقة فيه. كان يقع على مرتفع في جبل البييمون، وكنّا نرى قمم الجبال المثلجة تلتمع من بعيد؛ أما بالنّسبة إلى القرى، فقد كانت هناك فقط أربعة بيوتٍ من الحجارة تحيط بها الإسطبلات التي تخور فيها الحيوانات متألّمةً من نقص العناية. أحطنا بها، وصرخنا مهدّدين، لكن لم يخرج منها أحد. عندها، وبكثيرٍ من الحذر، دخلنا إلى البيوت».

عندما وصل إلى هذه النقطة، خفض لو توريه عينيه. كانت لشجاعته حدودٌ سرّيّةٌ، فهو يرتعب من الدَّم. كان يحبُّ القتال لأنَّ الحرب تحرّض الصّحة، والشّجاعة، والمهارة، وتضعها في مجابهةٍ، لكنّه ما إن يجد نفسه أمام جرحى، أو سجناء، أو مدنيين، فقد كان يفقد حماسته كلّها، ويصير جباناً تقريباً.

- ما اكتشفناه كان مرعباً. الفلّاحون كلّهم كانوا قد ذُبحوا قبل الفجر داخل أسرّتهم. قطع الأثاث كانت مقلوبةً فُتّشت الأمكنة كلّها، وسُرق ما تركه بؤس الفلّاحين في المكان. كنّا بصدد الرّحيل عندما صرخ أحد جنودنا، فقد رأى شيئاً يتحرّك في مخبأ. اقترب كلامورغان ورأى ولدين مخبّأين في عربة تبنٍ.

نظر إلى كولومب.

- أحد الولدين كان فتاةً شعرها أجْعد، والآخر كان صبيّاً.

- «جوست». صرخت.

كانت المصابيح الصمّاء ترمي في العتمة ظلالاً واسعةً صفراءَ، وتضيء ببغاءً.

- «لا». قال لوتوريه بجديّة.

في صمت الغرفة، كان يُسمع صوت الطّائر، وهو يخمش الصّفيحة المنجورة التي يقف عليها.

- خرج كلامورغان من المزرعة، وهو يحمل طفلاً في كلّ ذراع، ورأينا عينيكِ تلتمعان في الشَّمس. تجمّع الجنود كلّهم لكي يروكِ.

كانت كولومب مضطّربةً إلى حدِّ البكاء، لكنَّ أحجية ذلك الطّفل الآخر إلى جانبها كانت تشكّل سدّاً أمام انفعالاتها.

- «من كان ذلك الطفل؟». سألت.

- فلاحٌ صغيرٌ مثلك، وحتماً لمْ يكن أخاكِ؛ لأنّه لم يكن يشبهكِ. كنتما أنتما الاثنان في عمر سنتين تقريباً. في قريةٍ مجاورةٍ كانت قد نُهبت قبل عدّة أيّامٍ كانوا في حاجةٍ إلى يدٍ عاملةٍ. لم يرغبوا سوى بالصّبيّ، وقد تركناه لهم.

في هذا الّليل الهنديّ الذي تهيم فيه كائناتٌ غير معروفةٍ، كانت كولومب تنظر إلى هذا الماضي ينبثق مثل حيوانٍ لم تره من قبل، لكنّ صرخته كانت مألوفةً لديها.

- بعد ذلك لمْ يعد مطروحاً قطُّ إعطاؤك لأيّ أحدٍ. أخذك كلامورغان على حصانه، وكان يدور بكِ في كلّ مكانٍ بفخرٍ. كان من الواضح أنّه أحبّكِ.

- وجوست؟ أصرّت من جديدٍ، وهي تتوقّع ما كان لو توريه يريد قوله، لكنّها كانت ترغب في معرفة التّفاصيل.

عاد الجندي العجوز إلى الحديث، وقد قرّر هذه المرّة أن يهاجم في اتّجاهٍ آخر:

- يجب أن تتخيّلي ما كانت عليه حياتنا خلال تلك الحملة الإيطاليّة. بالتّأكيد، كانت هناك معارك، وفي كثيرٍ من الأحيان مناوشات. لكنّنا عرفنا أوقاتاً طويلةً من العطالة، وكنّا نعسكر عندها في المدن. كانت لكلامورغان صداقات في شمال إيطاليا كلّه.

لمْ يكن من الواضح بالنّسبة إلى كولومب إلى أين ستوصله تلك الاستفاضات. مع ذلك تركت لوتوريه يكمل خوفاً من أن ينفد صبره فيما لو قاطعته من جديد.

- قبل حملتنا الأخيرة التي قام كلامورغان بأخذك خلالها، كنّا قد عرفنا فترةً طويلةً من الهدوء سافر خلالها أبوكِ إلى إيطاليا. كان يحبّ من ضمن ما يحبّ منطقة ميلانو التي دخل إليها قبل خمس عشرة سنة مع فرانسوا الأول، التي كنّا قد خسرناها. إنّ الأمر معقّدٌ جدّاً، وأنا أفهمكِ.

كان من الواضح أنّ كولومب لم تعد تهتم في تلك الّلحظة بتفسيراته السّياسيّة.

- يجب أن تعرفي فقط أنّه قد عرف هناك امرأةً كانت قريبةً لآل سفورزا على أنّها قرابةٌ بعيدةٌ. في كلّ الأحوال كانت عائلةً كبيرةً لا يهمّ اسمها. رأيت صورةً لها. كانت امرأةً صبيّةً، شعرها أسود بلون الحبر، مع أنفٍ طويلٍ جدّاً، لكنّه دقيقٌ، وكان ذلك الشّيء الوحيد المتميّز الذي يمكن أن أذكره عن جمالها الذي كان كاملاً. رُزق منها بطفلٍ، وقد تركه عند أمّه عندما ذهب ليقاتل في بييمون.

- «هو؟». قالت كولومب.

لكنّ لوتوريه كان يريد قبل كلّ شيءٍ أن تعرف التّفاصيل كلّها.

- بعد سيريزول، تركك كلامورغان بعهدتنا في الكتيبة، وركب حصانه حتّى ميلانو. وطبعاً كنّا في فترة حربٍ، وكان جنديّاً، لكن يجب ألّا تظنّي أنّ الحدود كانت مغلقةً وقتها، فأيُّ رجُلٍ وحيدٍ كان يستطيع الذّهاب إلى أيّ مكانٍ، خصوصاً إن كان له أصدقاء. عندما وصل كلامورغان إلى ميلانو، لا أعرف ما الذي حصل بدقّة؛ لأنّني لم أكن هناك. هل ماتت المرأة؟ هل تزوّجت شخصاً آخر؟ ما حصل هو أن كلامورغان أتى بابنه إلى البييمون، ومن وقتها وحتّى اليوم بقيتما معاً أنتِ وجوست.

كان الجنديُّ العجوز قد أحسن الفعل حين قام ببوحه نقطةً نقطةً، فقد استطاع بذلك أن يخفّف من انفعال كولومب. ما تبقّى هو شيءٌ بسيطٌ، لكنّه يثير الاضطّراب، وغنيٌّ بالنتائج كلّها التي ما كان يمكن لكولومب في تلك اللّحظة أن تقيسها.

تكشّفت لها حياتها كلّها بتلك الإضاءة الجديدة؛ أمّا عن تأثير هذا الكشف على مشاعرها فكان مضطّرباً. هل شعرت بالفرح أم بالضّيق؟ معرفة أنّ جوست لمْ يكن شقيقها كان يعطيها مزيداً من السُّهولة لكي تنتزع نفسها وتحكم، وربّما تكره، أو ربّما كان ذلك على العكس علامةً على أنّ

العائق الوحيد الذي كان يمنعها تماماً عن أن تحبّه قد أُزيل. كان يصعب عليها أن تقول ذلك. لم تشعر سوى ببرودة اللّيل التي صارت مجمّدةً بفعل العاصفة. نهضت لكي تأخذ غطاءً من القطن واستدارت.

- هل تكلّمت بهذا الخصوص مع جوست؟ سألته؟

- «لا». قال لها: «لم أستطع».

والواقع أنّ جرحه حدث تقريباً في الوقت نفسه الذي ترك فيه لوتوريه الجزيرة.

- هو لا يعرف شيئاً من ذلك كلّه إذاً.

- «عندما وصل من ميلانو». أجابها لوتوريه، وهو يهزّ رأسه نافياً: «كان أكبر منك بسنتين، وأنا متأكّدٌ من أنّه يستطيع أن يفهم».

فجأةً تملّكتها نفحةٌ كبيرةٌ من الحنان. فكّرت بكلامورغان الذي أراد بكلّ قواه أن يتربّيا معاً كأخٍ وأختٍ.

مع ذلك فإنّ لوتوريه الذي ارتاح من بوحه هذا أشعرها بأنّه ما زالت لديه أشياء يقولها. ظلّت حتّى الفجر تسأله عن ذلك الأب الذي بدا لها أنّها أضاعته واكتشفته في آنٍ.

الفصل 6

مرّت ثلاثة شهورٍ على مجيء البروتستانت إلى اليابسة، وكانوا قد رتّبوا لأنفسهم فيها حياةً منتظمةً تتألّف من الصّلوات ودوريّات الحراسة في اتّجاه الشّاطئ والغابة بغاية إحباط أيّ هجومٍ ممكن من قِبَلِ فيلوغانيون. لكنّ ذلك الهجوم لم يحصل إطلاقاً. كان عدوّهم الرئيس هو الملل الذي يحيل ساعات الحَرّ الذي عاد إلى نوعٍ من الخَدر لا ينتهي. نالت الحُمّى من عدّة أفرادٍ من الجماعة الصّغيرة، وكان يمكن التّساؤل عند رؤيتهم يهذون داخل أراجيحهم إن كانوا الوحيدين الذين اكتشفوا طريقةً يتسلّون بها في أثناء القيلولة.

بعض النّساء أيضاً كنَّ يقمن ببعض النّشاطات بحماسةٍ ملحوظةٍ: كانت ثلاث من الزّوجات حديثات العهد قد حَبلْنَ، فراحت الوصيفات جميعهنّ يعملْنَ بنشاطٍ من أجل تحضير مستلزمات القماط والمهد؛ أمّا أود فكانت تنظر إلى هذه الأمور باحتقارٍ، فمنذ محاولتها اغتيال جوست، كانت قد حبست نفسها في نوعٍ من الصّمت المتعالي، كما أنّها رفضت عدّة عروض زواجٍ. كانت المجموعة بلا رئيس. ذلك أنّ دوبون الذي أنهكته التّجارب كان يبدو قد فقد كلّ حيويّةٍ تجعله يقاوم ويقاتل؛ أمّا القسّيس ريشير فكان لديه تقرُّحٌ خبيثٌ في الكتف يضعفه ويجعله يشعر على الدّوام

بالضّعف. كانت أود قد اكتسبت تدريجيّاً الهيمنة التي يمكن لعذراء شرسة أن تمارسها على الرِّجال، خاصّةً عندما عرفوا أنّها قادرةٌ على القتل. صارت في الوقت الحاضر تتعامل مع مارتان معاملة النّدّ للنّدّ مستفيدةً من كون اللّصّ يخشاها، وربّما يشعر بالرّغبة تُجاهها. أشعرته بوضوحٍ أنّها ليست ضحيّة الضّعف نفسه تُجاهه. كان ذلك التّفاوت يعطيها سُلطةً على مارتان لم يكن لأيّ أحدٍ آخر من بين المنفيّين أن يمارسها، لكنّ الواقع أنّه كان صاحب القرار في كلّ شيء؛ والمحاولات التي قام بها بعض البروتستانت بناءً على أوامر ريشير لكي يقتربوا من الهنود ويتحالفوا معهم باءت كلّها بالفشل، فأحد الحرفيّين واسمه جان دو ليري كان قد جال في قرى الغابة لكي يراقب عادات التّوبي، وقد بحث بلا جدوى عن ثغرةٍ في أرواحهم يمكن للإيمان الحقّ أن يدخل من خلالها. تشكّل لديه لفترةٍ قليلةٍ بعض الأمل عندما التقى في يومٍ من الأيّام هنديّاً اسمه بينداهوسو كان يدّعي أنّه تحوّل إلى الدّين المسيحيّ في وقتٍ سابقٍ على يد تيفيه. كان يرتدي ثوباً من القطن يحاكي اللّباس الموحّد للرُّهبان الفرانسيسكان، وكان يتلو صلاة «أبانا»، ولا يقوم بأيّ فعلٍ من دون أن يسبقه بإشارة الصَّليب. مع ذلك، عندما تحسّنت معرفة ليري بلغة التّوبي، ما لبث أن رأى أن بينداهوسو المسكين كان خفيف العقل، ويقوم بهذه الحركات من دون أن يفهم معناها. لمْ تكن لديه أدنى معرفةٍ بالخالق؛ وبتلك الطّريقة في التّقليد كان يعبّر فقط عن الإعجاب الذي يكنّه لتيفيه؛ لأنّ هذا الأخير كان قد شفى له ابنته بفضل معلوماته الطّبيّة. ولقد زالت آخر الشّكوك بصدده عندما علم ليري بالبراهين أنّ بينداهوسو، على مسيحيّته المزعومة، كان قد ظلّ من أكلة لحوم البشر.

وهكذا تطوّرت في الوعي البروتستانتيّ فكرة أنّ خلاص الهنود كان مستحيلاً. وحْدهم البابويّون بطريقتهم السَّخيفة في الاكتفاء بالحركات

كانوا قادرين أن يعدّوا تقليد الوضعيّات بمنزلة تحوُّلٍ ديني، والادّعاء بمنزلة تعبيرٍ عن النُّعمى.

عندما تخلّى الإصلاحيّون عن أيّة نيّةٍ في أن يجعلوا المتوحّشين بشراً، وأن ينقذوهم، اكتفوا بمراقبة عاداتهم كما يمكن أن يفعلوا أمام الحيوانات، أو النّباتات، ولم يكن الاحترام الذي عبّروا لهم عنه سوى الوجه الآخر لعدم اهتمامٍ كاملٍ كان يطردهم إلى خارج الجنس البشريّ، فمن هو الذي يمكن أن يُجهد نفسه مع الجواميس والتّيوس ليدلّهم على المسيح، ولو كانت له مصلحة ما في مخالطتهم...

مع مرور الأسابيع بدا من الواضح للهوغونوت أنّه ما كان عليهم أن ينتظروا أيّة نجدةٍ سوى تلك التي يمكن أن تأتيهم من جنيف. كان مارتان يؤمّن لهم بالكاد ما يكفي من الماء والغذاء ليبقوا على قيد الحياة، وكان على أود أن تفاوض مارتان وجهاً لوجه لكي تصير الحصص كافيةً. عدم النّشاط والحرمان أضعف المتديّنين بانتظامٍ؛ وتدنّت معنويّاتهم إلى أقصى حدٍّ، وصار أقلّ حادثٍ عابرٍ يمكن أن يجرّهم إلى حالةٍ من اليأس، والغريب أنّ الإنذار الذي يخشون منه لم يأتِ لا من فيلوغانيون، ولا من المترجمين، ومع ذلك كان أكثر رُعباً.

ففي مساء أحد الأيّام، ذهب اثنان من الحرفيّين للبحث عن أعشابٍ في الأدغال، ولم يعودوا. ظنَّ البقيّة أنّهم ضلّوا طريقهم، وبما أنَّ اليوم الثّاني أتى ولم يظهروا، أرسلت أود إلى مارتان تطلب إليه أن يبحث عنهما فماطل، ولجعله يقبل، اضطرّت أود إلى أن تكلّفه هي نفسها بذلك بعد أن ثبّتت على التّرجمان عينيها السّوداوين اللّتين كانتا ترعبانه. في النّهاية عُثر على الجسدين مشنوقين على غصن شجرة أرز. كان المسكينان قد شُوّها بطريقةٍ مرعبةٍ، وأفرغت أحشاؤهما بضربتين من منجلٍ رسمتا

علامة صليبٍ مدمّاة على بطنيهما. ما كان يمكن لأيّ هنديٍّ أن يتصرّف بتلك الطّريقة في هذه المنطقة. كانوا يخشون مارتان بشكلٍ يمنعهم من أن يسمحوا لأنفسهم بمثل هذه التّجاوزات.

ظلّت تلك الجْريمة غامضةً حتّى تبعتها جريمةٌ أُخرى، أكثر فظاعةً من الأولى، وارتُكبت على مقربةٍ من قرية البروتستانت. في تلك المرّة أُسِرَت إحدى الزّوجات عندما ابتعدت لقضاء حاجةٍ، وعُثر عليها مصلوبةً على جذع شجرة جمّيزٍ، ومن خلال فجوةٍ أُحدثت بالخنجر أسفل بطنها، انتُزع الطفل من أحشائها، والتُهِم جزئيّاً.

في تلك المرّة، كان مارتان مجبراً على أن يكشف ما يعرفه.

- «إنّهم الأناباتيست». اعترف لأود التي كان تستجوبه.

كانت مثل بقيّة النّاس قد سمعت عن تلك الطّائفة، لكن ريشير ظلّ متكتّماً حول هذا الموضوع لكي لا ينشر الرُّعب أكثر.

- «هل يعيشون في الجوار؟». قالت أود مدهوشةً؛ لأنّها لمْ تصدّق فعليّاً وجود مثل هؤلاء المستنيرين.

- لا أحد يعرف. يبدو أنّهم يغيّرون مكان إقامتهم دائماً.

- «كنت أظنّك السّيّد في هذه الأراضي». قالت أود بلهجة احتقارٍ.

دافع مارتان عن نفسه قائلاً:

- الهنود يخافون منهم، وهذا فوق إمكاناتي، إنّهم مقتنعون أنّهم أرواحٌ، ويهربون بمجرّد أن يروهم.

- و(شركاؤك)؟

اعترف لها مارتان، وهو يهزّ رأسه:

في الحقيقة، يجب أن تفهمي أنّه ما من أحدٍ يحمل السّلاح لكي يقاتل

مثل تلك الوحوش. أولئك الشّياطين يمشون عُراةً، وينصبون الفخاخ والكمائن، ثمَّ...

كانت أود تنتظر وهيئتها مُرعبةٌ. كان حدْسها يجعلها تلاحق الضّعف، وها هي قد رأته يخرج من الغابة.

-... لن يقوموا بإيذائنا.

- هل تريد القول إنّهم حلفاؤك؟

- «على الإطلاق!». صرخ مارتان: «لكنّهم ليسوا خطرين إلّا في حال الهجوم عليهم، ولأنّنا لا نستطيع الانتصار عليهم، فإنّنا نحجم عن فعل ذلك».

- «ونحن؟». أجابت أود: «هل هاجمناهم نحن؟».

- ممكن.

كانت ما تزال شابّةً لا تعرف التّاريخ التراجيديّ للبروتستانت. لم تكن قد عاشت تلك الفترة المأساويّة حين قام لوثر برمي ماء الإنجيل العذب على النّفوس التي كانت تفور بكلّ إحباطات القرون الوسطى، فأحدث بذلك انفجاراتٍ خلقت طوائف عديدةً استعملت الحرّيّة الجديدة بوحشيّةٍ وانتقامٍ. ريشير الذي سألته عن الأمر في اللّيل روى لها المصير المرعب للأناباتيست، وسعيهم المسعور لفعل الشّر بأقصى حالاته، وللمرّة الأولى اعترف لها بالتّعذيب المروّع الذي كان على هؤلاء المساكين المأخوذين بهوسٍ مجنونٍ أن يتحمّلوه في أوروبّا كلّها.

على مأساويّة تلك القصّة، ما كانت طبيعة أود تسمح لها بأن تشفق طويلاً على أيّ شخصٍ يهدّدها، وهكذا نظمت المجموعة بحيث تبقى على قيد الحياة، كما أنّها سيّرت دوريات حراسةٍ حول القرية، وأعطت الأوامر بألّا يبتعد أيّ شخصٍ وحده، ومن دون مسوّغٍ. مع الأسف، لئنْ

كانت هذه الإجراءات قد جنّبت وقوع ضحايا جديدةٍ، فإنّ تأثيرها على معنويّات المنفيّين كان له فعلٌ كارثي. فبعد مرحلةٍ أولى من الاستنفار قُبلت بالتّرحاب من أجل كسر الرُّعب العام، انتشرت بين أفراد المجموعة حالةٌ زائدةٌ من الإحباط. كان المساكين المحرومون من النّزهات يدورون في حلقةٍ مفرغةٍ داخل المحيط الضّيّق للأكواخ. تحوّلت الحميميّة إلى مشادّاتٍ، واندلع شجارٌ بين أحد الأزواج وبين جنديٍّ كان قد نظر إلى زوجِه.

في النّهاية، في إحدى الأمسيات، ذهبت أود لتلتقي بعمّها. كانت القرحة التي تتآكل في ذراعه قد صارت تنخر أكثر وأكثر، وكان وجه الرّاعي متقلّصاً من الألم.

بادرته أود قائلة:

- يا عمّي. قُل لي الحقيقة. هل تظنّ بأنّ جنيف سوف ترسل لنا نجدةً؟

فكّر ريشير مطوّلاً، وقال:

- لن يتخلّى عنّا كالفِن، وأنا واثقٌ من ذلك. لكن....

شعرت أود أنّ في لهجته بعض الاستنكار، فقالت له:

- تكلّم معي، ولا تخَف.

كان القسّيس يعرف منذ الاعتداء على جوست أنّ ابنة أخيه ذات شخصيّةٍ قويّةٍ لا يمكن مقارنتها مع ما يمثّل البطولة العاديّة لدى الإصلاحيّين. الخوف نفسه الذي جعل المجموعة تطيع قرارات هذه الشّابّة الصَّغيرة هو الذي كان جعل ريشير غير قادرٍ على الإطلاق على مقاومة رغبتها. وعلى أنّه كان قد أقسم ألّا يصل إلى ذلك الحدّ أبداً، فإنّه بدأ بالفعل ينظر إلى معلّمه الرّوحيّ بعينٍ نقديّةٍ.

قال متأوّهاً:

- إنَّ كالفن رجُلٌ صعبٌ. عفواً، كنت أريد أن أقول إنّه متطلّبٌ. إنّه لا يحبُّ الفشل. إنْ لم يدافِع جيّداً عن قضيّتنا يمكن أن يخاصمنا لأنّنا لمْ نستطع أن نناور مع فيلوغانيون، وفي الخلاصة أخشى أن يكتفي بأنْ يرسل إلينا رسالة تأنيبٍ جميلةً ونصائحَ.

- هل يمكن أن يتخلّى عنّا؟

- «لا». صرخ ريشير الذي أنّب نفسه لأنّه نال من صورة المصلح المثاليّة: «الواقع أنَّ كالفن لا علاقة له بذلك الأمر، وكلّ شيءٍ هو مجرّد مسائل سياسيّة. هناك إمكانيّتان: إمّا أن تكون جنيف قد حافظت حتّى هذه السّاعة على علاقتها الجيّدة مع فرنسا، وبالتّالي سيأمروننا بكلّ بساطةٍ أن نجد حلّاً وسطاً مع فيلوغانيون؛ وإمّا أنَّ الحروب الدّينيّة قد أشعلت من جديدٍ نار العداء بين القوّتين».

- وفي هذه الحال؟

في هذه الحال سيكون من المستحيل أن يرسلوا إلينا قافلةً؛ لأنّ ملك فرنسا لن يقبل أن يترك لنا حُرّية استعمال مرافئه.

- بالتّالي، فإنّنا بكلّ الأحوال قد ضِعنا.

فكّر ريشير لحظةً، ثمَّ صرخ قائلاً، وقد ظهر جليّاً أنَّ هذا الاعتراف أراحه من همٍّ مؤلمٍ ومستمرٍّ:

- كانت غلطتي أنّني لمْ أذهب أنا نفسي إلى هناك. شارتييه مخلصٌ، وهو قسّيسٌ جيّدٌ، ورجُلٌ شجاعٌ، لكنّه ليست لديه الدّبلوماسيّة الضّروريّة. أنا أعرف كالفِنْ على نحوٍ أفضل. كان بمقدوري أن أقنعه، وأن أظهر له أهميّة هذه المستعمرة، والأخطاء كلّها التي ارتكبها فيلوغانيون، ولو وضعت لنا فرنسا العوائق، كان بإمكاني أنْ أجد دعماً في هولندا، أو في انجلترا.

- ربّما لم يتأخّر الوقت بعد. اذهب. سوف ننتظرك.

- وما الذي أستطيع أن أشرحه له الآن؟ عندما سافر شارتييه كنّا ما نزال على الجزيرة. كان كلُّ شيءٍ ممكناً. اليوم يجب أن أعترف لكالفِن أنَّ حدود كنيسته لا تتجاوز أبعاد ثلاثة أكواخٍ، وأنّنا قد اجتزنا المحيط الأطلسيّ لهدفٍ واحدٍ هو أن نترك أنفسنا عرضةً للاضطّهاد من عصابة من الأناباتيست الذين عادوا إلى الحياة المتوحّشة.

- «في هذه الحال». قالت أود: «سوف نعود جميعاً».

اعترض القسّيس، لكنْ بتراخٍ. كان يرى في ابنة أخيه شجاعةً وسُلطةً يفخر بهما، ولو وضعت الظّروف هذه الصّفات في خدمة نتائج كان يقرف من الوصول إليها. لم تكن أود معجبةً بهذا الاستسلام، لكنَّ الوضع كان على الأقلّ واضحاً، وكانت تعرف ما بقي عليها أن تفعل.

في اليوم التّالي طلبت مقابلة مارتان. كان قرار البروتستانت قد أراحه، فقد تعب قليلاً من العذاب الذي يسبّبه له ذلك الفريق من العاطلين من العمل، في حين كانت الفوائد التي تأتيه منهم معدومةً، لا بلْ إنّه لم يعد لديهم ما يدفعون به ثمن الضّروريّات التي كان يؤمّنها لهم، وفوق ذلك كان يغامر بتعكير التّحالف المؤقّت الذي كان قد عقده مع فيلوغانيون. كان فيتوريو في كلّ مرّةٍ من المرّات التي يأتي فيها إليه، يؤكّد له أنَّ الأميرال ما كان يريد أن يقوم بأيّ شيءٍ مُعادٍ في اليابسة، لكنّه كان ينتظر بفارغ الصَّبر رحيل البروتستانت من غوانابار. بمعنىً آخر كان رحيلهمَ يرضي الجميع.

تفاوض مارتان كي يؤمّن لهم الرَّحيل على سطح هوركة قديمةٍ هولنديّة الطّراز، تعود بملكيّتها إلى البروتون الذين كانوا يقومون بالتّجارة في الخليج. كانت باخرة النّقل تلك في حالٍ سيّئةٍ، وكان عليها أن تعود إلى

بريست لكي يُصلّح هيكلها. في البداية كانت لدى الكابتن نيّة أن ينقل فيها الخشب، لكنْ مثل هذه الحمولة كانت كبيرةً بالنّسبة إلى هيكل السّفينة التي كان السّوس قد نخرها، بالتّالي قَبِلَ أن يأخذ معه رُكّاباً مقابل الدَّفع عند الوصول. كانت الميزة مع مثل هذه الحمولة أنّه من الممكن دائماً تخفيفها في حال حصل أيُّ تلفٍ، من خلال رمي بعض الأشخاص من السَّطح إلى البحر.

مرَّ أقلَّ من أسبوعٍ قبل أن يُساقَ البروتستانت النّاجون حتّى الباخرة في طوّافةٍ من جذع شجرةٍ مجوّفٍ، مع ما سبّبته الحُمّى، وحالات القتل التي قام بها الأناباتيست، وبعض حالات الموت الطّبيعيّ، بقي من البروتستانت اثنان وعشرون شخصاً شكّلوا هذه القافلة التَّعِسة، وبالإضافة إلى عدم الرّاحة، وإلى قذارة السّفينة القديمة كان هناك انزعاجٌ إضافيٌّ سبّبته تسمية الباخرة التي أطلق عليها اسم سانت ماري. وضعهم القبطان بجلافةٍ في أحواض قعْر السّفينة التي كانت ما تزال ممتلئةً بالزّيت السّائل، والفواكه الفاسدة، وروث السّعادين. القبطان نفسه كان على شاكلةِ مركبه، خشناً ووسخاً. كان عاري الصّدر باستمرارٍ، يستعرض أثداءه المقرفة الممتلئة بالشَّحم، وكان الشّعر يغطّي أكتافه وظهره. حاولت أود أن تجرّب معه تأثير نظرتها السّوداء، لكن عندما طلبت إليه للمرّة الثّالثة في ذلك اليوم شيئاً يتعلّق بنظافة قعر الباخرة، ناولها صفعتين حدّدتا لها التّراتبيّة المُتَبعة على ظهر الباخرة طيلة الرّحلة، وكان طاقم الباخرة كلّه من المعدن نفسه.

بمجرّد الإقلاع، تبيّن أنَّ القبطان لمْ يكن يشكّل الخطر الأكثر رعباً في الرّحلة، فأقلّ ما كان يمكن قوله إنَّ الأشرعة كانت فيها مهترئةً؛ وأنّه من الصَّعب التّعرّف بعد بحثٍ طويلٍ بين المربّعات المرقّعة التي تشكّل تلك الأشرعة إلى قطع القماش الأصليّة التي كانت لها وقت التّصنيع. كان

الصّاري نحيلاً في بعض المواضع مثل قوسٍ، وقرقعة هيكل الباخرة تبدو كأنّها تشي بمعركةٍ عنيفةٍ تتجابه فيها قطع السّفينة مع الحشوات لمعرفة أيّها ستسلّم الرّوح قبل الأُخرى.

مرّت الباخرة التي انطلقت من عمق الخليج بكثيرٍ من الحذر أمام حصن كوليني خوفاً من أن تكون قد راودت فيلوغانيون فكرةٌ شرّيرةٌ تجعله يطلق عليها طلقات مدافعه، وعلى الشّكوك التي كانت تحيط بتلك الرّحلة التي بدأوا بها، إلّا أنّ البروتستانت كانوا سعيدين برؤية تلك الضّفّة التي كانت قاسيةً جداً عليهم تبتعد. كان جبل (خبز السُّكر) ينظر إليهم وهُم يمرّون مع كلّ ما تبديه الطّبيعة من عدم اهتمامٍ غبيٍّ حيال مآسي البشر، ما يجعلهم يضاعفون الرّغبة في تطويعها وإخضاعها. كان الطّقس جميلاً يفرض واحداً فقط من شكليّ التّعبير عن القسوة اللّذين كان الطقس قادراً عليهما، وهُما عنف الشّمس الذي يلي عنف العواصف.

بعد قليلٍ انشقّت الأمواج الصّاخبة معلنةً بذلك الخروج من الخليج. صدر عن الهوركة صريرٌ، وأنينٌ، عندما تلقّت دفع البحر المفتوح. كانت تلك هي اللّحظة التي حصل فيها حادثٌ سوّغ في وقتٍ أبكر من المقرّر المخاوف التي كانت لدى القبطان، فبفعل ضغط الماء انكسر لوحٌ من الألواح الأماميّة لهيكل السّفينة، ودخل طوفانٌ من البحر إلى داخل الباخرة. كان يجب وضع النّاس كلّهم في مقدّمة الباخرة من أجل تخفيف الضّغط عن انحناءة مقدّمتها، ورفع مجرى الماء بحيث يسيل فوق السّطح، وقد أُصلحَ الشّرخ كيفما اتّفق ممّا أمن انسداده على نحوٍ غير أكيد.

بعد مشاوراتٍ طويلةٍ مع نجّار الباخرة، قرّر القبطان أنّه يجب تخفيف الحمولة. رُميت عدّة براميل ماءٍ وطحينٍ من سطح الباخرة، سواءٌ من أجل تخفيف الوزن أم من أجل تقليص عدد الأفواه التي يجب إطعامها، ونظراً

إلى كمّيّة الأطعمة المتبقّية، دُعيَ الهوغونوت إلى أن يختاروا ثمانيةً منهم يكون عليهم الرُّجوع إلى اليابسة، ولأنَّ الباخرة ما كانت لها ملحقات، كان على هؤلاء المساكين أن يتكوّموا على طوّافةٍ توصلهم إلى الشّاطئ. بعد اعتراضاتٍ، وتأوّهاتٍ، ووعودٍ بزيادة السّعر المدفوع عند الوصول، رضخ القبطان، وقبل التّضحية ببضعة سعادين عوضاً عن رجُلين، لكنْ كان لا بدّ من اختيار ستّةٍ، وهكذا قَبلَ جنديٌّ وخمسة حرفيّين أن يذهبوا في الطّوّافة.

استعادت الباخرة طريقها، وارتفعت صرخات وداعٍ مؤلمةً رافقت ابتعاد الرّجال السّتّة الذين كانوا قابعين على أطرافهم الأربعة فوق الطّوّافة الصّغيرة.

ما كان السّاحل بعيداً، والتّيّار الذي يدخل الخليج دفع الطّوّافة نحو مرساها. رأى الرِّجال على الطّوّافة جبل (خبز السُّكر) يمرّ وهو على الهيئة نفسها من عدم الاكتراث، ولأنّهم كانوا غير قادرين على قيادة مركبهم المرتجل، تركوا قيادهم لحركة الأمواج لترمي بهم نحو الأرض. جاء اللّيل، وكلّما غاصوا في اتّجاه الخليج صار التّيّار أقلّ ضعفاً والطّوّافة تدور مثل سدّادة فلّين، ولعدم ظهور القمر، لمْ تكن لديهم أدنى فكرةٍ عن المكان الذي كانوا سيرسون فيه في النّهاية. أخيراً في وسط اللّيل، حصلت صدمةٌ رخوةٌ دلّتهم على أنّهم لامسوا الشّاطئ. استمرّت الطّوّافة قليلاً في التّقدُّم حتّى تسمّرت في فتحةٍ مختنقةٍ داخل الرَّصيف. غامر رجُلٌ بالصُّعود إلى تلك الأرض القاطعة التي كانت تلامس الماء. رجع بعد عدّة لحظاتٍ ليؤكّد أنّهم قد صاروا بالفعل على الأرض فنزلوا من الطّوّافة. لم يعرفوا سوى عند الفجر، وعندما اكتشفوا جداراً فوقهم، أنّهم وصلوا إلى جزيرة حصن كوليني.

*

- هل اعترف؟

- «بكلّ شيءٍ يا أميرال». أجاب الجلّاد، وهو يمدّ بفخرٍ، ورقةً ملطّخةً بالدَّم.

ألقى فيلوغانيون نظرةً نحو الرّجُل الذي كان يتدلّى من الحائط، وقبضتاه محاطتان بأساور من الحديد. كان قد انتُزعت قطعٌ من الّلحم عند صدره بعنايةٍ بوساطة ملاقط مسخّنةٍ من الفولاذ، وما يزال الدُّخان يتصاعد من الجلد المشويّ الذي يظهر من فكّها. كان جسده بأكمله ممزّقاً بضربات السّوط، وعلى عنقه انطبعت بالّلون الأحمر آثار مشنقةٍ شُدّت حتّى أُغمي عليه.

من دون الكراهية، يكون الألم مشهداً عديم الطعم مثل الشّراب الذي يكون بلا لذّةٍ عندما لا يروي عطشاً حقيقيّاً. كان الأميرال يقيس التّطوّر الذي أحدثه في داخله القرف من البشر بكميّة الرّضا الذي شعر به لدى رؤية هذا الكافر ممزّقاً إرباً إرباً. كان سعيداً بذلك كعلامةٍ على الشّفاء بعد سنواتٍ طويلةٍ من التّسامح الرّخو، فبقليلٍ من التّفحُّص الدّقيق نستطيع أن نكتشف الشّرّ في المخلوقات. وقد لام فيلوغانيون نفسه بمرارةٍ؛ لأنّه لم يفهم ذلك في وقتٍ مبكرٍ أكثر، ولم يتفحّص البشر بما يكفي من الحصافة. هذا الكائن على سبيل المثال - ونظر إلى الرّجُل الخاضع للتّعذيب- في الماضي، كان سيصدّق حتماً أنّه كما يدّعي، مجرّد رجُلٍ غريقٍ دفعته أمواج المصادفة نحو الجزيرة؛ أمّا اليوم، فهو لمْ يعد يكتفي بمثل هذه الأوهام. صار يبحث على نحوٍ أفضل، وبالتّالي صار يجد؛ والحقيقة التي كان يمكن أن يمرّ بجانبها من دون انتباهٍ كانت مكتوبةً على تلك الورقة.

قرأ الأميرال برضاً ما في الورقة:

«إنّني أعترف بأنّني حاولت أن أتسلّل إلى حصن كوليني لكي أبثَّ فيه

الفوضى والخيانة. عاد أصدقائي إلى جنيف من أجل استعجال إرسال إمداداتٍ تسمح لهم أنْ يستولوا فيما بعد على المستعمرة، ومهمّتي هي أن أحضّر لعودتهم من خلال قتل الأميرال فيلوغانيون ونشر دعواتٍ سرّيّةٍ ضدّ روما، والكهنة، الكاثوليك».

كان الرّجُل على الحائط قد فقد وعيه. وضع فيلوغانيون المَحْضَر المكتوب في جيبه.

- «رائع». قال للجلّاد: «إنّهم متّفقون. أولئك الذين عالجتَهم البارحة قد وقّعوا التّصريح ذاته تماماً».

ارتسمت على وجه الجلّاد ابتسامةٌ سمحةٌ، وبعد أن مسح يديه الممتلئتين بالدَّم بمريوله، قام بشيءٍ يشبه تحيّة انحناءٍ.

وهذا يدلُّ على أنَّ الحقيقة واحدةٌ.

استنتج ذلك الأميرال، ثمَّ استدار قبل أن يخرج مضيفاً:

- ضعه مع الآخرين. لديك من الآن حتّى الغد لتحاول أن تعطيه هيئةً مقبولةً من أجل إصدار الحُكم.

كانت ساحة مقرّ الحاكم قد زُيّنت خصّيصى لكي تجري المحاكمة فيها بالأبّهة الضّروريّة. كان الفصل جافّاً بلا أمطار، والنّسخة العملاقة للعذراء في لوحة تيسيان قد وُضعت بمواجهة المرفأ، والأدغال المحيطة بالسّاحل. كان فيلوغانيون سعيداً بأن يرتدي لتلك المناسبة سُترةً طويلةً مبطّنةً بقماشٍ رماديٍّ كان الخيّاط قد أنهاها في الحال. جلس على ما يشبه المنصّة، وإلى جانبه دون غونزاغ الذي كان قد ازداد عَرجاً ووقاراً. كان لا يصلح لأيّ شيءٍ آخر سوى الدّور الذي يلعبه بروعةٍ، وهو دور أبي الهول الحقوقيّ الضّائع في أحلامه الشِّعريّة النّاعمة التي كان يمكن أن تبدو كزمجرة عقابٍ مرعبةٍ؛ أمّا الرّجُل الثّالث فكان عميد الحِرفيّين الذي يمثّل الشّعب في قاعة المحكمة هذه.

حُكِمَ بالتّتالي على الرّجال البروتستانت السّتّة الذين وصلوا بطوّافتهم إلى هناك. حكمت عليهم المحكمة كما كان متوقّعاً بالموت الذي كان الجلّاد قد أعطاهم إيّاه جزئيّاً، وبما أنّه لمْ يكن من المناسب أن يكون الحُكم لتخويف المستعمرين فقط، إنّما لتسليتهم أيضاً، فقد قرّ القرار على عدّة أنواعٍ من الإعدام بحيث يكون لدينا مشنوقان اثنان، واثنان يُقطع رأساهما، واثنان يقتلان غرقاً. هذا الشّكل الأخير من الحُكم كان أكثر ما يفضّله الجمهور. أُلقي المحكومون بين فتحات رصيف الميناء بعد أن رُبطت أعناقهم بسلسلةٍ قصيرةٍ وثقيلة، ولقد سمح الماء الصّافي في القنال بمتابعة احتضارهما كما لو كان يتمّ خلف زجاج عرض. كذلك كان بمقدور الحالمين من الجمهور أن ينتظروا عند ضفّة الماء مجيء ثعابين البحر المفترسة.

وهكذا وصلت شعبيّة فيلوغانيون إلى حدٍّ لمْ يسبق أن وصلت إليه من قبل.

الفصل 7

شفي جوست بسرعةٍ من جُرحه. مع ذلك، وبعد فترةٍ من انتهاء نقاهته الجسدية، تابع البقاء مستلقياً بلا حراكٍ، ومن دون إرادةٍ. كان مرض الكآبة قد حلّ محلّ إنهاك الجسد، كما لو أنّ أود قد أصابت قلبه عندما ضربته بالخنجر.

كانت أفكار الحزن عصيّةً على الإمساك، وترسم أمامه صوراً من حياته، لكنّه كان يستعيد هذه الانفعالات التي مضت من دون أن يشعر بها. كانت أحلامه قد تلاشت مثل فقاعاتٍ شفّافةٍ قام الخنجر القاتل بتفجيرها. كلامورغان، والفروسيّة، والمعارك النّبيلة التي قام بها أبوه في إيطاليا، والأحلام العظيمة لفرنسا الأنتاركتيكية، ذلك كلّه صار يبدو له مثل ضبابٍ أسبغ عليه بعبثيّةٍ أشكالاً متينةً من بين تلك الأشياء كلّها، لمْ تكن هناك واحدةٌ تستطيع بعد الآن أن تخدع نظرته التي زالت الغشاوة عنها، لكنّه مع ذلك لم يستطع عالم المظاهر المبتذل أن يحلّ محلّ هذه الأوهام؛ لأنّها هي أيضاً قد اختُرقت، وانفتح السّطح الخارجيّ للكائنات من حوله على عتمةٍ مقرفةٍ. أود التي أحبّها في البداية لما لم تكن عليه قد أظهرت له بأيّة سهولةٍ يمكن للكراهية أن تتقنّع بقناع الحُبّ، والسّواد بقناع الجمال، والعفّة بقناع الفساد؛ وكيف يكون المظهر الخارجيّ الحنون قادراً على أن

يخفي الإرادة القاتمة للإجرام. بعد ذلك انكشف فيلوغانيون على نحوٍ مختلفٍ عمّا اعتقده جوست، فمنذ أن جُرح جوست، كان الفارس يأتي كلّ يومٍ ليزوره، وبحُجّة طمأنته، كان يروي له أفعاله ومشاريعه، كما كان، بنيّة بثّ السّعادة فيه، يقوم بوصفٍ مرعبٍ لأفعاله الوحشيّة وحِيله، وللكراهية التي صارت من وقتها تقود أفعاله في وضح النّهار. كيف استطاع جوست أن يُعجب بمثل هذا الرّجُل؟ كيف خُدع فترةً طويلةً بطيبته؟ لم يعرف أي واحدٍ من بينهما قد تغيّر، لكنْ ما كان فيلوغانيون يستطيع أن يترك مثل هذه الأمزجة السّوداء والشّرّيرة تسيل منه لو أنّها لم تكن قد تشكّلت في داخله منذ فترةٍ طويلةٍ، ولو كان يجبر نفسه من قبل على ألّا يعبّر عنها. لم يعد جوست يستقبله من دون قرفٍ؛ وما كان الأميرال يظنّه تعب الجسد كان في الحقيقة تمرّد فكرٍ لم يعد يستطيع أن يتكلّم، ولا أن يصمت.

لمْ يبقَ شخصٌ واحدٌ على تلك الجزيرة لمْ يتوصّل جوست إلى تأمُّل وجهه المخفيّ والمقرف. كان يبدو أنّ تلك المظاهر كلّها قد انقلبت مثلما تنقلب الملابس، وصارت تعرض أمام بصره الوجه الآخر الخلفيّ القذر الذي ينخره الدّود. هو نفسه لم يكن قد سلِم من تلك التّحوّلات، فحياته كلّها كانت ترشح بالجُبن، والتّردُّد، والغلط. تحت وضعيّات النّبالة والأناقة التي كان يتّخذها، لمْ يكن قد مارس سوى أسوأ الحلول الوسط، وكان يتحمّل الكذبات التي يخترعها لنفسه، وهو يتظاهر بأنّه يصدّقها.

وحدها كولومب من بين الجميع كانت عصيّةً على هذا الغثيان المتدفّق. فكّر جوست في نظرتها الصّافية التي لمْ تعد تتوضّع عليه، وبدا له أنّ وعيه الجديد كان طريقةً في أن يرى أخيراً الأشياء عبر عيونها هي. كيف لمْ يفهمها على نحوٍ أفضل؟ لماذا كان على ذلك القدر من الجُبن بحيث لم يقبل ما كانت تحاول أن تقوله له؟ لقد رأت قبله كيف تعشّقت المسنّنات

المشؤومة لتلك المستعمرة المنذورة للدّم وللدّمار. كانت قد أتت لتحذره برحيلها، لكنّه لم يستمع إليها. لقد قرأت الخيانة في ادّعاء الحُبّ الذي عرضته تلك التي قامت في يومٍ من الأيام بطعنه.

إنّه لم يجابه اندفاعات الحقيقة تلك كلّها سوى بالكذب. الكذب في ذلك التّنكُّر الذي قبله لها، الذي تحرّرت منه بانفجارٍ يائسٍ. الكذب في مشروعٍ مُجدٍ لمْ يكن يؤمن به هو نفسه، وأكثر من ذلك كلّه الكذب في هذه القرابة الزّائفة التي كانت تحميه من المشاعر الحقيقيّة التي كان يشعر بها نحوها. عندما كانا طفلين، كان إقناعه لها بأنّها أخته طريقته في أن يقول لها إنّه يحبّها، لكنّ الاستمرار في تلك الحكاية لمْ يكن له من هدفٍ، أو من تأثيرٍ سوى منع هذا الحبّ من أن ينمو، ومن أن يصير راشداً مثلهما.

عندما هدمت أود تلك الجدران المصنوعة من وهمٍ، ومن غلطٍ، كانت لها على الأقلّ ميزة أنّها أظهرت فوق القشرة، والجلد، واللّبّ، تلك النّواة الوحيدة المتينة التي كانت داخل جوست، وهي الحُبّ الذي يحمله لكولومب.

لكنّ المصيبة كانت في أنّه لم يكتشف ذلك إلّا حين صار الوقت متأخّراً على زرع ذلك الحبّ في الأرض، وتركه ينمو، ومتأخّراً على التّعبير عنه، وعلى عيشه.

شيئاً فشيئاً بدأ جوست يقف على قدميه. كان يرتدي ثيابه، ويخرج للمشي على الشّاطئ متلافياً السّير أمام المشانق، وأماكن التّعذيب. لا بلْ إنّه كان يتجنّب قدْر المستطاع أن يحطّ بصره على الجزيرة. حتّى الحصن الذي كان شديد الفخر به في الماضي صار الآن بالنسبة إليه مشهداً مؤلماً. لم يعد ينظر سوى إلى البحر. في دغدغة خضرته، أو في الالتماع الأزرق لمياهه، حيث كان يذوّب ضوء الشّمس الأصفر بكمّيّات متفاوتةٍ، كان يتهيّأ

له أنّه يقرأ الرّسالة الغامضة واللّدنة التي ترسلها مشاعره الخاصّة. كانت روحه المنبسطة والسّائلة بمنزلة منظرٍ يمتدّ بين مستقبلٍ أبيض مثل السّماء وبين ماضٍ مؤلـمٍ أغواره بنفسجيّة.

هناك على الشّاطئ، بعد إعدام النّاجين من الغرق، أتى فيلوغانيون يبحث عنه ذات يومٍ ليعلن له قراراً اتّخذه. عندما رأى جوست الأميرال ينضمُّ إليه عند ضفّة الماء، شعر في البداية بالانزعاج؛ لأنّ هناك من يتبعه حتّى في حميميّة أحلامه، لكن فيلوغانيون في ذلك الصّباح كان يبدو أقلّ عرضةً لعذاب الكراهية من العادة؛ إذْ يبدو أنّ هدوء البحر قد وصل إليه هو الآخر في أثناء تسكُّعه على طول أرصفة الميناء. كان لباسه المزركش بأشرطةٍ من خيوط الحرير يبدو في جوار الخليج الممتلئ بالأبّهة أقلّ غرابةً منه وسط الدّيكور المصطنع للأثاث الأبنوسيّ والسّجّاد الشّرقي. كان يتكلّم بصوتٍ خفيضٍ كما لو يحدّث نفسه. شعر جوست أنّه منذ أن جُرح لم يعد فيلوغانيون يستطيع الاستغناء عنه، وعبر الزّيارات اليوميّة تلك، ترك الأميرال في جنون العنف الذي يجتاحه فسحةً صغيرةً من الحنان الحقيقيّ، لكنّ المصيبة هي أنّه خصّص هذا الحنان لمن صار يراه مرعباً، وقد شعر جوست أنّه لم يعد قادراً بعد الآن أن يردّ له محبّته تلك.

بدأ فيلوغانيون الكلام:

- لقد فكّرتُ جيّداً، إنّنا في طريقٍ مسدودةٍ.

هذا الإقرار بالفشل لم يكن يشبهه على الإطلاق، وكان أيضاً بمنزلة مقدّمةٍ للفعل، وهكذا أعلن وهو يرفع رأسه بفخرٍ، وينظر إلى الأفق البعيد:

- سوف أعود إلى فرنسا.

رغم فرادة هذا الإعلان، كان من الصّعب على جوست أن يُظهر اهتماماً بالأمر.

تابع الأميرال:

- الحصن قد انتهى، ومن الواضح أنَّ البرتغاليّين قد فوّتوا فرصة الهجوم علينا عندما كنّا ضعفاء. أمن المستعمرة قد تحقّق الآن ويجب علينا أن نذهب أبعد أيضاً، وأن نستثمر الخشب بكمّيات كبيرةٍ، وأن نتغلغل في عمق هذه القارّة، ونكتشف الذّهب الذي يملأها. الآن وقد رحل البروتستانت، حان الوقت لنهاجم التّراجم، ولنخلّص هذا السّاحل منهم نهائيّاً. مع الأسف، ما علمته عن قوتهم يبيّن أنّنا نحتاج كي نصبح سادة السّاحل إلى جيشٍ حقيقيٍّ، ووسائل جديدةٍ، وإلى المال لشراء الجواسيس، وهنا لا نستطيع أن نأمل بأيّ شيءٍ. يجب أن أذهب لأبحث عن ذلك كلّه في باريس، ولأدافع عن قضيّة مستعمرتنا الواعدة أمام الملك.

خشي جوست أن ينطلق في استعراض عظمة فرنسا الأنتاركتيكية. كان الاستماع إليه يتجاوز قُدرته على الاحتمال، لكنّ فيلوغانيون غيّر الاتّجاه فجأةً، وأسرّ لجوست:

- لقد عرفت كورتيس جيّداً عند الاستيلاء على الجزائر، ولمْ أرَ في حياتي رجُلاً يثير الشّفقة مثله.

كان جوست قد سمع الأميرال قبل الآن يقارن عمله في البرازيل بغزو المكسيك، وكان اسم هيرنان كورتيس يتردّد غالباً على لسانه، لكن كانت تلك المرّة الأولى التي يذكر فيها لقاءه معه مباشرةً.

كان رجُلاً قصيراً ملتوي الجسد، أسْود مثل غرابٍ، ولديه كثير من الحركات العصبيّة. مع ذلك فقد أعطى من الممالك إلى كارلوس الخامس أكثر ممّا يحلم بفتحه أيُّ ضابطٍ آخر. لقد هزم وحده إمبراطور المكسيكيّين، وجعل إسبانيا تنهار أمام ذهب الأمريكان. عندما عرفته، كان قد فقد حظوته، ويحاول بيأسٍ أن يثير انتباه مليكه.

كان هناك حرفيّون يتسكّعون على طول الشّاطئ، لكنّهم عندما رأوا الأميرال يقترب، رسموا على وجوههم قسمات الانشغال وفرّوا مسرعين، لكنّ هذا الأخير لم يُعرهم أيّ اهتمامٍ؛ لكثرة ما كان منشغلاً بالكونكيستادور. تابع قائلاً:

– لقد افتروا عليه في حين كان يغامر بحياته من أجل إخضاع العالم الجديد. رجال البلاط المنزعجون نعتوه بالخائن، وقد صدّق كارلوس الخامس ذلك لضعفه، وبعد أن عاد كورتيس إلى أوروبا عامله الحاكم كرجُلٍ بائسٍ؛ أمّا هو، فكان يبحث عن أيّة مناسبةٍ تعيده إلى البلاط، وعندما أراد الإمبراطور أن يطلق نوعاً من الحروب الصّليبيّة ضدّ الجزائر من أجل تخليص البحر المتوسط من عشّ القراصنة هذا، استغلّ كورتيس تلك المناسبة.

ما كان جوست قادراً مثل السّابق على سؤال الأميرال عمّا صنعه هو كفرنسيٍّ في تلك الحملة الإسبانيّة ضدّ الأتراك الذين كان فرانسوا الأوّل يعاملهم تقريباً كحلفاء.

أجاب الأميرال عن السُّؤال الذي لم يطرحه عليه أحدٌ قائلاً:

– أنا كنتُ في مهمّةٍ كُلّفتُ بها من أجل مالطة التي كانت مصلحتها أن ترى البرابرة يُبادون.

ثمَّ أضاف بصوتٍ خفيضٍ كما لو كان يخشى أن تفلت منه أشياء لا يجب أن يبوح بها أمام البحر، أو الصّخور:

– وبالطّبع كنت أنقل المعلومات لملك فرنسا.

هذه القصص كانت بعيدةً عن مسائل الجزيرة، وقد انتبه فيلوغانيون إلى ذلك، فسارع إلى وضع خاتمة لهذا الاستطراد.

– باختصار: كنت أريد أن أقول إنّنا في الجزائر، عندما نزلنا على

الشّاطئ، منعتنا عاصفةٌ رهيبةٌ من أن نهاجم. كانت الحملة سيّئة التّحضير، وسيّئة التّدبير. الجميع كانوا يرون أنّ اللّعبة خاسرةٌ، حتّى أنا، مع كلّ ما لديّ من جرأةٍ، لكن كورتيس المسكين هذا كان يريد بأيّ شكلٍ أن يستعيد منزلته. كان هناك تحت المطر مبلّلاً حتّى الوبر، والله وحده يعرف إنْ كان فيه شيءٌ من الوبر. كان يردّد: يجب أن نقوم بذلك. يجب أن نقوم بذلك.

وكان الإمبراطور ينظر إليه باحتقارٍ أكثر ممّا لو كان يتعامل مع مهرّجٍ، أو مجنونٍ. كان الوضع مؤلماً، صدّقني.

أخذ الأميرال يتأمّل البحر، وهو يهزّ رأسه الضّخم.

أنهى كورتيس حياته في حالةٍ من البؤس. يقال حتّى إنّه في النّهاية كان يتعلّق بعربة الملك لكي يتوسّل منه النّجدة. نعم.. لست أريد أن يحصل لي ما يشبه هذه المغامرة السّيّئة.

كانت تلك المرة الأولى التي يسمعه جوست فيها يذكر الفشل والعزلة.

– لا، بحقّ جسد سان جاك، لنْ أترك للجبناء أن يفتروا عليّ. طبعاً كنت أريد أن يختفي هؤلاء الهوغونوت؛ أمّا الآن، وقد وجدوا طريقةً للعودة إلى أوروبّا، فقد صار عندي ما أخشى منه. هل تفهمني؟ استجواب النّاجين من الغرق أثبت ذلك. إنّ لديهم نيّةً صلبةً في الافتراء عليّ. سيصفون أعمالي على نحوٍ كاريكاتوريٍّ. أنا أعرف هذا الصّنف الخسيس: يخربشون كما يحكّ السّعدان جلده. سينشرون رسائل تشهيرٍ بي. وسيكون هناك دائماً مستشارون جيّدون يقولون لملك فرنسا إنّه لا يمكن أن يكون هناك دخانٌ بلا نار.سيكون كل شيءٍ ممكناً إذاً. يمكن له أن ينكرني، إلّا إذا قرّر أن يرسل لي جيشاً يضع على رأسه دوبون آخر يعلن بمجرّد نزوله من الباخرة أنّه سيأخذ مكاني.

بينما كان الأميرال يطوّر تلك الشّروحات، كانا قد وصلا إلى المعقل

الغربي. وقف فيلوغانيون بمواجهة فتحة الخليج التي كانت تطلّ على عرض البحر، وختم حديثه قائلاً:

لهذا السّبب يجب أن أذهب لأقوم بالدّفاع عن نفسي بنفسي. بقيت لدينا باخرةٌ واحدةٌ، ولقد جهّزتها، وسوف أرحل خلال ثمانية أيّام.

كان عقل جوست قد فقد عادة التّفكير عملياً، وبالتّالي لم يكن يعرف ما الذي يستطيع أن يقرّره لنفسه: أن يرافق الأميرال إلى فرنسا أم أنْ يبحث عن حلٍّ آخر؟ كان ينتظر أن يكون لديه الخيار، لكن ما تلقّاه كان أمراً.

- «في غيابي»، أعلن فيلوغانيون بلهجةٍ رسميّةٍ: «ستمسك بمقاليد القيادة في المستعمرة».

تلقّى جوست هذا القرار مثل السّهم في وسط جبهته. مع ذلك، فيما لو فُكِّرَ به فإنّه يبدو منطقياً، بلْ وحتمياً. كان لوتوريه قد هرب؛ وبوا لو كولومب بقي في النّورماندي. دون غونزاغ قد استهلك آخر ما لديه من قوّةٍ في الصّراعات الدّينيّة؛ أمّا سائر الضُّبّاط فكانوا جنوداً جيّدين، لكنْ من دون قابليّةٍ لأن يصبحوا قادةً. كان فيلوغانيون قد أنهى تربية جوست مثل وليٍّ للعهد، وحَباه بالميزات جميعها التي تصلح لجعله خلفاً له. كان ينقصه فقط الرّغبة، وعلى انعدام الحساسيّة لدى الأميرال، فإنّه قد لحظ ذلك، لكنّه كان يظنّ أنّه من الممكن تسليح الإرادة من الخارج عبر أمرٍ، أو في أفضل الأحوال عبر قسمٍ.

- «اقسم لي». قال وهو يوجّه إصبعه المغطّاة بجلد الخنزير نحو قلب جوست: «اقسم أنّك بحقّ ذكرى أبيك ستحافظ على هذه الأرض حتّى عودتي. اقسم أنّك ستدافع عن مصالحها ضدّ كلّ أولئك الذين يمكن أن يأتوا ليهدّدوها، وأنّه لو قطعوا عنقك لن تقبل أن تتخلّى لهم عنها».

ومثل كلّ شيءٍ رسميٍّ كان فيلوغانيون يقوم به، وضع في هذه الكلمات

من الفخامة ما يصل إلى حدّ الهزل، لكنْ في الوقت نفسه، كانت قوّته، وحجمه، والسّحنة المتألمة، والمهدِدَة التي رسمها على وجهه في أثناء الكلام لا تستدعي المزاح، ولا التّهرُّب.

- «أُقسم!». قال جوست رغماً عنه.

وهكذا صار جوست حاكم فرنسا الأنتاركتيكية.

*

كان باي لو يزداد ضعفاً، وعلى عودة الشّمس والهواء الجافّ فإنّه كان يسعل باستمرارٍ، ويظلّ مستلقياً. كان يُحمل إلى الشُّرفة، ويبقى ساعاتٍ في أرجوحته، من دون أدنى حراكٍ أحياناً، إلى درجة أنّ السّناجب كانت تأتي إليه في مجموعاتٍ من اثنين، أو ثلاثة، وتجلس على جسده. على ضعفه، كان يتابع الإصغاء إلى الأخبار التي يأتون بها إليه، وهكذا عَلم أنّ لوتوريه الذي أُحيط بحراسةٍ جيّدةٍ قد وصل إلى البواخر، واستطاع أن يبحر إلى فرنسا. بعد أيّام، أتى محاربون من الشّاطئ؛ ليعلموه برحيل آخر باخرةٍ كانت قد رست قرب الجزيرة. وحسب الشّائعات، كان فيلوغانيون على متنها.

تساءلت كولومب إنْ كان جوست قد رافقه، فبعد ما كشفه لها لوتوريه، صارت تتفاعل في داخلها فكرة أنّ مصائرهما صارت منفصلةً وحتّى متعاكسةً. أصبح همّها الأساسيّ أن تفكّر بحياتها بين الهنود، وأن تكتشف هناك مكانها الصَّحيح، وأن تحفر بمساعدة ماضيها الجديد مستقبلاً يجعلها سعيدةً. منذ رحيل باراغواتشو، ما عادت تقيم بين النّساء إلّا قليلاً. كانت تشعر بالرّغبة في أن تقاسم المحاربين حياتهم حين يذرعون الغابة. عندما عرضت عليهم ذلك بدر منهم بعض الحَرج، فالقاعدة الهنديّة كانت تقوم على ألّا تحشر المرأة نفسها في مسائل المعارك والمغامرات، لكنْ

بناءً على مداخلةٍ من باي لو، قَبِل الرّجال في النّهاية أن يقوموا باستثناءٍ من أجل كولومب. أخذها اثنان من أبناء الأب الكبير تحت جناحهم. علّموها استعمال القوس الكبير، وكذلك فنّ بري السِّهام، والبحث عن الطّرائد، وتقليد صرخات الغابة، ثمَّ حضّر هنود الكاريبي احتفاليّةً شربوا خلالها كثيراً من الكهوان؛ وكانت النّبوءات التي استقوها من الخشخيشات مناسبةً. رسموا بعصارة الجينيّات على جسد كولومب رسوماتٍ جديدةً ترمي إلى جعل أرواح الحيوانات والغابات متسامحةً معها. في النّهاية، لصقوا على أكتافها وأوراكها ريشاتٍ صغيرةً خضراء وصفراء. وعلى شعورها بالضّيق من ملمسها على جسدها، فإنّ تلك الزّينة كانت ذات ميزةٍ ثنائيّةٍ؛ فهي تجعل من يتزيّن بها مقاوماً للجروح، كما أنّها تخفي جنسها.

قامت كولومب بحملتها الأولى مع مجموعةٍ من عشرة رجال. كان ذلك بالنّسبة إليها سعادةً خالصةً. مشوا منذ الصّباحات المبكرة الأولى وصولاً إلى حدود أراضي القبيلة، صامتين ومتنبّهين لأقلّ صرخةٍ. اجتازوا القمم العارية ودخلوا في الخنادق المخضرّة من أجمات الأوركيديا والسّوسن البرّي. كانوا ينامون في أسفل المنحدرات السّوداء، ويصعدون السّواقي التي كان ماؤها صافياً إلى درجةٍ تجعلهم يخلطون بين الحجارة وبين ظهور الأسماك الكبيرة التي لا تتحرّك، فيسقطون في الماء، وهُم يضحكون.

كان يمكن الإحساس بالخطر في بعض الأحيان من التّوقُّف المفاجئ لرجُل المقدّمة الذي يجمد في مكانه مستعدّاً للمعركة؛ وكانت مجاورة هذا الخطر تجعل أمن المجموعة شيئاً ممتعاً بالنّسبة إلى كولومب، فهي لم تشعر ولا مرّة في هذه السُّهوب الواسعة بشعورٍ يماثل تلك الثّقة والحماية. في المساء، كانوا يشعلون النّار، ويأكلون من دون إصدار أي كلمة اللحوم

المقدّدة التي يخرجونها من كيسٍ من الجلد. في أحد الأيّام بعد الظّهر، قتلوا أيّلاً، وقطّعوه، وحملوا الأجزاء التي لم يأكلوها منه.

كانت كولومب خلال تلك الجولات التي لا تنتهي تنظر إلى رفاقها، وتشعر برائحة أجسادهم في الحرّ، وتُعجب بمرونة عضلاتهم التي كانت تتراقص تحت بشرتهم اللّامعة. كانت تتساءل طويلاً حول ما إذا كانت تستطيع في يومٍ من الأيّام أن تكون زوجة أحدهم. مع ذلك، أياً كان الانجذاب الذي كانت تشعر به لجمالهم، ونعومتهم، وقوّتهم، فإنّها كانت تشعر بوجود عائقٍ غامضٍ يقف في وجه تلك الفكرة. لم تستطع أن تفهم بوضوحٍ سبب ذلك الشّعور. ربّما كانت تشعر أنّ هذا الجمال الهنديّ ينتمي إلى نظامٍ آخر هو نظام الطّبيعة البريّة. ألم يكن عبق جلدهم قريباً، على اختلافه، من عبق زعتر الوعر، والمردكوش، والمستيكة؟ وهذه المرونة، هذه الرشّاقة، هذا الجمال في العضلات، ألم تكن التّنويعة البشريّة للقوّة الوحشيّة التي لدى النّمور والظّباء؟ لكنّها كانت سرعان ما تزيح ذلك التّفسير بعيداً. كانت تشعر بنفسها هي أيضاً قريبةً جدّاً من الأرض التي تدوسها بقدميها العاريتين، ومنسجمةً تماماً مع ما فيها من معادن، ومن حيوانات بحيث لا تشعر تُجاه أولئك الرّجال بأدنى اختلافٍ يمكن أن يمنعها من الاقتران بواحدٍ منهم.

في بعض الأحيان كانت تقول لنفسها إنّ العقبة كانت هنا: أن يتوجّب عليها اختيار أحدهم عندما كانت تشعر أنّها صديقة المجموعة كلّها. هل سيعترفون بها أيضاً كواحدةٍ منهم في حال أبدت تفضيلها لأحدهم؟ لكنْ حتّى ذلك لم يقنعها. عندها، طردت تلك الهموم، واحتفظت بهذا الغموض لنفسها، وعادت إلى المتعة التي لم يكن يعيقها شيءٌ في تلك اللّحظة الرّاهنة.

عندما وصلوا عند باي لو بعد عودتهم من ذلك المسير، كان سرورهم كبيراً بضجيج البيت، وبالضّحكات الرّنانة، والأعياد. صارت كولومب ترى كلّ شيءٍ بعينٍ حنونٍ بفضل ذلك التّقارب الجديد الذي جعلتها المسافة التي قطعتها تقيسه وتحبّه.

خلال عدّة أسابيع قامت مع مجموعاتٍ متنوّعةٍ من الصّيّادين بعدّة حملاتٍ طويلةٍ جعلتها تنضج أكثر ممّا كانت تتصوّر. كان باي لو يمتدح شجاعتها، وينقل إليها الإعجاب الذي حمله هؤلاء المحاربون لتصرّفاتها، ومقاومتها، ومهارتها، من دون أن يجرؤوا على التّعبير عن ذلك أمامها.

مع ذلك فإنّ الشّيخ صار على درجةٍ من الضّعف جعلت كولومب تقرّر، رغم تشجيعه أن توقف سفراتها، وأن تبقى إلى جانبه.

ما من شيءٍ يبدو خالداً مثل الكائنات التي عرفناها دائماً ضعيفةً وهشّةً. كان باي لو بالنّسبة إلى كولومب رجُلاً بلا عُمْرٍ، وبالتّالي بلا نهايةٍ، كما لو كان قد اجتاز الموت من قبل، وتحدّث معه من الضّفّة الثّانية، لكنّ تحوّلاته الأخيرة، والنّحول الكبير في عنقه، وفي ذراعيه، ونفسه القصير، ونوبات غيابه الطّويلة، التي كان خلالها يترك فمه مفتوحاً، وعينيه شبه مغلقتين، ذلك كلّه بدأ يعبّر عن كونه سوف يعيش نهايته عمّا قريب.

النّاس كلّهم داخل البيت كانوا يعملون بحيث تصير تلك النّهاية ناعمةً هادئةً، وما كان أحدٌ يستطيع أن يتنبّأ أنّها ستكون على تلك الدّرجة من الضّجيج والعنف. ذلك أنّ الإنذار جاء فجأةً في صباح أحد الأيّام عبر ضجّة ركضٍ في الغابة، وصرخات مطاردةٍ. بالكاد تسنّى لكولومب أن تنهض من أرجوحتها، وأن تتّجه نحو الباب عندما دخل فجأةً إلى الغرفة ظلّان يلهثان. الفجر في الغابة يبطئ دائماً في تحوّله إلى ضياءٍ، وكانت مزعٌ من اللّيلِ البنفسجيّ ما تزال تجعل الغرف معتمةً في حين تبدأ

السّماء بالتّحوّل إلى الضّوء. في البداية لم تعرف كولومب الدّخيلين. كانا يمسكان بيدي بعضهما، والواحد منهما أطول من الآخر؛ كما أنّ جسديهما العاريين كانا يدلّان على أنهما من الهنود. كان باي لو مستلقياً في الغرفة المجاورة، وبابه قد ظلّ مفتوحاً مع وجود مصباحٍ مضاءٍ في اللّيل والنّهار بقربه. الصّرخات في الخارج كانت تقترب، فدخل الهاربون إلى الغرفة حيث كان العجوز. عندما أضاء المصباح وجهيهما، أطلقت كولومب صرخةً. تعرفت بينهما إلى وجه باراغواتشو؛ والرّجُل الذي يقف بجوارها هو الشّاب الأسير كارايا الذي لمْ تكن قد تجرّأت على السّؤال عن أخباره، وكانت تظنّه ميتاً.

في اللحظة نفسها، دخلت بسرعةٍ إلى البيت نصف دزّينةٍ من المقاتلين المسلّحين بالهراوات. استغرقهم بعض الوقت لكي يعتادوا الظّلمة، ثمَّ لمحوا الهاربَين، فقفزوا في اتّجاههما، وهُم يشرعون أسلحتهم، لكن عندما رأوا بينهم وبين فريستهم الجسد المسجّى للأب الكبير، تجمّدوا في أرضهم، وحلَّ صمتٌ عميقٌ. انزلقت كولومب بدورها، ودخلت إلى الغرفة.

– «أنقذنا يا باي لو!». صرخت باراغواتشو، وهي ترتمي جاثيةً على ركبتيها.

كان كارايا قد ظلَّ واقفاً، وقد تراجع نحو الحاجز المضفور.

– «ما الذي حصل؟». سأل باي لو ببطءٍ.

كان صوته ضعيفاً، وكان يقوم بجهدٍ واضحٍ لكي يحافظ على يده المرفوعة التي أوقفت استخدام السّلاح.

اقترب أحد المقاتلين من الأرجوحة، وقال بصوتٍ ممتلئٍ بالاحترام، لكنّه كان ما يزال متقطّعاً من اللّهاث بسبب الرّكض:

- «هذا الرّجُل من المارغاجات، ويجب أن يُضحّى به هذه اللّيلة».

خفض كارايا بصره. كان يبدو كأنّه قد رضخ للموت، لكنّ باراغواتشو كانت هي التي تتصرّف عوضاً عنه، وهو يقف في حمايتها الهشّة.

- «أنقذنا!». ردّدت مع نظرةٍ ممتلئةٍ بالتّوحُّش.

خفض باي لو يده، ورفرف ببطءٍ بأهدابه، ونادى كولومب:

- «ساعديني على النّهوض». قال لها بنعومةٍ.

أمسكت به لتجلسه في الأرجوحة. جعله الجهد يقطّب وجهه. رأسه الجميل الذي ارتفع في السّرير راح يتنقّل ببطءٍ بين مجموعة الهاربين المتوسّلة وبين المحاربين الذين كانوا يريدون موتهم.

- كنتم تريدون أكله، أليس كذلك؟

- «إنّه القانون». قال رئيس الهنود.

هزّ باي لو رأسه لكي يبدي أنّه يوافق على هذا الكلام، وقال:

- أنت مُحقٌّ.

بدرت عن باراغواتشو صرخةٌ قصيرةٌ، لكنّ العجوز أشار بيده المتعبة، ما يدلّ على أنّه لمْ يُنهِ كلامه.

- منذ متى هو أسير؟

- «منذ عشرين قمراً». أجاب الزعيم.

وافق باي لو بجدّيّةٍ، ثمَّ انتظر. كان فمه يتحرّك حركة مضغٍ لم تكن كولومب قد لحظتها من قبل أبداً. في النّهاية سأل الزعيم:

- بماذا تجيبني لو اقترحت عليكم أن تأكلوني أنا؟

فتح الهنديُّ عينيه معبّراً عن دهشته.

- «نعم أنا». أكّد الأب العجوز مع جهدٍ واضحٍ: «هل تقبلون أكل جسدي؟».

بينما كان يقول ذلك، كان يشير بحركةٍ من لحيته إلى الكتلة النّحيلة لبطنه، وفخذيه، التي كانت بالكاد ملحوظةً تحت الأغطية.

- «باي لو!». صرخ الهنديُّ بتعجُّبٍ، مع استنكارٍ حقيقيٍّ.

هذا تماما ما كنت أظنّ، قال العجوز بمرحٍ حقيقيٍّ غريبٍ.

- ليست لديكم الرّغبة، لكنْ هل تعرف لماذا على الأقلّ؟ لا تقل لي إنّ ذلك بسبب أنّني نحيلٌ جدّاً، فذلك لا يهمّكم على الإطلاق. لا، لا. هناكٌ سبب آخر.

كانت تسمع في الغرفة المجاورة همسات سكّان المنزل الذين كانوا يتدافعون ليروا ما سيحصل.

- «في هذه الحال». قال باي لو بصوتٍ أجش: «سأقول لك أنا. لا تريدون أكلي؛ لأنّكم قد فعلتم ذلك من قبل».

عبّر الهنديّ برأسه الأمرد، ووجهه الحليق حتّى الحواجب عن دهشةٍ متألّمةٍ مع تعبيرٍ عن الرُّعب.

قال باي لو:

- لقد أكملت أكثر من خمسين سنة هنا. احسب، ذلك يعني مئات الأقمار.

ثمّ هزّ رأسه بحركة تأسُّفٍ وتابع:

- أي نعم. خلال ذلك الوقت كلّه لم تتوقفوا في يومٍ من الأيّام عن التهامي. لا يوجد جزءٌ منّي لم أسلّمه لكم. لقد أكلتم قلبي، وذراعي، وعقلي، وعيني، وعضوي، وبطني. كلّ شيء. لقد مضغتم كلّ شيء، وابتعلتم كلّ شيء، وهضمتم كلّ شيء.

بعد أن قال باي لو هذه الجملة الطّويلة مال قليلاً من الضّعف. كان فمه

ما يزال يتحرك بتلك الرجفات التي تعطيه مظهر من يردّد في قلبه صيغةً طقوسيّةً.

- «هذا أيضاً»، أضاف باي لو وهو يدلّ على كارايا بحركةٍ صغيرةٍ من ذقنه: «خلال عشرين قمراً، كان لديكم ما يكفي من الوقت لأكله. لقد صار جزءاً منكم. أخذتم منه قوّته وعقله. صار واحداً منكم. القانون قد تمّ».

تردّد المقاتل الذي كان يتكلّم باسم البقيّة، فالاحترام الذي يشعر به تُجاه باي لو، والجهد الأقصى الذي كان يقوم به الشّيخ لكي يتكلّم، وطيبة عينيه كانت تقف عائقاً أمام الاعتراض الذي لديه.

- «سوف تنتقم الأرواح». قال الهنديُّ في النّهاية، لكن بصوتٍ راضخٍ كان فيه من الخشية أكثر ممّا فيه من التّهديد.

- لا. أجاب باي لو.

كان من الواضح أنّه وصل إلى نهاية ما لديه من قوّة. كان رأسه يتأرجح، وهو يقوم بجهدٍ لكي يحتفظ به مستقيماً.

- «لا». كرّر مجدّداً: «لأنّني سأكون قريباً أنا أيضاً بين الأرواح، بلْ سأكون واحداً منهم، وسأقول لهم ما قلته في الحال لكم، وسيفهمون».

كان الظّهر المحدودب للأب الكبير يبدو كأنّه ينوء تحت ثقل الموت نفسه. الموت هو الذي كان يصيغ الكلمات عوضاً عنه، ولئنْ كان من الممكن رفض شيءٍ لأحد الأحياء، فقد كان من المستحيل الاعتراض على ذلك الصّوت الذي لم يعد ينتمي إلى هذا العالم.

- «ما اسمك؟». سأل باي لو وهو يدير عينيه المبطنتين نحو رفيق باراغواتشو.

- «كارايا». قال الصّبيُّ بصوتٍ مرتجفٍ.

- إذاً يا كارايا، سآخذك. لن تعود أنت الذي ستبقى هنا، إنّما شخصٌ آخر. من الآن فصاعداً هذا الذي هنا سيسمى آنغاتو، ولن ينتقم أيّ أحدٍ منه.

بعد أن لفظ هذه الكلمات، ترك باي لو رأسه يرتاح على كتفيه، وأغلق عينيه.

ركع جميع من في الغرفة على ركبهم، وطأطأوا رؤوسهم. مرّت لحظةٌ طويلةٌ كان يُسمع خلالها تنفّس المحتضر يزداد ضعفاً بالتّدريج، ثمَّ حلَّ الصَّمت، وبينما كان الموت يحمل باي لو مع روح ذلك الذي قد أنقذه في الحال، امتلأت الغرفة بضجيج الهواء، أو بخفق الأجنحة. ما كان بمقدور أحدٍ أن يعرف.

عندما رفع الحضور رؤوسهم، رأوا فقط نظرة كولومب تلتمع بالقرب من الميت. في داخلها كان يختلط اليأس بسبب فقدان باي لو مع المرارة التي لا تنسى لذلك الدّرس الأخير الذي أعطاه لهم في الحال. فهمت فجأةً ما الذي كان يمنعها من أن تذوب في العالم الهنديّ بالكامل على تعلّقها به. إذْ ما كان لباي لو أن ينقذ كارايا لو لم يكن قد احتفظ باستقلاليّته المهيمنة التي جعلت الآخرين يحترمونه. لا شكّ في أنَّ الهنود قد أكلوه، لكن كتلميذٍ مخلصٍ لفلسفتهم المتعلّقة بأكل لحوم البشر. كان قد أكلهم بدوره فارضاً عليهم بذلك نوعاً من التّسامح كانوا يعدّونه معاكساً لقوانينهم.

تعرّف الهنود في عيني كولومب على نظرة الطّائر الكبير المقدّس الذي يمسك بروح الأموات، وفهموا بأنّ باي لو سيبقى حيّاً في داخلها.

الفصل 8

بعد أن رحل فيلوغانيون صار جوست هو السّيّد، لكن على لا شيء. لا حاجة إلى وقتٍ طويلٍ لاكتشاف أنّ طاقة الأميرال ونزواته، وقسوته، على أنّها لا تُحتمل، لها على الأقلّ ميّزة جعل الجزيرة ممتلئةً بالأحداث، فغيابه جعل الأشياء اليوميّة تجري في هدوءٍ تامٍّ أطلق عليه المستعمرون اسماً جديداً هو الملل، فقد انتهت أعمال الحصن، وطُليتْ حُجراته الخفيضة بطبقةٍ من الكلس الأبيض. كما ثُبّتَ بابٌ واسعٌ على المدخل، ووُضعت المدافع مرتّبةً على الأسوار، وصار من المستحيل إيجاد أيّ شيءٍ آخر يمكن إضافته. فالكنيسة التي بُنيت لكي تضمّ صرح لوحة السّيّدة العذراء لم تستغرق وقتاً طويلاً بالنّسبة إلى رجالٍ معتادين على صعوبة أعمال الحفر في القلعة، وكذلك انتهت التّحسينات الممكنة جميعها لمقرّ الحاكم حيث صار يعيش جوست.

لمْ يتبقّ إذاً من أجل شغل الوقت سوى تنظيم حفلات دوريّات الحراسة الدّائمة، لكن مع الأسف، على كل ما في الأدغال والتّلال من تهديدٍ، فقد تبيّن مع مرور الوقت أنّه من الممكن الاعتماد على رحمتها، وهكذا فإنّ الفرقة ذات اللّباس المهمل التي كانت تقوم بنوبات الحراسة على أسوار الحصن، صارت تنسى في أغلب الأحيان تعبئة البنادق، وصار تأمُّل البحر

بصمتٍ، وسماع الصّرخات المألوفة للببّغاوات، والسّعادين السّود، يبثّ في أرواح سكّان الجزيرة خدراً يساوي بعُنفه أنواع الهجوم كلّها.

لم يوفّر جوست أيّ جهدٍ لمكافحة هذا الذّبول في الطّاقات، ولئن كانت ميّزاته معروفةً، فإنّه قد كشف أيضاً عن سيّئاته، فقد بدا في البداية غير قادرٍ على تسلية هؤلاء المنفيّين من خلال فرض العقوبات، فراح الصّدأ يأكل الآلات في قاعات التّعذيب، ولمْ تعد المشانق تعطي ثماراً، وأولئك الذين كانوا أمْيل إلى عدم الطّاعة تراجعوا مسبقاً عن ذلك أمام تسامحه، كذلك لم يكن جوست قادراً على تجديد مسرحيّة المواعظ التي كان فيلوغانيون يظهر فيها بهيئاتٍ غريبةٍ تزيد من ثقلها قبّعاته، ومع أنّ الأميرال أورثه قبل أن يذهب مجموعته التي تتراوح مكوّناتها بين القلنسوة البسيطة والعمامة الحقيقيّة، إلّا أنّ جوست كان يمكن أن يثير الضّحك لا الطّاعة فيما لو ارتدى مثل هذه التّيجان المرصّعة بحجارة التّوباز والبيريل.

في لحظةٍ ما خطرت في بال جوست فكرة العودة إلى استغلال الخشب في اليابسة، لكنّ مارتان الذي نقل له فيتوريو هذا الطّلب عارض خوفاً من أن تكثر حركة المستعمرين نحو الجزيرة. فوق ذلك، كان فيلوغانيون قد ذهب مع آخر باخرةٍ، ما حرمهم من القدرة على تصدير الخضار.

كان يجب إذن الاكتفاء بالانتظار والبطالة. في البداية، كان ذلك موضع ترحيبٍ بعد الجهود الكبيرة خلال تلك السّنوات الطّليعيّة. عادت العلاقات المهذّبة اللّطيفة بين البشر، وصاروا يلعبون الورق، أو النّرد، واستعادوا قواهم، وصاروا يغنّون. لكن ما من شيءٍ يهري الجسد بسرعةٍ أكثر من العطالة عندما تطول أكثر من اللّازم، فمن دون عملٍ، ومن دون صلواتٍ، أو عقوباتٍ، ولعدم وجود بروتستانت تُنزع أحشاؤهم، أو برتغاليّين يُقاتَلون، أو أميرال يُخشى جانبه، فقد سلّم اليائسون في النّهاية

أجسادهم للأمراض تفتك بها. بعض هؤلاء كانوا نموذجاً يُحتذى عندما أعلنوا أنّهم متوعّكون، فلكثرة ما تمّت زيارتهم، سلك الآخرون الطّريق نفسه، وهُم مصرّون على إبراز تفرّدهم في تلك الأمراض. كان كلّ واحدٍ يرعى ألماً ما، فمنهم من تملّكته آلام الرّأس، ومنهم من أصابته الدّوخة، أو فلتان الأمعاء. في النّهاية، وضمن هذه المجموعة من السُّكّان المستعدّة لاستقبال الأمراض جاء الوباء الأصليُّ ليعطي لنِقاط الضّعف تلك أهمّيّةً حقيقيّةً. كانت هناك أعراضٌ موحّدةٌ ضمن مجموعة الذين لزموا الفراش. بدأ كلّ شيءٍ ببقعٍ حمراء منتشرةٍ على أنحاء الجلد كلّه، تلتها حرارةٌ، وإقياءٌ، وضعفٌ كبيرٌ أدّى في الحالات الأكثر شدّةً إلى الغيبوبة والموت. تغطّى مربّع القبور خلف التّحصينات الشّرقيّة بالقبب الصّغيرة التي قُلبَ ترابها حديثاً. في الأسبوع الأوّل حصلت ميتات خمس، وعلى قسوته، فإنَّ الوباء كان طيّباً بحيث حصد في البداية المشعوذين الاثنين اللّذين كانا يدّعيان شفاء الآخرين، وهكذا كان على المستعمرين أن يخضعوا لعذاب المرض بعد أن تجنّبوا عذاب الطّبّ.

لزم جوست الفراش خلال يومين، لكنّه لم يرضخ أبداً إلى الضّعف العام بسبب مركزه، فقد استعاد بسرعةٍ قوّته من دون أن يحتفظ بأيّة آثارٍ. مع ذلك كان يرى المرض يفتك بصفوف المدافعين من دون أن يستطيع له دفعاً. مات الهنود كلّهم، وبين الفرنسيّين أُصيب بالمرض واحدٌ من كلّ اثنين؛ ونادرون هم الذين وجدوا في أنفسهم على المرض طاقةً كافيةً تجعلهم يبقون على قيد الحياة، في حين دُفن عدّة عشرات من الأجساد في الرّمل الأحمر. دون غونزاغ كان واحداً من القلائل الذين لم يفتك بهم المرض، ففي عالمه الشّعريّ الذي لم يعد يخرج منه قطُّ، وجدت الحُمّى المعدية أمامها هواءً شديد النّقاء.

في النّهاية، وبعد مرور عدّة أسابيع، حين اكتفى المرض وابتعد، كانت صفوف المستعمرة قد تبعثرت على نحوٍ خطير. لم يعد هناك ما يكفي من النّاس للدفاع عن الحصن من جهاته جميعها؛ وكانت المدافع أكثر عدداً من أولئك الذين يستطيعون أن يستعملوها.

رأى جوست الخطر الذي يهدّد الجزيرة التي تفتقد إلى دفاعٍ كافٍ، وقد وضع طاقته كلّها من أجل إعادة تشكيل القوى الدّفاعيّة للمستعمرة. من بين الوسائل التي تُصوِّرَتْ استقرّ قراره على شيئين: الأوّل هو الاتّصال بالمنشآت النّورمنديّة: صحيحٌ أنّ الأميرال ما كان ليقبل ذلك إطلاقاً، إلّا أنّ جوست كان لديه كبرياء أقلّ. كان التّجّار في عمق الخليج حسب ما يعرفه عنهم يكرهون الحرب، ولمْ يكن عددهم كبيراً. ربّما كانوا يستطيعون على الأقلّ تقديم الهنود الذين يدعمون القوّات. الأمر الثّاني كان قيام جوست بإعلام الأميرال بالوضع الجديد من أجل أن يسرّع وصول الإمدادات.

كان ذلك يفترض اعتراض طريق البواخر التّجاريّة التي تدخل وتخرج من الخليج، حيث كان يُعهد لكلّ واحدةٍ منها حسب وجهتها برسالةٍ أو اثنتين كان قد حضرهما جوست للتّجّار، أو للأميرال.

كذلك أمر الحرّاس أن يقوموا بمراقبة ظهور أشرعةٍ في المضيق. كان هناك زورقٌ يقف متأهّباً أيّاً كانت السّاعة لكي يذهب بأسرع ما تستطيعه المجاذيف نحو أوّل باخرةٍ تظهر. كان الطّقس في فترة هدوءٍ، وقد مرَّ أسبوعان قبل أن تظهر باخرةٌ آتيةٌ من عرض البحر تجاوزت جبل (خبز السّكر). كان جوست واقفاً في الزّورق يشجّع المجذّفين، وبأقلّ من ساعةٍ كانوا على مستوى الباخرة نفسه.

كانت سفينةً حربيّةً قديمةً تجاوز عمرها ما يمكن حسابه، وتحتاج لكي تتحرّك إلى أشرعةٍ صغيرةٍ ومجاذيف. قَبلَ الطّاقم أن يصعد جوست الباخرة

كي يتكلّم مع الكابتن. كان سطحها في فوضى لا يمكن وصفها؛ فهناك أكوامٌ من الحبال التي لم تُرفع جيّداً، وسلالٌ، وبراميلُ ممتلئةٌ بالشَّحم، وشِباكٌ تغطّي تقريباً سطح الباخرة كلّه، وعلى طول السّياج كان هناك رجالٌ مُنهكون مستلقون على الأرض. كانت أبخرة الأمونياك الوخمة تتصاعد من بطن الباخرة، وقد أثارت تلك الرّائحة التي لا ترتبط بالملاحة ذكرياتٍ قديمةً لدى جوست لمْ يستطع أن يجد لها اسماً.

خرج القبطان من الغرفة الخلفيّة، وهو يعرك عينيه بعد أن انتُزع من قيلولته، وقبل أن يُتاح لجوست الوقت الكافي لتقديم نفسه، سأله الرّجُل:

- أين نحن؟

- أين... في خليج غوانابارا.

- «وأنت تبدو لي فرنسيّاً». صرخ البحّار، وهو يستعيد شيئاً يشبه الأمل.

- «نعم أنا كذلك». أكّد له جوست.

- هل يعني أنه ليس علينا أن نخشى من البرتغاليّين في هذه المنطقة؟

- لا.

- حسناً. لقد أرحتني.

لكي يحتفل القبطان بهذا الخبر دعا جوست لأنْ يلحق به في الجسر الخلفيّ. أجلسه معتذراً من عدم وجود شيءٍ يمكن أن يقدّمه له كشرابٍ. لحُسن الحظّ كان جوست بدافع الحيطة، ولكي يستجرّ التّصرُّف الجيّد من الذين سيتعامل معهم قد ملأ الزّورق ببرميلٍ من نبيذ الماديرا كان قد بقي في مخزن الأميرال. رُفعَ على الباخرة، وقام الكابتن بسحب كأسين وسخين من القصدير من صندوقٍ عتيقٍ. سارع لشُرب نخبٍ، وابتلع كأسه دفعةً واحدةً.

- «يا إلهي كم هو لذيذ!». قال متعجّباً. كدت أنسى هذا الطَّعم.

كان رجُلاً قصيراً وجهه مسطّحٌ، البزّة القديمة التي يرتديها وصلت أردانها إلى نهاية عمرها، فصارت مثل ثوبٍ واسعٍ للغاية على جسد مريضٍ في مرحلة النّقاهة.

- «هل استنفدتم مؤونتكم كلّها إذاً؟». سأله جوست.

- «كلّ شيءٍ». قال الرَّجُل: «ومنذ فترةٍ طويلةٍ. في الواقع ها قد مضت أشهرٌ ثلاثة على وصولنا. كنّا ذاهبين في اتّجاه جُزر الأنتيل».

- لكنّكم في البرازيل.

- «أعرف جيّداً». قال القبطان بلهجة تأسُّفٍ: «لقد تعرضنا للعواصف في المنطقة المداريّة، فدفعت بنا نحو منطقة الإيكينوكس».

- لماذا لم تغيّروا اتجاه الدّفّة؟

أفرغ البحّار كأساً ثالثةً قبل أن يجيب.

- عندما رأينا البرّ، قال لنا الملّاح الذي مات من الحُمّى الأسبوع الماضي إنّه شاطئ سان سالفادور، ولقد وجّهنا السُّكان لنصعد نحو الشَّمال، لكن في ذلك الاتّجاه، كان الهواء يأتي في وجهنا؛ ومع هذا الحذاء العتيق لم نكن نسير بسرعةٍ، وعندها قام البرتغاليّون بالهجوم علينا.

- التّجّار؟

- لا، كتيبةٌ مسلّحةٌ محاربةٌ. أسطولٌ ضخمٌ، ربّما خمسون باخرةً.

شحب لون جوست:

- ومن أين أتوا؟

- كانوا يخرجون من خليج جميع القدّيسين، ويبحرون في اتّجاه عرض البحر، ونحن، كنّا تحت رحمة هذا الأسطول. كان يجب أن نتجاوزهم ونحن نبحر جيئةً وذهاباً مغيّرين اتّجاهنا دائماً. هل تتخيّل الذُّعر!

كان جوست شاحباً، لكنّ القبطان المستغرق في رواية مغامرته تابع روايته بمزاجٍ حَسنٍ.

- لحُسن حظّنا، كانوا كثيرين. كان هناك أكوامٌ منهم في المراكب التي لمْ تكن تتقدّم بسرعةٍ كبيرةٍ، وبما أنّهم كانوا يشكّلون قافلةً، فإنَّ البواخر الكبيرة لمْ تكن قد فردت أشرعتها كلّها. عندها، اتّخذت القرار بأن نجعل الهواء خلْفنا. هربنا حتّى فقدوا آثارنا. عندما رأيت مدخل هذا الخليج الذي اعتقدت في البداية أنّه نهرٌ، قلت لنفسي إنّنا يمكن أن نختبئ فيه، وها نحن!

- «لكنْ»، سأل جوست الذي كان قد بدأ يفهم: «إلى أين ذهبوا هُم؟».

- البرتغاليّون؟ إلى الجنوب تماماً.

- يعني...

- «لقد فتّشت في أوراق المّلاح». قال القبطان بفخرٍ: «حسب ما وجدته فيها، فهمت أنّ البرتغال لديها ملكيّةٌ أُخرى نحو الجنوب يسمّونها أرض الموربيون».

كان أقلّ من المحتمل أن تذهب كتيبةٌ محاربةٌ بكلّ هدوءٍ نحو سان فيسنت.

- «لا». اعترض جوست الذي بدأ يفهم الكارثة: «هدفهم هو نحن».

وروى جوست بسرعةٍ حكاية المستعمرة للقبطان الذي بدأ يشحب بدوره.

- «لكن ماذا يعني هذا؟». صرخ القبطان: «هذا يعني أنّنا لسنا في أمانٍ في هذا الخليج إنْ أتوا لكي يغزوه».

- أخشى ذلك في الواقع.

- هذا يعني أنّ علينا أن نرحل من جديدٍ من دون أن يكون لدينا ما نأكله، أو نشربه.

ثمَّ تابع متحمّساً كأنّ هناك فكرةً تملّكته:

- «اسمع». قال، وهو يمسك بجوست من ذراعه: «ألا تستطيع أن تؤمّن لنا بسرعةٍ طعاماً وماءً؟ سأعطيك في المقابل كلّ ما تبقّى عندي من ذخيرةٍ. إنّها تثقل باخرتنا، وبكلّ الأحوال لن نستطيع أن نوصلها إلى برّ الأمان».

- ما الذي تنقله؟

- أحصنةً من أجل مزارع سان دومينغو. لقد نفق ثلاثة أرباعهم، والذين تبقّوا لن يقاوموا طويلاً.

تلك إذاً كانت الرّائحة الغريبة التي كانت تأتي من قاع المركب مع رائحة الرّوث، والتي ذكّرته بكلامورغان.

- «ماذا تتوقع أن نفعل بالأحصنة؟». قال جوست، وقد خاب أمله قليلاً: «إنّ جزيرتنا صغيرةٌ، ولا ينبت فيها أيّ شيءٍ».

- «إنّني أستحلفك». توسّل إليه القبطان: «خلصّنا من هذه الحيوانات. لقد أصيبت بالجنون هناك في الدّاخل. الرّجال ما عادوا يريدون الذّهاب إلى المهاجع. الأحصنة تعضّهم وترفسهم، وعندما تموت فإنّ ذلك أسوأ. قد مضى علينا شهران ونحن نأكل تلك الجيف، وصرتُ أتقيّأ لمجرّد تذكُّر طعمها».

- كم من حصانٍ بقي لديك؟

- خمسة.

أشفق جوست على الأحصنة التي كان يحبّها. فكّر في أنّه يمكن أن يعهد بها إلى الهنود هناك على الشّاطئ حيث يلائمها المكان، وعندما تستعيد المستعمرة قوّتها بعد عودة فيلوغانيون، يمكن أن يجد لها استعمالاً ما.

- «بكم من الزّمن تعتقد أنّك تسبق البرتغاليّين؟». سأل جوست القبطان الذي كانت تلك الأخبار والنّبيذ قد جعلاه يغرق في بلادةٍ مرتعبةٍ.

- «حسب الإيقاع الذي يسيرون فيه». قال متأوّهاً: «أظنّ أنّهم لن يكونوا هنا قبل أسبوع».

فكّر جوست: خدر الأيّام كلّه، التي مرّت من دون عملٍ قد زال عنه الآن. تتابعت الفرضيّات في ذهنه، وفجأةً رأى بوضوحٍ ما عليه أن يفعل: وجّه الدفّة في اتّجاه هذا المرتفع الذي يمكن رؤيته من أعلى الخليج.

- سوف أرسل رسالةً إلى الهنود. سوف يأخذون حيواناتكم ويعطونكم الماء والمانيوكا، بعد ذلك تستطيعون الذّهاب حيث تريدون.

وهكذا، من دون أن ينتظر أيّ شكرٍ لأنّه لمْ يعد لديه وقتٌ يضيّعه. ركب جوست في الزّورق، وعاد إلى الجزيرة. أرسل مباشرةً بحّارَين لإعلام الهنود، وأمر بمناداة المسؤولين الأساسيّين عن المستعمرة. خبر الهجوم البرتغاليّ في الوقت الذي كانت فيه حامية الحصن قد اجتاحتها الأمراض أثار ذُعراً حقيقيّاً. تحدّث بعضهم عن مؤامرةٍ، وعن تسميم. الكلّ كانوا ينظرون إلى بعضهم بحذرٍ، كما لو أنّ العدو لم يكن خارجياً ومرعباً، إنّما يقبع بينهم، ويمكن الخلاص منه بضربة خنجرٍ.

أعادهم جوست إلى الواقع. كان لهدوئه في مثل هذه الحالة فعل السِّحر. أعطى أوامر حاسمةً ودقيقةً بثّت الطّمأنينة في قلب الجميع، لكنّ هذا الهدوء هو الذي زاد من تأثير المفاجأة التي حقّقها عندما أعلن أنّه سوف يرحل في المساء نفسه. أعيان المستعمرة الذين كان اختيار فيلوغانيون لخليفته قد حيّرهم بدرت عنهم حركة تراجعٍ مفاجئةٌ كما لو أنّ جوست بكلماته تلك قد تحوّل إلى الخائن الذي يبحثون عنه.

لكنّ كلّ شيءٍ كان شديد الوضوح، وشديد التّنظيم في عقل جوست،

إلى درجة أنّه وجد بسهولةٍ الكلمات ليفسّر، وليُقنع. كانت جرأة مخططه على المجازفات التي تحيط به قد أطاحت بالتّحفُّظات كلّها. أصلاً لمْ يكن من المجدي أن يطلب من معارضيه اقتراح شيءٍ آخر. في النّهاية، وقف الجميع إلى جانبه. عندما أبحر على ظهر زورقٍ عند حلول اللّيل، كانت لدى جوست القناعة أنّه نُظرَ إلى غيابه كعلامةٍ نهائيّةٍ عن سُلطته، وهكذا بعد أن تخلّص من همومه المتعلّقة بالجزيرة، بقي عليه أن يركّز على الورقة الأخيرة التي كان يتهيّأ للعبها.

*

في صباح اليوم التّالي عند الهنود، حضّر جوست إنزال الأحصنة الأولى. كان هنود التّوبي قد قبلوا أن يفعلوا ما طلبه إليهم جوست، لكنّهم أبدوا رُعباً كبيراً عندما رأوا تلك الحيوانات الغريبة التي تضرب بحوافرها على الشّاطئ. كانت ثلاثة من تلك الحيوانات خيولاً مطواعةً شديدة النُّحول إلى درجةٍ جعلت أضْلاعها تبرز. أمر جوست بتهيئة علفٍ من البرسيم، وحصصٍ من الطّحين قامت بأكلها بشراهةٍ؛ أمّا الحصانان الباقيان فكانا مطايا للرُّكوب تغطّي أكتافهما وكاهليهما آثار العضّ. علّم جوست الهنود كيف يمسكون بالحيوانات من شَعرها من دون خطرٍ، وقام بربطها تحت ظلّ شجرة جاكاراندا كانت تحفّ بالشّاطئ.

أعطى رئيس السُّكّان الأصليّين محاربين اثنين إلى جوست لكي يكونا بمنزلة دليلٍ له، وأكّد له بأنّه قد أرسل في اللّيلة السّابقة رسولاً راكضاً كي يعلم بمجيئه، وقد بدأوا المسير مباشرةً.

لمْ تُتح الفرصة لجوست لكي يذهب إلى اليابسة إلّا فيما ندر، وظلَّ دائماً على مقربةٍ من السّاحل. عندما تغلغل في الدّاخل استعاد في البداية المتعة المنسيّة للطّبيعة، وللغابات. مع ذلك، وعلى الإحساس اللّذيذ الذي

كان يعطيه له ظلّ الأماكن المغلقة، فإنّه لم يستطع أن يتخلّص من خشيةٍ، ومن قرفٍ، لم يستطع تفسيرهما لنفسه. ربّما كانا يتأتّيان من فكرة أنّه في الأماكن الظّليلة المعتمة كان يوجد أشخاصٌ يأكلون بعضهم بعضاً. بتأثيرٍ من فيلوغانيون كانت فكرة أكل لحوم البشر تستمرّ في التّحكُّم بالرّأي الذي كان جوست يكوّنه عن العالم البدائيّ. نام في الغابة نوماً قلقاً مسكوناً بالأحلام المزعجة.

مشوا أيضاً طيلة يومٍ كاملٍ، وأمضوا ليلةً جديدةً في الأعالي أكثر برودةً، وفي مساء اليوم الثّاني، أشار دليلاه إلى كتلةٍ من بعيدٍ هي غابة تيجوكا المظلمة.

الفصل 9

كان هناك ثعبانٌ هائلٌ من الضّوء ينير الغابة، ويضيء أسفل شجرات الصّنوبر الضّخمة. رأى جوست، وهو يقترب مصابيح زيتٍ صغيرةً وُضعت على الدَّرجات المصنوعة من جذوع الخشب المستديرة. كانت فتائلها تشتعل داخل أنصاف ثمرات جوز الهند المجفّفة، وبريقها الشّاحب يجعل كلّ اثنتين منهما تحدّدان ميلان السُّلّم الخشبيّ الطّويل الذي يصعد ملتوياً على امتداد المنحدر الأخير للجبل. خاف الهنود من منظر تلك الشّعلات الصَّغيرة المغروسة في الغابة، فلئِنْ بدت العتمة كأنّها تقبض على الأرواح، فإنّ هذا الضّوء غير المعتاد ما كان يمكن إلّا أن يثير غرائزهم السّيّئة. عندما رأى جوست خشيتهم، صعد قبلهم، فرأى من بعيدٍ مشعلين يلفّان نارهما حول عتبة بابٍ. عندما اجتاز تلك العتبة، ووضع قدمه على بلاط المدخل، أدْهشه أن يرى في العتمة انعكاس لمعانِ قطعٍ من البورسلين وكريّاتٍ من الفضّة.

كان البيت صامتاً، ومع ذلك لمْ يوحِ له بالخشية. فأُلفة الأغراض الموضوعة بفوضى كبيرةٍ في الغرف جعلت الظّلّ الذي يغلّفها أقلّ تهديداً. كانت هناك مصابيحُ صغيرةٌ ترمي التماعها على هذا الدّيكور، فتخفي ما

فيه من نتوءاتٍ كما لو أنّ تلك الأمكنة الضّيّقة كانت مطرّزةً بأعمال توشيةٍ غريبةٍ تجمع بين بريق الميناء، وسواد الحديد المصهور والمشغول.

تقدّم بخطواتٍ حذرةٍ، ووصل إلى غرفةٍ أكبر حجماً كانت تقف داخلها كولومب.

في المساء السّابق، كانت قد عَلمت بمجيئه من الرّسول الرّاكض الذي صعد من السّاحل. بحثت في الحقائب المكوّمة لدى باي لو. بعضها كان يحتوي على ملابس لم يخطر ببال أحدٍ أن يخرجها منها منذ غرق الباخرة التي رمتها إلى البرازيل، وقد اكتشفت بينها هذا الثّوب الطّويل من المخمل الأزرق ذا الطّراز الإنجليزيّ. كانت فتحة القبّة البيضويّة المشغولة باللآلئ فيه تذكّر ببلاط هنري الثّامن، وكان يُلبَس عادةً مع عقدٍ واسعٍ من الألماس، وبما أنّه لم يكن لديها مثل هذا العِقد، فقد أحاطت كولومب رقبتها بصفٍّ مزدوجٍ من القواقع ذات اللّون اللّؤلؤي.

كان شَعرها الأشقر مضفوراً بجدائلَ ملفوفةٍ بعنايةٍ على طريقة أهل فلورنسا، وقد غمرها من الجانبين ضياء شمعدانين. لم يكن ذلك مُفتعلاً؛ لأنّها كانت بالفعل غير قادرةٍ على البقاء في وضعيّةٍ ما من دون حركةٍ. فاجأها جوست حين كانت تدور بنفاد صبرٍ داخل الغرفة وهي تنتظره.

كان جوست ما يزال تحت وطأة إلحاح مهمّته، فلم ينتظر مثل هذا اللّقاء. لمْ يكن قد خلع صدريّة المخمل التي أمر فيلوغانيون بخياطتها له بمناسبة مجيء البروتستانت، لكنّ فوضى شَعره الأسود، وتراقص عروقه المنتفخة من جهد هذا السُّلّم الطّويل، وبروز وجهه النّحيل الذي تزايد بفعل ليالي السّهر، ذلك كلّه أكسبه رشاقةً لم يُحضَّرْ لها، وفيها شيءٌ من أيّام الطّفولة.

ابتسما لبعضهما، لكنّ هذا اللّقاء الذي طالما رغبا به من دون أن ينتظرا تحقّقه جعلهما يقفان مُحرَجين، بلا كلامٍ.

غالباً ما تأتي الحياة العمليّة لنجدة الانفعالات، عندما تثير هذه الأخيرة كثيراً من الاضطّراب، وهكذا طرحت كولومب على جوست سؤالاً عن مدى تعبه، وإنْ كان يشعر بالعطش، ومن دون أن تسمع جوابه، أمسكت، وهي ترتعد قليلاً إبريقاً من الكريستال، وملأت كأسين بسائلٍ متوهّجٍ.

شربا منه، لا ليرطّبا جسميهما، إنّما ليعطيا الحجّة لشفاههما كيلا تشكّل مباشرةً كلماتٍ ما.

وضع جوست كأسه، ونظر بدهشةٍ واضحةٍ إلى ديكور الغرفة بما فيه من أشياء متناقضةٍ:

- «كنت أظنّكِ تعيشين لدى الهنود». قال لها.

ضحكت، وعندما استدارت بعينها نحو لهب المشاعل الثّلاثيّة، رأى فيهما ذلك الشُّحوب المألوف والغامض الذي كان يجعلها شديدة الفرادة.

أجابت وهي تضحك من دهشة جوست:

- أنا لديهم فعليّاً، وبكلّ ما في الكلمة من معنى.

قال، وقد أحرجه ألّا يجد كلاماً أفضل يتلفّظ به:

- إنّه بيتٌ جميلٌ.

- يسعدني أنّه يعجبك. تعال، أستطيع أن أريه كلّه لك إنْ أردت.

جرّته وراءها، وقد أراحتهما تلك الحركة بعض الشّيء؛ لأنّها قطعت ذلك الجمود الأخرق.

على الشُّرفة في الخارج، كان هناك فانوسان وهّاجان يُضيئان الأرضيّة المصنوعة من عوارض خشبيّةٍ، لكنّهما يتركان الحرّيّة للعين في أن تخترق العتمة بعيداً وصولاً إلى السّطح الحليبيّ للبحر الذي يضيئه القمر. تأمّلاه لحظةً، ثمّ دخلا إلى غرفةٍ ثانيةٍ.

- «كانت تلك غرفة باي لو». قالت كولومب موضحةً.

- من؟

- صاحب هذا البيت. يؤسفني أنّك لم تعرفه. لقد مات الشّهر الماضي.

لم تتغيّر حياة البيت من وقتها، لكنّ كلّ شيءٍ كان يذكّر بغياب الأب الكبير. بقيت كولومب فيه، وبتأثيرٍ من وصيّةٍ غير مرئيّةٍ، صارت هي التي يجيء المحاربون لإخبارها بما يحصل لهم، ويطلبون رأيها في كلّ شيء.

كانت غرفة باي لو قد ظلّت كما هي بما في ذلك أرجوحته الفارغة. انتقلا بعدها إلى غرفٍ أُخرى، وعادا إلى القاعة الكبيرة. فجأةً، في اللّحظة التي كانا يدخلان إليها، أطلق جوست صرخةً. استدارت كولومب، ورأته يتخبّط في قبضة ظلٍّ كان يغرس مخالبه الطّويلة في قميصه.

قفزت إليه، ومدّت ذراعيها لتمسك المهاجم المغطّى بالوبر الذي أخاف الفارس الشّاب كثيراً، ونزعت عن كتفيه حيواناً بحجم سعدان، ثمَّ صرخت، وهي تضحك:

- آهٍ، لقد أعجب بك الهاووت[I].

- «الهاووت!». قال جوست، وهو يفرك الموضع حيث كان الحيوان قد خمشه قرب عنقه.

كان الحيوان الذي تمسك به كولومب بين ذراعيها قد أطلق تنهيدةً عميقةً تذيب القلب.

- «أنت لا تعرف الهاووت؟». قالت كولومب مستغربةً، وهي تضعه على قطعة أثاثٍ: «إنّه يعيش في هذا البيت منذ سنواتٍ طويلةٍ».

لم يكن الحيوان ذو القوائم الأربعة المتماثلة في الطّول، والوجه الحزين، والمخالب الطّويلة، يشبه شيئاً ممّا رآه جوست من قبل. كان قد

(I) حيوان من رتبة الكسلانيات، ورد ذكره في المخطوطات الفرنسية عن البرازيل. (م).

بدأ يتمسّك ببطءٍ بزاويةٍ من البوفيه، ثمَّ بدا عليه أنّه ينام.

قالت كولومب:

- الهنود يسمّونه الحيوان الذي يتغذّى بالهواء. لمْ نره قطُّ يأكل، أو يشرب. باي لو يقول عنه إنّه إله الكسل.

ضحِكا. كانت تلك الحادثة التي استولت على انتباههما قد أزالت كُلّيّاً الطّابع الأخرق عن تصرّفاتهما. ذهبا للجلوس إلى طرف المنضدة الكبيرة التي كانت تضيئها الشّموع.

- «كيف حال جُرحك؟». سألته كولومب.

اضطّرب جوست لكونها علمت بذلك، وعندما فكّر بالظّروف التي جُرح فيها، احمرَّ وجهه، وقال:

- جيّد. لمْ أعد أشعر به.

عندما ذكّرته كولومب بذلك الحادث، وبأود التي كانت سببه، خطر في باله أن يعتذر، لكنْ في هذا الدّيكور فائق الجمال، وأمام تألُّق كولومب، وجد جوست أنَّ هذا الموضوع ليس في مكانه، وأنّه ليس لديهما ما يقولانه عن ذلك.

قرّبت منه كولومب وعاء سَلطةٍ من القصدير كانت قد طبخت فيه جذور الإيغناما. حولها، كانت آنية اللّحم، والمرق، والفواكه، موضوعةً من دون نظام.

- أظنّ أنّك جائعٌ.

كان جوست ما يزال يشعر بغصّةٍ في حلقه من انفعاله الأوّل. اكتفى بشُرب جرعةٍ كبيرةٍ أُخرى، ورفض أيّ شيءٍ آخر.

قالت له كولومب:

- قال لي الرّسول الرّاكض إنّك تريد أن تراني على وجه السُّرعة.

كانت نظراتها مثبتةً على جوست. لم يستطع أن يقول إنْ كانت تلك النّظرة تنمّ عن السُّخرية أم الغضب، أو بكلّ بساطةٍ ذلك الحزم الذي ما كان يستطيع في الماضي إلّا أن يرضخ له. استجمع شجاعته وهو يسحب نفساً طويلاً، وأيّاً كانت الخشية التي كانت لديه من الجواب، فإنّه قد شعر بالطّمأنينة، وهو يتلو عليها الخطاب القصير الذي كان قد حضّره في ذهنه.

- لقد وصل البرتغاليّون يا كولومب. سيكونون هنا خلال ثلاثة، أو أربعة أيّامٍ مع قوّاتٍ مقاتلةٍ... منذ رحيل فيلوغانيون، كان عليّ أنا أن أدير الجزيرة. رجالي ماتوا من الحُمّى خلال الأسابيع الماضية، ولسنا في حالٍ تسمح لنا بالمقاومة.

كانت كولومب تستمع إليه من دون أن تتحرّك.

- لقد أتيت هنا لأسألكِ أن تنقذينا.

- أنقذكم؟ كيف؟

ابتسمت في وجهه ابتسامةً غامضةً.

- أنت تعرفين الهنود. تستطيعين أن تستجرّيهم للمجيء والمحاربة معنا.

وبما أنّها ظلّت صامتةً، فقد أضاف جوست بلهجةٍ مُلحّةٍ:

- أعرف أنّنا لم نتصرّف على نحو جيّدٍ معكِ، لكنّني وحْدي الآن، وأريدكِ بالفعل أن تعودي.

هل ما زال جوست يتحدّث عن التّهديد البرتغاليّ أم كان في تلك الصّرخة الأخيرة نداءٌ آخر؟ لمْ تجب كولومب مباشرةً، وانتظرت ما يكفي من الوقت لكي يستطيع هو نفسه أن يطرح ذلك السُّؤال.

- «أنقذكم؟». قالت مفكّرةً.

أدارت بصرها نحو التماع الكريستال الذي كان يبرق على الطّاولة.

- أنقذ ماذا يا جوست؟ فرنسا الأنتاركتيكية؟

لفظت هذه الكلمات الأخيرة بجهدٍ كبيرٍ كمن يستعمل على نحوٍ أخرق أداةً استعارها في الحال.

عاد جوست للكلام قائلاً:

- اسمعي يا كولومب، لقد قيّمت الوضع جيّداً في الأيّام الأخيرة. أيّاً كانت الجهة التي نستدير إليها، لست أرى سوى الموت. في أوروبّا أُطلق التّعصُّب من عقاله، هناك طوائف تمزّق بعضها بعضاً من أجل الرَّب، وهنا نحن أمام عالمٍ من أكلة البشر، مع كلّ ما في ذلك من رُعبٍ.

تركت كولومب يديها الطّويلتين تسرحان على طرف غطاء الطّاولة.

- «لا أعرف». قالت بنعومةٍ: «قد يكون كلّ ما تقوله صحيحاً، لكنْ لا رأي لي حول هذه الأشياء المجرّدة. كلّ ما أعرف هو أنّني سعيدةٌ هنا، ولديّ رغبةٌ في أن أبقى هنا».

- نحن متّفقان تماماً. أطلب إليكِ فقط أن تساعديني على حماية مكانٍ سنكون فيه أحراراً و... سعداء.

- الجزيرة؟

- نعم.

خفضت كولومب بصرها. تركت لحظةً طويلةً من الصّمت تمرُّ، ما جعل جوست يأمل بموافقتها، وهكذا ظهر عليه بعض الحَرد عندما سمعها تقول من دون أي يكون في صوتها أيّ تساؤل:

- سيعود فيلوغانيون، أليس كذلك؟

- «إنّه ينوي ذلك، في الواقع». قال جوست بلهجةٍ متضايقةٍ.

- وأتصوّر أنّه سوف يصطحب معه مزيداً من القوّات؟

- نعم.

نقلت فجأةً نظرتها نحو جوست. لمْ تعد تلك النّظرة مرحةً، ولا واثقةً من نفسها، إنّما ضائعةٌ وحزينةٌ. سألته:

- برأيك، هل هناك فرقٌ بين الأميرال والبرتغاليّين؟

ولأنّه لم يسأل نفسه قطُّ هذا السُّؤال، صاغ جوست جواباً شديد البساطة، فاجأه هو نفسه:

- الأميرال هو فرنسا.

شعر تماماً بأنّ هذا التّأكيد يستجرُّ أسئلةً أُخرى، وأنّه سيراكم الأسباب، لكنّه سيصل في النّهاية إلى شيءٍ لا يمكن أن يرضيه تماماً.

- لقد أقسمتُ أن أدافع عن هذه الأرض. لقد أقسمتُ باسم الوالد أنّني سأقاتل مثله من أجل فرنسا.

مدت كولومب يدها نحو سلّة الفواكه، والتقطت حبّتين من العنب الأسْود حملتهما إلى فمها.

- لقد مرَّ لوتوريه من هنا قبل أن يُبحر.

شعر جوست بالخشية من هذا الاستطراد غير المتوقّع.

- لقد كلّمني عن سيريزول..

ارتجف جوست.

- «وعن طفلةٍ عمرها سنتين عُثرَ عليها في سقيفةٍ». أضافت.

كانت يدها ترتجف قليلاً. تمسّكت بكأسها بقوّةٍ من دون أن تشرب منه.

- كنت تعرف؟

- «نعم». قال لها.

هذا الظّلّ الواسع الذي تتبعثر فيه صناديق منخورةٌ، وذكرياتٌ غرقى، كان يمكن أن يكون برجاً من أبراج كلامورغان. حملهما ذلك إلى زمن حميميّتهما، لكنْ بأجساد كائنين راشدين ممتلئين بالظّلال أيضاً، وفيهما ترتعد الرَّغبات.

- «لقد حدّثني عن موته في سيين». قالت مضيفةً.

- موت... الوالد؟

وافقت بصمتٍ، وعندما رأت أنَّ جوست كان ينتظر، فهمت أنّه لمْ يكن يعرف شيئاً حول هذه النُّقطة.

عادت للكلام، وقد شعرت بالارتياح؛ لأنّها صاغت فكرةً واضحةً في حين ما يزال كلّ شيءٍ آخر شديدَ الاضطّراب:

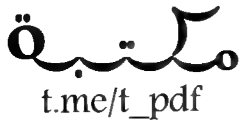
- كانت إيطاليا تعيش فترة سلامٍ، لكنّ ملك فرنسا الذي كان يريد العودة إلى الحرب أرسل محرّضين سعياً إلى جعل توسكانيا تثور. فعل كلامورغان كلّ ما بوسعه لمنع المناورات التي كانوا يريدون القيام بها.

كان جوست قد ارتعد عند سماع اسم كلامورغان، على أنّه كان من الطّبيعي ألّا تقول كولومب بعد الآن كلمة «أبي».

- كان يعرف أنّ الفرنسيّين الذين حثّوا سيين على التّمرّد كانوا يبحثون فقط عن حُجّةٍ لكي يعودوا إلى إيطاليا، لكنْ لم تكن لديهم أيّة وسيلةٍ للدّفاع عن المدينة، والخلاصة أنّهم كانوا يقودونها نحو الموت.

بدأ جوست يرى الحقيقة. كان يتنفّس بصعوبةٍ من دون أن تختلج عضلةٌ واحدةٌ في وجهه.

عادت كولومب إلى الكلام:



- كان كلامورغان يحبّ إيطاليا بحقّ. كان قد ذهب إليها ليقاتل، لكنْ ما وجده فيها استحوذ عليه. أحبَّ جمال مناظرها ولوحاتها، والعصر القديم الذي ينهض حيّاً في أعمال الحاضر. كان يحبُّ حدائقها، وموسيقاها، وحرّيّتها.

كانت كولومب تتكلّم من دون أن تحيد ببصرها عن جوست، لكنْ للمرّة الأولى بدا التماع عينيها معكّراً، كما لو أنّها لم تستطع أن تتأمّل ما كان أمامها، إنّما راحت تتطلّع إلى رؤيا كانت تأتيها من الدّاخل. في النّهاية استعادت جأشها، وبصوتٍ صار بارداً فجأةً، لفظت الخلاصة المرعبة التي لديها:

- عندما عرف الملك أنّه كان بصدد إحباط مخطّطاته، أمر بقَتله.

استولت على جوست انفعالاتٌ عنيفةٌ وصلت إلى حدّ ذرف الدُّموع مع منعها في الوقت ذاته من التّساقط. نواة روحه التي كان يعتقد أنّها الإخلاص انقسمت إلى جزأين متعاكسين، كانا كلاهما يجسّدانهما. وقد فهم أنّ كولومب هي التي اختارت الجزء الأفضل.

الإرث الذي انتقل إليهما من كلامورغان لمْ يكن أرضاً، أو بلداً، أو اسماً، إنّما ذلك الحُبّ الذي يحملانه للحُرّيّة التي لا تقبل حدوداً، ولا عقيدةً، ولا ظلماً، ولا خضوعاً.

نهضت كولومب، ومشت عدّة خطواتٍ على الشُّرفة. عندما عادت في اتّجاهه، تأمّلها جوست كلّها، وهي في ثوبها المخمليّ. كانت في حدِّ ذاتها تجسّد إيطاليا الزّرقاء كلّها، والنّبع الذي ينهل منه فنّانوها. كما كانت بشعرها المجدول تبدو من عائلة أولئك الجميلات الرّومانيّات الّلواتي كان المرمر وحْده قادراً على تجسيد بهائهنّ المرتعش.

نهض بدوره، وصارا وجهاً لوجهٍ، تفصل بينهما أقلّ من خطوةٍ واحدةٍ.

للمرّة الأولى، تبخَّر تحفُّظ جوست، وخجله، وخشيته بفعل قوّةٍ جديدةٍ جعلته يبتسم. برفقة ذلك الكائن الذي يشبه كثيراً رغبته، الذي كان يعرفه من زمنٍ بعيدٍ، ومع ذلك يشعر بأنّه يكتشفه الآن، تكوّن لديه الشُّعور بأنّهما كانا دائماً يشكّلان كائناً واحداً، وهكذا مدّ يده نحوها، ليس ليقترب منها، إنّما ليستعيد تلك الوحدة الطّبيعيّة التي كانت قد ضاعت منه.

لامس عُنقها، وكتفها، وذراعها العارية؛ أمّا هي، فكانت بلا حراكٍ، أغلقت عينيها، وقد غمرتها عذوبةُ تلك الّلحظة التي حلمت بها، والتي كانت فريدةً وأليفةً في غموضها؛ لكثرة ما كانت مرغوبةً، والتي، ولو تكرّرت إلى ما لانهاية فيما بعد، لن يكون لها أبداً ذلك الطّعم الذي لا يُقارن بشيءٍ، طعم المرّة الأولى.

في النّهاية اقتربت. وضعتْ رأسها في فجوة عُنقه، وهي ملتصقةٌ به. شعر جوست بالرّائحة الشّقراء لتلك البشرة. حول فمه كان يطوف وبر عنقها النّاعم. أحسَّ بذراع كولومب تحيط بخصره، وبيديها تلمسان بالكاد ظهره. ابتعدت قليلاً عنه، واقترب فمها نصف المفتوح من شفتيّ جوست الّلتين أمسكتا به. حياتهما كلّها، وتلك الّليلة البرازيليّة، والخوف الذي انهزم، كلّ شيءٍ غاص إلى الأبد في ذلك الاتّحاد الطّويل لوجهيهما، وفي تلك النّعومة التي لا تشبه أيّ شيءٍ، التي تتولّد من حميميّة الجسم الذي يلغي الحُبّ، ويتوّجه في آنٍ عندما يقدّم له ليس جسداً واحداً، بل جسدين.

بعد أن تجاوزا ذلك الحاجز، لمْ يعد أمامها سوى فضاء الشّهوة المفتوح الذي دخلا فيه بكلّ ما فيهما من هيجان. كانا يتعانقان، يداعبان بعضهما، يتبادلان القبلات بحميّةٍ، ثمَّ قام جوست ببطءٍ بفكّ الرّبطة التي كانت تمسك بثوب المخمل من وراء العنق، لكن ما إن ظهر صدر كولومب، حتّى تجمّد جوست مرتعداً من المفاجأة، فعلى الجلد الأبيض

والطّري، كانت قد أمرت في الليلة الفائتة بتخطيط صورٍ حربيّةٍ واسعةٍ سوداء وحمراء ترسم بروقاً، ونجوماً.

عادت إلى عيني جوست فجأةً الذّكرى المرعبة لأكلة لحوم البشر. تناثر الدَّم على الحلم الإيطالي.

ابتعد عنها.

كانت كولومب تنتظر تلك اللحظة، لا بل إنّها أرادتها. شعرت بمتعةٍ كبيرةٍ في أن ترى ذلك الوجه الجميل الذي تحبّه ينتزع نفسه منها. على الأقلّ كانت تستطيع أن تتأمّله للمرّة الأخيرة. بحركةٍ موجزةٍ، أنْهت سقوط ثوبها بأكمله على الأرض. كانت تريده أن يراها هكذا، وأن يحبّها، فعلى أنّ إيطاليا قد طبعتهما بطابعها، إلّا أنّهما لمْ يعودا فيها.

- «هيّا». قالت له، وهي تقترب: «لا تخشَ شيئاً. اترك نفسك... تؤكل».

بدرت عن جوست بادرة تردُّدٍ، ثمَّ ذابت الصّور التي في داخله عن الأناقة الكاملة لأوروبّا، وعن الجمال الهنديّ القويّ. ابتسم، واقترب منها، وأخذها بين ذراعيه، وقبل أن يغوص في المتعة، نظر إلى عين كولومب، ورأى فيها صورة العالم مقلوبةً: شمسٌ كانت تلتمع فيها سماءٌ واسعةٌ زرقاء.

ومن دون أن يخشى أيّ شيءٍ بعد، انطلق في داخلها.

الفصل 10

لمْ يحصل أن كان لدى البرتغاليّين مثل هذا الشّعور بالقوّة: في أوروبّا، كانوا أصغر من أن يستطيعوا تحدّي أيٍّ كان؛ وفي الأمريكيّتين، لمْ يحتلّوا سوى السّواحل المقفرة، أو شبه المقفرة؛ أمّا في هذه المرّة، فكانوا على أهبة الاستعداد للقتال.

كانت مئاتُ مراكب الجيش ذات مظهرٍ يوحي بالفخر، على الأقلّ عندما يُنظر إليها من بعيدٍ، فمقابل كلّ سفينةٍ حربيّةٍ، كانت هناك سفينتان تجاريّتان رُبطت عليهما باستعجالٍ مدافع، بالإضافة إلى ما يقارب ثلاثين قارب صيدٍ يجهدون ليستطيعوا التّقدُّم، ويؤخّرون الجميع.

كي لا يرى تلك المراكب العرجاء، بقي ميم دو سا في مقدّمة المركب الرّئيس ينظر أمامه على نحوٍ مستقيمٍ. كان عبوساً بتكوينه يخشى الشَّمس، وعلى رأسه دكّ قبّعةً لها حوافٌّ عريضةٌ، كان العرق يتساقط منها نقطةً نقطةً. خلف ميم دو سا كان يقف وصيفٌ يمسك بمظلّةٍ يفردها فوق رأسه، لا بلْ إنَّ حاكم البرازيل هذا قد أمر بمدّ سقفٍ من القماش كان يبقى جالساً تحته لكي يتأكّد من عدم وصول شعاع شمسٍ واحدٍ إليه.

المحيط الأطلسيّ الذي خضع لإرادته الصّارمة ظلَّ هادئاً مثل عبدٍ

ذليلٍ، والشّواطئ الوعْرة التي كان يمكن رؤيتها من بعيدٍ كانت تقف متصلّبةً بلا حراكٍ كما لو كانت تستعدّ للقيام بالاستعراض.

في الوقت الذي كانت فيه المراكب الأُخرى تصدح بالأغاني وأناشيد السُّكارى، كان الكبرياء الصّامت يهيمن على مركب الحاكم، فعلى مسافةٍ من القائد الأعلى وقفت بكلّ احترامٍ مجموعةٌ من الخدم العسكريّين الذين بدوا مستعدّين للانقضاض عند أوّل زمجرةٍ يمكن أن تصدر عنه. كذلك كان هناك كاهنٌ بالرّداء الكهنوتيّ، وبعض اليسوعيّين المتّشحين بالسّواد، وحفنةٌ من الرُّهبان الشّباب، وأطفالُ الجوقة، وقد ظلّوا كلّهم مكوّمين على الجسر الأماميّ أسفل صليبٍ كبيرٍ من الدّعامات الخشبيّة كان النّجّارون قد نصبوه عالياً.

مخطّط الحملة كان يقوم على تجاوز خليج غوانابار نحو الجنوب من أجل الوصول إلى الجزر الشّريفة. هناك، كان على الأسطول الرّئيس القادم من باهيا أن يلتقي مع بعض القوى الدّاعمة التي أُرسلت من ساو فيسنته ومن خليج الملوك، وقد حدث اللّقاء بدقّةٍ كبيرةٍ في اليوم المحدّد عند جدولٍ كانت مياهه رائعة الصَّفاء يبدو في أسفلها التماعُ الحَصى الورديّة.

القطعة البحريّة التي تضخّم حجمها بسبب تلك الإمدادات، وجّهت الدّفّة من جديدٍ نحو الشّمال لتصل إلى خليج ريو. كان الشّكّ ما زال يهيمن حول جدوى إدخال البواخر كلّها في وقتٍ واحدٍ في الممرّ، الممرّ كان عريضاً، لكنّه كان يقع في مرمى المدافع، واذا ما حلا للفرنسيّين في حصن كوليني أن يستقبلوهم بطلقاتٍ ناريّةٍ، فإنَّ الخطر كان جدّيّاً في أن تُصاب أفضل البواخر قبل أن تصبح في موقعٍ يسمح لها بأن تردّ، لكنّ الحاكم حسم تردُّد واضعي الخطط الاستراتيجيّة عندما صرخ تلك الجملة التي اشتهر بها:

- يجب أن يخافوا.

نتيجةً لذلك كان أوّل الدّاخلين إلى الخليج، وقد أحاطت به أكبر البواخر، ثمَّ تلتها الزّوارق في فوضى.

وهكذا، في ذلك اليوم؛ أي: في الخامس والعشرين من شهر شباط/ فبراير، وفي طقسٍ سطعت شمسه، وراق هواؤه، تأرجح صليبٌ عملاقٌ على الأمواج عند مدخل غوانابارا. شاركت بذلك الدُّخول المرعب إلى مياه الخليج الدّافئة عشرون باخرةً مرافقةً كانت أشرعتها قد انتفخت بالقليل من الهواء الآتي من البحر.

لمْ يكن ميم دو سا قد خلع قبّعته؛ لأنّه كان يخشى ضربة الشّمس أكثر من خوفه من الحرب. كان يقف مستقيماً تحت شراع باخرته الكبير يتطلّع مثل الكواسر إلى هذه الأراضي كلّها التي كان عليه أن يُخضعها.

ما كان هناك شيءٌ يتحرّك من جهة حصن كوليني. وحْده علَم المغتصبين بلونه الأبيض المزدان بزهرة اللّوتس كان يخفق مثل إهانةٍ لن يتأخّروا في الرّدّ عليها.

وبنوعٍ من التّنازل مردّه الحذر، قام المهاجمون باتّباع طريقٍ تبتعد عن جزيرة الفرنسيّين. أبحروا بمحاذاة السّاحل الشّمالي للخليج ووصلوا إلى عمقه، ثمَّ ألقوا مراسيهم في رأسٍ لاذوا به ليحميهم من الطّلقات التي يمكن أن توجّه ضدّهم. هناك كان بمقدورهم القيام بالتّحضيرات اللّازمة للهجوم.

عند حلول ذلك المساء الأوّل، جاءت من اليابسة عشرات الزّوارق الصَّغيرة المصنوعة من تجويفٍ في جذوع الأشجار الضّخمة، وتوغّلت وصولاً إلى بطن مركب الأميرال. عند الإشارة المُتّفق عليها قام وفدٌ من المترجمين بالصُّعود إلى سطح الباخرة يقودهم بكلّ أبّهة مارتان نفسه.

كانت تصرُّفات الشّحاذ القديم أكثر حذاقةً من تصرُّفات الغراب المسكين الذي ورث مارتان منزلته. لم يكن على درجةٍ من الغباء تجعله يقترف غلطة أن يقدّم نفسه مثل الغراب في ملابس مضحكةٍ مصنوعةٍ من الرّيش، لا بلْ إنَّ التّجارة التي كان يديرها بكلّ مهارةٍ كانت تؤمّن له كمّيّةً وافرةً من الأقمشة الغالية، وهكذا جاء ليمثُل بين يدي ميم دو سا مرتدياً ما بدا له من الملابس المطلوبة للإيحاء بالأهمّيّة التي لن يلبث أن يكتسبها، وحسب الفكرة التي كانت لديه عن المظهر الخاصّ بدوقٍ، ارتدى بزّةً من الحرير الطّبيعيّ الأزرق السّماويّ موشّى بالذّهب، وجوارب من التافتاه البنفسجيّ، وقلنسوةً صغيرةً ذات أطرافٍ منفوخةٍ. كانت الرّيشة الوحيدة التي سمح لنفسه بوضعها ريشة نعامٍ قام بغرزها في غطاء رأسه، وكان شديد الرّضا بأن يرى أنّه كان من بعيدٍ الشّخصيّة الأكثر أناقةً على المركب الذي استُقبلَ فيه، ومع شيءٍ من الخيال الذي زوّدته الطّبيعة به بوفرةٍ، كان يستطيع أن يقرأ في العيون المفتوحة للطّاقم إعجاباً حقيقيّاً.

عندما أوصِلَ مارتان إلى أمام ميم دو سا، شعر بخيبة أملٍ خفيفةٍ عندما رأى كم كان ذلك الرّجُل الضّخم سيّئ الملابس. خلال اللّقاء الأوّل الطّويل بين الرّجُلين، قام كلٌّ منهما بتفحُّصٍ صامتٍ ممتلئٍ بالعجب إلى الآخر. في النّهاية، جاء أحد اليسوعيّين، هو الأب أنكييتا الذي أرهق نفسه بالصّلوات منذ الدُّخول إلى الخليج، وكان عليه أن يقوم بالتّرجمة بين الرّجُلين؛ لأنّه كان يعرف اللّغة الفرنسيّة.

ألقى مارتان خطبةً طويلةً رَجا فيها حُسن الوصول للمخلّصين، وبكلّ مهارةٍ، ملأ تلك الخُطبة بكلمات احتقارٍ تُجاه المتمرّدين في حصن كوليني، كما كان فيها إعلانٌ صريحٌ مؤثّرٌ يتعلّق بالتّعطّش الذي كان من المفترض أن يشعر به الهنود؛ لأنهم خُلّصوا من أنواع الهرطقة كلّها. في النّهاية، ختم

مارتان خطبته بوصفٍ حَسَنٍ لتأثيره هو على الأراضي التي أقْسم أنّه لن يديرها بدءاً من تلك اللّحظة إلّا ليخدم مجد التّاج البرتغاليّ.

كان جواب ميم دو سا على ذلك أنّه تمخَّط بصوتٍ عالٍ في كُمّه.

شعر مارتان بقليلٍ من الإحباط من هذا الاستقبال، لكنّه أحبَّ أن يجد فيه علامات حذرٍ ذات هدفٍ سياسيٍّ، وقد سأل بصوتٍ متآمر إن كان بمقدوره أن يتحدّث إلى الحاكم على انفراد. كان يريد أن يبوح له بالمعلومات الأخيرة التي بحوزته، والمتعلّقة بما لدى العدو من أسلحةٍ وعتادٍ.

قام ميم دو سا بحركةٍ من أنفه جعلت الحضور كلّهم يتراجعون إلى الخلف، عدا الأب أنكييتا.

صرخات السّعادين الآتية من أجمات الشّاطئ جعلت مارتان يتوتّر، ويرجو وجود قصرٍ صامتٍ تُقام فيه المباحثات الدّبلوماسيّة على خلفيّةٍ من وسوسات النّوافير.

- إليك يا صاحب السّعادة الوضعَ الدّقيق للتّجهيزات الدّفاعيّة في الحصن حسْب المعلومات الأخيرة التي قدّمها إلينا العميل ريبير.

رفع ميم دو سا حاجبه. بالنّسبة إلى مارتان الذي كان يعرف كيف يراقب، كانت إشارة الاهتمام تلك ذات قيمةٍ كبيرةٍ.

- اثنان وسبعون رجُلاً، وربّما أقلّ. ففي الزّيارة الأخيرة التي قام بها ريبير لحظ وجود بعض المرضى. واحدٌ وثلاثون مدفعاً، من بينها أربعة ممتلئةٌ بالصَّدأ، وخمسُ بواريد حنشيّةٍ أقدم من أن تستطيع إحداث أيّ أذىً. هناك ذخيرةٌ قليلةٌ، ومخزن بارودٍ غَمرته الأمطار.

قام ميم دو سا بهزّ حاجبه الآخر.

- وهناك ماءٌ عذبٌ يكفي ثلاثة أشهر، ومؤونةٌ لأربعة أشهرٍ فقط.

عندما أنهى كلامه بهذه المعلومة، ظهر على مارتان بعض الانفعال.

- صدّقني يا صاحب السّعادة أنّني صنعت ما بوسعي كي لا يحصلوا على المؤونة، لكنّهم استطاعوا أن يتجاوزوا مراقبتي كلّها بفضل بعض الهنود الذين لا بدَّ من معاقبتهم.

عند سماعه تلك الكلمات، وضع الحاكم يده اليمنى في فتحة قميصه، وبدأ يحكُّ إبطه، وقد رأى مارتان في تلك الحركة نوعاً من الاضطّراب شعر أنّ من واجبه أن يهدّئه مباشرةً.

- «لكن اطمئن». هتف قائلاً::هذه المخزونات لن تفيدهم في شيءٍ، فالعميل ريبير لن يترك لهم وقتاً لتحمُّل الحصار.. ها ها ها». وانطلق في ضحكةٍ سيّئةٍ، في حين كشّر ميم دو سا عن أنيابه معبراً بذلك عن مشاركته بذلك الفرح.

اسمح لي الآن يا صاحب السّعادة أنْ أعرض لكم الخطّة التي تبدو لي ملائمةً من أجل نصرٍ مشرّفٍ من دون تكلفةٍ. العميلُ ريبير عارفٌ بتلك الخطّة، ومشاركته مضمونةٌ: في اليوم الأوّل، تطلقون عليهم مطراً من الكُرات النّاريّة - استطرد مارتان وهو ينظر حوله نظرات شريك في المؤامرة- في الّليل، يقومون بالاختباء بعد أن يكونوا قد داخوا من المدافع، عندها تقومون بإنزال القوّات في الظّلام، وقبل الفجر بقليلٍ، ينزلق ريبير حتّى البوّابة ليفتحها، وعندها يصبح الحصن لكم قبل أن تبزغ الشّمس تماماً.

سكت مارتان، وهو في قمّة الرّضا. كان الأمر يستحقّ منحه إقطاعيّة دوقٍ، وهو يعلم ذلك. تراجع قليلاً بنوعٍ من التّواضع، وانتظر حُكم الحاكم.

- «يجب أن ننام». غمغم ميم دو سا.

ظهر على الأب آنكييتا بعض الحَرج عند ترجمة هذه النتيجة، فسمح

لنفسه بأن يضيف: إنّ الحاكم كان معتاداً على النّوم بعد غروب الشّمس بقليلٍ. كانت اثنتا عشرة ساعةً بالكاد تكفيه لإصلاح ما تسبّبه صناعة أفكاره من مشكلاتٍ لدماغه.

- «أفهمُ ذلك!». قال مارتان الذي شعر هو الآخر بالإعجاب.

انسحب بأكثر ما يمكن من الكبرياء، وهو مضطرّبٌ يترنح كما بعد حفلة مجونٍ بالكهوان. وفيما كان ينزل من جديدٍ إلى زورقه، أفلتت منه أمام الضُّبّاط الذين انشغل فكرهم بهاتين الكلمتين الممتلئتين بالغموض:

- يا له من قائد!

*

تحضير الاجراءات الضّرورية للهجوم جميعها استغرق يومين من الزّمن. تلقّى كلّ مركبٍ تعليماتٍ دقيقةً تتعلّق بالموقع الذي يجب أن يلتزم به، وبالدّور الذي يجب أن يلعبه. وحدها البواخر الأفضل تسليحاً كانت تستطيع المشاركة في قصف الحصن بالمدافع. مع ذلك كان هناك تفصيلٌ تكتيكيٌّ تطلّب إجراءات حذرٍ طويلةً. فنظراً إلى صغر أبعاد الجزيرة، كان يجب الحرص على ألّا تقوم البواخر البرتغاليّة التي ستحاصرها بقصف بعضها بعضاً في أثناء تسديدها على الحصن. حسب الملّاحون مسافة الأمان التي كان يجب أن تفصل بين البواخر، وفي النّهاية، صار كلّ شيءٍ جاهزاً.

في صبيحة اليوم الثّالث، وببطءٍ شديدٍ، قام المركب المهاجم الأوّل بتوجيه صاري الباخرة الرّئيس المائل بحيث يخرج من مخبئه في الشّاطئ الوعْر. بعدها، توجّه ما يقارب اثنا عشر مركباً ضخماً نحو الحصن متعامدين معه بعد أن فتحوا الفوهات المجهزة للمدافع التي لُقّمت. عندما صار هذا الجدار من المراكب في موقعه الدّقيق حول الجزيرة، خفض ميم

دو سا يده الضّخمة التي تحمل مشعلاً ولقّم بالنّار بارود المدفع الأوّل. ارتفاع القذيفة لمْ يكن كافياً، فسقطت في الماء؛ لكنّ تلك الإشارة جعلت المراكب الأُخرى كلّها تبدأ برمي قنابلها. كانت حوافّ المراكب ممتلئةً بالدّخان بسبب الانفجارات، وصارت تبدو كأنّها هدفُ الطّلقات، في حين أنّها كانت نقطة انطلاقها. بالمقابل، لمْ يكن من الممكن رؤية أيّ شيءٍ من المكان الذي سقطت فيه القذائف على الحصن في البعيد. وحْدها الضّجّة الصّمّاء التي كانت تصدر من تأثير سقوط القذائف على الجدران السّميكة كانت تطنّ في الهواء السّاكن. بعد طلقات التّحيّة المرعبة التي أعلنت بداية المعركة، وبناءً على أمرٍ أتاهم من باخرة القيادة، بدأ البرتغاليّون يرمون قذائفهم بسرعةٍ أقلّ. صار رشق المدافع ذو إيقاعٍ منتظمٍ، وتتالت الهجمات الواحدة تلو الأُخرى بحيث يقع المدافعون عن الحصن تحت تهديدٍ مستمرٍّ.

تبدّد التّوتّر الذي سبق الهجوم عند رجال ميم دو سا، وعلى الأسلحة التي كان الفرنسيّون يمتلكونها، لمْ تصدر عنهم طلقة مدفعٍ واحدةٌ كجوابٍ عن الهجوم الذي كانوا يخضعون له. لا شكَّ في أنّهم كانوا مرتبكين فعليّاً، أو شديدي الجبن، وبعد أن انهارت سمعتهم بهذا الشّكل، بدا أنَّ الشّيء الوحيد الصّامد في الجزيرة هو أسوار الحصن. كان يجب الاعتراف بأن تلك الأسوار كانت جيّدة البناء، وزواياها محسوبةً بحيث تجعل الهجوم صعباً. من الممكن أيضاً أن يكون المدافعون قد اختاروا انتظار نزول المهاجمين على الأرض لكي يقوموا بقتلهم.

هذه الأشياء غير المؤكّدة كلّها لمْ تمنع طواقم السُّفن من الاحتفال بنصرٍ ممكنٍ ومُؤكّدٍ، عندما جاء المساء، وعادت البواخر لترسو في مواقعها، لكن لم يُعْلَمْ أحدٌ بسائر الخطّة، فيما عدا قوات المشاة الذين أبحروا في زوارق

صغيرةٍ وسط اللّيل. كان البرتغاليّون من أهل البحر، ولديهم خبرةٌ أقلّ بالمعارك الأرضيّة، ولذلك أمر ميم دو سا أن يضعوا بين الذين سينزلون على البرّ كلّ ما يوجد في الحملة من أبناء القارّة، ومن المرتزقة: سويسريّين ضاعوا في البحر، مغامرين ألمان، خمسة أسرى هولنديين، وحتّى ثلاثين عبداً هندياً كان مارتان قد أهداهم بنوعٍ من المجاملة. في المحصّلة، كانت هناك خمسة قوارب بمجاذيف لفظت على الجوانب المظلمة للجزيرة مئةً وعشرين رجُلاً مصمّمين ألّا يتسامحوا، ولا يشعروا بأيّة شفقةٍ. كانوا قد جثموا على الرّمل الرّطب في الشّاطئ في انتظار الالتماع الأوّليّ للفجر. فتحت السّماء على الشّرق صدرها الورديّ في نوعٍ من التّثاؤب الكبير، وفاجأ هواء الصّباح المقاتلين من الخلف، في حين كانوا يتمتمون بالصّلوات في الرّمل، فارتعدوا. أخيراً، عندما صار الضّياء بالكاد كافياً لمشاهدة بوّابة القلعة، رأى المقاتلون، وهُم لا يصدّقون عيونهم، أنّها كانت مفتوحةً على مصراعيها. بناءً على أمرٍ من أحد العسكريّين انطلقوا وهُم يطلقون صرخاتٍ مرعبةً لا تهدف لإرعاب الآخرين بقدْر ما تحاول بثّ الطّمأنينة في قلوبهم هُم، ثمَّ توغّلوا في عمق الحصن.

كان لموكب المهاجمين رجْع صدىً في القبّة التي تؤدّي إلى باحة القلعة. تدافَع الرِّجال في العتمة، وسُمعت أصواتهم، وهُم يدوسون على الأرض، ويدورون في مكانهم، ويلعنون بلغاتٍ مختلفةٍ. صعدت كتيبةٌ صغيرةٌ إلى أعلى الأسوار، وركضت على مسار دوريّات الحرس. خلال الزّمن الذي استغرقته تلك الغزوة، بدأ ضوء الصّباح الذي ما يزال شاحباً يضيء بألوانٍ بنفسجيّةٍ فاتحةِ الجدرانَ والممرّات. عودة الضّوء هدّأت أفكار المقاتلين الذين بدأوا يسيرون بهدوءٍ، ويتهامسون فيما بينهم. لمْ تكن هناك أيّة طلقةٍ ضدّهم. تفاجأ الرِّجال من السُّرعة الفائقة التي فُتحت

بها القلعة، فتجمّعوا في باحة الحصن وانتظروا. خرج ضابط البحريّة الذي يقودهم من القلعة، ووصل إلى الشّاطئ، حيث أرسل إشاراتٍ واسعةً في اتّجاه البواخر؛ ليقول إنَّ كلَّ شيءٍ قد انتهى.

نزل ميم دو سا بعد ذلك بقليلٍ إلى اليابسة على رأس مجموعةٍ كبيرةٍ من المرافقين. كان يحمل مسدّساً ضخماً في زنّاره كي تكون لديه حُرّية استعمال يديه الاثنتين عند إعطاء الأوامر بالإشارات، وكذلك من أجل حشْر إصبعه داخل أنفه.

جاء الضّابط الذي قاد الطّليعة ليقدّم تقريره إلى ميم دو سا ببساطةٍ، لمْ يثقلها سوى الإتيكيت البرتغاليّ:

- كلُّ شيءٍ صار في قبضتنا يا صاحب السّعادة الحاكم.

وبعد أن تصلّب جسده من الفخر أضاف:

- لقد أسَرْنا شخصاً.

سَرت همهمة إعجابٍ في حاشية ميم دو سا. وجود سجينٍ واحدٍ يعني أنَّ البقيّة قد ماتوا كلّهم، وأنَّ رماة المدفعيّة قاموا بعملٍ جميلٍ.

- هل أستطيع أن أقودكم إلى حيث يوجد يا صاحب السّعادة الحاكم؟

عبّر ميم دو سا بزمّةٍ من أنفه عن موافقته الكريمة. سار الضّابط في المقدّمة، ودخلت القوّات بأكملها في الرّواق الذي كان يؤدّي عبر الأسوار إلى الباحة.

لم يُظهر الأسير الذي أمسك به أربعةُ حرّاسٍ أيَّ استعدادٍ للهرب، ولا حاول القيام بأيِّ فعلٍ مُعادٍ. عندما رأى الجنرال الكبير يدخل، أضاءت وجهه الأشْعث ابتسامةٌ عريضةٌ، ولّما صار ميم دو سا بقربه، وأعطى الأمر بتركه بحركةٍ من يده، سقط الأسير على ركبتيه، وصرخ بصوتٍ ممتلئٍ بالدُّموع:

- اِرحمني يا سيّدي، يا أعظم قبطانٍ على مَرّ العصور، يا قيصر الأمريكيّتين الجديد، يا مُحرّر هذا الحصن.

كان يريد أن يسترسل، لكنَّ ميم دو سا أدار وجهه عن تلك الغنيمة التي لا تستحقّ الاهتمام بها، وبدأ ينظر حوله. دُهش لعدم رؤية جثثٍ، أو سجناءَ، أو مدافعَ بين فتحات أسْوار الحصن.

- «لقد وجدنا ثلاثةَ قتلى». أعلن الضّابط مستبقاً السُّؤال الذي كان سيوجَّه له.

سار الحاكم وراءه حتّى وصلوا إلى سُلَّمٍ، ثمَّ صعد إلى درب دوريّات الحراسة. هناك رأى جثّة فارسٍ من فرسان مالطة، وقد انغرست في صدره قذيفةٌ. كان وجه الرّجُل مثل قناعٍ تجمّدت فيه قسمات الكبرياء والصّلاة، في حين كانت لحيته المدبّبة تنتصب في اتّجاه السَّماء. كان يحمل في يده اليمنى ورقةً. أخذ ميم دو سا الورقة، وأعطاها للأب آنكييتا الذي كان قد تبعه ليقوم بالتّرجمة مع السُّجناء. قرأ الأبُ اليسوعيُّ النّصَّ القصير الذي خربشته يدٌ متعجّلةٌ.

- «إنّها قصيدةٌ». قال، وهو يحمرّ خجلاً: «قصيدةٌ موجّهةٌ إلى سيّدةٍ تُدعى مارغريت».

- «القتيلان الآخران موجودان في الأسفل، في القاعة الكبيرة». قال الضّابط: «يبدو أنّهما قتلا نفسيهما بالسُّمّ».

كانت الدَّهشة وبداية الغضب قد ارتسمت على وجه الحاكم الأسْود كما لو رسمتها فرشاةٌ عريضةٌ. أخذ ينظر إلى حاملات المدفعيّة التي لمْ تعد تحمل أيّ مدفعٍ على الأسوار، فيما عدا راجمتين صدئتين. نزل الدَّرج وعلى وجهه أماراتُ الغضب. كان اليسوعيُّ يركض خلفه وقد فهم أنّه يجب استخراج تفسيرات هذه الأسرار من السَّجين.

عندما رأى السَّجين قوّات ميم دو سا تعود نحوه، فهم أنّه سيستطيع أخيراً أن يشرح وضعه. توجّه إلى اليسوعيّ الذي كان يتكلّم لغته، واختار له اللّقب الملائم الذي يجعله يقف في صفّه.

- «الرَّحمة يا كردينال. الرَّحمة!». توسّل إليه صارخاً، ثمَّ أضاف في شهقةِ بكاءٍ:

- أنا ريبير.

بدا من غير المعقول للأب آنكييتا، وكذلك لميم دو سا أن يكون هذا الرّجُل الصَّغير الذي يبدو معتوهاً بما لا يرقى إليه الشّك هو العميل ريبير الذي كانت جميع القوى قد اعتمدت عليه.

لمْ يحتج ميم دو سا إلى مترجمٍ في هذه المرّة؛ أمّا اليسوعيّ، فقد صرخ:

- أنت؟ أنت ريبير؟

- «نعم». شخر فيتوريو، وقد بدا عليه الهمّ والفخر في الوقت ذاته، تماماً كما تكون هيئة مقاتلٍ حوّل النّصرُ ثيابه إلى أسمالٍ.

- «لنفترض ذلك». أضاف اليسوعيُّ، وقد اكتسب كلامه لهجةَ الغضب: «في هذه الحال، سيكون عليك أن تفسّر كلّ شيءٍ. أوصلت إلينا معلومةً تقول إنّ المدافعين عن الحصن اثنان وسبعون شخصاً. أين يختبئون؟ وأين المدافع، والمنجنيق؟ والأسلحة كلّها؟».

رأى فيتوريو أموره تتحسّن. المهمّ أنّهم صدّقوه. بقي عليه الآن أن يسوّغ لنفسه. كانت الصُّعوبة الوحيدة في هذه المرّة أنَّ عليه أن يلتزم بالحقيقة، وهو تمرينٌ كان يتطلّب منه دائماً كثيراً من الانتباه. قال متأوّهاً:

- آه يا كاردينال... الأمر مرعبٌ، مرعبٌ!

- «ماذا؟». سأل الأب آنكييتا بنفاد صبرٍ: «ما هو المرعب؟ هل ستشرح لنا أم لا؟».

تردّد فيتوريو، ولمْ يعرف إنْ كان عليه أن يرتمي على ركبتيه متوسّلاً أم كان الحذر يقضي أن يؤجّل هذه المسرحيّة إلى ما بعد. بقي واقفاً، لكنّه كان يرتجف.

- «كنت مسجوناً هنا مع الآخرين». قال فيتوريو بصوتٍ متوسّلٍ: «لمْ أستطع أن أنقل الرّسالة إلى مارتان عندما بدأ كلّ شيء».

- كلُّ ماذا؟

مثل شهرزادٍ يائسةٍ انطلق فيتوريو في روايةٍ يمكن أن تبقي على حياته على الأقلّ طالما استمرّت ولم تتوقّف، وهكذا بدأ يسرد الحكاية وهو يتأوّه:

- في البداية كان هناك ذلك الوباء الذي حصد ثلاثة أرباع الحامية في أقلّ من أسبوعٍ.

- «والبقيّة؟ أين هُم؟». سأله اليسوعيُّ بنفادِ صبرٍ، وكان بتلك الطّريق يترجم زئير ميم دو سا.

أشار فيتوريو أنّه سيصل إلى ذلك. كان نفاد صبر المستعمرين دليلاً حسناً على اهتمامهم بقصّته.

- كان ذلك قبل دخولكم إلى الخليج بيومين. جاء مركبٌ متهالكٌ محمّلٌ بأحصنةٍ هزيلةٍ، وأنذرنا بقدومكم، عندها ذهب القائد الشّاب الذي كان فيلوغانيون قد تركه على الجزيرة لزيارة الهنود.

كان الأب آنكييتا يترجم الجُمل أوّلاً بأوّلٍ، وقد استطاع فيتوريو أن يشدّ انتباه جمهوره على نحوٍ أفضل.

- عاد من عندهم بعد ثلاثة أيّامٍ. لمْ أسمع أوامره أنا شخصياً، لكنّي فهمت فقط ما جرى عندما رأيت إنزال المدافع. جمعوا قطع المدفعية كلها هنا تماماً في هذه الباحة، بعد ذلك جاء كلامورغان الشّاب -لتحلَّ الّلعنة عليه إلى الأبد، هو وأهله بحقّ السّيّدة والمسيح- وقام بجمعنا في القاعة الكبيرة التي ترونها هناك. اقترح على من يرغب أن يتبعه إلى اليابسة. دون غونزاغ، وهو رجُلٌ قدّيسٌ، ليحلّ السّلام على روحه، رفضَ أن يخون الكلمة التي أعطاها للأميرال، ولمْ يكن هناك سوى رجُلين شجاعين رفضا الهروب، وقرّرا البقاء معه للدّفاع عن الحصن. كانا جنديّين عجوزين من مالطة، وفي الّلحظة الأخيرة، فضّل هذان المتعصّبان أن يتناولا السُّمَّ على الوقوع بأيديكم؛ أمّا أنا، فما الذي كنت أستطيع فعله؟ قل لي ياكاردينال؟ لو أنّني ذهبت ما كان بمقدوري أن أفتح الحصن لكم، ولو بقيت، كنت أخاطر بأن أراكم تعاملونني مثل خائنٍ.

كان فيتوريو يعرف جيّداً الغناء الأوبّراليّ، ويدرك أنّه في لحظة الوصول إلى تلك الذّروة، كان من المناسب أن ينهار التّينور[I] على ركبتيه. ولذلكَ ترك نفسه يسقط بضجّةٍ كبيرةٍ، وهو يضمُّ قبضتيه. توسَّل إليهم، وهو يضع في صوته كلّ ما يملكه رجُلٌ كسرته مآسي القَدر من صدقٍ رائعٍ:

- الرّحمة!

عندما سمع ميم دو سا هذه الأخبار تملّكه غضبٌ خاصٌّ به؛ أي: غضبٌ أخْرسُ وعنيفٌ.

- هكذا إذن، قام بالاستيلاء على جزيرةٍ فارغةٍ؟! لقد ظلّت قوّة هؤلاء الكلاب الفرنسيّين كما كانت، وقد ترك باهيا من دون سلاحٍ من أجل

(I) نوع من الأصوات الغنائية الرجالية، والذي يعتبر أعلى الأصوات الرجولية في المجال الوسطي. (م)

لا شيء؟ ومن يعرف، ربّما هناك في هذه الّلحظة بالذّات أعداءٌ يقومون بالهجوم عليها.

كان قد بدأ يتلمّس فوهة مسدّسه متهيّئاً لإطلاق النّار على هذا السَّجين المهرّج، رسول هذه الأخبار السّيّئة، لكنْ في الّلحظة التي كاد بها أن يقتل هذه الطّريدة المسكينة شَعر بقرفٍ أزال من قلبه مُسبقاً متعة القتل.

على الأقلّ صار الحصن له. المنظر الحزين لهذه الأسوار المتينة، وما كلّفته من مشاقٍّ للأعداء والرّضا لأنّه استولى على هذا الموقع من أجل البرتغال، ذلك كلّه ملأ قلبه ووجهه أيضاً بالرّضا الذي جعله ينسى نوعاً ما سائر الأشياء، وفي النّهاية، ريبير هذا قد فعل كلّ ما كان يُنتظر منه. نظر إلى الّلص، وهزّ كتفيه مُعطياً الإشارة بأنْ يفلتوه.

بدأ بعد ذلك يزور قاعات البناء، تتبعه فرقته، ثمَّ صعد الأسوار. في تلك الّلحظة حصل تدافعٌ في الأسفل عكّر السّلام الذي تُوُصِّلَ إليه بلا حربٍ. وصل مارتان الذي كان ما يزال مزداناً بملابس النّبلاء يتبعه ثلاثة مترجمين. صعد السُّلّم بسرعةٍ كبيرةٍ، وعرض أمام الحاكم وجهه الجلف المدعوك بنعومة الّلياقة التي يكرهها كثيراً:

– «رائعٌ يا صاحب السّعادة!». صرخ مارتان: «أيّ انتصارٍ! أيّ نصر!».

رماه ميم دو سا بنظرةٍ صاعقةٍ، لكنّ الآخر لمْ ير في هذا التّعبير العدوانيّ سوى التّواضع الجلف لرجُلٍ اعتاد أن يهزم الآخرين.

– «ذلك كلّه صار من الآن فصاعداً في حوزة ملكك». قال مارتان، وهو يشير إلى الخليج محيطاً إيّاه بحركةٍ من ذراعه.

كان صمت الطّقس المشمس يلتمع على صخور جبل (خبز السُّكر)، وعلى القشّ المصفرّ للقصب الموجود عند المستنقعات، في حين أطلق طائران من فصيلة مالك الحزين صرخةً قصيرةً دلّت على رضاهما؛ لأنّهما

صارا من جديدٍ من رعايا ملك البرتغال. كان مارتان ما يزال يبتسم سعيداً حين سحب من جيبه لفافة ورقٍ مربوطةً بشريطٍ.

- «يا صاحب السّعادة». قال بفخرٍ: «لقد حضّرت لك صكّ ملكيّة الأراضي التي حرّرتها في الحال، والتي أنقلها بحكم القانون إلى اسم ملكيّتك».

عندما سمع ميم دو سا ترجمة هذا الطّلب التي نقلها الأب آنكييتا بصوتٍ حياديٍّ، عدّل من هيئته بعد أن كان قد انحنى تحت وطأةِ مطرقة الاستنكار، ومنجل الاحتقار:

- «الخدمة الكبيرة التي أطلبها إليك»، قال التُّرجمان مستطرداً: «هي أنْ تعطيني هنا بالذّات ما وعدّتني بكلّ طيبةٍ أنْ تقدّمه إليّ، فاللّقب الذي يُمنح في ساحة المعركة هو أفضل مجدٍ يمكن أن يحلم به إنسان».

كان مارتان صادقاً، لكنّه فوق ذلك كان يعتقد نفسه على درجةٍ عاليةٍ من الحذاقة حين لفظ هذا الخطاب. كانت الميّزة أنّه استعجل قراراً يمكن لحماسة النّصر أن تجعله طبيعيّاً، فلو انتظر قليلاً لكان يمكن للألاعيب والدّسائس أن تسبّب تأخيراً، بلْ وعوائق، وكان من الممكن أيضاً أن يُتراجَعَ عن القرار كلّه، وهكذا أعلن بجدّيّةٍ كاملةٍ:

- دوق دو غوانابارا يبدو لي اللّقب الأكثر ملاءمةً.

ترجم الأب آنكيتا الجُملة، وأضاف بصوتٍ خفيضٍ في أُذن الحاكم كلمةً تذكّره بالحوار الذي تمَّ قبل يومين مع التُّرجمان، وبالفعل كان يبدو على ميم دو سا أنّه لم يفهم عمّ كان هذا الفرد يتكلّم، وعندما فهم أخيراً ابتسم ابتسامةً شرّيرةً. الغضب المسعور كلّه الذي كان يشعر به لأنّه ترك الفرنسيّين يهربون انصبَّ على هذا الذي كان في نهاية الأمر واحداً منهم، وربّما كان يلعب لعبة الجاسوس المزدوج بينه وبينهم.

- «على ركبتيك». قال له.

ترجم الأب آنكييتا الجواب.

شعر مارتان أنّه متخمٌ بالانتصار، ووضع إحدى ركبتيه على الأرض على طريقة الفرسان، وخلع قبّعته من أجل تلقّي الشّرف الذي كان ينتظره. لمْ يكن في رأسه شيءٌ آخر سوى منصب الدّوق، لكنّه، هو الذي لمْ يلقِ سلاحه من قبل أمام أيٍّ كان، هو الذي كان طيلة الوقت متنبهاً لما يحصل، هو الذي أفلت من أكثر محاولات الاغتيال خبثاً، فهم في الّلحظة الأخيرة الغلطة التي اقترفها؛ فبإنكاره لشخصية الشّحاذ الذي كانه من قبل، تخلّى عن الحذر الذي جعله يبقى على قيد الحياة طيلة تلك الفترة. في الّلحظة التي رفع فيها عينيه وشَعر كيف انتصب في داخله الحيوان المُلاحَق، كانت قد لمسته فوهة المسدّس الذي قام ميم دو سا بحرق دماغه به.

حلّ صمتٌ كبيرٌ بعد أن رنت على الأسوار طلقة النّار الوحيدة التي انطلقت خلال الاستيلاء على الحِصن. كانت جثّة مارتان التي انتفضت بعدّة هزّاتٍ أخيرةٍ تجثم على أرض جدار السّور، وقد تراخت مفاصلها.

رفع ميم دو سا أنفه في حين كان سلاحه ما زال يدخّن في يده. فجأةً تسمّر في وضعيّةٍ قلقةٍ. كان يبدو عليه أنّه يسمع من بعيدٍ ضجّةً. وبالفعل أدار كلّ من حوله آذانهم مُصغين إليها. كانت تتصاعد من الخليج السّاكن الوشوشات المعتادة للنّباتات حين تمرُّ بها نسمات حارّة. طلقة المسدّس أوقفت صرخات الحيوانات، ونزعت الأصوات الوحيدة الحادّة التي كانت عادة تعكّر الصّمت. كان يجب إذن أن يُبحَثَ عمّا ليس متوقَّعاً في تلك المنخفضات، وفي الواقع، خلف تلك النّسمات التي كانت تتوالد في الأغصان، ووراء الضّربات الصَّمّاء للأمواج، كان يمكن سماع ضجّةٍ منتظمةٍ تشبه الحفيف بدأت تتوالد في مواقع مختلفةٍ من السّاحل. كان

لها إيقاعٌ فريدٌ من نوعه لا يمكن أن يصنعه سوى البشر، إيقاعٌ بطيءٌ، لكنّه يجنح إلى التّسارع، ثمَّ بدأ يتجلّى مصدرٌ لهذه الهمسات المنتظمة، ثمَّ مصدران، ثلاثة، عشرة. بعد ذلك، بدا كأنَّ الغابات كلّها امتلأت بتلك الخفقات الصّادرة عن قلبٍ عملاقٍ من الرَّمل.

– «الخشخيشات». همس فيتوريو الذي كان وحْده يعرف ثمار القرع المقدّسة التي كان يحملها هنود الكاريبي.

من قبائل الخليج كلّها بدأت تتصاعد الآن أصوات هذه النّبوءات التي تصمّ الآذان.

فجأةً، مزّقت آذان المنتصرين ضجّة الانفجار الأوّل.

*

كانت معجزةً أنّهم استطاعوا نقل كلّ شيءٍ في ليلتين فقط. لمْ يكن حمل المدافع إلى المراكب، وجرّها حتّى السّاحل من أصعب المهام، فقد توجَّب بعد ذلك جرّها على الرَّمل إلى الموقع الذي كان الهنود المخلصون لباي لو يستطيعون حمايتها فيه. ما كان يمكن لهم القيام بذلك من دون معونة الأحصنة التي كان جوست قد اشتراها، وقد حقّقت الحيوانات التي رُبطت بسرعةٍ بحلقاتٍ من الخشب في رقبتها ما يشبه المعجزة طالما أنَّ القطع التي سُحبت على طول الشّاطئ صارت في موقعها المحدّد عند فجر اللّيلة الأولى.

بعد ذلك، بيّن جوست للهنود كيفيّة وضع تلك القطع في مختلف النِّقاط الاستراتيجيّة. كانت هناك عشرات مدافع الجفْت التي حُمّلت على ظهور الرِّجال، ووُضعت على المرتفعات التي كانت تهيمن على الخليج، كذلك قامت كولومب بإرسال رسائل إلى القبائل جعلت المقاتلين يُقبلون بأعدادٍ كبيرةٍ نحو الشّاطئ.

قَبِل كانتان على اشمئزازه من الأسلحة أن يلقّم أحد المدافع شريطة أن تُوجّه القذيفة نحو الماء، وقد أعطي شرف إطلاق الطّلقة الأولى. لكنّه عندما انطلقت القذيفة سرعان ما ارتمى بين ذراعي إيغات، الرّفيقة الوحيدة التي كرّس لها كلّ ما لديه من قوّة إقناعٍ لتتحوّل إلى الدّين المسيحيّ. أخذ يبكي بين ذراعيها الواسعتين، من دون أن يعرف إنْ كان ذلك من الخوف، من الامتنان، أم من السّعادة.

باراغواتشو وكارايا اللّذان صعدا أعلى كثيبٍ صغيرٍ عند جبل (خبز السُّكر) قاما بتلقيم قذيفةٍ جفْتٍ كانت بعُهدتهما، وهُما يضحكان. بعد ذلك تصاعدت أصوات انفجارات عشر قطعٍ أُخرى.

لمْ توجَّه أيّة قذيفةٍ نحو الجزيرة؛ لأنّ جوست لم يكن يرغب بالقيام بهجومٍ. كان يريد فقط أن يُظهر للبرتغاليّين أنّهم إنْ استولوا على الحصن، فإنّهم لم ينالوا الخليج، ومن خلال التّرتيب الماهر للمدافع سيفهمون أنّ هناك قوّةً منظّمةً يُخشى جانبها تقف بمواجهتهم، ولن تتركهم يرتاحون. بالطّبع كان ذلك كلّه مبالغاً فيه، لكنّ جوست كان مقتنعاً بأنّه سيتوصّل بعد قليلٍ إلى إعطاء الهنود المعرفة الضّروريّة التي تسمح لهم أن يردّوا بأسلحةٍ مماثلةٍ على من يدّعي إخضاعهم.

بالإضافة إلى ذكاء المدافع التي كانت تتحدّث لغة الأوروبيين، يمكن إضافة ذكاء المحاربين من القبائل جميعها الذين استجابوا لنداء كولومب، ولنبوءات الخشخيشات، وبدأوا ينحدرون نحو السّاحل، من بينهم هناك ما يقارب عشرين هنديّاً تدرّبوا على استعمال البنادق، وبناءً على إشارةٍ من أحد أبناء باي لو كان يتزّعم هؤلاء المقاتلين المشاة، قاموا بتسديد طلقةٍ مشحونةٍ بالرّصاص نحو البواخر فقوّضوا بعض الصّواري الخشبيّة، وبثّوا الذُّعر على سطحها.

كان جوست وكولومب يقفان جنباً إلى جنبٍ يشاهدان تمثيليّة الهجوم هذه، ويصفّقان عند كلّ ضربةٍ. كانا قرب الجزيرة تحت ظلال شجر جوز الهند، وقد ركب كلٌّ منهما حصاناً بلا سرجٍ. من المكان الذي كانا فيه، بدا الحصن صغيراً جدّاً، وهشّاً وعبثيّاً. كانت الأحصنة تحفّ رقابها ببعضها، وعندما كان الفارسان يقتربان، كانت سيقانهما تتلامس. بدت الجزيرة الفارغة مثل قرحةٍ صغيرةٍ لا خطر منها على الجسد الواسع للخليج الذي كان يلتمع من الأبّهة، ومن السّلام داخل تلك الألوان الرّائعة والنّضرة.

مدَّت كولومب يدها نحو جوست، وأمسكت بشَعره. انحنى ليقبّلها. عندما عاد الصَّمت بعد قصف المدافع، لمزا مطيّتيهما وانطلقا على الشّاطئ بعد أن وجَّها نظرة تحيّةٍ أخيرةٍ للجزيرة، راحا يخبّان على الرَّمل، وانضمّا إلى الهنود.

السّعادة التي يشعران بها صارت تنتمي إلى تلك الأرض، الأرض التي سيدافعان عنها دائماً من دون أن يحاولا تملّكها أبداً.



خاتمة

وصل الفارس فيلوغانيون إلى فرنسا في أثناء الحادث المشؤوم الذي ظلَّ معروفاً في التّاريخ باسم (مؤامرة أمبواز[I]). القمع الذي تلا محاولة الاعتداء التي قام بها البروتستانت كان دمويّاً، واشتهر فيه سيّد حصن كوليني بأعماله الوحشيّة، فطيلة شهرٍ كاملٍ كان هناك نشاطٌ محمومٌ قُطعت فيه رؤوس الإصلاحيّين، وشُنقوا، وأُغرقوا؛ وقد كتب رينيه دو لا بلانش وقتها: «إنَّ شوارع أمبواز صارت زلقةً من كثرة الدَّم، وراحت الأجساد الميتة تفترشها في كلّ مكانٍ إلى درجةٍ لمْ يعد من الممكن معها البقاء في المدينة؛ بسبب الرّائحة النّتنة والأمراض».

وحشيّة فيلوغانيون جعلت منه (رجل عائلة غيز[II] القادر على فعل

(I) محاولة فاشلة من الهوغونوت في عام 1560 للسيطرة على الحكم في فرنسا، باختطاف الملك الشاب فرانسوا الثاني، كانت أحد الأحداث التي أدت مباشرة إلى اندلاع حروب الدين الفرنسية التي قسمت فرنسا من 1562 وحتى 1598. (م).

(II) نسبة إلى هنري غيز الزعيم الكاثوليكي المتطرف الذي كان أحد أعمدة الحرب الأهلية الفرنسية. تنتمي عائلة غيز إلى طبقة النبلاء الفرنسيين وقد تزايدت أهميتها مع صعود هنري الثاني إلى العرش عام 1547 ثم فرانسوا الثاني. وعندما اندلعت الحروب الدينية في فرنسا اتخذت العائلة موقفاً متشدداً للغاية إلى جانب الكاثوليك في صراعهم مع البروتستانت. (م).

أيّ شيءٍ)، وقد وزّع وقته بين الأعمال الوحشيّة التي كان يقوم بها ضدَّ الهوغونوت وبين كتابة الرّسائل التي تهدف إلى تسويغ ما قام به في البرازيل، لكنَّ فرنسا التي كانت وقتها قد تحالفت مع إسبانيا بهدف الخلاص من الخطر البروتستانتيّ، لمّا تأبه للحفاظ على ما استولت عليه في أمريكا الجنوبيّة، وهكذا لمْ ينل فيلوغانيون سوى رسالة تكليفٍ ضدَّ البرتغال، وسيقبل في لشبونة بعدها أن يتخلّى نهائيّاً عن حقوقه في غوانابارا مقابل ثلاثين ألف قطعةٍ فضّيّةٍ.

عندما اشتعلت الحروب الدّينيّة في فرنسا شعر فيلوغانيون بالرّاحة، خاصّةً أنّ تلك الحرب مرّت بالمراحل نفسها التي حصلت في البرازيل، فكأنّها كانت تدريباً عليها، وقد كوفِئ على وحشيّته بمنحه سياديّة فرسان مالطة في مدينة بوفيه آن غاتينيه، حيث أنهى أيّامه بهدوءٍ، على أنّ الكراهية ظلّت تشتعل فيه، وقد أوصى بأملاكه كلّها إلى الفقراء في باريس.

أمّا ريشير ودوبون والبروتستانت الذين هربوا من ريو، فقد وصلوا إلى فرنسا بعد رحلةٍ بحريّةٍ أشبه بالكوابيس؛ إذْ نقصت المؤونة لديهم إلى درجةٍ جعلتهم يرضخون لفكرة أكل الببّغاوات؛ أمّا أود، فقد عادت إلى جنيف، وتزوّجت قسّيساً هناك، ولم تترك تلك المدينة إطلاقاً بعدها.

لكنّ عدداً كبيراً من البروتستانت الذين ظلّوا على قيد الحياة بعد تلك المغامرة عانوا الكثير من الحروب الدّينيّة، فبعد مضيّ عشرين سنةً، قام جان دو ليري بكتابة الوقائع المرعبة لتلك (الرحلة في أرض البرازيل)، وعلى الذُّعر الذي عبّر عنه تُجاه أكل لحوم البشر، فإنّه أحسَّ بالانزعاج عندما اضطرَّ خلال حصار سانسير لأنْ يرى رفاقه في السّلاح يأكلون البشر بدورهم.

في غوانابارا، حافظ البرتغاليّون على مواقعهم، وبنوا مدينة ريو. ظلَّ

التّراجم الوسطاء في السّاحل يقومون بالتّجارة بعد اختفاء مارتان. لكنّ بعضهم عاد إلى فرنسا، ومنهم ذلك الذي استخدمه مونتيني كسكرتير، وإليه يعود الفضل في الإيحاء بمضمون الفصل الواحد والثّلاثين الشّهير من الكتاب الأوّل من (المحاولات)، الذي عنوانه (عن أكلة لحوم البشر)، وهي الدّراسة التي سيكون لها تأثيرها الكبير على فلاسفة عصر الأنوار؛ لأنّها أسّست لأسطورة (المتوحّش الطّيّب).

لكنَّ مقاومة الهنود ظلّت قويّةً في أرجاء ما تبقّى من الخليج، وبفضل التّقنيّات العسكريّة التي جلبها معهم الفرنسيّون، وبعض الإنجليز، استطاعوا أن يُقلقوا فترةً طويلةً راحة المستعمرين البرتغاليّين، وكان الحصار الذي فُرض على كابو فريو في بداية القرن السّابع عشر، الفصل الأخير من تلك المقاومة التي دامت أكثر من نصف قرنٍ. بعد ذلك، دُفِعَ هنود التّوبي نحو الدّاخل، ونحو الشّمال حيث رافقهم الدَّعم الفرنسيّ، وعندما قام البرتغاليّون بتأسيس مدينة ناتال في عيد الميلاد من سنة 1597 أحْصوا ضمن صفوف القبائل الهنديّة خمسين مقاتلاً فرنسيّاً من حَمَلة البنادق.

عددٌ من هؤلاء الأوروبيّين ذابوا فيما بعد في البوتقة البرازيليّة. آخرون غيرهم فضّلوا ركوب البحر، فصاروا قراصنةً ومهاجمين في البحر، وراحوا ينهبون القوافلَ، ويبثّون الرُّعب فترةً طويلةً في مسارات المحيط الأطلسيّ.

اليوم لمْ يعد هناك وجودٌ لهنود التّوبي المقيمين في السّاحل، ولسْنا نعرف عنهم سوى ما ترويه روايات ذلك العصر التي كتبها الرّحّالة عند عودتهم، فقد وصفوا بالتّفاصيل الدّقيقة عاداتهم وأساطيرهم وأكثر هذه الرّوايات مصداقيّةً تلك التي تروي حكاية فيضانٍ أحدثه الرّبّ الأكبر توبان،

وفرضه على البشر الذين أغْضبوه. ماتت البشريّة كلّها في هذا الطّوفان، فيما عدا أخٍ وأُخته اتَّحدا معاً، ومنهما توالد العِرق البشريُّ الجديد.

تفسير هذه الخُرافة صعبٌ، وقد اختلف علماء الإثنولوجيا في تحليل معناها؛ أمّا نحن الذين نعرف هذه القصّة، فإنَّ لدينا فكرتنا الخاصّة عن ذلك الموضوع، ولا يستطيع أحدٌ أن يمنعنا من أن نرى وراء بطليّ الأسطورة آثاراً لشخصيّتين أحببناهما، هُما كلّ ما تبقّى من جوست وكولومب.

حول مصادر رواية «البرازيل الحمراء»

أكثر ما يدهش في هذه القصّة هو أنّها حقيقيّة. لا يعني ذلك أنّها تبدو غير ممكنةٍ، فعصر النهضة غنيٌّ بمغامراتٍ أكثر عجائبيّة منها، لكنّ سبب غرابتها هو النسيان شبه التام الذي وقعت فيه هذه المرحلة من تاريخ فرنسا. لماذا لم تترك أحداثٌ كهذه أيّة آثارٍ فعليّةٍ في الذاكرة الجمعيّة؟ صحيحٌ أنّه لا يمكن مقارنة أمجاد كريستوف كولومبوس، أو ماركو بولو بأسماءٍ، مثل: جاك كارتييه، والفارس دو لا سال، والفارس دارغو ودو دوبليكس، لكنّ هذه الأسماء توقظ في تلك الذاكرة بعض الأصداء، أقلّه بسبب الشوارع والساحات التي خُصّصت لأصحابها. إنّ كلماتٍ، مثل: لويزيانا، ومستعمرات سان لوران، والهند الصينيّة، وبونديشيري لها في آذاننا وقعٌ يُعيد إلى الحضور الفرنسيّ الكولونيالي، في حين لا تثير كلمة البرازيل أيّة تداعياتٍ من هذا النوع، إضافةً إلى أنّ اسم فيلوغانيون قد غيّبه النسيان التام.

خطرت على بالي فكرة هذا الكتاب للمرّة الأولى عندما كنت أعيش في البرازيل من حوالي عشر سنوات خَلت، وبشكلٍ أدقّ في اليوم الذي زرت فيه متحفاً صغيراً في وسط مدينة ريو اسمه الباتشو ريال. هذا البناء الذي يعود إلى العصر الكولونيالي البرتغالي يكاد يختنق اليوم وسط

طرقات السفر السريع وناطحات السحاب، ولا بدّ من القيام بجهدٍ خاصٍّ من أجل تخيّله في بيئته الأصليّة، ولمساعدة الفكر على عزله عن سياقه في مدينة ريو المعاصرة، عَرَضَ المتحف لوحاتٍ تصويريّةً كبيرةً تمثّل الخليج في فترة اكتشافه. في هذه اللوحات نرى المستنقعات اللامعة التي كانت تطير فيها طيورٌ مائيّةٌ طويلات الساق عوضاً عن كتل «الخرسانة» في كوباكابانا، في حين تمتدّ الأدغال البرّيّة على الشاطىء عوضاً عن المساكن العشوائيّة. في تلك اللوحات التي تمثّل خليج ريو، ما كان يمكن التعرّف سوى إلى التضاريس المشهورة، ومن بينها خبز السّكّر، التي هي ما تبقّى من حياته البريّة كلّه.

لمْ أستطع مقاومة جاذبيّة هذا التصوير الشعريّ لتلك اللحظات الأولى. تعرّفت فيها إلى الثيمة التي كانت تسيطر على تفكيري، وهي اللقاء الأوّل ما بين حضاراتٍ مختلفةٍ، ولحظة الاكتشاف التي تحتوي على بذرة ما سيتولّد لاحقاً من شغفٍ، وأيضاً من سوء فَهْم. تنبثق من هذه اللحظة العابرة والفريدة مشاعر خاصّة، فمع أنّها تتعلّق بمجتمعاتٍ كاملةٍ، إلّا أنّها تشبه الدفْق العشقيّ الذي يمكن أنْ يتملّك كائنين اثنين في اللحظة التي يلتقيان فيها للمرّة الأولى.

من المؤسف أنّ تلك اللحظات المؤسّسة، وفي أوروبا خاصّةً، قد دُفنت تحت مشيّدات التاريخ وتحت أطلاله، ونادرة هي الأماكن التي نراها ما تزال تتبدّى فيها. تلك هي حال أثيوبيا، البلد الذي شدّني على مدى كتابين. تلك هي أيضاً حال آسيا الوسطى حيث لم يستطع التقاء الحضارات على ما يبدو أن يشيّد شيئاً له طابع الاستمراريّة، ولا أن يتجدّد بانتظامٍ تحت مظاهر جديدة، لكنْ ما من مكانٍ آخر سوى أمريكا اللاتينيّة يمكن أنْ نجد فيه حين نتأمّل المناظر الساحليّة آثار تلك اللحظة الدراميّة القريبة الحيّة،

التي تجعلنا نكاد نرى المراكب وهي ترسو على الشاطىء واضعةً حضارةً كاملةً في تداخلٍ مع حضارةٍ أُخرى. في حالة أمريكا الوسطى والأنديز، أدّى هذا التماس إلى مجابهةٍ دمويّةٍ بين مجتمعاتٍ متبلورةٍ ومعقّدة، بل ومتشابهةٍ في بعض الملامح؛ أمّا في البرازيل، فلمْ يحصل شيءٌ من هذا؛ فقد كان العالم الهنديّ فيها مبعثراً، وبائداً، وضعيفاً، وحين نزل الغربيّون على سواحلها، تمّ ذلك داخل ما يمكن أنْ يبدو طبيعةً عذراء تماماً. ذلك كان التوجّه الذي انطلقتُ منه في البداية متوقّعاً أنْ أكتشف ما يشبه الباب الموصد الذي انغلق على مجتمعنا، فلمْ يجد شيئاً آخر سوى ذاته داخل ذلك الفراغ الذي تمثّله الأراضي الجديدة.

لكنْ مع تقدّم الأبحاث التي قمت بها، سرعان ما تبدّى هذا الفراغ ممتلئاً بالأحداث. كنت قد اعتقدتُ وخشيتُ أن تكون حالة الانعزال هذه جامدةً، وفقيرةً بالأحداث، ويسيطر عليها الخوف والشكّ، لكنّني على العكس اكتشفت ما في تلك المرحلة التاريخيّة من غنى؛ فالشخصيّات كلّها التي تملؤها بطوليّة وروائيّة تضجّ بالحياة، تلك الحياة الخاصّة بالقرن السادس عشر بما فيه من حريّةٍ، وفتنةٍ، وفرادةٍ، وهكذا فإنّ ما كان يمكن أن يبدو كأنّه مغامرةٌ بعيدةٌ منقطعةٌ عن بقيّة العالم سرعان ما تبدّى لي امتداداً ما وراء البحار للتحدّيات التاريخيّة الأساسيّة. لقد كانت محاولة استعمار البرازيل، في تداخلها مع التنافس داخل القارّة بين فرنسا وبين الإمبراطوريّة بمنزلة بروفة عامّة لما ستكون عليه الحروب الدينيّة، وقد صارت بفضل كتابات مونتين أساساً للأفكار الفلسفيّة التي درجت لاحقاً حول مفهوم المتوحّش الطيّب، والعودة إلى حالة الطبيعة.

ثمّ وجدتُ بعد ذلك كثيراً من النصوص، فالنسيان الذي هَيمن على تلك المرحلة التاريخيّة يتأتّى من رفض تغذية الذاكرة، وليس من غياب الوثائق.

هناك العديد من النصوص المعاصرة المتوفّرة، ومنها ما كُتب باكراً بقلم الشخصيّات الرئيسة في تلك الأحداث نفسها، وأُعيد نشره في عصرنا. من بين الأعمال ذات العلاقة المباشرة بالحدث، نذكر مؤلّفين مهمَّيْن: «الرحلة التي تمت إلى أرض البرازيل»[I] (1578) بقلم جان دو ليري، وهو أحد البروتستانتيّين الذين كانوا في حملة فيلوغانيون، و«الأشياء الفريدة في فرنسا الأنتاركتيكية، ويطلق عليها أيضاً اسم أمريكا»[II] (1557) لمؤلّفها أندريه تيفيه، وهو الكوزموغرافيّ المرافق لهنري الثاني، وكذلك كتابه «الكوزموغرافية الكونيّة»[III] (1575). يمكن أن نضيف إلى ذلك شهاداتٍ غير مباشرةٍ، مثل: شهادة هانس ستادين، وهو سجينٌ طال بقاؤه لدى الهنود من أكلة لحوم البشر، واستطاع أن يهرب منهم، وحملت شهادته عنوان «عُراة، متوحّشون، وأكلة لحوم بشر»[IV] (1557)، لكنْ إضافةً إلى تلك المصادر التي يمكن أن نجدها بسهولةٍ، هناك بحرٌ من الأعمال المكتوبة في تلك الفترة موجودة في المستودعات القديمة، من ضمنها المذكّرات العديدة، ورسائل الهجاء التي كتبها فيلوغانيون نفسه، والتفنيد الذي كتبه القسّيس ريشير، (وعنوانه في حدّ ذاته يوحي بالجوّ العامّ لتلك الفترة: «دحض الأحلام المجنونة والتجديف المقزّز والأغلاط والأكاذيب التي

(I) إعادة نشر المكتبة الكلاسيكية ليفر دو بوش. نص وضعه فرانك ليسترينيان، وتسبقه مقابلة مع كلود ليفي شتراوس، 1994.

(II) إعادة نشر شانديني، 1997. النسخة الكاملة وضعها وقدم لها وكتب حواشيها فرانك ليسترينيان.

(III) مقتطفات أعيد نشرها في كتاب :الفرنسيون في أمريكا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، الجزء الأول، «البرازيل والبرازيليون» بقلم أ. تيفيه، مختارات من النصوص وملاحظات بقلم سوزان لوسانييه. مقدمة بقلم ك. أ جوليان، المنشورات الجامعية في فرنسا، 1953.

(IV) إعادة نشر ميتالييه، 1979، مقدمة بقلم ج. ب دوفيول ومارك بويه.

أشاعها نيكولاس دوران المسمّى فيلوغانيون»). وهناك رسائل اليسوعيّين البرتغاليّين.

إضافةً إلى هذه الأدبيّات، هناك العديد من الدراسات التاريخيّة والأنتروبولوجيّة الحديثة، أذكر منها: في القرن التاسع عشر كتاب «فيلوغانيون» لآرثور هولهارد، ومؤلّفات ش.أ جوليان حول استعمار الأمريكيّتين، وكذلك منشورات معاصرة لجان بول دوفيول[I] وفيليب بونيشون[II]؛ أمّا جان ماري توراتييه[III]، فقد تجاوز من جهته حدود المُتخيّل في روايته الجميلة «خشب أحمر»، مع بقائه قريباً جدّاً من المصادر التاريخيّة والإثنوغرافيّة (وخاصّةً فيما يتعلّق بالحواريّات المكتوبة بلغة التوبي).

لا بدّ أيضاً من أنْ نفرد منزلةً خاصّةً للأعمال ذات القيمة الاستثنائيّة التي كتبها المؤرّخ الفرنسيّ فرانك ليسترينيان، التي تقع في النقطة التي يتقاطع فيها ما هو أدبيٌّ مع ما هو تاريخيّ، فقد وضع هذا المؤلّف المختصّ بأدب القرن السادس عشر معرفته المتميّزة في خدمة هذا الموضوع الصعب جدّاً، وهو المعركة الدينيّة في العالم الجديد. هناك أيضاً «الهوغونوت والمتوحّش»، و«أمريكا والنزاع الكولونيالي في فرنسا خلال زمن الحروب الدينيّة»[IV]، و«رعب مقدّس، أو رحلة في الأوخارستيه، القرن السادس عشر - القرن الثامن عشر»[V]، و«آكل لحم البشر، عظمة وانحطاط»[VI]، وكلّها نصوصٌ ضروريّةٌ جدّاً لمن يريد أن يستوعب الفكر

(I) منشورات بورداس، 1978.

(II) منشورات فرانس-امبير 1994.

(III) كذلك جيبير باستور، خادم بالصدفة، رواية، باللان، 1991.

(IV) لمحبي الكتب، ديف. كلنكسشيك،1990

(V) المنشورات الجامعية في فرنسا، 1996.

(VI) منشورات بيران، 1994.

المعقّد والخصْب لذلك العصر. في هذه الكتب يقوم ليسترينيان بالمقاربة والمقارنة، كما أنّه يقدّم شروحاته بطريقةٍ واضحةٍ ومجدّدةٍ للغاية، وبفضله اكتسبت شخصيّة فيلوغانيون تعقيدها وصحّتها، فعوضاً عن أن يكون كما تصوّره أدبيّات المعارك المكتوبة في كِلا المعسكرين إمّا بروتستانتيّاً كافراً، وإمّا ضحيّةً للهوغونوت، صار فيلوغانيون ذلك الشخص «الذي يمسك بالخيوط»، والذي كان الإصلاح الدينيّ بالنسبة إليه في البداية مثالاً قريباً من فلسفة الإنسانيّين، ونزعةً ترمي للعودة إلى الإيمان البسيط كما كان في الأصل؛ وفي داخله ستحدث تلك القطيعة التي ستكسر فيما بعد فرنسا بأكملها والقرن كلّه، وتخلق مجابهةً تصل إلى حدّ الموت بين معسكرين دينيّين لا يمكن أنْ يتصالحا، وأريد أن أُشير هنا إلى أنّ فرانك ليسترينيان قد أضاف إلى سعادتي بفهْم ما جرى استمتاعي بقراءة ما كتب، فعلى الرغم من التزامه بالدقّة المنهجيّة للكتابة العلميّة، فإنّ مؤلّفاته جميعها قد كُتبت بطريقةٍ رائعة.

إنّ مثل هذه الغزارة في الأعمال المكرّسة لتلك المواضيع قد أثارت في نفسي مشاعر مزدوجة هي خليطٌ من الشلل والإحباط. إحباط لأنّه ولا واحدة من تلك المقاربات على أهمّيّتها قد توافقت مع الصورة الخياليّة التي كوّنتها عن تلك الأحداث؛ ولا واحدة منها حقّقت رغبتي في أن أروي تلك القصّة على طريقتي، وبشكلٍ يعكس حياتي الخاصّة، وأفكاري، وأحلامي، وينسج العلاقات الضروريّة بين تلك القصّة وبين العصر الحالي؛ أمّا الشعور بالشلل، فتولّد من ذلك التدافع بين الأحداث، والأبطال، والمؤلّفات الذي سرعان ما حمل إليّ من الضيق أكثر ما حمله من الراحة، فما هو بالنسبة إلى المؤرّخ غاية – أي وصف الوقائع – ليس بالنسبة إلى الروائيّ سوى بداية، فهو يجب أن ينتقل من الموضوع إلى

الحبكة، ومن الأحداث الإجماليّة إلى الأفعال الخاصّة، ولتحقيق ذلك يجب أن يتوفّر له الهواء والفضاء؛ أي: ما هو مجهول، ويجب أن يتحقّق لديه خاصّةَ الانفعال.

في هذه القصّة التي تهيمن عليها السياسة، والمغامرة، واللاهوت، والتي يملؤها المحاربون، والمتعصّبون، والمهرّبون، يئست من أنْ أكتشف تلك الرعشة التي تنجم عن شيءٍ مؤثّرٍ، وقد احتفظتُ بتلك القصّة في داخلي لفترةٍ طويلة. يجب أنْ نفرض على أنفسنا دائماً هذه الطريقة في الهضْم التي تؤدّي لاحقاً إلى رؤيةٍ واضحةٍ، فبعد ذلك الصيام الذي دام عدّة سنوات، إذْ بي أقع في أحد الأيّام، وأنا أفتح كتاباً للكاتب ليري على هذين السطرين: «في الباخرة الثانية التي كانت تُدعى روزيه على اسم قائدها، كان هناك ستة صِبْيةٍ أخذناهم معنا من أجل أن يتعلّموا لغة المتوحّشين».

هؤلاء الأطفال الستّة الذين انتُزعوا من الميتم من أجل أن يخدموا بصفتهم مترجمين وسْط القبائل الهنديّة جعلوني أترك -فجأةً- فضاء التاريخ المعقّم، والأمور المجرّدة كلّها التي توحي بها السياسة والدين. معهم جاءت الحياة، حياتهم طبعاً، ولكنْ أيضا حياتي وحياة كلّ كائنٍ إنساني. ما هي إذنْ تلك الدراما الفظيعة التي تنهي دائماً مرحلة الطفولة إنْ لم تكن ذلك الإبحار القسريّ نحو عالمٍ مرعبٍ يَفرض على الأطفال أنْ يتعلّموا لغته؟

هكذا ولد جوست وكولومب، ومعهما ولدت «البرازيل الحمراء».

أمّا كنيتهما، كلامورغان، فقد أوحت إليّ بها إيمانويل دو بويسون التي أشكرها؛ فقد تكلّمت في كتابها «الكاردينال والهندوسيّة» عن تلك العائلة النبيلة التي جسّدتها بشخصيّة مادلين كلامورغان التي حملت بالزواج اسم دانييلو، وهي جدّتها، ومؤسّسة مدارس سانت ماري. لا علاقة بالطبع بين

هذه العائلة وبين الأحداث المرويّة في هذه القصّة، لكنّني شعرت بأنّ ذلك الاسْم الجميل والنادر اليوم في فرنسا يثير القوّة الكامنة كلّها في تقاليد العائلات التي تميّزت منذ القرون الوسطى، والتي انطلقت بكلّ شغفٍ للمشاركة في حروب إيطاليا، وآثار تلك العائلات تظهر، ثمّ تضيع في أحداث تأسيس مجتمعات العالم الجديد.

في النهاية أريد أن أشيد بالقراءة الدقيقة، والنصائح التي قدّمها إليّ ابني موريس، ومدام بول لابيير، وجان ماري ميلو، وويلارد وود، وهو الذي قام بترجمة روايتي «الحبشي» إلى اللغة الانجليزيّة.

ج. ك. روفان



جان كريستوف روفان

ولد في 28 يونيو عام 1952 في بورج في مقاطعة شير. هو طبيبٌ، ومؤرّخٌ، وكاتبٌ، ودبلوماسيّ فرنسي. وعينته فرنسا سفيراً لها في السنغال وغامبيا. عمل لأكثر من عشرين عاماً في الحقل الإنساني لصالح المنظمات غير الحكومية في نيكاراغوا، وأفغانستان، والفلبين، ورواندا، والبلقان، وترأس منظمة ACF، «العمل ضد الجوع». وقد تناول الكاتب بالدراسة من خلال تجربته على الأرض، دور المنظمات غير الحكومية في حالات الصراع، وخصوصاً في دراسته الأولى، «الفخ الإنساني» (1986)، وهي مقالة عن التحديات السياسية التي تواجه العمل الإنساني، ومفارقات الحركات «بلا حدود»، والتي من خلال مساعدة الشعوب، تقوم بتوطيد أركان لعبة الحكام المستبدين. وأيضاً في الرواية الثالثة، الأسباب المفقودة (1999). تدور كتاباته حول أدب المغامرة والرواية التاريخية والسياسية، ويمكن تشبيهها بأدب الرحلات، معظم أحداثها من التاريخ، وله كذلك روايات استشرافية. حاز جان كريستوف روفان على العديد من الجوائز عن أعماله الأدبية، ففازت روايته الأولى «الحبشي» بجائزة غونكور للرواية الأولى عام 1997، كما حصلت روايته «البرازيل الحمراء» عام 2001 على جائزة غونكور أيضاً، وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية في 19 يونيو 2008 ليصبح أصغر الأعضاء فيها سناً. حازت رواية الطوق الأحمر على جائزتين: الأولى جائزة الأطباء عام 2014، وجائزة موريس جنيفوا لمدينة غارش في العام نفسه.

حنان قصّاب حسن

أستاذة جامعيّة، وفاعلة ثقافيّة، ومُترجِمة، إلى جانب تدريسها المسرح في جامعة دمشق، وجامعة القدّيس يوسُف ببيروت، حيث أشرفت على عددٍ من رسائل الماجستير وأُطروحات الدّكتوراه.

أدارت حنان قصّاب حسن احتفاليّة دمشق عاصمة الثّقافة العربيّة لعام 2008، وشغلتْ منصب عميد المعهد العالي للفنون المسرحيّة بدمشق، والمدير العامّ لدار الأوبرا بدمشق، إضافةً إلى ذلك، كانت عضواً في مؤسّساتٍ ثقافيّةٍ عالميّةٍ، مثل: المجلس الثّقافي للاتّحاد من أجل المتوسّط بباريس، ومؤسّسة روبرتو شيميتا لدَعم تجوال الفنّانين في منطقة المتوسّط، والمركز العربيّ للتّدريب المسرحيّ، والصّندوق العربيّ لشباب المسرح العربيّ، وغيرها.

عملتْ مع اليونسكو بصفتها خبيرةً خارجيّةً، وعضواً في لِجان تقييم مشاريعَ ثقافيّةٍ.

أخرجتْ مسرحيّتين، وأدارت ورشات عملٍ حول سيميولوجيا المسرح والفنون في كثيرٍ من المؤسّسات الثّقافيّة والمهرجانات.

لها مؤلّفاتٌ في المسرح، أهمّها: المُعجم المسرحيّ، مُصطلحات ومفاهيم المسرح، وفنون العرض (بالمشاركة)، كما أنّ لها عدداً كبيراً من التّرجمات لأبحاثٍ ودراساتٍ ثقافيّةٍ، ومسرحيّات لجان جينيه، وكولتيس، وبيكيت، وسعد الله ونّوس.

حصلت على ثلاثة أوسمةٍ ثقافيّةٍ من فرنسا، وخُصّص لها مُدخلٌ في مُعجم النّساء المبدعات الصّادر في فرنسا.



إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع



أكثر ما يدهش في هذه القصّة هو أنّها حقيقيّة! ليس بسبب غرابة أحداثها فقط، فعصر النهضة غنيٌّ بمغامراتٍ عجائبيّة، لكنّ سبب غرابتها هو النسيان شبه التام لها.

يُخدع الطفلان اليتيمان: جوست وكولمب؛ للمشاركة في مهمّةٍ استعماريّةٍ لاستشكاف العالم الجديد على أنّها الأمل الوحيد لهما في لقاء والدهما الفارس المختفي. يقود هذه الحملة المنسيّة فيلوغانيون المحارب العائد من الحروب الصليبيّة، جامعاً معه فريقاً متنوّعاً من جنودٍ، وعمّالٍ، ومهندسين، إضافةً إلى عنصرٍ غير مسبوقٍ؛ أطفال في عُمر اليتيمَيْن، العُمر الذي يُتيح لهم تعلّم لغاتٍ جديدةٍ بسرعةٍ كافيةٍ؛ ليعملوا مترجمين مع السكّان الأصليّين.

عن إحدى أكثر الحملات الفرنسيّة غموضاً وإثارةً في عصر النهضة، وعبْر قصّة اليتيمَيْن الباحثَيْن عن الأمل والصراعات الإنسانيّة التي يخوضانها، يأخذنا روفان في كتابه الحائز جائزة غونكور في رحلةٍ تاريخيّةٍ آسرةٍ من شواطئ فرنسا بداية عهد الاضطّرابات الدينيّة إلى البرازيل بأخشابها الحمراء؛ ليصف لنا صراع الإنسان مع الطبيعة، واللّقاء الأوّل بين الحضارات المختلفة، بما يحمله من فضولٍ، وخوفٍ، وإعجابٍ، وشغف.

CNL CENTRE NATIONAL DU LIVRE




دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع


ISBN 978-9933-540-60-9